الطغراء والأختام السلطانية

وعلاقتها بإشكالية السيادة بين المغرب السعدي وتركيا العثمانية



طغراء السلطان العثماني أحمد الأول (1012 - 1026هـ/1603 - 1617م)

دراسة تاريخية فنية، وتشريح علمي تعليمي

طغراء السلطان السعدي أبي المعالي زيدان (1012 - 1037هـ/1603 - 1628م)



د. محمد عبد الحفيظ خبطة الحسني



مطبوعات أمنية الأنصاري - فاس
الطبعة الأولى: 2013

أهدي هذا الكتاب لطلبة العلم
ولا نسألكم إلا الدعاء

د. محمد عبد الحفيظ خبطة الحسني

الطغراء والأختام السلطانية

وعلاقتها بإشكالية السيادة
بين المغرب السعدي وتركيا العثمانية

دراسة تاريخية - فنية، وتشريح علمي - تعليمي



مطبوعات أمنية الأنصاري - فاس
جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى: 2013



طبع هذا الكتاب بدعم من الأستاذة المربية الفاضلة
أمينة الأنصاري حفظها الله وجعله في ميزان حسناتها



ملاحظة: لوحات الكتاب من عمل وتصميم المؤلف

الكتاب : الطغراء والأختام السلطانية، وعلاقتها بإشكالية السيادة بين المغرب السعدي وتركيا العثمانية. دراسة تاريخية - فنية، وتشريح علمي - تعليمي

المؤلف : محمد عبد الحفيظ خبطة الحسني

الغلاف: من تصميم المؤلف

الحقوق: جميع الحقوق محفوظة للمؤلف وورثته / نسخة منقحة

الإيداع القانوني : 2013MO4032

ردمك : 978 - 9954 - 32 - 949 - 8

الطبع: مطبوعات أمينة الأنصاري ـ فاس

الهاتف: 0675803768 - 0671641126

البريد الإلكتروني: ka3kiiii@gmail.com

الطبعة الأولى : 2013

العمـل مهـدى إلـى ذوي رحمـي من الأنصـار

خـالي الشـيخ عمـر الأنصـاري رحمـه الله

ابن خـالي الدكتور فريد الأنصاري رحمه الله

خـالتي وجـدّة أبنـائي فاطمـة الأنصـاري

خـالي العربـي الأنصـاري

و واسطـة العقـد:

أمـي أمينـة الأنصـاري



المغزى والأختام السلطانية

وعلاقتها بإشكالية السيادة
بين المغرب السعدي وتركيا العثمانية

دراسة تاريخية - فنية، وتشريح علمي - تعليمي

مقـــــدمـــــة

1 - الإشكاليـــة:

يُعدّ عصر "**الدولة السعدية**" أو "**الدولة الزيدانية**"[1] في المغرب؛ فاتحة للعصر الحديث الذي بدأت مراحله الأولى مع الدولة الوطاسية، وذلك تبعا لما هو معمول به في التحقيب العام للتاريخ الإنساني. فهو عصر الأحداث المتسارعة، والتحولات السياسية الكبرى التي واكبها انتقال مركز الثقل إلى العالم المسيحي في الشق الغربي لحوض البحر الأبيض المتوسط، وذلك بعد القضاء على إمارة "بني الأحمر" في غرناطة من طرف الإيبيريين، وبالتالي سقوط الأندلس نهائيا سنة: **897**هـ/**1492**م. بالمقابل؛ تزامنت الإرهاصات الأولى لهذا الحدث الأليم، مع ظهور أكبر إمبراطورية في تاريخ العالم الإسلامي في الشق الشرقي للحوض نفسه، ألا وهي: الإمبراطورية العثمانية التي استطاعت أن تفتح القسطنطينية (المدينة العصيّة على المسلمين طيلة عدة قرون) سنة: **857**هـ/**1453**م، وذلك قبل سقوط الأندلس بما ينيف على الأربعين سنة، حيث كانت هذه الدولة تُبيّت النية لبسط نفوذها على بلاد المغرب من أجل تحقيق المعادلة الصعبة، المتمثلة في إخضاع بلاد المغرب للخلافة الأم بالمشرق، ومن ثم تمهيد أمر العبور نحو الضفة الشمالية - على غرار المرابطين والموحدين - لاسترجاع الفردوس المفقود وافتكاكه من أيدي الإيبيريين.

أمام هذا الوضع كان المغرب بين فكي الكماشة: القوى المسيحية في الشمال، والأتراك في الحدود الشرقية المتاخمة (الجزائر)، الشيء الذي سيفرض على السعديين القيام بتحسين علاقاتهم مع القوتين المذكورتين دون اللجوء إلى سياسة التنازل أو الانبطاح، وما كان ليتم هذا الأمر إلا عن طريق المكاتبات والمراسلات الرسمية، لذلك فليس غريبا أن يكون العصر السعدي؛ هو عصر الوثائق والمناشير والمراسيم الديوانية التي كانت تُختم عادة بتلك العلامات السلطانية ذات البعد السيادي. من هذا المنطلق بالذات؛ كان لزاما علينا القيام بدراسة هذا العنصر الفني (الذي اصطُلح على تسميته في المشرق منذ عصر

---

[1] - عُرفت الدولة السعدية في المصادر المغربية والوثائق الرسمية بـ: "**الدولة الزيدانية**"، كما عُرف سلاطينها بـ: "**ملوك بني زيدان**"، أما تسميتهم بالسعديين، فلم تُعرف إلا بعد قيام الدولة العلوية التي أتت على كل ما يتعلق بهم بُغية طمس آثارهم، وإشاحة نظر الناس عن شرفهم الذي تم الطعن في صحته، بعد إلحاق نسبهم بقبيلة بني سعد بن بكر بن هوازن، وهي القبيلة التي تنتسب إليها حليمة السّعدية؛ مرضعة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

عن تسمية هذه الدولة وسلاطينها؛ راجع:

- كنون (عبد الله)، رسائل سعدية، نشر معهد مولاي الحسن - دار الطباعة المغربية، تطوان، **1954**م، صفحة: **78**. وصفحة: **109**.

الدولة السلجوقية بـ: **الطغراء**) دراسة تاريخية - فنية؛ فرضتها طبيعة المرحلة التي كان يعيشها المغرب إبّان الحُكم السعدي.

وإثر تركيزنا على دراسة هذا العنصر الفني في المغرب تحديدا، آثرنا أن نطلق عليه خلال عصر: المرابطين والموحدين ثم المرينيين، تسمية: التوقيع أوالعلاَمة، لكننا في العصر الوطاسي ارتأينا أن نطلق عليه، تسمية: التوقيع الطغرائي، لأن ظهوره في هذه الدولة، تزامن مع ظهوره عند العثمانيين رسما ووظيفة، إلا أن رسمه في العصر الوطاسي لم يكن "طُغْراءً" بالمعنى الفني الذي كان عليه لدى العثمانيين، ولكنه كان توقيعا له بعض الملامح الطغرائية التي تتمثل أساسا في كثرة تقويساته المتداخلة، وتعريقاته الحلزونية. أما في العصر السعدي فلم نجد بُدّا من أن ننعت ذلك العنصر الفني: "بالطغراء"، لأن صورته الفنية في المغرب السعدي اكتملت بالقدر نفسه الذي اكتملت عليه في تركيا العثمانية التي ورثت ذلك عن السلاجقة.

وعلى العموم، فقد حاولنا أن نتناول الطغراء المغربية بتفصيل فني - علمي يخضع لمنطقي الاستقراء والاستكناه، كما يقوم على أساس المقارنة والمقاربة والاستدلال، وبالتالي تحديد موطن كل شاهد، لأن الشيء لا يعرف إلا من خلال نقيضه.. سيما وأننا لاحظنا أن معظم الخطاطين المغاربة لا يعرفون الشكل الفني للطغراء المغربية، حيث قد يلجأ بعضهم - وفي إطار الاجتهاد - إلى رسم طغراء مشرقية الشكل بخط مغربي. ورغم أن هذا المزج الفني محمود ومطلوب عند الخطاطين والتشكيليين، إلا أنه لا يخلو في الآن نفسه من تقليد يُعدّ عند النقاد والمؤرخين إسقاطا فنيا لامبرر له، يضاف إلى ذلك أن الاجتهاد وإن كان جائزا في كل العلوم والفنون - بما في ذلك العلوم الشرعية - إلا أنه ينبغي أن ينضبط بضوابطه، كما ينبغي أن يكون في حدود معلومة تنمّ عن قيام حججه، ثم استيفاء شروطه وانتفاء موانعه..

والحقيقة ان الطغراء المغربية لها شكلها الخاص، وهنا يكمن باب الاجتهاد المطلوب الذي نحث عليه، ونستنهض له همم الخطاطين والتشكيليين. وبمعنى آخر: ينبغي للخطاط/الفنان المغربي ويتعيّن عليه القيام بتطويع شكل الطغراء المغربية؛ لتستجيب لمقتضيات الخطوط المغربية في عصرنا الحالي، بدل أن يسقط طرازها أورسمها العثماني على الخطوط المغربية، خاصة إذا علمنا أن الدولة العلوية قد تخلت عن استعمال هذه العلاَمة السلطانية بمجرد ارتقائها إلى سدة الحكم نظرا لدلالتها الرمزية التي تُذكّر بسيادة الدولة السعدية وتمجّد ذكراها، وهو ما حال بينها وبين الارتقاء في مدارج التجويد والتحسين، مقابل تجويد الطغراء العثمانية التي استفادت من طول عمر هذه الدولة واستمرارها من بداية العصر الحديث إلى بداية تاريخنا المعاصر، حيث أوعز السلاطين العثمانيون لخطاطي دواوينهم الهمايونية بتطوير الشكل الهندسي للطغراء المستعملة في فرماناتهم ومراسيمهم ومناشيرهم والارتقاء ببنائها الهيكلي، في حين أن الطغراء المغربية لم تستفد من هذا التطور بسبب العامل الذي ذكرناه، والذي يتعلق بصعود العلويين للحكم في المغرب، مما ترتب عنه، بل وكان من أبرز تجلياته التخلي عن استعمالها في الوثائق الرسمية للدولة، لأن استعمالها كان سيعطي مفهوما متعددا للسيادة، والسيادة لا تقبل التعدد.

وللأمانة؛ فإن السلطان العلوي الوحيد، الذي استعمل الطغراء المغربية - السعدية وقام بتطويرها، هو السلطان (سيدي) محمد بن عبد الله الذي استخدمها بشكل محتشم في بعض نقوده التذكارية (انظر شكل: 116)، إلا أن ذلك الاستخدام لم يستمر، ومعه أُقبرت الطغراء السعدية - إن صح التعبير - وأصبحت أثرا بعد عين، إلى أن وُفِّقنا في بعثها من جديد، من خلال فكّ رموزها النصية، وتشريح عناصرها الفنية، بل ومقارنتها بالطغراء العثمانية من خلال الحرص على مبدأ التزامن التاريخي، كما سيلاحظه المتلقّي والقارئ من خلال هذا الكتاب.

فكتابنا المتواضع هذا، هو أول كتاب - حسب علمي - تناول "**الطغراء السعدية - المغربية**" تعريفا وتأصيلا وتشريحا بل وحتى مقارنة، كما أنه الأول في مقارنتها "**بالطغراء العثمانية - المشرقية**" المزامنة لها، وذلك حتى يتعرف عليها المشارقة، وإن كان معظم المغاربة من الخطاطين والباحثين لايعرفونها أصلا، وبقدر ما أردنا أن نجعل من هذا الكتاب مرجعا يرجع إليه "**الباحثون**" و"**المؤرخون**" في وثائق الدولة وتوقيعاتها وأختامها من حيث الجانب العلمي - التحليلي، بقدر ما أردنا أن نجعل منه كتابا أو بالأحرى: (كراسة) يستعين بها "**الخطاطون**" المبدعون في تطوير هذا الشكل من حيث الجانب التعليمي - المهاري، فهو إذن دراسة تاريخية - فنية. وتشريح علمي - تعليمي.

ومخطئ من يظن أن الطغراء المغربية - السعدية لا ترقى إلى مستوى الطغراء المشرقية - العثمانية فيما يتعلق بأبعادها الغرافيكية، وبنيتها الجمالية، وهنا نود أن نشير إلى أننا قد عثرنا على طغراء لأبي المعالي زيدان السعدي في وثيقة نادرة حصلنا على نسخة منها، فما كان منا إلا أن قمنا بمعالجتها، ثم إعادة إخراجها، فإذا هي درة من الدرر التي لم يجُد الزمان بمثلها في خطنا المغربي (انظر شكل: 198 وتفاصيله في الشكلين: 214 و215).

الأمر نفسه يمكن قوله عن محمد الأصغر السعدي ابن هذا السلطان، الذي وجدنا له خاتما طغرائيا استخرجناه من نسخة بالأبيض والأسود لإحدى مراسلاته فعالجناه، فإذا هو خاتم فريد لا يدانيه ولا يضاهيه أي خاتم آخر، إذ أنه لوحده درة جمعت بين الخط والتوريق والزخرفة والتشكيل (انظر شكل: 176 وتفصيله في الشكل: 177).

ولأن الطغراء المزخرفة لأبي المعالي زيدان السعدي، والخاتم البديع لمحمد الأصغر، هما أجود وأرقى ما يمثل الطغراء السعدية - بناء على ما تحصلت عليه - آثرت وضعهما في خلفية غلاف هذا الكتاب، لأنهما يعبران عن الشكل المثالي للطغراء المغربية، ولا شك أن خطاطينا المغاربة المعاصرين - عند الاعتماد على هذين الشكلين في إبداعاتهم - سيلمسون قيمتهما الجمالية. كما سيستلهمون منهما ما يفيدهم في تطوير الطغراء المغربية والرقي بها نحو أسمى مدارج الكمال.

وللإشارة، فإن دراسة الطغراء السعدية ومقارنتها بالطغراء العثمانية، هي في الأصل فصل من فصول أطروحتي لنيل الدكتوراه[2]، كما أنها بحث مفصل أمعنت في تنقيحه وتحقيقه لسنوات عدة من خلال ما توصلت إليه ووُفِّقت له والقصد من ذلك أن يكون هذا العمل بُغية للأكاديمي والمؤرخ، وحِلية للخطاط والفنان ويبقى البحث في هذا الصدد مفتوحا لإغناء رصيدنا التراثي الذي لا يزال بكرا لم يُنفض الغبار عن مكنوناته ودرره.

وباختصار، فهذا العمل يتناول عنصرا فنيا مبطّنا في مخطوطاتنا ووثائقنا المغربية التي بقيت للأسف الشديد حبيسة في مختلف الخزانات المغربية والعالمية لسنوات طويلة. والحقيقة أننا لم نأل جهدا في الحصول على بعضٍ من تلك الوثائق المشتتة في مختلف دور الأرشيفات العالمية والخزانات المغربية، وتتبعناها حذو القُذّة بالقُذّة، كما تجشمنا العناء - كل العناء - في تجميعها، متجاوزين بذلك البيروقراطيين والمرجفين من أعداء هذا التراث. فكان أول الغيث قطر وآخره فيض. ولله الحمد والمنة.

وحسب علمي، لا توجد كراسة في المشرق، بلْه أن تكون موجودة في المغرب حول الطغراء السلطانية، اللهم إلا إذا استثنينا بعض المقالات والمؤلفات القليلة التي تذكرها عرضا أو تتناولها بشكل يغلب عليه التسطيح[3]، سيما تلك المؤلفات التي تهتم بالوثائق ودلالاتها النصية، والتي يُعنى بها المؤرخون.. فالمؤرخون يهتمون بالوثائق ولا يركزون على جوانبها الفنية، حيث لا يسلطون الضوء - في معظم الأحيان - سوى على الجانب المرتبط بالقيمة الدلالية للوثيقة، والذي يتصل مباشرة بمعناها المفاهيمي أو مبناها اللغوي، أما الجانب الشكلي منها والذي يتعلق أساسا بالإخراج الفني للوثيقة خطّا وزخرفة وتذهيبا، فقد ظل شكليا عند المهتمين والباحثين - إسما على مسماه - حيث لم يولوه ما يستحقه من دراسة وتشريح. وذلك بالرغم من إمعان خطاطي الدواوين السلطانية في تجويده، أولائك الذين كان السلطان يختارهم ويكلفهم بتحرير جليل مكاتباته ومراسلاته بين يديه، ليُمضي عليها بتوقيعه الطغرائي أويختمها بخاتمه الآصفي على حد تعبير ابن خلدون[4]، والحال، أن السلاطين كانوا يولون عناية فائقة لهذه الوثائق والأختام والطغراوات التي كانت تُمهر بها؛ بالنظر إلى كونها تعبر عن قوة سلطانهم وترسخ سيادتهم، وكأنهم - بذلك - كانوا يرومون استرعاء انتباه المتلقي أو المرسَل إليه، وشدّ انتباهه إلى قوة

---

[2] - خبطة (محمد عبد الحفيظ)، المصاحف والكتب المخطوطة في المغرب خلال العصرين المريني والسعدي. مساهمة في دراسة أصناف الخط المغربي وأقلامه، أطروحة لنيل الدكتوراه، كلية الآداب - سايس. فاس: 2010 - 2011م، مبحث: "الطغراء. جذورها التاريخية وتطورها خلال العصر السعدي"، ج/2، صص. 492 - 567

[3] - للأمانة، نشير إلى أن المستشرق الفرنسي: "الكونت" هنري دو كاستر، قام بنشر مقال نادر حول "التوقيعات السعدية" في العدد الأول من مجلة هسبريس المغربية الصادر سنة: 1921م، حيث اهتم من خلاله بتفكيك بعض مكونات هذه العناصر تفكيكا نصيا دون أن يدرسها دراسة فنية تشريحية، ولم يقدم لنا توضيحات حول كيفية الكتابة ومسار القلم، بلْه أن يقدم لنا بعض التفسيرات الفنية التي من شأنها أن تُيَسر عملية استعوارها وسبر أسرارها. انظر

Henry de Castries, "Les signes de validation des chérifs saadiens", Hespéris, Rabat, 1921,TOM 1, fasc 3 p p 231 - 252

[4] - نسبة إلى آصف، كاتب النبي سليمان عليه السلام انظر

ابن خلدون (عبد الرحمن)، المقدمة، تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية 1988م، ص 327

الدولة واستعراض جلال خِططها السلطانية ومراسيمها الملوكية، بلسان الحال المتمثل في شكل الوثيقة وخاتمها، فضلا عن لسان المقال المتمثل في بنائها الإنشائي ومضمونها اللغوي..

لذلك فإننا لا نجد غضاضة في القول، بأنه ينبغي للباحثين أن يصبّوا تركيزهم على الجانب الجمالي للوثائق، والاستدلال من خلاله على سيادة الدولة ومناعتها، أو على الأقل، استغلاله لرصد مدى الإسهام الفني الذي قدمته الدواوين السلطانية في كل من المغرب السعدي وتركيا العثمانية.

الأمر نفسه ينطبق على الفنانين والخطاطين الذين يركزون على إنتاجاتهم الفنية ولا يلتفتون إلى تراث الأجداد، والأوْلى والأجدر أن يتم التركيز على ذلك التراث بالقدر الذي يمكّنهم من امتحاء أجمله وأنفسه، وبالتالي مساعدتهم على ضبط إبداعاتهم بضوابطها المعيارية، التي تخضع لنظرية التواتر والتراكم، فالسيرورة ثم التطور، كما تخضع للذهنية والتجارب الجماعية لمجتمع ما، في مادة فنية أومعرفية معينة، تتقاطع فيها مجموعة من الحقول المعرفية والحقب التاريخية تقاطعا دلاليا؛ يسمح بمعرفة الفروق والتباينات الموجودة بين دولة وأخرى، ومجال جغرافي وآخر.

وعليه، فقد حاولنا جاهدين من خلال هذا الكتاب أن نمد جسور التواصل بين الباحث – الناقد والخطاط – الفنان، وذلك حتى نتلافى مغبّة الوقوع في: نقد بدون إرهاف، وفن بدون روح أوهوية.

وقد انطلقنا في ذلك من دراستنا للطغراء السعدية كعنصر فني مستقل، دراسة فنية – تشريحية، ومقارنتها بالطغراء العثمانية، بعدما استخرجناها من بعض الشواهد المادية، وعلى رأسها الوثائق السلطانية في كل من المغرب وتركيا، حيث قمنا بسبر أغوارها، واستقصاء أسرارها، ومقابلتها وضبط تواريخها.. ودراسة القرائن والشواهد التاريخية والمادية المتعلقة بها، في نطاق رؤية نقدية كلية صريحة، وتصور فني واضح وشامل، لأن الحكم على الشيء فرع عن تصوره.. وخلصنا في النهاية إلى وضع بعض المعايير الجمالية والقوانين الهندسية للطغراء المغربية، التي ينبغي لكل خطاط أو فنان أن يسترشد بها في رسمه لهذا التوقيع السلطاني، والتّسامي والرقي به إلى مصاف التخصصات الأخرى التي أصبح البحث فيها منظما ومسؤولا، فأنا شخصيا يعزّ علي أن تنال الفنون التشكيلية اهتماما كبيرا من طرف بعض النقاد الذين رسموا لأنفسهم طريقا في بحرها الخضم، في حين أن الطغراء وهي أسمى مظاهر التشكيل (وبتحفظ)، لهي أولى منها بذلك، بالنظر لما تكتسيه من قوة تعبيرية، دفعت رائد المدرسة التكعيبية "بيكاسو" إلى الاعتراف بأن أبعد نقطة وصلها في فنه، وجد الفن الإسلامي، وتحديدا الخط العربي بشقيه: المشرقي والمغربي قد سبقه إليها..

وفي إطار حديثنا عن الطغراء السعدية التي تعد موطن الشاهد عندنا في هذه الدراسة، نشير إلى أن السعديين وبعد تحريرهم للثغور المغربية التي سقطت خلال العصر الوطاسي في أيدي الإيبيريين، سارعوا إلى تأسيس دولة مغربية قوية، استطاعت إلى – حد ما – الوقوف أمام تغلغل حركة **"الاكتشافات الجغرافية"** ذات الأهداف الاستعمارية، والتي نظمها الإيبيريون لتقسيم العالم بين إسبانيا والبرتغال خلال مستهل

العصر الحديث، ولا شك أن انتصار السعديين على البرتغاليين في معركة وادي المخازن الشهيرة (986هـ/1578م)، أعطى انطباعا صريحا بقوة المغرب واستماتته في حماية حدوده و تحصين ثغوره أمام سائر القوى العسكرية في "**البحر الأبيض المتوسط**"، بما في ذلك الإمبراطورية العثمانية التي كانت تروم بسط نفوذها على المغرب، للحصول على منفذ استراتيجي على "**المحيط الأطلسي**"، لكن حضور السعديين عسكريا ودبلوماسيا، حال بين العثمانيين وبين تحقيقهم لهذا المطلب المُلِحّ.

من خلال هذه القناعة بالذات، أبى السعديون إلا أن يرسموا "**طغراواتهم**" و"**أختامهم**" و"**توقيعاتهم**" الرسمية، بشكل مستقل من حيث الصورة الفنية والدلالة النصية عن الطغراء العثمانية، كتعبير ضمني عن ذلك الاستقلال الذي يرمز إلى "**سيادة**" دولتهم، وقوة سلطتها المركزية، خاصة وأن الطغراء كانت تُعدّ آنئذ ذلك التوقيع الرسمي للدولة، وتلك الشارة أو العلامة المميّزة، التي تُستفتح بها الرسائل والمكاتبات الرسمية بين السلاطين، فهي "**رمز السيادة**"؛ بحكم احتواء تلك الرسائل أو المكاتبات الموشّحة بها لقرارات السلطان، ومواقفه تجاه القوى السياسية الأخرى المزامنة لفترة حكمه، وذلك في إطار ما يمكن تسميته: "**بالعلاقات الدبلوماسية**". أما نقشها على المدافع أو "**الأنفاط**" كما كان يسميها السعديون، والوطاسيون من قبلهم[5]، فهو لا يُعبّر عن مفهوم "**السيادة**" فحسب، بل يتعداه ليعبر عن مفهوم "**التغلب**"، أو – على الأقل – الظهور بمظهر القوة والمنعة، بينما يُعبّر نقشها على النقود عن استقرار الدولة وقوتها الاقتصادية.

2 – دواعي تأليف الكتاب:

أشرف "**المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب**" (**l'IRRHM**)[6]، على تنظيم ندوة دولية بالرباط من 12 إلى 14 نونبر في سنة: 2009م تحت عنوان: "**المغارب والبحر الأبيض المتوسط الغربي في العصر العثماني**"، بعدما استغرق الإعداد لها أكثر من سنتين، وقد تمت استضافة "**مركز الأبحاث في التاريخ والفنون والثقافة الإسلامية باستانبول**" (**IRCICA**) لهذه الندوة، مُمثَّلا في بعض أعضائه الذين ساهموا في الكلمة الافتتاحية للندوة، حيث تناول مدير إرسيكا د. **خالد أرن** موضوع العلاقات العثمانية المغربية، وأشار من خلالها إلى أنه ينبغي "**إعادة النظر فيها وتقييمها من جديد في ضوء ما يكشف من الوثائق العثمانية**"[7]

[5] – سُميت بـ "**المدافع**"، كما سميت أيضا بـ "**الأنفاط**" خلال العصر الوطاسي، وهذا يستنتج – على سبيل المثال لا الحصر – من خلال فصل: "**ذكر حركة وادي العبيد**"، كما أورده صاحب عروسة المسائل، راجع

– الكراسي (أبو عبد الله محمد)، عروسة المسائل فيما لبني وطاس من الفضائل، المطبعة الملكية، الرباط، 1963م، صص 34 - 38

[6] – راجع مضمون المؤتمر الدولي: "**المغارب والبحر الأبيض المتوسط الغربي في العصر العثماني**"، نشرة "**المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب**" (**l'IRRHM**)، العدد الثالث، صفر1432هـ/ماير2011م، صص 6 18

[7] - الأرناؤوط (محمد)، وثائق عثمانية جديدة: هل كان المغرب تابعاً لاستانبول؟ صحيفة الحياة، العدد: 17032، السبت21 نونبر 2009م، ص 25

أما المؤرخ العراقي **فاضل بيات**، فقد ذهب إلى أبعد من ذلك حينما ذكر أنه جاء إلى هذه الندوة حاملاً وثائق عثمانية جديدة، تفنّد الرأي الشائع الذي يقول: "**إن المغرب هو البلد الوحيد الذي بقي خارج الحكم العثماني**"[8].

وكان من الطبيعي أن تثير هذه المداخلة حفيظة المؤرخين المغاربة وتستفزهم، سواء من المتخصصين أومن غير المتخصصين في تاريخ العلاقات المغربية - العثمانية. فقد وصفها الباحث المغربي **حسن اميلي** بأنها "**نظرة عوراء**" و"**قراءة للتاريخ من مصدر واحد**" داعياً إلى الأخذ بعين الاعتبار أيضاً المصادر المعاصرة الأخرى من إسبانية وبرتغالية وإنجليزية، وقد اعترف الأستاذ **مصطفى الشابي** بأنه لم يسمع حتى الآن ولم يعرف "**أن المغرب كان تابعاً للدولة العثمانية**"، رابطاً ذلك بالصراع بين القوى الكبرى آنذاك، والذي كانت طبيعته تدفع المغرب أحياناً إلى التقارب والتحالف مع الدولة العثمانية، بحكم تقاسم نفس العقيدة والدين، وتوافق الرؤى حول ضرورة الوقوف أمام أهداف الحركة الصليبية، ولكن "**من دون أن يصبح تابعاً للدولة العثمانية**"[9].

وقد تسبب الأخذ والرد حول أطروحة فاضل بيات، في التصعيد من حدة النقاش الذي كاد يخرج عن مساره الصحيح، لولا تدخل **محمد القبلي** مدير المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب، حيث قام بتهدئة الأجواء، وتمنى من المشاركين في الندوة عدم معالجة الأمور بتشنج وتعصب قد يحيلنا على إسقاط الماضي على الحاضر، مما يفرغ النقاش من محتواه، ويبتعد به عن المنهج العلمي الموضوعي الذي يُفترض فيه أن لايخضع للآراء المُسبقة والأحكام الجاهزة، مُركّزاً في ذلك على ضرورة تحديد **مفهوم التبعية** مابين شقها: الدنيوي - السياسي، وشقها الديني - الروحي الذي كان يقتضي بالضرورة تموقع الدولتين: العثمانية والسعدية في جبهة واحدة، وتحت لواء واحد هو الإسلام. وفي السياق نفسه تدخل

---

8 - انظر "المغارب والبحر الأبيض المتوسط العربي في العصر العثماني"، نشرة "المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب" (**l'IRRHM**)، العدد الثالث، صفر **1432**هـ/يناير**2011**م، ص. **10**

9 - سيطر هذا الموضوع على الجلسة الثانية للندوة "مغاربة وعثمانيون" سواء من خلال الورقتين الأوليين للباحثة المغربية نفيسة الذهبي، وللباحث في مركز الأبحاث فاضل بيات. ومع أن ورقة نفيسة الذهبي اعتمدت أساساً على الوثائق العثمانية التي نشرها بيات في كتابه "الدولة العثمانية في المجال العربي"، التي توحي بوجود تبعية مغربية للدولة العثمانية، إلّا أنها حاولت أن تخفف من الوجود العثماني في المغرب، فالتدخل العثماني الذي حصل في المغرب لم يصل في رأيها إلى حد إلحاق المغرب بالدولة العثمانية، كما أن الحكام السعديين الجدد للمغرب وصلوا إلى الحكم كمجاهدين، ولذلك كان من الطبيعي أن يستنجدوا حين الحاجة بقوة إسلامية كبرى مثل الدولة العثمانية.

ويوضح بيات هنا من أن الخلاف بين الإخوة السعديين عبد الله الغالب (الحاكم)، وعبد المؤمن، وعبد الملك، هو الذي قاد إلى التدخل العثماني في المغرب. فقد لجأ الأخوان. عبد المؤمن وعبد الملك إلى استانبول، وطلبا من السلطان سليمان القانوني دعمهما مقابل إطلاق يد الدولة العثمانية في المغرب، إلا أن السلطان رفض ذلك ودعا إلى المصالحة بينهما. وبعد علم السلطان عبد الله الغالب بهذا التوافق بين أخويه وسلطان العثمانيين، قام بقتل أخيه عبد المؤمن، وهو ما أزعج استانبول، لكن ما سيفجر الوضع بعد ذلك؛ هو تحالف الحاكم الجديد: محمد المتوكل مع إسبانيا، مما دفع استانبول إلى الطلب من والي الجزائر العثماني رمضان باشا بتجهيز حملة عسكرية إلى فاس (المغرب) لدعم الأمير عبد الملك المُطالب بالحكم، وهو ما تم بالفعل في سنة **983**هـ/**1575**م. وبالاستناد إلى مالديه من وثائق وصل فاضل بيات إلى حد القول انه ابتداء من حكم عبد الله الغالب كانت "**الدولة العثمانية تتصرف وكأن المغرب تابع لها**"، إذ بين أن الدولة العثمانية كانت تتعامل مع السعديين كما تتعامل مع الحفصيين في تونس والأشراف في مكة. انظـــر: - محمد الأرناؤوط، وثائق عثمانية جديدة: هل كان المغرب تابعاً لاستانبول؟ مقال سابق، ص **25**

راجع أيضا "المغارب والبحر الأبيض المتوسط الغربي في العصر العثماني"، ص **10**

الباحث المغربي **جعفر السلمي** مميزاً بين الهدايا التي كان يرسلها حكام المغرب للسلطان العثماني وبين الإتاوات، رافضاً وجود أي ارتباط مغربي بالدولة العثمانية، حيث إنه "**لم يكن يوجد بالمغرب لا راية عثمانية ولا عملة عثمانية**"[10].

أما المؤرخ عبد الهادي التازي، صاحب "**التاريخ الدبلوماسي للمغرب**"، فقد رد بدوره أطروحة المؤرخ العراقي، وقال إن العثمانيين كانوا دائما يتطلعون إلى أن يجدوا لهم منفذا على المحيط الأطلسي انطلاقا من الجزائر، وهو الحلم الذي لم يساعدهم المغرب في تحقيقه، إذ ظل متشبثا بسيادته ووحدته الترابية. وأكد التازي أنه وبالرجوع إلى الصفحات التي كتبت عن المغرب في جميع الموسوعات العالمية نجد العبارة التي تقول بأن الإمبراطورية العثمانية بسطت نفوذها على جميع الإيالات الإفريقية، مثل مصر وتونس والجزائر وليبيا باستثناء المغرب، وأرجع التازي ما أسماه بالاستثناء المغربي إلى عنصرين أساسيين: الأول يخص "**القوة العسكرية**" التي كانت الدولة المغربية تتمتع بها طيلة مراحل التاريخ، والثاني يتعلق بشيء أهم، يشكل مقومات أية دولة مستقلة، وهو "**العملة النقدية**"، إذ أن المغرب ظل منذ ما قبل الإسلام إلى ما بعده محافظا على عملته الوطنية التي تحمل أسماء الملوك الذين حكموا البلاد، بل وحتى "**الشعارات**" التي كانت الدولة تكتبها على وجه عملاتها النقدية. وقال التازي إن العثمانيين لم يمكثوا في المغرب، وتحديدا في مدينة فاس، سوى أربعة أيام فقط أو أقل، قبل أن يخرجوا منها يجرّون وراءهم أذيال الخيبة والهزيمة [11].

ونحن من جهتنا أبينا إلا أن ندحض رأي د. فاضل بيات - مع احترامنا لشخصه الكريم - بسؤال واحد يُطرح بديهة، نقول فيه على سبيل الجدل والافتراض؛ هبْ أن المغرب كان تابعا للعثمانيين، أين اختفى إذن "**داي**" أو "**باي**" المغرب الذي لم يرِد له ذكر لا في المصادر المغربية ولا حتى في المصادر العثمانية. في حين أن الجزائر وتونس، وهما أقرب ولايتين إلى المغرب، كانتا تابعتين للعثمانيين - إلى عهد قريب - حيث كان يحكمهما "**دايات**" و"**بايات**"[12] باسم السلطان العثماني. سؤال أبلغ من جواب!!

وبالرغم مما قيل حول تفنيد هذا الادعاء، تبقى الردود التي ارتبطت به ردودا قاصرة عن بلوغ المرام، لأنها تفتقر إلى الشواهد المادية الملموسة، وعليه، نشير إلى أنه كان ينبغي أن نردّ هذا الرأي وندحضه بمجموعة من الشهادات المصدرية، التي لن تكون قوية إلا إذا عُزّزت بشواهد مادية لاتقبل

---

[10] - محمد الأرناؤوط، وثائق عثمانية جديدة. هل كان المغرب تابعاً لاستانبول؟ مقال سابق، ص: 25

[11] - نجيم (عبد الإله)، هل خضعت الدولة المغربية لسيطرة الإمبراطورية العثمانية حقا؟؟ الثلاثاء 30 يوليوز 2013م، المصدر: المنتدى العربي للدفاع والتسليح

[12] - مفردها. "باي"، وأصلها: "بك"، وهو مصطلح تركي- عثماني، كان يطلق على كبار القادة، والكاف في كلمة: "بك"، كانت تلفظ ياء، وقد اعتمد العثمانيون هذااللقب كصفة لحاكم الولاية أوالمقاطعة، ولم يشع هذا المصطلح إلا بعد سيطرة الأتراك العثمانيين على البلاد العربية. انظر

- عامر (محمود)، المصطلحات المتداولة في الدولة العثمانية، قسم التاريخ، جامعة دمشق، مجلة دراسات تاريخية - العددان: 117 118، يناير - يونيو، 2012م، ص 369

وقد ورد في بعض المعاجم العثمانية أن أصل هذه الكلمة يمتد إلى اللغة الصينية لكنها تسربت إلى التركية. انظر

مجيب (حسين المصري)، معجم الدولة العثمانية، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، الطبعة الأولى: 2004م، ص: 34

التأويل، وهذا لا يمكن أن يتحقق إلا إذا وقفنا على نماذج حية استُخدمت فيها الطغراء السعدية كعنصر أساسي وبنيوي يعبر عن سيادة المغرب أكثر من 12 قرنا، ونخص بالذكر: "**القطع النقدية**"، و"**المدافع العسكرية**"، فضلا عن "**الوثائق والمراسلات السلطانية**"، وهذه العناصر هي التي تُعبّر عن مفهوم "**السيادة**"، في أية دولة أسست لها كيانا سياسيا مستقلا، بل وقد تتعداه إلى مفهوم "**التغلُّب**" إذا أخذنا بعين الاعتبار "**قوة السلاح**"، وقد لاحظنا أن هذه الحوامل أو العناصر المذكورة قد رُسمت أو نُقشت عليها في المغرب، طغراوات وشعارات سعدية كدليل مادي على سيادة المغرب على أرضه، وعدم تبعيته بشكل أو بآخر لأي كيان سياسي آخر، إلا أن هذه "الرسوم السيادية" لم يتم تناولها من الوجهة الأكاديمية، وإدراجها في مناهج التدريس، حيث ظلت مهملة دون دراسة أوتحليل، وهي تحمل في مدلولها كثيرا من البراهين المادية التي لاتترك مجالا للاحتمالات والفرضيات، كما لاتفتح الباب للخلاف أو حتى الاختلاف حول سيادة المغرب على أرضه.

من هذا المنطلق بالذات، حاولنا أن نقوم باستغوار تلك الشواهد المادية، وتفكيك عناصرها الفنية ذات البعد الدلالي التاريخي والعميق، لإثبات سيادة المغرب واستقلاله التام عن أية تبعية للعثمانيين خلال مستهل العصر الحديث، وبالتالي تفنيد كل الدعاوى المغرضة التي قد تلقي بظلالها على بعض الملفات الشائكة على المستوى السياسي في تاريخنا المعاصر[13]. وللاستفاضة في هذا الأمر، الذي يعد ضرورة تاريخية - فنية، أكثر من أي وقت مضى، خصصنا لدراسة الطغراء السعدية ومقارنتها بالطغراء العثمانية خمسة أبواب. أربعة منها ترتبط بالتأصيل التاريخي، كما ترتبط بمراكمة الشواهد المادية من وثائق سلطانية ونقود ومدافع وغيرها من الحوامل التي تتيح لنا الاطلاع على كيفية استعمالها، فضلا عن تسليط الضوء على دلالاتها النصية والفنية والسيادية. وفي الباب الخامس أولينا تلك الشواهد المادية - ومعها الطغراء - اهتماما كبيرا ودراسة مستفيضة ترفع الغبش والالتباس، ومن ثم القيام بتفكيك العناصر الفنية "للطغراء السعدية" وتشريحها تشريحا عميقا ودقيقا، وبالتالي مقارنتها مقارنة تاريخية و دلالية مع نظيرتها: "الطغراء العثمانية".

---

[13]- في هذا السياق، لا بد أن ننوه بالمؤرخ العراقي؛ محمد علي داهش، الذي اهتم بالكتابة في تاريخ العلاقات المغربية - العثمانية، فتناولها بكل تجرد وموضوعية من خلال كتابه الموسوم بـ: "**الدولة العثمانية والمغرب. إشكالية الصراع والتحالف**"، حيث سلط الضوء من خلاله على طبيعة العلاقات التي كانت تربط بين الدولة العثمانية والمغرب، فقسمها إلى مرحلتين رئيسيتين

- المرحلة الأولى وتميزت بـ: "**علاقات سياسية وعسكرية سلبية بين الدولتين**"، حيث امتدت منذ النصف الأول من القرن السادس عشر حتى النصف الثاني من القرن الثامن عشر. وهي المرحلة التي تزامنت فيها الدولة السعدية في المغرب مع الدولة العثمانية التي غطت مجموع شمال إفريقيا إلى حدود الجزائر، حيث كانت الدولة العثمانية آنئذ في ذروة قوتها ونفوذها

المرحلة الثانية وهي المرحلة التي اتحدت "**مسارات أخرى تبعا لطبيعة التطورات والمواقف الأوربية تجاه كلا الدولتين من جهة، وطبيعة الوضع الداخلي لكليهما من جهة أخرى منذ النصف الثاني من القرن الثامن عشر**"، وقد عرفت هذه المرحلة ظهور الدولة العلوية في المغرب على مسرح الأحداث، حيث حلت محل الدولة السعدية الآفلة. أمام هذا الوضع. "**وفي ظل عجز العثمانيين عن فرض سيادتهم على المغرب، والحفاظ على مواقعهم السابقة في مناطق نفوذهم [اضطروا] إلى فتح صفحة جديدة من العلاقات بين الجانبين، وبداية لقاءات دبلوماسية واتفاقيات سياسية ضمن إطار التضامن والتعاون الإسلامي لمواجهة التحديات الأوربية المشتركة تجاه فاس وإستانبول**". انظر: - داهش (محمد علي)، الدولة العثمانية والمغرب. إشكالية الصراع والتحالف، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى: 2011م، ص: 3 4

3 - إشكالية "السيادة" بين المغرب السعدي وتركيا العثمانية وعلاقتها "بالطغراء".

إن **"مفهوم السيادة"** يرجع - من حيث ظهوره - إلى القرن الخامس عشر تقريبا، وكلمة: **"السيادة" (souveraineté)** مشتقة من الأصل اللاتيني: **(superamus)**، وهي في الأصل مفهوم فرنسي أطلق على جوهر السلطة السياسية في الدولة منذ القرن الخامس عشر، وذلك من خلال تعريفها و تحديد خصائصها و بيان مصدرها وصاحبها. وأصبحت هذه الأفكار تكوّن ما يعرف بـ: **"نظرية السيادة"**[14]. ويُعدّ المفكر السياسي الفرنسي **"جان بودان"** (936 - 1004هـ/1530- 1596م) أول من نادى بمبدأ السيادة مستهدفا بذلك إثبات حق الدولة في البقاء[15].

وفي مرحلة لاحقة، تأثر **"النظام الويستفالي"** بمفهوم السيادة الذي وضعه جان بودان، وهو النظام المنسوب إلى صلح أو سلام **"وستفاليا" (Peace of Westphalia)** الذي تم إبرامه في سنة: 1058هـ/1648م. وذلك باعتباره أول اتفاقية دبلوماسية في العصر الحديث أرست **"مبدأ سيادة الدول"**. حيث سيشكل بذلك جوهر العلاقات الدولية لقرون طويلة[16].

والجدير بالذكر، أن بعض المفكرين المعاصرين ذهبوا إلى حد القول بأن نظرية السيادة هي نظرية معروفة في الفقه الإسلامي. وأنها مشروحة في كتابات بعض قدماء فقهاء السياسة الإسلامية. ورغم اتفاقهم على ذلك، إلا أنهم اختلفوا عند الحديث عن مصدر هذه السيادة أو صاحبها[17].

ومهما يكن من أمر، فإن ظهور مفهوم **"السيادة المغربية"** يرتبط ببداية العصر الحديث في المغرب وتحديدا بعصر **"الدولة السعدية"**، التي استطاعت أن تحافظ على استقلال المغرب عن التبعية للدولة العثمانية، لتكون بذلك هذه الدولة هي الناقل الحضاري الوحيد لتراث الغرب الإسلامي، والوارث الشرعي لتراثه وعوائده وفنونه. خاصة بعد سقوط الأندلس سنة: 897هـ/1492م. ودخول كافة دول (شمال إفريقيا) - عدا المغرب - تحت سيادة العثمانيين منذ سنة: 922هـ/1516م، ولأن العثمانيين كانوا ينعتون المغرب السعدي بـ: **"دولة فاس"**؛ فقد تم وسْم التراث المغربي خلال هذا العصر بتسمية التراث الفاسي، وذلك لتمييزه عن التراث العثماني. لا سيما وأن المغرب قد تفرد بمهمة تطوير تراث الغرب الإسلامي، وذلك بالنظر إلى الاستقرار السياسي الذي كان يعرفه. ذلك الاستقرار الذي كان متذبذبا في كل من المغربين الأوسط والأدنى (الجزائر وتونس) بسبب القلاقل السياسية، التي طالت الأندلس أيضا بعد تفرق حكامها طرائق قددا، وتكالب العدو المسيحي عليهم (تكالب الأكلة إلى قصعتها).

---

14 فتحي (عبد الكريم)، الدولة و السيادة في الفقه الاسلامي دراسة مقارنة، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الثانية، 1984م، ص: 13 - 14

15 عن "مفهوم السيادة" في الفكر الغربي؛ ينظر: - شفالييه (جان جاك)، تاريخ الفكر السياسي من المدينة الدولة إلى الدولة القومية، ترجمة: محمد عرب صاصيلا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الثانية، 1993م، الكتاب الثاني، صص 283 - 294

16 بيليس (جون)، سميث (ستيف)، عولمة السياسة العالمية، ترجمة: مركز الخليج للأبحاث، دبي، الإمارات العربية المتحدة، الطبعة الأولى: 2004م، ص: 40.

17 ذهب بعض المفكرين المعاصرين إلى حد القول بأن نظرية السيادة هي نظرية معروفة في الفقه الإسلامي، وأنها مشروحة في كتابات بعض قدماء فقهاء (السياسة الشرعية الإسلامية) و رغم اتفاقهم على ذلك، إلا أنهم اختلفوا عند الحديث عن مصدر هذه السيادة أو صاحبها، وخلافا للفكر العربي، فقد ظهرت في الفكر الإسلامي المعاصر، نظرية تحاكي نظرية السيادة حسب المفهوم الأوربي ، تحت اسم: "نظرية الحاكمية". حيث وضع (المفكر الإسلامي) ابو الأعلى المودودي قواعدها على شرح معيّن لعقيدة التوحيد. إلا ان نظرية الحاكمية أو السيادة في الفكر الإسلامي بعد تأسيسها من قِبل المفكر المودودي، لم تَبق على حالتها الأصلية، حيث تم نقدها من طرف بعض المفكرين (الإسلاميين)، الذين قاموا بصياغة نظرية السيادة في الإسلام خلافا للأسس التي وضعها المفكر (الإسلامي) المذكور. ينظر: - المودودي (أبو الأعلى)، تدوين الدستور الإسلامي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الخامسة، 1981م، صص: 18 - 24.

- عبد الكريم فتحي، الدولة و السيادة في الفقه الإسلامي دراسة مقارنة، ص: 15 - 16

ومنه يمكن القول؛ إن عدم الاستقرار يعقبه ضمنيا عدم الاستمرار (السياسي والبشري والاقتصادي والثقافي)، ولأن هذا الاستقرار كان حاصلا في المغرب الأقصى (المغرب) منذ ما قبل السعديين، كان من البديهي أن يكون المغرب هو المدرسة التاريخية المحورية في تلك المرحلة، التي أخذت على عاتقها مسؤولية تطوير هذا التراث وبلورته من خلال اختزال التجارب الفنية الإقليمية السابقة لدول الغرب الإسلامي (شمال إفريقيا والأندلس)، وبالتالي الإعلان عن ولادة ما يسمى في وقتنا الحاضر بـ: **"التراث المغربي"** بكافة تجلياته الحضارية، وحينما نستعمل مُسمّى: "التراث المغربي" فإننا نحدده بالمفهوم الإقليمي الضيق، الذي يحيلنا على المغرب الأقصى وليس كما يحاول البعض تسميته في وقتنا الحاضر بـ: "التراث المغاربي". ونحن إذ نردّ هذا الادعاء، نشير إلى أن التراث المغربي بدأ يعرف خصوصيته الإقليمية بشكل بارز منذ العصر السعدي، الذي سيشهد طفرة نوعية على جميع المستويات، وخاصة في عهد السلطان السعدي أحمد المنصور الذهبي (986 - 1012هـ/1578 - 1603م) الذي يعد أقوى سلطان سعدي على الإطلاق؛ استعمل (علامته السلطانية) أو(طغراءه) التي تختلف عن طغراء العثمانيين - شكلا ونصا - وذلك من منطلق سيادته واستقلال دولته.

من خلال ما سبق؛ نتساءل قائلين: كيف ظهرت الطغراء المغربية؟ ومتى ظهرت؟ وما هي أشكالها ونصوصها بل وحتى وظائفها التي استُحدثت من أجلها؟

وإذا سلّمنا جدلا أن الطغراء لم تُعرف بشكل واضح وصريح إلا مع العثمانيين من حيث التسمية والرسم والوظيفة، فهل تأثر السعديون بهم في رسمها؟

وإذا أقررنا - فرضا - أنهم قد تأثروا بهم في رسمها، فكيف نفسر استقلال **"الطغراء السعدية"** في صورتها ونصوصها عن **"الطغراء العثمانية"**؟ وما علاقة ذلك الاستقلال - من حيث الصورة والنص - بمفهوم **"السيادة"** في المغرب؟

وإذا علمنا أن مفهوم **"السيادة"** في المغرب يرتبط بعوائد الحضارة المغربية التي تعود إلى أكثر من 12 قرنا، فكيف يمكن استثمار ذلك لتوصيف وفهم محددات "**الخصوصية المغربية**" التي تُعدّ الطغراء إحدى مكوناتها؟

وإذا كانت **"الطغراء السعدية"** هي تتويج تاريخي وفني لأشكال العلامات والتوقيعات التي كانت مستعملة في المغرب خلال العصر الوسيط منذ العصر المرابطي، فكيف يمكن فهمها في إطارها التاريخي؟ وهل لتلك العلامات والتوقيعات المرابطية والموحدية والمرينية والوطاسية علاقة بالمسار التطوري لـ: **"الطغراء المغربية"** التي وصلت أوجها خلال بداية العصر الحديث، ثم تدرجت في مدارج التجويد إلى أن وصلت إلى أبهى صورها مع **"العلامة السعدية"**؟

وبعبارة أخرى؛ كيف نرصد معالم انتقال **"العلامة السلطانية"** التي كانت صورتها بسيطة في المغرب منذ العصر المرابطي، وتدرجها في مدارج التجويد إلى أن أصبحت صورتها **"طغراءً"** معقدة خلال العصر السعدي؟ ثم كيف نفسر انتقالها من كونها **"علامة خطية"** سلطانية بسيطة، لتصير **"علامة طغرائية"** سلطانية معقدة - مرتبطة بمفهومي **"التّعمية"** و**"التشفير"**؟ ذلك ما سنحاول الإجابة عنه من خلال هذا الكتاب.

الباب الأول

الطغراء وجذورها التاريخية من حيث التسمية والوظيفة

الفصل الأول: الطغراء عند السلاجقة الأتراك- دلالة التسمية وحقيقة الاستعمال:

1 - الروايات المصدرية حول الجذور التاريخية واللغوية للطغراء:

اختلفت الروايات المصدرية في أصل كلمة: "طغراء" بين نسبتها إلى الفرس أو الروم أو التُّرك.. وقد وردت بتسميات مختلفة في المصادر التاريخية والمعاجم اللغوية، وهي من جذر واحد يتمثل في الحروف: "ط غ ر"، التي تفرعت عنها عدة مسميات من قبيل: "طغرة"، "طغراة"، "طغري"، "طغرى"، "طغرا"، "طغراء". وذلك بالرغم من كون تلك المصادر قد نقل بعضها عن بعض. حيث يُحتمل أن يكون المؤلفون هم من تصرفوا في الكلمة بعد النقل، كما يُحتمل أيضا أن يكون المحققون هم من تصرفوا فيها بداعي التحقيق من خلال الاعتماد على المقابلة (أي: مقابلة النُسخ بعضها ببعض وإثبات التسمية الأصح منطوقا ومفهوما).

ومحقق لدينا أن معظم المصادر المشرقية وبعض المصادر المغربية التي تعرضت لذكر الطغراء، إنما تعرضت لذكرها في سياق التعريف بالوزير - الشاعر؛ الحسين بن علي الطغرائي (455 - 513هـ/1063 - 1120م) صاحب "**لامية العجم**" الذي عارض بقصيدته "**لامية العرب**"، للشاعر "الشَّنْفَرى" (ت: 70 ق. هـ/525م) أحد أبرز شعراء الصعلكة في العصر الجاهلي[1]، ويُعد الحسين بن علي هذا أشهر من عُرف بلقب: "**طغرائي**"، وهو اللقب الذي يحيلنا مباشرة على وظيفته في الدواوين السلطانية السلجوقية. وأول مصدر أورد ذكره، وعرّف بخبره، هو كتاب: "تاريخ دولة آل سلجوق" المسمى: **نصرة الفترة وعصرة القطرة في أخبار الدولة السلجوقية**"، للعماد الأصبهاني (519 - 597هـ/1125 - 1201م)[2]. وعنه أخذت ذلك سائر المصادر من كتب التاريخ والتراجم والمعاجم التي استخرجنا منها بعض الشواهد والقرائن التي تؤصل لمفهوم الطغراء، ودلالاتها التاريخية والفنية والوظيفية.

ونشير في هذا الباب إلى أن المعاجم العربية اختلفت حول كلمة: طغراء، وحقيقة أصلها في اللغة العربية من عدمه، فقد ورد في المعجم الوسيط أن "**الطُّغْراء**" هي "**الطُّرَّة**"، وجمعها: طُرَرٌ ، وطِرارٌ. ومعناها اللغوي: طرفُ كلِّ شيء وحَرْفُهُ، ومنها حاشية الكتاب[3]. وَفي لسان العرب "**طُرَّةُ الشَّعَرِ والثوبِ أَي: طَرَفُه**"[4]، ورغم أن الزبيدي (1145 - 1205هـ/1732 - 1790م) أكّد على أنها ليست من فعل: "**طَغَـرَ**"

---

[1] - عن ترجمة الشنفرى؛ راجع ذلك بتفصيل عند

- الأصبهاني (أبو الفرج علي بن الحسين المرواني الأموي)، الأغاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى. 1994م، ج/21، صص 118 128

[2] - الأصبهاني (عماد الدين أبو عبد الله محمد)، تاريخ دولة آل سلجوق المسمى: "نصرة الفترة وعصرة القطرة في أخبار الدولة السلجوقية"، قرأه وقدم له. يحيى مراد، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى: 2004م، صفحات: 255 - 259 - 270 - 297

العماد الاصبهاني هو صاحب المقولة الشهيرة: "إنّي رأيت أنّه لا يكتب إنسان كتاباً في يومه إلاّ قال في غده لو غُيّر هذا لكان أحسن، ولو زيد لكان يستحسن، ولو قُدّم هذا لكان أفضل، ولو ترك هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العبر وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر"

[3] المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، (إبراهيم مصطفى أحمد الزيات حامد عبد القادر محمد النجار)، دار الدعوة، د.ت، ج/2، ص: 554

[4] ابن منظور (أبو الفضل أحمد من مكرم الأنصاري الإفريقي)، لسان العرب، دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة: 1993م، ج/4، ص: 501

الذي هو مرادف لفعل: "**منع**" أو"**دفع**"[5]. إلا أن المقريزي (**764** - **845**هـ/**1364** - **1442**م) استخدم الفعل نفسه للإشارة إليها في عصر المماليك من خلال قوله: ".. **وفي التواقيع رسم بالأمر، وتمتاز المناشير المفتتح فيها بالحمد لله أوّل الخطبة، أن تُطغر بالسواد وتتضمن اسم السلطان وألقابه**"[6]. لكنه اعترف - مع ذلك بأنها كلمة فارسية الأصل، ويؤخذ ذلك من قوله: "**والطغرا هي طرة المكتوب.. وهي لفظة فارسية**"[7].

وقد استدل ابن فضل الله العمري (**700** - **749**هـ/**1301** **1349**م) قبل المقريزي بالنص نفسه عند حديثه عن محمد الناصر بن المنصور قلاوون (عاش بين: **684** **741**هـ/**1285** **1341**م)، لكنه لم يُفعِّل الطغراء على غرار المقريزي، حيث قال: "**وفي التواقيع رسم بالأمر. وتمتاز المناشير المفتتح فيها بخطبة الحمد لله بطغرا بالسواد تتضمن اسم السلطان وألقابه**"[8].

علاوة على ذلك، ورد في المعجم الوسيط أيضا أن "**الطرة تكْتب فِي أَعلَى الْكتب والرسائل فَوق الْبَسْمَلَة [وهي] تَتَضَمَّن نعوت الْحَاكِم وألقابه**"[9]. أما في تاج العروس، فالزّبيدي يرى أنها تسمى: "**طُغْرَى، بالضم مقصورا[وهي]: كلمة أعجمية استعملتها العرب، ويعنون بها العلاَمة التي تكتب بالقلم الغليظ في طرة الأوامر السلطانية، تقوم مقام السلطان، كما نقله [اللفظ للزبيدي] شيخنا عن الصلاح الصفدي، وأطال بسطه في شرح لامية العجم لما ترجم [لـ] ناظمها الطغرائي. قلت [اللفظ دائما للزبيدي]: وأصلها (طورغاي)، وهي كلمة تترية استعملها الروم والفرس**"[10].

وبرجوعنا إلى كتاب "الوافي بالوفيات" الذي نقل عنه الزبيدي (**1145** - **1205**هـ/**1732** - **1790**م)، وجدنا مؤلفه الصفدي (**696** - **764**هـ/**1296** - **1363**م) يتحدث عن مهمة الطغرائي وعن "الطغراء" التي كان يرسمها، حيث يقول: "**الطغرائي بِضَم الطَّاء الْمُهْملَة وَسُكُون الْغَيْن، وَبعد الرَّاء ألف**

---

[5] - "طغر" [بفتح الغين] "(طغر عليهم، كمنع) و هو لُغةٌ في (دعر)، يقال طغره ودعره، إذا دفعه، وطغر عليهم ودغر بمعنى واحد و قيل الطُّغز، كصُرَدٍ طائِرٌ، أي. معروفٌ، (جمعه: طِغْرانٌ)، بالْكسْر"

انظر

- مرتضى الزّبيدي (أبو الفيض محمد بن محمد بن عبد الرزّاق الحسيني)، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق. مجموعة من المحققين، دار الهداية، د.ت، ج/**12**، ص. **430**

انظر أيضـ

- ابن منظور، لسان العرب، ح/**4**، ص: **501**

[6] - المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي من عبد القادر)، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، دار الكتب العلمية، بيروت، **1997**م، ج/**3**، ص **368**

[7] - المصدر نفسه، ج/**3**، ص: **394**

[8] - العمري (أحمد من يحيى بن فضل الله القرشي العدوي)، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، المجمع الثقافي، أبو ظبي، الطبعة الأولى **2002**م،ج/**3**، ص: **445**

[9] - المعجم الوسيط، ج/**2**، ص: **558**

الفيروزآبادي (مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب)، القاموس المحيط، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة تحت إشراف. محمد نعيم العرقسُوسي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، الطبعة الثامنة **2005**م، ص: **431**

[10] الزّبيدي، تاج العروس، ج/**12**، ص **430** **431**

ممدودة وياء النّسب، هَذِه نِسْبَة إِلَى من يكْتب الطغراء وَهِي الطرة الّتي فِي أَعلَى المناشير والكتب فَوق الْبَسْمَلَة"[11].

ويبدو أن الصفدي قد نقل هذا النص عن ابن خلكان (608 - 681هـ/1211 - 1282م) الذي سمّاها بـ: "الطغري"، حيث قال: "**والطغرائي بضم الطاء المهملة وسكون الغين المعجمة، وفتح الراء وبعدها الف مقصورة هذه النسبة إلى من يكتب الطغري، وهي الطرة التي تكتب في أعلى الكتب فوق البسملة بالقلم الغليظ**"[12].

ويبدو أن ابن خلكان هو الآخر نقلها عن ياقوت الحموي (574 626هـ/1178 1229م)، الذي أوردها بتسمية: "طغراء" حيث قال: " ..**الطغرائي نسبة إلى من يكتب الطغراء وهي الطرّة التي تكتب في أعلى المناشير فوق البسملة بالقلم الجلي، تتضمن اسم الملك وألقابه، وهي كلمة أعجمية محرفة من الطرّة**"[13].

وعموما فقد تباينت آراء الباحثين حول أصل كلمة: "طغراء" ودلالاتها اللغوية والوظيفية، حيث ذهب فريق إلى أنها تسمية تركية وليست من اللغة العربية في شيء، واستدلوا في ذلك باشتقاق لفظ: 'طغراء' من كلمة: 'طغراغ" أو"طغراج"، من اللهجة التي كان يستعملها "الغزّ" أو'الأوغوز" وهم أحفاد 'سلجوق"[14] الذين يعدّون إحدى بطون القبائل التركية، ويقوي هذا الطرح - حسب رأيي - التسمية التي كانت تحملها زوجة ملكشاه، وهو أحد أعظم سلاطين السلاجقة - الأتراك؛ حيث كانت تسمى: تركان خاتون ابنة طغراج[15]. وعلى الرغم من أن هذا التأويل يبدو منطقيا، فإنه لا ينبغي أن نغفل رأي محمود بن الحسين بن محمد الكاشغري (398 - 498هـ/1008 - 1105م) الذي يجعل من انتساب مصطلح: 'طغراغ' إلى اللغة التركية أمرا مستبعدا؛ بنص قوله: "**ولا تعرفه الترك، ولا أدري أصله**"[16]، ولعل هذ الحكم له أكثر من دلالة، سيما وأن الكاشغري كان أعرف الناس باللغات التركية القديمة، بحكم جذوره التي تمتد

[11] - الصفدي (صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله)، الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، طبعة 2000م، ج/12، ص 268

[12] - ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، طبعة 1900م، ج/2، ص. 190

[13] - ياقوت الحموي (شهاب الدين أبو عبد الله بن عبد الله الرومي)، معجم الأدباء؛ المسمى: "إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب"، تحقيق. إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى. 1993م، ج/3، ص. 1106 - 1107

[14] - و. بارتولد، تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ترجمة: أحمد السعيد سليمان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1996م، ص. 137

[15] - تركان خاتون ابنة طغراج؛ الملكة الجلالية صاحبة أصبهان، (ت. 487هـ) شاركت زوجها في الملك، وبعد وفاته دبرت الأمور فاتخذت المستشرين والوزراء، وقادت الجيوش، وحفظت أموال التجار، وأثرت تأثيرًا عظيمًا في بلاد فارس ، فأصلحت كثيرًا من عادات البلاد وأخلاق أهلها، فبذلت لهم العطايا والإقطاعات ، فأحبتها الأمراء والرعية ، وصاهرت الخليفة العباسي المقتدي بأمر الله حيث تزوج بابنتها. انظر النويري (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب)، نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، الطبعة الأولى 2002م، ج/26، ص 335 – 336

[16] الكاشغري (محمود بن الحسين بن محمد)، ديوان لغات الترك، دار الخلافة العلية، مطبعة عامره، 1914م، ج/1، ص 385

إلى إحدى قبائلها، حيث ألّف لنا كتابا منذ سنة: 466هـ/1074م، أطلق عليه: "**ديوان لغات الترك**"[17]، وقد كان ذلك خلال العصر العباسي - السلجوقي، أو ما يصطلح على تسميته بالعصر العباسي الرابع، الذي يسمى أيضا: "عصر آل سلجوق" (447 656هـ/1055 1258م)[18]، وهو العصر الذي سبق عصر الدولة العثمانية بما يزيد على قرنين من الزمان، اعتبارا من تاريخ تأسيس دولة السلاجقة العظام (447هـ/1055م)، في حين أن الدولة العثمانية لم تظهر إلا في حدود سنة: 699هـ/1299م، ومعلوم أن دولة السلاجقة عرفت توسعا كبيرا في البلاد المشرقية، حيث حكمت أفغانستان وإيران وأجزاء من الأناضول وسوريا والعراق وشبه الجزيرة العربية، وقد كان مقرها في البداية: مَرْو[19]، ثم أصفهان. لكن ومع توسع هذه الدولة، ظهرت دويلات سلجوقية حملت مسميات عدة، ترتبط بالأقطار التي حكمتها، مثل: "**سلاجقة كرمان**" (432 - 583هـ/1041 - 1187م) وهي دولة جنوب بلاد فارس، و"**سلاجقة الشام**" (471 - 511هـ/1078 - 1117م)، و"**سلاجقة الروم**"، الذين حكموا بلاد الأناضول (469 704هـ/1076 - 1304م) وكان مقر دولتهم: إزنيق (نيقية ثم قونية) ابتداءا من سنة: 509هـ/1116م"[20].

وعلى العموم، يبقى رأي الكاشغري رأيا لا يمكن تجاوزه بأي حال من الأحوال، وهو الأمر الذي دفع أكثر الباحثين لموافقته، ومن ثم الانطلاق من رأيه للتأكيد على أن كلمة: "**طغراء**" من أصل فارسي أومن لغة أخرى غير التركية، لكن الأرجح أن يكون أصلها من اللغة التركية القديمة، كما ذُكر ذلك في دائرة المعارف الإسلامية، ولعل حذف الحرف الأخير من الكلمة وهو الغين أوالجيم (طغراغ أو طغراج = طغراء)، يرجع إلى ما درج عليه الاستعمال في اللغة التركية - العثمانية من إسقاط الحرف الحلقي الأخير تبعا للهجة الغز[21].

[17] - بتأليفه لهذا الكتاب، يعتبر الكاشغري أول من كتب اللغة التركية بالأحرف العربية كما يشير إلى ذلك بعض الباحثين، حيث كان يهدف من وراء ذلك تعليم اللغة التركية للعرب، سيما بعد التداخل التركي - العربي خلال العصر العباسي - السلجوقي، أو ما يُصطلح على تسميته بالعصر العبسي لرابع، الذي يسمى أيضا. "عصر آل سلجوق". انظر

- القطوري (أحمد الصفصافي)، إطلالة على ثقافة الترك وحضارتهم القديمة، القاهرة، الطبعة الأولى. 2006م، ص. 119

[18] - عن السلاجقة، انظر: - فريد بك (محمد بن أحمد فريد باشا)، تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق: إحسان حقي، دار النفائس، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى. 1981م، صص: 61 - 68. انظر أيضا

- اوزتونا (يلماز)، تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة: عدنان محمود سلمان، مراجعة وتنقيح: محمود الأنصاري، مؤسسة فيصل للتمويل، تركيا، 1988م، ج/1، صص: 50 - 53

- الصلابي (علي محمد) الدولة العثمانية - عوامل النهوض وأسباب السقوط، دار التوزيع والنشر الإسلامية، مصر، الطبعة الأولى:2001م، صص 28 42

[19] - الإسم الفارسي القديم لمدينة: "مرو" هو: "شهرستان". وقد سقطت هذه المدينة في أيدي السلاجقة منذ سنة: 428هـ/1037م، على يد قائدهم "جغري بك"، وذلك بعد وفاة محمود الغزنوي (388 - 421هـ/998 - 1030م)، الذي كانت وفاته إشعارا ببداية نهاية الدولة الغزنوية. انظر:

- الوزنة (يحيى بن حمزة)، مدينة مرو والسلاجقة حتى عصر سنجر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، الطبعة الأولى. 2007م، ص. 19. وص: 42

[20] لمزيد من التفصيل؛ انظر: فريد بك، تاريخ الدولة العلية العثمانية، صص: 61 – 68. انظر أيضا: الصلابي، الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط، صص: 28 42

[21] دائرة المعارف الإسلامية. انتشارات جهان، طهران، الطبعة الأولى. 1933م، ج/15، ص: 203 204

وكيفما كان الحال، فإن بارتولد يشير إلى أن معنى هذه الكلمة التي وردت مع مصطلح: "يارليق" المغولي في وثيقة واحدة، تعني: "**الختم وطابع الختم**"[22]. ويارليق جمعها يراليق أو يراليغ التي معناها يرتبط بالفرمانات، وهي الوثائق السلطانية عند الأتراك كما يؤكد ذلك العمري في مسالكه[23].

والملاحظ أن بارتولد قد نقل الكلمة ومعناها عن الكاشغري الذي يذكر أن كلمة: "**تغراغ**" هي: "**طابع الملك وتوقيعه بالغزية**"[24]. وذلك بعدما حرّف أو حوّر المصطلح وأورده باسم: "**طغراح**"[25].

ولتعزيز التفسير الذي قدمه لنا الكاشغري حول مدلول كلمة: طغراغ أو تغراغ، وعلاقتها بالمصطلحات التركية الأخرى التي وردت بالمعنى نفسه أو بمعنى قريب منها، نستدل بما رواه ابن بطوطة المغربي (703 - 779هـ/1304 1377م)، من كون التتار والمغول كانوا يسمون "**صاحب العلامة..آل طمغي، وآل بفتح الهمزة: معناه الأحمر، وطمغي بفتح الطاء المهمل وسكون الميم والغين المعجم المفتوح، ومعناه العلامة**"[26]. ولا شك أن ابن بطوطة يقصد بالعلامة: **الختم**. ويؤكد هذا التفسير؛ ما ورد في المعجم العثماني المسمى بـ: "**الدراري اللامعات**"، من كون "**الطمغا [لها مدلول شاسع يجمع بين المصطلحات التالية]: سمة، علامة، أثر، طابع**"[27].

ونعزز رأي ابن بطوطة – أيضا – بما ذهب إليه حبيب الله فضائلي من كون بعض الكتب الفارسية تذكر أن الطغراء كانت تعرف قبل "تيمورلنك" (771 - 808هـ/1369 - 1405م) القائد المغولي الشهير باسم: "**آل التمغا**"، وهما كلمتان مغوليتان معناهما: الختم الأحمر (آل: أحمر. تمغا: ختم)، و"**التمغا**" على ما يبدو؛ تحريف للكلمة العربية: "**الدمغة**"، وقد كانت هذه التمغا مستعملة في عهد خلفاء جانكيز خان، ولا سيما في عهد السلطان الإيلخاني غازان خان[28] (694 - 703هـ/1295 - 1303م)، و السلطان الجلائري أحمد بن أويس جلاير[29] (784 - 813هـ/1382 - 1410م)، حيث كان ختمهما يُدمغ بلون أحمر فوق مناشيرهم[30].

---

[22] – بارتولد، تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ص: 137

[23] – العمري، مسالك الأبصار، ج/3، ص: 207. وقد ورد في هامش التحقيق أن. اليراليغ: جمع مفرده يرليغ وهي كلمة مغولية بمعنى حكم أو أمر والفرمانات. جمع مفرده فرمان والفرمان هو الحكم والأمر

[24] – الكاشغري، ديوان لغات الترك،ج/1، ص. 385

[25] – بارتولد، تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ص: 137

[26] – ابن بطوطة (محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي)، رحلة ابن بطوطة المسماة. تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق. عبد الهادي التازي، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، سلسلة التراث، الرباط ، 1997م، ج/3، ص: 29

[27] – الأسي (محمد علي)، قاموس اللغة العثمانية. الدراري اللامعات في منتخبات اللغات، يحتوى على الكلمات التركية والألفاظ الفارسية والإفرنجية المتداولة في اللغة العثمانية، طبعة: 1902م، ص: 362

[28] – قائم مقامي (جهانگير)، مهرها ، طغراها و توقيع هاي پادشاهان إيران، ازايلخيان، تا پايان، قاجاريه، ص: 125

انظر أيضا مقالة لنفس الباحث حول استعمال الطغراء في الدواوين السلطانية بإيران

- قائم مقامي (جهانگير)، توقيع و طغرا و تطور آنها در تداول ديواني، مركز تحقيقات، د.ت، صص: 1 - 36

[29] قائم مقامي، مهرها، طغراها وتوقيع هاي پادشاهان إيران، ص: 127

قائم مقامي، توقيع و طغرا وتطور آنها در تداول ديواني، صص: 1 - 36

[30] فضائلي (حبيب الله)، أطلس الخط والخطوط، ترجمة: محمد التونجي، مكتبة دار طلاس، دمشق، الطبعة الثانية. 2002م، ص: 520

وقد أطْلعنا أحد الباحثين الإيرانيين على نوع تلك التُمغاوات أو الطغراوات، والتي كانت ترسم "**بشكل مربع**"، يشبه صورة الكعبة المشرفة على غرار الطغراوات المملوكية والبنغالية كما سنطلع على ذلك، إلا أنها كانت تتميز عنها بلونها الأحمر، و كذا خطها الذي يشبه الكوفي المربع، و كان يطلق عليها: "**الطغراي**"، كما كان يطلق عليها تحديدا إسم: "**آل تمغا**" (**الدمغة الحمراء، أو الختم الأحمر**) من منطلق اللون الذي كانت ترسم به، وللاستدلال على ذلك، نسوق أنموذجا لأحد السلطانين المذكورين، ألا وهو: أحمد بن أويس جلاير (انظر شكل: **1**)



الدمغة الحمراء، أو الختم الأحمر (آل تمغـا) على فرمـان
لأحمد بن أويس جلاير (784 - 813هـ/1382 - 1410م)
شكل: 1

ومن جهته، أكد ابن خلدون في المقدمة أن اللون الأحمر المستعمل في الختم، هو نوع من الطين الذي يميل لونه إلى الحمرة، كان معروفا في المشرق منذ ما قبل العباسيين، وبعد استعمال هؤلاء له، أصبح يعرف في عهدهم بـ: "**طين الختم**"[31]. حيث كان "**الكاتب [في هذا العصر] يصدر السّجلّات مطلقة، ويكتب في آخرها اسمه، ويختم عليها بخاتم السّلطان، وهو طابع منقوش فيه اسم السّلطان أو شارته، يُغمس في طين أحمر مذاب بالماء..**". ويضيف ابن خلدون أن الدول التي جاءت بعد العباسيين في مراحل لاحقة، استعاضت عن الختم الأحمر بالعلامة الخطية، حيث "**صارت السّجلّات.. [فيها] تصدّر باسم السّلطان، ويضع الكاتب فيها علامته أوّلا أو آخرا على حسب الاختيار في محلّها وفي لفظها**"[32].

ولا شك أن ابن خلدون يقصد – في هذا النص – بالعلامة: الطغراء، ويُستنبط هذا يقينا لا ظنا من خلال تصريحه بذلك في موضع آخر[33]، وفي السياق نفسه المتعلق بالمعاني والمصطلحات المرادفة لكلمة: 'طغراء معنىً أووظيفة، أو معنىً ووظيفة؛ يشير حبيب الله فضائلي، إلى أن كلمة: "**طغراء**" لم تكن هي الوحيدة المستعملة في المشرق، بل كانت لها تسميات أخرى أطلقت عليها من قبيل: **المعلق**"،

---

[31] – ابن خلدون (عبد الرحمن)، المقدمة، تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية. **1988**م، ص: **306**

[32] – المصدر نفسه، ص. **306**

[33] - من خلال تعريفه بالشاعر مؤيد الدين الطغرائي، أكد ابن خلدون أن: الطغراء هي العلامة. يقول ابن خلدون: "**وكان أبو المؤيد محمد بن أبي إسماعيل الحسين بن علي الأصبهاني يكتب للملك محمود، ويرسم الطغري وهي العلامة على مراسيمه**". انظر

ابن خلدون (عبد الرحمن)، تاريخ ابن خلدون المسمى: "كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر"، تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية: **1988**م، ج/**3**، ص **616**

"**الهلالية**"، "**جرغان**"، "**طرة**"[34]. والأكيد أننا سنفصل في بعض تلك التسميات وعلاقة بعضها ببعض، كلما تقدمنا في هذه الدراسة.

2 – استعمال الطغراء عند السلاجقة، أشكالها ووظيفتها:

بالرجوع إلى التوقيعات التي استعملها "الغزّ" في خاناتهم، نشير إلى أننا لانستطيع معرفة طبيعتها، لكننا نستطيع - على الأقل - التعرف على بعض التوقيعات التي اتخذها السلاجقة من بعدهم، وهم فرع من الغزّ[35]، وقد جمع بعضا من توقيعاتهم الباحث الإيراني جهانكير قائم مقامي في كتاب ألفه باللغة الفارسية حول التوقيعات والطغراوات الفارسية[36]، حيث استخرجها - على ما يبدو - من كتاب: "**راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية**" لمؤلفه: محمد بن علي الراوندي (المتوفى بعد: 600هـ/1203م)[37]. الشيء نفسه قام به المؤرخ العراقي حسين أمين في كتابه: "**تاريخ العراق في العصر السلجوقي**"[38]، حيث جمع تلك التوقيعات في ملحق خاص، ليتم بذلك التعرف على بعض ملامح الطغراء السلجوقية، التي كان يعتقد الباحثون المُحْدَثون أنها معروفة من حيث اسمها، مجهولة من حيث رسمها.

---

[34] – مصائلي، أطلس الخط والخطوط، ص: 521

[35] – انظر: – فريد بك، تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق، صص 61 - 68. انظر أيضا - الصلابي، الدولة العثمانية - عوامل النهوض وأسباب السقوط، صص 28 - 42

[36] – قائم مقامي، توقيع و طغرا و تطور آنها در تداول ديواني، ص: 248

[37] – خصص الراوندي كتابه لذكر حكّام الدولة السلجوقية العظام ببلاد فارس، منذ أول سلاطينهم "**طغرل بك بن سلجوق**" (429 - 455هـ 1037 - 1063م)، إلى آخر سلاطينهم "**طغرل بن أرسلان**" (571 - 590هـ/1175 - 1194م)، حيث أورد أسماءهم الكاملة و كُناهم وألقابهم السلطانية، ثم جمعها في فهرس تعريفي مستقل. انظر.

– الراوندي (محمد بن علي)، راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية، نقله من الفارسية إلى العربية: إبراهيم أمين الشواربي، عبد النعيم محمد حسين، فؤاد عبد المعطي الصياد، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة 2005م، ص: 143- 144

ونلاحظ من خلال هذا الكتاب أن الراوندي قد ركز على المراحل الأخيرة للدولة السلجوقية، التي يُطلق عليها المؤرخون: "**العصر الثالث**"، وهو عصر الاضمحلال و السقوط، وخاصة المرحلة الممتدة من 552هـ 1157م، إلى 590هـ 1194م، وهي المرحلة التي عايشها المؤلف والتي تدخل ضمن فترة حكم السلطانين الأخيرين: "أرسلان" و ابنه "طغرل". (راحة الصدور، صص. 5 - 8)، وقد كان الراوندي خطاطا بارعا كما يشهد بذلك على نفسه، حيث يقول: "**.. وبلغت في علم الخط شأوا كبيرا.. واستطعت أن أضبط [منه] سبعين نوعا. وأن أتكسب من نسخ المصحف وتذهيبه وتجليده**". (راحة الصدور، ص. 86). بل إن الراوندي، أفرد في كتابه للخط فصلا خاصا به، عنونه بالعنوان التالي: "**فصل في معرفة الخط من الدائرة والنقط**" (راحة الصدور، صص: 606 - 618)، ومن خلال هذا العنوان يتضح لنا - بجلاء - إلمام مؤلف "راحة الصدرو" بقوانين "**الخط المنسوب**" الذي وضعه الوزير العباسي؛ ابن مقلة، حيث نجده يتحدث عنه في فصول أخرى بمسمّاه الحقيقي تصريحا لا تلميحا، خاصة عند ذكره لآخر سلاطين السلاجقة العظام؛ طغرل بن أرسلان، الذي "**وعندما تقررت عنده أصول الخط المنسوب، تبرّك بكلام رب العالمين، وتمسك بحديث سيد المرسلين.. فبدأ يكتب مصحفا من ثلاثين جزءا..**". (راحة الصدور، ص. 90)، وقد كانت طريقة الراوندي في التعريف بالخط المنسوب تقوم على بناء الحروف الهجائية وفقا لقواعد هندسية معينة، بمعنى بناء كل حرف بالتوافق مع الحرف الذي سبقه، بحيث تكون كل الحروف "منسوبة" إلى بعضها. (راحة الصدور، ص: 25). ولعل حذق الراوندي للخط، كان هو السبب الرئيس في نيله الحظوة عند هذا السلطان، سيما وأن خاله كان أستاذا لهذا السلطان في علم الخط. يقول الراوندي في ذلك: "**فلما أراد السلطان السعيد الشهيد أن يتعلم الخط في سنة سبع وسبعين وخمسمائة [577هـ 1182م]، طلب . محمود بن محمد بن علي الراوندي، وهو خال هذا الكاتب [يقصد نفسه]، وشرّفه بأن يكون أستاذا له**" (راحة الصدور، ص 89) والظاهر أن الراوندي كان ينتسب إلى أسرة معروفة بإجادة الخط وحذقه إلى درجة عُرفت معها بخط نسب إليها كان يسمى "**الخط الكاشي**" (خط كاشيان)، أي: خط الكاشيين، وهم أفراد أسرة الراوندي. (راحة الصدور، ص: 15)

[38] أمين (حسين)، تاريخ العراق في العصر السلجوقي، منشورات المكتبة الأهلية، مطبعة الإرشاد، 1965م، ص: 333

والجدير بالذكر أن كتابة التوقيعات كانت موجودة منذ عصر الغزنويين (365 - 579هـ/976-1183م) الذين أُسست دولتهم قبل دولة السلاجقة واستمرت بعدها، حيث ورد في كتاب: "مجمل التواريخ والقصص"[39] وهو مؤلّف لمجهولٍ من القرن السادس الهجري (أُلِّف بين سنة: 520هـ/1126م، وسنة: 525هـ/1131م) - جداول لتوقيعات السلاطين الغزنويين وعمالهم، ومن بين التوقيعات المشهورة آنذاك؛ توقيعات أحمد بن الحسن الميمندي وزير (السلطان) محمود الغزنوي (388 - 421هـ/998-1030م)[40]، وللإشارة فإن "لقب (السُّلْطَان) [لم يكن له] وجود قبل عهد **مَحْمُود [هذا، فكان هو].. أوّل من تلقب بِهِ فِي الْإِسْلَام وَصَارَ سُنّة بعده**"[40]. وكيفما كان الحال، فقد ورد في الكتاب نفسه أيضا فصل خاص بتوقيعات وطغراوات السلاجقة (443 - 552هـ/1051-1157م) من أولهم إلى آخرهم[41].

أما في عصر الدولة الخوارزمية (490 - 628هـ/1097- 1231م) التي خلفت السلاجقة في بلاد ماوراء النهر، فقد شاع استعمال التوقيعات السلطانية، التي استخدموها إلى جانب العلامات والتمغا والطغراء، استمراراً لما كان شائعا بين القبائل التركية، وكانت للنساء في البلاط الخوارزمي توقيعات كذلك، ومن ذلك - على سبيل المثال - توقيع تركان خاتون أم السلطان محمد خوارزم شاه (596 - 617هـ/1200 - 1220م)[42].

وعموما فقد كانت الطغراء السلجوقية على هيئة: "**قوس**" بيضوي تحته عمود يشبه **الطوغ**[1]، يتوّج اسم رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو اسم السلطان الحاكم كما نلاحظه من خلال عملة سلجوقية (انظر شكل: 2).



دينار سلجوقي - كرماني مؤرخ في سنة: 487هـ/1094م، لمحيي الدين توران شاه ابن قره أرسلان (477 - 490هـ/1085 - 1097م)
مصدر القطعة: متحف الفنون الحية - مجموعة داود (David Collection)، كوبنهاكن - الدانمارك، رقم: C42
شكل: 2

---

[39] - مجهول، مجمل التواريخ والقصص، تصحيح: ملك الشعراء بهار، تهران، كلاله خاور، بي تا، تاريخ انتشار: 1971م، ص.37، وص. 39

[40] نظام الملك (الحسن بن علي الطوسي)، سياست نامه أوسير الملوك، تحقيق: يوسف حسين بكار، دار الثقافة، قطر، الطبعة الثانية. 1987م، ج/1، ص. 85

[41] مجمل التواريخ والقصص، ص: 408

[42] عبد المنعم (محمد نور الدين)، مصطلح التوقيع بين الخط والإدارة والمذهب عند الإيرانيين، جريدة الأهرام الرقمي، العدد: 1، يوليوز 2011م

وقد أكد دلالة هذا الاستعمال، مؤرخ الدولة السلجوقية؛ عماد الدين الأصبهاني (519 - 597هـ/1125 - 1201م)، في كتابه: "**تاريخ دولة آل سلجوق**"، حيث قال عن أحد سلاطين هذه الدولة، وهو: أبو الحارث سنجر بن ملكشاه (512 - 552هـ/1118 - 1157م): "**وكانت علامة سنجر تحت قوس الطغراء وفوق بسم الله (توكلت على الله)**"[43]. وارتباطا بالمعنى نفسه، وصفت بعض المراجع المهتمة بتاريخ الدولة السلجوقية؛ "**الطغراء..[بكونها ذلك] الخط المقوّس الذي يوضع في صدر الأوامر والمنشورات والفرمانات، كما هو معروف لعلامة كل سلطان**"[44].

وإذا رجعنا إلى أصل الدولة السلجوقية نجد أنها ترتبط بسلجوق بن دقاق[45] أو تقاق[46]، الذي يُعد جَدّ السلاجقة الأكبر، وفي هذا الشأن، يشير ابن العديم (588 - 660هـ/1192 - 1262م) إلى أن: "**تقاق بالتركية [هي] القوس من الحديد**"[47].

فلا شك - إذن - أن القوس كانت له دلالة قوية عند السلاجقة، لأنه كان يرمز إلى المعارك والغزوات التي خاضوا غمارها، كما يتضح ذلك من خلال بعض القطع النقدية، التي تظهر فيها صورة فارس يركب فرسا وهو حامل قوسه مصوِّبا إياه لإطلاق السهم منه (انظر شكل: 3). وعليه، فإن "**القوس**" و "**الطوغ**" الذي جرت العادة بأن يتوّج عند القبائل التركية بذؤابة من شعر الحصان، كانا يرمزان عند الأتراك لقوة الدولة التي تستند في سيادتها على قوة فرسانها الذين يستمدون شجاعتهم ويستلهمونها من عادات وتقاليد الأتراك،، هؤلاء الذين عُرف عنهم أنهم يمتطون الخيل منذ صغرهم، "**لذلك يقال عنهم انهم ولدوا مع الحصان**"[48].

وهذا ما نلاحظه من خلال عملة سلجوقية - تركية، ترجع إلى الفترة الأولى من حكم السلطان ركن الدين قلج أرسلان الرابع (646 - 664هـ/1248 - 1266م)، وهو أحد سلاجقة الروم بالأناضول، حيث يظهر من خلالها تداخل الشعار الذي يحمل دلالة تجسيدية، مع الطغراء التي تحمل دلالة تجريدية، ونلاحظه أيضا من خلال مخطوط: "**تواريخ آل سلجوق**" الذي ألفه ابن بيبي (ت: 670هـ/ 1272م) عن سلاجقة الروم، وأعاد نسخه علي أفندي بأمر السلطان العثماني: مراد الثاني (824 - 855هـ/1421 - 1451م)، حيث وردت فيه عدة صور لـ: "**التمغا**"، من بينها صورة على شكل قوس للرماية، مرفق بثلاثة أسهم. من هنا يمكن القول ان الدولة العثمانية كانت هي الوريث الشرعي للدولة السلجوقية، كما أن التمغا

---

[43] - الأصبهاني، تاريخ دولة آل سلجوق، ص: 292

[44] - الوزنة، مدينة مرو والسلاجقة حتى عصر سنجر، ص. 70

[45] - ابن العديم (عمر بن أحمد بن هبة الله)، بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق: د. سهيل زكار، دار الفكر، د.ت، ج/4، ص. 1980. انظر أيضا.
- الذهبي (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد)، سير أعلام النبلاء، دار الحديث، القاهرة، طبعة 2006م، ج/13، ص: 334 - 337

[46] - ابن العديم، بغية الطلب، ج/4، ص: 1971. انظر أيضا
- الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج/13، ص: 404 495

[47] - ابن العديم، بغية الطلب، ج/4، ص: 1971. انظر أيضا: - الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج/13، ص: 404. ولنفس المؤلف؛ كتاب: - العبر في خبر من غبر، تحقيق د. صلاح الدين المنجد، مطبعة حكومة الكويت، 1984م، ج/3، ص: 260

[48] اوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ج/1، ص. 19

السلجوقية يُفترض فيها أن تكون الشكل الجنيني للطغراء العثمانية التي ستتميز بوجود الأشكال البيضوية والمقوسة المعبرة عن قوس الرماية السلجوقي، والألفات أو الطوغات الثلاثة المعبرة عن الأسهم التي تماثلها في الشكل والرمز والعدد كما سنقف على ذلك بنوع من التفصيل (انظر شكل: 3)



الصمة السلجوقية على شكل قوس للرماية مرفق بثلاثة أسهم، وهي الصورة التي يفترض فيها أن تكون الشكل الجنيني للطغراء العثمانية، التي ستتميز بوجود الأشكال البيضوية والمقوسة المعبرة عن قوس الرماية السلجوقي، والألفات أو الطوغات الثلاثة المعبرة عن الأسهم التي تماثلها في الشكل والرمز والعدد

قطعة نقدية سلجوقية مؤرخة في سنة: 646هـ/1248م، ترجع إلى عهد أحد سلاطين سلاجقة الروم الأول وهو قلج أرسلان الرابع (646 - 664هـ/1248 - 1266م)
Rare one year type lot 3080

شكل: 3

إذن فلا شك أن هذين الرمزين (القوس والطوغ) المستلهمين من تقاليد الفروسية عند الأتراك، دخلا بشكل أساسي في تكوين الطغراء العثمانية - التركية كما سنقف على ذلك. بل إن ما يميز الطغراوات المملوكية والصفوية، والطغراوات العثمانية أو حتى السعدية - كما سنطلع على ذلك بتفصيل كبير- هو وجود هذا القوس الذي يتخذ شكلا بيضويا، فنجده مثنّى في الطغراء العثمانية والطغراء السعدية، ومُثلّثا في الطغراوات الصفوية والطغراوات العُمانية - الزنجبارية، بينما نجده في الطغراء المملوكية على هيئة قوس علوي لدائرة "الرنك" المملوكي.

وكيفما كان الحال فإن أقدم توقيع طغرائي - سلجوقي، يتمثل في توقيع السلطان السلجوقي طغرل بك بن سلجوق (429 - 455هـ/1037- 1063م)، وكان هذا الشكل التوقيعي بسيطاً يستمد صورته الخطية من شكل **مقوس** لحرف: "**في**" المتصل بالياء الراجعة (السيفية)، حيث يجمع هذا الشكل الذي أورده الباحث الإيراني جهانگير قائم مقامي[49]. بين رأس "الطوغ" (**Tug**) و "القول" (**kul**) اللذان سيميّزان الطغراء العثمانية بعد ذلك:

والملاحظ أن هذه الصورة تختلف عن الصورة التي أوردها الراوندي في: "**راحة الصدور**"، والتي شبتهها بـ: "**شكل الدبّوس**"[50] لكن وبعد اطلاعنا عليها؛ وجدناها تشبه حرف: "**الياء الراجعة**" أكثر من أي شيء آخر:

أما فيما يتعلق بعبارات الطغراء السلجوقية، فيمكن القول إنها اختلفت من سلطان إلى آخر، وقد أوردها صاحب راحة الصدور كاملة في كتابه، بينما خصص لها صاحب كتاب: "مجمل التواريخ

---

[49] قائم مقامي، توقيع و طغرا و تطور آنها در تداول ديواني، ص: 248

[50] الراوندي، راحة الصدور، ص. 160

والقصص" صفحة كاملة، وأدرجها تحت عنوان: "نام و ألقاب وكنيت وطغرا وتوقيع آل سلجوق رحمهم الله"[51]. ويمكن حصرها في العبارات التالية:

طغرل بك: (ــــــــ). ألب أرسلان: (ينصر الله). بركيارق: (اعتمادي على الله). محمد بن ملكشاه: (استعنت بالله). سنجر: (توكلت على الله). محمود بن محمد: (اعتصمت بالله). طغرل الثاني: (اعتضدت بالله وحده). مسعود: (اعتمادي على الله). ملكشاه بن محمود: (استعنت بالله). سليمان بن محمد: (استعنت بالله). أرسلان بن طغرل: (اعتضدت بالله). طغرل الثالث: (اعتضدت بالله وحده)[52].

وفيما يلي بعض العملات السلجوقية التي تضمنت جملة من تلك العبارات الطغرائية (انظر شكل: 4 وشكل: 5)



قطعة نقدية سلجوقية ترجع إلى عهد أحد سلاطين سلاجقة الروم ألا وهو: عز الدين كيكاوس الثاني ابن كايخسرو الثاني (644 - 655هـ/1246- 1257م)

شكل: 4



قطعة نقدية سلجوقية مؤرخة في سنة: 660هـ/1261م، ترجع إلى عهد احد سلاطين سلاجقة الروم ألا وهو: ركن الدين قلج أرسلان الرابع (646 - 664هـ/1248 - 1266م)

رقم التصنيف: UE-2040

شكل: 5

ويشير بعض الباحثين إلى أن العثمانيين أخذوا أشياء كثيرة عن السلاجقة، وبما أن الفريقين احتكا بالعباسيين فإنه من الصعب تعيين ما أخذه العثمانيون عن العباسيين وما أخذوه عن السلاجقة. إنما يمكن القول بأن الأتراك السلاجقة كانوا واسطة توفيق بين الأساليب والنظم والعادات التركية القديمة وبين الأساليب والنظم العجمية والإسلامية[53]. وقد أكد هذا التوارث؛ المستشرق بارتولد الذي أشار إلى أن اصطلاح: "**طغراء**" لم يستعمله مؤخرًا إلا السلاجقة، وعنهم أخذه العثمانيون، أما في تعليقه على ذلك، فقد

---

[51] - مجمل التواريخ والقصص، ص. 408

[52] - الراوندي، راحة الصدور، صفحات: 160 186 214 234 255 299 306 325 359 392 403 462

[53] دوسون (رادجة)، نظم الحكم والإدارة في الدولة العثمانية في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، ترجمة: فيصل شيخ الأرض، الجامعة الأمريكية، بيروت، 1942م، ص: 7.

أشار أحد الباحثين إلى أن التسليم بانتقال الطغراء إلى العثمانيين، أمر يفرضه التوارث السلجوقي – العثماني، والاحتكاك العثماني – المملوكي، والحاجة الحضارية العثمانية لبناء الدولة[54].

ولاشك أن السلاجقة وغيرهم قد استعملوا رموزهم للدلالة على الطغراوات والتمغاوات وغيرها.. وهو استعمال دون أدنى شك له ما يبرره في ذلك العصر الذي كانت فيه للرموز دلالة قوية، على اعتبار أنها كرموز، تمتد إلى التاريخ القديم وتحديدا إلى اللغات الشرقية القديمة وكتاباتها المقطعية كالسومرية والهيروغليفية والسريانية وغيرها.. وقد أطلعنا "**ابن وحشية النبطي**"[55] على جملة من تلك الرموز في كتابه الفريد: "**شوق المستهام في معرفة رموز الأقلام**". الذي فك من خلاله شيفرة عدد كبير من تلك الكتابات ورموزها الملغوزة بالحرف العربي[56]. ومن أبرزها؛ رموز الهيروغليفية التي كان يُعتقد إلى عهد قريب أن الفرنسي جان فرنسوا شامبليون هو من فكّ رموزها في باريس سنة: 1822م[57]، ومن الرموز الهيروغليفية التي أوردها النبطي في كتابه؛ صورة القوس الذي يتخذ شكلا حلزونيا. وبعد استخراجنا لذلك الرمز من مخطوطتين مختلفتين لكتاب شوق المستهام[58]، تبين لنا أنه يتشابه من حيث المبدأ مع صورة القوس الذي اعتمده السلاجقة في توقيعاتهم، حيث يتوفر على طوغيْن وقوس حلزوني (انظر الشكل التالي):



رمز هيروغليفي يعبر عن القوس، استخرجناه من مخطوطتين مختلفتين لكتاب شوق المستهام
وهما يتشابهان من حيث المبدأ مع صورة القوس الذي اعتمده السلاجقة في توقيعاتهم

---

[54] – انظر: – بارتولد، تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ص: 137. انظر أيضا: – حنش (إدهام محمد)، الخط العربي في الوثائق العثمانية، دار المناهج، عمان، الأردن، الطبعة الأولى: 1998م، ص: 204

[55] – أبو بكر أحمد بن علي بن وحشية النبطي الكلداني من أهل العراق (كان موجودا سنة: 241هـ/856م).

[56] – حقق هذا الكتاب في طبعتين اثنين وفقنا في الاطلاع عليهما معا: الطبعة الأولى وهي طبعة قديمة نشرت في لندن سنة: 1806م، بتحقيق المستشرق النمساوي جوزيف همر. وطبعة حديثة نشرتها دار الفكر بدمشق، وهي بتحقيق: الباحث السوري إياد الطباع. انظر.

- Ancient Alphabets and Hiroglyphic characters explained, in Arabic language by Abu Beker Bin Wahshih and in English by Joseph Hammer, London 1806

– الطباع (إياد خالد)، منهج تحقيق المخطوطات ومعه كتاب: شوق المستهام في معرفة رموز الأقلام لابن وحشية النبطي، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى: 2003م

[57] – يشير الباحث يحيى مير علم أن ابن وحشية كان أول من فك رموز الكتابة الهيروغليفية وميز انواعها من خلال كتابه (شوق المستهام) الذي ألفه سنة. 341 هـ/861 م، ويعتبر المستشرق النمساوي جوزيف همر هو أول من كشف عن مخطوطة هذا الكتاب، حيث قام بطبعه سنة. 1806م بلندن، ولعل هذا الأمر، يقوي فرضية استفادة عالم المصريات الفرنسي: "جان فرانسوا شامبليون" من هذه المخطوطة قبل قيامه بفك رموز الهيروغليفية، سيما وأنه لم يقم بهذا الأمر سوى في سنة. 1822م، أي: بعد 16 سنة من نشر كتاب: شوق المستهام من طرف جوزيف همر، انظر

– مير علم (يحيى)، ابن وحشية النبطي وريادته في كشف رموز هيروغليفية في كتابه: "شوق المُسْتهام في معرفة رموز الأقلام"، مجلة ديوان العرب، 24 يناير 2007م، ص: 13

[58] – تحصلنا على مخطوطتين اثنتين لكتاب: "**شوق المستهام في معرفة رموز الأقلام**" لابن وحشية النبطي، أولاهما: نسخة مؤرخة في 1164هـ 1751م، وهي محفوظة بالمكتبة الوطنية بباريس تحت رقم: (Arabe 6805)، والثانية محفوظة بمكتبة بافاريا بمدينة ميونيخ الألمانية، تحت رقم (cod.arab.789)، وهي مؤرخة في. 1205هـ/1791م

الفصل الثاني: أصل الطغراوات المشرقية، وعلاقتها بالشكل المربع عند كل من المماليك والممالك الهندية الإسلامية، والصفويين والزنجباريين - العُمانيين:

1 - طغراء المماليك:

إن من أقدم الطغراوات في العالم الإسلامي، التي ظهرت بشكل واضح، تسمية ورسما ووظيفة، هي طغراء المماليك، وشكلها كان يتجسد في صورة "**المربع**" بوصفه تَمثُّلَ هندسي نوراني، يحيلنا على شكل الكعبة المشرّفة؛ قِبلة المسلمين. وقد شابههم في ذلك كل من الممالك الهندية الإسلامية والصفويين الذين اتخذوا من الشكل نفسه أنموذجا لرسم طغراواتهم الرسمية، ولا شك أن اعتماد هذه الصورة من قِبل الدول المذكورة التي ترجع إلى الفترة الوسيطية، دليل على إضفاء طابع الشرعية، على سلطتها الزمنية (السياسية)، سيما وأن تلك الشرعية كانت دائما تنطلق من مكة. فعلى الرغم من بعد مكة المكرمة عن "**قواعد ملك**" الدول الإسلامية المشرقية، كدمشق، وبغداد، والقاهرة، وإستانبول العثمانية، وغيرها.. إلا أنها شكلت منطلق الشرعية لكل الدول التي كانت تروم الحصول على الأحقية في تملك العالم الاسلامي على المستوى الروحي.

من هذه القناعة بالذات، سارع المماليك مباشرة وبعد سقوط الدولة العباسية، وسقوط عاصمتها بغداد سنة: 656هـ/1258م في أيدي التتار، إلى إرسال "محمل" كسوة الكعبة المشرفة من القاهرة، وكان أول من كساها من سلاطين الدولة المملوكية؛ الظاهر بيبرس البندقداري (658 - 676هـ/1260 - 1277م)، واستمرت الكسوة توجّه من مصر حيناً ومن اليمن حيناً آخر، حتى عهد السلطان حسن بن محمد الناصر بن قلاوون (حكم في فترتين مختلفتين: 748 - 752هـ/1347 - 1351م. وأيضا: 755 - 762هـ/1354 - 1361م)، الذي كان آخر من أرسلها من المماليك البحرية سنة: 750هـ/1349م[59]. قبل أن ياتي دور المماليك البرجية الذي أسس دولتهم السلطان الظاهر سيف الدين برقوق (784 - 801هـ/1382 - 1399م)[60]، أما السلطان العثماني (الباب العالي)، فقد كان يرسل "**الصُرة الهمايونية**" (**Surre - i Humayun**)، وهي عبارة عن كيس من النقود يوزع على مجاوري مكة المكرمة والمدينة المنورة من الشرفاء والأمراء والأعيان، وكانت قافلة الصرة تخرج من استانبول في يوم: 12 رجب من كل سنة متوجهة إلى الحجاز[61].

---

[59] - "**المماليك البحرية**" أو مماليك الترك، هم سلالة من المماليك أغلبها من الأتراك القبجاق الذين حكموا مصر بعد "الأيوبيين"، مذ سنة 648هـ/1250م إلى سنة: 784هـ/1382م. وبعدهم، آل الحكم إلى سلالة المماليك المسماة بـ: "المماليك البرجية"
و لفظ . "البحرية" يشير إلى "البحر" الذي يقصد به: جزيرة الروضة في القاهرة، التي عاش بها المماليك و بنى بها السلطان الأيوبي الصالح أيوب قلعة الروضة

[60] - "**المماليك البرجية**"، هم سلالة من المماليك أغلبها من الأتراك الشراكسة أو الجراكسة، و لفظ . "البرجية" يشير إلى "البرج" أو "الحصن" كانوا في أول أمرهم عبارة عن لواء (من المماليك)، يقيم في القلعة منذ أن جنّدهم قلاوون قبل مائة سنة تقريبا من وصولهم للحكم سنة 787هـ/1382م وبدأ حكمهم بالظاهر برقوق، وانتهى بالأشرف قانصوه الغوري الذي قتله العثمانيون في موقعة: مرج دابق سنة: 922هـ/1516م

[61] صبان (سهيل)، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، مراجعة: عبد الرزاق محمد حسن بركات، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية، السلسلة الثالثة (43)، الرياض، 2000م، ص: 144

ومعلوم أن الصراع كان على أشده بين المماليك الذين كانت مكة والمدينة والقدس تحت وصايتهم، وبين العثمانيين الذين طفحوا على مسرح الأحداث، وكانوا يبيّتون النيّة لتجريد المماليك من هذا الدور التاريخي حتى يستكملوا عناصر سيادتهم السياسية والروحية على مجموع العالم الإسلامي، وهو الأمر الذي سيتأتى لهم بعد الاستيلاء على مصر سنة: 922هـ/1516م. وفي هذا الشأن، يشير المؤرخ التركي العثماني؛ يلماز اوزتونا إلى حساسية السلاطين العثمانيين قبل الاستيلاء على مصر من استئثار المماليك بهذا الدور الروحي، وخير دليل على ذلك؛ الشعور الذي كان يساور السلطان العثماني محمد الفاتح (855 - 886هـ/1451 - 1481م)، حيث كان متأثرا من وجود كافة المدن والمقدسات الإسلامية لدى المماليك، في الوقت الذي كانت تُعـد فيه الدولة العثمانية أقوى دولة إسلامية[62]، سيما بعد فتح هذا السلطان لمدينة القسطنطينية التي ظلت عصية على المسلمين طيلة عدة قرون.

وذهب الباحث نفسه إلى أن السلطان المذكور كان يرى أن المماليك البرجية - وإن كانوا من الأتراك - فهم مجرد "**عبيد شركسيين**"، لا ينحدرون مثله من "**أوغز خان**"، وبالرغم من ذلك فإنهم احتضنوا أحفاد الخلفاء، وسيطروا على ثلاث مدن إسلامية مقدسة، هي: مكة، والمدينة، والقدس. وبفضل هذه العناصر المعنوية، كانوا يدّعون أنهم دولة الإسلام، وهم من يمتلكون الشرعية، والأصل أن يكون ذلك لمحمد الفاتح، لأنه الخلف الشرعي للدولة السلجوقية - التركية، مما يعطيه الأفضلية على المماليك، سيما وأن السلاجقة هم أسياد "**الأتابكة الزنكيين**" - **الأيوبيين**، وهؤلاء هم أسياد "**المماليك الشراكسة**". وقد ظل هذا الرأي؛ هو الاعتقاد السائد والرسمي للدولة العثمانية من بدايتها حتى اضمحلالها[63].

ولترجمة هذا الاعتقاد على مستوى الواقع، قام السلطان العثماني: "ياوز" (**الشديد**) سليم الأول (918 - 926هـ/1512 - 1520م)[64]، وهو حفيد محمد الفاتح، بالقضاء على دولة المماليك التي انتهت بمقتل آخر سلاطينها قانصوه الغوري (906 - 922هـ/1501 - 1516م)، فتلقب من حينها بـ: "**خادم الحرمين الشريفين**" وكان ذلك - تحديدا - في يوم الجمعة: 30 رجب 922هـ/29 غشت 1516م، **في** الجامع الكبير بمدينة حلب ببلاد الشام، حيث استبدل السلطان سليم كلمة: "**حاكم**" (حاكم الحرمين الشريفين) التي لقّبه بها خطيب الجامع. بكلمة. "**خادم**" (خادم الحرمين الشريفين) تواضعا منه وانكسارا لربه، وظل هذا اللقب حكرا على سلاطين الدولة العثمانية حتى سنة: 1343هـ/1924م، وبهذا اللقب اكتملت صفة خلافة العثمانيين، فانتقلت - تبعا لذلك - مكة والمدينة والقدس إلى الإدارة العثمانية[65].

وحتى نربط ما قلناه بالطغراء ورمزيتها السيادية، نشير إلى أن المماليك، ولتخليد سيادتهم على المدن المقدسة الثلاث، كانوا يُزيّنون عمائرها بطغراواتهم السلطانية، كما سنطّلع على بضعة نماذج منها لا

---

62 - اوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ج/1، ص: 172

63 المرجع نفسه، ج/1، ص. 157

64 المرجع نفسه، ح/1، ص. 213

65 المرجع نفسه، ح/1، ص 225

تزال بقيد الوجود، وبناء عليه، يمكن القول ان من أوضح الصور المعلومة للطغراء المشرقية قبل العثمانيين، هي تلك الصورة التي عُرفت مع دولة المماليك بمصر، والتي انتقلت إليها - كتقليد سلطاني وليس كرسم معلوم - من السلاجقة عن طريق الأيوبيين كما صرحت بذلك المصادر المشرقية في معرض حديثها عن "شجرة الدّر"، وهي الأميرة التي يمكن اعتبارها أبرز نقلة نوعية وزمنية بين دولة الأيوبيين ودولة المماليك بمصر[66].

ومادامت الطغراوات والعلامات المملوكية هي أوضح صورة للطغراء المشرقية قبل العثمانيين من حيث الجانب الكرونولوجي والفني، فإنه يتعين علينا تسليط الضوء على بعض سماتها وأوصافها التي تناولتها بعض المصادر، وعلى رأسها كتاب: "**صبح الأعشى**" لصاحبه أبي العباس أحمد القلقشندي (756 - 821هـ/1355 - 1418م) المعاصر لابن خلدون (732 - 808هـ/1332 - 1406م)، والذي يُعد أبرز من تحدث عن سماتها وملامحها الفنية، حيث أكد لنا أن الطغراء كانت ترتبط بـ: "**الكتب الصادرة عن السلطان [التي ينبغي أن] تكون طويلة الطرّة، وتكون [طغراواتها] بقلم جليل غير دقيق...**"[67]. كما أكد أيضا أن الطغراء في المشرق هي التي كانت ترسم في موضع العلامة، حيث يقول: "**الكنية من المكتوب عنه قد تكون في صدر الكتاب كما يكتب عن الخلفاء.. أو في موضع العلامة كما يكتب في الطغراة من السلطان لملوك الكفر بعد سياقه ألقاب السلطان (أبو فلان فلان)**"[68].

ويشير القلقشندي إلى أن الطغراوات، كانت مختلفة من حيث أشكالها في المرحلة التي يؤرخ لها، وذلك راجع - حسب رأيه - إلى طبيعة أسماء السلاطين وما تفرضه من صور فنية. يقول القلقشندي: "**واعلم أن هذه الطغراوات تختلف تركيباتها باعتبار كثرة منتصباتها من الحروف وقلتها، باعتبار كثرة آباء.. السلطان وقلتهم، ويحتاج واضعها إلى مراعاة ذلك باعتبار قلة منتصبات الكلام وكثرتها**"[69].

ولا شك أن القلقشندي لم يميز الطغراء بـ "**كثرة منتصباتها من الحروف وقلتها**" إلا من خلال ما كان يعاينه من رسومها في عصر المماليك بمصر، التي ينتمي إليها، حيث كان من ضمن رجالات السلطان؛ الظاهر سيف الدين برقوق (784 - 801هـ/1382 - 1399م)، الذي عيّنه في دار الإنشاء بالديوان السلطاني المملوكي، وانطلاقا من منصبه هذا، كان على معرفة كبيرة بنوع الطغراوات التي استعملها المماليك، إلى درجة أورد معها أنموذجين منها بخطه، قمنا باستخراجهما من كتابه المذكور، فوجدناهما مطابقان تماما للوصف الذي وصف به طغراء المماليك، حيث تتميز هذه الطغراء بكثرة منتصباتها وقوائمها التي تبدو متراصة، تفصل فيما بينها المسافة نفسها بشكل متوازن يطبعه قانون التوازي، مما جعلها تبدو

---

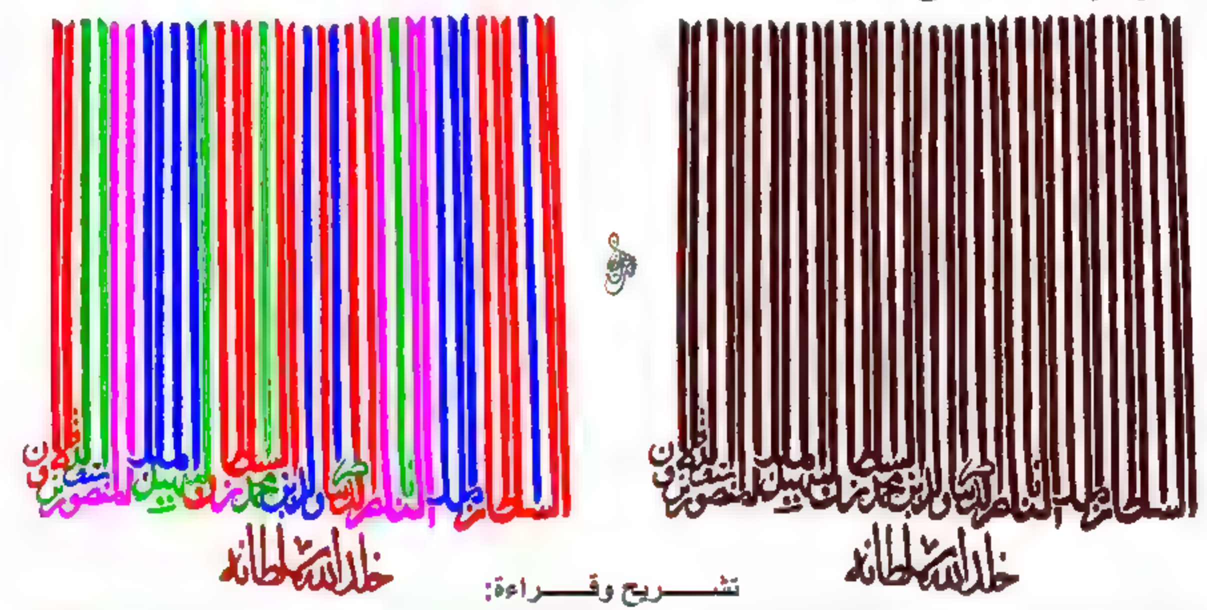
[66] - المقريزي (أحمد بن علي بن عبد القادر)، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 1997م، ج/1، ص 444

[67] - القلقشندي (أحمد بن علي)، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، تحقيق: يوسف علي طويل، نشر دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى 1987م، ج/7، ص 19 20

[68] المصدر نفسه، ج/5، ص: 410

[69] المصدر نفسه، ج/13، ص. 168

شامخة تطابق بعنانها السماء في إشارة إلى منعة السلطان وقوته، كما تبدو ترويساتها متساوية كأسنان المشط، ولا شك أن في ذلك ما يشير إلى العدل الذي هو أساس الملك، وقد كانت الطغراء المملوكية تتكون من قاعدة تنتظم فيها سائر الحروف دون المنتصبات والقوائم، مشكّلة بذلك كرسيا سبيكيا يتألف من اسم السلطان ونسبه. وكان يضاف لاسم السلطان المشكِّل للطغراء المملوكية ما يفيد الدعاء له، ويتجلى ذلك في عبارة: "**خلد الله سلطانه**". وما يسترعي الانتباه؛ هو استعمال المماليك أيضا لطغراوات أخرى تختلف عن الشكل المربع، كما نلاحظه على سبيل المثال من خلال طغراء مملوكية بيضوية الشكل، استخرجناها من رسالة بعثها السلطان المملوكي: الصالح عماد الدين إسماعيل بن الناصر إلى السلطان المريني أبي الحسن بتاريخ: 6 رمضان 745هـ/11يناير 1345م. (انظر شكل: 6):



تشـــريح وقــــراءة:

السلطان الملك الناصر ناصر الدنيا والدين محمد بن السلطان الشهيد الملك المنصور سيف الدين قلاون

خلّـــد الله سلطانه

طغراء السلطان المملوكى محمد الناصر بن قلاوون (عاش بين: 684 -741هـ/1285 -1341م)

المصدر: القلقشندي، صبح الأعشى، ج/13، ص: 170.



تشـريح وقـراءة:

عبـــــــد اللـــــه ووليـــــــه

هــــاء ترمز الى كلمـة: "انتهـــى" اي: انتهى مضى النص.
= وكان هذا الحرف يستعمل بهذا الشكل المختزل للفصل بين الفقرات
حيث يقوم مقام النقطة التي نستعملها اليوم ضمن علامات الترقيم

طغراء السلطان المملوكي: الصالح عماد الدين إسماعيل بن الناصر (743 - 746هـ/1342 - 1345م) وتتكون من عبارة: "عبد الله ووليه". استخرجناها من رسالة جوابية مؤرخة في: 6 رمضان 745هـ/11 يناير 1345م. بعثها إلى السلطان المريني أبي الحسن علي بن عثمان (731 - 749هـ/1331 - 1348م)

نشر نسخة منها بالابيض والاسود: عبد الهادي التازي في كتابه: "الوسيط في التاريخ الدولي للمغرب". ج/2. ص: 256.

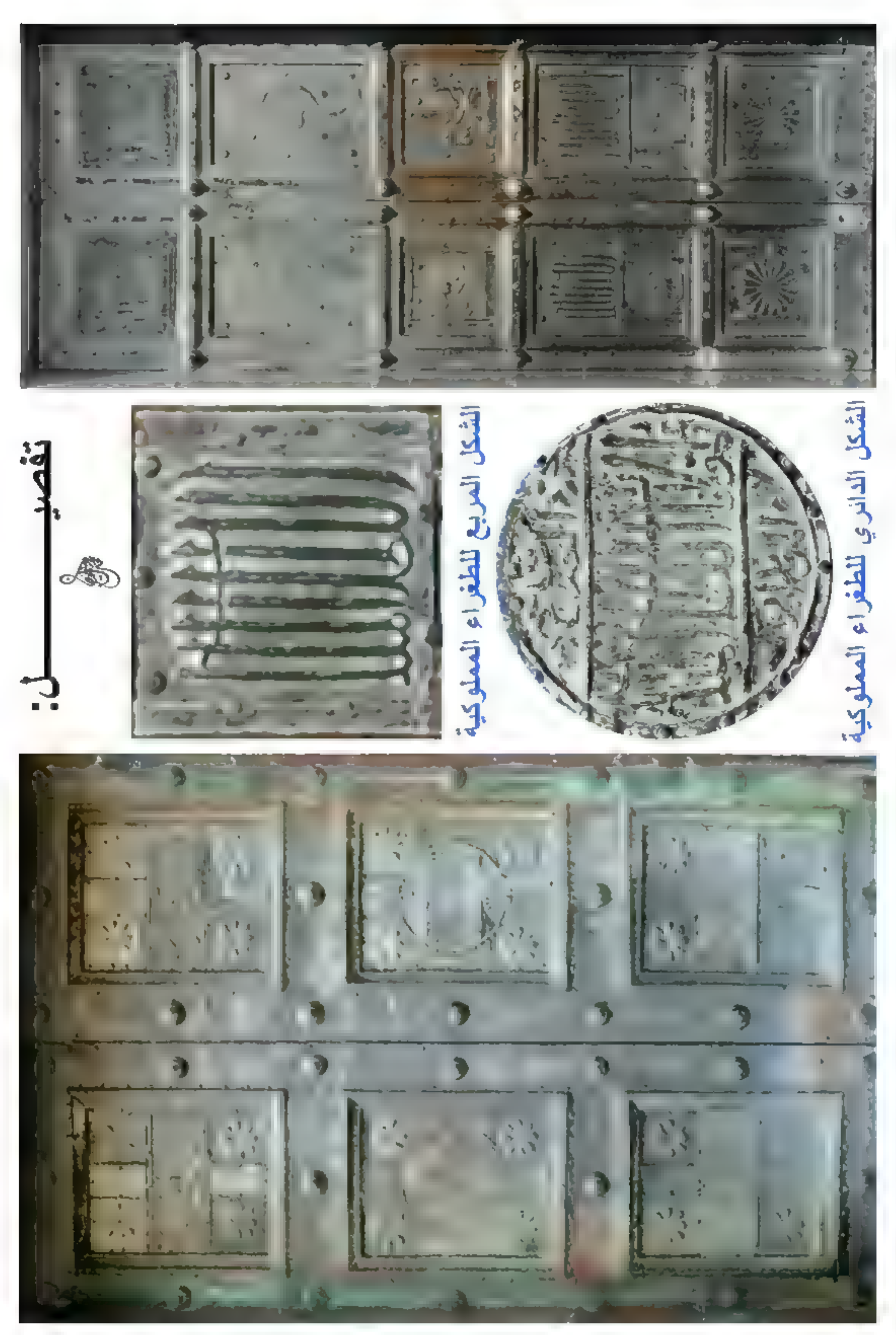
شكل: 6

وتجدر الإشارة إلى أن الطغراء المملوكية، كانت لها مجالات واسعة من حيث الاستخدام، ففضلا عن الوثائق والمراسلات، نجدها قد شملت كافة الحوامل (**Supports**) الأخرى كالنقائش والنُّصب التذكارية، والشواهد التأسيسية، والقطع النقدية وغيرها.. علاوة على ذلك؛ استعملت في تزيين مختلف المنشآت المعمارية (كالمساجد والمدارس والقلاع) في كل من مصر وبلاد الشام، بل وحتى في جدران الحرم المكي الشريف، ومن خلال اطلاعنا على هذه الطغراوات، التي يعتقد البعض أنها مجرد زخارف كتابية على المباني المعمارية للمماليك، تأكد لدينا أنها عين الطغراء التي تحدث عنها القلقشندي، لكونها تمتلك شكلا نمطيا مميزا، وبناء هيكليا موحدا، يتجسد في فضاء الدائرة، يتكرر مع كافة سلاطين الدولة المملوكية وإن اختلفت أسماؤهم، ومعلوم أن هذا الشكل هو ماكان يصطلح على تسميته بـ: "**الرنك**" **Runk** (**Blason**)[70]، الذي كان عادة مايتم تشكيله عن طريق إضفاء بعض التحسينات الجمالية، والتعديلات الهيكلية على الطغراء، بعد نقلها من الوثائق المخطوطة إلى حوامل أخرى منقوشة، ومن ذلك على سبيل المثال؛ أن يتم حصرها في فضاء الدائرة لتتخذ شكل: "الشارة" أو"الشعار".

ومعلوم أن "الدائرة" تعد من الأشكال النورانية على غرار "المربع"، لأنها تحيلنا على صورة الطواف بالكعبة المشرفة، كما أن المربع لا يحيطه من جهاته الأربع - الدالة على الأبعاد المكانية والجغرافية - أيّ شكل هندسي آخر سوى الدائرة، والدائرة لا يحصرها وفق الأبعاد نفسها أي شكل هندسي سوى المربع، وكأن أحدهما يعبر عن الآخر، لذلك كان استعمالهما عند المماليك يشكل وجهين لعملة واحدة. ولعل هذا التوافق بين الشكلين من حيث دلالتهما الرمزية، هو ما دفع المماليك إلى استعمالهما جنبا إلى جنب على بعض الحوامل. كما نلاحظه - على سبيل المثال - من خلال أبواب الجامع الأموي بدمشق. الذي تجمع طغراواتـه السلطانية بين المربع والدائري، ولتأكيد ذلك؛ قمنا باستخراج بعض نماذجه على سبيل المقارنة (انظر شكل: **7**)

[70] - الرنك (جمعها رنوك)، وهي كلمة فارسية أصلها: "رنج"، وتعني: اللون، وقد عربت هذه الكلمة وأصبح حرف الجيم كافا، استخدمت بمعنى العلامة أو الشارة أو الشعار، الذي كان يستعمله الأمراء والسلاطين في مصر خلال عصر الدولة المملوكية. وقد كان يستخدم الرنك كذلك للدلالة على وظيفة الأمير أو اهتماماته البطولية، التي ترمز إلى الشجاعة، كما هو الأمر بالنسبة للظاهر بيبرس الذي اتخذ الأسد أو الفهد رنكا يرسمه على راياته، وينقشه على نقوده. ولا شك أنه أخذ ذلك عن السلاجقة الذي استعملوا ذلك في نقودهم وعلى راياتهم

وقد عرفت الرنوك في العصر المملوكي الانتقال من التجسيد إلى التجريد، وبخاصة في عهد السلطان قايتباي، حيث أصبح الرنك يرمز إلى وظيفة الساقي الذي يقوم بأمر مشروبات السلطان ودواة الحبر، التي ترمز للدوادار، وهو المسؤول عن حمل دواة الحبر الخاصة بتوقيع السلطان على الأوامر الرسمية



بعض أبواب الجامع الأموي بمدينة دمشق، وجانب من أشكال الطغراوات المملوكية التي زينت بها والتي تجمع بين الشكلين الدائري والمربع، كما تتضمن اسم السلطان والدعاء له
شكل: 7

وعلى العموم، فقد كانت "رنوك" المماليك دائرية الشكل، حيث تتضمن كنية السلطان واسمه واسم أبيه، ثم الدعاء له بالنصر والتمكين، وقد تحدث القلقشندي عن هذا التقسيم بإسهاب في مصنفه، حيث أشار إلى أن: "**الطغراة.. [هي] ألقاب السلطان «أبو فلان فلان»**"[71]. وهذه المعاني هي نفسها التي سيتبناها العثمانيون في طغراواتهم كما سنلاحظ ذلك.

وعادة ماكانت توضع كنية السلطان المملوكي في القوس العُلوي للرنك، وهو القسم الأول من الدائرة، يليه اسمه ولقبه بين الخطين المتوازيين حيث يبدو وفق الصورة التي أثبته بها القلقشندي، بشكل سبيكي تعلوه المنتصبات، وهو مفتتح بكلمة: "**السلطان**.." التي ترسل "**نونها المتطرفة**" لتقطع منتصبات الشكل الطغرائي المتراصة والمتوازية في منتصفها على امتدادها العرضي، مجتمعة من اليمين إلى اليسار، وفي القوس السفلي للدائرة، تكتب عبارة الدعاء للسلطان من قبيل: "**عزّ نصره**" أو "**خلّد الله سلطانه**"، إلى غير ذلك من العبارات التي تفيد الدعاء له بالنصر والتمكين، وفي حالات قليلة يوضع في القوس السفلي للدائرة "إسم أبي السلطان"، (كما نلاحظ ذلك من خلال النماذج الطغرائية للسلطان فرج بن برقوق)، وفيما يلي صورة توضيحية للرنك الطغرائي المملوكي (انظر شكل: 8). مدعوما بمجموعة من الشواهد المادية والمعمارية التي تؤكد ذلك في كل من مصر وبلاد الشام، حيث كان حضور هذه الطغراوات - من حيث الجانب الإبيغرافي - السمة البارزة لهذه الدولة (انظر الأشكال: 9 - 10 - 11 - 12 - 13 - 14).



تصميم لشكل الرنك الطغرائي المملوكي
شكل: 8

---

[71] - القلقشندي، صبح الأعشى،ج/5، ص: 410



تفصيـــــــــل:



رنك طغراني باسم السلطان سيف الدين برقوق (784 - 801هـ/1382 - 1399م)
على قلعة بمدينة: "خان يونس" بفلسطين، يرجع تاريخه إلى سنة: 789هـ/1387م
شكل: 9



بلاطة باسم السلطان الأشرف سيف الدين قايتباي (872 - 901هـ/1468 - 1496م)
المصدر: متحف الفن الإسلامي بالقاهرة، رقم: 3265
شكل: 10



طغراء دائرية تتوسط شكلا نجميًا من الخشب المطعم بالزخارف الصدفية، باسم السلطان المملوكي:
الأشرف سيف الدين قايتباي (872 - 901هـ/1468 - 1496م) بتاريخ: 874هـ/1470م.
المصدر: متحف اغا خان للفنون الاسلامية، تورونتو - كندا، رقم: AKM00703
شكل: 11





رنكان طغرانيان يجسدان الصراع الذي كان بين السلطان المملوكي: الناصر فرج بن برقوق الذي حكم فترتين اثنتين بعد عزله في الأولى ومقتله في الثانية: (801 - 807هـ/1399 - 1405م)-(807 - 815هـ/1405 - 1412م)، وبين أخيه: المنصور عبد العزيز بن برقوق (807 - 807هـ/1405 - 1405م) الذي تولى الحكم بعد عزل أخيه وهروبه في فترة حكمه الأولى.

كانا مثبتين في الباب الرئيسي بالواجهة الشرقية للجامع الأموي بدمشق
المصدر: محفوظان بالمتحف الوطني - دمشق
شكل: 12

تفصيـــــــل:





قلعة الأشرف سيف الدين قايتباي (872 – 901هـ/1468 - 1496م) - الإسكندرية

تفصيـــــــل:





سبيل كُتَّاب السلطان الأشرف سيف الدين قايتباي (872 - 901هـ/1468 - 1496م) - القاهرة

تفصيـــــــل:



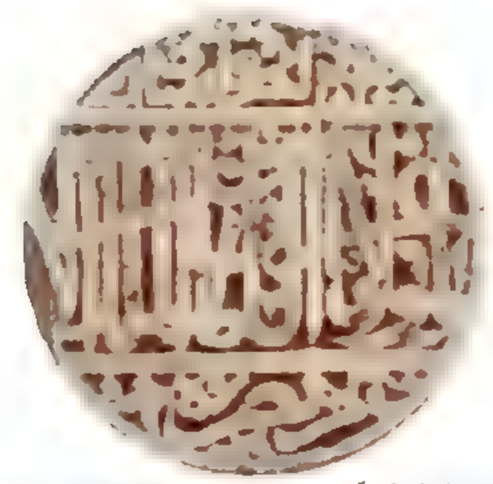


مسجد آخر سلاطين المماليك: الأشرف قانصوه الغوري (906 - 922هـ/1501 - 1516م) - القاهرة

بعض الرنوك الطغرائية المنقوشة في مختلف المنشآت المعمارية المملوكية بمصر
شكل: 13



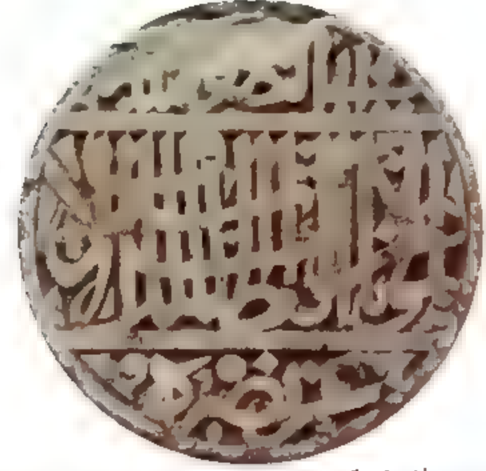
رنك طغراني للاشرف برسباي (825 - 841هـ/1422 - 1437م)
بـــــــاب المقـــــــام



رنك طغراني للاشرف قايتباي (872 - 901هـ/1468 - 1496م)
مسجـــــــد الحـــــــرمين



رنك طغراني للأشرف قايتباي (872 - 901هـ/1468 - 1496م)
مسجـــــــد الشـــــــرف



رنك طغراني للأشرف قايتباي (872 - 901هـ/1468 - 1496م)
قصبــة الأكـــراد (خير الله)



رنك طغراني لقانصوه الغوري (906 - 922هـ/1501 - 1516م)
بـــــــاب الجنـــــــان



رنك طغراني لقانصوه الغوري (906 - 922هـ/1501 - 1516م)
بـــــــاب الحديـــــــد

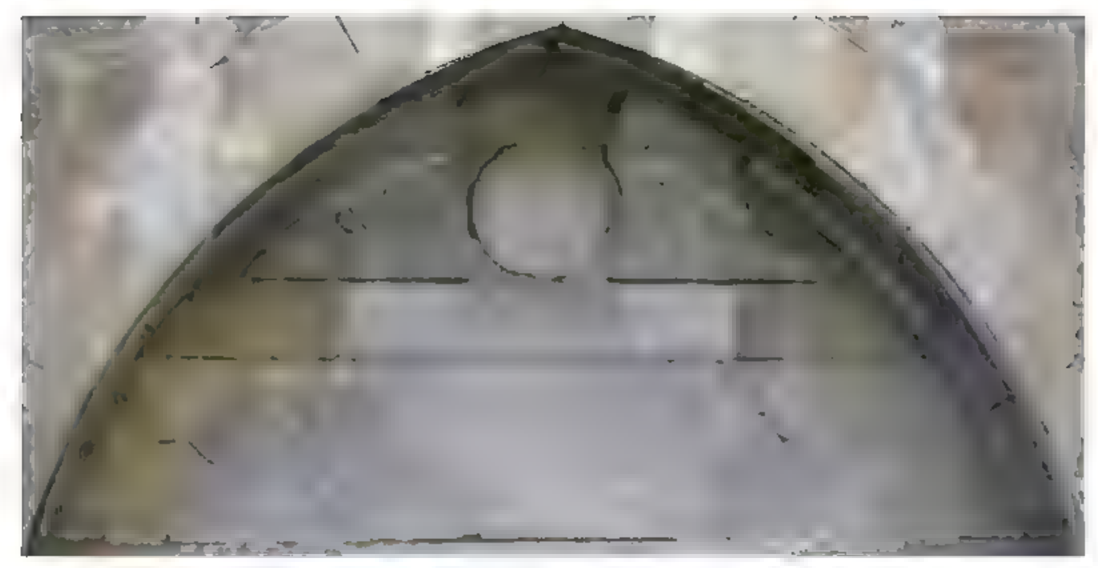
رنوك طغرانية لبعض سلاطين الدولة المملوكية، استخرجناها من معالم أثرية بمدينة حلب ببلاد الشام
شكل: 14

بل إن المماليك رسموا طغراواتهم ونقشوها على منشآتهم المعمارية في بعض المدن التركية التي كانت تابعة لهم، ولا تزال إلى اليوم شاهدة على ذلك، ونذكر على سبيل المثال لا الحصر؛ مدينة: "**شانلي أورفا**" (**Şanlıurfa**) التركية التي تقع جنوب شرق الأناضول، وهي المدينة التي كانت تسمى عند العرب قديما: "**الرها**"، حيث يظهر للعيان وجود الرنوك الطغرائية للمماليك التي تدل على سيادة دولتهم على هذه المدينة، إذ أنها تحمل اسم السلطان الأشرف سيف الدين قايتباي (872 - 901هـ/1468 - 1496م) الذي أمر بترميم أبواب المدينة وأسوارها بعد أن زارها سنة: 882هـ/1477م، للقضاء على الثورات القائمة بها ومواجهة خطر الدولة العثمانية التي كانت في مراحلها التوسعية، وبعد الانتهاء من الترميم سنة: 888هـ/1483م[72]. زُيّن الحيز العُلوي للباب الجنوبي والأسوار المحيطة به برنـك قايتباي.

وفي الحملة نفسها اتجه قايتباي إلى مدينة: "**غازي عنتاب**" (**Gaziantep**) التركية، وهي مدينة تقع جنوب شرق الأناضول، فأمر بترميم أسوار "قلعتها الحصينة"، وتهيئتها قصد الاستعداد لأي هجوم محتمل من طرف الدولة العثمانية، التي كان سلطانها محمد الفاتح (855 - 886هـ/1451 - 1481م) منتشيا - آنئذ - بفتحه للقسطنطينية سنة: 857هـ/1453م. وقد انتهت أعمال الترميم في سنة: 886هـ/1481م[73]. وزُيّنت أسوارها بطغراوات السلطان المملوكي كتعبير على حيازته للمدينة وسيادته عليها (انظر شكل: 15)

[72] Devonshıre, R L, « Relatıon d'un voyage du sultan Qaıtbay en Palestıne et en Syrıe », ın BIFAO XX, 1922, p 15

[73] ıbid, p 1 - 43



الحيز العلوي للباب الجنوبي لمدينة"شانلي اورف"(Şanlıurfa)



واجهة الجدار الأمامي خارج أسوار المدينة
مدينة: "شانلي أورفا" (Şanlıurfa) التركية



طغراوات قايتباي على أحد أسوار قلعة مدينة: "غازي عنتاب" (Gaziantep) التركية
التي اعيد تجهيزها سنة: 886هـ/1481م لمواجهة العثمانيين

رنوك طغرانية مملوكية لا تزال منقوشة على أسوار بعض القلاع المملوكية في مدينتي:
"شانلي أورفا" (Şanlıurfa) و"غازي عنتاب" (Gaziantep) التركيتين

شكل: 15

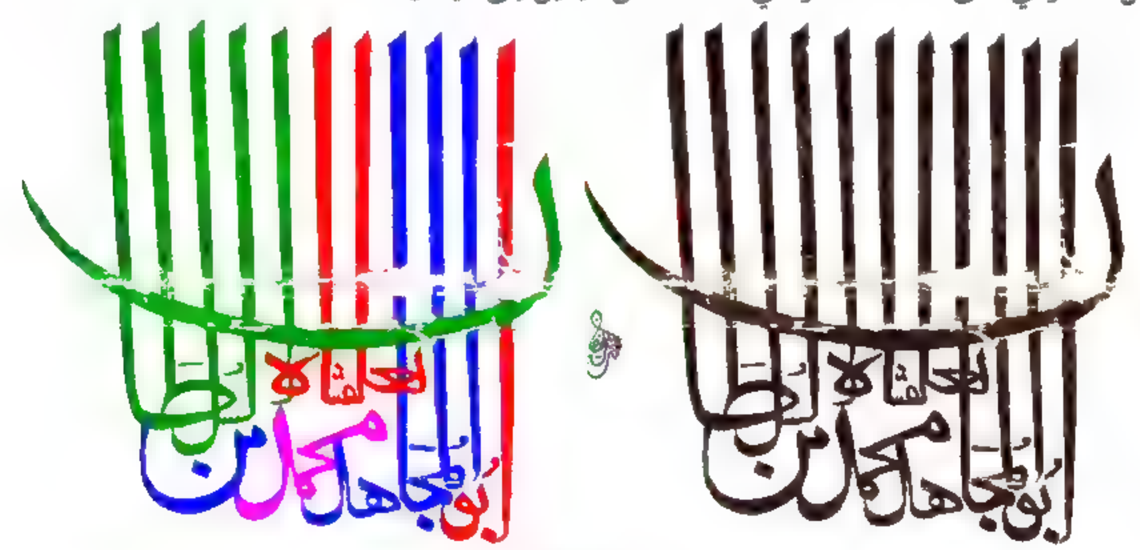
2 طغراوات الممالك الهندية الإسلامية، والصفويين ببلاد فارس، والعرب بسلطنة عمان:

2 - 1 - طغراء الممالك الهندية الإسلامية:

إن استخدام الطغراء في العصر المملوكي بكل من مصر والشام، تزامن مع استخدامها في الممالك الهندية الإسلامية، وهذا ما يفسر - دون أدنى شك - التشابه الكبير بين الطغراوات في كلا البلدين، وذلك مرده إلى عاملين أساسيين:

أولهما: العلاقات الدبلوماسية المتينة التي كانت تربط - على سبيل المثال - بين مصر وبلاد البنغال (بنغلاديش حاليا) في تلك الفترة، وخاصة بين السلطان المملوكي؛ الأشرف برسباي (825 - 841هـ/1422 - 1437م)، والسلطان البنغالي؛ جلال الدين محمد شاه (820 - 836هـ/1418 - 1433م).

ثانيهما: انتقال الطغراء - رأسا - إلى البلدين معا عن السلاجقة. وحتى نؤكد التشابه الموجود بين الطغراء المملوكية وطغراء الممالك الهندية الإسلامية، نسوق (الشكل: 16) الذي يمثل طغراء هندية كثيرة المنتصبات تم تعريفها في الأسفل بكلمة: "طغرا"، استخرجناها من فرمان للسلطان **أبي المجاهد محمد بن تغلق شاه** (725 - 752هـ/1324 - 1351م)، واسمه الأصلي: "**جونه**"[74]، ونص الطغراء: "**أبو المجاهد محمد بن تغلق شاه السلطان**". ويلاحظ إرسال حرف النون من كلمة: "**السلطان**" حيث تقطع منتصبات الشكل الطغرائي على امتدادها العرضي مجتمعة من اليمين إلى اليسار:



تشـــــــريح وقــــــــراءة:

أبو المجاهد محمد بن تغلقشاه السلطان

طغراء "دلهي" الهندية، لأبي المجاهد محمد بن تغلق شاه، واسمه الأصلي: "جونه" (725 - 752هـ/1324 - 1351م)
ونص الطغراء: "السلطان أبو المجاهد محمد بن تغلق شاه"[75].
شكل: 16

[74] - رحلة ابن بطوطة، ج/3، ص: 149

[75] اشتهر عن محمد بن تغلق أنه كان يسفك الدماء، ويقتل كل من يخالفه لأقل سبب، وقد ذكر له ابن بطوطة مواقف كثيرة تدل على قوته، وشدته في معممة الرعية، وفي عهده تعرضت البلاد لهجوم المغول والتتار، ولكن محمد بن تغلق احتال عليهم بالهدايا والأموال حتى رجعوا عن بلاده

ويشير ابن بطوطة في هذا الشأن، أن "خوند عالم" (السلطان) **محمد بن تغلق شاه،** كان هو وأبوه **"من الأتراك المعروفين بالقَرَوْنَة، بفتح القاف والراء وسكون الواو وفتح النون، وهم [الـ] قاطنون بالجبال التي بين بلاد السند والترك"**[76]، وقد استقام له الملك بالهند بعد فتح أبيه تغلق لحضرتها: **"دلهي"**[77]، وأضحى يسمى بـ: **"ملك الهند والسند"**[78]، ويضيف ابن بطوطة أنه دخل في رحلته المشهورة التي قام بها في عهدي أبي سعيد وابنه أبي الحسن المرينيَيْن إلى الهند في عهد هذا السلطان بنص قوله: **"وأما أخبار هذا الملك فمعظمها مما شاهدته أيام كوني ببلاده"**[79]، بل وأقام في الهند مدة إلى درجة عيّنه معها في سنة: **742هـ/1341م** بأمر سلطاني **"قاضي دار الملك: دهلي [دلهي]، وجعل مرتّبـ [ـه] اثني عشر ألف دينار في السنة"**[80]، وقد كان ابن بطوطة يشرف بنفسه على تسجيل العقود بخطه[81]، وأثناء تعيينه في هذه المهمة، نقل لنا ابن بطوطة بعض تقاليد الديوان السلطاني لهذا الملك، وخاصة فيما يتعلق بوظيفة الكتابة، حيث ذكر اسم خط كان يستعمل في الدواوين السلطانية يطلق عليه: **"خطّ خرد"**، ومعناه: **"الخط الأصغر"**، وكان يشرف على كتابته حاجب السلطان، بينما كان في الديوان السلطاني موظف آخر يسمى: **"الخريطة دار"،** وهو **"صاحب خريطة الكاغد والأقلام"**، إضافة إلى **"الدّوادار"** وهو صاحب الدَواة[82].

وعلى العموم، فطغراء الممالك الهندية الإسلامية تتميز - شأنها في ذلك شأن الطغراء المملوكية - بوجود حرف مرسل، وفي بعض الأحيان أحرف مرسلة كالباء أو النون تقطع الألفات من اليمين إلى اليسار، وتفصل المسافة نفسها تقريبا بين هذه الحروف المرسلة، وبين نص الطغراء السبيكي من جهة، وبين زلفات أوترويسات المنتصبات والقوائم من جهة أخرى، أي: أنها تقع في منتصف الشكل الطغرائي، ولا شك أن هذا التقليد مأخوذ من العلامات السلطانية، وهو التقليد نفسه الذي وجدناه حاضرا في التركيبات الخطية للثلث الجلي خلال عصر الدولة العثمانية، حيث غالبا ما تجد ارتكاز الكتلة أسفل الشكل التركيبي وخاصة في التركيب على السطر، وارتفاع الألفات واللامات بشكل متوازٍ، مما يشكل فراغات عمودية على طول المنتصبات والقوائم، يتم التخفيف منها في غالب الأحيان بإرسال حرف قاعدي (واطئ) مرسل أوراجع؛ على امتداد الشكل التركيبي كالباء المرسلة والياء السيفية (الراجعة) ومشتقاتهما، أو حرف فنجاني محوض كالنون المرسلة التي جرت العادة بإرسالها من كلمة: "السلطان.." حيث تقطع منتصبات الشكل الطغرائي عرضا من اليمين إلى اليسار (انظر الشكل: 17)

---

[76] - رحلة ابن بطوطة، ج/3، ص: 139

[77] - المصدر نفسه، ج/3، ص: 140

[78] - المصدر نفسه، ج/3، ص: 149

[79] - المصدر نفسه، ج/3، ص: 149

[80] المصدر نفسه، ج/3، ص: 234

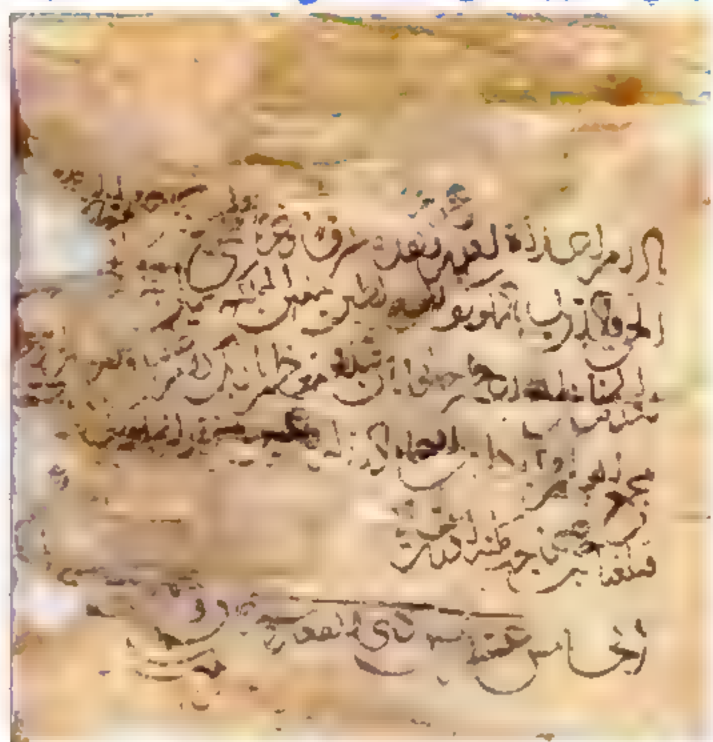
[81] المصدر نفسه، ج/3، ص: 234

[82] المصدر نفسه، ج/3، ص: 235

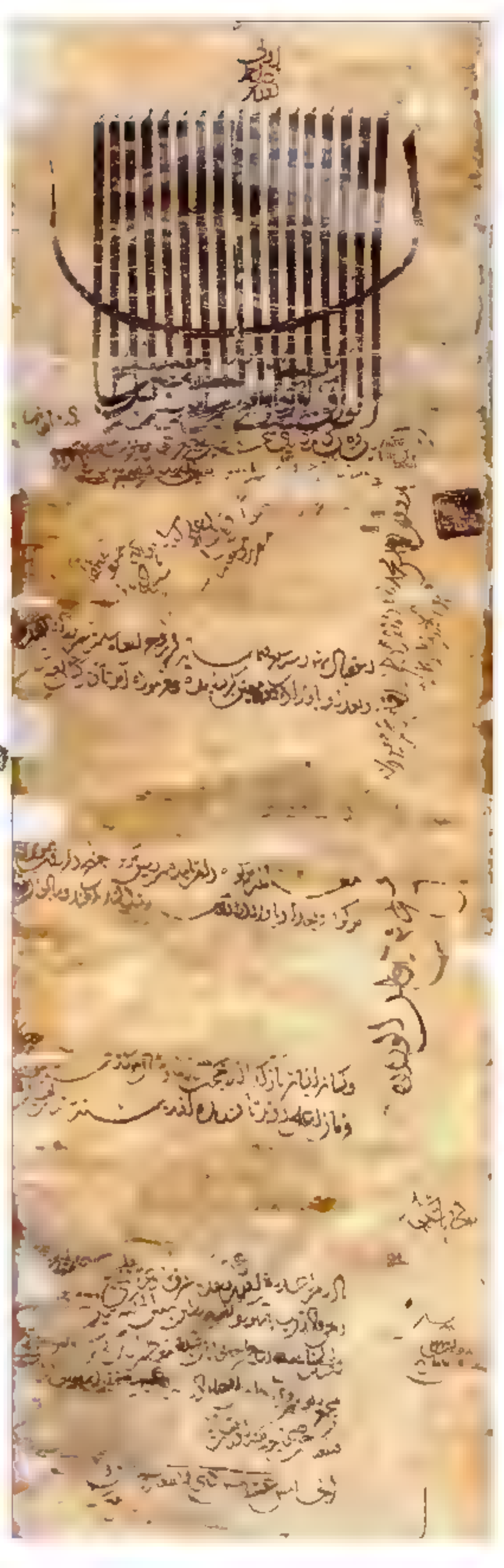
تفصيـــــــــــــــــل:



الطغراء البهمنية ـ الهندية على صورة: "المربع" وهي الصورة التي تحيلنا على شكل الكعبة المشرفة



مقطع كتابي يوضح انواع الخطوط المستعملة في تحـريـر وثـائق ومنـاشيـر الممالك الهنديـة

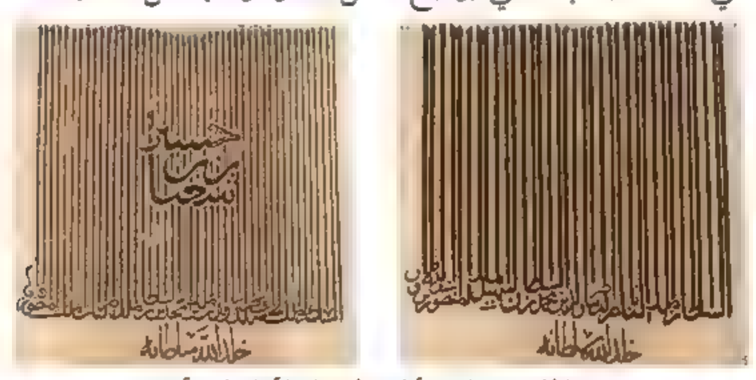


طغراء "حيدر آباد" الهندية، كما تبدو من خلال فرمان لأبي الحسن قطب شاه (1097هـ/1686م)، وهو آخر سلاطين قطب شاهي.

المصدر: الأرشيف العام لمدينة حيدرآباد ـ الهند، رقم: 1963. 17 (eng.)

شكل: 17

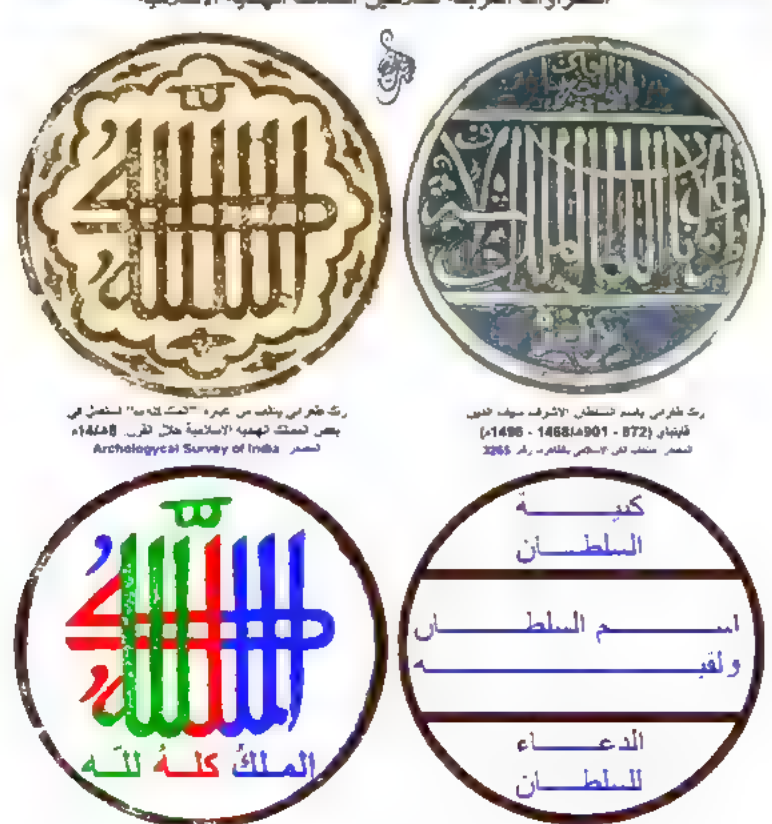
وعلى غرار الطغراء المملوكية، كانت طغراء الممالك الهندية الإسلامية تتنوع أشكالها بين: المربع والدائري، مما يؤكد علاقة التأثير والتأثر التي كانت تجمع بين هذه الممالك ودولة المماليك بمصر على جميع المستويات بما في ذلك الجانب الفني (راجع شكل: 7 وقارنه بشكل: 18)



الطغراوات المربعة لسلاطين الدولة المملوكية



الطغراوات المربعة لسلاطين الممالك الهندية الاسلامية



شكل الطغراء المستديرة واستعمالها عند المماليك وبعض الممالك الهندية الاسلامية

شكل: 18

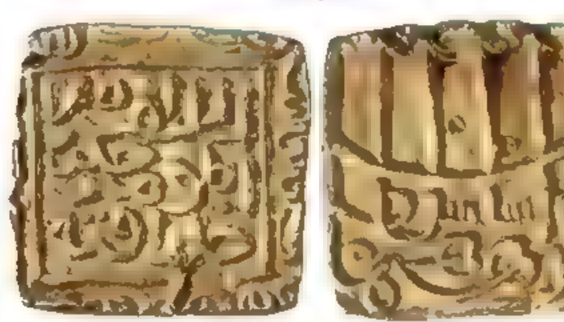
والملاحظ أن طغراء الممالك الهندية الإسلامية استُعملت - أيضا - كما استُعملت طغراء المماليك على كافة الحوامل من نقائش ومسكوكات وغيرها، وللتدليل على ذلك نسوق أنموذجين اثنين؛ أولهما نصب تذكاري يرجع تاريخه إلى سنة: 905هـ/1500م، نقشت عليه طغراء بنغالية متعددة المنتصبات (انظر شكل: 19). وثانيهما قطعة ذهبية مؤرخة في سنة: 845هـ/1441م، ترجع إلى عهد السلطان البنغالي؛ ناصر الدين محمود (844 - 861هـ/1440 - 1456م) (انظر شكل: 20).



طغراء بنغالية منقوشة على نصب تذكاري يرجع تاريخه إلى سنة: 905هـ/1500م

المصدر: متحف الميتروبوليتان - نيويورك، رقم: 1981.320

شكل: 19



قطعة ذهبية مؤرخة في سنة: 843هـ/1439م، ترجع إلى عهد السلطان إبراهيم شاه شرقي (803 - 844هـ/1401 - 1440م)

The New York Sale, Auction No. XI, 11 Jan 2006, Lot No. 599



قطعة ذهبية مؤرخة في سنة: 845هـ/1441م، ترجع إلى عهد السلطان محمود شاه (844 - 862هـ/1440 - 1458م)

Baldwin's, Auction No 53, Lot No. 1707

شكل: 20

2 - 2 - الطغراء الفارسية – الصفوية:

استُعملت الطغراء في إيران الصفوية بالشكل نفسه الذي استُعملت به في كل من مصر المملوكية وممالك الهند الإسلامية، حيث تظهر الطغراء في البلدان الثلاثة متشابهة من حيث السمات الفنية (الألفات المنضدة بشكل متوازٍ تفصل بينها المسافة نفسها)، لكن ما يمكن ملاحظته في هذا المضمار، هو أن الطغراء المملوكية، وطغراء ممالك الهند الإسلامية يجمع بينهما قاسم مشترك، ألا وهو الحرف الأخير من كلمة: "**السلطان**" الممثل في "**النون المرسل**" الذي يقطع الشكل الطغرائي في منتصفه من اليمين إلى اليسار، بخلاف "**الطغراء الصفوية الفارسية**" التي تتميز عنهما بوجود حرف مرسل سيفي يتجه خارج الشكل الطغرائي إلى جهة اليسار، يشكله حوض: "**ياء الحسيني**" (النسب الحسيني الشريف)، على غرار "**ياء الحسني**" (النسب الحسني الشريف) التي عُرفت بها: "**الطغراء السعدية المغربية**"، و"راء **المظفر**" التي ميّزت "**الطغراء العثمانية – التركية**" كما سنقف على ذلك بشكل مفصل.

وعموما فقد قام الباحث الإيراني جهانگير قائم مقامي بدراسة بعض الطغراوات الصفوية، حيث خصص لها فصلا مستقلا، جمع من خلاله طغراوات السلاطين الصفويين، فضلا عن تسليطه الضوء على بعض سماتها الفنية[83].

أما الباحث الإيراني أميد رضائي، فقد قام بتشريح الطغراء الصفوية، حيث فكّك نصوصها الملغوزة وفق منهج تراتبي مجدول باللغة الفارسية[84].

ومن جهتنا، فقد قمنا بتفكيك الطغراء الصفوية باستعمال الألوان المختلفة للتمييز بين حروفها وكلماتها، وهي الألوان نفسها التي اعتمدناها أثناء تفريغ تلك الحروف والكلمات بالخط الإداري، وذلك قصد تسهيل عملية قراءتها. (انظر شكل: 21 وشكل: 22).

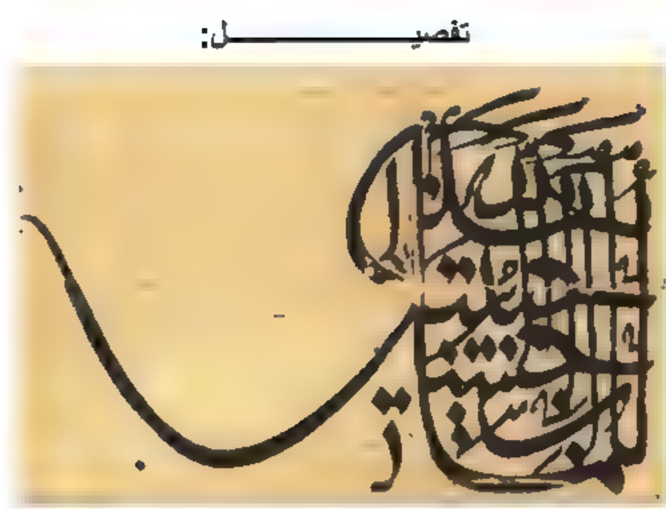
---

[83] قائم مقامي، مهرها ، طغراها و توقيع هاى پادشاهان ايران، صص: 150 – 162

قائم مقامي، توقيع و طغرا و تطور آنها در تداول ديواني، صص: 1 36

[84] رضائي (أميد)، طغراهاي ماثبات ترين صدر دوره ي صفوي، مطالعات تاريخ إسلام، سال دوم/شماره ي7. زمستان 1969م، ص 77

تفصيــــــــــــــــل:



طغراء صفوية - فارسية على صورة: "المربع"

تشريحهـــا وقراءتهــا:



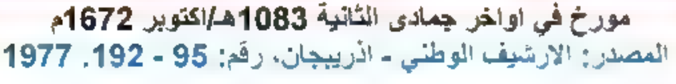
من ابن الحسيــن حبيب الله الحسيـني

مقطع كتابي بخط "النسخ - تعليق" أو (النستعليق) عندما كان لا يزال في شكله الجنيني

فرمان صفوي مورخ في جمادى الثانية 1058هـ/يوليوز 1648م، تظهر في طرته الطغراء الصفوية المربعة. يرجع إلى عهد الشاه الصفوي: محمد ميرزا حبيب الله، المعروف بـ: عباس الثاني (1052 - 1077هـ/1642 - 1666م)

تشريح أجزاء الطغراء الصفوية

شكل: 21



مورخ في اواخر ذي الحجة 1080هـ/ماي 1670م
المصدر: الارشيف الوطني - طهران، رقم: 100 - 99. 1965

مورخ في اواخر جمادى الثانية 1083هـ/اكتوبر 1672م
المصدر: الارشيف الوطني - أذربيجان، رقم: 95 - 192. 1977

فرمانان يرجعان إلى عهد الشاه الصفوي: صفي الثاني الذي عرف أيضا باسم سليمان الأول (1076 - 1105هـ/1666 - 1694م).
شكل: 22

وقد عرفت الطغراء الفارسية - الصفوية تطورا كبيرا، حيث أصبحت منذ القرن 17 الميلادي تتميز بأشكالها البيضوية المتداخلة والتي تشغل فضاءاتها كلمات أخرى، وباطلاعنا على عدد من الفرمانات الصفوية الفارسية، لاحظنا أن معظمها كان يجمع بين الخاتم والتوقيع الطغرائي (انظر شكل: 23 وشكل:25)، وبعضها كان يجمع بين الخاتم و التوقيع الطغرائي والشعار (انظر شكل: 24).

وجدير بالذكر ان هذا الشكل الطغرائي المتميز بالأشكال البيضوية المتوالية، تم اتخاذه كشعار سيادي من قِبل الدول الإسلامية التي تداولت الحكم في بلدان ما وراء النهر إلى حدود بلاد الهند، حيث نسجل ذلك على سبيل المثال من خلال توقيعات طغرائية؛ استخرجناها من عدة رسائل صفوية ترجع إلى أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، كما نسجله أيضا من خلال خاتمين طغرائيين مؤرخين في سنة: 1261هـ/1845م، يُنسبان لآخر حكام "**سلطنة مغول الهند**"؛ محمد بهادر شاه الثاني (1252هـ/1837 - 1857م) الذي خلعه الإنجليز سنة: 1274هـ/1857م.(انظر شكل: 26).

وقد سمى الباحث الإيراني جهانگير قائم مقامي هذا الشكل باسم: "طغراي" مع إضافة الياء إليها[85]، ووافقه في ذلك أيضا علي سام في بحثه باللغة الفارسية عن الطغراء الصفوية[86]، وهي التسمية نفسها التي كانت تُطلق على الطغراء العثمانية، مرفقة بكلمة نشان كما سنقف على ذلك في فرمانات هذه الدولة.

ومعلوم أن الصفويين في إيران يُنسبون إلى الشيخ "صفي الدين الأردبيلي" (650 - 734هـ/1252 - 1334م) الذي كان سُنّيا على مذهب الإمام الشافعي، متصوفا على الطريقة البكتاشية، لكن بعض أحفاده اعتنقوا المذهب الشيعي - الإثنا عشري المعروف بالتطرف، وأبرزهم الشاه إسماعيل (906 - 930هـ/1501 - 1524م) مؤسس الدولة الصفوية بمدينة: "تبريز" بإيران، الذي أمر بقتل أمه "حليمة بغيم" السنية – الحنفية، بعدما رفضت التخلي عن سُنّيتها واعتناق مذهب التشيع، فحوّل إيران السنية بالدم والنار إلى إيران شيعية منذ سنة: 907هـ/1502م، وحظر اعتناق المذهب السني، وقتل من قبض عليه من رجال السنة وأرسل نساءهم إلى دور البغاء[87]، ولأن الشاه إسماعيل ورجالاته كان معظمهم من الأتراك، فإنه قد قسّم العالم الإسلامي السني والتركي إلى فريقين، حتى أن بعض الباحثين يصف دخوله إيران واستيطانه فيها باقتدار وقوة، أقوى بكثير من مجيء الفاطميين (العبيديين) من المغرب الأدنى (إفريقية: تونس حاليا) واستيطانهم في مصر، وبينما استُؤصل المذهب الشيعي - الإسماعيلي من مصر على يد صلاح الدين الأيوبي. استمر المذهب الشيعي – الإثنا عشري في إيران[88] رغم القضاء على الآق قويونلو من قِبل السلطان العثماني محمد الفاتح سنة: 866هـ/1462م.

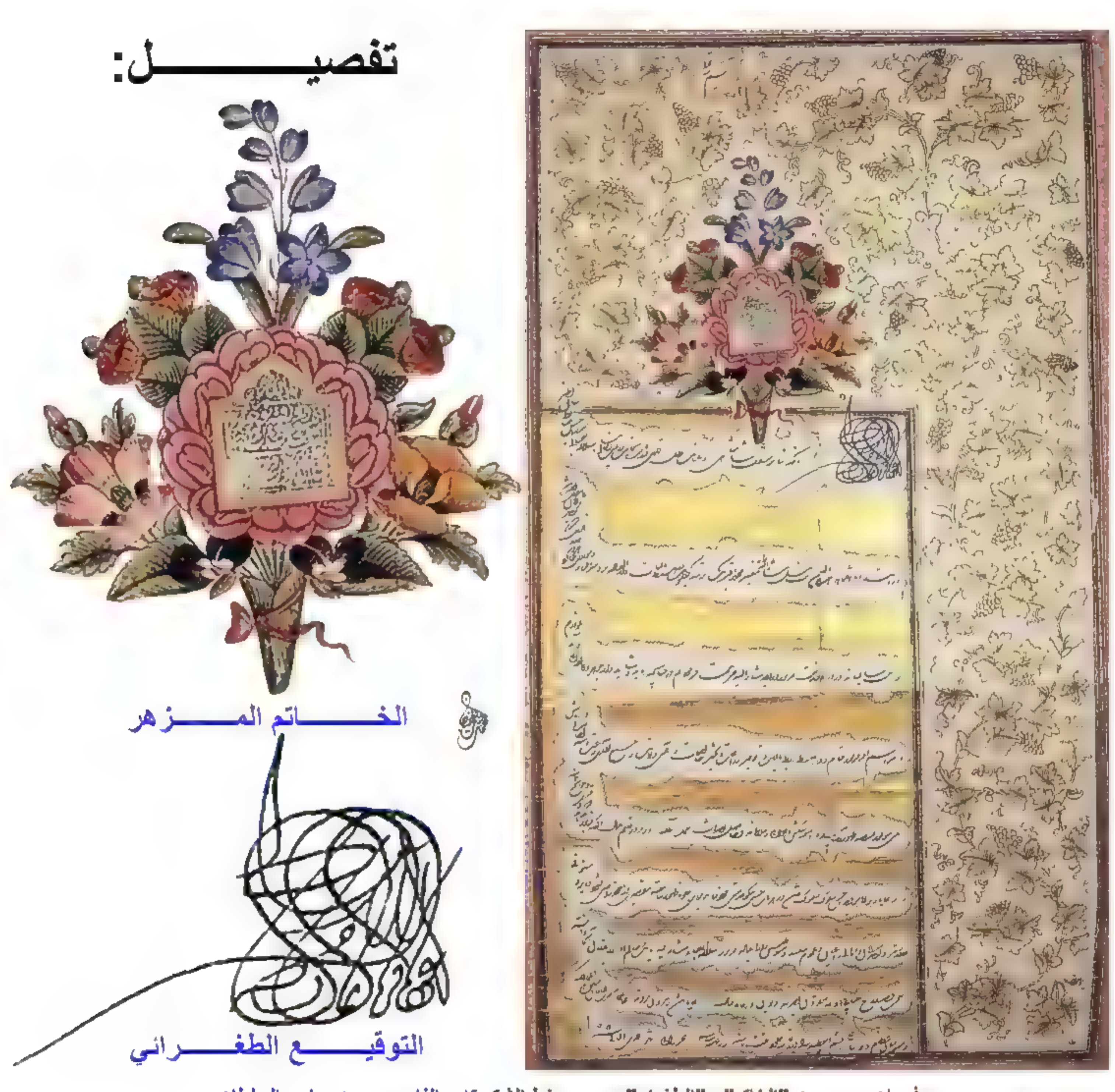
---

85 قائم مقامي، توقيع و طغرا و تطور آنها در تداول ديواني، ص: 34

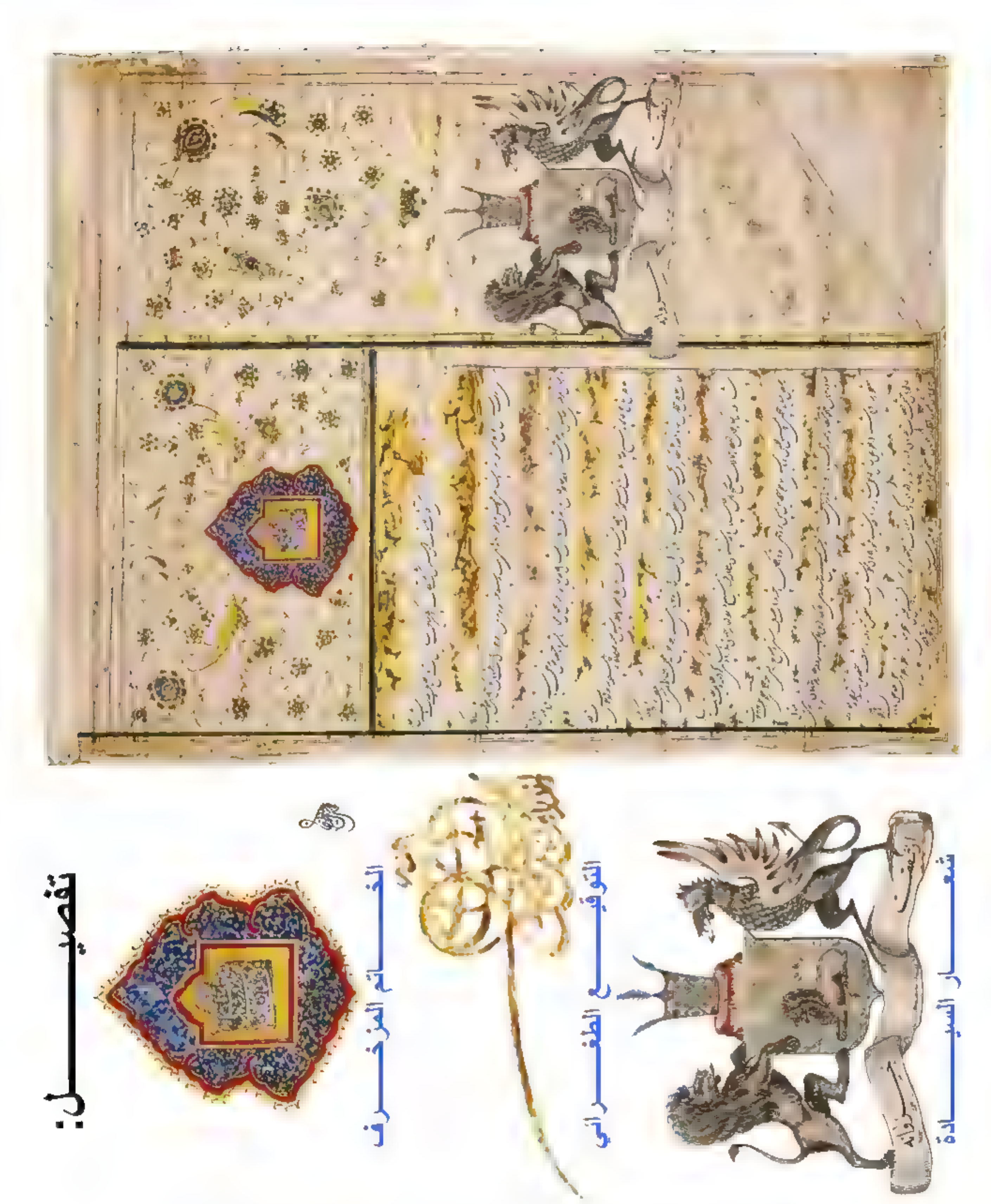
86 - سام (علي)، مطالعات تاريخ فرهنگي، پژوهش نامه ي انجمن ايراني تاريخ سال دوم، شماره ى 8 هشتم، 1970م، ص. 34

87 اورتونا ، تاريخ الدولة العثمانية،ج/1، ص: 202

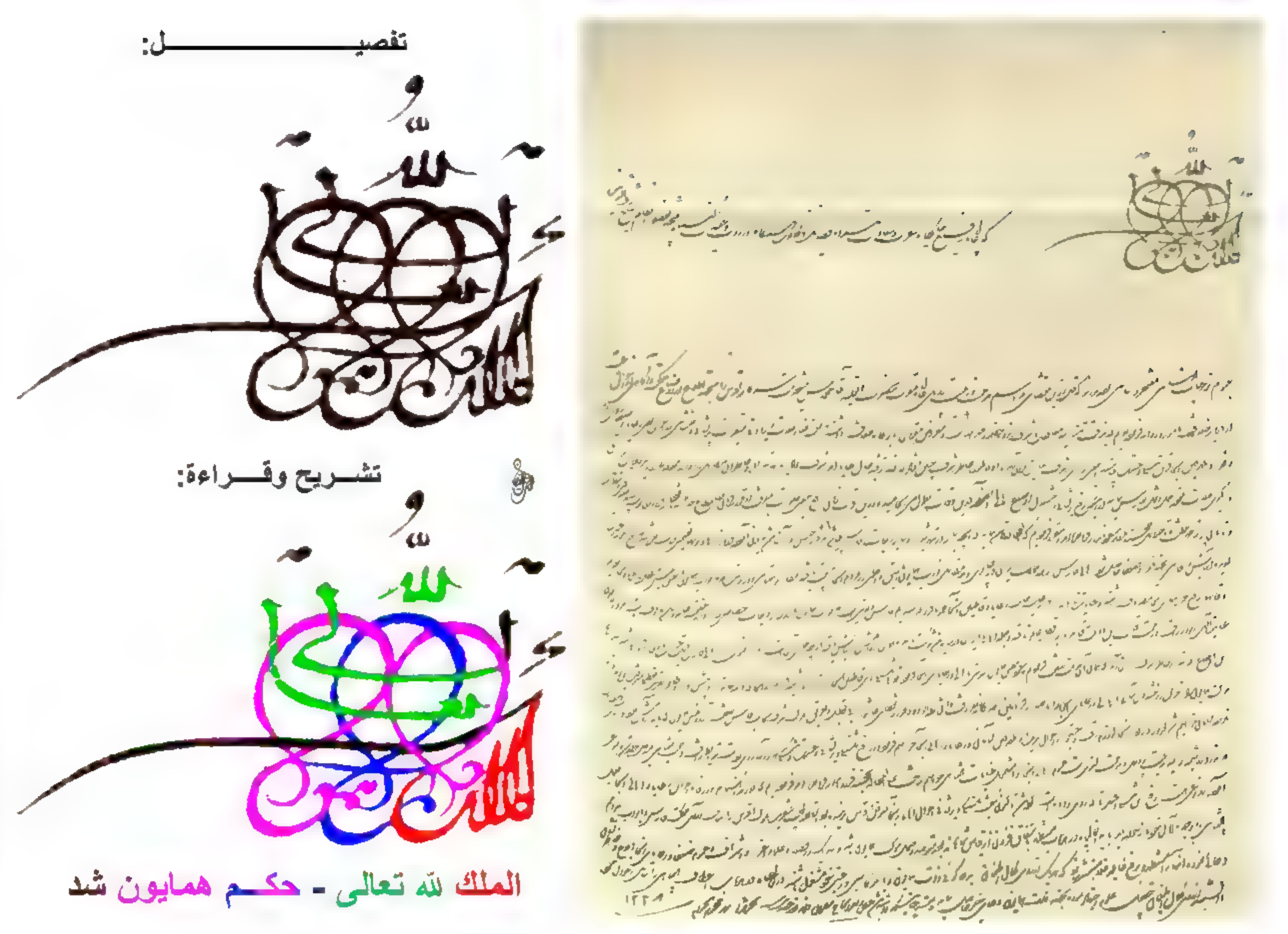
88 المرجع نفسه، ج/1، ص. 203



فرمان يجمع بين "الخاتم" و"الطغراء"، محرر بخط الشكستة - الفارسي. صدر باسم السلطان:
نادر شاه بتاريخ: جمادى الثانية 1155هـ/ غشت 1742م.
المصدر: الارشيف الوطني - طهران، رقم: 186
شكل: 23



فرمان يجمع بين "الخاتم" و"الطغراء"، محرر بخط الشكسته - الفارسي. صدر باسم السلطان:
فتح علي شاه بتاريخ: محرم 1224هـ/مارس 1809م.
المصدر: متحف آغا خان للفنون الاسلامية، تورونتو - كندا، رقم: AKM00530
شكل: 24



وثيقة مورخة في: محرم 1228هـ/يناير 1813م للسلطان فتح علي شاه القاجاري (1212 - 1250هـ/1797 - 1834م)،
مرفقة بتشريح الطغراء الفارسية "ثلاثية البيضات"، التي استعملها في وثائقه
مصدر الوثيقة: Karimzadah-yi Tabrizi, Muhammad 'Ali (private collection)، رقم: 5 ,5
189 ,85 -183 .91-179 :(1970/1349)
شكل: 25



خاتم طغرائي مورخ في سنة: 1261هـ/1845م، تحيط به اشكال متنوعة من الزخارف النباتية، ينسب لمحمد بهادر شاه الثاني(1252 - 1274هـ/1837 - 1857م)، وهو آخر حكام: "سلطنة مغول الهند"
المصدر: افتتاحية نسخة مخطوطة لديوان الشاعر الهندي: ميرزا غالب (1212 - 1285هـ/1797 - 1869م)

طغراء فارسية من رسالة (فرمان سلطاني)، ترجع الى اواخر القرن التاسع عشر الميلادي
المصدر: كنجينه كتبخانه ملك - ايران.د.ت

طغـــراء فارسية من رسالـة (فرمان سلطاني) للسلطان ناصـــر الدين شـــاه الى السلطـان المعتمد رضا خان (1303هـ/1886م)، مرسومة بمـــاء الذهب

طغراء فارسية من رسالة (فرمان سلطاني) للسلطان ناصر الدين شاه الى الحاكم الفرنسي: "نيكولاس" (1310هـ/1892م).
المصدر: مزاد سوثبي - لندن.د.ت

طغراء فارسية من رسالة (فرمان سلطاني) للسلطان مظفر الدين شاه (1323هـ/1906م)، مرسومة بماء الذهب
المصدر: خزانة برلين - رقم: HS.OR 2471

طغراء فارسية من رسالة (فرمان سلطاني) للسلطان ناصر الدين شاه (1312هـ/1895م)، مرسومة بماء الذهب
المصدر: خزانة برلين - رقم: HS.OR 2469

طغراء فارسية من رسالة (فرمان سلطاني) للسلطان مظفر الدين شاه (1314هـ/1897م)، مرسومة بماء الذهب
المصدر: خزانة برلين - رقم: HS.OR.2470

طغراوات مشرقية كانت معتمدة عند شاهات إيران، وحكام: "سلطنة مغول الهند"
شكل: 26

وللإشارة، فإن هذه الأشكال قد اشتُقّت من بعض الأصناف المتفرعة عن خط التوقيع القديم، وهو ما يمكن الاصطلاح على تسميته بـ: "الخط المسلسل". أو "خط التوقيع - المسلسل" الذي أشار إليه زين الدين شعبان بن محمد الأثاري (ت. 828هـ/1424م) في ألفيته، ونصّ على استعماله في المناشير والفرمانات السلطانية، حيث قال[89]:

خفيف ثلث في المناشير اشتهر	إعماله وفي سواها قد ندر
ثم حواشي نسخهم منوعه	مائلة ليسرة مقطعه
ثم مسلسل التواقيع على	مطلقها فرع بسن سلسلا

ويشير حبيب الله فضائلي، وهو أحد الباحثين الإيرانيين المعاصرين، إلى أن هذا الخط يتميز باتصال حروفه اتصالا متسلسلا من غير أن ينفصل حرف عن حرف، و سماته الفنية تدل على أن أصله من خط الثلث والتوقيع، والكتاب الوحيد الذي أورد أنموذجا لهذا الخط في العصر الوسيط - حسب الباحث نفسه - هو كتاب: "**جامع محاسن كتابة الكتاب**" لمحمد بن حسن الطيبي[90].

وقد سمّى الباحث الإيراني محمد نقشي تبريزي مثل هذه التواقيع الممهورة بخط التوقيع - المسلسل بـ: "**قلم طغرى**"[91]، أما حبيب الله فضائلي فقد سماها بـ: "**شبه طغرا**"، حيث خصص لها فصلا مستقلا جمع فيه مختلف الأشكال المرقومة أو المرسومة بهذا النوع من الخط في ثلاث صفحات[92].

بل إن فضائلي عرّف الطغراء أنها كانت "**خطا منحنيا يرسمونه فوق أحكام الملوك.. [وهي] كذلك إمضاء ملكي يصادق فيه على المناشير والمسكوكات**"[93]. وأبرز سماتها - حسب الباحث نفسه - أن تكون حروفها "**ملتفة على بعضها بعضا**"[94]. وهذا ما نلاحظه في الطغراوات الصفوية المتأخرة (راجع شكل: 26)

ولاشك أن تسميتها بـ: "**قلم طغرى**" أو"**شبه طغرا**"، يدل بشكل أو بآخر على الارتباط الوظيفي والدلالي بين **التوقيع** كقلم أو صنف من الخطوط، و**التوقيع** كشارة أوعلامة - طغرائية مميّزة، تتخذها الممالك والدول للتعبير عن سيادتها.

---

[89] - الأثري (شعبان بن محمد)، العناية الربانية في الطريقة الشعبانية، تحقيق: هلال ناجي، مجلة المورد، المجلد الثامن، العدد الثاني، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1979م، ص. 270

[90] - فضائلي، أطلس الخط والخطوط، ص: 286

انظر أيضا

- الطيبي (محمد بن حسن)، جامع محاسن كتابة الكتاب ونزهة أولي البصائر والألباب، نشر و تقديم: صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، بيروت، 1962م، ص. 58 59

[91] - تبريزي (محمد نقشي)، أنواع خطوط خوشنويسان معروف إيران. دوره2، ش21 (تير43)، ص. 32

[92] فضائلي، أطلس الخط والخطوط، ص: 527 528 529

[93] المرجع نفسه، ص: 527 528 519

[94] المرجع نفسه، ص: 527 528 519

والملاحظ أن هذا الشكل النمطي استُعمل بشكل محدود عند العثمانيين، وقد أبدع فيه – على وجه الخصوص - الخطاط العثماني: "أحمد قره الحصري" (863 أو 873 - 963هـ/1458 أو 1468 - 1555م)[95] الذي عاصر أربعة سلاطين عثمانيين أقوياء هم: محمد "الفاتح" (855 - 886هـ/1451 - 1481م)، وبايزيد الثاني (886 - 918هـ/1481 - 1512م)، وسليم الأول (918 - 926هـ/1512 - 1520م)، ثم سليمان "القانوني" (926 - 974هـ/1520 - 1566م). لكن الخط المسلسل لم يستمر بسبب التنافس الذي كان بين قرة الحصري، وبين ابن الشيخ "حمد الله الأماسي" (833 - 926هـ/1429 - 1520م)، ذلك التنافس الذي حكم على بعض الخطوط بالانقراض، مقابل استمرار خطوط أخرى، سيما بعد تبني العثمانيين للتجربة "الأماسية" في تجويد الخطوط، وهي التجربة التي انتهت في أواخر القرن الحادي عشر الهجري إلى: "الحافظ عثمان بن علي" (1052 - 1110هـ/1642 - 1698م)، الخطاط المجود الشهير. (انظر شكل: 27 وشكل:28).



تشـــريح وقـــراءة:

القنـاعة كنـز لا يفنـى

"طغراء القناعة" بخط لتوقيع - المسلسل على غرار كتابات الخطاط العثماني أحمد قره الحصري، ونصها: "القناعة كنز لا يفنى"

مصدر الكتابة: توجد على أحد جدران حريم السلاطين العثمانيين بطوب كابي سراي - استانبول

---

[95] – للاطلاع على أسلوبه، راجع:

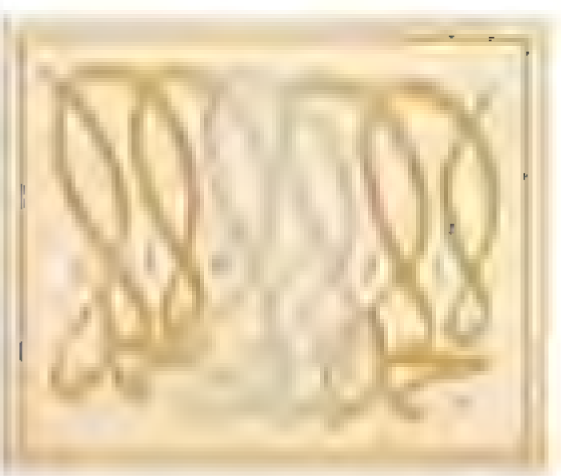
- أرسلان (علي آلب)، الخط العربي عند الأتراك، ترجمة: سهيل صابان، مجلة الدارة، العدد الأول، السنة الثالثة والثلاثون، 2007م، ص: 223 - 224

وقد تحدث لنا محمد بن حسن الطيبي – خلال القرن العاشر الهجري – عن "قلم المسلسل" على طريقة ابن البواب، من خلال كتابه: جامع محاسن كتابة الكتاب. وساق عدة نماذج منه بخطه

- الطيبي، جامع محاسن كتابة الكتاب، ص: 22 - 23 وأيضا من صفحة: 58 إلى صفحة: 62

ونسب القلقشندي هذا القلم إلى الأحول المحرر الذي استخرجه من قلمي: الثلثين والثلث. يقول القلقشندي: "قال النحاس: ثم أخذ عن إبراهيم السجزي الأحول [المحرر] الثلثين والثلث، واخترع منهما قلما سماه. قلم النصف، وقلما أخف من الثلث سماه. خفيف الثلث. وقلما متصل الحروف ليس في حروفه شيء ينفصل عن غيره سماه. المسلسل"

القلقشندي، صبح الأعشى، ج/3، ص: 17



"طغراء الحمد" بخط التوقيع - المسلسل للخطاط العثماني:
احمد قره الحصري، ونصها: "الحمد لولي الحمد"
المصدر: مستخرجه من مخطوط محفوظ بمتحف الفنون التركية والاسلامية - استانبول



"طغراء القناعة" بخط التوقيع - المسلسل على غرار كتابات الخطاط العثماني:
احمد قره الحصري، ونصها: "القناعة كنز لا يفنى"
المصدر: موجود على احد جدران حريم السلاطين العثمانيين بطوب قابي سراي - استانبول

شكل: 27

تفصيـــــــــــــــل:



"طغراء الشهادتين" بخط التوقيع - المسلسل على "سقاية" باستانبول للخطاط العثماني:
أحمد قره الحصري، ونصها: "لاإله إلا الله. محمد رسول الله"
شكل: 28

2 - 3 - الطغراء الزنجبارية - العُمانية:

تملّك العرب العُمانيون الجزر والسواحل على امتداد الشريط الساحلي في شرق إفريقيا، حيث كوّنوا سلطنة ضمت: مومباسا، وماليندي، ومقديشو، وأسمرة، وبعض المدن في وسط إفريقيا، وكانت "**زنجبار**"[96] في هذه الفترة تخضع بدورها لسلطنة عُمان سواء في عهد "**السلاطين اليعاربة**" (1033-1162هـ/1749- 1624م) أو"**سلاطين آل بوسعيد**" الذين حلّوا محلهم إلى اليوم، وقد ظلت سيطرة العُمانيين على زنجبار وساحل شرق إفريقيا حوالي ألف سنة، ولم تنقطع السيطرة العُمانية على تلك المناطق إلا لفترات قصيرة، وذلك بسبب "**حركة الاكتشافات الجغرافية**" التي تسببت في سقوط زنجبار في أيدي البرتغاليين سنة: 909هـ/1503م، وبقيت تحت ربقتهم إلى أن طردهم "سلطان الأول" بن سيف (1059 - 1099هـ/1649 - 1688م) من عُمان ومن ساحل شرق إفريقيا[97]. حيث أرسل هذا السلطان العُماني سفنه الحربية المدججة بالسلاح إلى سواحل إفريقيا الشرقية في سنوات: 1060هـ/1650م، 1062هـ/1652م، 1065هـ/1655م، فهاجم بها الحاميات البرتغالية في زنجبار وبمبا، فدكّ قلاعها وحصونها، ثم استعاد زنجبار وبمبا إلى حظيرة السلطنة العُمانية سنة: 1062هـ/1652م.

وقد نجحت دولة اليعاربة في استكمال الأهداف التي وضعها السلطان: سلطان الأول، وذلك بعدما تمكن ابنه السلطان: سيف بن سلطان (1103 - 1123هـ/1692 - 1711م) من وضع حد للنفوذ البرتغالي في الشرق الإفريقي، حيث نجح الأسطول العُماني في تدمير الحاميات البرتغالية الموجودة في بمبا سنة: 1107هـ/1696م. وتمكن بعد ضرب حصارٍ على مومباسا استمر طيلة 33 شهرا (بين سنة: 1107هـ/1696م، وسنة: 1110هـ/1698م)، من هزيمة البرتغاليين وطردهم من المدن والجزر على الساحل الشرقي لإفريقيا.

وهكذا امتدت السيادة العُمانية في شرق إفريقيا من رأس دلجاو جنوبا حتى مقديشو شمالا، وكانت "**الموزمبيق**" هي الوحيدة التي قاومت الأسطول العربي العُماني وبقيت في أيدي البرتغاليين إلى حدود القرن العشرين.

أمام هذا الوضع، حاول البرتغاليون استعادة مراكزهم البحرية الضائعة، فقاموا بهجوم موحد على "زنجبار" و"مسقط" في آن واحد سنة. 1142هـ/1729م، لكنهم هُزموا شر هزيمة، فانهارت آمالهم في استعادة سيادتهم على الخليج العربي والمحيط الهندي. بالمقابل امتد نفوذ سلطنة عُمان من جنوب الجزيرة العربية وسواحل شرقي إفريقيا في الغرب، إلى سواحل وادي السند في الشرق[98].

---

[96] - (زنجبار) كلمة عربية محرفة أصلها (برّ الزنج)، يقال لها باللغة السواحلية: (أنغوجاه). وهو اسم يُطلق على مجموعة الجزر التابعة حاليا لدولة تنزانيا في شرق إفريقيا، رغم تمتعها بسلطة ذاتية واسعة

[97] - ستودارد (لوثروب)، حاضر العالم الإسلامي، نقله إلى اللغة العربية عجاج نويهض، حققه الأمير شكيب أرسلان، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثالثة 1971م، ج/3، صص: 71 74. بتصرّف

[98] راجع دولة اليعاربة، وزارة الخارجية العمانية 2010م، النسخة الإلكترونية. www.mofa.gov.om

والجدير بالذكر، أن العُمانيين – وبمجرد استرجاعهم لزنجبار من أيدي البرتغاليين – قاموا بإعمارها، فتوافدت عليها الوفود البشرية من سلطنة عُمان، وهو ما هيّأ أرضية مناسبة بعد ذلك للسلطان سعيد بن سلطان (1221 - 1273هـ/1806 - 1856م) من "الأسرة البوسعيدية"، الذي سيقوم بنقل عاصمة حكمه من مدينة: "**مسقط**" (وهي العاصمة الحالية لسلطنة عمان)، إلى مدينة: "**مجي مكونجوي**" (ستون تاون حاليا)، حيث أنشأ سلالة حاكمة من ذريته بزنجبار[99]. وبعد وفاة هذا السلطان الذي كان يحكم عُمان وزنجبار باسم سلطنة عُمان منذ سنة: 1218هـ/1804م، تنازع ولداه: ثويني، وماجد على وراثة الحكم، مما تسبّب في تقسيم عُمان وزنجبار إلى سلطنتين، فصار ماجد بن سعيد (1273 1287هـ/1856 1870م) سلطانا على "زنجبار"، بينما رجع ثويني بن سعيد (1273 1282هـ/1856 - 1866م) إلى "سلطنة عُمان"، ليستمر فيها حُكمه وحُكم أبنائه إلى الآن.

بناء على ما سبق، يمكن القول إن "سلطنة زنجبار" ظهرت مع انتقال الحُكم إلى الفرع الأصغر من أسرة البوسعيد العُمانية"[100]. وحتى حدود سنة: 1303هـ/1886م، كانت سيادة سلطان زنجبار تمتد على طول الساحل الشرقي لإفريقيا، حيث تحكّم في الخطوط التجارية الممتدة إلى عمق القارة الإفريقية وصولا إلى كوندو على نهر الكونغو، ودام الأمر كذلك إلى أن ظهرت الإمبريالية الاستعمارية الأوربية التي احتلت المناطق الخاضعة للسلطان الزنجباري تترى وتباعا، وبعد توقيع معاهدة هليجولاند بين ألمانيا وبريطانيا حول تقسيم إفريقيا سنة: 1307هـ/1890م، أضحت زنجبار "محمية" بريطانية خلال حُكم علي بن سعيد (1307 - 1310هـ/1890 - 1893م)، وفي حدود سنة: 1314هـ/1896م، وقعت الحرب الزنجبارية الإنجليزية التي تُعد أقصر حرب في التاريخ، لأنها سرّعت بسقوط السلطنة الزنجبارية في مدة زمنية لم تستغرق أكثر من 38 دقيقة.

وظل الأمر على ماهو عليه إلى أن منحت بريطانيا في سنة: 1383هـ/1963م الاستقلال لسلطنة زنجبار، التي صارت سلطنة ملكية دستورية تحت حكم جمشيد بن عبد الله؛ وهو آخر من حكَم من أسرة البوسعيد العُمانية بزنجبار، إلا أن حكمه الصوري لم يدم سوى أشهر قليلة حتى أطيح به خلال ثورة زنجبار، واستُبدلت "السلطنة" بما سمي: "جمهورية زنجبار وبمبا". قبل أن تتحد تلك الجمهورية في سنة: 1383هـ/1964م مع تنجانيقا مكوّنة: "جمهورية تنجانيقا وزنجبار المتحدة"، التي سيُستبدل اسمها أيضا بعد ستة أشهر بتسمية: "**تنزانيا**"[101].

من خلال المعطيات السابقة، يتضح لنا أن سلطنة زنجبار – العُمانية كانت بحقّ مملكة مترامية الأطراف، ولا شك أنها كدولة لها سيادة مستقلة، كان من البديهي أن تنتهي إليها التقاليد السلطانية التي توارثتها وتواترتها الأسر الحاكمة في المشرق، ولعل من أبرز تلك التقاليد، التوقيعات السلطانية التي لا

---

[99] - حاضر العالم الإسلامي، ج/3، ص. 74

[100] المرجع نفسه، ج/3، ص 74

[101] أنظر بعضا من تفاصيل ذلك في نفس المرجع، ج/3، صص: 69 77. بتصرف

ينْفُذُ ولا يُنفَّذُ الحكم إلا بها، وبالنظر إلى حضور سيادة الأسرة البوسعيدية - العُمانية في زنجبار، كان من البديهي أيضا أن تُعبّر عن ذلك الحضور بما يؤكده ويعضده.

من هذا المنطلق بالذات، استُعملت الطغراء السلطانية العُمانية على سائر الحوامل كشعار يؤكد سلطة وسيادة أسرة البوسعيد على سائر الجزر التابعة لزنجبار، وقد همّت تلك الطغراء بشكل كبير الأوسمة والنياشين، ويسترعي انتباهنا؛ تقارب شكلها مع شكل الطغراء الفارسية التي استعملها الصفويون خلال القرن الثامن عشر (راجع شكل: 26)، حيث كانت ثلاثية البيضات على غرارها، ولا تختلف عنها سوى في بعض التفاصيل الفنية البسيطة، وكذا في أسماء السلاطين التي جرت العادة باستهلالها في هذه الطغراوات باسم: "**السلطان**"، وهي الكلمة التي كانت تُشكّل الرسم الطغرائي عن طريق عقد حروفها من أسفل إلى أعلى على شكل الرقم: "8"، وفق نمط متسلسل يترتب عنه ظهور ثلاثة أشكال بيضوية في الأعلى، تقابلها مثلها في الأسفل، وهذه الجزئية - نفسها - هي التي تُميز الطغراء العمانية - الزنجبارية عن الطغراء الصفوية، إضافة إلى جزئية أخرى تتجلى في حشر اسم السلطان الحاكم داخل الأشكال البيضوية التي تكوّنها كلمة: "**السلطان**". وفيما يلي نقترح عدة نماذج طغرائية نُقشت على الأوسمة والميداليات:

* ميداليتان تظهر عليهما طغراء باسم السلطان العُماني- الزنجباري: برغش بن سعيد البوسعيدي (1287 - 1305هـ/1870 - 1888م)، وهو ثاني سلاطين البوسعيديين في سلطنة زنجبار.
* أوسمة نجمية يظهر عليها طغراء باسم السلطان العُماني- الزنجباري: خليفة بن سعيد البوسعيدي (1305 - 1307هـ/1888 - 1890م)، وهو ثالث سلاطين البوسعيديين في سلطنة زنجبار.
* أوسمة نجمية يظهر عليها طغراء باسم السلطان العُماني- الزنجباري: حمد بن ثويني البوسعيدي (1310 - 1314هـ/1893 - 1896م)، وهو خامس سلاطين البوسعيديين في سلطنة زنجبار .
* ميداليتان للسلطان نفسه.
* ميداليتان أخريان للسلطان نفسه.

وقد لجأ أواخر سلاطين زنجبار إلى استعمال الطغراء على وثائقهم الشخصية، وبعض منشآتهم المعمارية، كما نلاحظ ذلك - على سبيل المثال - بالنسبة للتوقيع الطغرائي للسلطان التاسع من سلاطين زنجبار. خليفة بن حارب (1329 - 1380هـ/1911 - 1960م). الذي كان مثبتا على باب قصره بزنجبار، وكذا طغراء السلطان الحادي عشر، وهو السلطان الأخير من سلاطين زنجبار: جمشيد بن عبد الله (1383 - 1383هـ/1963 - 1964م). الذي استعمل طغراءه على بعض وثائقه رغم قِصر مدة حُكمه الذي لم يتجاوز الستة أشهر.

(انظر النماذج الممثّلة في الشكل: 29).



ميداليتان تظهر عليهما طغراء باسم السلطان العماني- الزنجباري: برغش بن سعيد البوسعيدي (1287 - 1305هـ/1870 - 1888م)، وهو ثاني سلاطين البوسعيديين في سلطنة زنجبار[102].



تفصيـــــــــــــل:

ميداليتان تظهر عليهما طغراء باسم السلطان العماني- الزنجباري: حمد بن ثويني البوسعيدي (1310 - 1314هـ/1893 - 1896م)، وهو خامس سلاطين البوسعيديين في سلطنة زنجبار[103].

رقم التصنيف: Lot 1326

102 www.pinterest.com

103 liveauctioneers com

royalark net/Tanzania zanz7 htm



أوسمة نجمية يظهر عليها طغراء باسم السلطان العُماني- الزنجباري: خليفة بن سعيد البوسعيدي.
(1305 - 1307هـ/1888 - 1890م)، وهو ثالث سلاطين البوسعيديين في سلطنة زنجبار.



أوسمة نجمية يظهر عليها طغراء باسم السلطان العُماني- الزنجباري: حمد بن ثويني البوسعيدي
(1310 - 1314هـ/1893 - 1896م)، وهو خامس سلاطين البوسعيديين في سلطنة زنجبار[104].

ارقام التصنيف: 921 - 922 - 923 - 1045 - 1325

[104] royalark.net/Tanzania/zanz7.htm - liveauctioneers.com - gmic co uk - liveauctioneers.com



ميداليتان تظهر عليهما طغراء باسم السلطان العُماني- الزنجباري: حمد بن ثويني البوسعيدي (1310 - 1314هـ/1893 - 1896م)، وهو خامس سلاطين البوسعيديين في سلطنة زنجبار[105].



رنك طغرائي[106] للسلطان التاسع من سلاطين زنجبار: خليفة بن حارب (1329 - 1380هـ/1911 - 1960م)، كان مثبتا على باب قصره بزنجبار، كُتب فيه: "السلطان خليفة بن حارب بن ثويني"



تشــــــريح وقـــــــراءة:

السلطـــــــــــــــان

جمشيد بن عبد الله بن خليفة بن حارب

طغراء[107] السلطان الحادي عشر، وهو السلطان الأخير من سلاطين زنجبار: السلطان جمشيد بن عبد الله (1383 - 1383هـ/1963 - 1964م)، كُتب فيها: "السلطان جمشيد بن عبد الله بن خليفة بن حارب"

شكل: 29

105 royalark.net/Tanzania/zanz7.htm

106 allposters.com

107 hubert-herald.nl/zanzibar.htm

وفي الوقت الذي تخلت فيه زنجبار عن استعمال الطغراء السلطانية، بمجرد سقوط الأسرة الحاكمة من آل بوسعيد فيها، استمر استعمالها من طرف الفرع الآخر للبوسعيديين في مسقط وعُمان (سلطنة عمان بعد ذلك)، ولن نبالغ إن قلنا أن سلطنة عمان تكاد تكون الدولة الإسلامية الوحيدة التي لا تزال تستعمل الطغراء في مكاتباتها الرسمية كما تشهد على ذلك رسالتان؛ إحداهما للسلطان تيمور بن فيصل بن تركي (1331 – 1350هـ/1913 – 1932م)، وهي مؤرخة في: 6 رجب 1350هـ/17نونبر 1931م، بعثها إلى المقيم البريطاني السياسي هيو بسكو، وقد تألفت طغراء هذه الرسالة من العبارة التالية: "**الواثق بالله المجيد تيمور بن فيصل بن تركي بن سعيد**"، أما الرسالة الثانية فقد تألفت طغراؤها من العبارة التالية: "**الواثق بالله المجيد سعيد بن تيمور بن فيصل بن تركي**"، وهي للسلطان؛ سعيد بن تيمور بن فيصل (1350 - 1390هـ/1932 - 1970م) حررها بعدما تنازل له أبوه السلطان تيمور عن العرش ليتولى هو أمور السلطنة خلفا لأبيه اعتبارا من: 2 شوال 1350هـ/10 فبراير 1932م (انظر الرسالتين على التوالي في الشكل: 30)، لكن عهد هذا السلطان شهد عدة اضطرابات وثورات انتهت بالإطاحة به في: 19 جمادى الأولى 1390هـ/23 يوليوز 1970م، إثر انقلاب تزعّمه أنصار ابنه قابوس الذي كان تحت الإقامة الجبرية منذ سنة: 1384هـ/1964م، وبعد خلع أبيه عن الحكم؛ نُصّب قابوس حاكما للسلطنة التي لايزال على رأسها إلى اليوم، حيث يُعـدّ صاحب أطول فترة حُكم من بين الحكام العرب الذين لايزالون على قيد الحياة، والملاحظ أن الطغراء في عهد هذا السلطان ظل استعمالها حاضرا في كل من: "**ديوان البلاط السلطاني**" وكذا: "**المكتب السلطاني**"[108]، حيث استُخدمت في المكاتبات الرسمية إلى جانب الشعار الحالي للدولة الذي يمثله (الخنجر الموضوع على سيفين متقاطعين)، وهو الشعار الذي أُدرج في العلم العماني منذ: 18 شوال 1319 هـ/17 دجنبر 1970م إلى اليوم[109] (انظر الشكل التالي):



الشعار الحالي لسلطنة عمان، يتألف من: (خنجر موضوع على سيفين متقاطعين)

والجدير بالذكر أن الطغراء ظل رسمها حاضرا حتى في الأوسمة العسكرية، إلى درجة سُمّي معها أسمى وسام عسكري في سلطنة عمان اليوم بـ: "وسام الطغرائية السلطانية الخاصة"، وهو وسام يعادل "**خمس درجات**" إلى جانب "**وسام عُمان العسكري**"، يمنحه السلطان قابوس لضباط الجيش ممّن ثبتت

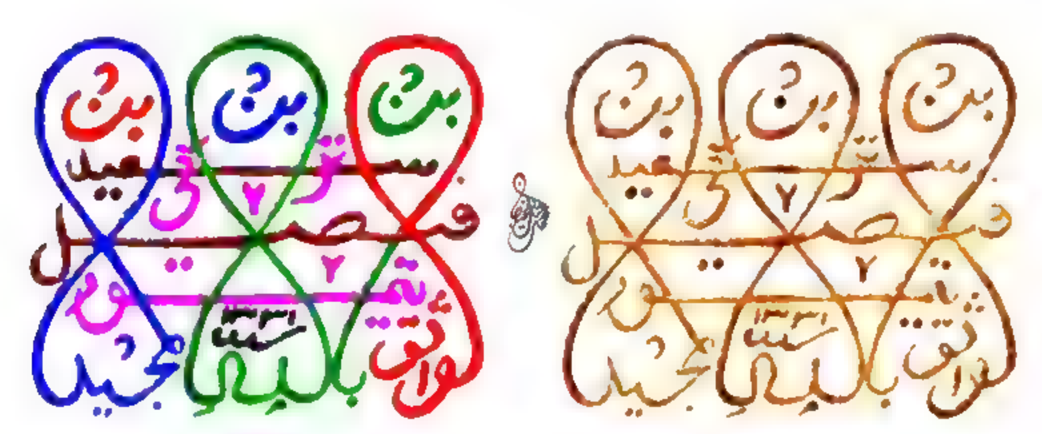
[108] راجع: الجريدة الرسمية العُمانية، العدد: 928، مرسوم سلطاني رقم 2011/7 متعلق بقانون الأوسمة المدنية والعسكرية، المادة: 5، ص 5

[109] راجع: دولة اليعاربة، وزارة الخارجية العمانية: 2010م، النسخة الإلكترونية: www.mofa.gov.om

كفاءتهم، وذلك بحسب التصنيف والرتب العسكرية المعمول بها في سلطنة عُمان[110]. وعادة ما يكون هذا الوسام مُرْفقا ببراءة موقّعة من طرف السلطان نفسه[111].

وبعد اطلاعنا على أنموذج من هذا الوسام، وجدنا طغراء السلطان قابوس منقوشة عليه، وهي تتكون من لقبه واسمه واسم آبائه. قام بتصميمها الشيخ هلال بن سالم الرواحي، أحد أمهر الخطاطين العمانيين على الأطلاق، حيث ضمنها العبارة التالية: "**الواثق بالله الأجل السلطان قابوس بن سعيد بن تيمور بن فيصل**". (انظر شكل: 31).

ويلاحظ من خلال هذه الطغراء؛ إضافة شكل بيضوي رابع على شاكلة الرقم ثمانية، خلافا لطغراوات أسلافه التي كانت تتكون فقط من ثلاث وحدات بيضوية (انظر شكل: 30). ومن الإضافات الفنية الأخرى في طغراء هذا السلطان؛ شكل يتوسط الأشكال البيضوية يشبه التاج السلطاني، تم تشكيله بالخط والزخرفة وفق نسق تجريدي، وذلك لتتطابق طغراء هذا السلطان مع (عرشه) الذي يتخذ الشكل نفســه ولكن وفق نسق تجسيدي (انظر شكل: 31).



تشـــريح وقـــراءة:

الواثق بالله المجيد تيمور بن فيصل بن تركي بن سعيد

طغراء السلطان تيمور بن فيصل بن تركي (1331 - 1350هـ/1913 - 1932م)
مستخرجة من رسالة مؤرخة في: 6 رجب 1350هـ/17 نوفمبر 1931م
مصدر الوثيقة: مكتبة بريتيش - أوراق خاصة وسجلات من مكتب الهند،
رقم: IOR/R/15/1/446. F.20

---

[110] - "**ديوان البلاط السلطاني**" هي التسمية التي تُطلق على المؤسسة الموكلة بمنح الأوسمة المدنية
"**المكتب السلطاني**" هي التسمية التي تُطلق على المؤسسة الموكلة بمنح الأوسمة العسكرية.
راجع
الجريدة الرسمية العُمانية، العدد 928، مرسوم سلطاني رقم 2011/7 متعلق بقانون الأوسمة المدنية والعسكرية، المادة. 1، ص:4.

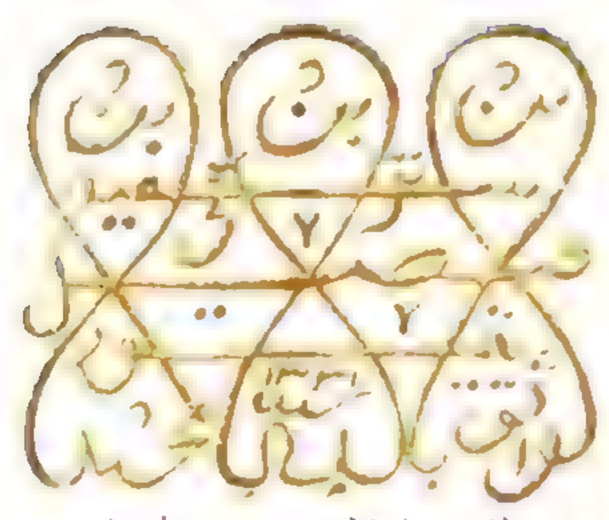
[111] - المرجع نفسه، المادة: 1، ص:4



تفصيـــــــــــــــل:

بسم الله الرحمن الرحيم

البسملــــــــــة



طغراء السلطان تيمور بن فيصل

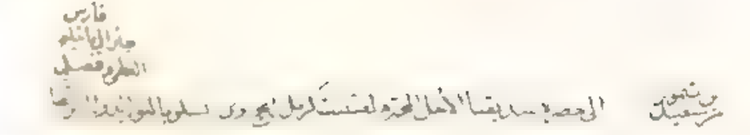
تتألف من عبارة:

الواثق بالله المجيد تيمور بـن فيصل بن تركي بن سعيد

رسالة مؤرخة في: 6 رجب 1350هـ/17 نونبر 1931م، بعثها السلطان تيمور بن فيصل بن تركي (1331 - 1350هـ/1913 - 1932م)، إلى المقيم البريطاني السياسي هيو بسكو، وهي متوجة بالطغراء السلطانية لهذا السلطان

المصدر: مكتبة بريتيش - أوراق خاصة وسجلات من مكتب الهند، رقم: IOR/R/15/1/446, f. 20





تفصيـــــــــــــــيل:

البسملـــــــــــة



الطغراء في أعلى الرسالة



الطغراء على ظرف الرسالة

طغراء السلطان سعيد بن تيمور

تتألف من عبارة:

الواثق بالله المجيد سعيد بن تيمور بن فيصل بن تركي

رسالة مؤرخة في: 2 شوال 1350هـ/10 فبراير 1932م، بعثها السلطان سعيد بن تيمور بن فيصل (1350 - 1390هـ/1932 - 1970م) إلى المقيم البريطاني السياسي هيو بسكو وذلك بعدما تنازل له أبوه عن العرش، وهي متوجة بالطغراء السلطانية لهذا السلطان

المصدر: مكتبة بريتيش - أوراق خاصة وسجلات من مكتب الهند، رقم: IOR/R/15/1/446, f. 20

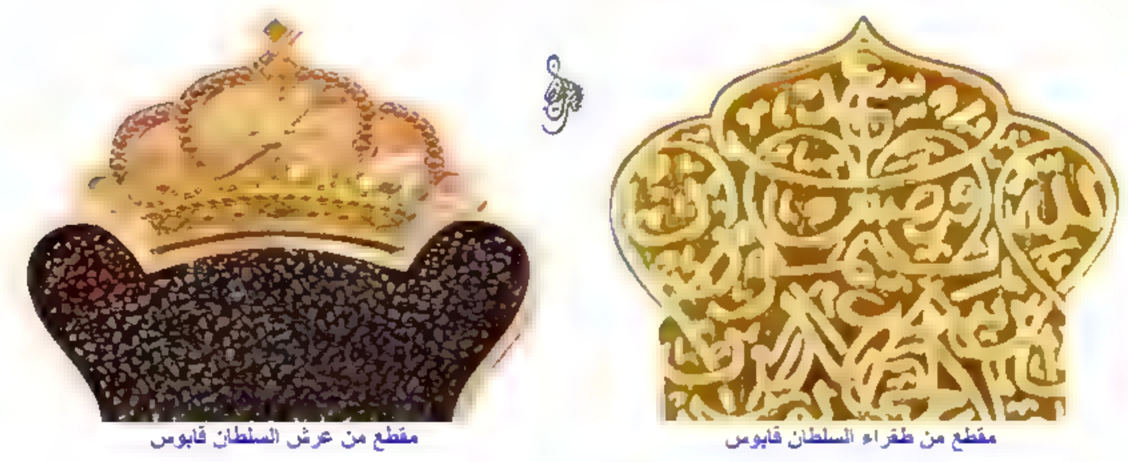
رسالتان متوجتان بالطغراء العُمانية لكل من أبي وجدّ السلطان الحالي لسلطنة عمان؛ قابوس بن سعيد
شكل: 30



تفصيـــــــل:

طغراء السلطان قــابوس

تتالف من عبارة: "الواثق بالله الاجل السلطان قابوس بن سعيد بن تيمور بن فيصل"



مقطع من طغراء السلطان قابوس　　　　مقطع من عرش السلطان قابوس

تشريح "وسام الطغرائية السلطانية الخاصة"، واستخراج طغرائه السلطانية التي يكاد شكلها يتطابق مع شكل عرش السلطان قابوس

شكل: 31

ختــامــا، نشير إلى أننا وبالرغم مما قدمناه من شروحات لدلالة الطغراء من الناحية التاريخية واللغوية والوظيفية، إلا أن ذلك لا يقدم لنا قاعدة مفاهيمية صلبة، تبرر و تفسر دلالة هذه التسمية من وجهة تاريخية. لذلك سنحاول التفصيل في مدلولها من منطلق تاريخي، نربط من خلاله بين دلالة المصطلح، وحقيقة استعماله في الدواوين السلطانية بين المشرق والمغرب، فضلا عن رصد المقارنة بين تسمية: "**طغراء**" وبين تسميات أخرى عُرفت في المغرب وبعض الأقطار المشرقية، وعلى رأسها تسمية: "**العلامة**"، وتحديد ما إذا كانت الطغراء والعلامة من حيث حقيقتهما شيء واحد، أم أن الأمر يتعلق بعنصرين مختلفين رسما ووظيفة. علاوة على محاولة تجسيد ورصد علاقتهما بمصطلح: "**توقيع**" الذي ظهر في العصر العباسي، والذي استُعمل في الدواوين السلطانية منذ ذلك العصر كخط رسمي ارتبط بتوقيع الرسائل السلطانية. ولتجسيد ذلك؛ لابد أن نقوم بإطلالة على الدواوين السلطانية وتقاليدها.

لكن ماذا عن حقيقة هذه التسمية في المغرب؟ وإن كانت مستعملة في الدواوين المغربية. إلى أي حد كان ذلك الاستعمال يتلاءم مع حقيقة استعمال الطغراء في المشرق؟ ثم هل كان مسمى: "طغراء" حاضرا في المغرب اسما ورسما ووظيفة، أم أن الأمر يتعلق بعين الوظيفة وخلاف الإسم والرسم، أو عين الإسم والرسم وخلاف الوظيفة؟

الباب الثاني

الطغراء والعلاَمة بين دلالة المصطلح، وحقيقة الاستعمال

في الدواوين السلطانية بين المشرق والمغرب

الفصل الأول: مقارنة حول دلالة المصطلح واستعماله في كل من المغرب السعدي وتركيا العثمانية (تأصيل تاريخي وشواهد مصدرية ومادية):

1 – الطغراوات والعلامات والمشرف عليها من خلال المصادر التاريخية بين المشرق والمغرب: (تحليل تركيبي، ومقارنات دلالية):

يُعد ابن الأحمر (725 807هـ/1325 1405م) أقدم من ألّف كتابا في الطغراوات والعلامات السلطانية، ليس في المغرب فحسب، بل حتى في العالم الإسلامي برمته، وقد سمّى كتابه الذي خصصه لذلك: "**مستودع العلاَمة ومستبدع العلاَمة**"، وهو الكتاب الذي ألفه للمرينيين، وتحديدا ليحيى بن الحسين بن أبي دلامة كاتب السلطان المريني أبي العباس أحمد المستنصر (ت.796هـ/1393م) كما يذكر ذلك في مقدمة كتابه[1]، ولعله فعل ذلك جريا على عادة بعض من عاصره من الأعلام، الذين دخلوا في طاعة المرينيين، كابن خلدون[2] وابن الخطيب[3] وابن مرزوق[4] وابن الحاج النميري[5] وغيرهم، وترجم ابن الأحمر في كتابه هذا لعدد كبير من الخطاطين والكُتّاب والعلماء الذين عُنِيُوا لتحرير الرسائل والمناشير، والتوقيع عليها في الدواوين السلطانية في المغرب، ولم يقتصر على ذلك، بل تعداه حتى لذكر بعض المشارقة الذين

---

[1] – ابن الأحمر (أبو الوليد)، مستودع العلاَمة ومستبدع العلاّمة، تحقيق: محمد التركي التوسي ومحمد بن تاويت التطواني، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، بمساهمة المركز الجامعي للبحث العلمي، المطبعة المهدية، تطوان، 1964م، ص 19

[2] – يذكر ابن خلدون في مستهل مقدمته أنه أهدى نسخة العبر إلى السلطان المريني أبو فارس عبد العزيز، لتحبيسها على خزانة القرويين

انظر. ابن خلدون، المقدمة، ص: 11 – 12

انظر أيضا. الدراسة الفنية – الباليوغرافية لمخطوطة "العبر" في أطروحتنا

محمد عبد الحفيظ خبطة، "المصاحف والكتب المخطوطة.."، ج/2، صص. 332 – 345

[3] – دخل لسان الدين ابن الخطيب في طاعة المرينيين، ولإثبات تلك الطاعة، صنف للسلطان المريني أبي سالم مصنفا طبيا سماه. "عمل من طب لمن حب"، وأهداه إليه عندما قدم عليه سنة: 760هـ/1358م

انظر

– المقري (أحمد بن محمد)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر-بيروت، الطبعة الأولى. 1997م، ج/7،ص: 98

انظر أيضا. الدراسة الفنية – الباليوغرافية لهذا المخطوط في أطروحتنا

محمد عبد الحفيظ خبطة، "المصاحف والكتب المخطوطة.."، ج/2، صص. 360 – 375

[4] – دخل ابن مرزوق في طاعة السلطان أبي الحسن المريني، وألف كتابا في مناقبه

انظر

– ابن مرزوق (محمد)، المسند الصحيح الحسن، في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، تحقيق: ماريا بيغيرا، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م،ص: 59.

[5] – دخل ابن الحاج النميري في طاعة السلطان أبي عنان المريني، وألف كتابا في مناقبه

انظر

– النميري (ابن الحاج)، فيض العباب وإفاضة قداح الأداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب، دراسة وإعداد: محمد بن شقرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى: 1990م، صص: 31 – 35.

يقول عنه ابن القاضي: "بلغ الغاية في إجادة الخط"

ابن القاضي (أبو العباس أحمد بن محمد المكناسي)، جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام بمدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1973م، ص. 91

عُيّنوا للمهمة نفسها في الدواوين المشرقية، وعلى رأسهم آخر فطاحلة الشعراء؛ "**الحسين بن علي الطغرائي**" (455 - 513هـ/1063 - 1120م) المتكرر الذكر[6]، الذي استوزره السلاجقة وكلفوه برسم علامتهم في ديوان الإنشاء[7].

فلا شك إذن أن جمع كل هاته الأخبار، وذكر مثل هؤلاء الأعلام، من قِبل ابن الأحمر؛ يدل بشكل ضمني على أن هذا التقليد السلطاني في الغرب الإسلامي (أوالمغارب كما يسميه البعض) قديم قدم الدولة المغربية، وتأليف صاحبنا لهذا الكتاب لم يأت من فراغ، بل أتى من واقع يدل على ازدهار الدواوين السلطانية في المغرب، واهتمام روادها بتطوير الرسوم الطغرائية التي استُعملت على مجال واسع في كافة المكاتبات المتعلقة بالدولة.. و في هذا الشأن، يذكر ابن الأحمر أن الطغراء السلطانية التي اصطُلح على تسميتها - في المغرب - بـ: "**العلامة**"، عادة ما كان السلاطين المغاربة يضعونها "**في أول المُهْرَقِ**[8] **بعد البسملة، وجعلها بعضهم في آخره عند ختم الكلام**"[9].

وقد تفرد ابن الأحمر - دون غيره - بذكر معلومات لم ترد في أي مصدر من المصادر الأخرى ولو عرَضا، حيث قدّم لنا إفادات مهمة عن طبيعة تلك الطغراوات والعلامات السلطانية التي اتخذها السلاطين في مجموع بلدان شمال إفريقيا من المغرب حتى مصر، كما ذكر لنا بعضا من تلك العلامات ونصوصها، وأوجه الائتلاف والاختلاف بينها من دولة إلى دولة، ومن مرحلة زمنية إلى أخرى. بل وميّز بين العلامات التي كانت تُكتب بأسماء السلاطين وألقابهم، والعلامات التي كانت تُكتب بنصوص وعبارات غيرها، تتنوع معانيها بين "التوكل" و"الحمد" و"الاستعانة" و"التصحيح" و"الإثبات".. يقول ابن الأحمر في ذلك: "**وقد اشتق بعضهم [يقصد: السلاطين] لفظ العلامة مجانسا للقبه... ومنهم من يكتب علامته بخلاف اشتقاق لقبه، كالسلطان يوسف بن تاشفين اللمتوني [المرابطي] ملك المغرب، كانت علامته: صح ذلك بحول الله. وكملوك الموحدين من بني عبد المومن.. كانت علامتهم في أول صكوكهم بعد البسملة: والحمد لله وحده... وكملوك الموحدين من بني أبي حفص بإفريقية، كانت علامتهم في أول كتبهم: الحمد لله والشكر لله. وكأمير المومنين المستنصر بالله أبي جعفر.. العباسي، كانت علامته: الله القاهر فوق عباده. وكالسلطان قراقش الغزي، كانت علامته: وثقت بالله. وكأمير المومنين الظاهر لإعزاز دين الله علي العبيدي ملك مصر الشيعي، كانت علامته: الحمد لله شكرا لنعمته.. [و] بني الأحمر ملوك الأندلس، كانت علامتهم في أوّليتهم: ولا غالب إلا الله. ثم كانت علامتهم: وكتب في التاريخ... ثم انتقلوا من ذلك فكتبوا علامتهم: صح هذا**"[10].

---

6 - ابن الأحمر، مستودع العلامة، ص: 26

7 - حميد (مها سعيد)، وزير الموصل مؤيد الدين الطغرائي - دراسة في سيرته ونشاطه العلمي - مركز دراسات الموصل، مجلة التربية والعلم، المجلد 19، العدد 5، سنة 2012م، صص 175 192

8 - المُهرَق. جمعها مهارق وهي الصحائف. انظر لسان العرب، ج/10، ص: 368

9 ابن الأحمر، مستودع العلامة، ص 21

10 المصدر نفسه، صص. 21 24

وعلى غرار ابن الأحمر، وجدنا ابن خلدون – هو الآخر- يتحدث لنا عن العلامات السلطانية في المغرب، انطلاقا من توليه لمنصب الكتابة عند كل من الحفصيين والمرينيين.. وبخصوص هذا الأمر، تؤكد لنا الروايات المصدرية أن ابن خلدون قد عُيّن - منذ مطلع شبابه - لكتابة "العلامة" عند أبي إسحق الحفصي في تونس سنة: 753هـ/1352م، وذلك منذ ثورة أهل هذا البلد على السلطان أبي الحسن المريني سنة: 749هـ/1348م بزعامة ابن تافراكين (أو ابن تافراجين)[11].

لكن صاحب المقدمة لم يمكث في تونس الحفصية سوى سنتين اثنتين، ثم مالبث أن انتقل بعدها إلى المغرب، فدخل في طاعة أبي عنان المريني اعتبارا من سنة: 755هـ/1353م، ليلتحق بعدها بديوان الإنشاء المريني، ولبث فيه إلى عهد السلطان المريني أبي سالم (760 762هـ/1359 1361م)[12]. لذلك فلاغرْو في أن يكون ابن خلدون على معرفة بأسرار الدواوين السلطانية ووظائفها المتعددة، كما أنه لاجَرَم في امتلاكه لنظرة شمولية تتعلق بأسرار العلامات والأختام، وعلاقتها بالبعدين السيادي والوظيفي. وذلك راجع – حسب رأيي – إلى أمرين اثنين؛ أولهما تنقلاته التي كانت على مجال واسع، حيث غطّت مجموع بلدان شمال إفريقيا من المغرب حتى مصر. وثانيهما توليه منصب القضاء أو الكتابة أوهما معا في الدواوين السلطانية للبلدان التي حل فيها ومنها ارتحل. ومن خلال ارتباطه بالدواوين السلطانية في المغرب، تحدث ابن خلدون عن الأختام التي كانت تعد رمزا لسيادة الدولة في سائر وثائقها السياسية ومراسلاتها الرسمية، حيث أشار إلى أن: "..**الختم [يكون] بالخط آخر الكتاب أوأوله بكلمات منتظمة من تحميد أوتسبيح، أوباسم السلطان أوالأمير أوصاحب الكتاب كائناً من كان، أوشيء من نعوته**"[13].

واستعمال العلامات والأختام السلطانية في وثائق الدولة – حسب ابن خلدون – إنما يكون المراد منه الإشارة إلى معنى واحد هو: "**معنى النهاية والتمام، بمعنى صحة ذلك المكتوب ونفوذه، [لأن] الكتاب إنما يتم العمل به بهذه العلامات، وهو من دونها ملغى ليس بتمام... وسُمي ذلك في المتعارف: علامة، وسمي: ختماً تشبيهاً له بأثر الخاتم الآصفي في النقش، ومن هذا؛ خاتم القاضي الذي يبعث به للخصوم**"[14].

ويشير ابن خلدون أيضا إلى أن ذلك الاستعمال يُعد في دواوين الدولة. "**من الخطط السلطانية والوظائف الملوكية، والختم على الرسائل والصكوك معروف للملوك قبل الإسلام وبعده. وقد ثبت في**

---

[11] - ابن خلدون، التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا، ص 65

انظر أيضا. كتاب العبر لابن خلدون، ج/7، ص· 532

[12] - ابن خلدون، العبر، ج/7، صفحات 525 ، 534 ، 539

انظر أيضا: ابن خلدون، التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا، صفحات 56 67 72 ، 73

[13] ابن خلدون، المقدمة، ص 327

[14] المصدر نفسه، ص. 327

الصحيحين[15]؛ أن النبي صلى الله عليه وسلم أراد أن يكتب إلى قيصر، فقيل له: إن العجم لا يقبلون كتاباً إلا أن يكون مختوماً. فاتخذ خاتماً من فضة ونقش فيه: محمد رسول الله"[16].

ولتعزيز هذا الرأي الذي استدل به ابن خلدون من كتب الحديث الصحاح؛ نستدل ببعض الرسائل[17] التي أملاها رسول الله صلى الله عليه وسلم، على من كلفهم بكتابتها من الصحابة، حيث يُميز فيها بوضوح؛ الخاتم الذي كان يستعمله في ختمها (انظر شكل: 32). وفي هذا الشأن، يشير بعض الباحثين إلى أن الخلفاء الراشدين الثلاثة الأوائل، كانوا يضعون خاتم النبي صلى الله عليه وسلم، كرمز لخلافتهم، إلى أن ضاع في عهد سيدنا عثمان رضي الله تعالى عنه سنة:31هـ/652م. وأول شيء فعله مؤسس الدولة الأموية؛ معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه بعد ضياع الخاتم النبوي، هو نقش خاتم ثمين على غراره، اتخذ منه شعارا لحكمه[18].



الخاتم الذي كان يختم به رسول الله ﷺ رسائله
شكل: 32

---

[15] – راجع متن الحديث وسنده عند.

– البخاري (أبو عبدالله محمد بن إسماعيل)، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه، تحقيق. محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، الطبعة الأولى: 2001م، كتاب العلم، حديث رقم: 65، ج/1، ص: 24

– مسلم (أبو الحسن القشيري النيسابوري)، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت، كتاب اللِّبَاسِ وَالزِّينَةِ، حديث رقم: 56، ج/3، ص: 1657

[16] – ابن خلدون، المقدمة، ص: 264

[17] شككت بعض المستشرقين في صحة نسبة هذه الرسائل إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، وعلى رأسهم: المستشرق اليهودي مرجليوث، والإنجليزي السير وليام ميور، والإيطالي ليون كايتاني - وللأسف - تبع هؤلاء مجموعة من الباحثين العرب الذين تبنوا نفس الأطروحة، هذا وإن كنا نجد في الوقت نفسه أن بعض المستشرقين الموضوعيين، لم يسايروا هذه الحملة المغرضة، بل تصدوا لها كما فعل الإنجليزي سير طوماس أرنولد، والألماني نولدكه الذي ذهب إلى حد التسليم بأصالة الوثيقة التي يرجح أنها رسالة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المقوقس عظيم القبط في مصر انظر

إبراهيم (عز الدين)، الدراسات المتعلقة برسائل النبي صلى الله عليه وسلم إلى ملوك عصره، نشر هذا المقال في كتاب. صناعة المخطوط العربي الإسلامي من الترميم إلى التجليد، الدورة التدريبية الدولية الثامنة، دبي، الإمارات العربية، 1999م، بتنسيق بين. جامعة الإمارات العربية المتحدة، مركز جمعة الماجد بالإمارات، ومنظمة الإسيسكو بالرباط، الطبعة الأولى: 2001م، ص: 408

[18] دوسون، نظم الحكم والإدارة في الدولة العثمانية، ص: 50

و يمكن اعتبار هذا الخاتم النبوي – حسب تقديري الخاص - الأنموذج الذي اتبعه حكام الدول الإسلامية - شرقا وغربا - في وضع علاماتهم وأختامهم السلطانية، التي كانت - بناء على هذا التقليد تحفل بالنصوص الدينية المستخرجة من القرآن الكريم والسنة النبوية الغراء.

كما يمكن اعتباره أيضا، أبرز مثال حي، أسس للقوانين المعتمدة في خط الثلث؛ المشرقي والمغربي، فيما يُسمى: "**بفن التركيب والتراكب**"، حيث نلاحظ أن اسم الجلالة يوجد في أعلى التركيب، مما جعل الكتابة تبدأ من الأسفل نحو الأعلى، لأن الله عز وجل يعلو ولا يعلى عليه، وهذا المعنى الذي يرتبط أساسا بالعقيدة الإسلامية القائمة على التوحيد، أصبح من "**المسلمات الفنية**" التي يجب استحضارها في كتابة أي نص ديني مركب – متراكب؛ حديثا نبويا كان أو آية قرآنية.

والملاحظ أن المغاربة قد أبدعوا في رسم الأختام النبوية الشريفة، حيث انتخبوا لرسمها أجود خطوطهم من قبيل خط الثلث المغربي والمبسوط والمجوهر، كما اختاروا لها أجود الزخارف وأبهى الألوان، فضلا عن تذهيبها بماء الذهب، وترصيعها بالفضة المائعة، واستعملوها على وجه التحديد في كتب الأوراد والأذكار لتزيين صفحاتها، وتنميق أطراسها (انظر شكل: 33).



خاتم استخرجناه من نسخة بديعة من كتاب دلائل الخيرات، ترجع إلى القرن 16 (العصر السعدي) حسب إفادة المصدر المعني
المصدر: المتحف الفني - هافارد أرثر . شعبة الفن الإسلامي والهندي.
Harvard Arthur M. Sackler Museum, Don de Philip Hofer, 1984.464.11
شكل: 33

من خلال ما سبق، يمكن القول إن التوقيع أو العلامة السلطانية سُميت بذلك لأن السلطان كان يختص بها لنفسه، ولا تُوقّع الكتب الرسمية للدولة إلا بها، حتى ولو كان السلطان لا يجيد كتابة الخط الرائق. يقول ابن خلدون في هذا المعنى: "**وقد يختص السلطان بنفسه بوضع ذلك إذا كان مستبداً بأمره قائماً على نفسه، فيرسم الأمر للكاتب ليضع علامته، ومن خِطط الكتابة التوقيع، وهو أن يجلس الكاتب بين يدي السلطان في مجالس حكمه وفصله، ويوقع على القصص المرفوعة إليه أحكامها والفصل فيها، متلقاة من السلطان بأوجز لفظ وأبلغه**"[19].

والجدير بالذكر أن العلامة السلطانية في المغرب كانت من اختصاص موظف ينصبه السلطان بنفسه، أطلق عليه المؤرخون خلال الحقبة الوسيطية: "**صاحب القلم الأعلى**" أو"**كاتب العلامة**"، وكانت هاتان التسميتان - حسب رأي ابن الأحمر - مختلفتان في مدلولهما، قبل أن يصبح لهما المعنى نفسه اعتبارا من العصر المريني، حيث "**كان يُعبّر [واللفظ لابن الأحمر] عن كاتب الإنشاء بصاحب القلم الأعلى، ثم صار هذا الوسم يُعبَّر به في زماننا هذا عن كاتب العلامة [يقصد بـ:"زماننا"؛ العصر المريني]**"[20].

ولاشك أن إطلاق تسمية: "**صاحب القلم الأعلى**" على "**صاحب العلامة**"، يُستنبط منه أن: العلامة كانت أشرف الرسوم الخطية وأعلاها أهمية خلال العصر المريني، لأنها تُعبر عن سيادة السلطان ونفوذ أمره، وهذا التداخل يُستنتج - تحقيقا لا ظنا - من خلال كتاب : "مستودع العلامة" الذي ترجم فيه ابن الأحمر لمجموعة من خطاطي الدواوين السلطانية، حيث أطلق عليهم ذلك الإسم وربطه برسم "علامة السلطان".

إضافة إلى ذلك، ذكر ابن الأحمر أن "**كاتب العلامة**"، جرت العادة أن يكون هو عينه "**رئيس الكُتّاب**" في الدواوين السلطانية بالمغرب، وذلك بحكم منصبه الحساس الذي يتصل مباشرة بالسلطان وبنفوذ أمره، وقد استنبطنا هذا الأمر من خلال حديثه عن المرينيين، حيث ذكر أن "**بعض الملوك [كان] يقدم لكَتْبها [العلامة] رئيس كتبته، وربما شارك بعضهم في كَتْب العلامة كاتبه المقدم عليها، كبني مرين ملوك المغرب**"[21].

ومن جهته، اتفق ابن خلدون مع ابن الأحمر في هذا المضمار، إذ جعل من "**رئيس الكُتّاب**" هو نفسه. "**كاتب العلامة**" أو "**صاحب العلامة**" كما سماه في كتابه: "العبر"[22]. بل إنه أضحى في المغرب

---

[19] - ابن خلدون، المقدمة، ص 306

[20] - ابن الأحمر، مستودع العلامة، ص. 25 وص: 111

[21] - المصدر نفسه، ص. 21

[22] - انظر ذلك على سبيل المثال عند ترجمة ابن خلدون لعبد المهيمن "صاحب العلامة" في عهد السلطانين المرينيين أبي سعيد وابنه أبي الحسن

انظر ابن خلدون، العبر، ج/7، ص 523

انظر أيضا. ابن خلدون، التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا، ص. 55

السعدي يعرف بـ: "**صاحب الديوان**" كما أطلعنا على ذلك ابن القاضي (960 - 1025هـ/1553 - 1616م)[23].

ولا شك أن إشارة ابن القاضي هذه، تدل بشكل أو بآخر على استمرار هذا التقليد السلطاني الوسيطي، ببلاد المغرب حتى مستهل العصر الحديث، ونعزز هذا الرأي بما ذكره السفير علي بن محمد التمكروتي[24] من خلال سفارته، التي بعثه على رأسها السلطان السعدي: أبو العباس أحمد المنصور الذهبي (986 - 1012هـ/1578 - 1603م)، إلى السلطان العثماني: مراد الثالث (982 - 1003هـ/1574 - 1595م)، حيث سجل بعض ملاحظاته على الديوان السلطاني العثماني، من منطلق معرفته به في المغرب السعدي، فأشار إلى وجود اختلاف في تسمية: الطغراء (العلامة)، والمشرف عليها (رئيس الكتّاب) بين الدولتين، رغم أن حقيقتهما ووظيفتهما واحدة، ويُؤخذ ذلك من قوله: كان "**رئيس الكتّاب..[عند العثمانيين هو المكلف بـ] كتْب العلامة .. فما قَبِله السلطان، أمره أن يضع فيه علامة السلطان، يقولون لها بلسانهم: النِّشان. ويقولون للكاتب الذي يضعها: النِّشانجي**"[25]. وأضاف التمكروتي أن "**الجيم عندهم [في كلمة: نِشانجي] بمنزلة ياء النسب عند العرب**"[26]. ونحن نتفق معه في هذا التأويل، بل ونؤكد صحة المقارنة التي قام بها، بدليل أن العرب كانوا يطلقون على الموظف الموكل بـ: "النياشين" في الدواوين السلطانية؛ تسمية: "**النِّشاني**" كما يشير إلى ذلك محمد بن فضل الله المحبي (1061 - 1111هـ/1651 - 1699م)، حيث يقول: "**والنِّشاني نسبة إلى النِّشان، وهو: الطرة التي ترسم في أعلى الأوامر والبراءات السلطانية، ويقال لها: الطغرى أيضا..**"[27].

وتشير بعض المصادر العثمانية إلى أن تسمية: "**نِشانجي**" التي أُخذت من مصطلح: "**نِشان**" الفارسي[28]. هي تسمية كانت تطلق على منصب: "**التوقيعي**" في التنظيمات الإدارية للإمبراطورية العثمانية، ولعل هذا الرأي، هو ما دفع أحد الباحثين للتأكيد على أن لفظ (طغراء) التركي مرادف - من الناحية اللغوية - للفظ (نِشان أو نِيشان أو نِشانة) الفارسي، وتعني: "**علامة**" وهي مرادفة - أيضا - للفظ (توقيع) العربي[29].

---

[23] - ابن القاضي (أبو العباس أحمد بن محمد المكناسي)، المنتقى المقصور على مآثر الخليفة المنصور ابن القاضي، دراسة وتحقيق: محمد رزوق، مكتبة المعارف، الرباط، 1986م، ج/2، ص 604

[24] - عن شخصية علي بن محمد التمكروتي وسفارته؛ راجع

- الشاذلي (عبد اللطيف)، مسألة الانتماء من خلال رحلة التمكروتي إلى القسطنطينية سنة: 1590م، مقالة بأعمال ندوة نونبر 2003م تحت عنوان (الرحالة العرب والمسلمون اكتشاف الآخر المغرب منطلقا وموئلا)، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، وزارة الثقافة، الطبعة الأولى: 2003م، ص 42 - 43

[25] - التمكروتي (علي بن محمد)، النفحة المسكية في السفارة التركية، تحقيق: عبد اللطيف الشاذلي، المطبعة الملكية، الرباط، 2002م، ص 100

[26] - المصدر نفسه، ص. 100

[27] - المحبي (محمد أمين بن فضل الله)، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، دار صادر، بيروت، د.ت. ج/3، ص 227

[28] - الدولة العثمانية. تاريخ وحضارة، مجموعة من الأساتذة الجامعيين تحت إشراف: أكمل الدين إحسان أوغلي، نقله إلى العربية: صالح سعداوي، منظمة المؤتمر الإسلامي. مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية باستانبول (إرسيكا)، الطبعة الثانية 2010م، ج/1، ص 550

[29] حنش، الخط العربي في الوثائق العثمانية، ص 201 202

من خلال النصوص السابقة إذن، يتضح لنا أن تسمية: "**طغراء**" في تركيا العثمانية، كان يطلق عليها - في الفترة نفسها - في المغرب السعدي: "**علامة السلطان**"[30]، وذلك وفقا لشهادة التمكروتي الذي وضعنا أمام المقارنة التي عايشها، والتي كان طرفا فيها، بصفته أحد أفراد الديوان السعدي، الذين بعثهم أحمد المنصور الذهبي إلى استانبول في السفارة المذكورة. وإثر دخوله إلى الديوان العثماني في عهد مراد الثالث، لم يجد التمكروتي أية غضاضة في نعت "الطغراء العثمانية" بـ: "علامة السلطان"، منطلقا في ذلك من ثقافته ومعارفه وتعريفاته، التي كانت تتعلق بتنظيم الدواوين المغربية خلال العصر السعدي، ولا شك أنه إثر ذلك الوصف قد عاين الطغراء العثمانية وتعرّف على شكلها الذي كان يملأ جنبات "**الديوان الهمايوني**" في استانبول، ويزين مكاتبات السلطان العثماني وأوامره وفرماناته، إذ كيف يعقل أن يتحدث عن شيء هو لا يعرفه؟ ثم كيف يمكنه أن يتحدث عن الطغراء وهو لم يرها؟ والأكيد، بل والثابت عندنا أنه لو كانت تلك الطغراء شيئا آخر لا يعرفه بوصفه وتوصيفه، لما نعتها بـ: "**علامة السلطان**" التي أكد - كما مر بنا - أنهم كانوا يقولون لها بلسانهم: "**النِّشان**"، واستعماله كلمة: "**لسانهم**"، دليل على أنه عرّفها **بلسانه**" الذي لا يعدو أن يكون سوى لسان المغاربة الدارج خلال العصر السعدي. وقد نصّ على هذا التطابق في المعنى، والتوافق في الاستعمال؛ بعض الباحثين المعاصرين، الذين عرّفوا الطغراء عند العثمانيين بـ: "**العلامة السلطانية**" أو "**الختم السلطاني**"، عند قيامهم بجرد شامل "**للمصطلحات المتداولة في الدولة العثمانية**"[31].

وحتى نؤكد أن "الطغراء" أو "النِّشان" كانت تسمى بشكل رسمي في المغرب السعدي: علامة السلطان" - لكي لا يقال إنها تسمية أطلقها التمكروتي اجتهادا منه فقط - نعزز ما ذهبنا إليه بشهادة ابن القاضي خلال عهد السلطان السعدي نفسه، حيث سمّى الطغراء بـ: "**العلامة السلطانية**"، من خلال كتابه: "**المنتقى المقصور على مآثر الخليفة المنصور**"، الذي ألفه في مناقب مخدومه أحمد المنصور الذهبي. فأشار من خلاله إلى أن "**عبد الرحمن العنّابي**" هو من كان مكلفا بإمضاء "**التوقيع**" ورسم "**العلامة السلطانية**" للسلطان المذكور[32]. ويلاحَظ من خلال هاتين الشهادتين لكل من التمكروتي وابن القاضي، أنه قد تمت خلال العصر السعدي، إضافة كلمة: "**سلطان**" أو "**سلطانية**"، **إلى** كلمة: "**علامة**" أو "**العلامة** في بعض الأحيان، وذلك حتى تكتسي طابعا رسميا ينمّ عن سيادة السلطان ونفوذ أمره من خلال مناشيره ورسائله ومكاتباته.

ولتأكيد رأينا واستنتاجاتنا حول التسميات المتعددة للطغراء واستعمالاتها في كل من المغرب السعدي وتركيا العثمانية، نشير إلى أن تسمية "نشان" التي ذكرها التمكروتي من باب المقابلة والمقارنة،

---

30 - التمكروتي، النفحة المسكية، ص 100

31 - عامر (محمود)، المصطلحات المتداولة في الدولة العثمانية، قسم التاريخ، جامعة دمشق، مجلة دراسات تاريخية - العددان. 117 - 118، يناير - يونيو، 2012م، ص 376

32 ابن القاضي، المنتقى المقصور، ج/2، ص 604

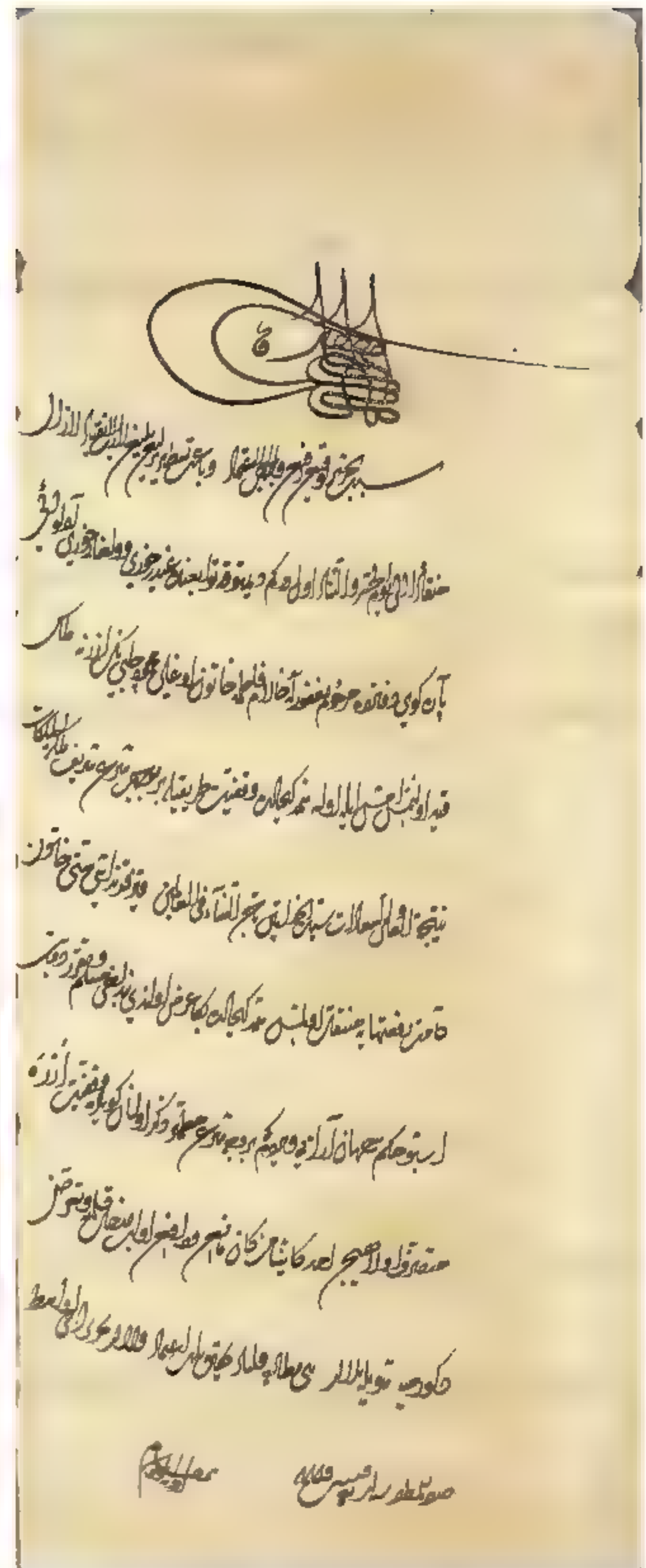
جرت العادة بكتابتها في الوثائق والفرمانات العثمانية أسفل الطغراء، منذ عهد السلطان العثماني **محمد الثاني**" (855 - 886هـ/1451 - 1481م) الذي فتح القسطنطينية سنة: 857هـ/1453م[33]، ليقلب ظهر المِجنّ للصليبيين، ويُلقَّب بعدها بـ: "**الفاتح**"، مما جعل من هذا الحدث التاريخي حسب التحقيب الأوربي إيذانا بنهاية العصر الوسيط وبداية العصر الحديث[34]. وهو الحدث الذي سيواكبه بعد ذلك بتسع سنوات حدث آخر لا يقل أهمية، ألا وهو القضاء على **"الآق قويـــونلـــو"** (دولة الشاة البيضاء، أوأصحاب الخرفان البيض)[35] سنة: 866هـ/1462م، مما سمح للفاتح باصطحاب كَتبة الديوان من فارس إلى عاصمته الحديدة[36]: (القسطنطينية التي أضحت تسمى الأستانة ثم استانبول). وكما نلاحظ من خلال فرمان مؤرخ في سنة: 864هـ/1459م، فإن كلمة: "نشان" لم تكن مستعملة في الوثائق العثمانية، والسبب واضح؛ يتجلى في كون تاريخ هذا الفرمان (864هـ/1459م) يسبق تاريخ غزو بلاد فارس بسنتين اثنتين (866هـ/1462م)، وهو مايدل أيضا على أن عبارة: "**نِشان همايون**..." الفارسية، لم تستعمل في الفرمانات العثمانية إلا بعد نقل التقاليد السلطانية من فارس إلى استانبول من قِبل محمد الفاتح، لتُدرج بشكل رسمي في اللغة التركية – العثمانية. وتُستعمل في مناشيرها وفرماناتها السلطانية كما يشهد على ذلك فرمان للسلطان نفسه، يرجع تـــاريخه إلى سنة: 872هـ/1468م – أي بعد سقوط الآق قويونلو على أيدي العثمانيين بست سنوات (انظر شكل: 34).

[33] - فضائلي، أطلس الخط والخطوط، ص: 393

[34] - اورتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ج/1، ص 142

[35] - المرجع نفسه، ج/1، ص. 157

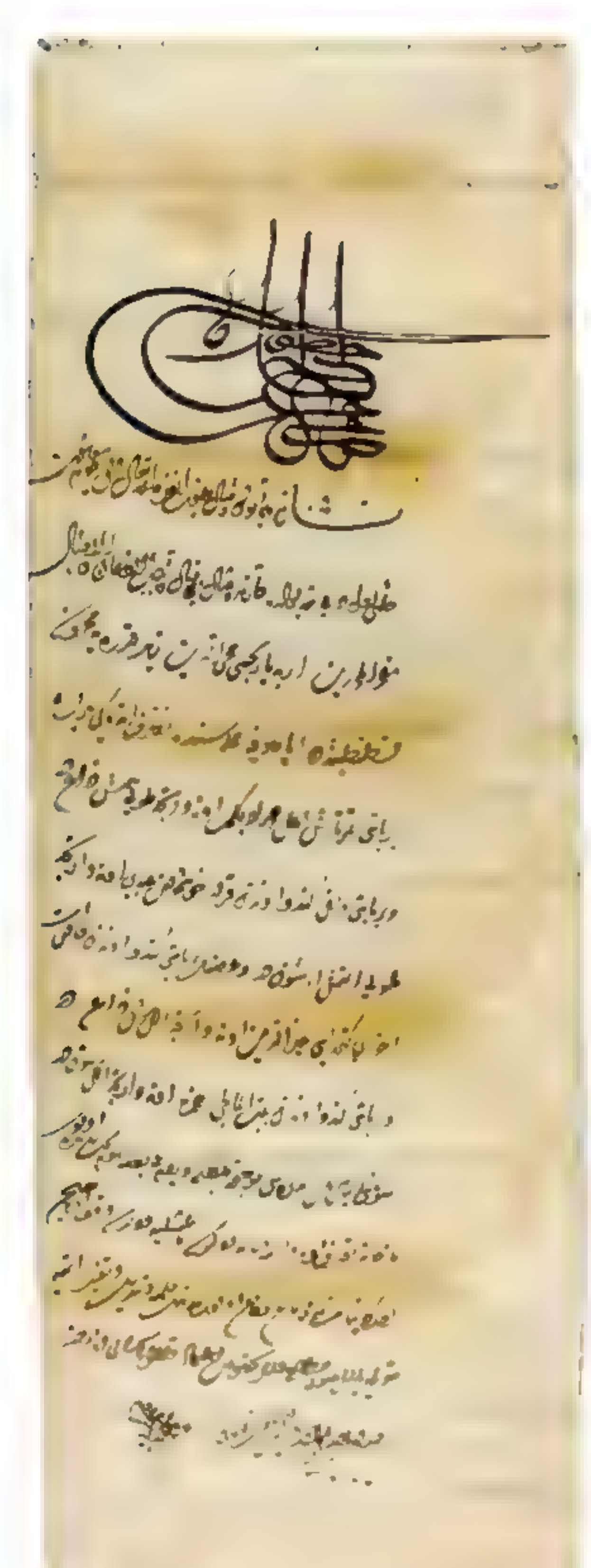
[36] الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، ج/2، ص: 744





فرمان مؤرخ في أواسط صفر من سنة: 864هـ/دجنبر1459م

المصدر: متحف شكيب صبانجي (Sakip Sabanci Museum)- استانبول رقم: 150-0165-SIM



فرمان مؤرخ في سنة: 872هـ/1468م

المصدر: متحف طوب كبي سراي - استانبول، رقم E.3364

فرمانـان سلطـانيـان يرجعان إلى عهد السلطـان العثمـاني: "محمد الفاتح" (855 - 886هـ/1451 - 1481م). يظهران بالملموس؛ ارتباط استعمال كلمة: "نشان" في الوثائق العثمانية، بغزو بلاد فارس سنة: 866هـ/1462م
شكل: 34

ومن خلال تشريح بعض مقاطع الفرمانين المذكورين (الممثلين في الشكل: 34)، يتضح لنا أن محمد الفاتح كان يستعمل في مراسيمه وفرماناته قبل غزو بلاد فارس، عبارة: "**سبب تحرير توقيع رفيع. واجب الاعتماد. وباعث تسطير سريع بليغ لأدب الانقياد...**"، كما نلاحظه من خلال المقطع التالي الذي استخرجناه من الفرمان المؤرخ في سنة: 864هـ/1459م:



جزء من فرمان لمحمد الفاتح تظهر عليه عبارة: "سبب تحرير توقيع رفيع..."

وبعد غزوه لبلاد فارس، ونقله للتقاليد السلطانية الفارسية، أصبح محمد الفاتح يستعمل عبارة: "**نشان همايون. ومثال ميمون. أنفذه الله تعالى إلى...**"، كما يدل على ذلك المقطع التالي الذي استخرجناه من الفرمان المؤرخ في سنة: 872هـ/1468م:

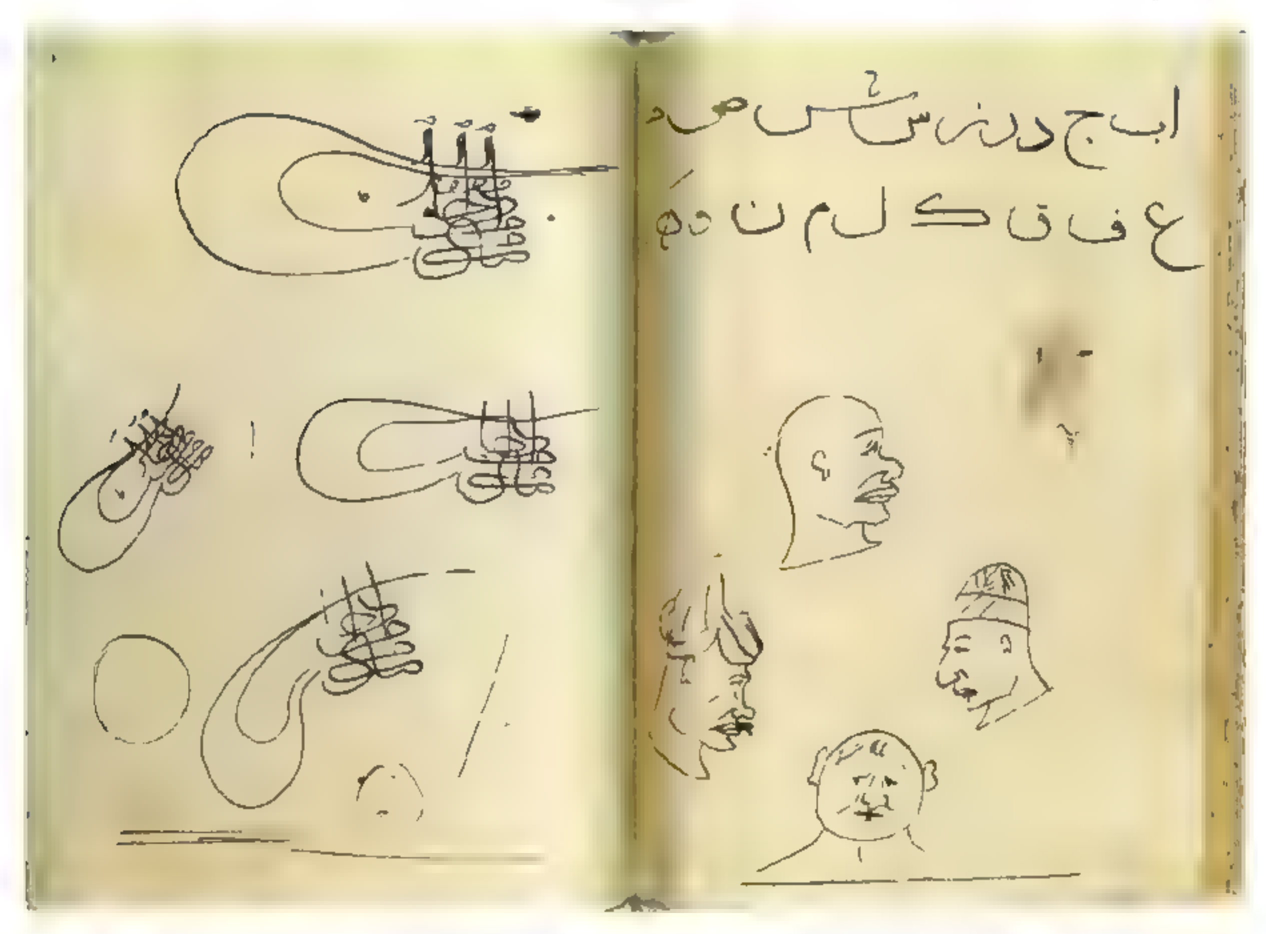


جزء من فرمان لمحمد الفاتح تظهر عليه عبارة: "نشان همايون. ومثال ميمون..."

بالإضافة إلى ماسبق، نلاحظ أيضا أن استعمال عبارتي: "**توقيع رفيع..**" و "**نشان همايون..**" في الموضع نفسه وللغرض نفسه في فرمانين مختلفين للسلطان نفسه، دليل قاطع على أن لهما نفس المؤدى، وعين الفعل جماليا ووظيفيا وربما لغويا، وفي هذا الشأن، يشير بنحادة، وهو أحد الباحثين المغاربة المهتمين بالتاريخ العثماني، إلى أن اللغتين: "**الفارسية والعربية [كانتا] هما أداتا التعبير بالنسبة للمثقف والإداري العثماني، أما التركية فقد كانت لغة الشعب**"[37]. وعليه، فمن البديهي أن يستعمل السلطان العثماني

[37] بنحادة (عبد الرحيم)، لمحة عن الإستوغرافية العثمانية، بحث منشور ضمن كتاب: وقفات في تاريخ المغرب - دراسات مهداة للأستاذ إبراهيم بوطالب، تنسيق: عبد المجيد القدوري، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة - الدار البيضاء، الطبعة الأولى: 2001م، ص: 557.

هاتين اللغتين في دواوينه السلطانية إلى جانب لغته الأم، بل ومن المفترض أن يتعدى ذلك إلى مستوى إدراك دلالة استعمال كل لغة بحسب الغرض الذي خُصِّصت له، وهنا ينبغي أن نشير إلى أن النصوص التحريرية لمختلف الوثائق العثمانية؛ غلبت عليها اللغتان الفارسية والتركية، أما الطغراء التي كانت تجسد اسم السلطان العثماني واسم أبيه، فإنه كان من الطبيعي ألا تكتب بلغة أخرى سوى العربية رسما ولفظا (فلان بن فلان..)، وذلك لأن اللغة العربية تستمد قداستها من القرآن الكريم، والسلطان يستمد مشروعيته من الدين الذي احتوى القرآنُ تعاليمَه، فكانت الطغراء تبعا لهذه العلاقة السببية رسما نُفِّذ بحروف وألفاظ عربية صرفة. وما دمنا نتحدث عن محمد الفاتح، نشير إلى أنه هو نفسه كان ممن يحسن رسم الطغراء منذ طفولته، كما يدل على ذلك دفتر عُثر عليه؛ يجسد محاولاته في رسم الطغراء، وإمعانه في تجويد ملامحها الفنية من خلال التمرّن أولا على كتابة "المفردات" العربية، ثم محاولة استغلالها في تركيب الرسم الطغرائي (انظر شكل: 35).



دفتر نادر منسوب للسلطان العثماني: محمد الفاتح (857 - 886هـ/1453 - 1481م)، يجسد محاولات هذا السلطان في رسم الطغراء، وإمعانه في تجويد ملامحها الفنية من خلال التمرّن أولا على كتابة "المفردات" العربية، قصد استغلالها في تركيب الرسم الطغرائي

المصدر: مكتبة قصر يلدز - استانبول

شكل: 35

وعلى العموم، فقد استمر هذا التقليد السلطاني ليُستعمل بشكل رسمي بعد السلطان محمد الفاتح، كما يُستنبط ذلك من إفادة صاحب "**النفحة المسكية**"، وهو أمر تعززه وثيقة للسلطان العثماني نفسه الذي دخل عليه التمكروتي، ألا وهو: "مراد الثالث" (انظر الشكل: 36)، حيث يُلاحظ أن "الطغراء" كانت تُعرّف في الوثائق العثمانية بتسمية: "**نِشان**"، أما تسمية: "**طغراء**"، فلم ترد إلا بشكل مبطن هكذا: "..**طغراي**.."، ضمن جملة رديفة تأتي بعد كلمة: "**نِشان**". ومن خلال تتبعنا لتسلسل العناصر الفنية والنصية التي تتألف منها الوثيقة العثمانية، نلاحظ رسم الطغراء أولا في طرة الوثيقة، وبعدها بين الطغراء وبين نص الوثيقة تُكتب بالديواني الجلي؛ عبارة: "**نِشان شريف عالي شان سامي، مكان سلطاني، وطغراي غراي جهان ستان خاقاني حكمي اولدركه**"[38]، ثم يُحرر بعدها نص الوثيقة الذي يتضمن أوامر السلطان وتوصياته..

ويلاحظ أيضا من خلال الأنموذج المقترح، أن كلمة: "**نِشان**" تشغل - تقريبا - نصف المساحة المخصصة لكتابة العبارة المذكورة، التي تمتد من اليمين إلى اليسار، حيث تُرسم مرسلة بشكل ثعباني يغلب عليه طابع الإشباع والإختزال، كما نلاحظه من خلال حرف الشين المدغمة التي يُعبَّر عنها بالكشيدة المرسلة.

ومن خلال اطلاعنا على بعض الوثائق العثمانية التي تنتمي إلى تاريخنا المعاصر[39]، نلاحظ أن هذا التقليد السلطاني قد استمر إلى أواخر الدولة العثمانية؛ كما يلاحظ ذلك من خلال "فرمان للسلطان العثماني: محمد الخامس بن عبد المجيد الأول الملقب بـ: "**رشـاد**" (1327 - 1336هـ/1909 - 1918م).(انظر شكل: 37).

---

[38] - معظم كلمات هذه العبارة أصلها فارسي انتقلت بانتقال التقاليد السلطانية الفارسية إلى العثمانيين خلال عهد محمد الفاتح، ككلمة: "نشان" علامة – "طغراي": طغراء – "جهان": دنيا – "خاقاني": ملكي

[39] التاريخ المعاصر هو الفترة التي تلت التاريخ الحديث، وتنطلق مرحلته بعد الثورة الفرنسية سنة- **1203هـ/1789م** إلى الآن. و قد عرفت في التاريخ المعاصر تحولات كبرى في تاريخ البشرية سواء على المستوى الفكري أو الإجتماعي أو الإقتصادي

جزء من "فرمان" مؤرخ في سنة: 983هـ/1575م، متوج بطغراء السلطان مراد الثالث، وتحتها عبارة: "نشان شريف عالي شان سامي، مكان سلطاني، وطغراي غراي جهان.."

تفصيـــــــــــــــــــل:



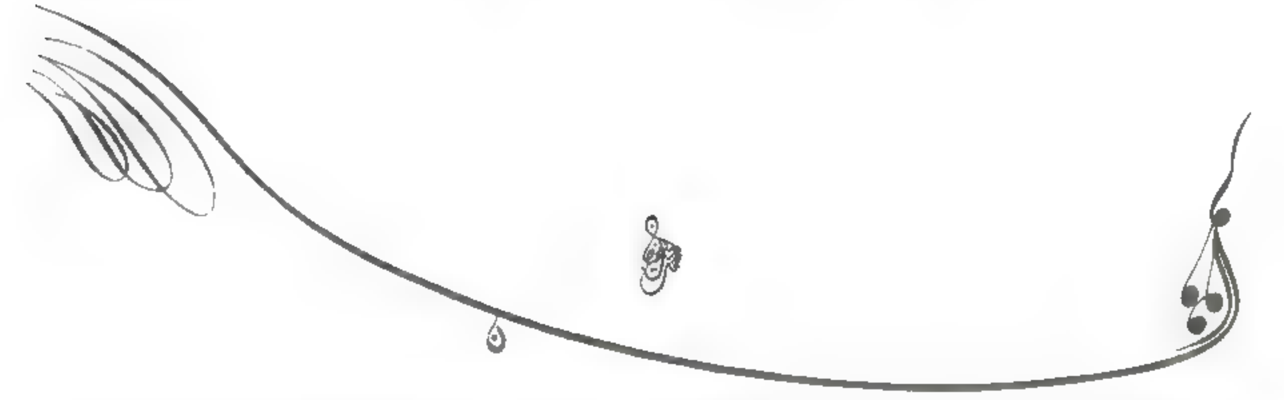
كلمة: "نشان"، وشكلها الذي كانت ترسم به في الفرمانات والمناشير العثمانية خلال مستهل العصر الحديث

شكل: 36



فرمان للسلطان العثماني: محمد الخامس بن عبد المجيد الأول الملقب بـ: "رشاد" (1327 - 1336هـ/1909 - 1918م)،
مؤرخ في: 15 شوال 1334هـ/15 غشت 1916م
المصدر: الارشيف التركي - استانبول
شكل: 37

ومن خلال اطلاعنا أيضا على بعض الكراسات التعليمية - العثمانية؛ التي تُعنى بتلقين الخط وأسراره، تأكد لدينا أن "التقليد" المذكور؛ تعدى "الوثائق" ليُدرج في "المنظومة التعليمية" للعثمانيين، وخير دليل على ماقلناه: أول كراسة تعليمية طُبعت سنة: 1292هـ/1875م تحت عنوان: **"ترجمان خطوط عثماني"** لكل من محمد عزت (1257 - 1320هـ/1841 - 1902م) وصاحبه أو أخيه الحافظ تحسين (1263 - 1330هـ/1847 - 1912م)"[40]، والتي تمت إعادة إصدارها في طبعة ثانية سنة: 1300هـ/1882م تحت عنوان: **"خطوط عثمانية"**، وهي التي تُعرف في أوساط الخطاطين بـ: **"كراسة عزت"** أو **"أثر عزت"**[41]، وتضمنت خطوط: الثلث، والنسخ، والتعليق، والديواني، والديواني الجلي، والرقعة، والإجازة، وهو الترتيب نفسه الذي اعتمد عليه الخطاط البغدادي؛ محمد هاشم في كراسته الشهيرة لتعليم الخطوط العربية، والتي تكاد تكون نسخة طبق الأصل لكراسة عزت التعليمية خطّاً وتوزيعا وترتيبا وتركيبا..[42]. ومن خلال تشريحه للخط الديواني الجلي ومفرداته، قام عزت أو تحسين أو هما معا، بالتركيز على العبارة التي تُكتب تحت الطغراوات في الفرمانات العثمانية، حيث كتبها أحدهما بخط الرقعة فوق شكلها الرسمي الذي يكتب بالديواني الجلي، والذي تتميز فيه كلمة: **"نشان"** بشكلها المختزل الذي تنوب فيه الكشيدة المرسلة عن حرف الشين، مع الاحتفاظ بنقطها الزخرفية المستديرة الثلاث التي تتصل بنقطة نون الابتداء وفق نسق زخرفي حلزوني.. أما النون المتطرفة، فتتخذ موقعا ارتكازيا يرتكز عليه مقطع: "نِشا". ولتأكيد ما قلناه؛ نسوق صفحة من كراسة عزت المذكورة في طبعتها الحجرية (انظر شكل: 38).



كلمة: "نشان" بالديواني الجلي المختزل الذي يأخذ شكلا توقيعيا، بينما تأخذ النقط شكلا مستديرا له عراقات زخرفية

---

[40] - حنش، الخط العربي في الوثائق العثمانية، ص: 117

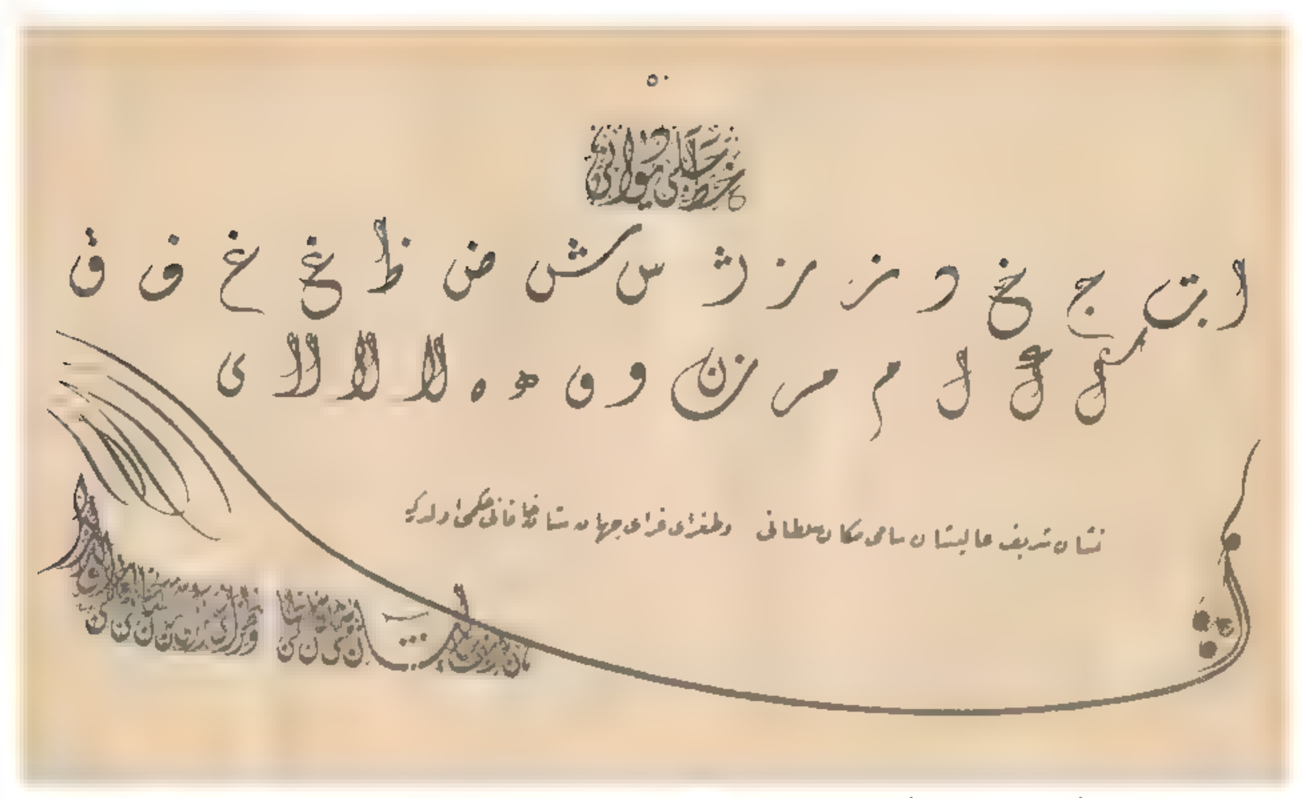
[41] - اشتهرت هذه الكراسة باسم: **"كراسة عزت" أو "أثر عزت"، كما اشتهر منها - على وجه الخصوص -** الخط الديواني؛ حتى أضحت المصدر الأول في الديواني - العثماني، مع أنها - في واقع الأمر - كراسة جامعة تضمنت خطوط الثلث، والنسخ، والتعليق، والديواني، والديواني الجلي، والرقعة، والإجازة. ولا يمكن تمييز خط عزت عن خط تحسين في هذه الكراسة، لأن أحدهما لم يصرح بذلك، كما أنهما لم يوقعا على شيء من خطوطهم في نفس الكراسة

[42] - انظر طبعة حجرية لكراسة محمد عزت:

- عزت (محمد)، خطوط عثمانية، طبعة حجرية، شركة خير به صحافيه- 1300هـ/1882م

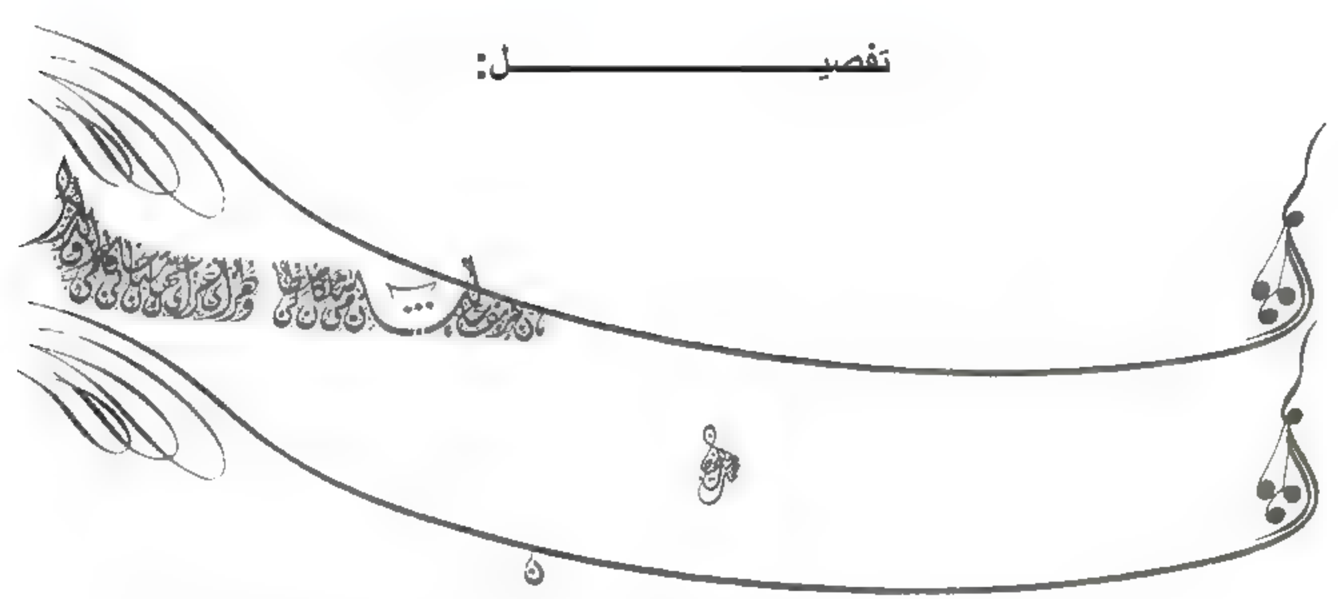
وقارنها بكراسة هاشم لتحسين الخطوط

- هاشم (محمد)، قواعد الخط العربي- مجموعة خطية لأنواع الخطوط العربية، مكتبة النهضة، بغداد - دار القلم، بيروت، الطبعة المزيدة: 1980م



الصفحة: 50 من كراسة محمد عزت والحافظ تحسين. وتمثل مفردات الديواني الجلي التي تعقبها "العبارة النشانية"، وهي العبارة التي تكتب تحت طغراوات السلاطين في الفرمانات العثمانية[43]
شكل: 38

تفصيـــــــــــــــل:



كلمة: "نشان" بالديواني الجلي المختزل الذي يأخذ شكلا توقيعيا، بينما تأخذ النقط شكلا مستديرا له عراقات زخرفية

[43] عزت، خطوط عثمانية، ص: 50

إن النصوص والشواهد التي استشهدنا بها لتسليط الضوء على استعمال العلامات السلطانية في كل من المشرق والمغرب، تدل ضمنيا على أن منصب: "**النِّشانجي**" عند العثمانيين، وإن كان يحيلنا على التقاليد السلطانية الفارسية بالنظر إلى دلالته المصطلحية، إلا أن جذوره - من حيث دلالته الوظيفية - تمتد إلى العصر السلجوقي (التركي)، الذي سبق العصر العثماني (التركي)، حيث كان يُعرف صاحب هذه الوظيفة عند السلاجقة بـ: "**الطغرائي**" كما سبق وتعرضنا لذلك آنفا، وقد توصلنا - من خلال تأصيل هذه المسألة تأصيلا تاريخيا - إلى أن المنصب المذكور (منصب الطغرائي)، كان يقابله في المغرب منصب: "**رئيس الكتّاب**" أو "**إمام الكتبة**"[44]، الذي هو نفسه "**صاحب القلم الأعلى**" و"**كاتب العلامة**"، وهي أدق عبارات تشير إلى وظيفة "**الطغرائي**" في الصقع المغربي منذ ما قبل عصر الدولة المرينية. ونستنتج ذلك بما لا يدع مجالا للشك - من خلال المقارنة التي أجراها المقريزي (764 - 845هـ/1364 - 1442م) بين ديوان الإنشاء في المشرق خلال عصر الدولة السلجوقية، وديوان الإنشاء في المغرب خلال نفس المرحلة تقريبا، حيث يقول: "**كان في الدولة السلجوقية يُسمى ديوان الإنشاء بديوان الطغرا، وإليه ينسب مؤيد الدين الطغرائي.. وفي بلاد المغرب، يقال لرئيس ديوان الإنشاء صاحب القلم الأعلى**"[45]. فلا نستغرب إذن إن كانت شهادة المقريزي على هذا النحو من التدقيق، إذ لا يخفى علينا أنه كان أحد تلامذة ابن خلدون الذين تأثروا به بعد انتقاله إلى مصر وأخذوا عنه بعض أخبار المغرب، وأجازه فيمن أجازهم من علماء مصر الأعلام، كابن حجر العسقلاني[46] صاحب "**فتح الباري**"، وغيره من علماء القطر المصري.

وبناء على شهادة المقريزي، نستطيع القول انه: إذا كان ديوان الإنشاء هو نفسه ديوان الطغراء عند السلاجقة - الأتراك، وديوان الإنشاء في المغرب كان يشرف عليه رئيس الكُتّاب الذي هو نفسه صاحب القلم الأعلى وكاتب العلامة، فإنه يجوز لنا - بالتبع - أن نقول: إن ما كان يسمى في المشرق: "**طغراء**"، كان يسمى في المغرب: "**علامة**".

ولتتميم البناء الاستدلالي الذي بدأناه، نعزز ما ذهبنا إليه بترجمة الطغرائي أيضا على لسان ابن الأحمر الذي فضّل أن يصفه بالوصف المتعارف عليه في المغرب، حيث قال عنه: "**صاحب القلم الأعلى.. الحسين بن علي الأصبهاني الدؤلي الطغرائي؛ كاتب العلامة للسلطان محمود ابن السلطان العادل جلال الدولة أبي الفتح ملكشاه ابن السلطان عضد الدولة ألب أرسلان السلجوقي**"[47].

ونحن إذ نستدل بهذا النص، نلاحظ أن ابن الأحمر وبالرغم من ذكره للقب: "**طغرائي**"، الذي كان الحسين بن علي الأصبهاني يُنعت به، إلا أنه لم يصفه بـ: "**كاتب الطغراء**" أو بشيء من هذا القبيل، بل فضل

---

[44] - ابن مرزوق، المسند، ص: 264

[45] - المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج/3، ص: 394.

[46] - انظر في أطروحتنا الدراسة الفنية لإجازة ابن خلدون، التي أجاز بها بعض الأعلام في مصر، من ضمنهم صاحب فتح الباري؛ ابن حجر العسقلاني، ويرجع تاريخ تلك الإجازة إلى سنة: 797هـ/1395م، في وقت كان ابن خلدون قد تجاوز فيه 65 سنة من عمره
محمد عبد الحفيظ خبطة، "المصاحف والكتب المخطوطة.."، مرجع سابق، ج/2، صص: 350 358

[47] ابن الأحمر، مستودع العلامة، ص: 26

أن ينعته بـ: "**صاحب القلم الأعلى**" و"**كاتب العلامة**"، لأن التسميات الثلاث عنده، ترمز إلى شيء واحد، ألا وهو: "**الطغراء**"، فارتبط عنده - بذلك - الدال بالمدلول عليه.. بخلاف ياقوت الحموي (574 - 626هـ/1178 - 1229م) الذي فضل أن ينعته بالإسم الذي يدل على وظيفته، انطلاقا من لقبه الذي عُرف به، والذي يشير إلى الطغراء ويدل على استعمالها، فكانت لذلك تسميته بـ: "**كاتب الطغراء** ، حيث قال عنه: "**كان [الحسين بن علي الطغرائي] كاتب الطغراء.. لمحمد بن ملكشاه [وابنه محمود]** [48]. أما ابن خلدون فقد أكد في السياق ذاته تصريحا لا تلميحا أن: الطغراء هي العلامة، وذلك من خلال تعريفه بالشاعر نفسه، الذي قال عنه: "**وكان أبو المؤيد محمد بن أبي إسماعيل الحسين بن علي الأصبهاني يكتب للملك محمود، ويرسم الطغري - وهي العلامة - على مراسيمه**"[49].

ولتأكيد المعنى نفسه، خصص المقريزي في كتابه: "**المواعظ والاعتبار**" فصلا مستقلا لـ: **ذكر العلامة السلطانية**"[50]، وأشار إلى أنها كانت "**تُطغر بالسواد وتتضمن اسم السلطان وألقابه**"[51]. فعبّر صراحا بواحا، عيانا بيانا، عن العلامة بالطغراء على هيئة الفعل المبني للمجهول (تُطغر). والتعبير عن العلامة بالطغراء أو العكس، هو أمر أكدته حتى بعض المعاجم اللغوية في المشرق، ونخص بالذكر؛ "**تاج العروس**" للزّبيدي (1145 - 1205هـ/1732 - 1790م) الذي ورد فيه أن: "**طُغْرَى.. كلمة أعجمية استعملتها العرب، ويعنون بها العلامة التي تكتب بالقلم الغليظ في طرة الأوامر السلطانية، تقوم مقام السلطان..**"[52].

وعلى الرغم مما قلناه فيما يتعلق بتطابق كل من الطغراء والعلامة رسما ووظيفة، مبنى ومعنى، إلا أنه ينبغي الإشارة في هذا المضمار إلى أن أبا العباس أحمد القلقشندي صاحب "**صبح الأعشى**" - وحسب ما توصلنا إليه من خلال قراءاتنا المصدرية - يبقى الوحيد من بين المؤرخين الذين حاولوا خلال العصر المملوكي أن يميزوا بين العلامة والطغراء تمييزا طفيفا فيما يتعلق بالنص الموظف في كتابتهما، فإذا كانت الطغراء تُخصص لاسم السلطان ونسبه مصحوبا بعبارة الدعاء له: "**خلد الله سلطانه**". (راجع الطغراء المملوكية لاسم السلطان بخط القلقشندي في شكل: 6)، فإن العلامة كان نصها: "**الله أملي**"[53]. ولكي يميز بينها وبين الطغراء، كتب القلقشندي العلامة بخطه، وعلق عليها بقوله: "**وهذه صورة كتابة العلامة على المناشير للإقطاع لمن علامته «الله أملي» بياء راجعة**"[54]. (انظر شكل: 39).

---

48 - ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج/3، ص: 1107

49 - ابن خلدون، العبر، ج/3، ص: 616

50 - المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج/3، ص: 368

51 - المصدر نفسه، ج/3، ص: 368

52 - الزّبيدي، تاج العروس، ج/12، ص: 430 431

53 القلقشندي، صبح الأعشى،ج/3، ص: 60

54 المصدر نفسه، صبح الأعشى، ج/3، ص: 60



العلامة المملوكية، ونصها: "الله أملي"
المصدر: القلقشندي، صبح الأعشى، ج/ 3، ص: 60.
شكل: 39

والواقع أن القلقشندي لم يميز بين الطغراء والعلامة فحسب، بل ميز بين عدة مسميات تستعمل في الكتب السلطانية، وهي: "**الطغراة والطرة والعنوان والتعريف والعلامة [واستعمالها] في الكتب على أماكنها الفارقة بين انحطاط القدر والتشريف..**"[55].

ولا شك أن ابن الأحمر (725 - 807هـ/1325 - 1405م) قد اختلف مع القلقشندي (756 - 821هـ/1355 - 1418م) في هذا الرأي، حيث رأى أنه ليس هنالك من فرق بين الطغراء والعلامة، بل هما شيء واحد؛ حقيقته واحدة، حيث ذكر أن السلاطين في المشرق والمغرب "**اشتق بعضهم لفظ العلامة مجانسا للقبه... ومنهم من يكتب علامته بخلاف اشتقاق لقبه**"[56].

ولدعم رأي ابن الأحمر في هذا الشأن، نشير إلى أن القلقشندي - نفسه - وإن قام بالتمييز بين العلامة والطغراء من حيث النص في عدة مواطن، إلا أننا وجدناه في مواطن أخرى ينعت الطغراء بـ: "**العلامة الشريفة**"[57]. ومرة ينعتها بـ: "**العلامة الشريفة السلطانية بالإسم الشريف**"[58]

[55] القلقشندي، صبح الأعشى،ج/14، ص: 139
[56] ابن الأحمر، مستودع العلامة، ص: 21 22
[57] - القلقشندي، صبح الأعشى،ج/1، ص: 132 انظر أيضا: ج/4، ص. 18
[58] المصدر نفسه، ج/3، ص: 515

2 مصطلحات: "العلامة"، و"التوقيع"، و"الطغراء". تأصيل أوجه الاختلاف والائتلاف بينها من خلال الشواهد المصدرية والمادية في كل من المشرق والمغرب (استنباطات، وإعادة بناء للأحكام):

يمكن القول إن ابن خلدون (732 808هـ/1332 1406م) على وجه العموم كان أكثر تدقيقا وإلماما بالمقارنة مع غيره من المؤرخين، حيث استطاع أن يطلعنا على كنه ومغزى الاستعمال الوظيفي للطغراء بين المشرق والمغرب، وما وجدناه مجتمعا من خلال تعريفاته، وجدناه متفرقا في تعريفات غيره. فبالرجوع إلى الشهادات المصدرية السابقة، وشهادات مصدرية أخرى سنضيفها حول الطغراء وأوصافها وتسمياتها، نجد ابن الأحمر (725 - 807هـ/1325 - 1405م) قد سمى الطغراء 'علامة' عند حديثه عن الشاعر الطغرائي[59]، وسماها - قبله - ياقوت الحموي (574 - 626هـ/1178 - 1229م) باسمها دون تأويل عند حديثه عن الشاعر نفسه، بل وذهب إلى أكثر من ذلك حين أكّد أن '..**الطغراء [هي]: التوقيعات**"[60]. وبين الأول والثاني، أشار أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي (813 - 874هـ/1410 - 1470م) إلى أن "**العلامة هي: التوقيع**"[61]. وذهب إلى أبعد من ذلك كله، حينما اعتبر أن العلامة كان لها قلم خاص في عصر المماليك، سماه في موضع: "**قلم العلامة**"[62]. وفي موضع آخر: '**قلم التوقيع**'[63]. مما يعني أن العلامة والتوقيع عنده يدلان على شيء واحد، ألا وهو: (الطغراء)، ويُحتمل أنه قد قصد بإضافتها إلى كلمة: "**قلم**"، الإشارة إلى قلم مستقل، أي؛ إلى: صنف مستقل من الخطوط، وليس إلى:

---

[59] - ابن الأحمر، مستودع العلامة، ص: 26

[60] - ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج/3، ص: 1107

[61] - يوسف بن تغري بردي (أبو المحاسن جمال الدين الظاهري الحنفي)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، مصر.د.ت. ج/14، ص. 482

[62] - المصدر نفسه، ج/14، ص: 171

وقد أشار ابن تغري بردي في موضع آخر إلى:"**قلم العلامة**" حين حديثه عن السلطان المملوكي؛ المظفر أحمد الذي كان تحت وصاية: **الأمير ططر** مودي. حيث يذكر أنه أراد تنفيذ بعض الأوامر المتعلقة بالدولة سنة 823هـ/1420م، **فأخذ "بيد السلطان الملك المظفر وفيها قلم العلامة، حتى علم على المناشير ونحوها، بحضور الأمراء وأرباب الدولة**"

انظر

- يوسف بن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج/14 ، ص: 171

ويشير المؤلف نفسه في "**مورد اللطافة**" إلى أن المَلك الأشرف بن محمد الناصر بن قلاون تسلطن بعد خلع أخيه [المَلك] المَنصُور أبي بكر في سنة 742هـ/1342م، وعمره دون سبع سنين. وكان تحت وصاية الأمير "قوصون" الذي "**استقل. بتدبير المملكة، وجلس في دار النيابة، ونفذ الأمور بحسب ما تختاره؛ فكان إذا حضرت العَلامة يأخذ قوصون القلم بيده ويجعله في يد الأشرف؛ حتى يعلم على المناشير وغيرها**"

وفي النجوم الزاهرة: "**وكانت إذا حضرت العلامة أعطى قوصون الأشرف كجك في يده قلما، وجاء الفقيه الذي يقرئه القرآن فيكتب العلامة والقلم في يد الأشرف كجك**"

انظر

- يوسف بن تغري بردي (أبو المحاسن جمال الدين الظاهري الحنفي)، مورد اللطافة في من ولي السلطنة والخلافة، تحقيق: نبيل محمد عبد العزيز أحمد، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب المصرية، القاهرة د.ت. ج/2، ص 70

- يوسف بن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج/10، ص: 49

[63] - يوسف بن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج/14 ، ص 482

الآلة؛ أي: (القلم) بصفته أداة للكتابة، ودليلنا في هذا التعليل، ماورد في فهرس الألفاظ الاصطلاحية وأسماء الوظائف والرتب والألقاب التي كانت مستعملة في عصر مؤلف الكتاب، من كون "**العلامة هي: (التوقيع - أو قلم التوقيع)**"[64]. ويؤكد هذا التفسير في وقتنا المعاصر، التسمية التي أطلقها الباحث الإيراني محمد نقشي تبريزي على الطغراء، حين نعتها بتسمية: "**قلم طغرى**"[65]. إذ أن التداخل بين التوقيع والطغراء والعلامة، كان سائدا أيضا في بلاد فارس، حيث أُطلق أحدها على الآخر[66]؛ للتعبير عن نفس الاستخدام الوظيفي المتعلق بالمراسلات السلطانية. وقد تم تداول مصطلحات فارسية معروفة، تدخل فيها كلمة: "**توقيع**" مثل: "**توقيع أحمدي**"، أي: خاتم النبوة، و"**توقيع زن**"، أي: صاحب العلامة الذي يقوم بختم الرسائل بخاتم السلطان لتأكيد الأمر أو الفرمان. ويُطلق على الرسالة المعتمدة أو الموقعة مصطلح: "**ناما توقيعي**"[67].

من هنا يمكن القول إننا لا نستغرب من ارتباط التوقيعات بالعلامات أوالطغراوات؛ لأن "**التوقيع**" - وكما هو معلوم - كان أحد أصناف الخط العربي في المشرق، أخذ تسميته من وظيفته ومجالات استعماله، حيث كان يُستخدم في التوقيعات الرسمية، وهو خط الإجازة الحالي كما يذهب إلى ذلك بعض المحققين، وإن كان بعضهم يفند ذلك[68]، بدعوى أن خط "الرقاع" هو عينه خط "الإجازة" الحالي. وإن كنا نرى أنه ما من اختلاف بين خطي: التوقيع والرقاع، لأن الثاني استُخرج من الأول، وبالتالي فهما لا يختلفان سوى في الحجم وليس في السمات. ونستدل في هذا بإفادة لابن النديم (ت. 438هـ/1047م)؛ يشير من خلالها إلى أن "**قلم التوقيع**" كان يُطلق عليه: "**القلم المدور الكبير**"، ومنه استُخرج "**قلم الرقاع**" الذي كان يُطلق عليه: "**القلم المدور الصغير**"[69]. وكيفما كان الحال؛ فأبرز من استخدم "خط التوقيع" في الدواوين السلطانية

---

[64] - يوسف بن تعري بردي، النجوم الزاهرة، ج/14، ص. 482

[65] - محمد نقشي تبريزي، انواع خطوط خوشنويسان معروف إيران، ص: 32

[66] - محمد نور الدين عبد المنعم، مصطلح التوقيع بين الخط والإدارة والمذهب عند الإيرانيين، "مختارات إيرانية"، جريدة الأهرام الرقمي، العدد. 1، يوليوز 2011م

[67] - المرجع نفسه

[68] - هناك من يقول أن خط الإجازة أصله من الخط الريحاني، كما هو الشأن بالنسبة للخطاط الأردني جلال أمين صالح، الذي ألف كراسته التعليمية في خط الإجازة، وجعلها تحت عنوان. "**الخط الريحاني ويسمى خط الإجازة**"

بينما يرى آخرون، وعلى رأسهم إدهام محمد حنش أن خط الإجازة، هو خط جديد طوره العثمانيون من خلال مزجهم بين خط: التوقيع وشكله الدقيق المسمى. خط الرقاع

أما الخط الريحاني فقد اعتبره نفس الباحث؛ الرديف الفني والوظيفي للخط المحقق. وقد كاد هذا الخط - أي: الريحاني - يتلاشى في عُرف الخطاطين العثمانيين، لدرجة أطلقوا معها تسميته على سملة الخط المحقق التي تستعمل في طرر الحليات النبوية، وهي ما تبقى من الخط المحقق الذي انتهى استعماله في القرن 17 الميلادي

انظر

- جلال (أمين صالح)، الخط الريحاني ويسمى خط الإجازة، الطائف، المملكة العربية السعودية، 2005م، صص: 2 - 22

- حنش، الخط العربي في الوثائق العثمانية، ص 68 69

[69] يقول ابن النديم: "**قلم..المدور الكبير مخرجه من خفيف النصف الثقيل، ويسميه كتاب هذا الزمان [أي قبل سنة 438هـ] الرياسي . يخرج منه قلم يقال له المدور الصغير وهو قلم جامع . يخرج منه قلم يسمى خط الرقاع يكتب به التوقيعات وما أشبه ذلك**" انظر

ابن النديم (محمد بن إسحاق البغدادي)، الفهرست، تحقيق: إبراهيم رمضان، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية:1997م، ص 19

هو: ذو الرياستين "**الفضل بن سهل السرخسي**" (202 - 154هـ/771 - 818م)، وزير المأمون العباسي (198 218هـ/813 833م)، الذي أُعجب به أيما إعجاب بعدما ابتكره "**يوسف الشجري (أوالسجزي)**"[70]، فاستعمله هذا الوزير بشكل كبير في التوقيعات على الرسائل السلطانية، إلى درجة نُسب معها إليه، فسُمي بـ "**القلم الرياسي**"[71]. وفي وصفه لقلم التوقيع، يقول القلقشندي: "**وأخذ يوسف أخو إبراهيم السجزي [أوالشجري] القلم الجليل عن إسحاق [ابن حماد] أيضا، واخترع منه قلما أدق منه، وكتبه كتابة حسنة فأعجب به ذو الرياستين الفضل بن سهل وزير المأمون، وأمر أن تُحرر الكتب السلطانية به ولا تكتب بغيره، وسماه القلم الرياسي. قال بعض المتأخرين: وأظنه قلم التوقيعات**"[72].

---

[70] - يرى بعض الباحثين أن ابن الخازن هو مبتكر خط التوقيع والرقاع، ويبدو أنه هو نفسه أبو الفضل أحمد بن محمد الخازن الدينوري الخراساني (ت عام 518هـ/1124م) كما نسب البعض ابتكار خط التوقيع، مثل غيره من الخطوط الستة، إلى ابن مقلة (272 - 328هـ 886 - 939م)

ويختلف خط التوقيع عن خط الثلث في كون إشباع الحروف وامتلائها على نسق واحد وبالتساوي، ومن ثم تكون أكثر ميلا للدوران، أما خط الثلث فإنه يحتاج إلى "قطّة مُحرّفة". وفي التوقيع تكون الحروف أكثر إستدارة وعمقا، ويمكن كتابة بعض الحروف بدون تزويس خلافا للثلث، ويسمح في هذا الخط "بالفتح و لطمس" في حلقة الفاء والكاف والواو والميم وحلقة لام الألف (حلقة إتصال اللام بالألف)، إلا أنها تكتب بشكل مطموس عند الضرورة، ويوجد في التوقيع أشكال وصور للحروف لا توجد في خط الثلث، و قد استخدم العثمانيون في القرنين التاسع والعاشر خط التوقيع في كتابة "إجازة الخط"، ولهذا اشتهر هذا الخط أيضا باسم: "خط الإجازة"، ولذلك عدهما البعض خطا واحدا، إلا أن آخرين اعتبروهما خطين مختلفين، لأن خط الإجازة أصغر حجما من خط التوقيع، والتوقيع بين الثلث والرقاع، بينما خط الإجازة بين الثلث والتوقيع والنسخ

ويذكر إبراهيم ضمرة رحمه الله في كتابه. "الخط العربي. جذوره وتطوره"، أن الإجازة خط بين الثلث والنسخ وهو أصل لهما. وأن الذي اخترعه هو يوسف الشجري وسماه الخط الرياسي، وكان يكتب بهذا الخط الكتب السلطانية زمن الخليفة المأمون، وحسّنه بعد ذلك الخطاط مير علي سلطان التبريزي المتوفى سنة 919هـ/1513م ويستعمل هذا النوع من الخط في كتابة عناوين سور القرآن الكريم وعدد آياته، وعناوين الكتب والإجازات العلمية والبطاقات الشخصية وغيرها. وبالرغم من أن خط الإجازة فيه مشابهة لحروف قلم التوقيع، إلا أنه يشبه قلم التعليق

ومن الذين اشتهروا بكتابة خط التوقيع في العصور المختلفة: على بن هلال المشهور بابن البواب، وجمال الدين ياقوت المستعصمي، وأحمد الرومي فى القرن الثامن، ومبارك شاه قطب تلميذ ياقوت المستعصمي في القرن الثامن، وعبد الرحمن الصائغ في القرن التاسع، وعبد الله الأماسي في القرنين التسع والعاشر، والطيبي صاحب جامع المحاسن في القرن العاشر، والحافظ عثمان في القرن الحادي عشر

وقد بقيت نماذج متنوعة وقديمة من خط التوقيع منها: توقيع ابن البواب في متحف الأوقاف باستانبول، وتوقيع عبد الرحمن الصائغ في متحف الفن الإسلامي بالقاهرة، وصفحتان من مرقع توقيع بايقرا طهماسب بخط ارغون كاملي، وتوقيع بخط عبد الله الصيرفي، وكلاهما في القرن الثامن، ومرقع توقيع عبد الله الهروي في القرن التاسع، والثلاثة في متحف طوب كابي سراي باستانبول، وتوقيع للحافظ عثمان في المتحف الإسلامي باستانبول، وتوقيع مؤرخ في سنة. 1321هـ/1903م بخط علي المستوفي ضمن مجموعة نصيري بجامعة طهران، ونسخ من البسملة لأحمد قره الحصري (863 أو 873 963هـ/1458/ أو 1468 1555م) بخط التوقيع الجلي مطبوعة في كتاب "خط وخطاطان" (الخط والخطاطون)

انظر

- ضمرة (إبراهيم)، الخط العربي. جذوره وتطوره، مكتبة المنار، الزرقاء – الأردن، الطبعة الثانية: 1987م، ص: 138 – 139

- محمد نور الدين عبد المنعم، مصطلح التوقيع بين الخط والإدارة والمذهب عند الإيرانيين، "مختارات إيرانية"، جريدة الأهرام الرقمي، العدد1، يوليوز 2011م

[71] - لمزيد من التوسع، انظر:

- بهنسي (عفيف)، معجم مصطلحات الخط العربي والخطاطين، مكتبة لبنان ناشرون، طبعة 1995م، صفحة 23 وصفحة: 64 وصفحة. 79

وقد تحدث لنا محمد بن حسن الطيبي (ت. 908هـ/1503م) عن هذا القلم على طريقة ابن البواب من خلال كتابه الذي ألفه في أنواع الأقلام التي كتب بها ابن البواب، برسم خزانة السلطان المملوكي الأشرف قانصوه الغوري (906 922هـ/1501 1516م) وساق عدة نماذج منه

الطيبي، جامع محاسن كتابة الكتاب، ص: 22 وأيضا من صفحة. 43 إلى صفحة 46

[72] القلقشندي، صبح الأعشى، ج/3، ص: 17

وعموما يمكن القول إن قلم التوقيع قد انتهى تجويده إلى الوزير[73] العباسي ابن مقلة (272 - 328هـ/886 - 939م) الذي تقلد الوزارة ثلاث مرات، لثلاثة خلفاء عباسيين، هم: المقتدر بالله (295 - 320هـ/908 - 932م)، والقاهر بالله (320 - 322هـ/932 - 934م)، والراضي بالله (322 - 328هـ/934 - 940م)، وإثر اشتغاله بالوزارة التي تقتضي نفوذ أوامر السلطان والتوقيع على رسائله، قام ابن مقلة بهندسة قلم التوقيع وضبط مقاييسه، فجعل منه أحد الأقلام الستة المؤلِّفة "**للخط المنسوب**" التي استندت على قانون التناسب بين "**الخط**" و"**النقطة**" و"**الدائرة**"[74]. وقد أخذ ابن مقلة قلم التوقيع عن أستاذه: إسحق بن إبراهيم البربري (أو اليزيدي) الملقب بـ: "**الأحول المحرر**" صاحب كتاب: "تحفة الوامق"[75]،

---

[73] - انظر سيرته بتفصيل عند: شوحان (أحمد)، رحلة الخط العربي من المسند إلى الحديث، من منشورات اتحاد الكتاب العرب دمشق،2001م، صص: 87 - 100

رأى البحاثة العراقي يوسف ذنون أن أبا علي ابن مقلة الوزير، ليس هو من ابتكر الخط المنسوب، بل أخوه أبو عبد الله ابن مقلة هو من قام بذلك، واعتمد ذنون في هذا الرأي على مجموعة من الشواهد المصدرية التي استنبط منها ما يعزز طرحه، لكن المحقق الشهير هلال ناجي فنّد هذا الرأي، واعتبره عاريا عن الصواب، بعدما ساق عدة شواهد تؤكد أن الوزير هو مبدع الخط المنسوب وليس أخوه

- للاطلاع على تفصيل ذلك راجع

- ذنون (يوسف)، قديم وجديد في أصل الخط العربي وتطوره في عصوره المختلفة، مجلة المورد، من إصدار دار الشؤون الثقافية، بغداد، عدد 1986م، ص: 18 - 19

- ناجي (هلال)، ابن مقلة خطاطا و أديبا و إنسانا (مع تحقيق رسالته في الخط و القلم)، منشورات دار الشؤون الثقافية العامة - الطبعة الأولى بغداد 1991م، ص: 20 - 21

[74] - استطاع الوزير ابن مقلة؛ مؤسس المدرسة البغدادية في بدايات القرن الرابع الهجري، أن يبدع "**الخط المنسوب**" الذي حل نهائيا محل "**الخط الموزون**" في المشرق، وذلك بعدما قسمه إلى 6 أنواع هي "الثلث، والريحان، والتوقيع، والمحقّق، والبديع والرقاع"، وقد وضع لها مقاييس رياضية، معتمدًا في ذلك على قانون التناسب بين "**الخط**" و"**النقطة**" و"**الدائرة**". فجعل "**الخط**" لرسم صور الحروف واتصالاتها ابتداء وتوسطا وتطرفا، و"**النقطة**" لقياسها وتنقيطها، وتحديد نسب بعضها من بعض، و"**الدائرة**" لفلكها وأبعادها وتحديد الحيز الفضائي الذي يشغله كل حرف صعودا ونزولا، تقويرا وتدويرا. واعتبر ابن مقلة "**حرف الألف**" الذي حدد طوله في خمس أو سبع نقط؛ أشرف الأشكال على الإطلاق، لأنه قطر الدائرة التي خرجت منها سائر الحروف

[75] - إن النقلة الأهم بين نقلة قطبة المحرر ونقلة ابن مقلة فيما يتعلق بـ: "الخط الموزون"، هي التي تمت على يد الأحول المحرر، أستاذ ابن مقلة وتلميذ إبراهيم السجزي أو الشجري الذي اشتهر في القرن الثاني الهجري، حيث قام بترتيب الأقلام الثقال بدءا من الطومار، ثم الثلثين والسجلات، فالعهود والمؤامرات ثم الأمانات والديباج، فالمدمج والمرصع، ثم قلم النساخ. وينسب إليه اختراع خفيف النصف وخفيف الثلث، والمسلسل، وغبار الحلية، وخط المؤامرات، وخط القصص، والحوائجي. وقد استخدمت المصادر التاريخية - وأبرزها الفهرست لابن النديم - كلمة. "**خط**" بدءا من بعض الأنواع التي ابتكرها الأحول، بدلاً عن كلمة: "**قلم**" التي كانت سائدة للدلالة على تسميات لقياسات مختلفة من الأقلام المشتقة من قلم الطومار. (بهنسي، معجم مصطلحات الخط العربي والخطاطين، ص. 4 - 5)

يقول ابن النديم في هذا الأمر "لم يزل الناس يكتبون على مثال الخط القديم الذي ذكرناه إلى أول الدولة العباسية، فحين ظهر الهاشميون اختصت المصاحف بهذه الخطوط، وحدث خط يسمى العراقي وهو المحقق الذي يسمى وراقي، ولم يزل يزيد ويحسن حتى انتهى الأمر إلى المأمون، فأخذ أصحابه وكُتابه بتجويد خطوطهم، فتفاخر الناس في ذلك، وظهر رجل يعرف بالأحول المحرر من صنائع البرامكة، عارف بمعاني الخط وأشكاله، فتكلم على رسومه وقوانينه وجعله أنواعا، وكان هذا الرجل يحرر الكتب النافذة من السلطان إلى ملوك الأطراف في الطوامير، وكان في نهاية الحرقة والوسخ، ومع ذلك سمحا لا يليق على شيء، فلما رتب الأقلام جعل أولها الأقلام الثقال فمنها قلم الطومار وهو أجلها، يكتب به في طومار تام بسعفة وربما كتب بقلم، وكانت تنفذ الكتب إلى الملوك به ومن الأقلام قلم الثلثين، قلم السجلات، قلم العهود، قلم المؤامرات، قلم الأمانات، قلم الديباج، قلم المدمج، قلم المرصع، قلم النساخ فلما نشأ ذو الرياستين الفضل بن سهل اخترع قلما هو أحسن الأقلام، ويعرف بالرياسي ويتفرع إلى عدة أقلام، فمن ذلك قلم الرياسي الكبير، قلم النصف من الرياسي، قلم الثلث، قلم صغير النصف، قلم خفيف الثلث، قلم المحقق، قلم المنثور، قلم الوشي، قلم الرقاع، قلم المكاتبات، قلم غبار الحلية، قلم النرجس، قلم البياض"

ابن النديم، الفهرست، ص: 19 20

وأخذه "الأحول" بدوره عن أستاذه "يوسف الشجري" أخو وتلميذ "إبراهيم الشجري" (ظهر في بغداد سنة: 200هـ/815م)[76]. الذي انتهت إليه مدرسة كل من: "**الضحاك بن عجلان الشامي**" أول خطاط في الدولة العباسية، و"**إسحاق بن حماد**" من بعده[77].

بناء على هذا الفهم، وبالاستناد على العلاقة التفسيرية بين التعريفات الثلاثـة (توقيع علامة طغراء)، يمكن القول إن الرأي الصحيح والصريح بل والشامل في التعاطي مع الدلالات التاريخية، والتعريفات اللغوية للطغراء، يؤكد صحة الجمع بين المرادفات الثلاثـة المذكورة (توقيع = علامة = طغراء)، للتعبير عن المعنى نفسه من حيث الاستخدام الوظيفي والدلالة التاريخية. وهو أمر أكدته بعض المعاجم التي تهتم بمعاني المصطلحات التاريخية في العصر المملوكي، حيث ورد فيها أن: "**العلامة قد تسمى التوقيع أوالخاتم أو الطغراء**"[78].

ولا شك أن هذا التداخل في المعنى، والتوافق في الاستعمال، كان سائدا في سائر البلدان المشرقية، بدليل أن ابن العديم (588 - 660هـ/1192 - 1262م) عند تعريفه بالشاعر الطغرائي، **جمع** بين المصطلحات الثلاثـة المذكورة في موطن واحد، وتعريف واحد، حيث قال: "**الحسين بن علي بن عبد الصمد الدؤلي أبو اسماعيل المنشي المعروف بالطغرائي، من أهل أصبهان كان يتولى الطغراء للسلطان محمد بن ملكشاه، وهي: علامة تكتب على التوقيعات**"[79]. الشيء نفسه أكده الذهبي (673 - 748هـ/1275 - 1347م)، عند تعريفه بالشاعر نفسه، حيث نصَّ على أن: "**الطغراء.. هي: العلامة التي تكتب على التواقيع**"[80].

---

[76] - بهنسي، معجم مصطلحات الخط العربي والخطاطين، ص: 4 - 5 - 79

[77] - ذاعت شهرة الخطاط (الضحاك بن عجلان) في خلافة أبي العباس السفاح (132 - 136هـ/749 - 754م)، والخطاط (إسحاق بن حماد) في خلافتي أبي جعفر المنصور(136 - 158هـ/754 - 775م) والمهدي (158 - 169هـ/775 - 785م) حتى بلغ الخط في عهدهما أحد عشر نوعاً

انظر

- شوحان، رحلة الخط العربي من المسند إلى الحديث، ص: 30

[78] - دهمان (محمد أحمد)، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان- دار الفكر، دمشق، سوريا، الطبعة الأولى 1990م، ص. 114

[79] - ابن العديم، بغية الطلب، ج/6، ص: 2697

[80] - الذهبي (شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان)، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: د عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى: 1987م، ج/35، ص 365

ومن جهته، قام ابن خلدون كذلك بالجمع بين المصطلحات الثلاثة عند حديثه عن الطغراء في المشارق والمغارب، ولاشك أنه قام بذلك من منطلق معاينته للتقاليد السلطانية في البلدان التي استقر بها، ولايخفى علينا في هذا الشأن أنه تصدّر لكتابة "العلامة السلطانية" في تونس الحفصية[81]، وبعدها انتقل إلى المغرب سنة: 756هـ/1355م، ليلتحق بوظيفة الكتابة في الديوان المريني، وتحديدا في عهد كل من السلطانين المرينيين: أبو عنان فارس (749 - 759هـ/1348 - 1358م) وأبو سالم إبراهيم (760 - 762هـ/1359 1361م) كما سبقت الإشارة إلى ذلك[82]، ثم مالبث أن انتقل من المغرب سنة: 784هـ/1382م، ليستقر نهائيا بمصر المملوكية، حيث كُلِّف في دواوينها بخِطّة القضاء. ولاشك أن هذا الحلّ والترحال من و إلى البلدان التي مرّ أو استقر بها، جعله يطلع على وجه المقارنة بين التوقيعات

---

[81] يقول بن خلدون "واستدعاني أبو محمد بن تافراكين، المستبد على الدولة يومئذ بتونس، إلى كتابة العلامة عن سلطانه أبي إسحق فكتبت العلامة للسلطان، وهي وضع الحمد لله والشُكر لله، بالقلم الغليظ، مما بين البسملة وما بعدها، من مخاطبة أومرسوم"

ابن خلدون، التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا، ص: 65

انظر أيضا: كتاب العبر لابن خلدون، ج/7، ص: 532

ويشير ابن الخطيب في الإحاطة إلى أن ابن خلدون لم يتقدّم لرسم العلامة الحفصية إلا بالنيابة نظرا لحداثة سنه. يقول ابن الخطيب: "تعلّق [ابن خلدون] بالخدمة السلطانية على الحداثة وإقامته لرسم العلامة بحكم الاستنابة عام ثلاثة وخمسين وسبعمائة [753هـ/1352م]"

وهو أمر أكده ابن خلدون بنفسه، حيث اعترف أن رسم العلامة الحفصية كان لغيره، وسبب إنابته في رسمها، هو مطالبة ابن تافراكين من قِبل "صاحب العلامة" الحفصية آنذاك وهو أبو عبد الله بن عمر بالزيادة في راتبه يقول ابن خلدون معلقا على ذلك "وتعلل عليه صاحب العلامة أبو عبد الله بن عمر بالاستزادة من العطاء، فعزله، وأدالني منه، فكتبت العلامة عن السلطان"

انظر

- ابن الخطيب (لسان الدين محمد بن عبد الله بن سعيد السلماني)، الإحاطة في أخبار غرناطة، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى. 2003م، ج/3، ص. 378

- ابن خلدون، العبر، ج/7، ص 532

انظر أيضا: ابن خلدون، التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا، ص. 65

[82] - يقول ابن خلدون في ذلك عن نفسه: ".. كنت شابا لم يطرّ شاربي.. وعاد السلطان أبو عنان إلى فاس وجمع أهل العلم للتحليق بمجلسه، وجرى ذكري عنده وهو ينتقي طلبة العلم للمذاكرة في ذلك المجلس، فأخبره الدين لقيتهم بتونس عني ووصفوني له، فكتب إلي الحاجب يستقدمني، فقدمت عليه سنة خمس وخمسين وسبعمائة [755هـ/1354م] ونظمني في أهل مجلسه العلمي، وألزمني شهود الصلوات معه، ثم استعملني في كتابته والتوقيع بين يديه على كُره مني، إذ كنت لم أعهد مثله لسلفي"

- ابن خلدون، العبر، ج/7، ص. 534

انظر أيضا. ابن خلدون، التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا، ص: 67

ويقول في موضع آخر. "كان اتصالي بالسلطان أبي عنان، آخر سنة ست وخمسين [756هـ/1355م]، وقربني وأدناني، واستعملني في كتابته، واختصني بمجلسه للمناظرة والتوقيع عنه، فكثر المنافسون، وارتفعت السعايات، حتى قويت عنده بعد أن كان لا يغير عن صفائه.. فقبض علي وامتحنني وحبسني [في18صفر من سنة 758هـ/10 فبراير1357م].. وما زلت أنا في اعتقاله إلى أن هلك"

- ابن خلدون، المقدمة، ص: 11- 12

- ابن خلدون، العبر، ج/7، ص. 539

انظر أيضا ابن خلدون، التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا، ص: 72 - 73

وفي عهد أبي سالم أُطلق سراحه وأعيد إلى خِطته، بعد أن حُبس في عهد أبي عنان بسبب السعاية والوشاية. وقد قام السلطان المريني الجديد بـ "جعل العلامة لعلي بن محمد بن مسعود صاحب ديوان العساكر، والإنشاء والتوقيع والسر لمؤلف الكتاب عبد الرحمن ابن خلدون [يقصد كتابه العبر الذي أهداه لأبي فارس عبد العزيز بن أبي سالم المريني، وكان حينها ابن خلدون في القاهرة]"

ابن خلدون، العبر، ج/7، ص: 525

انظر أيضا. ابن خلدون، التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا، ص. 56

السلطانية في المغرب، والتوقيعات السلطانية في المشرق، فصحّ عنده أن حقيقتها ووظيفتها واحدة، وإن اختلفت تسمياتها ونعوتها. كما تأكد لديه أن الاختلافات الموجودة بينها بسيطة تتعلق إما بالشكل، أوبالنصوص المستخدمة، وذلك بحسب خصوصيات كل دولة، وتقاليدها السلطانية.

من هذا المنطلق بالذات، اعترف ابن خلدون أن ما كان يطلق عليه: "**علامة**" في المغرب هو عين "**الطغراء**" في المشرق، ويؤخذ ذلك من قوله: "..**الطغري.. هي: العلامة**.."[83].

وفي سياق آخر يتصل بالمعنى نفسه، أكد ابن خلدون أن "**العلامة السلطانية**" هي: "**التوقيع**"، ويُستنبط ذلك من قوله: "..**فيرسم [السلطان] الأمر للكاتب ليضع علامته، ومن خِطط الكتابة التّوقيع**.."[84].

ولتعزيز رأي ابن خلدون، نشير إلى أن فضل الله العمري (700 -749هـ/1301 - 1349م) وهو مشرقي - أكد في مسالكه في المرحلة نفسها التي أرّخ لها ابن خلدون تقريبا؛ أن "**الطغرائي [في المشرق هو الذي كان] يكتب طرر المناشير**"[85]. أو"**اليراليغ والفرمانات**"[86]. وفي موطن آخر استعمل مصطلح: "**علامة**" بدل مصطلح: "**طغراء**"، سيما عند حديثه عن إفريقية، ليؤكد لنا - هو الآخر- أن استعمالها ووظيفتها واحدة، وإن كانت تسميتها تختلف بين المشرق والمغرب، حيث ذكر أن "**العلامة هي أن يُكتب - بعد بسم الله الرحمن الرحيم وصلّى الله على نبيّه محمد وآله - اسم السلطان**"[87].

وفي السياق نفسه، يُؤخذ من إشارة لابن الجوزي - وهو مشرقي أيضا - أن تسمية: "**طغراء**" نفسها، لم تكن مستعملة في المشرق إبّان صدر الدولة السلجوقية، رغم أن استخدامها - كتوقيع رسمي في الدواوين السلطانية - وتسميتها بـ: (الطغراء) ظهر مع هذه الدولة، ومنها انطلقت ليتم تعميمها بعد ذلك خلال عصر الدولة العثمانية. وقد تأوّلنا ذلك من خلال استعمال ابن الجوزي؛ تسمية: "**علامة**" عند حديثه عن المؤسس الحقيقي لدولة السلاجقة "**طغرل بك**" بن سلجوق (385 - 455هـ/995 - 1063م)، ولم يستعمل تسمية: "**طغراء**"، رغم أنه أشار إلى وجود منصب: "**الطغرائي**" في المرحلة التي أرّخ لها، وذلك من خلال ذكره لأحد الطغرائيين السلاجقة؛ كان اسمه: "**أسعد الطغرائي**"[88]، ولاشك أن المرحلة التي أرّخ لها

---

[83] - ابن خلدون، العبر، ج/3، ص. 616

وقد ذكر ابن خلدون الطغراء في موضعين بهذا الإسم. (الطغري)، وفي موضع آخر، صرح أن "الطغري" هي "العلامة"

ابن خلدون، العبر، ج/3، ص 616. وكذلك ج/5، ص: 58 - 59

[84] - ابن خلدون، المقدمة، ص 306

[85] - العمري، مسالك الأبصار، ج/3، ص: 298

[86] - المصدر نفسه، ج/3، ص: 207

وقد ورد في هامش التحقيق أن

- اليراليغ جمع مفرده يرليغ وهي كلمة مغولية بمعنى حكم أو أمر

الفرمانات جمع مفرده فرمان والفرمان هو الحكم والأمر

[87] - المصدر نفسه، ج/4، ص: 162

[88] ابن الجوزي (جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد)، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى. 1992م، ج/17، ص: 232

ابن الجوزي (510 - 597هـ/1116 - 1201م)، توافق المرحلة التي أرّخ لها العماد الأصبهاني (519 - 597هـ/1125 - 1201م)، الذي يُعـدّ أول من تعرض لذكر سيرة مؤيد الدين الطغرائي، لكن الفرق بين العماد الأصبهاني وابن الجوزي، هو أن العماد عرّف التوقيعات السلطانية خلال العصر السلجوقي بتسمية: "**طغراء**"[89]، في حين أن ابن الجوزي عرّفها في العصر نفسه بتسمية: "**علامة**" على عادة معاصريه، وهذا يجعلنا نفترض أن كلمة: "طغراء" لم تكن متداولة بهذا الإسم، رغم حضورها أداء ووظيفة في صدر هذه الدولة، بل كانت تُعرف بالإسم نفسه الذي عُرفت به في المغرب، ألا وهو مصطلح: "**علامة**". يقول ابن الجوزي في ذلك: "**ورد كتاب... من شاهنشاه المعظم ملك المشرق والمغرب [يقصد بالمغرب بلاد الشام]**[90] **طغرل بك أبي طالب محمد بن ميكائيل بن سلجوق وعلى رأس الكتاب العلامة السلطانية بخط السلطان: (حسبي الله)**"[91].

وقد استمر التعبير عن "**الطغراء**" باسم: "**العلامة**" في المشرق إلى غاية ما بعد العصر السلجوقي؛ كما هو الحال في عصري الدولتين: الزنكية والأيوبية، ويُؤخذ ذلك من خلال مرثية للعماد في حق السلطان نور الدّين زنكي (541 - 569هـ/1146 - 1174م) بمدينة دمشق، أوردها كاملة في: "**كتاب الروضتين**"؛ أبو شامة المقدسي الدمشقي (599 - 665هـ/1202 - 1267م) وبيت القصيد فيها هو ما يلي[92]:

وَلَقَـــد أَتَـــى مَـــنْ كنـــت تُجْـــري رســـمه فضـــع الْعَلامَـــة مِنْـــك فِـــي منشـــوره

أما في العصر المملوكي، فقد استعملت المصادر المشرقية التسمية نفسها، على غرار الأيوبيين الذين ورث عنهم المماليك دولتهم، فورثوا معها رسم العلامة أوالطغراء التي ورثها الأيوبيون أيضا عن السلاجقة، فهذا أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي، يشير في "**النجوم الزاهرة**" إلى أحد كُتّاب العلامة في عهد محمد الناصر بن قلاوون (عاش بين: 684 - 741هـ/1285 - 1341م)، كان يسمى: **سيف الدين ألجاي بن عبد الله النّاصري الدّوادار** (ت. 732هـ/1331م)، وكان - حسب رأيه - مُجيدا في ذلك إلى درجة جعلت معها الإمام خليل بن أيبك الصفدي (696 - 764 هـ/1296- 1363م) يقول عنه: "**وأمّا اسمه في العلامة فما كتب أحد أحسن منه**"[93].

ولا شك أن ما يدعم هذه الشهادات المصدرية، ويؤكد صحتها بالدليل المادي الصريح، هو استمرار استعمال التسمية نفسها للتعبير عن الطغراء، حتى في عصر الدولة العثمانية التي استُخدمت فيها "الطغراء" بشكل صريح وواضح مكتمل الهيئة، لا يقبل التأويل ولا يحتاج إلى التعليل، وقد أكد هذا الأمر

[89] - الأصبهاني، تاريخ دولة آل سلجوق، ص: 255 - 268

[90] - أخذ ذلك من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**لاتزال طائفة من أمتي من أهل المغرب قائمة على الحق إلى قيام الساعة**". والمحقق لدى المفسرين أن المقصود بأهل المغرب؛ أهل بلاد الشام كما تدعم ذلك رواية أخرى، ومعلوم أيضا أن بلاد الشام تقع غرب الحجاز

[91] - ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك ج/16، ص: 46

[92] - أبو شامة (أبو القاسم شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي الدمشقي)، عيون الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق إبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى 1997م، ج/2، ص 369

[93] يوسف بن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج/9 ، ص: 297

- كما مر بنا - الفقيه التمكروتي عند دخوله على السلطان العثماني مراد الثالث في سفارته التي بعثه على رأسها السلطان السعدي أحمد المنصور الذهبي، حيث لم يورد ما يدل على أن "الطغراء" قد كانت تُعرف - عند العثمانيين بهذا الإسم لذلك العهد، بل أشار إلى أنها كانت تُعرف عندهم تارة باسم: "**علامة السلطان**"[94] وتارة أخرى تُعرف باسم: "**النِّشان**"[95]. ولنؤكد شهادة التمكروتي بما يدعمها من شواهد مادية؛ نشير إلى أن الطغراء كان يطلق عليها في الفرمانات العثمانية، إسم: "**توقيع همايوني**"، كما كان يطلق عليها أيضا وهذا هو موطن الشاهد عندنا إسم: "**علامت شريف**" بالتاء المبسوطة، أي: "**علامة شريفة**"، وهذا معروف لدى الأتراك الذين لايقفون على التاء المربوطة بالهاء بسبب عجمتهم، بل يحققونها كما في الكلمات التالية: ("حكمة = حكمت". "عبرة = عبرت". "جودة = جودت". "رأفة = رأفت"...)، وقس على هذا[96].

وللاستدلال على ما قلناه؛ نقترح فرمانا عثمانيا مؤرخا في سنة: 828هـ/1424م، يرجع إلى عهد مراد الثاني (824 - 855هـ/1421 - 1451م).(انظر شكل: 40).

بالإضافة إلى اسم: "**علامت شريف**" الذي استشهدنا به في هذا البناء التحليلي - التعليلي، وردت تسمية الطغراء أيضا في الفرمانات العثمانية بنعوت أخرى مثل: "**توقيع رفيع همايوني**"، و"**طغرائي صميم مكان خاقاني**"، و"**نِشان شريف عالي الشان.. سلطاني..**" (راجع الأشكال: 36 - 37 - 38)، وعلى منوالها كانت تسمى الرسائل السلطانية التي يرفعها السلطان إلى الصدر الأعظم[97] بـ: "**خط شريف**"[98]. ويشير دوسون في هذا المضمار إلى أن أول ما كان يقوم به السلطان العثماني بعد توليه الملك، إرسال رسالة بخطه، يحملها موظف إلى أعضاء الديوان الهمايوني ملفوفة بمنديل حريري شفاف مختوم، وهو رافع يده فوق رأسه حتى يسلمها للصدر الأعظم الذي يُقَبِّلها ويضعها على جبينه، ثم يفضها ويعطيها لرئيس الكُتّاب: "**الرئيس أفندي**"، الذي يقوم بقراءتها على أعضاء الديوان بصوت عال حتى يعرف كل واحد منهم مهامه[99].

---

[94] - التمكروتي، النفحة المسكية، ص. 100

[95] - المصدر نفسه، ص. 100

[96] - أخذت عنهم هذا بعض الدول العربية التي كانت تحت سيادتهم، كمصر وبلاد الشام وغيرها، وهم لا يزالون يستعملون ذلك إلى اليوم، حيث يستدلون التاء المربوطة في أسماء الأعلام بالتاء المبسوطة، وعوض أن يقفوا عليها في نطقهم بالهاء، يقفوا عليها بالتحقيق، أي. تحقيق التاء

[97] - الصدر الأعظم هو الوزير الأول للسلطان، وأول من أوجد هذا اللقب هو أبو العباس عبد الله السفاح مؤسس الدولة العباسية، وقد منحه لوزيره أبو سلمة الخلال (ت. 132هـ/750م)، وكان وزراء أول سلطانين عثمانيين يُدعون فقط: "وكلاء". وقد أعطى ثالث سلاطين العثمانيين؛ مراد الأول (760 - 791هـ/1359 - 1389م) ، لقب: "وزير" في سنة. 771هـ/1370م للجندري قره خليل، الذي منح ولده علي باشا وخليفته من بعده لقب. "الوزير الأعظم" سنة. 788هـ/1386م، وليث هذا المنصب زهاء قرن من الزمان في سلالة الجندري، حتى وفاة آخرهم خليل باشا سنة 857هـ/1453م في عهد السلطان محمد الفاتح (857 886هـ/1453 - 1481م)

انظر

- دوسون، نظم الحكم والإدارة في الدولة العثمانية، ص 69

[98] دوسون، نظم الحكم والإدارة في الدولة العثمانية، ص. 55 وص: 63

[99] المرجع نفسه، ص. 55

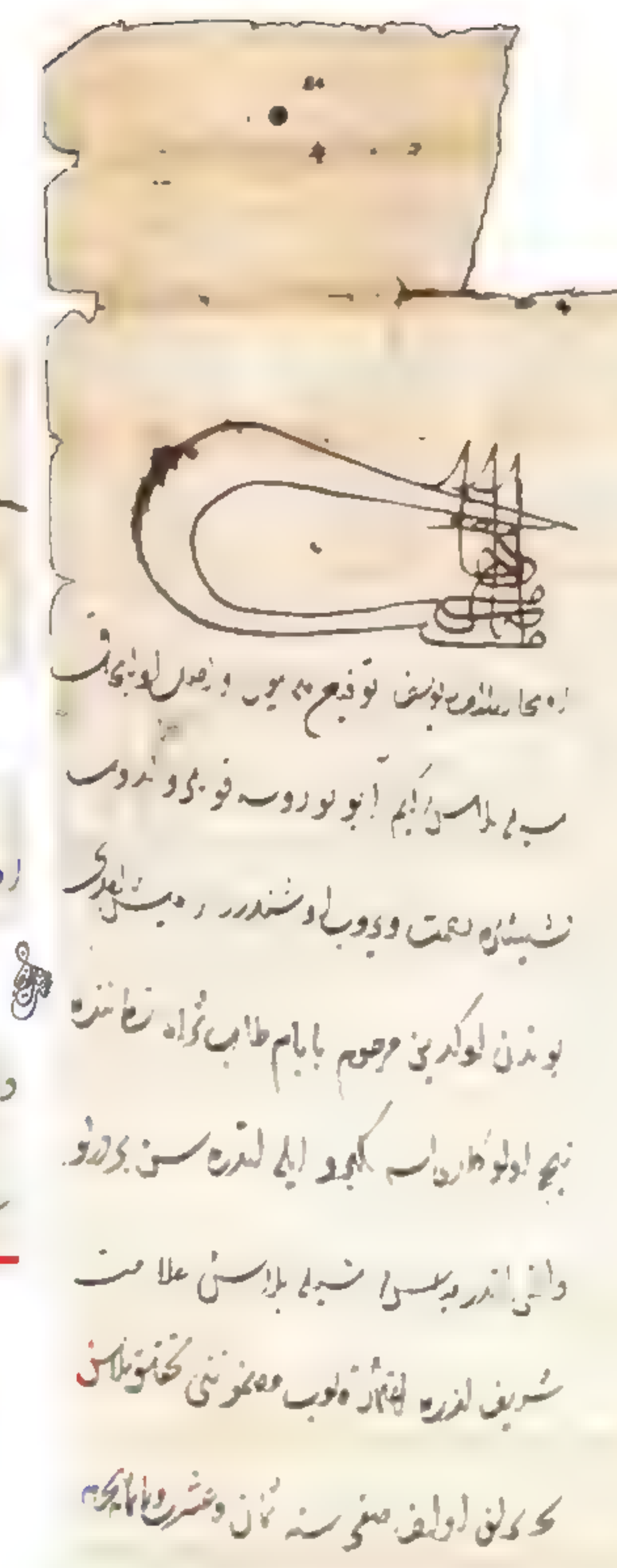
تفصيـــــــــــــل:



طغراء السلطان مراد الثاني

تسمية الطغراء بـ: "توقيع همايون"

تسميتها ايضا بـ: "علامت شريف"



فرمان مؤرخ في سنة: 828هـ/1424م، يرجع إلى عهد
مراد الثاني (824 - 855هـ/1421 - 1451م)
المصدر: الأرشيف التركي - استانبول
شكل: 40

الفصل الثاني: تاريخ الدواوين السلطانية في كل من المغرب السعدي وتركيا العثمانية وعلاقتها برسم العلامة والطغراء:

1 الديوان السعدي. جذوره التاريخية - وظائفه الرسمية وعلاقته برسم العلامة:

إن الدواوين السلطانية وتقاليدها عُرفت في المغرب منذ العصر الإدريسي، فهذا أبو عبيد البكري (421 487هـ/1030 1094م) يذكر لنا أن يحيى بن إدريس (292 - 305هـ/904 - 917م) كان يشهد مجلسه وديوانه السلطاني جملة من: "**العلماء والشعراء.. وكان ينسخ له عدد من الوراقين**"[100].

وفي الصفة الأخرى المقابلة لبرّ العدوة، كانت الأندلس تعيش فترة زاهية خلال فترة الحُكم الأموي، ويكفي من رسوخ عوائدها الحضارية أنْ كان بلاط الحكَم المستنصر(350 366هـ/961 976م) يتوفر على ديوان للكُتّاب والخطاطين، نساء ورجالا، فابن بشكوال وابن الآبار الذي نقل الخبر عنه، يرويان أن ذلك الديوان كانت فيه كاتبة إسمها: لبنى، وهي: "**حاذقة بالكتابة.. خطاطة جداً. وتوفيت سنة أربع وسبعين وثلاث مائة [374هـ/984م]**"[101]. أما ابن فياض، فقد روى أنه كان في عهده "**بالرَّبض الشرقي من قرطبة؛ مائة وسبعون امرأة، كلهن يكتبن المصاحف بالخط الكوفي؛ هذا ما في ناحية من نواحيها، فكيف بجميع جهاتها ؟!**"[102].

وبعد سقوط الدولة الأموية، عرفت الأندلس تمزقا سياسيا كان من أبرز تجلياته ظهور "**ملوك الطوائف**" الذين تفرقوا طرائق قددا، ومُزِّقُوا شرَّ مُمَزَّق، سيما بعد تكالب المسيحيين على ممالكهم، وضم أطراف من الأندلس الإسلامية في إطار ما سُمي بحركة "**الاسترداد المسيحي**"، لكن المرابطين وبعد نصر الزلاقة سنة: 479هـ/1086م، استطاعوا أن يوقفوا تلك الحركة الصليبية من جهة، كما استطاعوا القضاء على ملوك الطوائف من جهة أخرى، لتصبح بذلك الأندلس "ولاية مغربية"، تابعة لسيادة الدولة المركزية في المغرب إلى حدود أواخر العصر الموحدي، ولا شك أن هذا الإجراء السياسي - التاريخي، قد سمح بتداخل وتمازج التقاليد السلطانية في تدوين الدواوين بكلا العدوتين. ومن خلال اعتمادنا على نسخة مخطوطة نادرة من كتاب: "موطأ الإمام مالك"، استطعنا أن نتعرف على بعض رجال الديوان السلطاني المرابطي، الذين انتقل عدد كبير منهم من الأندلس نحو العدوة (المغرب)، وعلى رأسهم.

---

[100] - البكري (أبو عبيد)، "كتاب المغرب في حلى إفريقية والمغرب"، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د.ت، ص: 132

[101] - ابن بشكوال (أبو القاسم خلف بن عبد الملك)، الصلة في تاريخ أئمة الأندلس، عني بنشره وصححه وراجع أصله. السيد عزت العطر الحسيني، مكتبة الخانجي، الطبعة الثانية، 1955م، ص: 653

انظر أيضا

ابن الأبار (أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي)، التكملة لكتاب الصلة، تحقيق: عبد السلام الهراس، دار الفكر، لبنان، 1995م، ج 4، ص 247 واللفظ لابن بشكوال

[102] المراكشي (عبد الواحد بن علي)، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، دراسة وتحقيق: الدكتور صلاح الدين الهواري، نشر المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الأولى 2006م، ص: 266 267



يحيى بن محمد بن عبّاد اللخمي

الذي كان خطاطا في ديوان علي بن يوسف المرابطي (500 – 537هـ/1107 - 1143م). حيث نسخ بيمينه النسخة المذكورة برسم خزانة ولي نعمته بمدينة مراكش سنة: 502هـ/1108م. (انظر شكل: 41)، و **يحيى بن محمد بن عبّاد اللخمي**" هذا، هو أحد أبناء أمير إشبيلية: المعتمد ابن عبّاد، أنقذه حذقه لحرفة الخط والنساخة من الضياع وتكفُّف الناس، سيما بعدما فقد أبوه ملكه في عهد يوسف بن تاشفين (454 – 500هـ/1062 1107م) عقب معركة الزلاقة، واقتيد إلى مراكش أسيرا إلى أن أدركته المنية فيها[103].



صفحة من مخطوط: "موطأ الإمام مالك"، الذي كُتب برسم خزانة أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين سنة: 502هـ/1108م. هذه النسخة حبّسها السلطان: أبو عنان المريني في أواخر ذي 750هـ/أوائل فبراير 1350م؛ على الخزانة العلمية التي أسسها بجامع القرويين في نفس السنة، وعليها توقيعه بخطه.

المصدر: خزانة القرويين - فاس، رقم: 605.

شكل: 41

---

[103] بنشريفة (محمد)، نظرة حول الخط الأندلسي، نشر في كتاب: المخطوط العربي، وعلم المخطوطات، تنسيق: أحمد شوقي بنبين، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، مطبعة فضالة، المحمدية، الطبعة الأولى 1994م، ص 79

وفي العصر الموحدي عرفت الدواوين السلطانية قفزة نوعية كبيرة، وبالرغم من تداعي الأوضاع السياسية في أواخر هذا العصر، إلا أن الديوان الموحدي ظل محافظا على تقاليده السلطانية، فهناك على سبيل المثال ما يفيد أن أبا حفص عمر المرتضى الموحدي (646 - 665هـ/1248- 1266م) كان بلاطه يتوفر على **"ديوان للخطاطين" يشرف عليهم رئيس مسؤول عنهم**[104].

أما في العصر المريني فقد كان الديوان السلطاني يعرف نشاطا كبيرا، حيث كان يجمع في جنباته الكُتَّاب والخطاطين والموقعين الذين تخصصوا في تحرير الرسائل السلطانية وتوقيعها، كل بحسب المهام الموكلة إليه، وقد ذكر ابن خلدون أن من ضمن وظائف ذلك الديوان، وظيفة حساسة خاصة بالتوقيعات والعلامات السلطانية، أطلق عليها: **"وظيفة العلاَمة والكتابة"**[105]. كما أطلق عليها تارة: **"وظيفة العلاَمة"**[106]. وتارة أخرى **"خِطَّة العلاَمة"**[107]. أما ابن الأحمر فقد نعتها مرة بـ: **"خِطَّة العلاَمة والرِّقاع"**[108]. ومرة بـ: **خِطَّة العلاَمة السرية"**[109].

ولا شك أن ذكر العلاَمة من طرف كل من ابن خلدون وابن الأحمر، يدلنا على استعمال الطغراوات والتوقيعات في الدواوين المرينية، كتقليد سلطاني يضفي طابع الرسمية على الوثائق السلطانية. أما ذكر الرقاع من طرف ابن الأحمر، فهو يحيلنا على "قلم" أو "خط الرقاع" الذي عادة ما كان يستعمله كُتّاب الإنشاء في تحرير الرسائل السلطانية منذ العصر العباسي، قبل أن يحل محله "الخط الديواني" في تركيا العثمانية، و"الخط المجوهر" في المغرب السعدي.

أما ورود كلمة: "وظيفة" أو "خِطَّة" (بالكسر) عند كل من ابن خلدون وابن الأحمر، فهو يدلنا - بشكل أو بآخر - على وجود وظيفة رسمية للعلامة السلطانية في الديوان السلطاني المريني، تم استحداثها برسم المكاتبات والرسائل السلطانية.

وكيفما كان الحال، فقد تولى هذه الوظيفة أو الخِطَّة في العصر المذكور: **أبو محمد عبد المهيمن الحضرمي** المتوفى سنة: 749هـ/1348م، وكان ذلك في عهد كل من السلطانين المرينيين أبي سعيد وابنه أبي الحسن حسب إفادة ابن خلدون[110]، وقد ذهب ابن مرزوق (710 - 781هـ/1310 - 1379م) إلى أبعد من ذلك حين وصف هذا الخطاط في عهد السلطانين المذكورين بـ: **"صاحب العلامة وإمام الكتبة"**[111]. بينما وصفه أحمد المقري (986 - 1041هـ/1578 - 1631م)، بـ "صاحب القلم

---

[104] - المنوني، تاريخ الوراقة المغربية، ص: 28

[105] - ابن خلدون، التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا، ص. 45

[106] - المصدر نفسه، ص 45

[107] - ابن خلدون، المقدمة، ص 301

[108] ابن الأحمر، مستودع العلامة، ص 32

[109] - المصدر نفسه، ص 48

[110] ابن خلدون، التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا، ص 45

[111] ابن مرزوق، المسند، ص 264

الأعلى"[112]، وبالرغم من كثرة الأسماء التي تواترت على منصب العلامة خلال العصر المريني، يبقى عبد المهيمن هو أهم كاتبي العلامة المرينية - إلى جانب ابن رضوان النجاري المتوفى سنة: 783هـ/1381م. الذي وبمجرد وفاة السلطان المريني أبي سالم سنة: 762هـ/1361م - تولى منصب العلامة ليحتكره إلى حين وفاته، إلى درجة وصفه معها المقري بـ: "**صاحب العلامة العلية والقلم الأعلى بالمغرب**"[113]. وقد خدم ابن رضوان الدولة المرينية أكثر من 40 سنة منذ اتصاله بالسلطان أبي الحسن المريني سنة: 741هـ/1340م[114].

ونظرا لأهمية الديوان السلطاني في العصر المريني، خصص له ابن خلدون الذي كان أحد رواده في مقدمته فصولا أفرد من خلالها للمراسلات السلطانية فصلا تحت عنوان: "**ديوان الرسائل والكتابة**"[115]، تعرض فيه لذكر الديوان ورجالاته، كما تطرق إلى وظيفة كل واحد منهم، من قبيل كُتَّاب الإنشاء وخطاطي المناشير، فضلا عن كاتبي العلامات السلطانية - وهو أعلى منصب على الإطلاق - حيث تخصص هؤلاء في توقيع المراسلات الرسمية التي كانت "**تصدر باسم السّلطان، ويضع الكاتب فيها علامته أوّلا أوآخرا على حسب الاختيار في محلّها وفي لفظها.. وقد يختصّ السّلطان لنفسه بوضع ذلك إذا كان مستبدّا بأمره، قائما على نفسه، فيرسم الأمر للكاتب ليضع علامته**"[116].

ونستنتج من خلال "المقدمة" أن ابن خلدون قد ميز بين "**العلامات**" و"**الأختام**"، بدليل أنه **أفرد** لكل منها فصلا، فكما ذكر العلامات في الفصل المتعلق بديوان الرسائل والكتابة، نجده أفرد للأختام فصلا مستقلا تحت عنوان: "**الخاتم**"[117]، لكنه مع ذلك، جمع بين مصطلح: "**العلامة**" و مصطلح: "**الخاتم**" للدلالة على معنى واحد، يتجسد فيما سماه بـ: "**خِطّة العلامة**"[118] في موضع، و"**ديوان الختم**"[119] في موضع آخر، حيث قال عنه: "**وديوان الختم عبارة عن الكُتّاب القائمين على إنفاذ كتب السّلطان والختم عليها**"[120]، وقد عبّر ابن خلدون عن ذلك التداخل بين العلامة والخاتم من حيث الاستخدام الوظيفي؛ بقوله: "**ومعنى الختم هنا علامة**"[121]، وكأنه يقصد بهذا المعنى ما يشبه في وقتنا الحالي التصديق والمصادقة.

---

[112] - المقري، نفح الطيب، ج/5، ص: 465

[113] - المصدر نفسه، ج/6، ص: 107

[114] - انظر سيرته عند: ابن خلدون، العبر، ج/7، ص. 525

[115] - ابن خلدون، المقدمة، صص: 305 - 311

[116] - المصدر نفسه، ص 306

[117] - المصدر نفسه، صص. 326 - 329

[118] - المصدر نفسه، ص 301

وقد سماها ابن القاضي أيضا بنفس الإسم. انظر

ابن القاضي، جذوة الاقتباس، ص 436

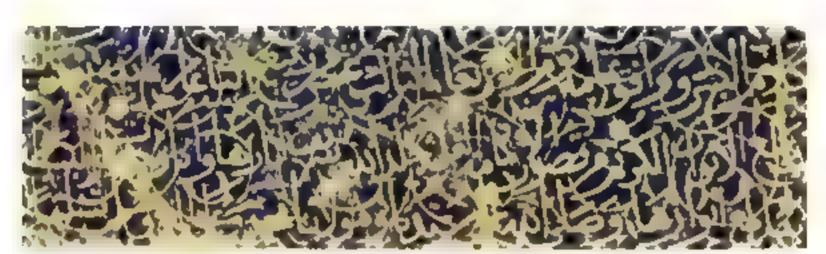
[119] - ابن خلدون، المقدمة، ص 328

[120] المصدر نفسه، ص 328

[121] المصدر نفسه، ص 328

وفي العصر السعدي المزامن لعصر الدولة العثمانية، يشير بعض الباحثين إلى أن السلطان السعدي؛ أحمد المنصور الذهبي، أسس "**ديوانا للخطاطين**" تابعا لجامع المواسين بمراكش[122]. ولتعزيز هذا الرأي، نستدل بإشارة واردة في السطرين: 14 و15 من خاتمة مصحف كُتب برسم خزانة السلطان المذكور (محفوظ بمكتبة الأسكوريال بإسبانيا، تحت رقم: 1340).

وقد ذُكر في خاتمة هذا المصحف أن تمامه وافق يوم الأربعاء، 13 ربيع الثاني، من سنة: 1008هـ (موافق: 2 نونبر 1599م)، **بجامع الديوان** الذي ورد باسم: "**الإيوان الكريم، من قصور الإمامة العلية**"، وفيما يلي مقطع من خاتمة المصحف المذكور يبين ما قلناه[123]:



..... ووافق تمامه يوم الأربعاء الثالث عشر من ربيع الثاني، عام ثمانية بعد ألف سنة

بجامع الإيوان الكريم من قصور الإمامة العلية، خلد الله شريف آثارها، وأنار جهات البسيطة

بساطع أنوارها، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد، وعلى ءاله وسلم تسليما

إضافة إلى الإشارة السابقة، هناك إشارة أخرى تؤكد وجود هذا الديوان الذي ورد باسم: "**الإيوان**" في خاتمة مخطوط في التفسير لسليمان الطوفي، يسمى: "**الإشارات الإلهية إلى المباحث الأصولية**". ومن ضمن ما جاء في الكلمة الختامية لناسخ المخطوط؛ مايلي: "... **وكان الفراغ منه في اليوم الثاني عشر من جمادى الثانية، من عام تسعة وألف سنة** [موافق: 19 دجنبر 1600م] **بالإيوان السعيد، الشريف النبوي الإمامي المنصوري الحسني، أدامه الله تعالى، على يد مملوكه، وربي نعمته، ونشأة أياديه ومننه: رستم بن عبد الله، برسم الخزانة العلية العلمية الشريفة، أبقى الله فخرها**". وتوجد منها نسخة مصورة في المكتبة الوطنية بالرباط، على ميكروفيلم يحمل رقم: 1372[124].

ونستنتج من خلال الخاتمة المذيلة للمخطوط المذكور، أن نصها لم يتضمن ذكر الديوان الذي أسّسه المنصور؛ لتلقين مبادئ الخطوط المغربية وأسرار العلامات السلطانية والرسوم الطغرائية فحسب، بل تضمن إشارة أخرى تؤكد على أنه تعدى ذلك إلى تدريس مبادئ الخط المشرقي، بدليل ورود اسم خطاط

---

122 المنوني، الوراقة المغربية، ص:75

123 - راجع دراستنا الفنية لهذا المصحف وخاتمته في أطروحتنا: محمد عبد الحفيظ خبطة، "المصاحف والكتب المخطوطة.."، ج/1، ص: 288

124 - نقلا عن المنوني، الوراقة المغربية، ص: 78

مشرقي في الخاتمة المذكورة، ألا وهو: "**رستم بن عبد الله**"[125]؛ الذي يذكر بأنه فرغ من نسخ المخطوط الذي خطّه بيمينه سنة: 1009هـ/1600م بالإيوان السعيد.. برسم الخزانة العلية العلمية الشريفة التي أسسها المنصور.

ولتزكية الدليل السابق، نسوق دليلا آخر يؤكد اهتمام المنصور بالخطوط المشرقية، استنبطناه من خلال شهادة لابن القاضي، يذكر أن بعض طلبة مراكش حدّثه بها في يوم الأحد لأربع خلون من رجب سنة: 995هـ/10 يونيو 1587م. يقول ابن القاضي في كتابه: المنتقى المقصور: "**ولقد عانى [المنصور الذهبي] أيده الله، حسن الخط وظفر به بأنواعه المشرقية والمغربية، فقد حُكي أنه ذات يوم استدعى من كاتبه أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عيسى [السوسي] بخط مشرقي كتابا، فبعث إليه صحبة هذين البيتين**[126] :

سقتني كأس السرور دهاقا خطوط أتتني في مهرق

رأت كف أحمد في الغرب بحرا فجاءت إليه من المشرق

ومهما يكن الأمر، فإن "**قصر البديع**" بمراكش، كان هو الديوان السلطاني الرسمي للدولة السعدية اعتبارا من عهد أحمد المنصور الذهبي كما يؤكد ذلك ابن القاضي[127]، حيث حاول هذا السلطان من خلال بنائه لقصره هذا - الذي شرع في تشييده سنة: 980هـ/1572م - إبداع تحفة عمرانية رائعة تتفرد بمظاهر فنية غير مسبوقة. فالروايات المصدرية تشير إلى أن هذا القصر كانت به نافورات تعلوها أُسودٌ وأفاعٍ ترسل الماء ثرّاً، وكان صحنه مزيّناً بتماثيل من فضة، وكذلك الشأن بالنسبة للتفاصيل التي كانت تُزَيِّنُ القبة الخمسينية للقصر، والتي كانت تتشكل من عدة عناصر منحوتة تمثل بَازَيْنِ ضخمين وأفعى. وقد أسهب عبد العزيز الفشتالي في وصف هذه المنحوتات، فضلا عن وصفه لأعمال أخرى بالقصر نفسه[128].

---

[125] - إن اسم. "رستم"، من الأسماء الغريبة على البيئة المغربية، إذ أن مثل هذه ا لأسماء لم تكن معروفة إلا في المشرق، وخاصة في بلاد فارس التي اشتهرت بها، ورستم كفيرز ونيروز وغيرها من الأسماء الفارسية. ومن ثم استنتجنا أن رستم بن عبد الله، يرجح أن يكون خطاطا مشرقيا استقدمه أحمد المنصور الذهبي من المشرق ثم استخدمه في إيوانه، سيما وأن هذا السلطان كان معجبا بخطوط الخطاطين المشارقة

[126] - ابن القاضي، المنتقى المقصور، ج/1، ص: 465

[127] - المصدر نفسه، ج/1، ص:352

[128] - حول حيوانات قصر البديع؛ انظر قصيدتين مذكورتين عند

- المقري (أحمد بن محمد)، روضة الآس العاطرة الأنفاس، في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين: مراكش وفاس، المطبعة الملكية، الرباط، الطبعة الثانية 1983م، صص. 130 138

انظر كذلك

- الفشتالي (أبو فارس عبد العزيز)، مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا، تحقيق: عبد الكريم كريم، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، د ت، ص 256

وأقدم رسم يصور لنا الديوان السلطاني – السعدي بقصر البديع؛ رسم يرتبط بصورة بانورامية مُؤرَّخة في سنة: 1050هـ/1641م، محفوظة بمكتب المطبوعات الفنية (**Demoulin frères. sc**)، بأمستردام تحت رقم: **Ce.d. 21463**. وهي مرفقة بنصوص تفسيرية كُتبت باللغة اللاتينية، كما أنها تتكون من 5 لوحات للرسام الهولندي: "**أدريان ماثام**" (**Matham Adriaen**)، الذي كان ضمن سفارة القبطان الهولندي: "**لِيدكيرك**" (**liedekerke**)، وهي السفارة التي قدمت إلى مدينة مراكش في عهد السلطان السعدي: محمد الشيخ الأصغر بن زيدان (1046 1064هـ/1636 1654م). في إطار العلاقات المغربية الهولندية المميزة التي ترجع بذورها الأولى إلى عهد السلطان السعدي: أحمد المنصور الذهبي (986 1012هـ/1578 1603م)، والتي دُشنت أولى ملامحها في عهد ابنه أبي المعالي زيدان (1012 - 1037هـ/1603 - 1628م)[129].

وتُعد هذه اللوحة حسب بعض الباحثين أول رسم للعاصمة السعدية مراكش وديوانها السلطاني **بقصر البديع**"[130]، وقد أثرى الرسام الهولندي السفارة بما تركه من لوحات جميلة لقصر البديع، الذي قال عنه إنه **"أعجوبة الأعاجيب"**[131]. ومن حسن الحظ أن نُوفق في الحصول على هذه الوثيقة – اللوحة، بنسختيها: الأصلية، والمصورة طبق الأصل بتقنية "الفاكسميلي"، حيث قمنا بتشريحها تشريحا شاملا، لنتعرف من خلالها على بعض خصائص التقاليد الملكية، والدواوين السلطانية في العصر السعدي (انظر شكل: 42)، بالإضافة إلى ذلك؛ قمنا أيضا بمقارنة رسم بانورامي آخر لقصر البديع من عمل الرسام نفسه، بصورة بانورامية للأطلال المتبقية حاليا من هذا القصر بمدينة مراكش (انظر شكل: 44).

وحتى نستغور اللوحة الممثلة في (الشكل: 42)، نشير إلى أنه يجب علينا استخراج بعض تفاصيلها المهمة التي تحيلنا على استعمال الطغراء السعدية وعلاقتها بمبدأ السيادة.
ففي البداية – وكملاحظة أولية وتمهيدية – نشير إلى أن هذه اللوحة تخضع لقانون التماثل والتناظر فيما يتعلق بتوزيع عناصرها الفنية وأسمائها الطوبونيمية (أسماء الأماكن). وقد حاولنا جمع تلك العناصر في اللوحة الممثلة في (الشكل: 43)، وذلك بقصد تفصيلها وتشريحها تشريحا تاريخيا وفنيا.

---

129 - يرجع تاريخ العلاقات بين المملكة المغربية ومملكة الأراضي المنخفضة (هولندا) إلى عهد تكوين الدولة الهولندية التي كانت تُعرف بجمهورية. "الأقاليم السبعة المتحدة" أو "الولايات العامة الهولندية" سنة: 987هـ/1579م. وقد تم التوقيع على أول اتفاقية مغربية – هولندية في "لاهاي" (Den Haag بالهولندية) بتاريخ. 8 شوال 1019هـ/24 دجنبر 1610م، وذلك بعد أن أرسل أبو المعالي زيدان السعدي سفيرا له إلى لاهاي سنة. 1018هـ/1609م، وبهذا يكون المغرب أول دولة تعترف بالمناطق السبع لصالح هولندا، وكانت قضايا سلامة المواصلات البحرية وتنشيط التجارة أهم ما ميز هذه العلاقات.
وأهم سفراء السعديين إلى هولندا وفرنسا "أحمد الجزولي" قاضي تارودانت وسوس، و"ناصر قرطة" والقائد "يوسف بيكاستر" و"أحمد بن قاسم الحجري". وكان ممثل المغرب في هولندا زمن زيدان السعدي، هو اليهودي المغربي: "صامويل بلاش"، المنحدر من "آل بلاش" وهي أسرة معروفة بالمغرب. ومعلوم أن بلاش هذا هو من كتب إلى زيدان السعدي باقتراحات مهمة ترتبط بالعلاقات المغربية الهولندية وآفاقها المستقبلية
انظر Henry de Castries, Les sources inédites de l'histoire du Maroc de 1530 à 1845, Dynastie Saadienne Archives et bibliothèques des Pays-Bas, Tomme II, E. Leroux (Paris), Paul Geuthner, 1923, P P 54 - 57

130 التازي (عبد الهادي)، التاريخ الدبلوماسي للمغرب من أقدم العصور إلى اليوم، مطابع فضالة، المحمدية، 1987م، المجلد الثامن، ص 321

131 المرجع نفسه، ص 319



مؤرخة في سنة: 1050هـ/1641م، وهي تتألف من 5 قطع متوالية تشكل الرسم البانورامي لمدينة مراكش

محفوظة بمكتب المطبوعات الفنية (Demoulin frères Sc)، امستردام - رقم التصنيف: Ce.d.21463



مؤرخة في سنة: 1058هـ/1649م، وهي تتألف من قطعتين متواليتين تشكلان الرسم البانورامي لمدينة مراكش

محفوظة بمدينة فرانكفورت، ألمانيا - رقم: 53154

صورتان بانوراميتان لمدينة مراكش وديوانها: "قصر البديع" بريشة الفنان الهولندي: أدريان ماثام (Adriaen Matham)، الذي دخل المدينة في عهد السلطان السعدي: محمد الشيخ الاصغر بن زيدان (1046 - 1064هـ/1636 - 1654م)، ضمن سفارة القبطان الهولندي ليديكيرك (liedekerke) في سنة: 1050هـ/1641م.

شكل: 42



العناصر الفنية التي تخضع لقانون التماثل في لوحة الرسام الهولندي: "أدريان ماثام" (Matham Adriaen)
شكل: **43**

ولتشريح العناصر الفنية المذكورة، نشير إلى أننا سنبدأ من اليسار إلى اليمين، وذلك لأن اليسار هو نقطة البداية في الحرف اللاتيني الذي استعمله ماثام في التعاليق النصية المدرجة في لوحته.

ففي اليسار، وتحديدا في اللوحتين: **1** و **2**، رسم الفنان "**شعار**" السلطان السعدي على شكل "**درع**" مكسوّ بـ: "**الوشاح الملكي**"، يتوسطه "**رمز السيادة**" المغربية المتمثل في: "**الطغراء السعدية**"، ويقابل الشعار "**بورتريه**" أيقوني لصورة السلطان السعدي، كتب تحتها اسمه: "**محمد ولد مولاي زيدان**"، ويبدو من هذه الصورة تأثره باللباس التركي العثماني الذي كان بمثابة: "**الموضة**" التي تُميز لباس "الخاصة" في العالم الإسلامي، حيث يظهر السلطان السعدي محمد الشيخ الأصغر، وهو يعتمر عمامته السلطانية التي تنوب عن التاج الملكي، ويوحي شكلها الذي تعتليه "**الذؤابة**" أنها أشبه ما يكون "**بالعمامة الخاقانية**" التي كان يتخذها الخاقان أو الإمبراطور العثماني كتقليد سلطاني يَمتد ويُستمد من التقاليد التركية القديمة، والتي جعلت منه رمزا للقوة والسيادة. ويفصل بين صورة السلطان السعدي والشعار الطغرائي "**لواء**"، كتبت فيه العبارة اللاتينية: **"Palatium magni"**



صورة السلطان السعدي محمد الشيخ الأصغر، التي يظهر من خلالها تأثره باللباس التركي - العثماني

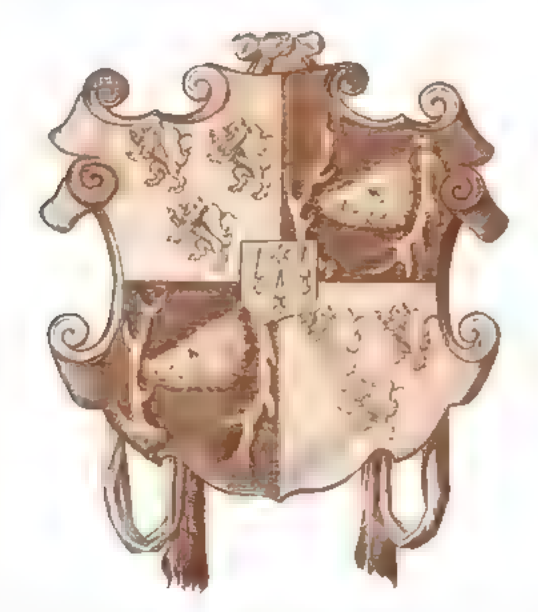


"شعار" السلطان السعدي محمد الشيخ الأصغر، على شكل درع يتوسطه: "رمز السيادة" المغربية (الطغراء السعدية)

ووفق الترتيب نفسه - وبشكل متناظر - نجد في اليمين وتحديدا في اللوحتين: **4 و5** "**شعار**" الأمير الهولندي: "**فريديريك هنري دوناصو**" (**Frederic Henry de nassau**) على شكل درع، تتوسطه: "**رموز السيادة**" الهولندية (الأسد والخنزير البري)، وهو موشح بستائر "**الخلعة الملكية**". يقابله: "**بورتريه**" أيقوني لصورة السفير الهولندي: "**لِيدكيرك**" (**liedekerke**)، تحتها اسمه الكامل. ويفصل بين صورة السفير والشعار الهولنديين: "لواء"، كتبت فيه العبارة اللاتينية: **"Regis Maroci in Barbaria"**



صورة السفير الهولندي: "ليدكيرك" (liedekerke)، وتحتها اسمه الكامل

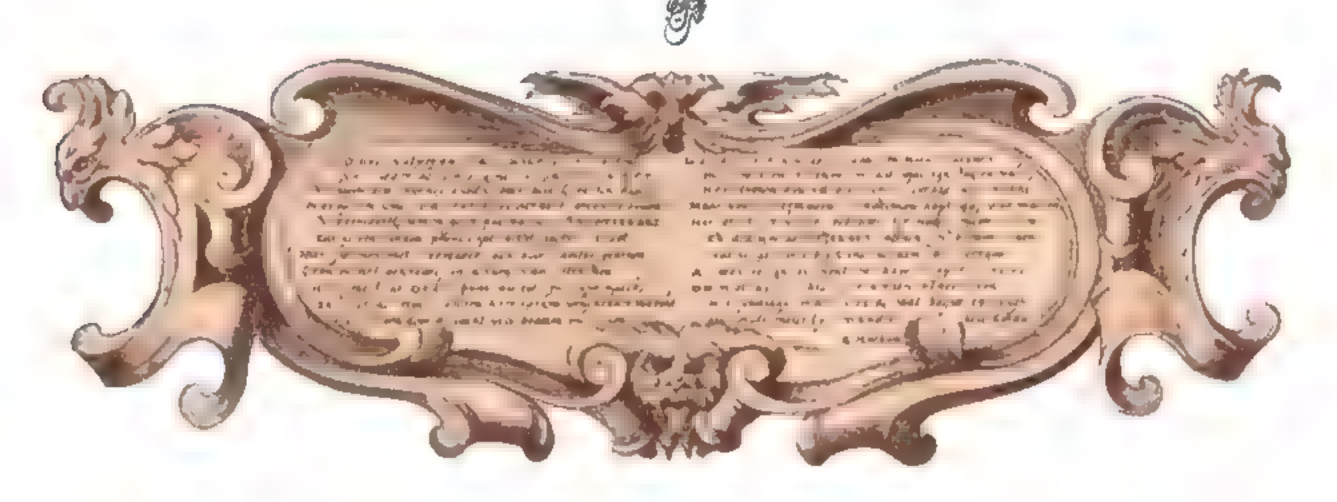


"شعار" الأمير الهولندي: "فريديريك هنري دوناصو" (Frederic Henry de nassau)
على شكل درع، تتوسطه: "رموز السيادة" الهولندية (الأسد والخنزير البري)،

وبجمع "اللواءين" المتقابلين اللذين يخضعان للتوزيع التماثلي نفسه لصور اللوحة، نجدهما يؤلفان عبارة: **"Palatium magni. Regis Maroci in Barbaria"** باللغة اللاتينية، وهو ما معناه: **"البلاط الأكبر لملك المغرب بإفريقيا"**.



وفي محور التماثل والتناظر الذي تمثله اللوحة 3، والتي تقسم الصورة إلى مقطعين متماثلين، يطبعهما مبدأ التناظر والتساوق والتماثل، نجد **"لافتة أيقونية"**، كتب عليها مدح لمدينة مراكش، من نظْم الرسام أدريان ماثام الذي تزامن وجوده في مراكش مع بداية فصل الربيع، وتتألف قصيدته من 22 بيتا كما نلاحظه من خلال الشكل التالي:



وعموما، فالرسم يتألف - كما وقفنا على ذلك - من 5 لوحات تشكل مجموعة متوالية، يبلغ طولها: 2 أمتار وستين سنتم على عرض: 54 سنتم، ويظهر خارج أسوار المدينة السفير الهولندي: **"لِيدكيرك" (liedekerke)**، على فرسه، وهو متبوع بحاشيته وأهل سفارته، إثر توجههم نحو **"باب الملاّح"**، للدخول إلى مراكش دخولا رسميا، وكان ذلك في: يوم الإثنين 26 ذي القعدة 1050هـ/11مارس 1641م[132]. (راجع شكل: 42).

---

[132] التازي، التاريخ الدبلوماسي للمغرب، المجلد الثامن، ص. 320



صورة بانورامية تتألف من مقطعين "القصر البديع" وديوانه السلطاني بمدينة مراكش. بريشة الفنان الهولندي: ادريان ماثام (Adriaen Mathem) الذي دخل المدينة في عهد السلطان السعدي: محمد الشيخ الاصغر بن زيدان (1046 - 1064هـ/1636 - 1654م) ضمن سفارة القبطان الهولندي ليدكيرك (liedekerke) في سنة: 1050هـ/1641م وهي نفس السنة التي ارخ فيها لوحته

Hofb bliothek

صورة بانورامية للأطلال المتبقية من "قصر البديع" بمراكش

شكل: 44

وفي حديثه عن "**قصر البديع**"، يؤكد ابن القاضي أن ديوانه السلطاني كان يُعقد جمعه من قبل السلطان أحمد المنصور الذهبي "**يوم الأحد والخميس، فيجتمع [السلطان] فيهما بخواصه في رياض المسرة، و[قصر] البديع الذي أنشأه وشاد بناءه، إلا أنه لا يضبطه وصف الواصفين. [حيث] يشتغل بالتوقيع على الرقاع المعدة لقضاء حوائج المسلمين**"[133].

ولا شك أن ذكر ابن القاضي لكلمتي: "**التوقيع**" و"**الرقاع**" يدلنا على جانب مهم من وظائف هذا الديوان، ألا وهو تحرير الوثائق السلطانية من طرف الكُتّاب والخطاطين، والتوقيع عليها من طرف السلطان نفسه حتى تكتسب رسميتها، خاصة فيما يتعلق بالكتابات الرفيعة التي ترتبط بالعلاقات الدبلوماسية الخارجية، والتي يتطلب إمضاؤها استعمال التوقيع الرسمي للدولة السعدية (العلامة/الطغراء).

ولا شك أيضا أن هذا التقليد السلطاني، قديم في المغرب قدم دواوينه السلطانية، وقد جرت العادة أن يتم تمييز حروف الطغراء بوضعها في أعلى المنشور بخط واضح بيّن، وذلك حتى لا تختلط مع باقي نص الكتابة الذي يُحرر عادة بالقلم الدقيق، وأبرز تعبير عن هذا التباين في حجم الخط بين الطغراء ونصوص الوثائق، هو ما سماه ابن الأحمر (725 - 807هـ/1325 - 1405م) في العصر المريني - وكما سبقت الإشارة إلى ذلك - بـ: "**خِطّة العلامة والرقاع**"[134]. وهذه التسمية يستنبط منها - تحقيقا لا ظنا - أن التقاليد السلطانية في المغرب وغير المغرب، كانت تقتضي - بالضرورة - رسم علامات وطغراوات المناشير الصادرة عن الديوان السلطاني بالقلم الجلي (أو الجليل)، وفي هذا الشأن يشير ابن الأحمر إلى أن: '**العلامة [كانت] تكتب بقلم غليظ القطة**"[135]. وهذا يستنبط منه أن الخط المغربي عموما لم يكن يكتب بالقلم المدبب وحده، كما يعتقده بعض الخطاطين المعاصرين، بل كان يكتب أيضا - وتحديدا الجليل منه - بالقلم المقطوط "**غليظ القطة**" كما سماه ابن الأحمر. والذي يحيلنا مباشرة على ظاهرة التجليل في الخطوط المغربية.

أما ابن خلدون (732 - 808هـ/1332 - 1406م) فذكر أن العلامة الحفصية، وهي: "**الحمد لله والشُّكر لله [كانت تكتب] بالقلم الغليظ**"[136]. بينما تحدث لنا ابن الأحمر في الفترة نفسها تقريبا عن استعمال القلم نفسه عند الزيانيين بالجزائر[137] في حين استعمل أحمد المقري (986 - 1041هـ/1578 - 1631م) عبارتين اثنتين لهما المعنى نفسه: "**خط غليظ**" و"**قلم غليظ**"، فعندما وصف العلامة الموحدية، قال عنها: " **العلامة السلطانية عند الموحدين.. كانت أن يكتب السلطان بخط غليظ في رأس المنشور**

---

133 - ابن القاضي، المنتقى المقصور، ج/1، ص: 352

134 - ابن الأحمر، مستودع العلامة، ص: 32

135 - المصدر نفسه، ص 20

136 - ابن خلدون، التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا، ص 65

انظر أيضا كتاب العبر لابن خلدون، ج 7، ص 532

137 - ابن الأحمر، مستودع العلامة، ص 24

الحمد لله وحده"[138]. وحينما وصف العلامة المرينية، قال عنها: "**وكتب في التاريخ؛ هو العلامة السلطانية في .. [العصر المريني]، يكتب بقلم غليظ**"[139]. إذن فهذه النصوص تدل على أن العلامات السلطانية في المغرب كانت تُرسم بالخط الجلي أو الجليل لتمييزها عن نصوص الوثائق التي كانت تُحرّر بقلم دقيق اصطُلح على تسميته في المغرب كما في المشرق بالرقاع، والرقاع هو نوع من الخطوط الدقيقة التي يرجع أصلها إلى عصر الدولة العباسية، استُعمل في تحرير الرسائل المقتضبة على "**الرقاع**"، وهي القطوع الصغيرة من الرق أوالورق"[140]، أخذ هذا القلم منها تسميته، وهو أصغر من "قلم التوقيع" الذي يصغر بدوره عن الثلث، ويسمى أيضا بـ: "**القلم المدور الصغير**"[141] كما ذكرنا ذلك آنفا. وهو قلم يغلب عليه **الطمس والتعوير**. ويشير ابن النديم إلى أن "**خط الرقاع مخرجه من خفيف الثلث الكبير [وقد كان أيضا] يكتب به التوقيعات وما أشبه ذلك**"[142]. وهو ليس خط الرقعة المعروف في عصرنا الحالي، الذي (تعود جذوره إلى سنة: 886هـ/1481م حسب ماتوصل إليه ناجي زين الدين المصرف)[143].

عموما – وبعد هذا الاستطراد الدلالي والتفسيري - نشير إلى أن السلطان السعدي أحمد المنصور الذهبي، نصّب موظفا عهد إليه برسم علامته، ألا وهو: "**عبد الرحمن العنّابي**"، الذي قال عنه ابن القاضي: "**أبو زيد عبد الرحمن العنابي، صاحب الديوان، وهو الذي يوقع على موقعات مولانا [يقصد: احمد المنصور الذهبي] - ثبت في تاريخه - التي تروح وتخرج إلى الأقطار البعيدة خوفا من التزوير، ومحافظة على العلامة السلطانية، وذلك في غاية الإتقان والضبط**"[144].

ويضيف ابن القاضي أن المنصور كان يكرم كُتّابه في ديوانه إلى درجة خصص معها لهم يوم السبت بمعية الكبراء، وأشياخ القبائل، وبني عمه الشرفاء، وغيرهم، حتى "..**إذا استقر بالكُل المجلس، أحضر الطعام، ثم إذا فرغوا منه واستوفوا حوائجهم، دخل منزله.. وربما يخص بذلك الوقت كتبته فقط إلى أن يصلي العصر، وبعض الأوقات إلى أن يصلي المغرب**"[145].

وقد سمّى ابن القاضي الأيام التي كان يجتمع فيها المنصور بكُتّابه ووزرائه بـ: "**أيام الديوان [وهي]: السبت والإثنين والأربعاء**"[146]. إضافة إلى يومي: "**الأحد والخميس**"[147]. وذلك بحسب الأنشطة التي يتناولها الديوان المنصوري في كل يوم.

---

138 – المقري، نفح الطيب، ج/4، ص: 171

139 – المصدر نفسه، ج/6، ص: 7

140 – بهنسي، معجم مصطلحات الخط العربي والخطاطين، ص:63 - 64

141 – ابن النديم، الفهرست، ص 19

142 – المصدر نفسه، ص 19

143 – المصرف (ناجي زين الدين)، مصور الخط العربي، مطبوعات المجمع العلمي العراقي ببغداد، 1968م، ص. 383

144 - ابن القاضي، المنتقى المقصور، ص 604

145 - المصدر نفسه، ج/1، ص: 353

146 - المصدر نفسه، ج/1، ص: 409

147 - المصدر نفسه، ج/1، ص. 352

من خلال ما سبق، يمكن القول إن المنصور الذهبي كان يهدف من وراء تأسيسه لديوان الخطاطين المذكور، اختيار المجيدين لرسم علامته الطغرائية التي ارتضاها للمصادقة على جليل مكاتباته ومراسلاته، فضلا عن تلقين قواعد الخط والكتابة للطلبة، وفق قواعد محكمة على النحو الذي جرى عليه الأمر في المشرق، وهكذا يمكن القول إن المنصور كان يروم بالأساس، محاكاة التجربة المشرقية في تدريس الخط ورسم التوقيعات وتحرير الوثائق السلطانية، بُغية تطوير ملكة الكتابة وحذق الخط عند المغاربة، حيث أوعز إلى خطاطي ديوانه بتجويده للسموّ بصور حروفه وتراكيبه، حتى يبدو في مستوى الخطوط المشرقية التي كان المنصور معجبا بها، وقد أعطت تلك المبادرة نتائج هامة تمثلت في تزايد عدد الخطاطين الذين التحقوا على مايبدو بذلك الديوان الذي كان تحت إشراف الخطاط البارع: "**عبد العزيز بن عبد الله السكتاني**"، والذي قال عنه ابن القاضي: "**وهو المقدم لتعليم الخط بجامع الشرفاء من مراكش المحروسة، كما هي العادة بالقاهرة وغيرها من بلاد المشرق**". وقال عنه أيضا: "**وله المشيخة على الناساخين**"[148].

وبعبارة أخرى كان السكتاني هو: "**رئيس الكُتّاب**" الفعلي في الديوان المنصوري. إلى جانب إشرافه على تعليم درس "الخط" بجامع المواسين بمراكش، سيما وأنه من الخطاطين القلائل الذين كانوا يكتبون بخطوط متعددة، ولعل هذا الاهتمام المتزايد بالخط وفنونه، هو مادفع الخطاطين إلى تشكيل مشيخة - على غرار باقي العلوم الشرعية - جعلوا على رأسها عبد العزيز السكتاني المتكرر الذكر، ومقرها بجامع قصر البديع بمراكش[149].

والأكيد أن جهود أحمد المنصور الذهبي شجعت الخطاطين، وحفّزتهم على تطوير مهاراتهم، حتى نبغ نتيجة ذلك خطاطون بارعون من بينهم السلطان أحمد المنصور نفسه[150]، الذي عُرف عنه إجادة عدة أنواع من الخطوط، وتذكر المصادر أنه كان يستعمل الثلث المشرقي بوجه خاص في مراسلة العلماء المشارقة. ودليلنا في ذلك شهادة صاحب نزهة الحادي التي أكد من خلالها أن المنصور: "**تعلم الخط المشرقي، فكان يُكاتب به علماء المشرق كتابة كأحسن ما يوجد في خط المشارقة**"[151]. أما ابن القاضي فقد وصفه بعبارة وجيزة نصها مايلي: "**.. معدود في العلماء بارع الخط**"[152].

علاوة على ما ذكرناه، اخترع المنصور أشكالا من الخطوط على عدد حروف المعجم سُميت بـ"**الزمام**" أو "**الشيفرة**"، وكما يظهر من اسمها؛ فإنها قد كانت خطوط مشفّرة وملغوزة، خُصّصت لتحرير الوثائق والمراسلات السرية للدولة، حذقها جماعة من رجال دولته المقربين كأبنائه ووُلاته وقادته، وتراسلوا بها مع المنصور، ويتحدث الفشتالي عن هذا الابتكار قائلا: "**اخترع [المنصور الذهبي] لهذا العهد**

---

[148] - المنوبي، الوراقة المغربية، ص: 78

[149] - نقلا عن المنوبي، الوراقة المغربية، ص: 75 - 76

[150] - أورد المنوبي لائحة مطولة بأسماء الذين نبغوا في مجال الخط خلال تلك الفترة. انظر أسماءهم في كتابه: الوراقة المغربية، ص. 76 77

[151] - اليفرني (محمد الصغير بن الحاج)، نزهة الحادي، بأخبار ملوك القرن الحادي، علق عليه وصححه: المحقق هوداس، مطبعة بردان وشركاؤه، نشر إرنست لورو، مكتبة مدرسة اللغات الشرقية الحية، باريس، طبعة: 1888م، ص: 119

[152] - ابن القاضي، جذوة الاقتباس، ص: 115

أشكالا من الخط على عدد حروف المعجم، يكتب بها فيما لا يريد الإطلاع عليه من أسراره، ومهمات أموره وأخباره، يمزج بها الخط المتعارف، فيصير بذلك الكتاب مبهما مستغلقا، فلا يجد المطّلع عليه بابا يدخل منه إلى فتح شيء من معاني الكتاب، ولا الوصول إلى فهم سر من أسراره، حتى لو تلف الكتاب أو سقط أو ضاع أووقع في يد عدو لأمنت غوائل الإطلاع على أسراره، فكان في ذلك آية أعجز بها الورى. ثم نوّع - أيده الله - هذا الخط إلى أنواع: يخصّ ولي عهده منها بنوع يرجع إليه في فك مُعمّى كتبه، ثم إذا جهز أحدا بالعساكر أو بعثه في غرض رسالة أو قلده جانبا من أطراف ممالكه وثغوره، ناوله خطا من تلك الخطوط يفك به رسائل أمير المؤمنين، ويكتب به هو ومن عنده فيما يريد تعميته من الأخبار وخبايا الأسرار، فختم بذلك - أيده الله - على أسراره ختما لا يُفضّ بحدس، ولا يُدرك بمعنى ولا حس، ولا يُرسم حدّه بنوع ولا جنس" [153].

وفي إطار تعليقنا على هذا النص، نشير إلى أن أحمد المنصور الذهبي ربما يكون قد اقتبس بعض صور هذا الخط الملغوز من أشكال الرسوم الطغرائية السعدية، المعروفة بكثرة استداراتها والتواءاتها المتناهية، التي تمكن الخطاطون من تشبيك حروفها، وتركيب عراقاتها وأحواضها تركيبا متاهيا ومتناهيا، قد يستحيل معه فك رموزها النصية على غير المتمرس، الذي قد تُعوزه الدراية اللازمة، لمعرفة كيفية ترتيب الحروف ثم الكلمات، ثم النص الذي ينبغي إعادة بنائه لمعرفة فحواه. و على العموم؛ فقد ظل سر خطوط "الشيفرة"، والرسوم الطغرائية، محصورا على "الديوان السعدي"، الذي كان يعد مركز السيادة والقيادة، وهو أعلى هيئة في هرم السلطة السعدية.

وقد ذهب المنوني إلى أن "عبد الواحد بن مسعود بن محمد عنون الأصيلي ثم الفاسي" (ولد بعد 960هـ/1552 أو 990هـ/1581م)؛ هو من كان مسؤولا على شؤون الشيفرة، وقد جمع بين براعة الخط وأدب الكتابة، كما كان من المقربين من السلطان المنصور وأكثر المخلصين له [154]، حتى ان ابن القاضي وصفه بقوله: "..**الكاتب الأرفع.. له خط رائق ومعرفة بالزمام**" [155]. ومن جهته، رأى عبد الله العروي أن كثرة الجواسيس، هي ما فرض على المنصور الذهبي اختراع خط الشيفرة المغلق، وذلك لتفادي نقل أسراره إلى الإسبان والأتراك العثمانيين وأرباب الزوايا [156].

ويشير المنوني أيضا إلى أن خطاطا مغربيا - مجهول الإسم - عثر "**على رسالة مكتوبة بهذه الطريقة، بخط عبد الواحد عنون نفسه، ودرسها طويلا إلى أن توصل لفك رموزها، وطابق كل شكل من أشكالها على ما تُفسره الأبجدية المغربية، كما توصل إلى أنّ وضع هذه الأشكال كان على ترتيب نفس**

[153] - الفشتالي، مناهل الصفا، ص 18

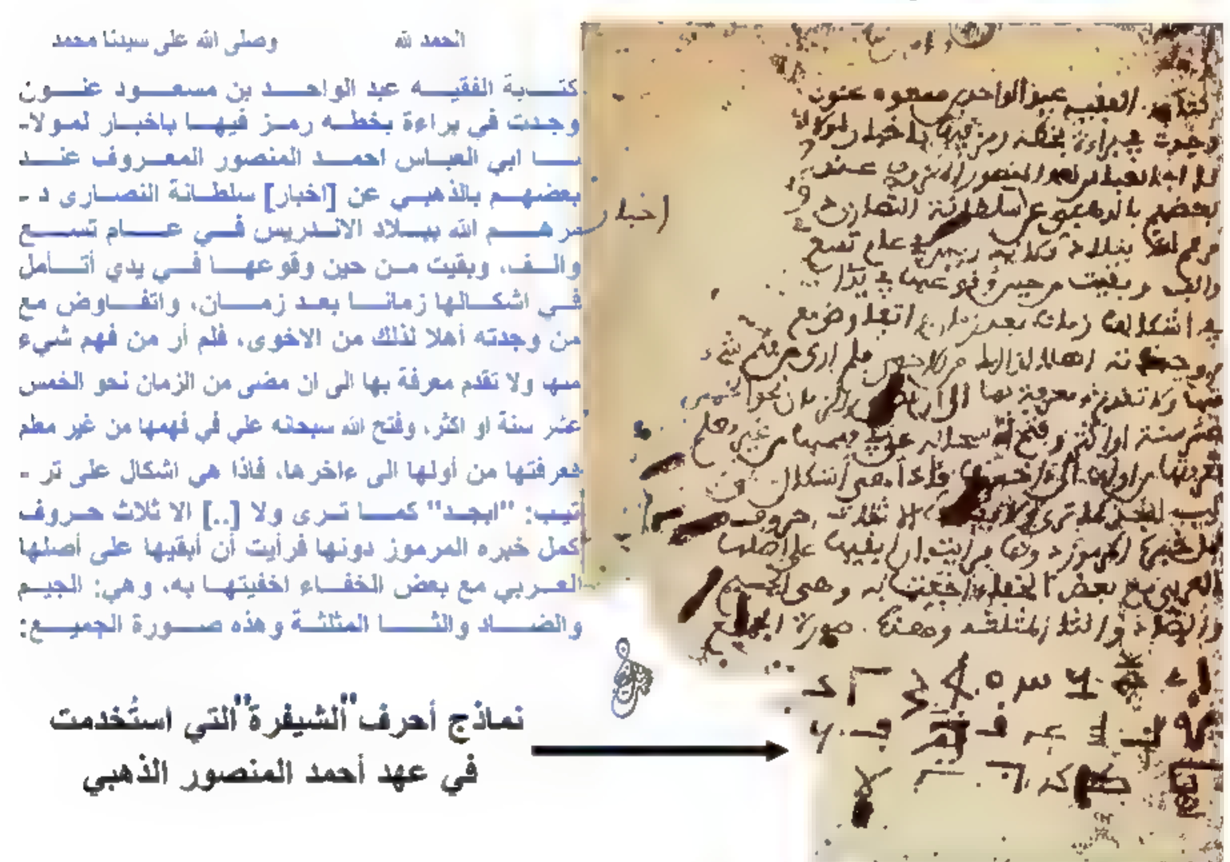
[154] المنوني، الورقة المغربية، ص 77

[155] ابن القاضي (أبو العباس أحمد بن محمد المكناسي)، درة الحجال في أسماء الرجال، تحقيق: محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث، القاهرة، المكتبة العتيقة، تونس، الطبعة الأولى: 1971م، ج/3، ص: 143.

[156] - العروي (عبد الله)، مجمل تاريخ المغرب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، 1999م، ج/3، ص: 60.

الأبجدية، ثم دَوّن هذا كله على ورقة ذيّلها برسم جميع أشكال الخط المنصوري، مع تفسير كل شكل بما يقابله من الأبجدية المغربية"[157].

وقد كشف عن هذه الورقة؛ المستشرق: جورج كولان، الذي أنجز حولها بحثا مستوفيا باللغة الفرنسية؛ شرح فيه ماهية هذا الاكتشاف، وضمّنه ترجمة النص مع تعاليق إضافية[158]. وبعد رجوعنا إلى مجلة هسبريس، وهي المجلة التي نشر فيها كولان مقاله[159]؛ وجدنا الورقة التي أشار إليها المنوني[160]؛ وهي بخط (المغربي المجهول) الذي ذكر فيها عن نفسه أنه أمضى قرابة 15 سنة لفك رموز هذا الخط، وفيما يلي نقترح تلك الورقة النادرة؛ مرفقة بنصها المفرّغ بالخط الإداري، وذلك بعدما قمنا بمعالجتها وإعادة إخراجها (انظر شكل: 45).



ورقة نادرة لخطاط مغربي مجهول؛ يعرض في اخرها بعض رسوم خط الشيفرة التي استخرجها من وثيقة سعدية بخط ابن عنون، يرجع تاريخها إلى سنة: 1009هـ/1601م، وذلك بعدما انكبّ على دراستها قرابة 15 سنة

شكل: 45

---

[157] - المنوني، الوراقة المغربية، ص:77

انظر أيضا: التازي (عبد الهادي)، الرموز السرية في المراسلات المغربية عبر التاريخ، منشورات المعهد الجامعي للبحث العلمي، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1983م، ص 38 - 39

[158] - المنوني، الوراقة المغربية، ص.77.

[159] Georges Colin. Note sur le système cryptographique du Sultan Ahmad al- Mansûr, hesperis, Tome VII. 1927 ,2ème Semestre. pp. 221- 228

[160] - Georges Colin. Note sur le système cryptographique du Sultan Ahmad al- Mansûr, p. 224.

وحتى تعم الفائدة؛ قمنا بتفريغ تلك الأحرف في ترسيمة أبجدية، عبّرنا من خلالها عن كل حرف مشفّر بالحرف الذي يناسبه بالخط الإداري، حيث اعتمدنا في ذلك على الأبجدية المغربية التي أوردها صاحب الوثيقة، وهي أبجدية تختلف قليلا في ترتيبها عن ترتيب المشارقة[161]:

أ	ب	ج	د	هـ	و	ز
ح	ط	ي	ك	ل	م	ن
ص	ع	ف	ض	ق	ر	س
ت	ث	خ	ذ	ظ	غ	ش

ترسيمة أبجدية قمنا من خلالها بتفريغ الأحرف المشفرة الواردة في الوثيقة (شكل: 45) ومقابلتها بالأحرف التي تناسبها بالخط الإداري

ومن باب المقارنة، نشير إلى أن العثمانيين – الذين فشلوا في ضم بلاد المغرب إلى حوزتهم – كان لهم خط يشبه خط الشيفرة السعدي، سمّوه: "**خط السياقت**" أو (خط السياقة)، الذي هو في الأصل: خط تركي – سلجوقي. ظهر حوالي سنة:701هـ/1301م، وهو من الخطوط العثمانية التي لم تعد ذات أهمية تذكر على المستوى الفني والجمالي، وقد كان هذا الخط يُخصّص – على غرار خط الشيفرة السعدي – للمكاتبات السرية المتعلقة بالشؤون المالية في الديوان العثماني، لذلك فقد كان صعب القراءة، لا يفك رموزه إلا المشتغلين بالإدارة المالية العثمانية، وبعض أهل الخط، إذ يمتاز باختصار حروفه وخُلوّه من الإعجام. الشيء الذي رسّخ لدى بعض الدارسين الاعتقاد بأن تسميته أُخِذت من صعوبة قراءته التي تقتضي الأخذ "بسياق" المعنى؛ فسمي: خط السياقة، وهوالأمر الذي ينطبق أيضا على خط الشيفرة السعدي الذي أخذ تسميته من وظيفته. ولأن الأتراك لا يقفون على التاء المربوطة في آخر الكلمة بالهاء، سمَّوْا خط السياقة بـ: "سياقت" بالتاء المبسوطة جريا على عادتهم في نطق أسماء الأعلام والصفات كما ذكرناه آنفا.

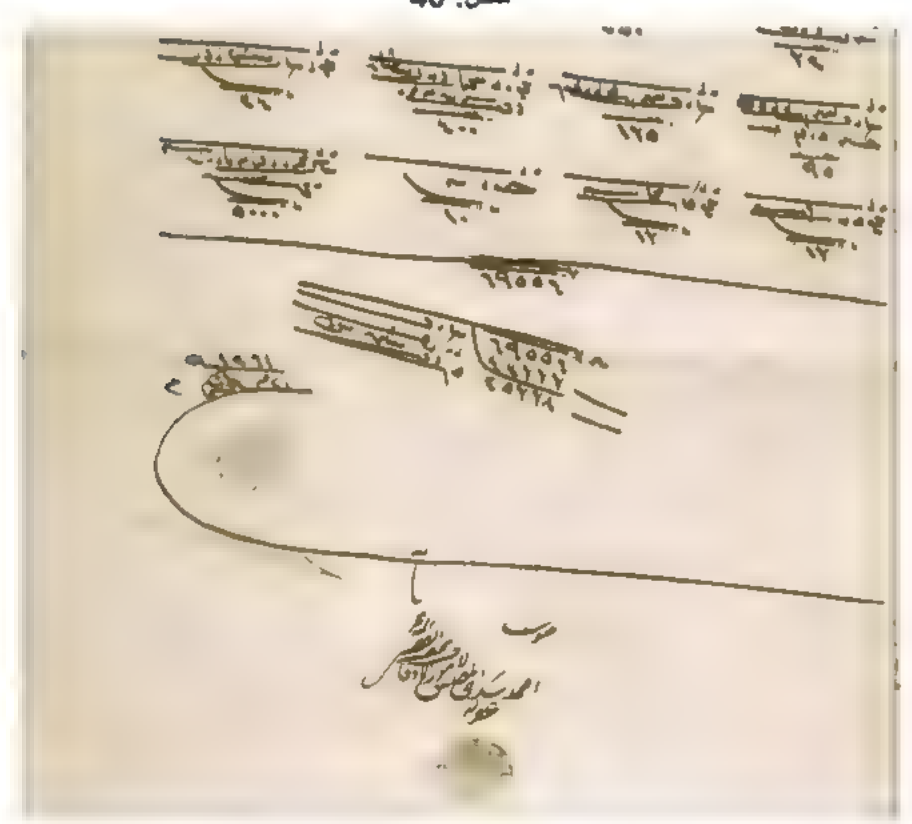
يقول محمود يازر وهو أشهر المشتغلين على هذا الخط: "**إن رسوم حروفه أشبه ما تكون بالخط الديواني، مزيجا بخط الرقعة وبخط الكوفي، وهو على نوعين: منقوط وغير منقوط**"[162]. وفيما يلي ترسيمة

[161] – ترتيب الأبجدية عند المشارقة؛ كما يلي: "أبجد، هوز، حطي، كلمن، سعفص، قرشت، ثخذ، ضظغ"، أما ترتيبها عند المغاربة فهي كالتالي "أبجد،هوز، حطي، كلمن، صعفض، قرست، ثخذ، ظغش"، وسبب هذا الاختلاف راجع بالأساس إلى أن المغاربة يروون ترتيب الأبجدية عن الأمم السابقة بخلاف ما يرويه المشارقة عنهم. انظر: عبادة (عبد الفتاح)، انتشار الخط العربي في العالم الشرقي والعالم الغربي، المطبعة الهندية بمصر، 1915م، ص. 25

[162] حنش، الخط العربي في الوثائق العثمانية، ص. 85 انظر أيضا: بهنسي، معجم مصطلحات الخط العربي والخطاطين، ص: 27 28 75

لبعض المفردات والمركبات التي استخرجها هذا الباحث، وأعاد كتابتها أحد الخطاطين البغداديين[163]. مرفقة بمقطع لوثيقة عثمانية كُتبت بهذا النوع من الخط (انظر شكل: 46).(انظر أيضا وثيقة عثمانية مكتوبة بهذا النوع من الخط في الشكل: 47).

نماذج الحروف المفردة والمركبة لخط "السياقت" المندثر، جمعها وكتبها الخطاط محمود يازر التركي.
(نقلها عبد القادر محمد - مديرية المساحة العامة ببغداد سنة: 1374هـ/1954م)
شكل: 46



مقطع من وثيقة بخط "السياقت" المندثر
المصدر: الأرشيف التركي - استانبول، رقم: EV.d 12170
شكل: 47

[163] المصرف، مصور الخط العربي، ص: 265

2 الديوان العثماني. جذوره التاريخية وظائفه الرسمية وعلاقته برسم الطغراء:

في البداية نشير إلى أن الديوان العثماني كان مقرّه بقصر "**طوب كابي سراي**" (**Topkapı Sarayı**) بإستانبول على غرار الديوان السعدي الذي كان مقرّه في: "**قصر البديع**" بمراكش، ولا شك أن التداخل بين القصر والديوان في كل من المغرب السعدي وتركيا العثمانية، يحيلنا بشكل أو بآخر على مفهوم "السلطة المركزية"، و"الدولة العميقة" في كلا البلدين، وإذا كنا قد تحدثنا عن الديوان السعدي بنوع من التفصيل من خلال رصد جذوره التاريخية و طبيعة حضوره (كمؤسسة سلطانية) في مغرب العصر الحديث، فإنه ينبغي لنا بالمقابل تسليط الضوء على الديوان العثماني وطبيعة وظائفه التاريخية والسياسية في العصر نفسه، لكن قبل ذلك، نشير إلى أن الحديث عن الديوان العثماني سابق لأوانه، لأن الإتيان على ذكره لا يتمُّ ولا يستقيم إلا من خلال الرجوع إلى التقاليد السلطانية التي كانت سائدة في المشرق قبل ذلك، والتي عُرفت منذ عصر الدولة الأموية ثم الدولة العباسية، لتأخذ طريقها بعد ذلك نحو التبلور ثم البروز بشكل كبير مع الدولة السلجوقية، التي تداخلت سيادتها مع سيادة الدولة العباسية حينما طفحت على مسرح الأحداث لتحمي أواخر خلفاء هذه الدولة، حيث تميز - في تنظيماتها الإدارية المتعلقة بالديوان - منصب خاص بالطغراء؛ ظهر بشكل بارز ثم تطور ليتركز حضوره مع الشاعر الحسين بن علي الطغرائي كما يستفاد ذلك من خلال ترجمته على لسان مؤرخ الدولة السلجوقية: عماد الدين الأصبهاني (519 - 597هـ/1125 - 1201م)، الذي يُعـدّ أول من ترجم للطغرائي في كتابه: "**تاريخ دولة آل سلجوق** ، وقد أجملنا الحديث عن الديوان السلجوقي آنفا، لكننا سنفصل في هذا المبحث ما أجملناه سابقا لتحديد أوجه التأثير السلجوقي في التقاليد السلطانية العثمانية، وعلاقة كل ذلك برسم الطغراء واستعمالها في الوثائق السلطانية.

ولأن الحديث عن الطغراء والمشرف عليها (الطغرائي) في الدواوين السلطانية يشكل المحور الرئيس في دراستنا هذه، نشير إلى أن العماد الأصبهاني قد عزا لقب: (الطغرائي)[164]. إلى: **ديوان الطغراء**"[165]، الذي أشرف عليه الشاعر المذكور إثر توليه الوزارة لدى السلاجقة في الموصل[166]، وأكّد أنه كان يجمع بين. "**منصب الطغراء والإنشاء**"[167]، رغم كونه: "**بطيء القلم كليله، ملتاث الخط عليه**"[168].

---

[164] - الأصــهاني، تاريخ دولة آل سلجوق، ص: 259

[165] - المصدر نفسه، ص 255

[166] - عن ترجمة أبي إسماعيل الحسين بن علي بن محمد بن عبد الصمد الملقب: "مؤيد الدين" الأصفهاني، المعروف بـ "الطغرائي"

انظر. - ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج/2 ص: 185. - الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج/14، ص· 335

- الزركلي (خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس الدمشقي)، الأعلام، دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة عشر، ماي 2002م، ج/2، ص 246

راجع أيضا. - حميد مها سعيد، وزير الموصل مؤيد الدين الطغرائي، صص 175 192

[167] · الأصبهاني، تاريخ دولة آل سلجوق، ص. 268

[168] المصدر نفسه، ص 255

وبذكره للشاعر الطغرائي، يكون العماد هو أول من أشار إلى "**ديوان الطغراء**"[169]، وعنه نقلت ذلك معظم المصادر التاريخية المشرقية، وبعض المصادر المغربية، حيث أجمعت على أن هذا الديوان تم تأسيسه في المشرق لرسم الطغراء منذ عصر الدولة السلجوقية، وقد أوردت تسميته بتحقيق الهمز (**ديوان الطغراء**)[170] أو بحذفه (**ديوان الطغرا**)[171]. أو بإبدال الألف الطويلة بألف مقصورة (**ديوان الطغرى**)[172].

وفصل الأصبهاني في أغلب الأحيان بين الطغراء وبين الإنشاء، حيث ميّز "**منصب الطغراء**"[173] **عن 'ديوان الإنشاء'**[174]. **وقرنه بـ:** "**ديوان الطغراء**"[175]، لكنه جعل منه أحيانا ديوانا يجمع بين الكُتّاب والخطاطين، فسمّاه: "**ديوان الطغراء والإنشاء**"[176]، وجعل المشرف عليه يجمع بين الكتابة (الإنشاء) والخط (رسم الطغراء)، وحدّد ذلك في منصب أطلق عليه: "**منصب الطغراء والإنشاء**"[177] الذي قد يرقى إلى مستوى الوزارة في بعض الأحيان، حيث يقول عنه: "و.. **منصب الطغراء .. ليس أكبر منه بعد الوزارة إلا منصب الاستيفاء، ثم الطغراء. ومن جملته ديوان الرسائل والإنشاء.. والطغرائي هو وزير السلطان في الصيد لغيبة الوزير وعليه المعوّل**"[178].

وعلى العموم، فقد استمرت بعض التقاليد السلطانية السلجوقية في المشرق لتصل ذروتها وتبلغ شأوها خلال عصر الدولة العثمانية، ويستفاد - من خلال ما أكده السفير السعدي علي بن محمد التمكروتي - أن السلطان العثماني كان يدخل عليه في مجلسه كل من "**قاضي الرميلي، وهو اسم للعدوة التي فيها اصطنبول المتصلة ببر النصارى إلى الأندلس [يقصد الجزء الأوربي من استانبول]، وقاضي ناضولة [الأناضول]، وهو اسم للعدوة الشرقية المتصلة إلى الشام وهو بر العرب [يقصد الجزء الأسيوي من المدينة]. أول من يدخل على السلطان: هذان القاضيان، ثم رئيس الكُتّاب [الرئيس أفندي أوالنِّشانجي]، ثم رئيس بيت المال [الدفتر دار]. لا يدخل غير هؤلاء، ولا يرى السلطان غيرهم. يدخل كل واحد منهم على قدره وزينته.. لا يساوي كل واحد منهم من هو أعلى منه رتبة في المشي ولا في العمامة ولا في اللباس ولا في المجلس**"[179].

---

[169] - الأصبهاني، تاريخ دولة آل سلجوق، ص: 255 - 268

[170] - ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج/3، ص: 1107

انظر أيضا: - العمري، مسالك الأبصار، ج/12، ص: 126

[171] - المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج/3، ص. 394

[172] - ابن الوردي (زين الدين عمر بن مظفر)، التاريخ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى: 1996م، ج/2، ص: 30

[173] - الأصبهاني، تاريخ دولة آل سلجوق، صفحات. 236 - 248 - 269 - 276 - 305 - 307 - 372

[174] - المصدر نفسه، ص 307

[175] - المصدر نفسه، ص 255 268

[176] - المصدر نفسه، ص 222 273

[177] - المصدر نفسه، ص 268

[178] المصدر نفسه، ص 248

[179] - التمكروتي، النفحة المسكية، ص: 99

من خلال هذا النص إذن، يتضح لنا بشكل جلي أن "**النِّشانجي**" كان يحتل في الديوان العثماني المرتبة الرابعة، بعد كل من الصدر الأعظم وأمير البحر وقاضيا الرميلي والأناضول، متقدما بذلك في هرم السلطة على الدفتر دار، وغيره من الوزراء[180].

ولتأكيد هذا الأمر، نستدل بما أشار إليه رادجة دوسون من كون "**قاعة الديوان [العثماني كانت توجد] من جهاتها الثلاث أريكة مغطاة بالجوخ المذهب، يحتل الصدر الأعظم أوسطها، ويجلس عن يمينه أمير البحر، وعن يساره القاضيا عسكر [يقصد قاضي الرميلي وقاضي الأناضول]، أما النِّشانجي فإنه يجلس على الأريكة التي إلى جهة اليمين، والتي إلى جهة اليسار يجلس عليها الدفترداريون الثلاثة، ولا يتألف المجلس إلا من هؤلاء الموظفين الثمانية.. وعندما يحضر السلطان المجلس، فإنه يقف وراء نافذة محجوبة بشعرية مذهبة كائنة فوق مقعد الصدر الأعظم، كُتبت فوقها بأحرف كبيرة آيات قرآنية تنصح باتباع الفضائل التي تؤدي إلى الحكم العادل، ويُكتب على جانبي النافذة شعار السلطان [الطغراء] بأحرف ذهبية**"[181].

وعلى غرار مدينة مراكش وديوانها السلطاني السعدي بقصر البديع (راجع أشكال: 42 - 44)، فإن الديوان السلطاني العثماني كان بقصر: "طوب كابي سراي" بإستانبول كما سبق وذكرناه آنفا، وأقدم رسم يصور لنا مدينة استانبول وديوانها السلطاني؛ رسم يرتبط بصورة بانورامية مُؤرَّخة في سنة: 1025هـ/1616م، محفوظة بالمكتبة الوطنية بالسويد، تحت رقم: **KoB DelaG 169**. وهي مرفقة بنصوص تفسيرية كُتبت باللغة اللاتينية، كما أنها تتكون من 4 لوحات للرسام الهولندي: "بيتر فان دين كير" (**Pieter van der Keere**).(انظر شكل: 48)، ويعد هذا الرسم أقدم من رسم الهولندي الآخر "**أدريان ماثام**" (**Matham Adriaen**)، الذي رسم مدينة مراكش وديوانها السلطاني بقصر البديع بما يقارب 25 سنة وبالضبط في سنة: 1050هـ/1641م (راجع شكل: 42 وقارنه بشكل: 48).

---

180 - التمكروتي، النفحة المسكية، ص: 99

نطر أيض

- دوسون، نظم الحكم والإدارة في الدولة العثمانية، ص 97

181 - دوسون، نظم الحكم والادارة في الدولة العثمانية، ص: 97



صورة بانورامية لمدينة استانبول مكونة من أربع لوحات، ترجع إلى سنة: 1025هـ/1616م، نفّذها الفنان الهولندي: بيتر فان دين كير (Pieter van der Keere)
تظهر من خلال الصورة مساجد استانبول وعلى رأسها مسجد: "سليمان القانوني"، بالإضافة إلى القصر السلطاني: "طوب كابي سراي"
المصدر: المكتبة الوطنية - السويد. رقم: KoB DelaG 169



صورة بانورامية ملتقطة من البسفور لقصر: "طوب كابي سراي" باستانبول

شكل: 48

ويتميز هذا الرسم أيضا (شكل: 48) بوجود "بورتريه" أيقوني في جهة اليمين لصورة السلطان العثماني: أحمد الأول (1012 - 1026هـ/1603 - 1617م)، وهو يبدو معتمرا عمامته السلطانية ذات: "الذؤابة" التي تميزت بها عمائم السلاطين العثمانيين:



صورة السلطان العثماني: أحمد الأول (1012 - 1026هـ/1603 - 1617م)، وهو يبدو معتمرا عمامته السلطانية ذات: "الذؤابة" التي تميزت بها عمائم السلاطين العثمانيين

وفي الجهة المقابلة من اليسار، يوجد أيضا "بورتريه" أيقوني لصورة الإمبراطور الروماني: قسطنطين، ووصف نصي يتكون من 16 سطرا بشكل منفصل في دائرة بيضوية. وهي محاطة بعدة زخارف ونقوش تعود لأواخر القرن السادس عشر ومطلع القرن السابع عشر. وهذان البورتريان الأيقونيان متطابقان في كل شيء، ولا يختلفان سوى في صورة الحاكم والنصوص المرفقة:



صورة الإمبراطور الروماني: قسطنطين، وتحته وصف نصي يتكون من 16 سطرا بشكل منفصل في دائرة بيضوية

وعموما فقد كان السلطان العثماني يُكْرم كُتَابه في ديوانه - على غرار سلاطين الدولة السعدية - وفي هذا الشأن يشير دوسون إلى أنه كان يتم في الديوان العثماني تجهيز **"ثلاث موائد صغيرة، واحدة أمام الصدر الأعظم الذي يكون معه النِشانجي والدفتردار الأول، والثانية أمام أمير البحر والدفترداريان الثاني والثالث، والثالثة أمام قاضيي العسكر..."** [182].

ونسجل من خلال قراءاتنا في بعض المصادر العثمانية، إلى أن الجهاز الحاكم كان يتألف في العصر العثماني من عدة مؤسسات ومجالس، من ضمنها مجلس: **"الديوان الهمايوني"**، وهو مجلس مُخول بأعلى السلطات في النظام البيروقراطي داخل الدولة العثمانية، أثناء تأسيسها وفي دور نهضتها، ولاشك أن هذا التنظيم قد عُرف منذ عهد سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه، الذي اشتهر بأنه أول من دوّن الدواوين في الإسلام، ليستمر تشكيلها من بعده في كافة الدول الإسلامية قصد القيام بمهام عديدة، ويُعدّ العثمانيون أهم من استخدمها على امتداد تاريخهم[183]. حيث كانت لـ: **"الديوان الهمايوني"** في عصرهم عدة وظائف من ضمنها ما كان يسمى بـ: **"أقلام الديوان الهمايوني"**، وتتفرع إلى عدة أنواع، أهمها على الإطلاق:

* **"قلم الديوان"** الذي كان يسمى أيضا بـ: **"القلم البكلكجي"**، ويذكر أحمد رسمي أفندي أنه ظهر بعد سنة: 1061هـ/1650م، ومع ذلك فهنالك وثائق تسبق هذا التاريخ؛ وردت فيها: كلمة: **"بكلكجي"**، وكان هذا القلم مخصصا لإعداد نصوص المعاهدات والفرمانات، والخطوط والرسائل الهمايونية، وفي هذا الشأن يذكر دوسون أن إعداد النُظُم، والقوانين العسكرية والمدنية، والاحتفاظ بالمعاهدات المُبرمة مع الدول الأجنبية، وإصدار كافة الأوامر والفرمانات، كان من اختصاص **"القلم الديواني - البكلكجي (بكلكجي ديوان همايون)**[184]. وكان يُشرف على هذا "القلم" أو "المنصب"؛ موظف يُعيّنه السلطان العثماني، يسمى بالإسم نفسه **(البكلكجي)**. ويسمى أيضا: **"البكجي"**[185]، الذي كان يعمل تحت إمرته 120 كاتبا"[186]، كما أنه كان مسؤولا عن الأوراق التي تُدوّن فيها الفرمانات السلطانية[187]. ويساعده في ذلك موظف آخر يسمى: **"حافظ كيس البكلكجي" (بكلكجي كيسه داري)**[188]. وكان البكلكجي أهم شخصية في الديوان الهمايوني بعد رئيس الكُتّاب[189].

---

[182] - دوسون، نظم الحكم والإدارة في الدولة العثمانية، ص: 99

[183] - الدولة العثمانية. تاريخ وحضارة، ج/1، ص: 170

وللتوسع أكثر حول وظائف. "الديوان الهمايوني" وأعضائه، راجع نفس المرجع، ج/1، صص: 170 - 204

[184] - اوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ج/2، ص: 344.

[185] - محمود عامر، المصطلحات المتداولة في الدولة العثمانية، ص 369

[186] اورتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ج/2، ص: 344

[187] محمود عامر، المصطلحات المتداولة في الدولة العثمانية، ص: 369

[188] الدولة العثمانية. تاريخ وحضارة، ج/1، ص 198

[189] صابان، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، ص: 64

وفي هذا المضمار يشير دوسون إلى أن أوامر السلطان وحتى تكتسب رسميتها؛ ينبغي أن يوقع عليها "**الصدر الأعظم**"، وهو بمثابة الوزير الأول للسلطان (**الباب العالي**)[190]. حيث يخط عليها بيده الكلمة العربية: "**صح**"[191]، وهذا أمر أكد ابن الأحمر استعماله في المغرب والأندلس منذ العصر المرابطي[192]، وقد كانت أوامر السلطان العثماني تُكتب على ورق كبير مصقول طُبعت عليه صور زهور بالذهب والفضة[193]. وهي تنقسم إلى قسمين: أوامر تخص الموظفين الموجودين في استانبول، وتقتصر على توقيع الصدر الأعظم، وتسمى: "**بيورلدو**" وهي كلمة تركية الأصل. وأوامر تُوجّه إلى الولايات العثمانية، وتُسمى: "**الفرمان**"، وهي كلمة فارسية الأصل. جمْعها: "**فرمانات**" كما أشار إلى ذلك العمري في مسالكه، حيث أوردها مرفقة مع كلمة: "**يراليغ**"[194]. أو "**يراليق**" على حد تعبير بارتولد[195].

والملاحظ أن "**الفرمان**" كان يتميز عن "**البيورلدو**" بكونه لا يكتسب رسميته إلا إذا وشّحه "**النِّشانجي**" في أعلاه "**بالطغراء السلطانية**"[196].

وكيفما كان الحال، فإن هذه التسميات كلها تقابل معنى: "**أمر**" باللغة العربية، وهو "**الأمر السلطاني الرسمي المكتوب الصادر في قضية من القضايا**"[197]، ومن باب المقارنة، نشير إلى أن هذه الكلمة استُعملت في المغرب السعدي بلفظها العربي (أمر) كما وقفنا على ذلك من خلال بعض الرسائل السعدية التي قمنا بدراستها في هذا الكتاب.

ويتميز "**الفرمان**" وهو: (المرسوم أو القرار) عن مصطلح: "**منشور**" العربي عند العثمانيين، بكون الأول كان "أمرا" يفيد "**التعيين**" في وظيفة عُليا، أما الثاني فكان يفيد "**توجيه الرتبة**"[198]. لذلك فقد كان يكتسي قوة القانون بالنظر إلى تعبيره عن أمر "**البادشاه**" (السلطان العثماني) أو"**الخاقان الأعظم**" (الإمبراطور العثماني)[199]، وأبرز دليل على ذلك؛ تسميته في الأوساط الرسمية عند العثمانيين بـ: "**فرمان همايون**"[200]. وتسميته أيضا بـ: "**خط شريف**"[201]. و "**خطي همايون**" (**الخط الهمايوني**)[202].

---

[190] - دوسون، نظم الحكم والإدارة في الدولة العثمانية، ص. 74

[191] - المرجع نفسه، ص: 73

[192] - ابن الأحمر، مستودع العلامة، ص: 21 - 22

[193] - دوسون، نظم الحكم والإدارة في الدولة العثمانية، ص: 73

[194] - العمري، مسالك الأبصار، ج/3، ص: 207

[195] - و. بارتولد، تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ص: 137

[196] - دوسون، نظم الحكم والإدارة في الدولة العثمانية، ص: 73 - 74

[197] - صابان، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، ص: 164

[198] - اوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ج/2، ص: 283

[199] - لقب من ألقاب السلطان، وهو لقب مغولي. انظر: محمود عامر، المصطلحات المتداولة في الدولة العثمانية، ص 372

[200] - اورتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ج/2، ص: 282

[201] - صابان، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، ص: 101

انظر أيضا: محمود عامر، المصطلحات المتداولة في الدولة العثمانية، ص. 373

[202] - صابان، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، ص: 101

أما فيما يتعلق بالتوقيعات التي تُمهر بها الفرمانات العثمانية، فقد كانت منوطة بموظف يسمى:

* "النّشانجي" = (التوقيعي)[203]، الذي فصّلنا سابقا في طبيعة مهامه ووظيفته، وكان هذا الموظف على معرفة جيدة بالأحكام والقوانين، وهو ما يشبه - إلى حد ما - في بعض اختصاصاته "الخبير القانوني" في عصرنا الحالي، حيث يتولى إعداد مسوّدات الرسائل والمراسيم والمناشير والفرمانات، كما يتولى وضع "طغراء" السلطان عليها[204]، إذ بدون هذه الطغراء التي هي بمثابة "**توقيع للسلطان**"، لا تكتسب الوثائق صفتها الرسمية، ولهذا السبب كانت وظيفة "**النِّشانجي**" على درجة عالية من المسؤولية والحساسية، وقد كان النِّشانجي أحد رجال "**المناصب الستة**" كما كان يُصطلح على تسميته في الديوان الهمايوني العثماني[205].

وعندما اتسعت رقعة البلاد اضطر "النّشانجية" في الديوان الهمايوني العثماني إلى الاستعانة بموظفين آخرين أُطلق على أحدهم لقب: "**المكتوب جي**"[206]. نسبة إلى مُحرري فحوى الرسائل السلطانية وهم بمثابة "**كُتّاب الإنشاء**". بينما أطلق لقب: "**الطغراكش**"[207] على الموظف الذي كان يوكّله "**النِّشانجي**" برسم الطغراء السلطانية، ولا شك أن هاتين الوظيفتين - أي: وظيفة النّشانجي ووظيفة الطغراكش - كانتا معروفتين قبل العصر العثماني؛ ذكرتهما المصادر منذ العصر السلجوقي بأسماء مُعرّبة. فقد ورد اسم: "**النِّشانجي**" عند المحبي باسم "**النِّشاني**"[208]، بينما ورد اسم: "**الطغراكش**" عند عماد الدين الأصبهاني باسم: "**الطغرائي**"[209]. ونفترض في هذا الشأن أن "الطغرائي" بحسب المسمّى العربي، قد يزيد في اختصاصاته الإدارية عن اختصاصات "الطغراكش" الذي كانت مهمته في الديوان العثماني تنحصر في وظيفة: (**نِشان همايون قلمي**). وهي مجرد وظيفة من ضمن الوظائف التي كانت ملحقة بالمجلس المسمى بأقلام الديوان الهمايوني أو (**ديوان همايون قلمي**) الذي كان يرأسه "النّشانجي" بصفته رئيسا للكتاب[210]. ولتأكيد ما قلناه؛ نستدل بلوحة لأحد أواخر (الطغراكشيين) في الديوان الهمايوني العثماني، ألا وهو: الطغراكش محمد

---

203 - صابان، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، ص. 76. وص: 224

204 - دوسون، نظم الحكم والإدارة في الدولة العثمانية، ص: 98

انظر أيضا

- صابان، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، ص. 224

205 - "المناصب الستة": إسم أطلق على ستة من رجال الدولة العثمانية وترتيبهم كما يلي: 1- نشانجي، 2 - دفتر دار، 3 - رئيس الكتاب، 4 - أمين الدفتر، 5 - دفتر دار الشق الثاني، 6 - دفتر دار الشق الثالث

انظر

- صابان، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، ص 216

206 - دوسون، نظم الحكم والإدارة في الدولة العثمانية، ص: 77

207 - الأنسي، قاموس اللغة العثمانية، ص: 361. انظر أيضا

الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، ج/1، ص 550

208 - المحبي، خلاصة الأثر، ج/3، ص: 227

209 - الأصبهاني، تاريخ دولة آل سلجوق، ص. 259

210 - دوسون، نظم الحكم والإدارة في الدولة العثمانية، ص: 73

نظيف' (1262- 1331هـ/1846 - 1913م)، الذي يُعرِف في لوحته بوظيفته من خلال عبارة: "نِشان همايون قلمي مميزي"، التي تحيلنا بدورها على رسم الطغراء السلطانية (انظر شكل: 49)



لوحة لأحد أواخر الطغرائيين في الديوان الهمايوني العثماني، الا وهو الخطاط العثماني محمد نظيف (1262 - 1331هـ/1846 - 1913م)، الذي يعرّف في لوحته بوظيفته من خلال عبارة: "نشان همايون قلمي مميزي"

المصدر: الارشيف التركي - استانبول

شكل: 49

وللإشارة، فإن النِّشانجي (أو رئيس الكُتّاب)، قد كانت له مسميات عدّة؛ اختلفت بحسب اختلاف المراحل الزمنية للدولة العثمانية، حيث عُرف بلقب: "**المهردار**"، ومعناه: "**حامل خاتم السلطان**"[211]، وعُرف أيضا بـ: "**رئيس الخط الهمايوني**" (**Hatt-i Humayun**)[212]. و"**رئيس كتبة الديوان الهمايوني**" أو(**ديوان همايون كاتبلري**)[213]. لكنه سرعان ما أضحى يُعْرفُ ويُعَرَّفُ في المراحل الأخيرة للدولة العثمانية باسم: "**الرئيس أفندي**"[214]. الذي هو في الوقت نفسه وزير الشؤون الخارجية وأمين سر الدولة[215]. وقد كان مكتبه الخاص في الديوان الهمايوني يسمى: "**آمدي قلمي**"، ويسمى أيضا: "**آمدي أوده سي**"[216]، وفي هذا الإطار، يقدّم لنا اوزتونا بعض التفاصيل التاريخية المرتبطة بصاحب هذا المنصب، الذي سُمّي إلى حدود سنة: 1060هـ/1650م بـ: "النّشانجي"، و سُمّي من سنة: 1060هـ/1650م إلى سنة: 1252هـ/1836م، بـ: "رئيس الكُتّاب" أو "الرئيس أفندي"، بينما سُمّي من سنة: 1252هـ/1836م إلى سنة: 1340هـ/1922م بـ: "ناظر الخارجية"[217]. ومعنى: "**الناظر**" في: "المصطلحات المتداولة في الدولة العثمانية" هو: "**الوزير**"[218]، وقد كان السلطان محمود الثاني (1223 - 1255هـ/1808 - 1839م) هو من غيّر اسم هذه الوظيفة التي أصبح يُطلق عليها اعتبارا من 24 ذي القعدة 1251هـ/11 مارس 1836م اسم: "**أمور خارجية ناظري**"، أي: ناظر الأمور الخارجية، ثم الاقتصار بعد ذلك على تسمية: "**خارجية ناظري**". وهي وزارة الخارجية" كما تسمّى اليوم. ويعدّ "**حاجي محمد عاكف باشا**" - حسب بعض الباحثين - هو آخر رئيس للكُتّاب"، وأول وزير أو"ناظر للخارجية" في الديوان العثماني[219].

بناء على ما سبق، يمكن القول إن تسمية ووظيفة: "رئاسة الكُتّاب" التي كان لها مدلول شامل - بالمعنى القديم - والتي كانت تجمع بين الوزارة وكتابة الإنشاء والخط والتوقيع، سيتم تجاوزها في المراحل النهائية للدولة العثمانية عن طريق تمييز الوظائف المتعلقة بالكتابة في الديوان السلطاني الهمايوني، وذلك بحسب التخصصات، حيث أُطلق على المكلف برسم الطغراء "طغراكش"؛ وآخر من عُرف بهذا اللقب؛ هو الخطاط: إسماعيل حقي ألتون بزر (1287- 1365هـ/1870 - 1946م)، بينما أُطلق على كبير الخطاطين: "رئيس الخطاطين"؛ وآخر من عرف به؛ هو الخطاط: أحمد كامل أقديك (1278- 1360هـ/1861 - 1941م).

[211] - دوسون، نظم الحكم والإدارة في الدولة العثمانية، ص: 72
[212] - مذكرات خير الدين بربروس، ترجمة: د.محمد دراج، شركة الأصالة للنشر والتوزيع، الجزائر العاصمة، الطبعة الأولى: 2010م، ص. 66
[213] اوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ج/2، ص: 342
[214] - دوسون، نظم الحكم والإدارة في الدولة العثمانية، ص: 72
[215] - صابان، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، ص: 24 انظر أيضا:
- دوسون، نظم الحكم والإدارة في الدولة العثمانية، ص 72
[216] - صابان، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، ص: 24
[217] - اورتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ج/2، ص: 343
[218] - عامر، المصطلحات المتداولة في الدولة العثمانية، ص 379
[219] - اورتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ج/2، ص: 345

وقد كان "الصدر الأعظم" في أواخر القرن 12هـ/18م وبداية القرن 13هـ/19م - وهي فترة انحطاط الدولة العثمانية - إذا أراد المثول بين يدي السلطان هو وأعضاء الديوان، أمر "الرئيس أفندي"، أن يكتب بخطه العبارة التالية: "**على أعضاء الديوان أن يتغوا سعادة وضع جباههم فوق غبار قدمي السلطان المعظم سيدهم ورئيسهم**". وبعد كتابة العبارة، يقوم "الصدر الأعظم" بختمها بـ: "الخاتم الهمايوني"، بعد أن يُقبّله ويضعه على رأسه، ثم يضعها في "منديل حريري" فيحملها "الرئيس أفندي" ويعطيها لمشير "**السراي**" (القصر) الذي يكون مع "**الشاوش باشا**" أمام مدخل القاعة، فيذهبان فيقدمانها "**للسلحدار أغا**" (صاحب السلاح) أو "**لرئيس الخصيان السود**" وهما الوحيدان اللذان يمكنهما إعطاؤها للسلطان الذي يكتب في **أعلاها موافقته لطلب الصدر الأعظم**"[220].

والجدير بالذكر، ان "**الرئيس أفندي**" كانت له غرفة خاصة في الديوان كتب عليها: "**إن العز الذي يعطيه القلم للذين يستعملونه يدوم أبد الدهر. حقا إن الله حلف بالقلم**"[221]. ولاشك أن هذه العبارة فيها ما يدل على المكانة الخاصة التي كان يتمتع بها خطّاطُو "**الديوان الهمايوني**" العثماني، بل إن إضافة كلمة: "**همايون**" إلى كلمة: "**ديوان**"، لها دلالة قوية عند العثمانيين، لأنها تحيلنا على ارتباط الطغراء بالخط الديواني سياديا ووظيفيا وجماليا، حيث خُصِصت الطغراء لتوقيع الفرمانات والوثائق العثمانية، بينما خُصِص الخط الديواني لتحريرها، ولذلك فإن تسمية هذه المؤسسة جاء مركبا (ديوان – همايوني).

وعليه، يمكن القول إن كلمة: "**همايون**" تحيلنا مباشرة على: "**طغراء البادشاه**" (طغراء السلطان العثماني)، التي كانت تسمى أيضا: "**توقيع همايون**"[222]، و"**نشان همايون**"[223]. كما أن كلمة: "**ديوان**" تحيلنا مباشرة على: "**الخط الديواني**" الذي كان يسمى أيضا بـ: "**الخط المقدس**"[224]، بل إن خير الدين بربروس يسمّيه في مذكراته باسم: "**الخط الهمايوني المبارك**"، وهي التسمية التي كان يُعرف بها منذ عهد السلطان سليم الأول (918 - 926هـ/1512 - 1520م)[225]. ومن قداسة هذا الخط الرسمي عند العثمانيين أن قام بربروس - كما يروي ذلك عن نفسه - بتقبيل رسالة محررة بخط همايوني، وصلته من السلطان العثماني وهو في تونس أثناء حملته لفتح بلدان شمال إفريقيا، حيث يذكر أنه قبّلها سبع مرات ثم وضعها على رأسه تبركا بها[226].

وفيما يتعلق بظهور الخط الديواني عند العثمانيين، تشير بعض الدراسات إلى أن هؤلاء استخرجوا من خط التعليق الفارسي" خطا خصّصوه لتحرير الوثائق في دواوينهم السلطانية، أُطلق عليه تسمية الخط

---

220 – دوسون، نظم الحكم والإدارة في الدولة العثمانية، ص: 99

221 –المرجع نفسه، ص. 102

222 – اورتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ج/2، ص: 341

223 – المرجع نفسه، ج/2، ص: 343

224 – فضائلي، أطلس الخط والخطوط، ص 394

225 – مذكرات خير الدين بربروس، ص: 68

226 المصدر نفسه، ص: 68

الديواني' منذ عهد السلطان محمد الفاتح الذي تغلب على الاق قويونلو (866هـ/1462م)، حيث أخذ كتبة الديوان من فارس إلى استانبول[227]. فتم تحسين خط التعليق في مراحل لاحقة بحركات التشكيل. إلى أن ظهر منه خطان ديوانيان: خفي (دقيق) وجلي (خشن)[228]. والجدير بالذكر أن الديواني الجلي تم استخدامه في المكاتبات العثمانية الرسمية ذات المستوى الأرفع منذ القرن 10هـ/16م، وكان يجري تعليم هذين الخطين داخل "الديوان الهمايوني"، ولا يجوز استخدامهما خارجه لتعلقهما بأسرار الدولة، وظل الأمر على ذلك، حتى بلغا دروة تحسينهما في القرن: 13هـ/19م، بل وامتد استخدامهما بصفة حصرية على'الديوان الهمايوني ، حتى أوائل القرن: 14هـ/20م[229]. إلى درجة أصبحت معها تسمية الديوان لصيقة بهما لاقتصار استعمالهما عليه، وهما عبارة عن خط واحد في الأصل كان يُطبع بطابع السرية على غرار "خط الشيفرة السعدي . ولأن الديوان العثماني كان يُعرف بإضافة كلمة: "همايوني' كما قلناه، عُرف "الخط الديواني" أيضا في الأوساط الرسمية بـ: "**الخط الهمايوني**"[230]، شأنه في ذلك شأن الطغراء التي نُعتت أيضا في الفرمانات العثمانية باسم: "**توقيع همايوني**"[231] كما سبق وأشرنا إلى ذلك. (راجع شكل: 40).

وكانت تُستعمل في الديوان الهمايوني ألقاب فخمة عديدة للسلطان عند تحرير رسائله ومناشيره، مثل: فاتح العالم، ومكافح الدنيا، وبطل عصره، وخليفة الله، وملك المسلمين، والسلطان العام ملك ملوك الأرض، والمتسلط على بلاد فارس والصين وتركستان وطبرستان وايران وطوران، فهو برهان الخواقين، وملك القياصرة، وسلطان البرّين، وخاقان البحرين، ملك الشرق والغرب، وسلطان الأقاليم السبعة، سيد العالم ومفرق العروش والتيجان، وملجأ أكبر ملوك الأرض، والمقتني لخاتم سليمان العظيم، فهو إسكندر العصر، والملك العظيم الذي يكون داريوس كحاجب له، وهو العادل والمحاط بالعز والجلال، وخادم الحرمين الشريفين مكة والمدينة، والقاضي على الكفرة والملحدين، إمام المسلمين الأكبر. وظل الله على أرضه، الخ.. إلا أنه لم يحصل قط أن اجتمعت كل هذه النعوت والألقاب في وثيقة واحدة، ففي كل مرة يُراد تدوين رسالة سلطانية، كانت ترسل هذه الألقاب لموظفي المستشارية الذين يعتنون بترتيب الألفاظ والمقاطع والقافية، لتكون منسجمة مع طبيعة النص الوارد في الوثيقة[232].

227 - الدولة العثمانية. تاريخ وحضارة، ج/2، ص: 744

228 - يشير حبيب فضائلي إلى أن الخط الديواني كان يسمى بالخط الهمايوني والخط المقدس، ويُعزى سبب تسميته بالخط المقدس إلى أنه كان خاصا بالكتابات السلطانية، والسلطان [حسب التعريف العثماني] ظل الله في الأرض. وعلى هذا فإنهم قسموا الخط الديواني إلى قسمين. ديواني خفي وديواني جلي، والديواني الخفي يُستخدم عادة مهملا من التشكيل وعاطلا عن التزيين. ونقطة هذا النوع من الديواني والرقعة واحدة، واثنتان بصورة مستطيلة، وثلاث نقاط شبيهة بالعدد ثمانية... أما الديواني الجلي فيجيء مشكولا تماما، مع نقاط مضلعة وتزيينات بنقاط دقيقة، بحيث إنهم يملؤون الخط والشكل والنقطة محل الكتابة في الطول والعرض، ولا يمكن أن يظهر جمال هذا النوع الديواني بغير هذا الترتيب، وتتطلب كتابته وقتا طويلا انظر. - فضائلي، أطلس الخط والخطوط، ص 394

229 - الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، ج/2، ص 744 - 745

230 - فضائلي، أطلس الخط والخطوط، ص 394

231 - اورتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ج/2، ص: 341

232 دوسون، نظم الحكم والإدارة في الدولة العثمانية، ص: 74

الباب الثالث

الطغراء والأختام السلطانية وطبيعة استعمالها في وثائق الدولتين السعدية والعثمانية

الفصل الأول: الطغراء والأختام السلطانية   تاريخها، أحجامها، وظيفتها، وحقيقتها في الوثائق الرسمية عند كل من السعديين والعثمانيين (دراسة تركيبية)

1 - الطغراء في المغرب. دلالاتها التاريخية وحقيقة استعمالها في الوثائق الرسمية (استقراء تاريخي - كرونولوجي معزز بشواهده المادية):

1 - 1- العصر الوسيط وتنوع أشكال الطغراء المغربية:

أ - عصر الدولة المرابطية:

أكد ابن خلدون أن العلامة والختم في كل من المشرق والمغرب كانا متداخلين   من حيث الاستخدام الوظيفي - خلال العصر الوسيط، ويُؤخذ ذلك من قوله: "**وأوّل من أطلق الختم على الكتاب، أي: العلامة؛ معاوية**"[1]. ولا شك أن هذا التداخل يستند - في المغرب على وجه الخصوص - على مرجعية تاريخية ضاربة أطنابها في القدم، فقد نصّ ابن الأحمر على أن المرابطين كانت علامتهم الرسمية: "**صحّ ذلك بحول الله**"[2].

ونحن نزيد على شهادة ابن الأحمر بشهادة أخرى ترتبط بكون المرابطين لم يقتصروا في استعمال علامتهم على الوثائق الرسمية فحسب، بل تعدّوا ذلك ليستعملوها على كافة الحوامل. ولأنه لم يصلنا شيء يُذكر من تلك الوثائق المرابطية النادرة، وجدنا أنفسنا ملزمين بالاعتماد على بعض الحوامل الصلبة في دراستنا، وذلك بسبب حملة "الإحراق" التي شنّها الموحدون على معظم الذخائر المرابطية، بسبب الاختلاف المذهبي بينهم وبين سابقيهم خلال مغرب العصر الوسيط[3].

ومن أهم الحوامل الصلبة التي استُعملت فيها أسماء بعض الأمراء المرابطين بشكل طغرائي؛ أختامٌ وقِطعٌ نقدية ضُربت في عهد علي بن يوسف (500 – 537هـ/1107 - 1143م). الشيء الذي يدفعنا إلى القول بأن أقدم طغراء سلطانية واضحة المعالم عُرفت في المغرب؛ هي طغراء علي بن يوسف، سيما وأنها تتكرر بالرسم نفسه في عدة قطع نقدية - وقفنا عليها - منسوبة لهذا الأمير المرابطي الذي لم يكتف بذلك، بل زاد عليه، بوضع طغرائه في خاتمه الشخصي الذي كان يختم به مكاتباته، تلك المكاتبات التي وإن ضاعت إلا أن خاتمها المعدني لا يزال - لحسن الحظ بقيد الوجود. وفي هذا المضمار ينبغي أن نشير - من باب المقارنة - إلى أن المرابطين سبقوا السلاجقة أو تزامنوا معهم على الأقل في رسم الطغراء القوسية على العملات النقدية، أي: وضع اسم السلطان تحت قوس مفرد أومفصص وحتى تكون هذه المقارنة مشفوعة بما يدعمها ويعززها من شواهد مادية، نستدل - على سبيل المقارنة - بقطعة سلجوقية

---

[1] - ابن خلدون، المقدمة، ص 328

[2] ابن الأحمر، مستودع العلامة، صص: 21   24

[3] - راجع تفصيل ذلك في أطروحتنا لنيل الدكتوراه: - محمد عبد الحفيظ خبطة، "المصاحف والكتب المخطوطة ."، ج/1. الفصل التمهيدي، صص 118   146

كرمانية لمحيي الدين توران شاه ابن قره أرسلان (477 - 490هـ/1085 - 1097م)، مؤرخة في سنة: 487هـ/1094م.(راجع شكل: 2 وقارنه بشكل: 50). وقد استعمل المرابطون أيضا (الكوفي المرابطي)، وخط الثلث (الأندلسي – المغربي) في عدة أنماط تركيبية، استخدمت في نقش الطغراء المرابطية بعبارات أخرى بدل اسم السلطان؛ أهمها – على الإطلاق – كلمة التوحيد: "لا إله إلا الله". (انظر شكل: 50).



خاتم شخصي لعلي بن يوسف (500 – 537هـ/1106 - 1143م)، استعمله في المكاتبات الرسمية نقشت عليه العلامة القوسية للأمير المرابطي، وفق صورة اشبه ما تكون بالقوس السلجوقي

تفصيـــــــــل:



علامة الامير المرابطي علي بن يوسف، منقوشة على خاتمه وهي تتكون من عبارة: "علي الامير" متوجة بقوس الطغراء





قطعة نقدية ضربت في عهد علي بن يوسف بن تاشفين (500 - 537هـ/1106 - 1143م)، نقشت عليها العلامة القوسية للأمير المرابطي، وفق صورة أشبه ما تكون بالقوس السلجوقي

رقم التصنيف: Lot . 721

تفصيـــــــــل:



علامة الامير المرابطي علي بن يوسف، وتتكون من عبارة: "علي الأمير" متوجة بقوس الطغراء





قطعة نقدية ضربت في عهد اسحاق بن علي بن يوسف (539 - 541هـ/1145 - 1147م) نقشت عليها علامة كلمة التوحيد: "لا إله إلا الله"

رقم التصنيف: Lot . 236

تفصيـــــــــل:



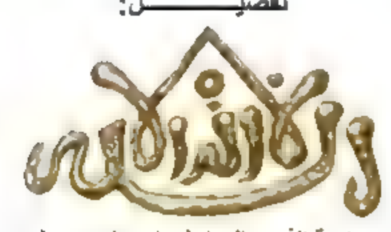
علامة الامير المرابطي إسحاق بن علي وتتكون من كلمة التوحيد: "لا إله إلا الله" التي تم تركيبها من خلال خلق التناظر بين لامي الألف



قطعة نقدية ضربت في عهد إسحاق بن علي بن يوسف (539 - 541هـ/1145 - 1147م) نقشت عليها علامة كلمة التوحيد: "لا اله الا الله"

رقم التصنيف: Lot 1605

تفصيـــــــــل:



علامة الأمير المرابطي اسحاق بن علي وتتكون من كلمة التوحيد: "لا إله إلا الله" التي تم تركيبها من خلال خلق التعانق بين لامي الألف

أقدم نماذج الطغراء المغربية من خلال بعض النقود والأختام المرابطية

شكل: 50

ب - عصر الدولة الموحدية:

يشير ابن خلدون إلى أن خلفاء الموحدين نظروا في "**وضع العلامة في المكتوبات بخط الخليفة، فاختاروا الحمد لله وحده لما وقفوا عليها بخط الإمام المهدي في بعض مخاطباته، فكانت علامتهم إلى آخر دولتهم**"[4]. ولاشك أن محمد بن تومرت مهدي الموحدين كان على علم بمغزى هذا الاستعمال، ولا شك أيضا أن اختياره للحمدلة علامةً تُستفتح بها وثائق الدولة، يرجع إلى ما درج عليه الاستعمال عند محرري الوثائق والقضاة الذين كانوا يستفتحون بالحمدلة بعد البسملة، مقابل كُتّاب الإنشاء الذين كانوا يقتصرون على البسملة، وهذا ما أشار إليه القلقشندي حيث رأى أنه "**ينبغي للكاتب أن يفرد البسملة في سطر وحدها تبجيلا لاسم الله تعالى.. وعلى هذه الطريقة جرى كُتّاب الإنشاء في مكاتبتهم وسائر ما يصدر عنهم، أما النساخ و كُتّاب الوثائق فربما كتبوا بعدها في سطرها الحمد لله أو الصلاة على رسول الله ونحو ذلك، وكذلك يكتب القضاة الحمدلة في علامات الثبوت في المكاتيب الشرعية.. لمّا كان الحمد مطلوبا في أوائل الأمور طلبا للتيمن والتبرك**"[5].

ويذكر ابن الأحمر في هذا الشأن أن علامة الموحدين نالت إعجاب الأدباء والشعراء منذ العصر الموحدي، حتى إن الشاعرة حفصة ابنة الحاج الركوني، قامت بمدحها بين يدي عبد المؤمن بن علي الكومي حيث قالت[6]:

يـــا ســـيد النـــاس يـــا مـــن	**يؤمـــــل النـــــاس رفـــــده**
امـــــنن علـــــي بصـــــك	**يكـــــون للـــــدهر عـــــده**
تخـــــط يمنـــــاك فيـــــه	**"والحمـــــد لله وحـــــده**

ويفسر المقري هذا المقطع بقوله أن ابنة الحاج الركوني "**أشارت بذلك إلى العلامة السلطانية عند الموحدين، فإنها [أي: العلامة] كانت أن يكتب السلطان بخط غليظ في رأس المنشور: الحمد لله وحده**"[7].

ومن ضمن الشعراء الذين أبدوا إعجابهم بهذه العلامة أيضا، أبو عبد الله ابن مرج الكحل الذي هنّأ محمد الناصر الموحدي بعد قدومه من إفريقية مظفرا سنة: 603هـ/1206م، حيث أنشد قائلا[8] :

ولمـــا تـــوالى الفـــتح مـــن كـــل وجهـــة	**ولـــم تبلـــغ الأوهـــام فـــي الوصـــف حـــده**
تركنـــا أميـــر المـــؤمنين لشـــكره	**بمـــا أودع الســـر الإلهـــي عنـــده**
فـــلا نعمـــة إلا تـــؤدي حقوقهـــا	**علامتـــه بـــ: "الحمـــد لله وحـــده"**

---

[4] - ابن خلدون، العبر، ج/6، ص 320

[5] القلقشندي، صبح الأعشى، ج/6، ص 215

[6] ابن الأحمر، مستودع العلامة، ص: 21 22

[7] المقري، نفح الطيب، ج/4، ص: 171

[8] ابن الأحمر، مستودع العلامة، ص: 22 23

وقد ذهب ابن الأحمر في كتابه: "مستودع العلامة" إلى أن الموحدين "**كانوا يكتبون العلامة بأيديهم، ولم يكتبها لهم سواهم، وذلك من أولهم؛ أمير المومنين عبد المومن، إلى آخرهم؛ أبي دبوس**"[9]. وأشار ابن أبي زرع إلى أن أبا يوسف يعقوب المنصور الموحدي "**هو أول من كتب الْعَلامَة بِيَدِه من الْمُوَحّدين (الْحَمد لله وَحده)، فَجرى عَملهم على ذَلِك**"[10]. لكن الناصري اختلف معه في هذا الأمر، حيث رأى أن أول من كتب العلامة بيده من خلفاء الموحدين هو أبوه: "**أبو يعقوب يوسف**"[11].

أما عن نوع المداد المستعمل في رسم العلامة، فقد أشار القللوسي (607 - 707هـ/1210 - 1307م) الذي عاش في ظل الدولة الموحدية، إلى أنها كانت تُرسم بمداد خاص يسمى: "**مداد العلامة: وهو المِدَاد الذي يكتبُ به السلاطين العَلامة. لم يَستحسن ابن أبي الخصال[12] الكَتْبَ بغَيره مِن الأمدَّة. وقال في وَصفِه: المُستحسن أن يكون أسوَدَ بَرَّاقا تغلوه حُمْرةٌ، حَسنَ البَصِيص، قَلِيلَ التَّعْقِيد، فإنَّه يُنَشِّط للكَتْبِ، ويعمل إرسال اليد ويساعد عَلَى سرعة القَلم**"[13].

ويشير عبد الواحد المراكشي (581 - 647هـ/1185 - 1250م)، إلى أن الموحدين كانوا قبل موقعة الأرك (591هـ/1194م) - التي أسفرت عن انتصار الموحدين في الأندلس على المسيحيين في عهد يعقوب المنصور - كان "**لا فرق بين أحدهم وبين الخليفة سوى نفوذ العلامة؛ فكان جملة من قتل يعقوب؛ أخويه وعمه..**"[14].

وقد رسم الموحدون علامتهم بخط ثلثي مغربي بارز، تعود جذوره إلى خط التوقيع المشرقي الذي استمد اسمه من طبيعة استعماله ووظيفته، حيث وضعوها في طرر وثائقهم ومراسلاتهم (انظر شكل: 51).

---

[9] - ابن الأحمر، مستودع العلامة، ص: 21

[10] - ابن أبي زرع (علي بن عبد الله الفاسي)، الأنيس المطرب بروض القرطاس، في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والنشر، الرباط، 1972م، ص. 217

[11] - الناصري (أبو العباس أحمد بن خالد)، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق ولدي المؤلف: جعفر الناصري و محمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1997م، ج/2، ص. 198

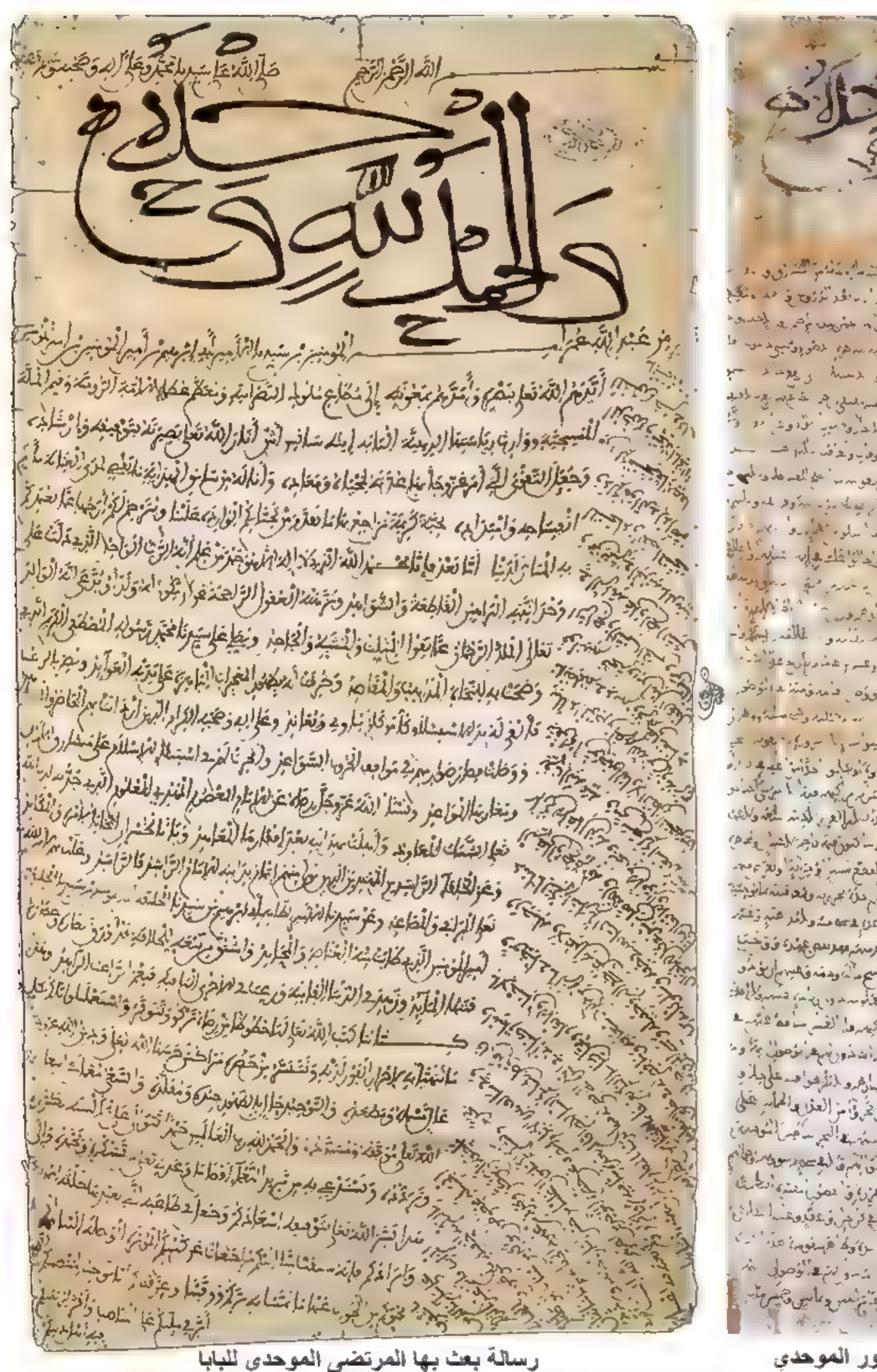
[12] يُعدّ "ابن أبي الخصال" (465 - 540هـ/1073 - 1146م) من أوائل الأندلسيين والمغاربة الذين أسسوا مدرسة لتعليم الخط في الأندلس، وهي من أشهر المدارس إلى جانب مدرسة: "ابن خير الإشبيلي" (502 - 575هـ/1108 - 1179م)، وهما المدرستان اللتان اشتهر ذكرهما في أواخر العصر المرابطي وبداية العصر الموحدي. وقد ساهم وجود مثل هذه المدارس بشكل كبير في ذيوع صيت خطاطين مُجيدين ومُجوِّدين في كل من المغرب والأندلس، ونستدل في ذلك - على سبيل المثال - بعبد الله بن محمد بن عبد الله المعروف بابن ذمام (483 - 560هـ/1090 - 1165م)، الذي كان "**يكتب بأنواع الخطوط من الريحاني، والمشرقي، إلى غير ذلك، فلا يدري من يزيد في الحسن على صاحبه**"

عن المدارس الخطية التي أُسست في المغرب والأندلس خلال العصر الوسيط وبداية العصر الحديث؛ راجع أطروحتنا

- محمد عبد الحفيظ حيطة، "المصاحف والكتب المخطوطة ..."، ج/1، ص. 107 ج/3، صفحة: 751 وصفحات: 818 - 819 - 820 - 821

[13] - القللوسي (أبو بكر محمد بن القضاعي)، تحف الخواص في طرف الخواص، في صنعة الأمدة والأصباغ والأدهان، تحقيق الدكتور حسام أحمد مختار العبادي، نشر: مكتبة الإسكندرية، طبعة: 2007م، ص: 25

[14] المراكشي، المعجب، ص. 206



والحمد لله وحده

رسالة لأبي يوسف يعقوب المنصور الموحدي
مورخة في 1رمضان582هـ/15نونبر1186م

مصدر الرسالة: الارشيف الرسمي، بيزا، ايطاليا

رسالة بعث بها المرتضى الموحدي للبابا
اينوصانت الرابع سنة: 648هـ/1250م

مصدر الرسالة: خزانة الفاتيكان، ايطاليا

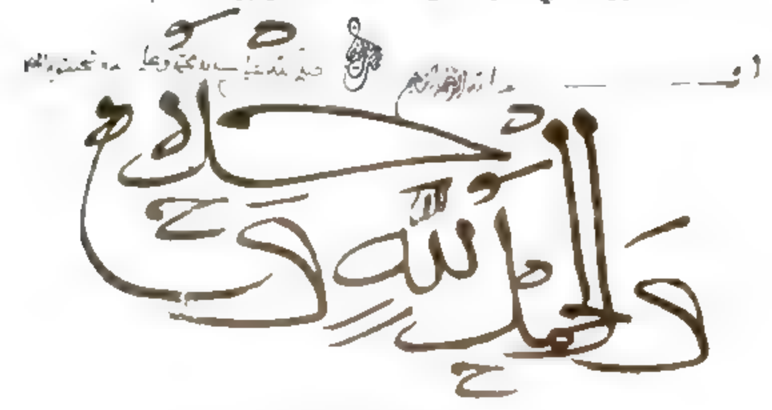
العطف التي تفيد وقوع الحمدلة بعد البسملة، فيُراد بالبسملة الافتتاح، ويُراد بالحمدلة العلامة المميزة للدولة

شكل: 51

التوقيعـــات المستخرجـــة من (شكل:51):



مستخرج من رسالة لأبي يوسف يعقوب المنصور الموحدي
مؤرخة في: 1رمضان 582هـ/15 نونبر1186م.



مستخرج من رسالة بعث بها المرتضى الموحدي
للبابا إينوصانت الرابع سنة: 648هـ/1250م.

وهناك توقيعات موحدية أخرى من غير عبارة الحمدلة، ترجع إلى عهد محمد الناصر بن المنصور الموحدي (594 - 610هـ/1198- 1213م). كان يختم بها الناصر مراسلاته الرسمية، وهي توقيعات تتضمن تاريخ المراسلة، حيث تشير إليه تلميحا أو تصريحا، وغالبا ما كُتبت بخط الثلث المغربي؛ الذي كان لا يزال في تلك الفترة متأثرا ببعض ملامح الخطوط المشرقية كخط التوقيع والخط المسلسل المتفرع عنه، حيث قد تجد ملامحه في المغرب ترتبط بعدة خطوط مشرقية وليس بملامح الثلث المشرقي فحسب كما نلاحظه من خلال الشكل التالي:



والجدير بالذكر أننا استخرجنا هذا التوقيع من رسالة موحدية حُرِّر نصها بخط أقرب إلى "خط الرقاع" الذي كان سائدا بالمشرق في تحرير المراسلات السلطانية في تلك المرحلة، والغريب أن نجد هذا الخط مستعملا أيضا في تحرير المكاتبات الرسمية بالدواوين السلطانية الموحدية كما تشهد على ذلك عدة مراسلات موحدية أدرجنا بعضها في (الشكل: 52).



رسالة ارسلها الأمير الموحدي: ابو زيد عبد الرحمن الى حكام: "بيشة" بتاريخ: 30ذو القعدة 596هـ/11سبتمبر 1200م

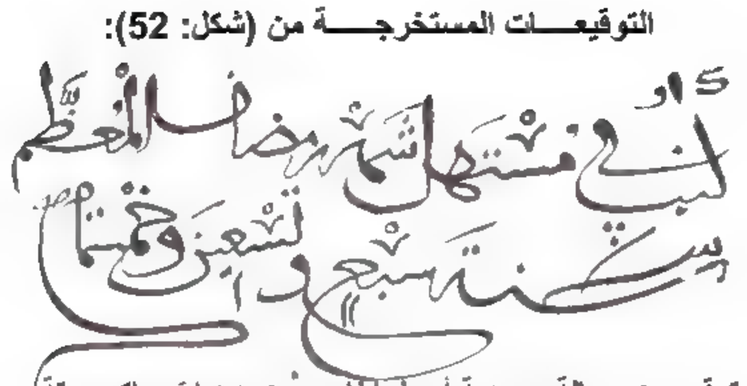
رسالة ارسلها ناصح بن عبد الله حاكم سبتة، نيابة عن محمد الناصر الموحدي الى القناصلة: "بيشة"، بتاريخ: 9جمادى الأولى 597هـ/15فبراير 1201م

رسالة ارسلها محمد الناصر الموحدي الى جمهورية: "بيزة" بتاريخ: 26رجب598هـ/21ابريل1202م

رسائل موحدية حُرِّرت نصوصها بخط أقرب إلى "خط الرقاع" الذي كان سائدا بالمشرق في تحرير المراسلات السلطانية، ورسمت توقيعاتها بخط الثلث المغربي الذي كان لا يزال في تلك الفترة متأثرا ببعض ملامح الخطوط المشرقية كخط التوقيع والخط المسلسل المتفرع عنه.

شكل: 52

التوقيعـــات المستخرجـــة من (شكل: 52):



توقيع من رسالة موحدية أرسلها ناصح بن عبد الله حاكم سبتة نيابة عن الناصر إلى:"بيشة"، بتاريخ: 9جمادى الاولى 597هـ/15فبراير1201م



توقيع من رسالة موحدية أرسلها محمد الناصر الموحدي إلى جمهورية: "بيزة"، بتاريخ: 26رجب598هـ/21أبريل1202م

وارتباطا بالشكل: 52، نشير إلى أن التوقيعات التي خُتمت بها الرسائل الموحدية الممثلة فيه، هي بقلم التوقيع المشرقي، بدليل أن التصرفات الجمالية التي استُخدمت في كتابتها، هي تصرفات جمالية كانت سائدة في المشرق خلال المرحلة نفسها تقريبا، ونستدل في ذلك - على سبيل المثال - بإدغام حرف: "في" في كلمة: "كتب"، فضلا عن عقد الحروف بشكل ثعباني الذي كان سائدا في التوقيع المشرقي، كما يلاحظ ذلك من خلال كتاب جامع محاسن كتابة الكتاب الذي كتب خطوطه في القرن العاشر الهجري محمد بن حسن الطيبي على طريقة ابن البواب. ولإبراز هذا التشابه؛ نسوق أنموذجا مماثلا لهذه الكتابة من خط الطيبي، استخرجناه من كتابه، والذي يؤكد نظرية تناسل الخطوط العربية فيما بينها واشتقاق بعضها من بعض، حيث لا يخفى على متذوقي الجمال أن إيقاع هذا الخط حاضر - أيضا - بشكل كبير في إيقاع الخط الديواني الجلي الحديث:



التوقيع - المسلسل. مستخرج من كتاب جامع محاسن كتابة الكتاب، وهو أقدم أنموذج للمسلسل بخط الطيبي على طريقة ابن البواب. مقطعين من صفحة: 58

ولا شك أن هذا الأمر يدعونا إلى إعادة النظر في تسمية: "**الثلث المغربي**" الذي نعته سكيرج بـ:"**الخط المشرقي**"[15] وسمّاه المنوني تارة: "**الخط المشرقي**"، وتارة: "**الخط المشرقي المتمغرب**"[16]. وسمّاه قبلهما الفريد بيل بنعوت أخرى[17]. وعزا بعض الباحثين تسميتهم له بخط "**الثلث المغربي**" لاعتبارين اثنين، **أولهما**: إن لفظة: "المشرقي" توحي إلى أن هذا الخط هو الوحيد الذي وفد من المشرق، بينما أصل كل الخطوط العربية المغربية هو المشرق الإسلامي، ولهذا ليس هناك سببا لتخصيصه بهذا النعت دون غيره من الخطوط. **ثانيهما**: إن تسميته بالثلث المغربي يدل على أنه يتميز عن الثلث المشرقي[18].

وحسب تقديري الخاص، فإن ما يسمى الآن بخط الثلث المغربي كان يشابه خط الثلث المشرقي المزامن له آنئذ، لكن الفرق بينهما، هو أن خط الثلث المشرقي قد تطور إلى أن وصل إلى ما وصل إليه من الإجادة والتجويد خلال عصر الدولة العثمانية، بسبب طول أمد هذه الدولة وشساعة رقعتها الجغرافية التي أهّلتها للاستفادة من تجارب سائر الحضارات المنضوية تحت لوائها، أما خط الثلث في المغرب فلم يتطور بالوتيرة نفسها، وذلك بسبب قِصر أعمار الدول التي تعاقبت على حكم بلاد المغرب من جهة، وانغلاق المغرب على نفسه - إلى حد ما - بعد سقوط الأندلس، مقابل دخول سائر الأقطار الإسلامية تحت طاعة العثمانيين من جهة أخرى. إضافة إلى ذلك يُعدّ الثلث المغربي؛ من الخطوط التي تأثرت بملامح كثير من الخطوط المشرقية، حيث يجمع بين سمات خط الثلث المشرقي وخط التوقيع والخط المسلسل المتفرع عنهما، وباقي الخطوط المشرقية التي اندمجت في بعضها لتنسجم وتتلاءم مع المؤثرات الإقليمية المغربية، وبالتالي الانصهار في بوثقة واحدة وفق نمط جعل من خط الثلث يكتسي صبغة مغربية، دون الانفصال عن أصله الذي يَمتد ويُستمد من المشرق.

ولا شك أيضا أن هذا النوع من التواقيع، الذي يحمل في مدلوله ما يفيد تأريخ الرسائل السلطانية في المغرب، وإثبات صحتها ونفوذ أوامرها، هو الذي سيتخذه المرينيون رمزا يفتتحون ويختتمون به رسائلهم الرسمية، حيث وظفوا في رسمه خط الثلث المغربي على غرار الموحدين.

---

[15] - سكيرج (عبد الكريم)، الخط العربي المغربي، مجلة الثقافة المغربية، العدد الثاني، شتنبر 1941م، صص: 67 - 72، نقلا عن المنوني، الوراقة المغربية، ص 322

[16] - المنوني، الوراقة المغربية، ص:15و47

[17] - عوني (موسى الحاج)، فن المنقوشات الكتابية في الغرب الإسلامي، مؤسسة الملك عبد العزيز، الدار البيضاء، منشورات عكاظ 2010م،ص 537

[18] - المرجع نفسه، ص. 537

عن الثلث المغربي، انظر

- أفا (عمر) و المغراوي (محمد)، "الخط المغربي، تاريخ وواقع"، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2007م، ص 58 59

انظر ذلك أيضا بتفصيل في أطروحتنا

محمد عبد الحفيظ خبطة، "المصاحف والكتب المخطوطة.."، ج/3، ص 812 813

ح - عصر الدولة المرينية:

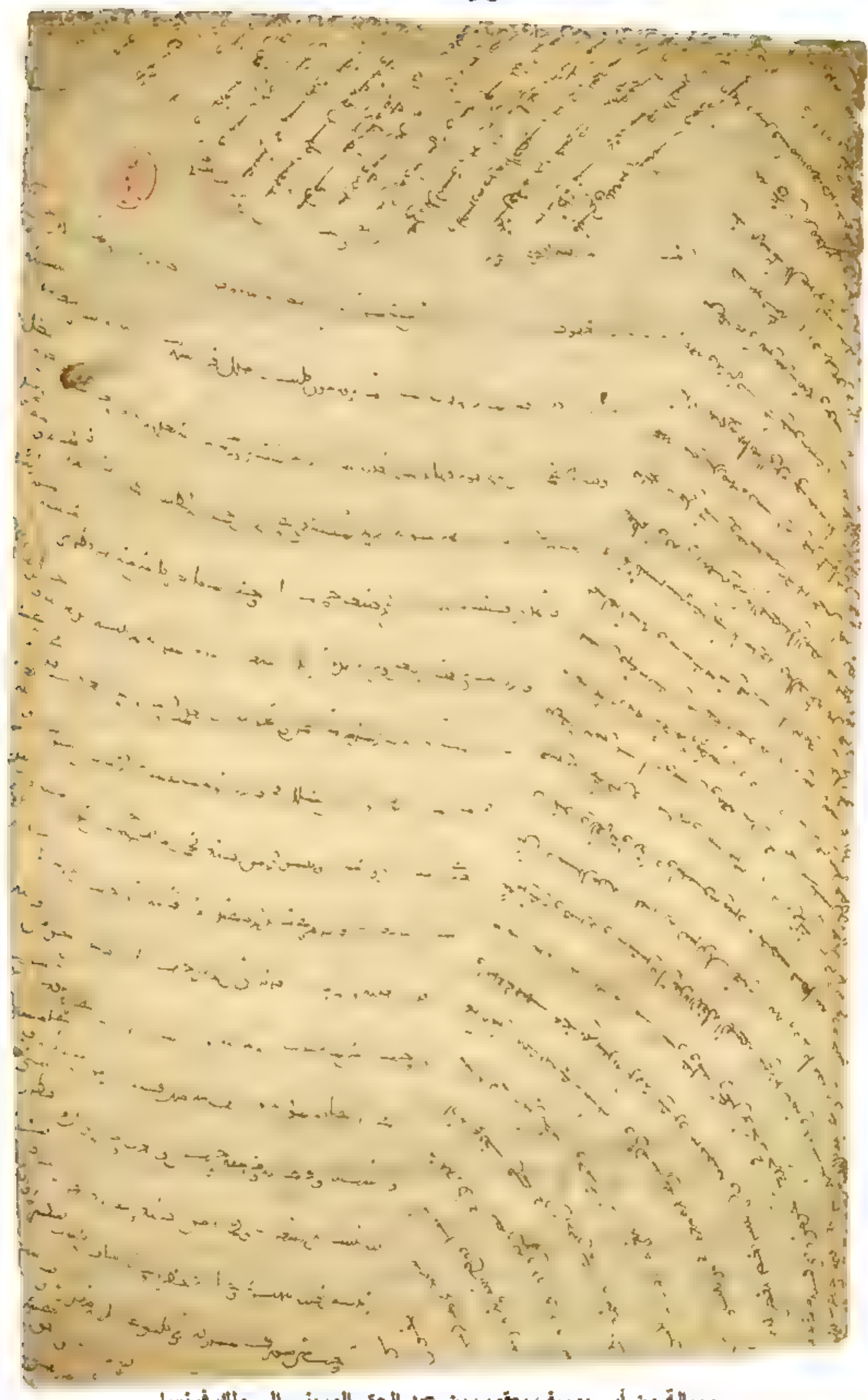
عبّر المرينيون عن "التأريخ" في رسائلهم السلطانية بعدة عبارات تحمل المدلول نفسه، وأهمها، عبارة: "**وكتب في التاريخ**"، أو"**وكتب في التاريخ المؤرخ به**"، أو"**وكتب في التاريخ المؤرخ أعلاه** . وغيرها من العبارات.. وقد عثرنا على رسائل مرينية، يظهر في طرتها؛ العلامة التي اتخذها السلاطين المرينيون لتوقيع رسائلهم الرسمية، ألا وهي عبارة: "**وكتب في التاريخ المؤرخ به**"، كما ورد ذلك في ظهر رسالة بعثها أول أمراء بني مرين: أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني (647 685هـ/1249 1286م) إلى ملك فرنسا "دون فليب" بتاريخ: 20 رجب681هـ/24 أكتوبر1282م. (انظر شكل: 53).

خلـــف الوثيقـــة:

التوقيــــع المستخـــرج:



الوثيقـــــــة:



رسالة من أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني إلى ملك فرنسا "دون فليب" في: 20 رجب681هـ/24 أكتوبر1282

مصدر الوثيقة: متحف الأرشيفات الوطنية - باريس، رقم: 03640

شكل: 53

وقد ذهب ابن الأحمر في كتابه: "**مستودع العلامة ومستبدع العلامة**"، إلى أن العلامات المرينية - التي استفاض في وَصْفِها وتَوْصِيفِها حتى حدود سنة: 800هـ/1398م[19] - كانت موحدة في أشكالها ورسومها، لكنه اعترف مع ذلك باختلافاتها الطفيفة في بعض الجزئيات المتعلقة بالمنطوق اللفظي. يقول ابن الأحمر: "**فإذا رأيت الصك المريني وعلامته: (وكتب في التاريخ المؤرخ به). فهي بخط يد السلطان، وإذا كانت: (وكتب في التاريخ)، فهي بخط يد صاحب العلامة**"[20].

وأشار المقري إلى أن كلمة: "كتب" قد تُعوض بكلمة: "صح"، إذْ كان لهما مدلول واحد، ألا وهو نفوذ المرسوم الصادر عن الديوان السلطاني المريني. يقول المقري في هذا المعنى: "**(وكتب في التاريخ) هو العلامة السلطانية في ذلك الزمان [يقصد العصر المريني]، يكتب بقلم غليظ، وبعض ملوك المغرب يكتب عند العلامة: (صح في التاريخ)**"[21].

ويُؤخذ من مسالك الأبصار أن المرينيين لم يقتصروا على كتابة العبارة المذكورة في أعلى مراسيمهم فحسب، بل أضافوا إليها "**اسم السلطان المريني ونسبه**" الذي كان يتكلف بكتابته **صاحب العلامة** بعد البسملة والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم[22].

ومن خلال الرسائل المرينية المقترحة في (الأشكال: 53 - 54 - 56 - 57)، يتضح لنا بجلاء أن المرينيين قد ركّبوا العبارة المذكورة في تراكيب بديعة، وحتى نقف على مكامن ذلك الجمال، سنقوم باستخراج بعض نماذجها الواردة في الرسائل المرينية المذكورة، والتي اجتهد في كتابتها الأمراء المرينيون، وخاصة أبو عنان فارس (749 - 759هـ/1348- 1358م) الذي وصفه ابن القاضي بأنه كان: "**حسن التوقيع**"[23]، حيث أمعن في تجويد التوقيعات المرينية تجويدا فنيا كبيرا على مستوى التركيب والتأليف، كما يشهد على ذلك الشكل التالي، الذي قمنا باستخراجه من إحدى رسائله المؤرخة في سنة: 751هـ/1350م:



وكتـــب فـــي التـــاريخ المـــورخ أعـــلاه

---

[19] - المنوني (محمد)، ورقات عن حضارة المرينيين، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الثانية 1996م، ص 84

[20] - ابن الأحمر، مستودع العلامة، ص: 21

[21] - المقري، نفح الطيب، ج/6، ص: 7

[22] - نقلا عن: المنوني، ورقات عن حضارة المرينيين، ص. 85

[23] - ابن القاضي، جذوة الاقتباس، ص: 508

وقد كتب المرينيون هذه العبارة في أغلب الأحيان - كما تشهد على ذلك الوثائق التي أوردناها - بوضع مائل إلى جهة اليمين، و تظهر الهاء في آخر العبارة على شكل هاء جامعة هكذا:



وهو تعبير خطي مختزل يرمز إلى كلمة: "انتهى". حيث تؤطر العبارة تماما بعراقتها المتجهة بشكل مقوس نحو اليمين كما هو الشأن بالنسبة للحمدلة الموحدية التي سبق وأن تطرقنا إليها، وقد استُعملت هذه الهاء الجامعة كعنصر فني أساسي في الطغراء السعدية كما سنلاحظ ذلك.

وقد تُحذف من العبارة كلمتا: المؤرخ أعلاه، ولا يُحتفظ إلا بالهاء الجامعة كبديل عنهما في بعض الأحيان. كما نلاحظه من خلال رسالة لأبي يعقوب يوسف المريني (685 - 706هـ/1286 - 1307م) إلى جاك الثاني ملك أراغونة، في 15 شعبان 703هـ/24 مارس1304م[24]:



وكتـــــب فـــي التــــاريخ

وفيما يلي؛ مجموعة من توقيعات السلاطين المرينيين بالعبارة المذكورة نفسها، التي تأتلف فيما بينها إجمالا، ولا تختلف إلا في بعض الجزئيات الفنية (انظر شكل: 55)، وقد قمنا باستخراج بعضها من الوثائق المرينية الممثلة في (الأشكال: 53 - 54 - 56 - 57)[25].

والملاحظ أن العلامة كانت تنوب عن الختم في المغرب الوسيطي، وقد وقفنا على التداخل بين هذين العنصرين الفنيين والسياديين خلال العصر المريني بشكل كبير، ونسجل ذلك - على سبيل المثال لا الحصر - من خلال الوثائق الممثلة في (الشكلين. 53 و 54)، فضلا عن وثيقتين مترجمتين بالحرف اللاتيني، إحداهما لأبي الحسن المريني (انظر شكل: 56)، والثانية لابنه أبي عنان (انظر شكل: 57).

---

[24] انظر فحواها عند: التازي، التاريخ الدبلوماسي للمغرب، المجلد السابع، ص: 125.

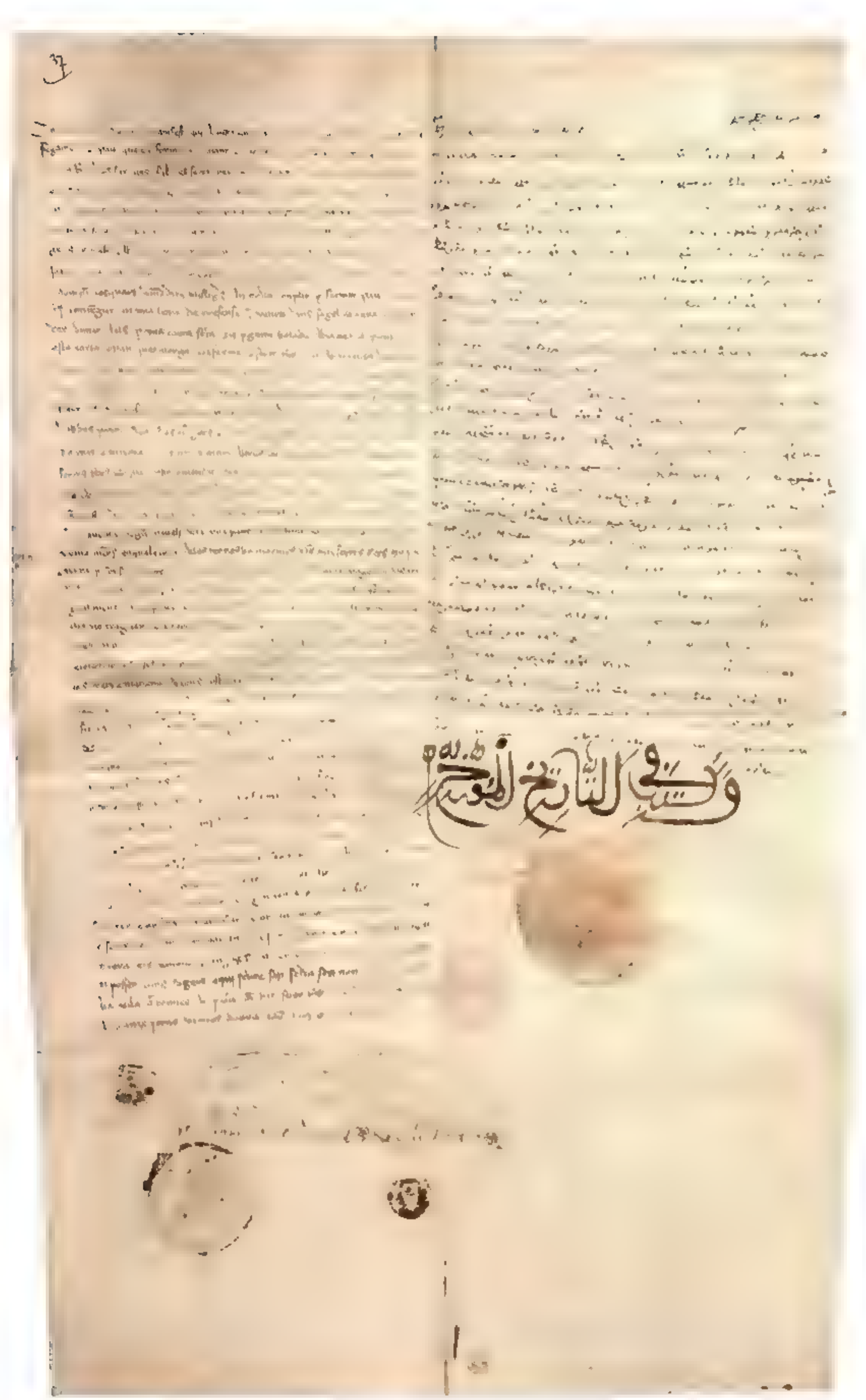
[25] انظر فحواها في المرجع نفسه، المجلد السابع، ص: 21 125 133 137



رسائل مرينية منتخبة تظهر في طرتها العلامة التي اتخذها المرينيون (وكتب في التاريخ).
ولا تختلف تلك العلامات فيما بينها سوى في بعض الجزئيات المتعلقة بالمنطوق اللفظي
شكل: 54



مجموعة من توقيعات السلاطين المرينيين؛ تتألف من عبارة: (وكتب في التاريخ)، وهي تأتلف فيما بينها إجمالا، ولا تختلف إلا في بعض الجزئيات الفنية. قمنا باستخراج بعضها من الوثائق المرينية الممثلة في (الأشكال: 53 - 54 - 56 - 57)
شكل: 55



اتفاقية لأبي الحسن المريني في: 5 شوال 739هـ/16أبريل1339م

المصدر : المكتبة الوطنية - باريس- (محفظة ميورقة)

شكل: 56



اتفاقية بين أبي عنان فارس وجمهورية بيزة بالنص العربي وترجمتها باللغة الإيطالية، مؤرخة في: 28 ربيع الثاني 759هـ/9أبريل1358م. يظهر عليها توقيعه بخط يده: "وكتب في التاريخ المؤرخ أعلاه"

مصدر الرسالة: الأرشيف الرسمي- بيزا- إيطاليا

شكل: 57

ومن خلال استقرائنا لبعض النصوص الواردة في الرسائل المرينية السابقة، وخاصة الرسالتين الممثلتين في (الشكل: 56 والشكل: 57)، يتضح لنا أن الطابع (الخاتم) والعلامة (الطغراء) يعبران عن شيء واحد، ألا وهو: "التوقيع" الذي يمضيه السلطان بخط يده، أو يعهد به لكاتبه ليمضيه بالنيابة عنه، وقد ورد في الرسالتين المذكورتين أن العلامة تكون بخط السلطان كما نلاحظه من خلال العبارتين التاليتين:

كتب مولانا السلطان ابو الحسن علامته المعلومة وأمر بطابعه المعروف

مقطع مستخرج من رسالة من أبي الحسن المريني في: 5 شوال 739هـ/15أبريل1339م

ختمنا عليه بخاتمنا المعهود عنا، وكتبنا عليه علامتنا التي هي بخط يدنا

مقطع مستخرج من اتفاقية بين أبي عنان فارس وجمهورية بيزة، بتاريخ: 28 ربيع الثاني 759هـ/9أبريل1358م.

من خلال هذين المقطعين إذن، يُستنتج أن التوقيع أو التصحيح - وفي بعض الأحيان - العلامات تُرسم بخط السلطان، وذلك لإضفاء طابع الرسمية على الرسالة أو الكتاب منذ العصر المريني حسب ما أكده ابن خلدون[26] وكذا ابن الأحمر الذي ذهب إلى أن "**العلامة.. هي شارة في الكتب [السلطانية] كالشهادة الشرعية في العقود**"[27]. بل وتأكد لدينا من خلال الرسائل المرينية التي اطلعنا على بعضها أن الخاتم لم يكن مستعملا في العصر المريني، أما تسمية الخاتم فكانت تُطلق مجازا على العلامة السلطانية التي يرسمها السلطان المريني بيمينه لتصحيح الوثيقة، وكانت تمثلها عبارة: "**وكتب في التاريخ** أو"**صح في التاريخ**"[28]. التي استعاض بها المرينيون عن "الحمدلة الموحدية".

د - دولة الحفصيين:

إذا كان المرينيون قد تخلوا عن عبارة: "**الحمدلة**" في معظم توقيعاتهم واقتصروا على عبارات: "**التأريخ والتصحيح**"، فإن الحفصيين المزامنين لهم - وهم فرع من الموحدين - قد زاوجوا بينهما في مكاتباتهم وتوقيعاتهم الرسمية بتونس، ودليلنا في ذلك. ما رواه العمري نقلا عن ابن سعيد من كون هؤلاء قد استخدموا في دواوينهم السلطانية موظَّفيْنِ اثنين لرسم "علامتهم"؛ أولهما كان يسمى "**صاحب العلامة الصغرى**"، وهي العلامة التي تُمضى باسم وزير الجند، وتفيد التأريخ والتصحيح، والثاني كان يسمى: "**صاحب العلامة الكبرى**"، وهي العلامة التي كانت تتألف من عبارة: "**الحمد لله والشّكر لله**"، وكان يُدعى

---

[26] - ابن خلدون، المقدمة، ص 328

[27] - ابن الأحمر، مستودع العلامة، ص: 20

[28] - المقري، نفح الطيب، ج/6، ص: 7

كاتبها - تمييزا له عن غيره من موظفي الديوان - بـ: "**كاتب السرّ**"[29]. ولا شك أن المقصود بـ: "**العلامة الكبرى**": الطغراء السلطانية، بدليل أن الذهبي (673 - 748هـ/1275 - 1347م) في كتابه: "تاريخ الإسلام"، وتاج الدين السبكي (727 -771هـ/1327- 1370م) في كتابه: "طبقات الشافعية" - وهما مشرقيان - قد أكّدا أن الطغراء هي كتابة السر، ويُستفاد ذلك من قولهما: "**الطّغراء، يعني: كتابة السّر**"[30]

ولا شك أن عبارة: "**الحمد لله والشُّكر لله**" التي اتخذها الحفصيون، هي مجرد تحوير لعبارة: "**الحمد لله وحده**"، التي كان يستعملها الموحدون توقيعا لهم وعلامة اتخذوها في مراسلاتهم ووثائقهم الرسمية، متأثرين في ذلك "**بمهديهم**" محمد بن تومرت، حيث كانت هي العلامة الرسمية في مجموع بلدان شمال إفريقيا الخاضعة للموحدين إبّان تلك المرحلة كما يشير إلى ذلك ابن خلدون[31]، لكن وبعد تغلب الحفصيين على تونس، آثر هؤلاء ولتأكيد ذلك التغلب، تعديل العلامة الموحدية، بعدما أضافوا إليها عبارة: (**والشكر لله**).

والملاحظ أن الحفصيين كانوا يسعون للإشارة - من وراء هذا التصرف - إلى استقلال بلادهم عن التبعية لأي كيان سياسي، حيث نجحوا في تحقيق هذا المطلب من خلال ثورة ابن تافراكين[32]، وقد كان ابن خلدون أحد كُتّاب هذه العلامة كما يروي ذلك عن نفسه، حيث يقول: "**واستدعاني أبو محمد بن تافراكين، المستبد على الدولة يومئذ بتونس، إلى كتابة العلامة عن سلطانه أبي إسحق.. فكتبت العلامة للسلطان، وهي وضع: الحمد لله والشُّكر لله، بالقلم الغليظ، مما بين البسملة وما بعدها، من مخاطبة أومرسوم**"[33].

ويشير ابن الخطيب في الإحاطة إلى أن ابن خلدون لم يُقَدَّم لرسم العلامة الحفصية إلا بالنيابة نظرا لحداثة سنه. يقول ابن الخطيب: "**تعلّق [ابن خلدون] بالخدمة السلطانية على الحداثة وإقامته لرسم العلامة بحكم الاستنابة عام ثلاثة وخمسين وسبعمائة [753هـ/1352م]**".[34] وهو أمر أكده ابن خلدون بنفسه، حيث اعترف أن رسم العلامة الحفصية كان لغيره، وسبب إنابته في رسمها، هو مطالبة ابن تافراكين من قِبل "**صاحب العلامة**" الحفصية آنذاك وهو: **أبو عبد الله بن عمر** بالزيادة في راتبه. يقول ابن خلدون معلقا على

---

[29] - العمري، مسالك الأبصار، ج/4، ص. 154 - 155

[30] - الذهبي، تاريخ الإسلام، ج/32، ص: 18

- السبكي (تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين)، طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق: د. محمود محمد الطناحي - د. عبد الفتاح محمد الحلو، هجر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية 1992م، ج/4، ص. 326

[31] - ابن خلدون، العبر، ج/6، ص: 320

[32] - المصدر نفسه، ج/7، ص. 516

انظر أيضا ابن خلدون، التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا، ص· 45

[33] ابن خلدون، التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا، ص· 65

انظر أيضا كتاب العبر لابن خلدون، ج/7، ص· 532

[34] ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج/3، ص 378

ذلك: "وتعلل عليه صاحب العلامة أبو عبد الله بن عمر بالاستزادة من العطاء، فعزله، وأدالني منه، فكتبت العلامة عن السلطان"[35].

ورغم أن تونس حققت استقلالا نسبيا في العصر الحفصي، إلا أن سيادتهم هذه، لم تستمر سوى ردْح من الزمن، حتى صارت بلادهم (تونس) ولاية عثمانية، تُحرّر وثائقها وتُمهر في مراحل لاحقة بأختام السلاطين العثمانيين وطغراواتهم.

والجدير بالذكر، أن المغرب هو وحده من دول الغرب الإسلامي الذي حافظ على هذه الخصوصية في العصر السعدي، بخلاف الجزائر وتونس، التي بدأ التأثير المشرقي يهُبّ عليها برياحه، حتى قبل أن تصيرا ولايتين عثمانيتين، وفي هذا الشأن نستشهد بما أورده ابن خلدون عن الأمير الحفصي أبو زكرياء، الذي استقدم ابن الأبار من الأندلس **"ورشّحه لكتْب علامته في صدور رسائله ومكتوباته، فكتبها مدّة. ثم إن السلطان أراد صرفها لأبي العبّاس الغسّاني لما كان يحسن كتابتها بالخط المشرقي، وكان آثَرَ عنده من الخطّ المغربي، فسخط ابن الأبار أنفة من إيثار غيره عليه، وافتأت على السلطان في وضعها في كتاب أمر بإنشائه لقصور الترسيل يومئذ في الحضرة عليه، وأن يبقى مكان العلامة منه لواضعها، فجاهر بالردّ ووضعها استبدادا وأنفة، وعوتب على ذلك فاستشاط غضبا ورمى بالقلم وأنشد متمثّلا"**[36]:

واطلـــب العـــزّ فـــي لظـــى وذر الـــذل ولـــو كـــان فـــي جنـــان الخلـــود

فمن خلال هذا النص يتضح لنا أن السلطان الحفصي كان يميل إلى الخط المشرقي بشكل كبير، إلى درجة أمر معها برسم علامته بهذا الخط عوض الخط المغربي، الشيء الذي تسبب في النفرة بينه وبين ابن الأبار الذي أبى إلا أن يكتب العلامة الحفصية (الحمد لله والشكر لله) بخط مغربي صِرف، متجاهلا بذلك أمر السلطان بترك مكانها فارغا، ليكتبها أبو العباس العساني بخط مشرقي عوض ابن الأبار الذي سيصبح دوره مقتصرا على تحرير الرسائل، وهي مرتبة دون مرتبة صاحب العلامة السلطانية.

وحتى نتعرف على بعض سمات العلامة الحفصية؛ نقترح رسالة بعث بها الأمير الحفصي: محمد الثاني (694 - 708هـ/1295 - 1309م) إلى ملك أراغونة: جاك الثاني بتاريخ: 14 شعبان 708هـ/27

---

[35] - ابن خلدون، العبر، ج/7، ص. 532

انظر أيضا. ابن خلدون، التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا، ص: 65

[36] - ابن خلدون، العبر، ج/6، ص: 418

انظر أيضا

- المقري (أحمد بن محمد)، أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض. تحقيق: مصطفى السقا و إبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، منشورات المعهد الخليفي للأبحاث المغربية (بيت المغرب)، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ج/3، طبعة 1942م، ص 205

وللمؤلف نفسه

نفح الطيب، ج/2، ص 590

يناير1309م. يظهر في طرتها العلامة الرسمية التي اتخذها الحفصيون في مراسلاتهم الرسمية، ألا وهي عبارة: "**الحمد لله والشكر لله**". (انظر شكل: 58).


بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والشكر لله

رسالة من تونس الحفصية، بعث بها الأمير: محمد الثاني (694 - 708هـ/1295 - 1309م) إلى ملك أراغونة: جاك الثاني بتاريخ: 14 شعبان708هـ/27 يناير 1309م. يظهر في طرتها العلامة الرسمية التي اتخذها الحفصيون في مراسلاتهم الرسمية، ألا وهي عبارة: "الحمد لله والشكر لله".

المصدر: أرشيف التاج الأراغوني - برشلونة، رقم: 122/رسائل عربية

شكل: 58

1 - 2 - العصر الحديث وظهور الشكل الموحد للطغراء المغربية:

أ - عصر الدولة الوطاسية:

بعد سقوط الدولة المرينية في المغرب سنة: 869هـ/1465م، وتأثر كل من تونس والجزائر بالثقافة المشرقية في تدوين الدواوين قبل إذعانهما نهائيا للتبعية الكاملة للعثمانيين، قام وزراء المرينيين، بتأسيس دولة جديدة في المغرب سُميت بالدولة الوطاسية (877 - 961هـ/1472 - 1554م)، وتُعد هذه الدولة فاتحة للعصر الحديث بالمغرب[37]، وذلك بالنظر إلى كونها ظهرت بعد 20 سنة تقريبا من فتح القسطنطينية سنة: 857هـ/1453م، التي يعتبر معظم المؤرخين الأوربيين - تاريخ سقوطها في أيدي العثمانيين المسلمين - البداية الحقيقية للعصر الحديث[38]. إلى جانب سقوط الأندلس بعدها بـ: 40 سنة في أيدي الإسبانيين سنة: 897هـ/1492م. (سقوط القسطنطينية المسيحية في أيدي العثمانيين - المسلمين في الشرق، قابله سقوط الأندلس الإسلامية في أيدي الإسبانيين - المسيحيين في الغرب). وقد كان هذان الحدثان بمثابة إيذانٍ بظهور تجاذبات سياسية جديدة بين العالم الإسلامي والعالم المسيحي طبعت الفترة الحديثة من بدايتها إلى نهايتها.

وحسب الوثائق التي وقفنا عليها، يمكن اعتبار الوطاسيين؛ أول من وضع الأسس الفنية للطغراء المغربية، بعدما كان الموحدون أول من وضع أسسها النصية (الحمد لله وحده)، فجاء العصر السعدي - بعد ذلك - ليحمل لنا الطغراء المغربية في حلتها المكتملة - المعروفة. وبعد هذا العصر، سينحسر تطور الطغراء المغربية، بل وستختفي من الدواوين السلطانية في المعرب خلال العصر العلوي.

وقد أطْلَعَنا الحسن الوزان الفاسي الملقب بـ: "ليون الإفريقي" في كتابه: "**وصف إفريقيا**" على بعض تقاليد البلاط الوطاسي في مدينة فاس، حيث أشار إلى أن التوقيعات والأختام الرسمية كانت تُستعمل في الديوان السلطاني بشكل رسمي، إذْ كان يوجد دائما "**بجانب الملك مستشار.. يحتفظ بالخاتم الملكي، ويكتب الرسائل الضرورية ويختمها بيده بهذا الخاتم**"[39].

ونحن إذ نعتبر الوطاسيين أول من وضع الأسس الفنية للطغراء، نسوق بعض الشواهد المادية التي تعزز طرحنا، والتي تتمثل في بعض التوقيعات الشخصية، لثلة من سلاطين هذه الدولة، تحمل في معظم

---

[37] - بدأ العصر الحديث تقريبا في القرن السادس عشر، وذلك بعدما تسببت العديد من الأحداث الكبرى في تغيير شكل أوروبا خلال نهاية القرن الخمس عشر وحتى القرن السادس عشر، بدءًا بانطلاق حركة الكشوفات الجغرافية التي دُشِّنت حملتها الاستعمارية بسقوط سبتة المغربية في أيدي البرتغاليين سنة 817هـ/1415م، ومرورا بفتح القسطنطينية في سنة 857هـ/1453م، وانتهاء بسقوط الأندلس في سنة 897هـ/1492م، واكتشاف العالم الجديد (أمريكا) في السنة نفسها

[38] - اوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ج/1، ص: 142.

[39] - الوزان (الحسن بن محمد الفاسي) المعروف بليون الافريقي، وصف إفريقيا، ترجمة: محمد حجي - محمد الأخضر، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية 1983م، ج/1، ص: 287

تفاصيلها ملامح الطغراء (انظر شكل: 59)[40]. حيث استخدم في رسمها اسم السلطان الوطاسي كما هو الحال بالنسبة لتوقيع أحمد بن محمد الشيخ الوطاسي (932 952هـ/1526 1545م)، الذي استخرجناه من رسالة مؤرخة في: 13 ذو الحجة 947هـ/10 أبريل 1541م (انظر هذه الرسالة في الشكل: 59):



توقيع طغراني لاحمد بن محمد الشيخ الوطاسي (932 - 952هـ/1526 - 1545م)

تشريحه ثم قراءته: **أحمد بن محمد بن الشيخ (هاء الإنتهاء) أصلح الله حاله**

ولو أخذنا مثلا رسالة أبي حسون الوطاسي التي أرسلها إلى شارل كونت في: 5 محرم 956هـ/3فبراير1549م، لوجدنا في مستهلها عبارة: "**الله فوق الكون**"، وصفتها كالتالي:

الله فوق الكون

أما في آخرها فنجد التوقيع الطغرائي، وهو مرفق بعبارة: "**أصلح الله حاله**".

التوقيـــــــــع المستخـــــــــرج:



توقيع طغراني مستخرج من رسالة باللغة الإسبانية بعثها أبو الحسن "أبو حسون" علي بن محمد الوطاسي أخو "محمد البرتغالي" إلى "شارل كونت" بتاريخ: 5 محرم956هـ/3 فبراير 1549م (انظر شكل: 59).

ولو تأملنا هذا التوقيع الذي أخذناه من الرسالة المذكورة، لوجدناه يتضمن اسم السلطان بشكل ملغوز، حيث تحيط به ما يشبه الألفات الممتدة في كل الاتجاهات، وهذا يتنافى مع القاعدة المتعارف عليها في رسم الطغراء، والتي ينبغي – حسبها – أن لا يتجاوز عدد القوائم والمنتصبات أوما يسمى: "بالطوغات" ثلاثة منتصبات.

---

[40] أورد عبد الهادي التازي هذه الوثائق في كتابه: التاريخ الدبلوماسي للمغرب بالأبيض والأسود، المجلد السابع، صفحات: 92 248 253 263 265

ويُلاحَظ أيضا أن هذه الطغراء تُطبع بكثرة الدوائر البيضوية، التي لا تتجاوز في الطغراء الاعتيادية بيضتان إحداهما تكبر الأخرى كما سنقف على ذلك، أما الهاء الجامعة التي تُشكِّل جسم الطغراء، والتي ترمز إلى عبارة: "انتهى"، فهي نفسها التي استعملها السعديون في طغرواتهم، وهي البيضة الكبرى للطغراء كما سنرى ذلك من خلال مقارنتنا بين الطغراءين: السعدية والعثمانية. ويظهر هذا التوقيع الطغرائي - إن صح التعبير- مقرونا بالدعاء للسلطان، حيث أضيفت بجانبه عبارة:

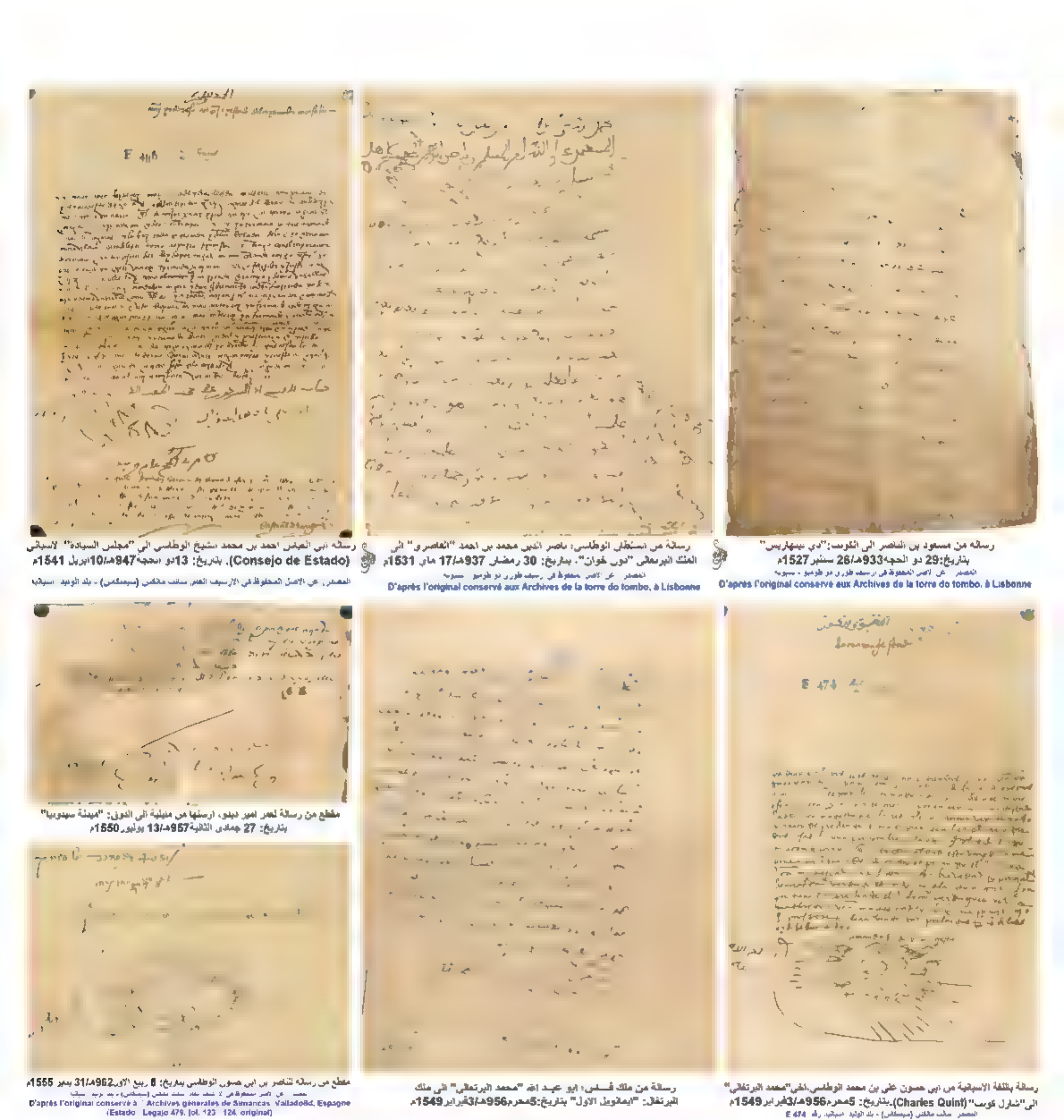
أصلح الله

حاله

وهذا الدعاء هو بمثابة "راء المظفر"، التي تتميز بها الطغراء العثمانية، حيث سنلاحظ أن راء المظفر هذه، إنما سميت بهذا الاسم، لأنها كانت توضع كرمز ملغوز، يتضمن في بعده التجريدي، ما يفيد الدعاء للسلطان بالنصر والظفر، سيما وأنها الحرف الأخير من كلمة: "**المظفر**" كما سنقف على ذلك بالتفصيل.

وقد عُرف معظم السلاطين الوطاسيين بهذا التوقيع، مع بعض الاختلافات الطفيفة، ولعل هذا الإثراء الفني في رسم الطغراء قبل استقرار قواعدها المعلومة، هو مرحلة أساسية في تطورها الفني، بالنظر إلى الإضافات الفنية، والتحسينات الجمالية التي كان يُضيفُها ويُضْفِيها كل فنان، لتتراكم وبالتالي تتمخض عن ولادة شكلها النهائي، سواء في العصر السعدي، أوالعصر العثماني المزامن له، على اعتبار أن كل اسم ملغوز، كثرت عراقاته، وتشابكت خطوطه، وتعددت التواءاته، هو تعبير فني عما يشبه الطغراء، وفيما يلي؛ نقترح مجموعة من المراسلات السلطانية الوطاسية والطغراوات والعلامات المستخرجة منها، قصد مقارنتها في النهاية بالعلامات التي سبقتها، وتحديدا العلامات الموحدية والمرينية (انظر شكل: 59 والشكل الداعم له).

ولرصد أوجه التشابه والاختلاف بين الطغراوات الوطاسية والطغراوات التي سبقتها، وخاصة طغراوات المرينيين وطغراوات الموحدين من قبلهم؛ نقترح "ترسيمة" على شكل خط زمني - كرونولوجي قارنًا من خلاله بين الطغراوات التي تنتمي للدول المغربية الثلاث (انظر شكل: 60).



رسالة من مسعود بن الناصر الى الكونت "دي نيهاريس"
بتاريخ: 29 ذو الحجة 933هـ/26 سبتمبر 1527م
D'après l'original conservé aux Archives de la torre do tombo, à Lisbonne

رسالة من سلطان الوطاسي: ناصر الدين محمد بن احمد "الفاصرو" الى الملك البرتغالي "دون خوان". بتاريخ: 30 رمضان 937هـ/17 ماي 1531م
D'après l'original conservé aux Archives de la torre do tombo, à Lisbonne

رسالة ابي العباس احمد بن محمد الشيخ الوطاسي الى "مجلس السيادة" الاسباني (Consejo de Estado). بتاريخ: 13 ذو الحجة 947هـ/10 ابريل 1541م

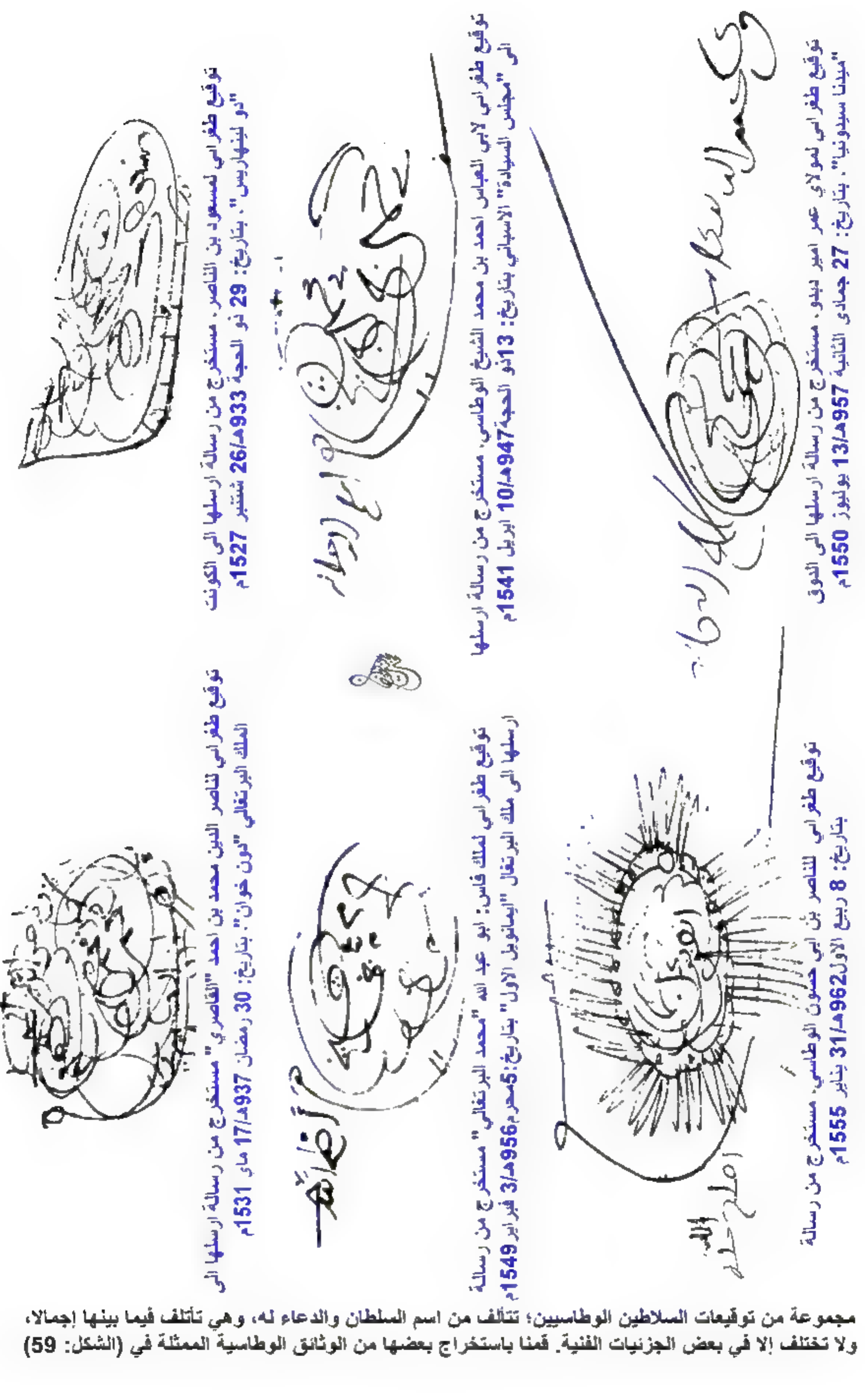
مقطع من رسالة لعمر امير ديبو، ارسلها من مليلية الى الدوق: "ميدنة سيدونيا"
بتاريخ: 27 جمادى الثانية 957هـ/13 يوليو 1550م

رسالة باللغة الاسبانية من ابي حسون علي بن محمد الوطاسي، الى "شارل كوينت" (Charles Quint). بتاريخ: 5 محرم 956هـ/3 فبراير 1549م

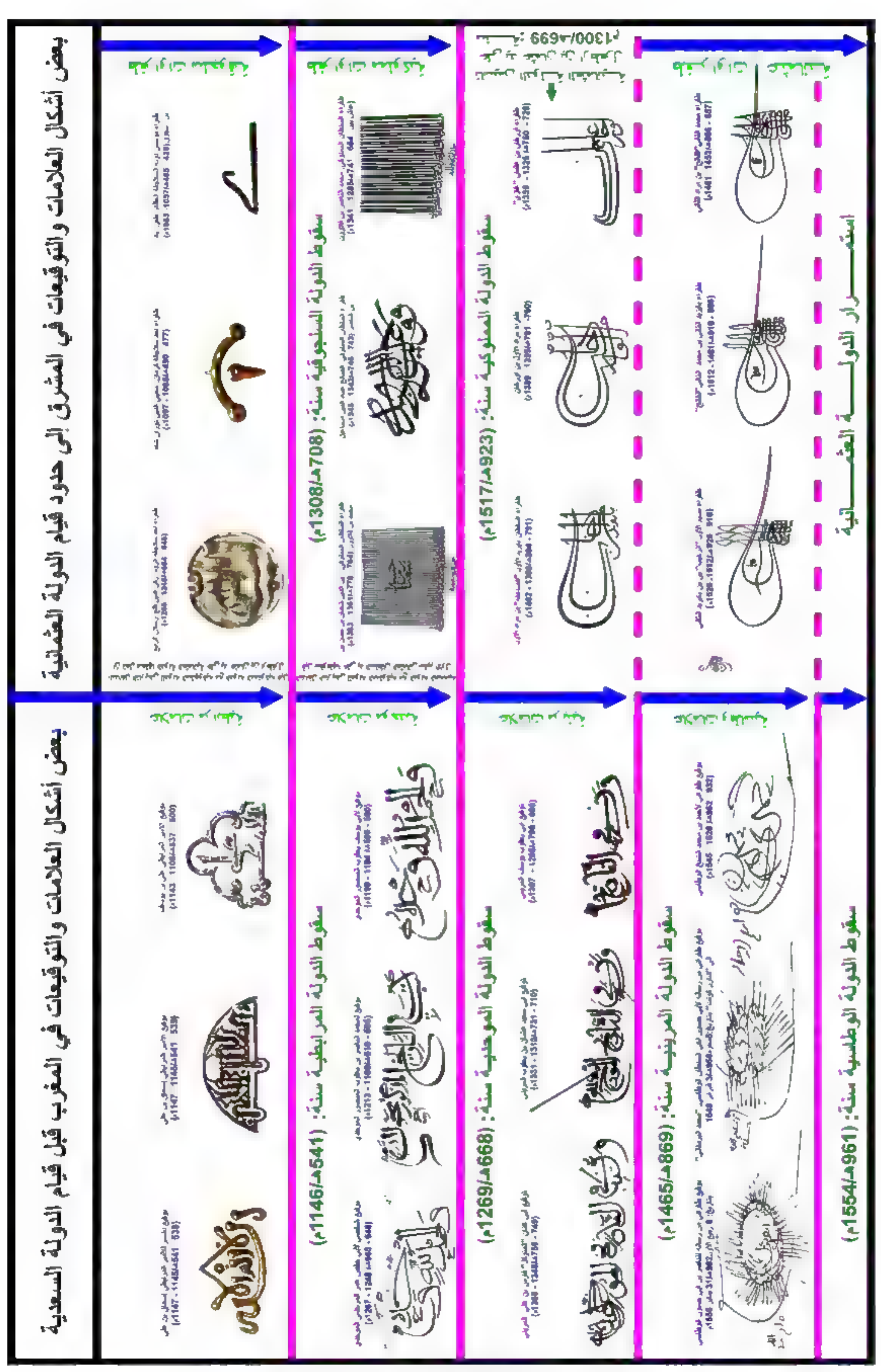
رسالة من ملك فاس: ابو عبد الله "محمد البرتغالي" الى ملك البرتغال: "ايمانويل الاول" بتاريخ: 5 محرم 956هـ/3 فبراير 1549م

مقطع من رسالة للناصر بن ابي حسون الوطاسي بتاريخ: 8 ربيع الاول 962هـ/31 يناير 1555م
D'après l'original conservé à Archives générales de Simancas, Valladolid, Espagne (Estado Legajo 479, fol. 123 124, original)

رسائل وطاسية منتخبة تظهر فيها التوقيعات الطغرانية للوطاسيين (اسم السلطان والدعاء له).
ولا تختلف تلك التوقيعات فيما بينها سوى في بعض الجزئيات المتعلقة بطبيعة اسم كل سلطان
شكل: 59



مجموعة من توقيعات السلاطين الوطاسيين؛ تتألف من اسم السلطان والدعاء له، وهي تأتلف فيما بينها إجمالا، ولا تختلف إلا في بعض الجزئيات الفنية. قمنا باستخراج بعضها من الوثائق الوطاسية الممثلة في (الشكل: 59)



بعض من أشكال التوقيعات الطغرانية في المغرب قبل العصر السعدي

شكل: 60

ب - عصر الدولة السعدية:

يُعدّ العصر السعدي في هذه الدراسة هو موطن الشاهد عندنا، وذلك بالنظر لكونه يؤسس - تاريخيا وفنيا - لظهور الطغراء المغربية بشكلها الصريح، وحتى نستغور أشكال العلامات والطغراوات المستعملة في هذا العصر، نشير أولا إلى أن العلامة والختم استمر استعمالهما معا على غرار العصور السابقة كما يستفاد ذلك من خلال بعض الإشارات الواردة في مختلف الوثائق السعدية، وفي هذا الشأن، نستدل بوثيقة مؤرخة في سنة: 963هـ/1556م موقعة باسم السلطان السعدي أبي عبد الله محمد الشيخ المهدي (947 - 964هـ/1540 - 1557م)، ورد فيها: "**شهد بالمقابلة والمماثلة من وقف في الأصل على علامة أمير المؤمنين مولاي محمد الشيخ المذكور، وعلى الألفاظ المذكورة بأصله والمكتوبة بخط يده وعلامته من غير شك ولا ريب**".

وفي وثيقة أخرى لابنه محمد الحرّان. وهي مؤرخة في سنة: 953هـ/1546م: "**شهد بمقابلته ومماثلته بأصله من وقف على علامة الأمير... المرحوم مولاي محمد الحرّان بن السلطان... محمد الشيخ**". ثم هناك ابنه الثاني: أبو محمد عبد الله الغالب (964 - 982هـ/1557 - 1574م) الذي ورد - في وثيقة مؤرخة باسمه في سنة: 972هـ/1564م- مايلي: "**.. من وقف على علامته... وهي من جملة العلامات المنسوبة إليه**". وورد في وثيقة أخرى مؤرخة في سنة: 1002هـ/1593م، باسم ابنه الثالث؛ أحمد المنصور الذهبي (986 - 1012هـ/1578 - 1603م)، العبارة التالية: "**... من وقف في الأصل المذكور على علامة السلطان.. أمير المومنين الملك المشهور مولاي أحمد بن مولاي محمد الشيخ..**"[41].

ولا شك أن هذه النصوص يُستنبط منها ما يفيد أن بعض السلاطين السعديين كانوا يضعون علامتهم بخط أيديهم، بخلاف السلاطين العثمانيين الذين كانوا يعهدون بذلك إلى المكلف بها ألا وهو: "**النِّشانجي**"، وقد أكّد هذا الأمر؛ سفير أحمد المنصور الذهبي: التمكروتي في معرض حديثه عن السلطان العثماني؛ مراد الثالث، حيث يقول: "**والسلطان [العثماني] لا يضع العلامة بيده ولا يتعب فيها**"[42].

وقد نصّ ابن الأحمر في السياق نفسه على أن العلامة في المغرب "**قد اختلفت آراء الملوك فيها، فبعضهم يضعها بيده في الصكّ بحبر ولم يتخذ لها كاتبا، كملوك الموحدين من بني عبد المومن بن علي... وبعض الملوك يقدم لكتبها رئيس كتبته، وربما شارك بعضهم في كتب العلامة كاتبه المقدم عليها كبني مرين ملوك المغرب**"[43].

---

[41] - راجع وثيقة وقفية مؤرخة في سنة 983هـ/1575م

سعلة (مصطفى)، تاريخ الأوقاف الاسلامية بالمغرب في عصر السعديين، من خلال حوالات تارودانت وفاس، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - المملكة المغربية، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط ، الطبعة الأولى- 2007م، ج/1، ص 305 - 306

[42] التمكروتي، النفحة المسكية، ص 100

[43] ابن الأحمر، مستودع العلامة، ص 20 - 21

ومما يدل على خطورة هذا التوقيع ودلالته المتعلقة بسيادة الدولة، إشارة لابن القاضي مفادها أن أحمد المنصور الذهبي عيّن في ديوانه موظفا اسمه: **عبد الرحمن العنّابي**، للتوقيع على رسائله وأوامره ومكاتباته "**التي تروح وتخرج إلى الأقطار البعيدة خوفا من التزوير، ومحافظة على العلامة السلطانية**"[44]

ونلاحظ من خلال رسالة لابنه أبي المعالي زيدان (1012 – 1037هـ/1603 – 1628م)، بتاريخ: 24 شوال 1025هـ/4 نونبر 1616م، وجود إشارة يحذر فيها الولايات العامة (هولندا) من أحد سفرائه الذين كانوا يزوّرون علامته، ويستعملونها في مكاتباتهم لأغراضه الشخصية، ألا وهو اليهودي المغربي: "**صامويل بلاش**"، المنحدر من "آل بلاش"، وهي أسرة معروفة بالمغرب[45]. (انظر شكل: 61).

وقد ورد في آخر الرسالة المذكورة ما نصه:

1 وما نعرفكم به أن الذّمّي بلياش استعمل علامتنا في براءتين وُقّعا بأيدينا هنا، ولما اتصلنا بالبراءتين وعلمنا خيانته خشينا أن يكون استعمل أيضا

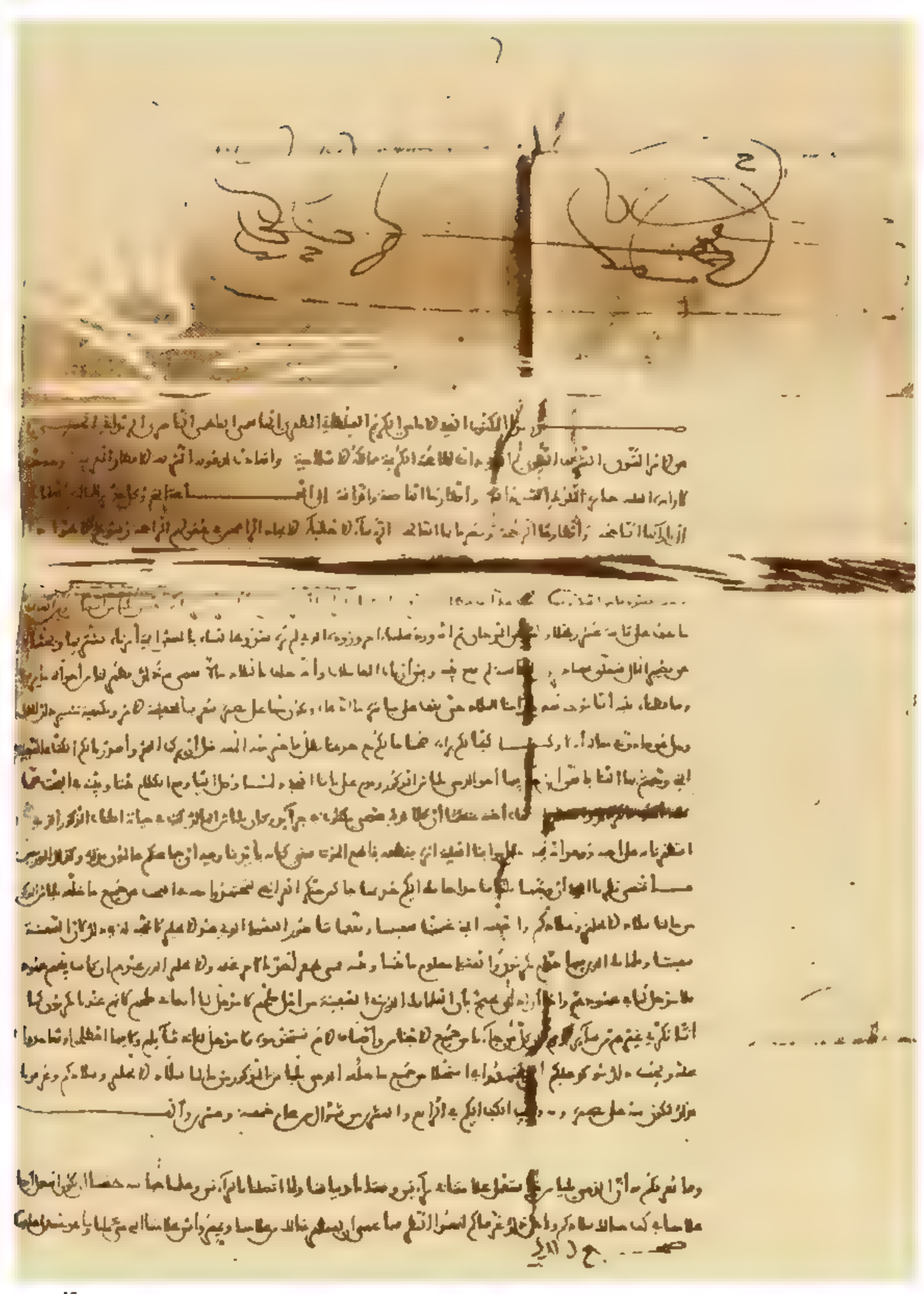
2 علامتنا في كتب هنالك ببلادكم، ولأجل ذلك عرّفناكم لتُمعنوا النظر فيما عسى أن يستظهر هنالك من علامتنا وتُميزوا بين علامتنا التي من عملنا وماهو مستعمل عليها

3 - صحيـــح ذلـــــك

---

[44] – ابن القاضي، المنتقى المقصور، ج/2، ص:604

[45] Henry de Castries, Les sources inédites de l'histoire du Maroc. Archives et bibliothèques des Pays-Bas, Tomme II, P.P. 54 - 57



رسالة أبي المعالي زيدان السعدي إلى الولايات العامة بتاريخ: 24 شوال 1025هـ/4 نونبر 1616م[46]

شكل: 61

---

46 de Castries , Les sources... Archives et bibliothèques des Pays-Bas,PP. 714 – 721

2 الطغراء والأختام السلطانية، دلالاتها التاريخية وحقيقة استعمالها في الوثائق السعدية (دراسة مقارنة):

من خلال اطلاعنا على بعض الوثائق السعدية، لاحظنا استعمال الطغراوات والعلامات إلى جانب الأختام والطوابع، لإثبات صحة المكاتبات الصادرة عن الدواوين السلطانية السعدية، سواء تعلق الأمر بالمراسلات الرسمية، أوالظهائر أو حتى بالأوامر السلطانية الموجَّهة للولاة والعمال. فكيف يمكن التفريق بين الطغراء والأختام، وماهي دلالة استعمال كل منهما في المكاتبات السلطانية؟ وبالتالي كيف يمكن تجسيد علاقتها بسيادة الدولة؟

2 - 1 - الطغراء (العلامة السلطانية):

أ - الملاحظة الأولى:

أشرنا في الباب الأول لهذا الكتاب إلى أن الطغراء كانت تُعرف عند المغاربة بالعلامة السلطانية، وأشرنا أيضا إلى أن تسميتها بالطغراء عند بعضهم كان مردُّه إلى ارتباط رسمها بطرر الوثائق. ومن خلال إطلالة سريعة على مختلف الوثائق السعدية؛ يتضح لنا بجلاء التلازم الموجود بين "الطُّغراء" التي تُرسم بالحبر والقلم، و"الطُّرة" التي تعني رأس الوثيقة وطرفها العُلوي، وقد جاء في بعض الوثائق السعدية: **وعلامة اليد [يقصد: الطغراء السلطانية] منقوشة في وسط [أي: وسط الخاتم الطغرائي الذي كان يوضع في طرة الوثيقة]** [47].

ومما يدل على وجوب وضع العلامة السلطانية في طرة الوثيقة؛ وجود إشارة في إحدى الوثائق السعدية نصُّها: "**وفيه إلحاق على علامة في الطرة من هذا الوجه صح به. وبه كمل**"[48]. إضافة إلى ذلك، وجدنا إشارة أخرى وردت في وثيقة من الوثائق الوقفية للدولة نفسها. نصُّها: "**وفيه إلحاق.. في الطرة صح به وكمل الرسم**"[49].

وبسبب استعمال العلامة السلطانية وجوبا في طرة الوثائق الرسمية، أصبح الارتباط بينهما ارتباط الدال بالمدلول عليه، إلى درجة أُطلقت معها تسمية الطرة على العلامة بالنظر إلى تلازمهما، فأضحت الطرة (الطغراء) تُطلق على العلامة السلطانية، والعلامة السلطانية تُنعت بالطرة (الطغراء)، كما سبق وفصلنا في ذلك تفصيلا مستفيضا، ولأن الشيء لايعرف إلا من خلال نقيضه، نشير إلى أن التوقيعات غير السلطانية عادة ما تكون في أسفل الوثيقة كما نلاحظه من خلال مجموعة من الوثائق، والعقود العدلية والوقفية كما درج عليه الاستعمال في مجالس القضاء.

---

[47] - راجع وثيقة وقفية مؤرخة في سنة: 983هـ/1575م

بنعلة، تاريخ الأوقاف الإسلامية بالمغرب في عصر السعديين، ج/1، ص. 316

[48] - وردت هذه الإشارة في وثيقة وقفية سعدية المرجع نفسه، ج/1، ص: 317

[49] المرجع نفسه، ج/1، ص. 317

ب – الملاحظة الثانية:

تُعدّ الطغراء رسْما وليست صنفا أو نوعا من الخطوط، فهي شكل له سمات معينة، يُكتب بنوع معلوم من الخطوط كالمجوهر أوخط الثلث المغربي فيما يتعلق بالطغراء المغربية السعدية، أما فيما يتعلق بالطغراء المشرقية - العثمانية، فقد استُعمل في رسمها خط الثلث المحوّر أو بالأحرى المزج بين خط الإجازة والخط الديواني، وغالبا ما يتم تحوير هذه الخطوط لملاءمتها وتكييفها مع المسارات الثعبانية والمتاهية للرسم الطغرائي.

وقد توصلنا إلى أن الرسم الطغرائي في المغرب السعدي، له نص ثابت لم يتغير، لأنه رمْز يُعبر عن سيادة الدولة، وما لاحظناه من تغيير في نص هذه العلامة، يرتبط أساسا بمعركة وادي المخازن (30 جمادى الثانية 986هـ/3 شتنبر 1578م)، إذ كان السعديون قبلها يضعون أسماء سلاطينهم في الطغراء إلى حدود عهد محمد المتوكل السعدي، الملقب بالمسلوخ (982 - 986هـ/1574 - 1578م)، وبعد ذلك، استعاضوا – في رسم طغراواتهم – عن أسماء السلاطين بعبارة الحمدلة.

لكن ما يسترعي الانتباه، هو أن شكل الطغراء السعدية لم يتغير بالرغم من تغيير نصها بعد معركة وادي المخازن، وذلك بالنظر لرمزية رسْمها الذي يُحيلنا على سيادة الدولة السعدية واستقلالها عن التبعية لأي كيان سياسي في العالم المتوسطي.

وقد تأكد لدينا من خلال بحثنا المستفيض، ومقارناتنا الدلالية، أن أحمد المنصور الذهبي كان أول من غيّر نص الطغراء السعدية من: "**اسم السلطان**" إلى عبارة: "**الحمد لله وحده**"، وذلك بالنظر إلى الدعم الذي قدّمه له السلطان العثماني؛ مراد الثالث (982 - 1003هـ/1574 - 1595م) حفيد سليمان القانوني، بعد استعانة أحمد (المنصور الذهبي) به قبل توليه الحكم، رفقة أخيه لأبيه أبي مروان عبد الملك الغازي وأمه سحابة الرحمانية في معركة وادي المخازن[50] ضد ابن أخيهما محمد المتوكل ابن عبد الله الغالب السعدي وحلفائه البرتغاليين.

لذلك كان من العيب أن يستعمل المنصور الذهبي، طغراء دولته باسمه، لأن سيادته كانت – آنئذ – محكومة بموالاة السلطان العثماني، حيث التزم بتأدية غرامة سنوية لخزينته، والدعاء له على منابر المغرب، بل ورفع شعار الدولة العثمانية على ركبه السلطاني، ورغم أن السلطان أحمد المنصور الذهبي لم يقم بنقش طغراء العثمانيين على عملته التي ضربت في عهده، إلا أنه - بالمقابل - لم يأمر بنقش طغرائه عليها جبرا للخواطر ورأبا للشقاق. وهذا ما نلاحظه من خلال القطع المنسوبة إليه، والتي لا يبدو فيها إلا اسمه (أحمد المنصور الذهبي)، واسم مؤسس الدولة السعدية محمد القائم بأمر الله، على النقيض من ذلك، وجدنا ابنه أبا المعالي زيدان السعدي، يأمر بنقش طغرائه على عملاته كما سنلاحظه، حيث استفاد في ذلك

---

[50] "سحابة الرحمانية" هي أم أبي مروان عبد الملك، أما أحمد الذي سيلقب بالمنصور الذهبي بعد توليه الحكم، فأمه كانت تسمى: "مسعودة الوزكيتية"

مما قام به أبوه أحمد المنصور الذهبي الذي سارع إلى توطيد دعائم دولته بمجرد أن استتب له الحكم في بلاد المغرب، فأسّس دولة مركزية قوية تتمتع باستقلالها الكامل عن كل القوى السياسية الموجودة في البحر الأبيض المتوسط (القوى المسيحية: إسبانيا والبرتغال + العثمانيين).

بناء على التفسير السابق، نؤكد أنه لم يكن ممكنا للمنصور - بأي حال من الأحوال - أن يجعل من اسمه نصّا لرسم طغرائه، لذلك فضل استبداله بنص آخر، ألا وهو عبارة: "**الحمدلة**" التي ستحل منذ عهده محل أسماء السلاطين في رسم الطغراء السعدية. ولتأكيد سيادته على بلاد المغرب بشكل ضمني ومبطّن، حافظ المنصور على شكل طغراء دولته - تأسّيا بمن سبقه من السلاطين السعديين - وزاد على ذلك بأن وضعها في طرة وثائقه، فتبعه في هذا الأمر من جاء بعده، فكانت بذلك الطغراء السعدية في عهد المنصور الذهبي وأبنائه منزلة بين المنزلتين؛ تُعبّر عن سيادة السعديين على بلاد المغرب بوضعها في أعلى الوثيقة، كما تُحيل على مهادنة العثمانيين باستبدال اسم السلطان بعبارة الحمدلة، حيث أضحى اسم السلطان مقتصرا على الخواتم السلطانية التي اتخذ بعضها شكلا طغرائيا كما سنتعرض لذلك في دراستنا لبعض الأختام السعدية، ولتوضيح الاختلافات الموجودة بين "**طغراء اسم السلطان**"، و"**طغراء الحمدلة**"؛ نقترح الشكل التالي الذي قارنا من خلاله بين طغراء محمد المتوكل، وطغراء أحمدالمنصور الذهبي، وهما طغراءين استخرجناهما معا من وثيقتين سلطانيتين سنقوم بدراستهما في هذا الكتاب:



مقارنة دلالية بين "طغراء اسم السلطان" لمحمد المتوكل الذي يعتبر آخر من استعملها من السلاطين السعديين، و"طغراء الحمدلة" لاحمد المنصور الذهبي الذي يعتبر أول سلطان سعدي استعملها وورثها أبناؤه من بعده

وحتى نُفصّل ما أجملناه سابقا، لا بد أن نتتبع تطور الطغراء السعدية كرنولوجيا، قبل أن نعزز ذلك التتبع بشواهده المادية، ونقارنه بتطور الطغراء العثمانية التي سلكت المسار الكرنولوجي نفسه.

ففي البداية، نشير إلى أننا لم نعثر على أية وثيقة أصلية ترجع إلى عهد مؤسس الدولة السعدية؛ محمد المهدي القائم بأمر الله (917 - 923هـ/1511 - 1517م)، الشيء الذي حال بيننا وبين معرفة توقيعه. وأقدم "**توقيع طغرائي - سعدي**" عثرنا عليه، هو توقيع ابنه أحمد الأعرج (923 - 947هـ/1517 - 1540م)، الذي يمكن اعتباره أصل الطغراء السعدية، وفي هذا الشأن، نشير إلى أننا لا نتفق مع بعض

الباحثين المغاربة الذين ذهبوا إلى أن أقدم توقيع سعدي يرجع إلى محمد الشيخ المهدي[51]، ودليلنا في ذلك، هو أن توقيع أحمد الأعرج المذكور، أقدم من توقيع أخيه محمد الشيخ المهدي، فالأول يرجع تاريخ توقيعه إلى سنة: 932هـ/1525م، وأحدث توقيع له يحمل تاريخ: 936هـ/1529م.(انظر الأشكال: 62 - 63 - 64). أما الثاني فيرجع تاريخ توقيعه حسب إفادة المرجع نفسه إلى سنة: 963هـ/1555م[52]. وهو على أية حال ليس أقدم توقيع منسوب لمحمد الشيخ المهدي نفسه، بدليل أننا وجدنا وثيقة منسوبة لهذا السلطان؛ تاريخها أقدم من التاريخ الذي أورده المرجع المذكور بما يزيد عن 20 سنة، وهي عبارة عن أمر سلطاني مؤرخ في فاتح جمادى الأولى 942هـ/27 أكتوبر 1535م.(انظر شكل:65).

والجدير بالذكر أننا لم نأل جهدا في تجميع بعض الوثائق النادرة التي تتصل بالسلاطين السعديين الأُوَّل، وبعد دراستها دراسة عميقة؛ وجدناها تدل بشكل صريح لا يحتمل التأويل، على أن التوقيعات السعدية ترتبط بالمراحل الأولى لتأسيس الدولة. بل ويمتد استعمالها إلى أحمد الأعرج الذي اطّلعنا على بعض توقيعاته.(انظر الأشكال: 62 - 63 - 64)، وإثر حديثنا عن هذا السلطان، تشد انتباهنا رسالة أرسلها إلى جان الثالث بتاريخ: 23 ربيع الأول 936هـ/25 نونبر 1529م.(انظر شكل: 64). ووجه الاستدلال في هذه الرسالة، هو كونها جمعت بين ثلاثة توقيعات:

* أولها: "**عبارة الحمدلة**" التي كُتبت في طُرّة الوثيقة من باب الافتتاح والتبرك على غرار الوثائق الموحدية.

* تليها: "**الطغراء السعدية**" التي استُخدم في رسمها اسم السلطان: أحمد الأعرج، على عادة السعديين. أما

*في الأسفل: فقد خُتم نص الوثيقة، بتوقيع سلطاني، مؤلَّف من عبارة: "**كُتب في التاريخ**"، وهي عبارة كانت تُستعمل في الرسائل المرينية كما مرّ بنا. ليجتمع بذلك في هذه الوثيقة ما وجدناه متفرقا في عدة وثائق مغربية تنتمي إلى العصر السعدي و إلى العصور التي سبقته.

الأمر نفسه يمكن ملاحظته من خلال وثيقة لمحمد الشيخ المهدي، مؤرخة في فاتح جمادى الأولى 942هـ/27أكتوبر 1535م.(انظر شكل: 65). جمعت بين عبارة الحمدلة والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فضلا عن الطغراء المحررة باسم السلطان.

ويُلاحظ هذا أيضا في وثيقة ترجع إلى ابنه السلطان عبد الله الغالب السعدي مؤرخة في. رجب 968هـ/أبريل1561م.(انظر شكل: 66)، ووثيقة أخرى بتاريخ: 10رمضان985هـ/21 نونبر1577م.

---

[51] - ذهب بعلة إلى أن أقدم توقيع سعدي يرجع إلى عهد محمد الشيخ المهدي، مستندا في ذلك على وثيقة وقفية مؤرخة في سنة. 963هـ/1555م، ولعله تبنى هذا الرأي من منطلق الوثائق التي تحصّل عليها، إذ أنه - وعلى حدّ قوله - لم يقف على أية وثيقة أصلية ترجع إلى عهد مؤسس الدولة السعدية محمد القائم بأمر الله، ولا إلى عهد ابنه أحمد الأعرج

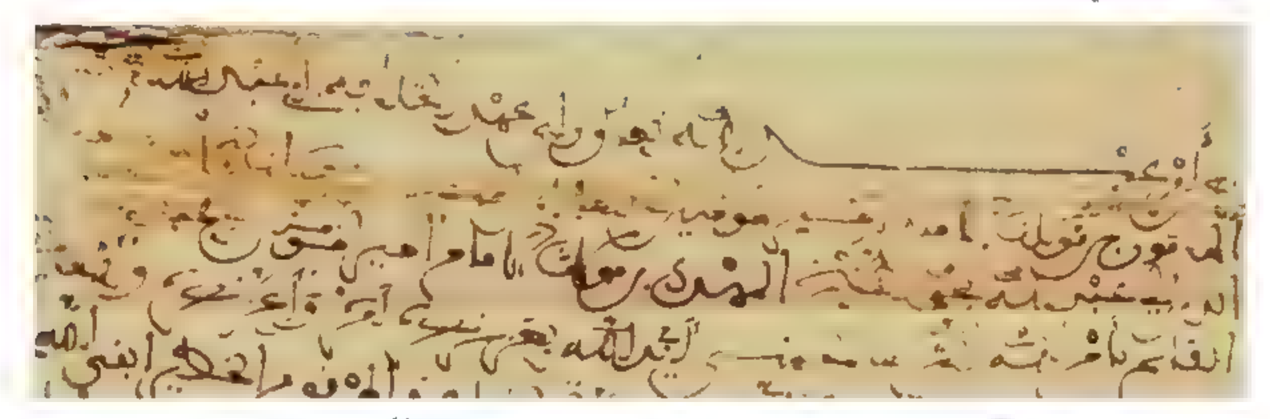
انظر. بعلة، تاريخ الأوقاف الإسلامية بالمغرب في عصر السعديين، ج/1، ص 306

وإن كنا نتفق مع بعلة فيما يتعلق بتوقيع محمد المهدي القائم بأمر الله الذي لم يصلنا من رسائله شيء، فإننا لا نتفق معه فيما ذهب إليه من كون أقدم توقيع سعدي يرجع إلى عهد محمد الشيخ المهدي. لأن أقدم توقيع في الحقيقة، يرجع إلى أخيه أحمد الأعرج الذي وقفنا على بعض توقيعاته من خلال عثورنا على ثلاث رسائل لهذا السلطان، تتراوح تواريخها بين: 932هـ/1525م، وبين: 936هـ/1529م

[52] بعلة، تاريخ الأوقاف الإسلامية بالمغرب في عصر السعديين، ج/1، ص 306

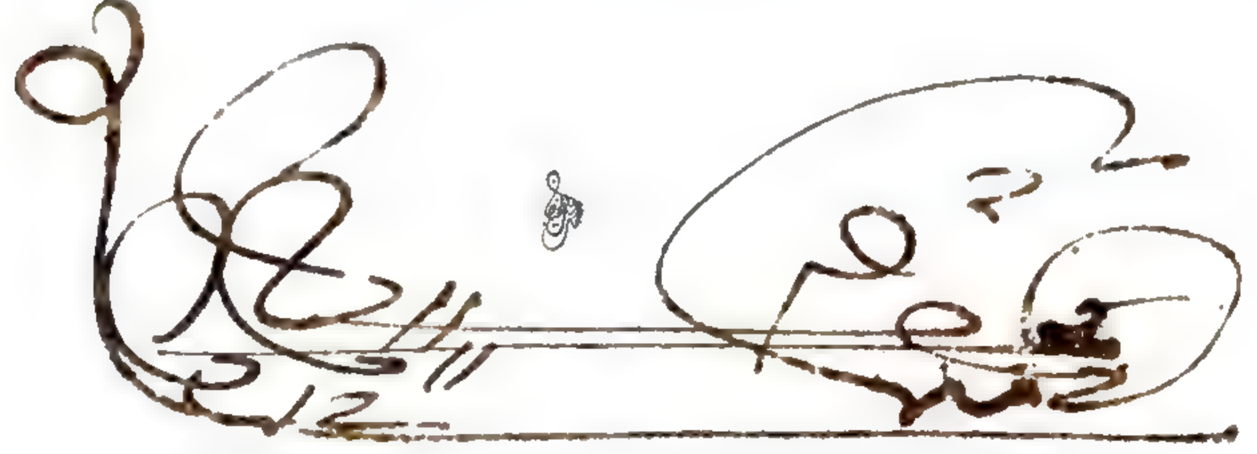
ترجع إلى حفيده محمد المتوكل بن عبد الله الغالب السعدي، الذي يُعد آخر من استعمل "**طغراء اسم السلطان**" قبل أن تحل محلها "**طغراء الحمدلة**" في عهد أحمد المنصور الذهبي.(انظر شكل: 67)

ورغم ماقلناه سابقا، لابد أن نعترف بأننا قد عثرنا على وثيقة سعدية استُعملت فيها "طغراء اسم السلطان" خلال عهد أحمد المنصور الذهبي نفسه (انظر شكل: 68)، وهذه الوثيقة ترجع إلى أحد أبنائه، ألا وهو: محمد الشيخ المأمون (1019 – 1022هـ/1610 - 1613م) الذي سيصبح سلطانا لمملكة فاس بعد ذلك، وقد حرر هذا السلطان وثيقته المذكورة في وقت كان لايزال فيه وليا للعهد إبان حكم أبيه، ونستدل في هذا الأمر: بتاريخها الذي يرجع إلى سنة:991هـ/1583م، كما نستدل أيضا بعبارتها الافتتاحية التي أكدت ذلك:

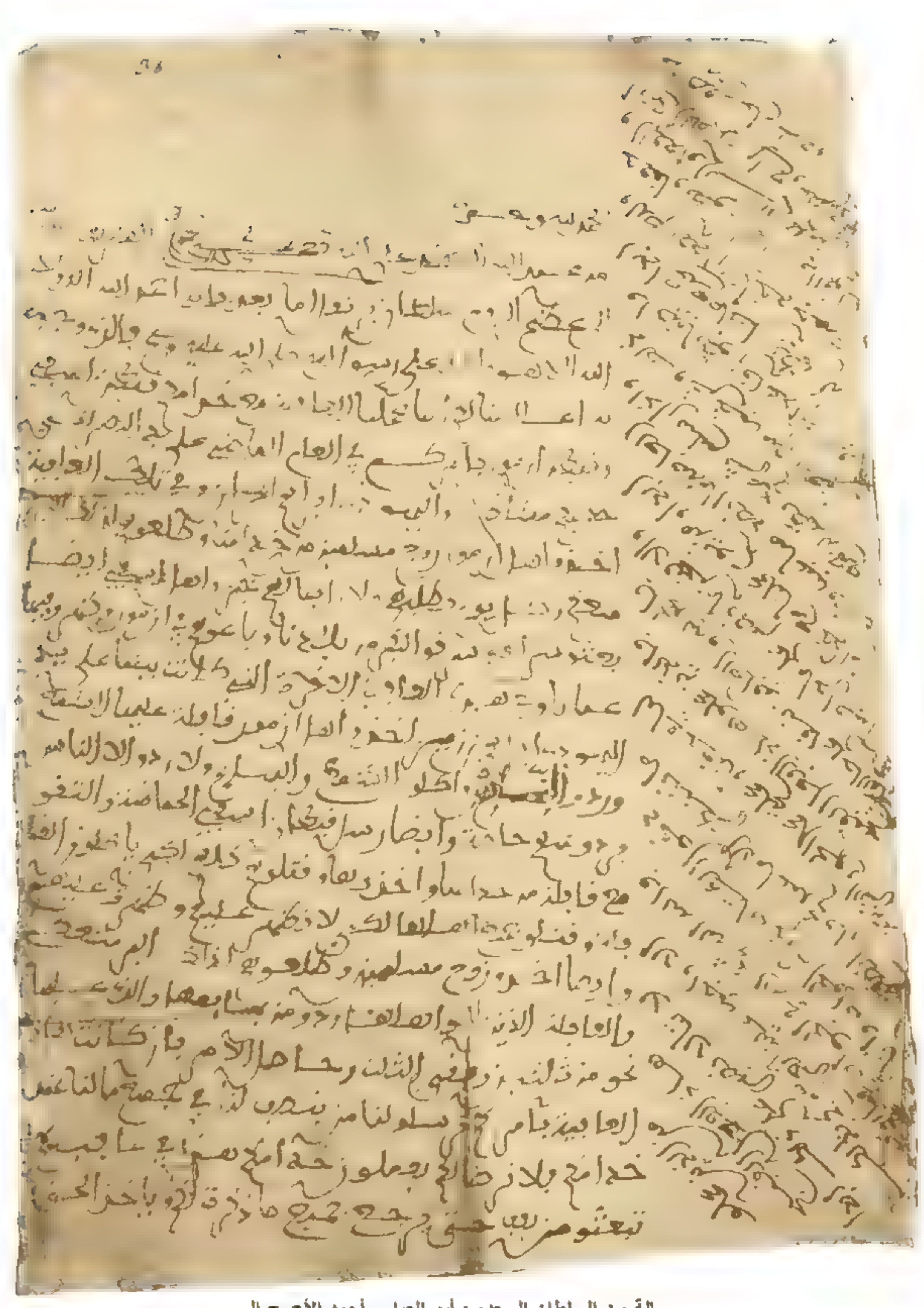


1 - عن أمر عبـــــــــد الله تعالى ولي عهد الخلافة ابي عبد الله محمد
2 - المامون بن مولانا الامام امير المومنين ابي العباس احمد المنصور بن......

ومن خلال تأملنا لعناصر هذه الوثيقة، يتضح لنا بكل جلاء أن المأمون قد فضل استعمال اسمه في رسم الطغراء الخاصة به، خلافا لأبيه الذي كان يستعمل عبارة الحمدلة في رسمها:



طغراء محمد الشيخ المأمون بن أحمد المنصور الذهبي. وهي تبدو مركبة باسمه حين كان وليا للعهد.
استخرجناها من وثيقة مؤرخة في: أوائل محرم991هـ/يناير1583م.(انظر شكل: 68).

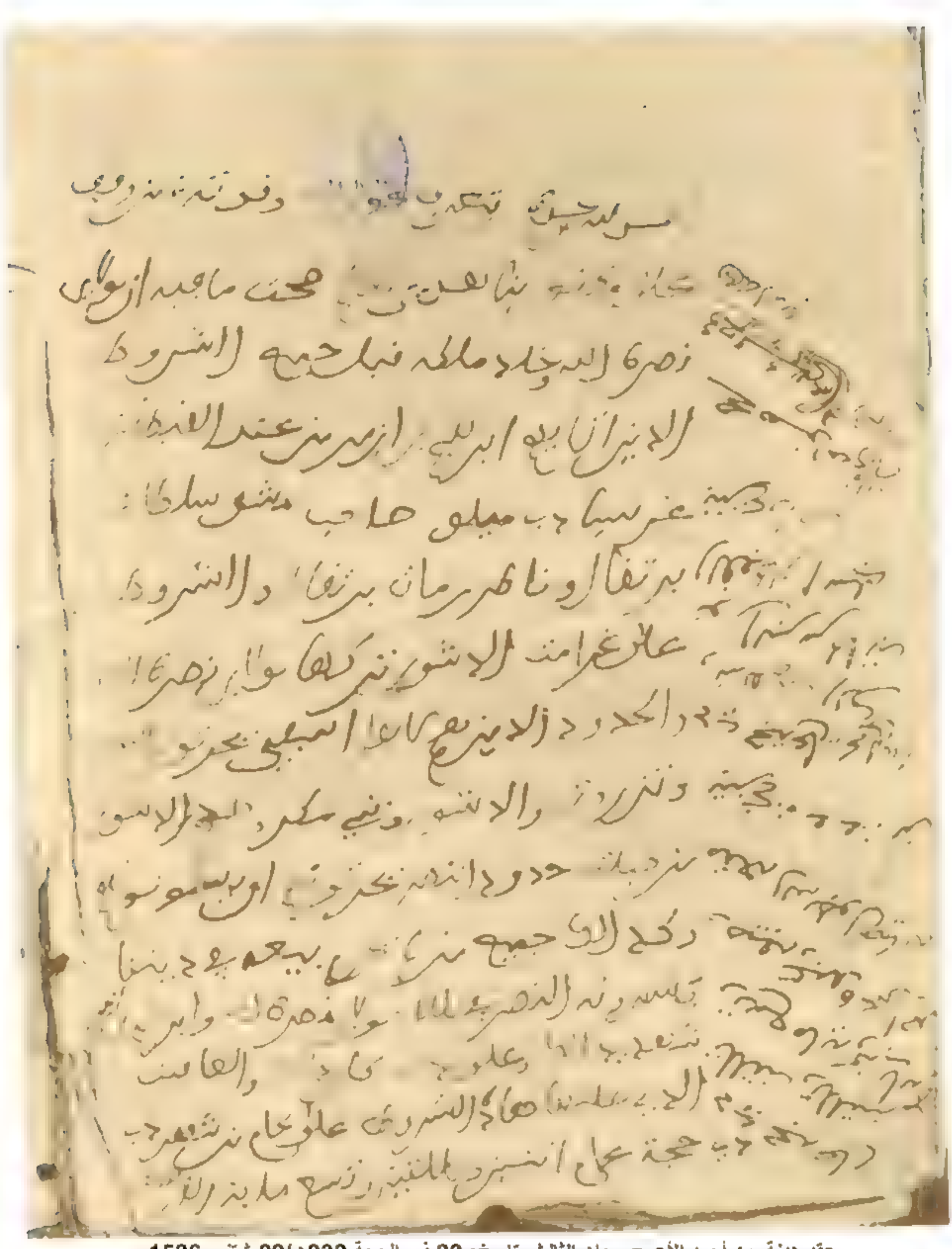


رسالة من السلطان السعدي: أبو العباس أحمد الأعرج إلى
جان الثالث بتاريخ: 24 صفر 932هـ/10 دجنبر 1525م.

المصدر: عن الأصل المحفوظ في ارشيف طوري دو طومبو - لشبونة

S.I.H.M - Portugal. T.2. Première Parti. P.348

شكل: 62

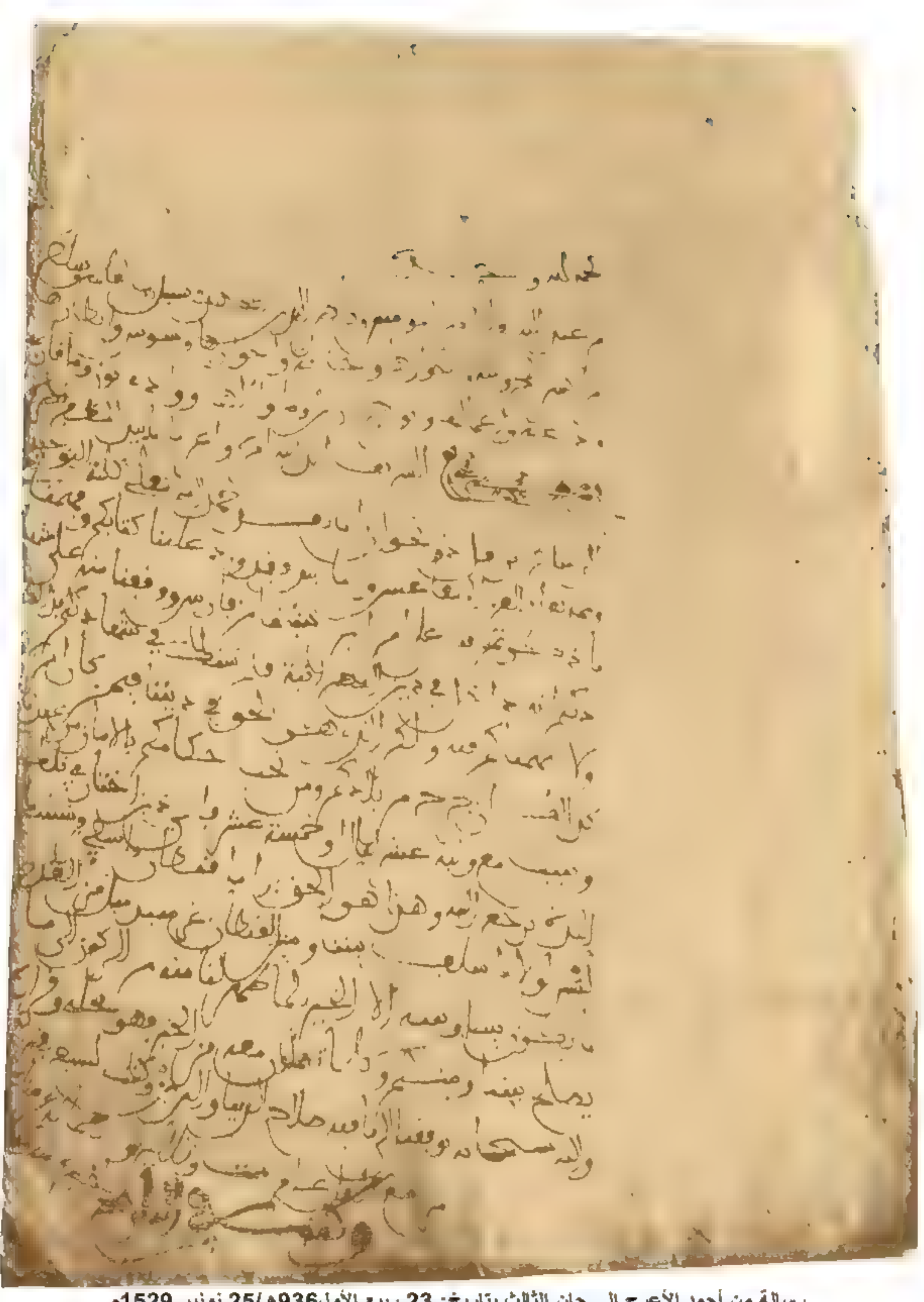


عقد هدنة بين أحمد الأعرج وجان الثالث بتاريخ: 22 ذي الحجة 932هـ/29 شتنبر 1526م

المصدر: عن الأصل المحفوظ في أرشيف طوري دو طومبو - لشبونة

S.I.H.M - Portugal. T.2. Première Parti. P. 369

شكل: 63

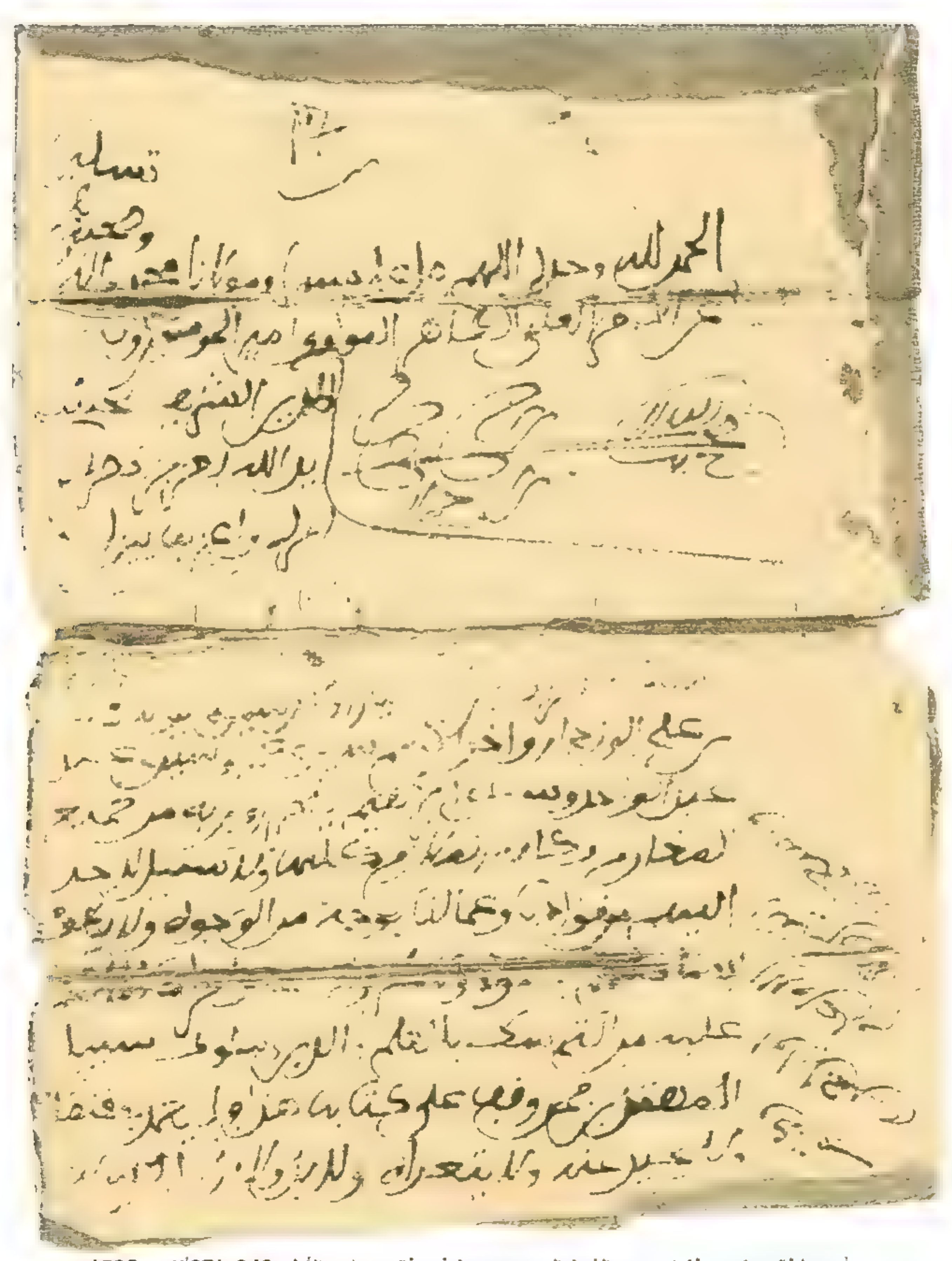


رسالة من أحمد الأعرج إلى جان الثالث بتاريخ: 23 ربيع الأول936هـ/25 نونبر 1529م

المصدر: عن الأصل المحفوظ في أرشيف طوري دو طومبو - لشبونة

S.I.H.M - Portugal. T.2. Première Parti.

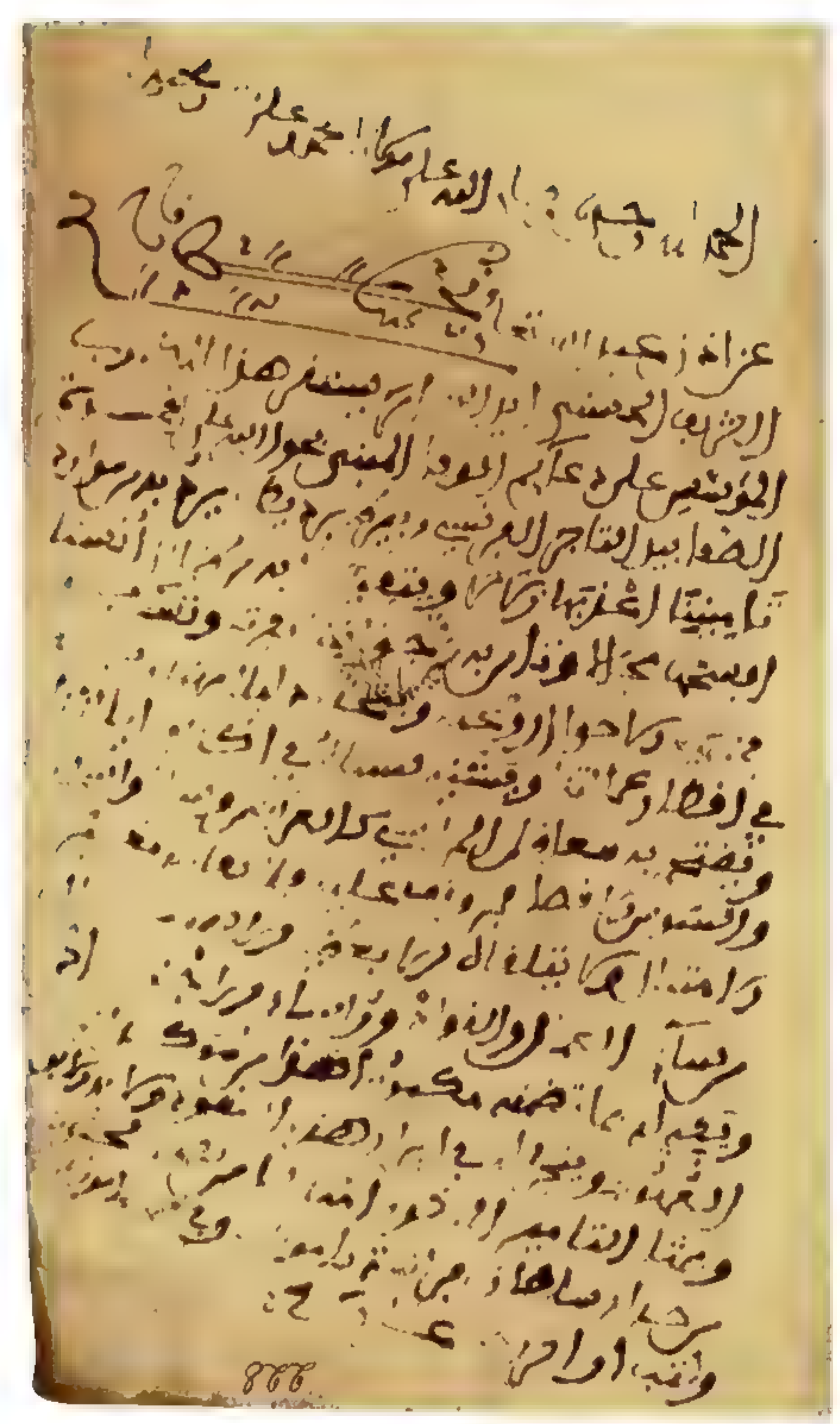
شكل: 64



أمر سلطاني متوج بطغراء محمد الشيخ المهدي، مؤرخ في: فاتح جمادى الأولى 942هـ/27أكتوبر 1535م

المصدر: مديرية الوثائق الملكية - الرباط، محفظة العصر السعدي. دون ترقيم

شكل: 65

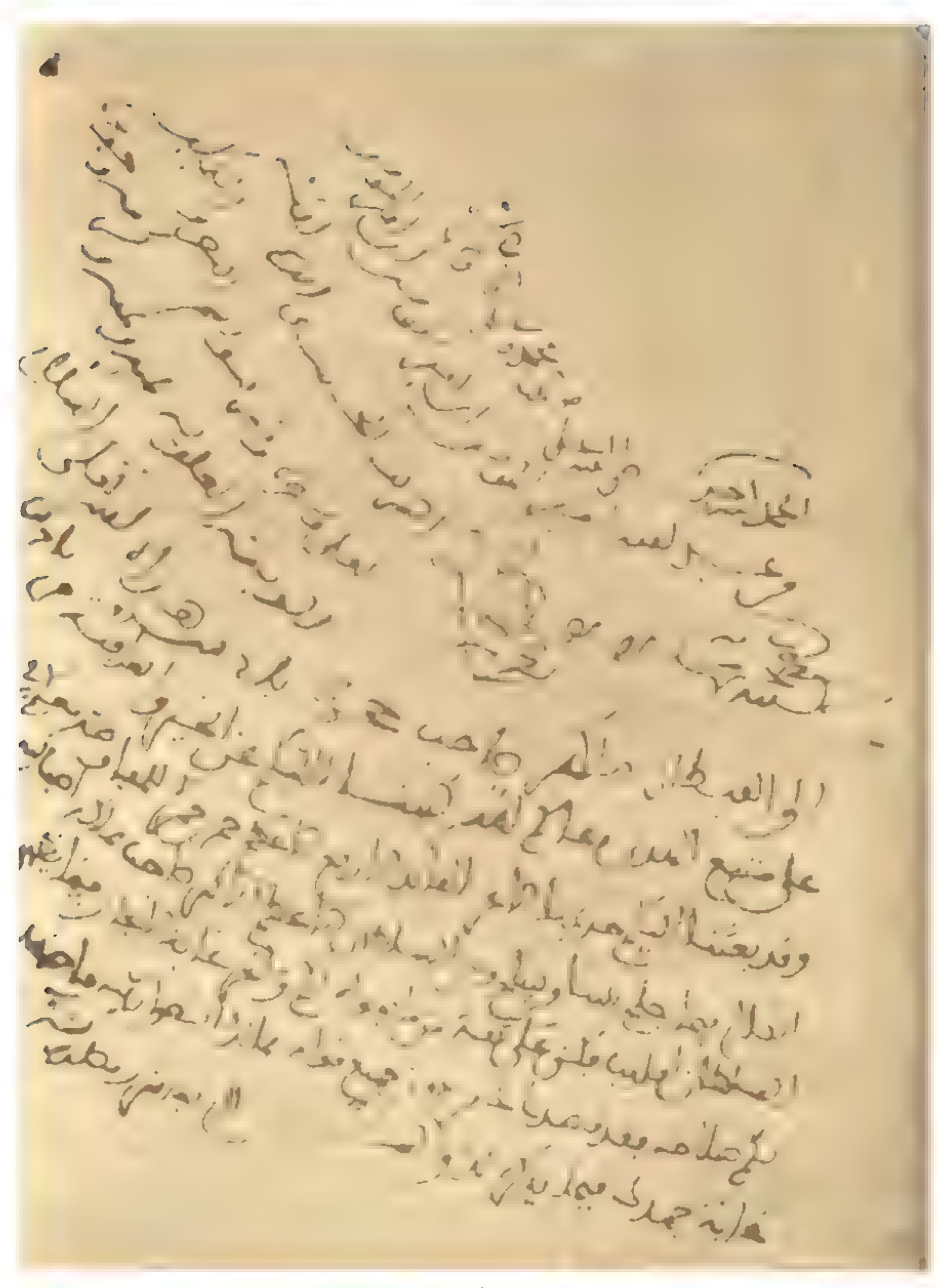


رخصة تجارية مؤرخة في: رجب 968هـ/أبريل1561م، منحها عبد الله الغالب السعدي (964 - 982هـ/1557 - 1574م) للتاجر الفرنسي رويرت بورديت، قصد ممارسة نشاطه التجاري في المراسي المغربية دون أن يعترض طريقه أحد[53].

المصدر: عن الاصل المحفوظ في المكتبة الوطنية - باريس

شكل: 66

53 - de Castries, Les sources Archives et bibliothèques des france. Tom III. P.750 - 751.



رسالة من محمد المتوكل بن عبد الله الغالب السعدي إلى خوان دي مولينا

بتاريخ: 10رمضان985هـ/21 نونبر1577م

المصدر: عن الأصل المحفوظ في الأرشيف العام، سانت مانكش (سيمنكاس) - بلد الوليد، إسبانيا

(Guerra Antigua - Legajo 82, jol. 191- original)

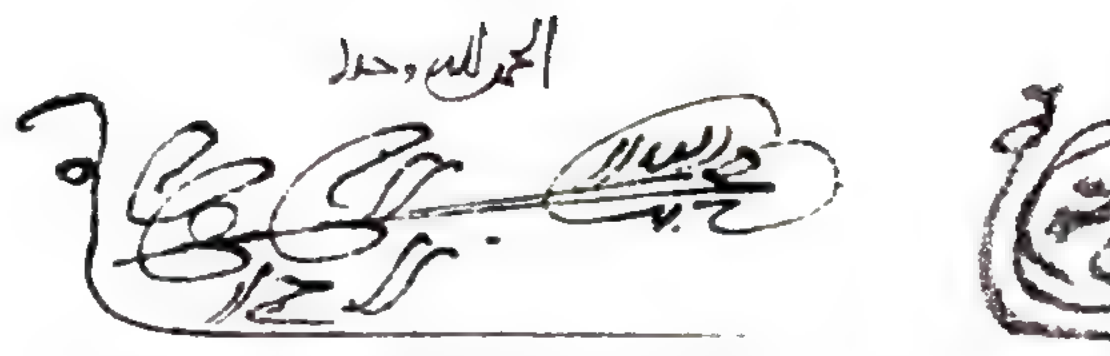
شكل: 67

بعض التوقيعات المستخرجة من (الأشكال: 62 - 63 - 64 - 65 - 67):



العبارات الثلاث تتوسطها الطغراء السلطانية لأحمد الأعرج، وهي كما وردت حسب ترتيبها في الوثيقة مستخرجة من رسالة من أحمد الأعرج إلى جان الثالث بتاريخ 23 ربيع الأول936هـ/25 نونبر 1529م.

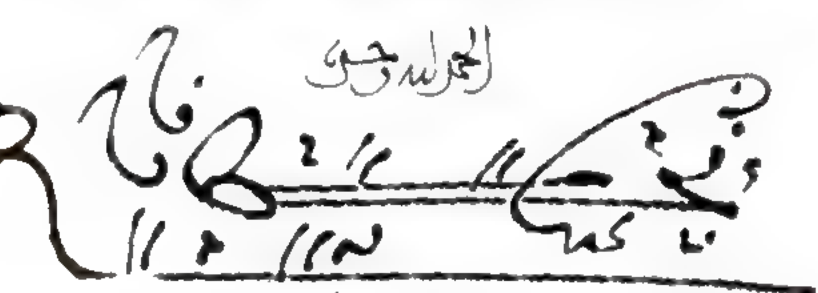
طغراء مستخرجة من رسالة بعثها أحمد الأعرج إلى ملك البرتغال
جان الثالث في: 24 صفر 932هـ/10 دجنبر 1525م.



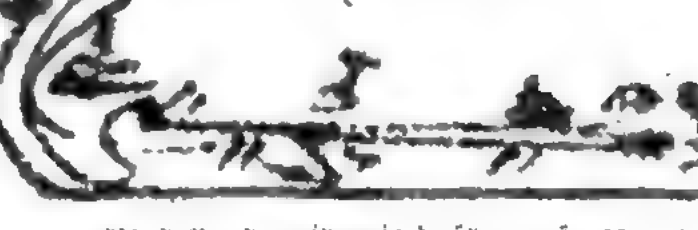
طغراء مستخرجة من امر سلطاني للسلطان السعدي محمد الشيخ المهدي
مؤرخ في: فاتح جمادى الاولى 942هـ/27 اكتوبر 1535م



طغراء مستخرجة من رسالة تضمنت عقد هدنة بين أحمد الأعرج و ملك
البرتغال جان الثالث في: 22 ذي الحجة 932هـ/29 شتنبر 1526م



طغراء مستخرجة من رخصة تجارية مؤرخة في: رجب 968هـ/أبريل1561م
منحها عبد الله الغالب السعدي للتاجر الفرنسي روبرت بورديت

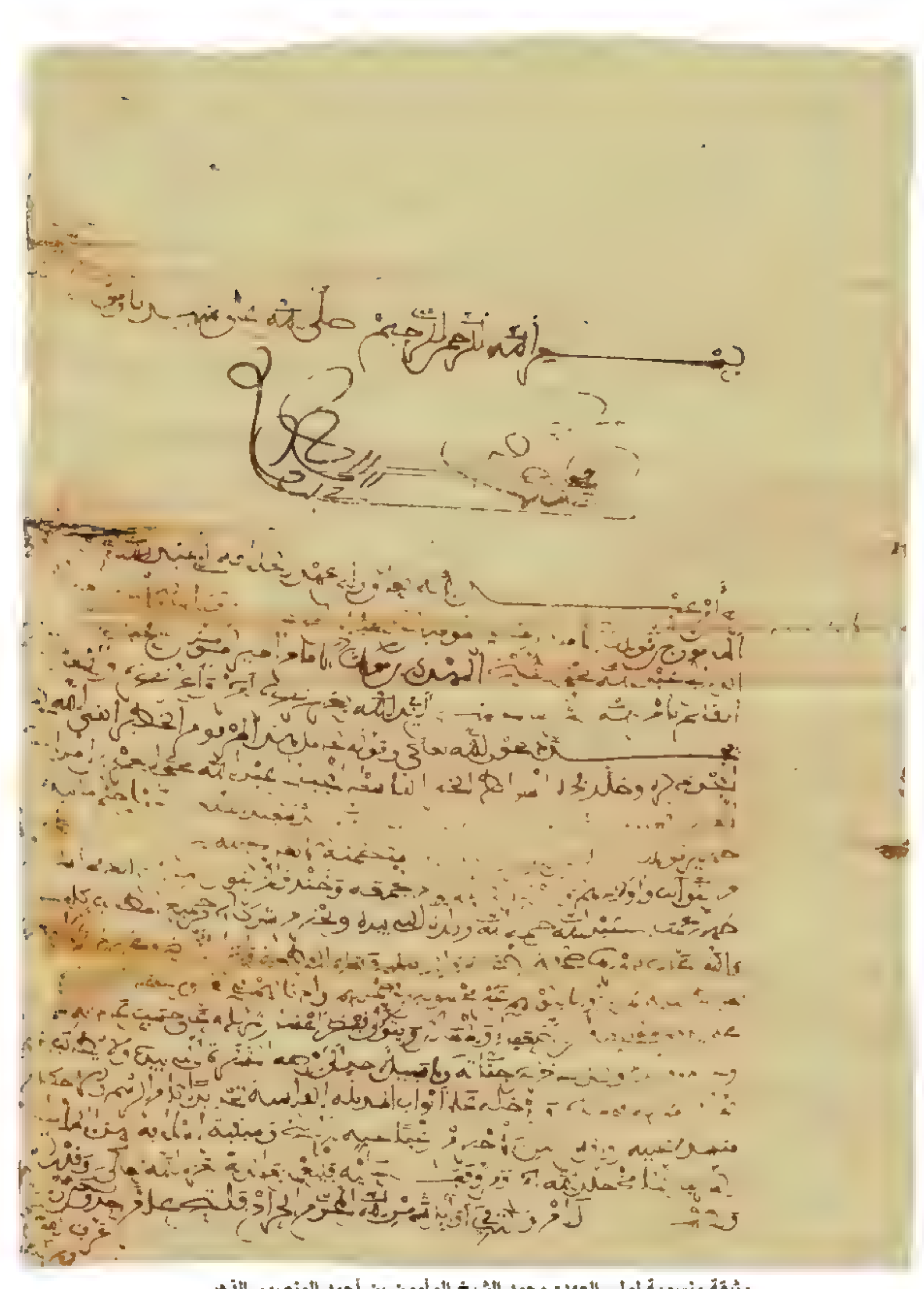


طغراء مستخرجة من رسالة بعثها أحمد الأعرج إلى ملك البرتغال
جان الثالث في: 23 ربيع الأول936هـ/25 نونبر 1529م



طغراء مستخرجة من رسالة بعثها محمد المتوكل الى خوان دي مولينا
بتاريخ: 10رمضان985هـ/21 نونبر1577م

نماذج من "طغراء اسم السلطان" التي كانت مستعملة عند السلاطين السعديين قبل معركة وادي المخازن (986هـ/1578م)



وثيقة منسوبة لولي العهد: محمد الشيخ المأمون بن أحمد المنصور الذهبي

مؤرخة في: أوائل محرم991هـ/يناير1583م

المصدر: مديرية الوثائق الملكية - الرباط، محفظة العصر السعدي، دون ترقيم

شكل: 68

بناء على ما سبق، يمكن القول إن الوثائق التي استشهدنا بها، تُعد دليلا ماديا صريحا على أن نص الطغراء السلطانية قد تغير في عهد المنصور الذهبي، فقد رأينا أن نصها كان يتألف من "**اسم السلطان**" الذي رُسم عادة بعد عبارة الحمدلة، لأنه لا يعقل أن تسبق الطغراء - في هذه الحالة - "**عبارة الافتتاح**" التي جرت العادة عند المغاربة بأن يختاروا لها عبارة: "**الحمد لله وحده**". بدل عبارة: "**بسم الله الرحمن الرحيم**" التي اختارها المشارقة للغرض نفسه.

ولا شك أن أحمد المنصور الذهبي رجع إلى العلامة المغربية الصرفة التي كانت سائدة في عصر الموحدين، حيث "**كانت علامتهم في أول صكوكهم بعد البسملة: والحمد لله وحده**"[54]. ومعلوم أن الموحدين كانوا يبتدؤون علامتهم (الحمدلة) بواو العطف التي تفيد وقوع الحمدلة بعد البسملة، فيُراد بالبسملة الافتتاح، ويراد بالحمدلة العلامة، لذلك كتبوا الحمدلة بخط بارز جلي، وذلك حتى يميزوها عن البسملة وباقي نص الوثيقة؛ كما لاحظناه مثلا من خلال رسالة أبي حفص عمر المرتضى الموحدي، وغيرها من الرسائل الموحدية (راجع شكل:51).

وعلى العموم، يمكن القول إنه وعندما استُبدل اسم السلطان بعبارة الحمدلة في رسم الطغراء السعدية، أصبحت للطغراء السعدية وظيفتين اثنتين؛ أولاهما تفيد **الافتتاح**، فوُضعت تبعا لذلك في طرة الوثيقة، أما الثانية فتفيد **التوقيع الرسمي للدولة**، فرُسمت وِفق شكل الطغراء الرسمي الذي توارثه السعديون اعتبارا من عهد أحمد الأعرج إلى آخر دولتهم، حيث لم يتغير شكلها رغم تغير نصها بعد معركة وادي المخازن، وتحديدا في عهد أحمد المنصور الذهبي.

وإذا كان أقدم توقيع يرجع إلى السلطان الثاني للسعديين؛ أحمد الأعرج مقابل عدم عثورنا على أي توقيع يتصل بمؤسس الدولة السعدية؛ محمد المهدي القائم بأمر الله كما قلناه، فإن الأمر نفسه ينطبق على الدولة العثمانية، التي لم يُعثر على توقيع لمؤسسها عثمان بن أُرطغرل (699 - 726هـ/1300 - 1326م)، وذلك راجع إلى كون مؤسس الدولة العثمانية (الذي وُلد في السنة نفسها التي سقطت فيها بغداد ومعها الدولة العباسية على أيدي التتار سنة: 656هـ/1258م) كان تحت سيادة السلطان السلجوقي. ومعلوم أن السلاجقة كانوا هم حماة الدولة العباسية في الفترة التي تُعرف بالعصر العباسي - السلجوقي، أوما يُصطلح على تسميته بالعصر العباسي الرابع، الذي يسمى أيضا: "عصر آل سلجوق" (447 - 656هـ/1055 - 1258م).

وبعد سقوط بغداد، اضطر فرع من السلاجقة لمغادرة وطنهم بسبب فتنة جانكيزخان زعيم التتار وحفيده هولاكو، فاتجهوا إلى بلاد الروم، واستوطنوها ولذلك سموا بـ: "سلاجقة الروم"، حيث حكموا بلاد الأناضول بين (469 - 707هـ/1077 - 1308م)، وكان مقر دولتهم: إزنيق (نيقية ثم قونية) ابتداءا من سنة: 509هـ/1116م. وكان أُرطغرل من الرجال الأتراك الذين دخلوا في خدمة السلطان علاء الدين

[54] ابن الأحمر، مستودع العلامة، ص. 22

كيقباد بن كيخسرو بن قلج أرسلان بن طغرل السلجوقي، فأعجب به لشجاعته، وقرّبه إليه، ثم زاد في إكرامه وعطائه بعد أن فُتحت على يديه كثير من البلاد، سيما وأنه ساند السلاجقة في حروبهم ضد التتار والمغول الذين أسقطوا مهد الخلافة العباسية، وأوقف زحفهم باتجاه الغرب، وهو ما استدعى من السلطان السلجوقي القيام بمكافأته على ذلك بإقطاعه عدة أقاليم ومدن قصد حمايتها، وصار بعد ذلك لا يعتمد في حروبه مع مجاوريه إلا عليه وعلى رجاله، بعدما لقّب قبيلته "بمقدمة السلطان" لوجودها دائما في مقدمة الجيوش، ولقّبه بـ "حارس الحدود"، إلى درجة نُعت معها في المصادر التاريخية بـ "غازي الثغور .

وبعد وفاة أرطغرل سنة: 680هـ/1281م، كتب السلطان علاء الدين لابنه عثمان بالإمارة سيداً على عشيرته وحاكماً لمقاطعة أبيه، وأرسل إليه خلعة وسيفا كعادته عند تثبيت الأمراء، وهي العادة التي سيرثها عنهم العثمانيون في تعيين قوادهم وأمرائهم، فأخذ عثمان يشن الغارات والحملات الهجومية على البيزنطيين، ويكسب منهم قلاعاً وقرى ويضمها لحساب الدولة السلجوقية. حتى منحه السلطان علاء الدين لقب: "**بك**"، وهو مصطلح تركي كان يُطلق على كبار القادة، والكاف هنا تُنطق ياءً، وقد اعتمده العثمانيون - بعد السلاجقة - كلقب لحاكم الولاية أو المقاطعة، ولم يشع استعماله إلا بعد سيطرة العثمانيين على البلاد العربية[55]، ومنه يمكن القول إن عثمان بن أرطغرل - قبل تأسيسه للدولة العثمانية - كان مجرد قائد سلجوقي، يفتح البلدان باسم السلطان التركي - السلجوقي: علاء الدين كيقباد الثالث، الذي سيكافئه بإقطاعه كافة الأراضي التي فتحها.

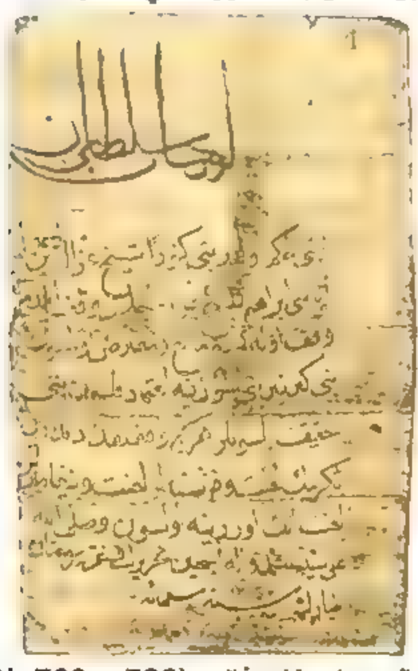
في ظل هذه الظروف، هاجم التتار في سنة: 699هـ/1300م مدينة قونية، وقُتل أثناء تلك الهجمة الشرسة علاء الدين كيقباد الثالث وابنه غياث الدين، ولم يكن على الساحة من يخلفه غير عثمان (699 - 726هـ/1300 - 1326م) لقدرته وكفاءته، فانفتح بذلك المجال أمامه، واستأثر بجميع الأراضي التي كان يستحوذ عليها علاء الدين السلجوقي من قبل، فكان بهذا الإجراء التاريخي؛ المؤسس الأول للدولة العثمانية، ولعل هذا ما دفع كثيرا من الباحثين إلى إرجاع نشأة الدولة العثمانية إلى سنة: 699هـ/1300م. أي بعدما استطاع عثمان الاستقلال بإمارته الصغيرة عن الدولة السلجوقية. بينما يرجعها البعض الآخر إلى سنة: 704هـ/1304م، وهي السنة التي توفي فيها غياث الدين مسعود وهو آخر سلاطين سلاجقة الروم، ولم يُلقب عثمان بن أرطغرل بلقب: "السلطان" أو"الخان" إلاّ بعد وفاته، ومن ثم كان من المنطقي أن لا تكون له طغراء تُعبّر عن سيادته، سيما وأنه كان تابعا لسيادة السلاجقة، والمحقق لدينا أن ملامح الدولة العثمانية، كدولة ذات سيادة، لم تظهر بشكل واضح إلا مع ابنه أورخان (726 - 760هـ/1326 - 1359م) الذي سيتخذ من مدينة بورصة الواقعة في أقصى غرب الأناضول، عاصمة لملكه، وقاعدة لتحركاته، وهي المدينة التي تمكن في حياة والده من ضرب حصار عليها امتد لعشر سنوات إلى حين سقوطها في يده سنة: 726هـ/1326م.

---

[55] - محمود عامر، المصطلحات المتداولة في الدولة العثمانية، ص 369

وقد استمر أُورخان بعد وفاة والده في توغله داخل أراضي الدولة البيزنطية، حيث فتح إزمير (بروسه) سنة: 727هـ/1327م، وطاوشانلي سنة: 730هـ/1330م. واستطاع بذلك أن يفرض على الإمارات السلجوقية المجاورة كسلاجقة الشام وغيرهم، الدخول تحت سلطته والاعتراف الفعلي بحكمه، باعتباره الوريث الشرعي لعرش الدولة السلجوقية. وما زاد في شهرته؛ تمكنه من هزيمة الإمبراطور البيزنطي الذي حاول استعادة مدينة إزنيق من العثمانيين سنة: 732هـ/1331م. وقد بدأ السلطان أُورخان اعتبارا من ذلك التاريخ برسم طغرائه التي تُعبّر عن سيادته في كافة مراسلاته وأوامره، ويُعد أُورخان هذا؛ هو أول أمير عثماني تلقب بلقب السلطان، بعدما كان أبوه عثمان بن أُرطغرل يتلقب بلقب: "بك نظير دخوله بادئ الأمر في خدمة السلطان السلجوقي علاء الدين كيقباد الثالث، ونلاحظ هذا الأمر بوضوح في وثيقة لأورخان ينعت فيها أباه بلقب: "بك" من خلال توقيعه: "**أورخان بن عثمان بك**"، وفي وثيقة أخرى نسب السلطنة لأبيه من خلال توقيعه: "**أورخان بن سلطان**"، ويُعزى ذلك - حسب تقديري الخاص - إلى كون هذه الوثيقة مؤرخة في نهاية السنة الأولى، وبداية السنة الثانية من تأسيس الإمبراطورية العثمانية، وبالضبط في: فاتح رمضان 700هـ/10ماي 1301م، وهي بذلك تجسد الانتقال من طور التبعية للسلاجقة التي كان يُستعمل فيها لقب: "بك" (أورخان بن عثمان بك)، إلى طور تأسيس الدولة التي أضحى يُستعمل فيها لقب: "سلطان" (أورخان بن سلطان). (انظر شكل: 69).

وثيقة لثاني سلاطين العثمانيين؛ أورخان غازي (726 - 760هـ/1326 - 1359م)، ونصها: "أورخان بن عثمان بك"، مؤرخة في: صفر 754هـ/مارس 1353م.



وقفية متوجة بتوقيع ثاني سلاطين العثمانيين؛ اورخان غازي (726 - 760هـ/1326 - 1359م)، ونصه: "أورخان بن سلطان"، وذلك عندما كان أميرا في عهد والده، وهذه الوقفية مؤرخة في نهاية السنة الأولى، وبداية السنة الثانية من تأسيس الإمبراطورية العثمانية وبالضبط في: فاتح رمضان 700هـ/10 ماي 1301م.

المصدر: الأرشيف العثماني - استانبول.

شكل: 69

وفيما يلي توقيعات منوعة باسم أُورخان، استخرجنا بعضها من (الأشكال: 69 - 70 - 71)؛ وهي توضح كيفية انتقال هذا الأمير من استعمال لقب: "بك" إلى لقب: "سلطان"، ثم إلى استعمال: "اسم السلطان واسم أبيه" (فلان بن فلان)، وهي الميزة التي ستصاحب طغراوات سلاطين آل عثمان حتى سقوط دولتهم سنة: 1342هـ/1924م، وجدير بالذكر؛ أن تسمية: "**سلطان**" قد استُبدلت بعد عهد أورخان في الرسم الطغرائي العثماني بتسمية: "خان" التي لها المدلول نفسه المرتبط بسيادة الأمير الحاكم:

بعض التوقيعات المستخرجة من (الأشكال: 69 - 70 - 71):



توقيعـات طغرائية باسم السلطان أورخان غازي. توضح كيفية انتقال هذا الأمير من استعمال لقب: "بك" إلى لقب: "سلطان"، ثم إلى استعمال: "اسم السلطان واسم أبيه" (فلان بن فلان)

بناء على ما سبق، يمكن القول إن أقدم "**توقيع طغرائي - عثماني**"، هو توقيع ثاني سلاطين العثمانيين؛ أُورخان غازي، إلا أن ذلك التوقيع لم يكن له شكل موحد، كما أنه لم يتصف بسمات الطغراء العثمانية الحديثة، مما جعل منه مجرد توقيع باسمه. وهذا الأمر؛ نلاحظه - على سبيل المثال - من خلال وثيقة يرجع تاريخها إلى سنة: 724هـ/1324م، يظهر في طرفها العُلوي توقيع هذا السلطان الذي يتميز بوجود الألفات المنضدة على غرار الطغراوات المملوكية والهندية والصفوية التي قمنا بدراستها في الباب الأول لهذا الكتاب. (انظر شكل: 70).(للمقارنة؛ راجع الأشكال: 6 - 16 - 17 - 22).

ولم تظهر بعض السمات الطغرائية في توقيع أورخان غازي، إلا في حدود سنة: 749هـ/1348م، وذلك من خلال بعض التقوسات التي طبعت أحرف النون في كلمات: "**أورخان**" - "**بن**" - "**عثمان**"، ونلاحظ هذا الأمر بجلاء في فرمان محرر باسمه يرجع تاريخه إلى سنة: 749هـ/1348م. (انظر شكل:

71)، وقد كانت هذه التقوسات هي الصورة الجنينية للأشكال البيضوية التي ستتميز بها الطغراء العثمانية، وهي الأشكال التي سيتم اختزالها في بيضتين ملفوفتين، تحتوي إحداهما الأخرى وفق نسق متناغم ومتجاوب، تتعانقان من خلاله بالألفات القائمة، ثم تقطعها في اتجاه اليمين، وهما (أي: البيضتان)، تُعبّران عن حرف النون في كلمتي: "ابن" و "خان"، وقد ظهرتا في التوقيعات الطغرائية العثمانية لأول مرة في عهد ثالث سلاطين العثمانيين؛ مراد الأول (760 - 791هـ/1359 - 1389م)، كما نلاحظه من خلال وثيقة مؤرخة في سنة: 767هـ/1366م. (انظر شكل: 72)، واعتبارا من ذلك التاريخ أصبحت البيضتان أبرز سمة وراثية للطغراء العثمانية.

وبعد مراد الأول أصبح استعمال البيضتين في الطغراء العثمانية قاعدة بنيوية لا تستقيم الطغراء إلا بها، حيث أخذ تشكيل البيضتين يتطور تدريجيا من خلال طغراوات السلاطين العثمانيين الأوائل رغم بعض الفتن التي كادت تعصف بالدولة العثمانية خلال طور نشوئها، ونخص بالذكر؛ "دور الفترة" (فترت دوري)، وهي الفترة التي تميزت بالنزاع حول العرش بين أبناء بايزيد الأول (791 - 804هـ/1389 - 1402م)، وانتهت بانتقال الحكم نهائيا لابنه الأكبر محمد جلبي الأول (805 - 824هـ/1403 - 1421م)، ابتداء من سنة: 816هـ/1413م، إلى غاية وفاته سنة: 824هـ/1421م، وذلك بعد مايقارب 11سنة من الصراع والتطاحن[56]. وقد حرص هذا السلطان على استعمال الطغراء في سائر مكاتباته ومراسلاته الرسمية في كل المراحل التي حكم فيها، بما في ذلك مرحلة الصراع بينه وبين إخوته، ولا شك أن هذا الإصرار على استعمال الطغراء في جل الوثائق، بل وحتى في النقود كما سنطلع على ذلك، هو ما دفع المؤرخين إلى نعته بصفة: المؤسس الثاني للدولة العثمانية[57]. ويسترعي انتباهنا اهتمام محمد جلبي كثيرا بتجويد الرسم الطغرائي وتحسين شكل بيضتيه، كما يُلاحظ ذلك - على سبيل المثال - من خلال وقفية مؤرخة في سنة: 814هـ/1411م.(انظر شكل: 73).

والأكيد أن الدولة العثمانية قد عرفت استقرارا سياسيا في عهد هذا السلطان الذي ساهم في ترسيخ التقاليد السلطانية المساهمة بدورها في تطوير الطغراء في العهود التالية؛ ابتداء من عهد ابنه السلطان مراد الثاني (824 - 847هـ/1421 - 1444م)، الذي سيتخلى عن مقاليد الحكم لصالح ابنه محمد الثاني (الفاتح)، قبل أن يستردها مرة أخرى، ويظل في الحكم إلى حين وفاته (849 - 855هـ/1446 - 1451م). لتواصل الطغراء العثمانية في عهده تطورها للمرة الثانية.

ولرصد شكل الطغراء في عهد السلطان مراد الثاني؛ نقترح وثيقتين اثنتين ترجعان لعهده: أولاهما مؤرخة في: 3 ربيع الأول 830هـ/2 يناير 1427م. (انظر شكل: 74)، والثانية مؤرخة في: 11 جمادى الأولى 833هـ/5 فبراير1430م. (انظر شكل: 75).

---

56 اورتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ج/1، ص. 113

57 المرجع نفسه ج/1، ص: 119



وقفية ترجع إلى عهد ثاني سلاطين العثمانيين؛ أورخان غازي(726 - 760هـ/1326 - 1359م)، عندما كان أميرا في عهد والده، ويرجع تاريخها إلى سنة: 724هـ/1324م

المصدر: المكتبة البلدية - استانبول، رقم: 10.

شكل: 70

تفصيـــــــــــل:



برطاي ات ويرال ات وردي خليل بك
برات وردي ابرهيم بك برات وردي
حاج پاشايه و زيرلك بر قرموزي تخته
بر خاص الخاص وردي شهود عدول كه بو
مكتوبك مضمونه حاضر دلر ذكر قلدلـر

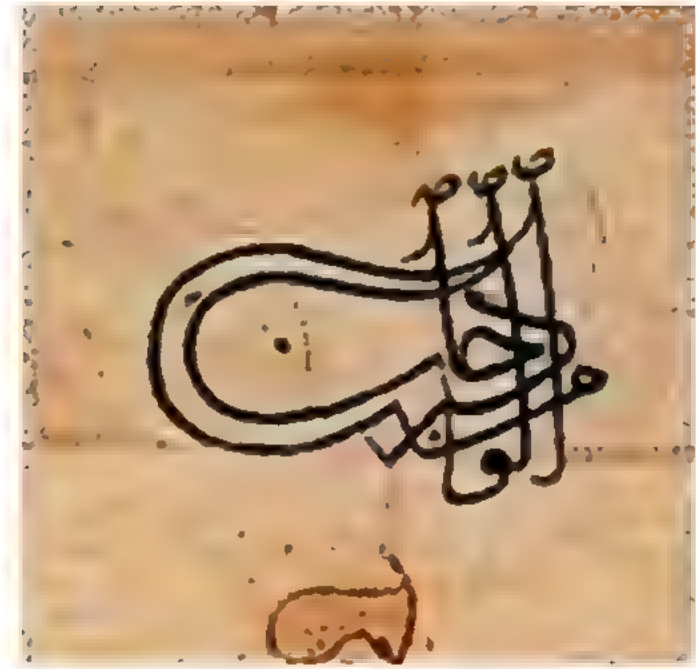
مقطع كتابي يظهر استعمال خط النسخ في تحرير مضامين الوثائق العثمانية الأولى قبل ابتكار الخط الديواني

فرمان سلطاني يرجع إلى عهد ثاني سلاطين العثمانيين؛ أورخان غازي (726 - 760هـ/1326 - 1359م)، يرجع تاريخه إلى سنة: 749هـ/1348م

المصدر: طوب كابي سراي - استانبول، رقم: Arcives E.10789

شكل: 71

تفصيـــــــــــل:



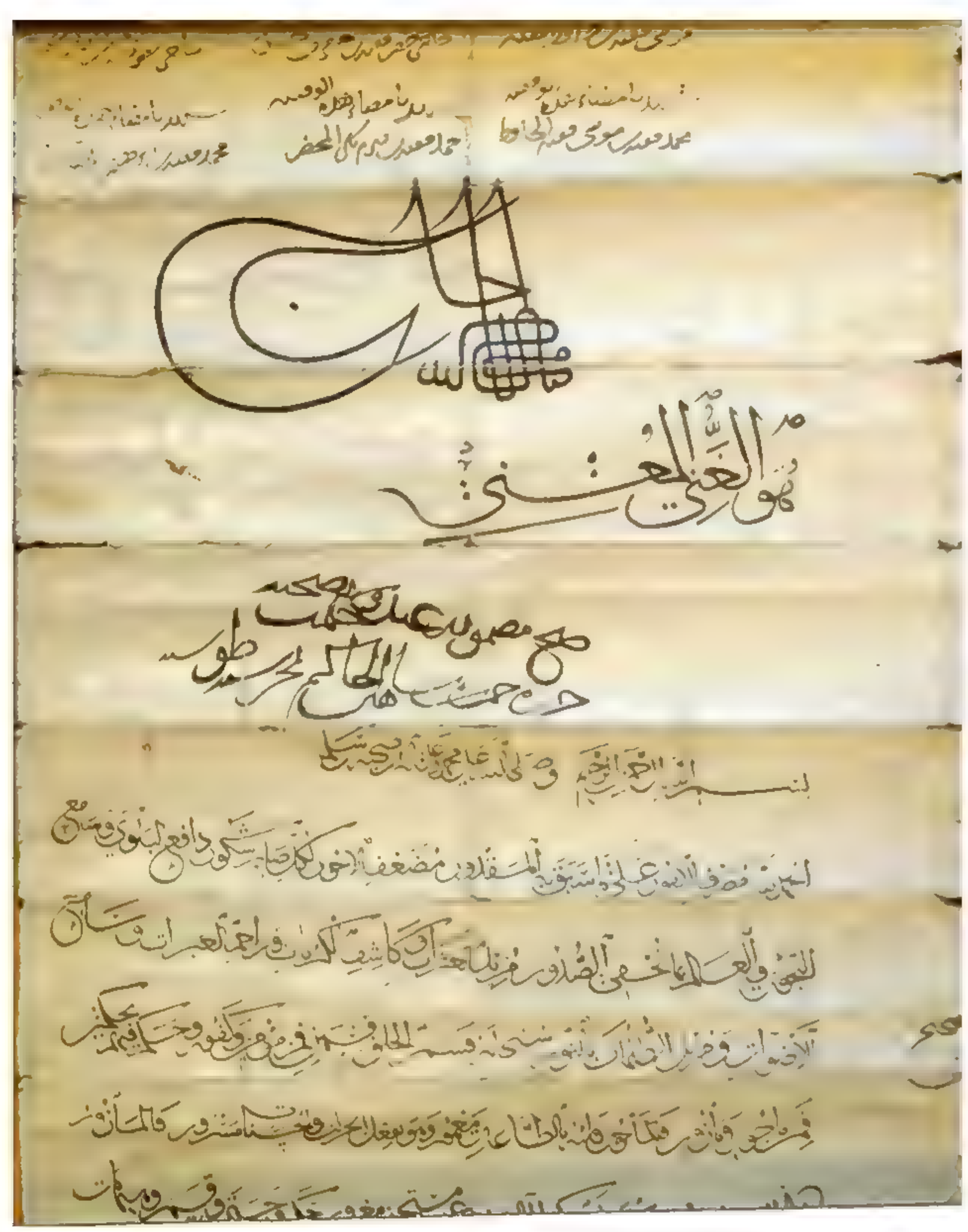
طغراء مراد الأول

مقطع كتابي يظهر استعمال خط النسخ في تحرير مضامين الوثائق العثمانية الأولى قبل ابتكار الخط الديواني

وقفية ترجع إلى عهد ثالث سلاطين العثمانيين؛ مراد الأول (760 - 791هـ/1359 - 1389م)، يرجع تاريخها إلى سنة: 767هـ/1366م

المصدر: طوب كابي سراي - استانبول، رقم: Arcives S.P.155

شكل: 72



مقطع من "وقفية" ترجع إلى عهد السلطان العثماني محمد جلبي الأول بن بايزيد الأول (805 - 824هـ/1403 - 1421م).
مؤرخة في: 814هـ/1411م.
المصدر: متحف شكيب صبانجي - استانبول.

شكل: 73



بسم الله الرحمن الرحيم

هو الموقف

جميع ما تضمنته هذه الوقفية ومحتواها من اولها

الى اخرها عندي صحت ولدى ثبت باعتراف

الواقف المومى اليه اعلى الله شانه وحكمت

بصحتها انا احمد بن عبد الرحمن بن محمد

المصلحي القاضي بمدينة

اماسية غفر لهما العلي

مقطع من "وقفية" ترجع إلى عهد السلطان العثماني مراد الثاني (824 - 855هـ/1421 - 1451م).
مؤرخة في: 3 ربيع الأول 830هـ/2 يناير 1427م.
المصدر: المكتبة الوطنية - برلين، رقم: 314 - 1989
شكل: 74



مقطع كتابي يظهر استعمال "قلم التوقيع" العربي في تحرير مضامين الوثائق العثمانية الأولى قبل ابتكار الخط الديواني



فرمان سلطاني يرجع إلى عهد السلطان العثماني مراد الثاني (824 - 855هـ/1421 - 1451م).
مؤرخ في: 11 جمادى الأولى 833هـ/5 فبراير1430م.
المصدر: طوب كابي سراي - استانبول، رقم: Arcives E.6465
شكل: 75

من خلال الوثائق السابقة إذن، نستشف أن الطغراء المشرقية في بواكير ظهورها، لم يكن لها شكل محدد، بل طرأ عليها تطور ملحوظ ومستمر حتى جاء العثمانيون، حيث أخذت شكلها الثابت[58]. ونحن نضيف من باب المقارنة إلى أن الطغراء المغربية طرأ عليها ما طرأ على الطغراء المشرقية، حيث تطورت واتخذت أشكالا مختلفة إلى أن استقرت على شكلها الثابت إبّان الدولة السعدية، رغم كونها لم تستمر بالقدر نفسه الذي استمرت به الطغراء العثمانية التي عرفت أكبر قدر ممكن من التجويد والتحسين منذ تأسيس الدولة العثمانية إلى تاريخنا المعاصر ولا تزال..

2 - 2 - الأختام والطوابع:

تُعرف دراسة الأختام عند المستشرقين باسم: "السجيلوغرافيا" (**Sigillography**) أوالسفراجستيك، وهي الدراسة التي تهتم بتحديد مادة هذه الأختام وطُرُزها، وفتراتها الزمنية، وقراءة النصوص الواردة فيها، وصولا إلى ما يمكن أن تقدمه لنا من معلومات تتعلق بعلم الوثائق ومناهجه[59].

وللإشارة، فإننا قد أوردنا الأختام السلطانية على صيغة الجمع في عنوان هذا الكتاب، لأنها لم تكن علامة مميزة للدولة، بقدر ما كانت طابعا لإضفاء صفة الرسمية على الوثائق السلطانية، كما أنها لم تكتسب الأهمية نفسها التي اكتسبتها الطغراء، بالرغم من كون بعضها قد تم تعزيزه بطغراوات تتوسطها كقيمة مضافة.

وقد كانت الأختام السعدية تتراوح أحجامها بين: *الضخامة المبالغ فيها إلى درجة تسرق معها الأنظار عن نص الوثيقة كما نلاحظه من خلال (الأشكال: 76 - 78 - 82 - 83 - 84)، وبين: *الاعتدال والتوسط في الحجم، مما يجعلها تتوسط الوثيقة في طرتها كما نلاحظه من خلال (الأشكال: 80 - 81 - 85 - 86 - 87)، بل ووردت: *متناهية الصغر في بعض الوثائق إلى درجة يصعب معها الانتباه إليها كما نلاحظه من خلال (الشكل: 79)، ويكون الخاتم كبيرا إلى حد الشطط تبعا لرغبة السلطان، الذي قد يُفضل استعماله عن الطغراء في مكاتباته، فيحلّ محلّها ليتخذ علوها وجلالها، وهذا وقفنا عليه - على سبيل المثال - عند عبد الله الغالب السعدي (964 - 982هـ/1557 - 1574م).(انظر شكل: 76). وعند محمد الشيخ الأصغر بن زيدان (1046 - 1064هـ/1636 - 1654م)، الذي يعد خاتمه أجود الأختام السعدية على الإطلاق (انظر الأشكال: 82 - 83 - 84).

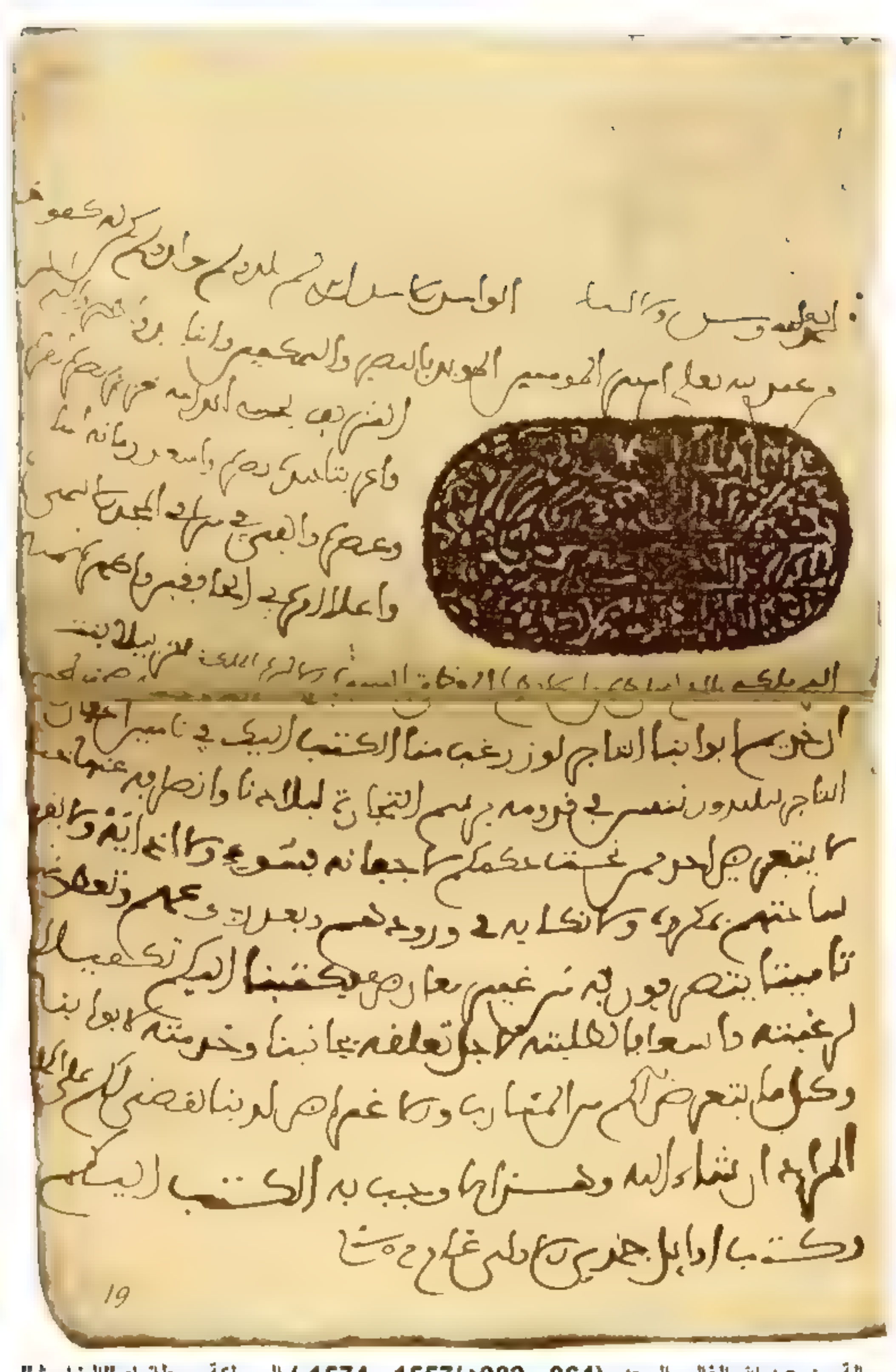
---

[58] - فضائلي، أطلس الخط والخطوط، ص: 521

[59] - علم دراسة الاختام، هو مايعرف بالسجيلوغرافيا أو السفراجستيك، أي: العلم الذي يهتم بدراسة الأختام والطمغات والتواقيع والإمضاءات، ومعرفة موادها وكذلك الرموز والإشارات والنقوش والكتابات والرسوم التي حفرت عليها، مما يزود المؤرخ بمعلومات قيمة عن العصر الذي دونت فيه الوثيقة أو الفترة التاريخية التي يكتب عنها

الألوسي (سالم)، الدبلوماتيك أو دراسة الوثائق ونقدها، بغداد، دار الحرية للطباعة، مطبعة الجمهورية، 1974م

نقلا عن الدهاس (سندس)، مصطلحات الدبلوماتيك، علم دراسة الوثائق ونقدها، مجلة الموروث، العدد الرابع والسبعون أبريل 2014م دون ترقيم



رسالة من عبد الله الغالب السعدي(964 - 982هـ/1557 - 1574م) إلى ملكة بريطانيا: "اليزابيث" مؤرخة في: جمادى الأولى 977هـ/أكتوبر1569م[60].

المصدر: عن الاصل المحفوظ في مكتبة بريتيش (المتحف البريطاني سابقا) - لندن

شكل: 76

60 - de Castnes, Les sources Archives et bibliothèques d' angleterre. Tom I. P.100 - 101.



وثيقتان ترجعان إلى عهد أحمد المنصور الذهبي (986 - 1012هـ/1578 - 1603م)، مؤرختان في سنة: 981هـ/1573م.

المصدر: مديرية الوثائق الملكية - الرباط. محفظة العصر السعدي. دون ترقيم

شكل: 77



وثيقتان ترجعان إلى عهد أحمد المنصور الذهبي (986 - 1012هـ/1578 - 1603م)، مؤرختان في سنة: 986هـ/1578م.

المصدر:

الأولى: محفوظة بجامعة أوكسفورد - المملكة المتحدة (بريطانيا).

الثانية: مديرية الوثائق الملكية - الرباط. محفظة العصر السعدي. دون ترقيم

شكل: 78

وثيقة محررة بالحرف اللاتيني، ترجع إلى عهد أحمد المنصور الذهبي (986 - 1012هـ/1578 - 1603م)،
مؤرخة في: 19 شعبان 998هـ/23 يونيو1590م.
المصدر: مكتب الأرشيف العام (Public Record Office) - لندن
شكل: 79



ظهير سلطاني يرجع إلى عهد الوليد بن زيدان السعدي (1040 - 1046هـ/1631 - 1636م)، مؤرخ في: ذي القعدة 1041هـ/ماي1632م[61]

شكل: 80

---

[61] - Deverdun Gaston, Dahır sa 'dìde de renouvellement (1632) (Respect des coutumes et exonération d'impôt) In: Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée, N°13 -14, 1973 Mélanges Le Tourneau. I pp 313 - 317



رسالة من السلطان السعدي: محمد الشيخ الأصغر بن زيدان (1046 - 1064هـ/1636 - 1654م)، إلى الولايات العامة (هولندا)، مؤرخة في: 20 ربيع الأول 1051هـ/29 يونيو 1641م[62].

المصدر: عن الأصل المحفوظ في الأرشيف الوطني البلجيكي - بروكسيل

شكل: 81

[62] - de Castries , Les sources.. Archives et bibliothèques des Pays - Bas. Tom IV. P.526 - 527.



رسالة من السلطان السعدي: محمد الشيخ الأصغر بن زيدان (1046 - 1064هـ/1636 - 1654م)، إلى الولايات العامة (هولندا)، مؤرخة في: رمضان 1048هـ/يناير 1639م[63].

المصدر: عن الأصل المحفوظ في الأرشيف الوطني البلجيكي – بروكسيل

شكل: 82

---

[63] - de Castries, Les sources Archives et bibliothèques des Pays - Bas. Tom IV. P.480 - 481



رسالة من السلطان السعدي: محمد الشيخ الأصغر بن زيدان (1046 - 1064هـ/1636 - 1654م)، إلى الولايات العامة (هولندا)، مؤرخة في: فاتح رمضان 1053هـ/13 نونبر 1643م[64].

المصدر: عن الأصل المحفوظ في الأرشيف الوطني البلجيكي - بروكسيل

شكل: 83

64 - de Castries, Les sources Archives et bibliothèques des Pays-Bas. Tom V. P.54 - 55



رسالة من السلطان السعدي: محمد الشيخ الأصغر بن زيدان (1046 - 1064هـ/1636 - 1654م)، إلى الولايات العامة (هولندا)، مؤرخة في: رجب 1054هـ/شتنبر 1644م[65].

المصدر: عن الأصل المحفوظ في الأرشيف الوطني البلجيكي - بروكسيل

شكل: 84

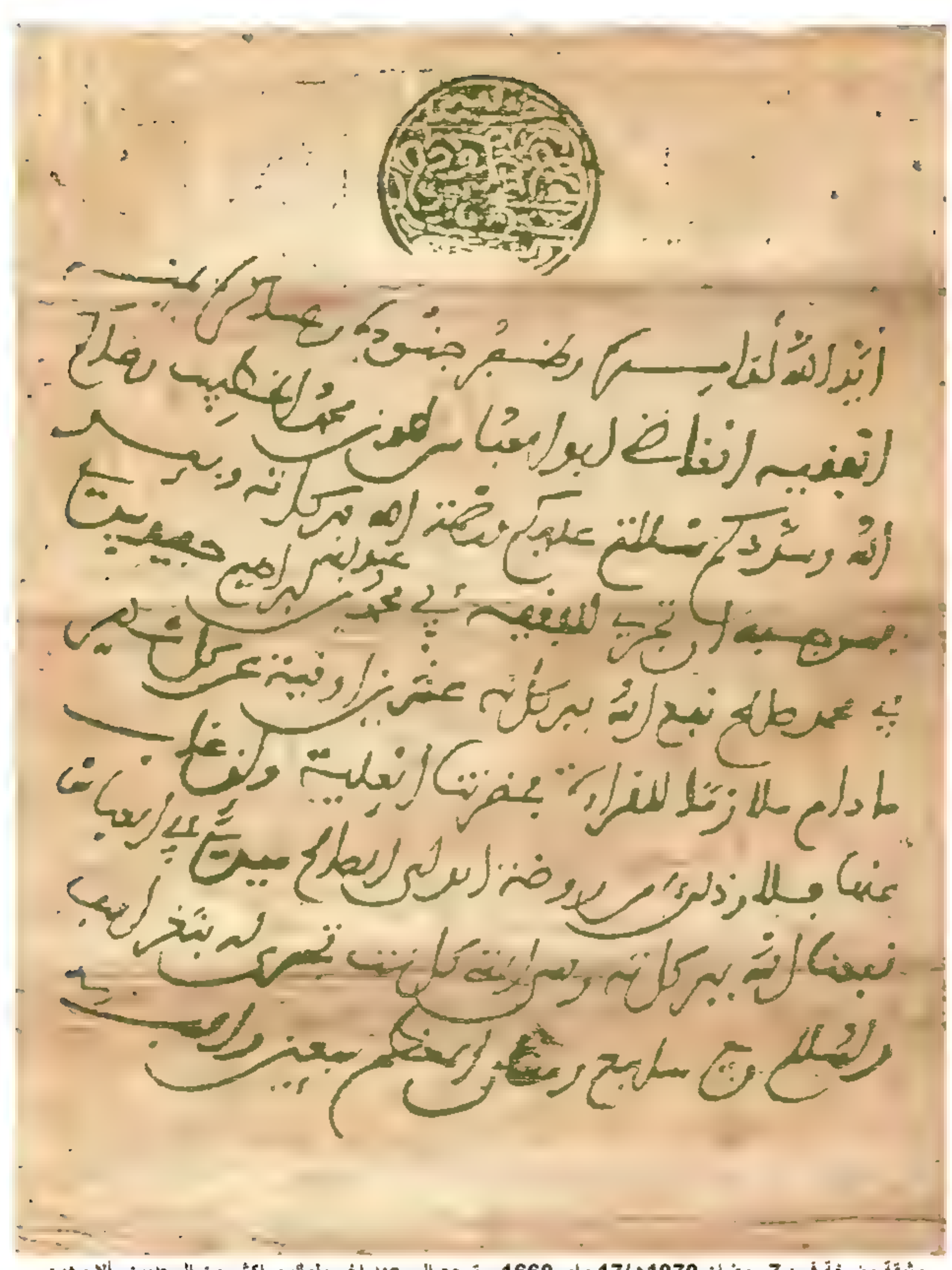
- [65] de Castries, Les sources Archives et bibliothèques des Pays- Bas. Tom V. P.90 - 91



رسالة سعدية مؤرخة في: 23 جمادى الأولى 1070هـ/5 فبراير 1660م، تزامن تاريخها مع السنة التي سقط فيها آخر فرع للدولة السعدية بمملكة مراكش، لتكون بذلك هذه الوثيقة من أواخر الوثائق سعدية

المصدر: مديرية الوثائق الملكية - الرباط، محفظة العصر السعدي. دون ترقيم

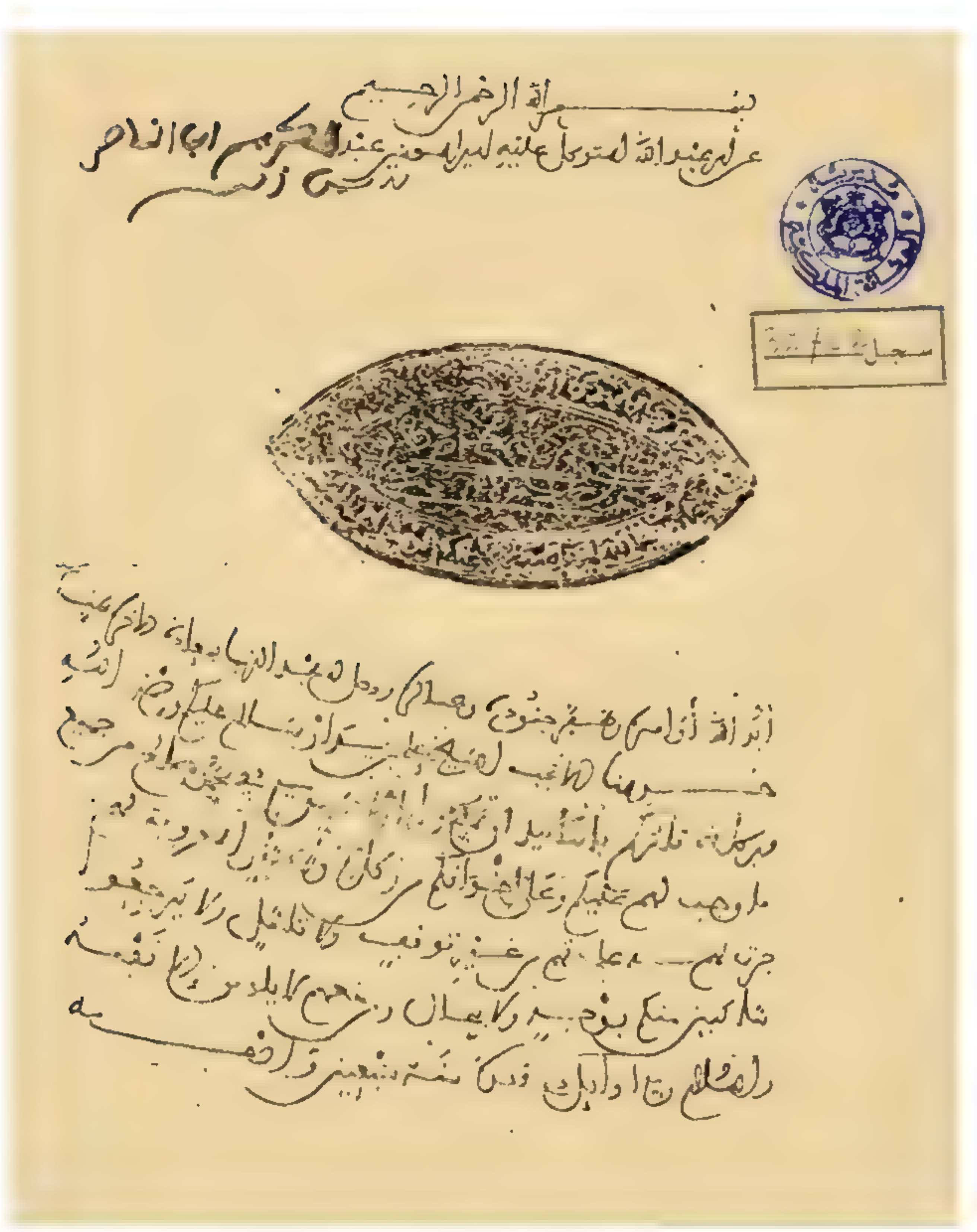
شكل: 85



وثيقة مؤرخة في: 7 رمضان 1070هـ/17 ماي 1660م. ترجع إلى عهد اخر ملوك مراكش من السعديين، ألا وهو: أحمد العباس بن محمد الشيخ الأصغر (1064 - 1070هـ/1654 - 1660م)، وقد تزامن تاريخ هذه الرسالة مع آخر سنة من حياة هذا السلطان، وهي السنة التي سقط فيها اخر فرع للدولة السعدية بمملكة مراكش، لتكون بذلك هذه الوثيقة من أواخر الوثائق سعدية

المصدر: مديرية الوثائق الملكية - الرباط. محفظة العصر السعدي. دون ترقيم

شكل: 86



بسم الله الرحمن الرحيم

رسالة سعدية مؤرخة في ذي القعدة 1070هـ/15 يوليوز 1660م، استعمل فيها خاتم السلطان محمد الشيخ الأصغر السعدي (1046 - 1064هـ/1636 - 1654م) بعد وفاته بست سنوات، وقد تزامن تاريخها مع السنة التي سقط فيها اخر فرع للدولة السعدية بمملكة مراكش، لتكون بذلك هذه الوثيقة من أواخر الوثائق سعدية

المصدر: مديرية الوثائق الملكية - الرباط سجل: 32702.

شكل: 87

وبشكل عام، يمكن القول إن الأختام لم تكتس الأهمية نفسها التي اكتستها الطغراء، وذلك لأن الطغراء (العلامة) كانت موحدة في شكلها ونصوصها، كما أنها كانت "**توقيعا وراثيا**" للدولة السعدية، مما يُعبّر عن دلالتها الرمزية المتعلقة بالسيادة، أما الأختام فقد كانت متعددة الأشكال والنصوص، بل وحتى الأحجام، فكان منها ما يتضمن اسم السلطان والدعاء له، وقد يُضاف إليه بعض النصوص الدينية، وخاصة الآيات القرآنية الشريفة، التي تُذكّر بشرف سلاطين الدولة السعدية، والآيات التي تحث على العدل والإحسان، وهنا يمكن القول إن الأختام السلطانية لم تكن مختلفة من سلطان إلى سلطان، بل كان السلطان نفسه يستعمل عدة أختام تتنوع أشكالها بين البيضوي والمستدير والمفصص والهرمي وما إلى ذلك.. (راجع الأشكال السابقة. من شكل: 76 إلى شكل: 87)، وأغلب هذه الأختام تتكون من ثلاثة شرائط محيطية؛ تتضمن آيات قرآنية كما سنقف على ذلك من خلال دراستنا التشريحية لبعض الأختام. وهي كما يلي:

- **الشريط الأول، كُتب فيه: "إن الله يامر بالعدل والإحسان"**[66].
- **الشريط الثاني، كُتب فيه: "إن أريد إلا الاصلاح مااستطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت"**[67].
- **الشريط الثالث، كُتب فيه: "إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا"**[68].

وقد ذُكرت الأختام في الوثائق السعدية بتسمية: "**الخاتم**" و"**الطابع**"، ففي وثيقة لأحمد المنصور الذهبي؛ مؤرخة في سنة: 983هـ/1575م، ورد ما يلي: "**على الطابع الكريم المعروف لمولاي أحمد المنصور**"[69]. وفي وثيقة أخرى مؤرخة في سنة: 993هـ/1585م، نقرأ التالي: "... **من وقف فيه على وسطه فتحقق أنه من جملة خواتمه**". وورد أيضا في وثيقة ثالثة للسلطان نفسه؛ مؤرخة في سنة: 1007هـ/1598م: "**شهد بالمقابلة والمماثلة من وقف... على طابع مولانا أحمد المنصور بالله المعهود له**"، أمافي حديثه عن أم المنصور الذهبي؛ مسعودة الوزكيتية، فقد أشار ابن القاضي في المنتقى المقصور إلى أنها: "**وضعت له خاتمها المتضمن اسمها**"[70].

ويشير بعض الباحثين إلى أن التوقيعات والأختام التي تؤكد نفوذ الوثيقة، كان الغرض منها هو تنفيذ الأوامر حسب ما جاء في بعض الوثائق الوقفية، مثل عبارة: "**الذي تنفذ به أوامره العلية**"[71]. وكذلك: "**ومن جملة خواتمه التي تنفذ بها أوامره العلية المشهورة**"[72].

[66] - سورة النحل، الآية: 16

[67] - سورة هود، الآية: 11

[68] - سورة الأحزاب، الآية: 33

[69] - راجع وثيقة وقفية مؤرخة في سنة 983هـ/1575م

سعلة، تاريخ الأوقاف الإسلامية بالمغرب في عصر السعديين، ج/1، ص: 315

[70] - ابن القاضي، المنتقى المقصور، ج/1، ص 259

[71] - وردت في ظهير منصوري مؤرخ في سنة: 1007هـ/1598م

سعلة، تاريخ الأوقاف الإسلامية بالمغرب في عصر السعديين، ج/1، ص. 319

[72] - وردت في ظهير منصوري مؤرخ في سنة 993هـ/1585م. المرجع نفسه، ج/1، ص: 319

وكل هذه العبارات ماهي إلا علامات للمصادقة، تكتسب من خلالها الوثائق والمراسلات السلطانية صفتها الرسمية أو حسب مارمول كاربخال: "**تعني الحقيقة**"[73].

وفيما يلي شكل تجميعي جمعنا من خلاله جملة من الوثائق السعدية التي تتنوع أختامها حجما وصورة (انظر شكل: 88).

[73] - Henry de Castries, "Les signes de validation des chérifs saadiens", p. 236.



نماذج متنوعة ومختلفة الأحجام للأختام التي كانت تختم بها الرسائل السعدية اعتبارا من عهد أبي العباس أحمد المنصور الذهبي (986 - 1012هـ/1578 - 1603م).

شكل: 88

وفي الوقت الذي كانت الأختام السعدية تتميز فيه بالضخامة إلى درجة احتلت معها مكانةَ الطغراء واستُعملت بدلها، كان يغلب على الأختام العثمانية طابع الصغر. وذلك نظرا لتخصيصها للاستعمالات الحانية الخاصة بالسلطان، كتحبيس مخطوطات الخزانات السلطانية، أو بعض الرسائل الخاصة التي لا تكتسي طابعا تشريعيا. والملاحظ أن الأختام الطغرائية السعدية لم تكن كلها ضخمة، بل وجدنا منها ما كان متناهي الصغر كما نلاحظه من خلال أختام المنصور الذهبي التي كانت تتراوح بين الحجم المتوسط والصغير. ولتأكيد هذه الحقيقة؛ نقترح المقارنة التالية التي جمعنا من خلالها بين خاتمين سعديين؛ أحدهما متناهي الصغر وهو يرجع لعهد المنصور الذهبي، والثاني متناهي الكبر وهو يرجع إلى عهد محمد الشيخ الأصغر السعدي ملك مراكش (انظر شكل: 89).



مقطع من وثيقة محررة بالحرف اللاتيني، ترجع الى عهد احمد المنصور الذهبي، مورخة في: 19 شعبان 998هـ/23 يونيو 1590م. (راجع شكل: 79).

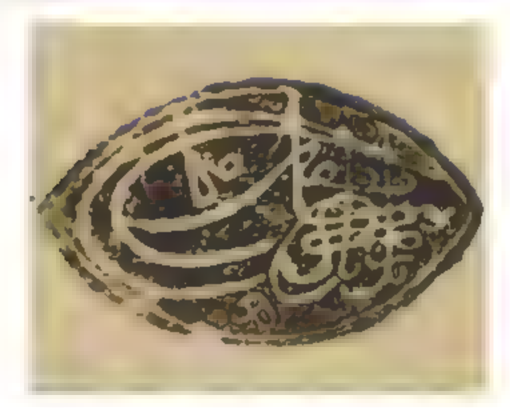
مقطع من رسالة للسلطان السعدي محمد الشيخ الاصغر بن زيدان إلى الولايات العامة (هولندا)، مؤرخة في: رمضان 1048هـ/يناير 1639م. (راجع شكل: 82).

مقارنة دلالية بين خاتمين سعديين متبايني الحجم
شكل: 89

وحتى يكتمل وجه المقارنة، نقترح من ناحية أخرى خاتما صغيرا منسوبا لأحمد المنصور الذهبي شبيها بالذي أدرجناه في الشكل: 89، باعتباره أصغر خاتم سعدي عثرنا عليه، وذلك بقصد مقارنته بخاتم عثماني شبيه به في الحجم والشكل والإخراج، والجدير بالذكر أن الأختام العثمانية لاتتجاوز هذا الحجم في الغالب الأعم، مما يؤكد أن السمة الغالبة على الأختام العثمانية هو طابع الصغر (انظر شكل: 90).



خاتم طغراني للسلطان السعدي؛ أحمد المنصور الذهبي (986 - 1012هـ/1578 - 1603م)،
على وثيقة تملكه لمخطوط: "كتاب مغني اللبيب عن كتب الأعاريب"، الذي ألفه
عبد الله بن يوسف الأنصاري الحنبلي. في سنة: 756هـ/1355م بمكة المكرمة
المصدر: دير الأسكوريال، سان لورينزو - إسبانيا، رقم: RBME Arabe 48



خاتم طغراني للسلطان العثماني؛ بايزيد الثاني (886 - 918هـ/1481 - 1512م)،
على وثيقة تملكه لمخطوط: "نهاية السؤل والأمنية في تعلم اعمال الفروسية"، الذي ألفه
محمد بن عيسى بن إسماعيل الحنفي الأقصرائي. ونسخه أحمد بن عمر بن
أحمد المصري في: 10 محرم 773هـ/24 يوليوز 1371م
المصدر: مكتبة بريتيش - لندن، رقم: Add.18866
مقارنة دلالية بين خاتم سعدي وآخر عثماني
شكل: 90

الشيء الذي يدفعنا للقول بأن الأختام السلطانية عند العثمانيين لم تتبوّأ المكانة نفسها التي تبوّأتها عند السعديين، حيث لم تستعمل الأختام عند العثمانيين إلا في بعض الأغراض الإدارية المحدودة، وعادة ماكان "**الرئيس أفندي**" وهو رئيس الكُتّاب في الديوان الهمايوني هو من يتكلف بهذه المهمة، ولذلك فإنه يسمى أيضا: "**المهردار**"، أي: "**حامل خاتم السلطان**"[74]. وجرت العادة في الديوان السلطاني العثماني أن

[74] دوسون، نظم الحكم والإدارة في الدولة العثمانية، ص: 72

يتم تقبيل "**الخاتم الهمايوني**" ووضعه على الرأس بغرض التوقير والتبرك قبل استعماله في ختم الرسائل الديوانية[75].

وفي هذا الشأن يشير دوسون إلى أن أول عمل يلتفت إليه السلطان العثماني بعد توليه الحكم هو أمر وضع شعاره (الطغراء) الذي يحوي اسمه واسم أبيه "**فيصنع الصدر الأعظم أشكالا مختلفة ويرسلها إلى للسلطان لينتقي منها ما أعجبه، وكل الأعمال أو الرسائل الصادرة عن العرش تختم بالطرة أو الطغراة، وهي تُرى أيضا مرسومة بالحبر على اختلاف ألوانه وغالبا بماء الذهب داخل الأبنية العامة وعلى المراكب الحربية وعلى بيوت موظفي الدولة كما هو الحال في أوربا عندما يعرضون صورة الملك أو صورة أسلحته، وتُطبع هذه الطغراة على النقود وعلى أربعة خواتم يحتفظ السلطان بواحد منها وتكون مربعة الشكل، ويعطى الخواتم الثلاثة الباقية وهي دائرية الشكل للصدر الأعظم ولقهرمانة الحريم، و (للخاص أوضة باشا)، وهو خِصي أبيض اللون كان فيما مضى أول موظف لغرفة السلطان، ويجري بأبهة تسليم الخاتم الإمبراطوري للصدر الأعظم.. [حيث] يذهب إلى السراي برفقة المفتي ووزراء وأمناء سر الدولة، فيدخل هو والمفتي غرفة العرش حيث يتسلم من يد السلطان الخاتم الامبراطوري، فيقبله باحترام راجيا لمولاه العز والسعادة، ويكون الخاتم بمثابة شهادة بثقة السلطان فيه وإشارة منه بتخويل وزيره القيام بأعباء وظيفته...... ويحمل الصدر الأعظم هذا الخاتم معه معلق بسلسلة من الذهب ضمن كيس صغير...**"[76]

---

75 دوسون، نظم الحكم والإدارة في الدولة العثمانية، ص. 99

76 المرجع نفسه، ص. 55 56

الفصل الثاني: مقارنة بين الطغراء السعدية والطغراء العثمانية وتعلقهما بمبدأ السيادة من خلال استعمالهما على مختلف الحوامل (Supports):

1 الطغراء عند العثمانيين الأتراك. دلالتها التاريخية وحقيقة استعمالها وموقع المغرب السعدي من ذلك الاستعمال:

كانت المكاتبات والرسائل في الدواوين السلطانية العثمانية تستفتح بـ: "**الطغراء**": (**tugra**) التي اتخذت شكلا معلوما بخط معلوم، وقد ذهب بعض الدارسين إلى أنها نوع مستقل من الخطوط[77]، بينما ذهب البعض الآخر إلى أنها فن عثماني مستقل يأخذ مكانه بين الكتابة والرسم[78].

والحقيقة ان الطغراء تعد مونوغراما (**monogramme**) سلطانيا، أوبالأحرى "**شعارا سلطانيا**"[79]، أو **شارة**"[80] على حد تعبير ابن الأحمر، لها شكل محدّد وُظِّفت الحروف العربية في رسمها. فهي تحمل في مدلولها ما يرمز إلى القوة و السيادة، كتوظيفها في كتابة اسم السلطان أوالدعاء له، استعملها بعض السلاطين في دواوينهم كنوع من التوقيعات والأختام التي تكون رسائلهم ممهورة بها.

ولا شك أن التوقيعات والعلامات السلطانية قد تطورت انطلاقا من مستهل العصر الحديث، لتصبح صورتها الفنية أكثر تعقيدا، وهنا نشير إلى أن العلامة السلطانية الخاصة بالعثمانيين، هي أول علامة أُطلق عليها - بشكل رسمي عند الباحثين - إسم: "**طغراء**"، وقد كانت على شكل إبريق أو نحوه، حيث يمكن اعتبارها أرقى ما وصل إليه فن الجمال الإبداعي بالخطوط المرقومة، والأشكال المرسومة، إذ أنها تمثل فن **التجريد** بعناصرها الباليوغرافية المتحررة عن **التجسيد**، كما تمثل حركة الكون المضطردة؛ من خلال ملىء فضاءاتها بضروب الزخارف النباتية المزهرة، الموزعة بشكل متسق ومتناسق. وفق نمط حلزوني يُرجى من ورائه شغل الفراغ الذي كان يتلافاه الفنان المسلم دائما ويتحاشاه.. وقد استطاع الفنّان المبتكر، خلق تحرر و استقلالية كبيرين في الأشكال والمسافات، بحيث أصبحت الكتابة ملغوزة ومستعصية في القراءة، إلا على ذوي الاختصاص، الذين يستطيعون تتبع نص الخطاط المتأرجح بين عالمين: عالم **الوقائع التجسيدية** من خلال نص الطغراء ودلالته، وعالم **التمثلات التجريدية** من خلال

---

[77] - لم يُعرف صنف مستقل من أصناف الخط العربي بشقيه المشرقي والمغربي بهذا الإسم: (الطغراء). إذ أن أصناف الخط معلومة لدى كل الباحثين بأسمائها المعروفة، وحتى لا نقع في الخلط. يجب تمييز هذه الأصناف عن بعض الأنماط الفنية التي جرت العادة بانجازها وفق معايير فنية معينة، يتداخل فيها ما هو خطي بما هو زخرفي، كالحلية النبوية الشريفة، والطغراء، وغير ذلك من الطرز الخطية.. لكن هنالك بعض المراجع التي نعتتها بـ "خط الطغراء" كما ورد ذلك على سبيل المثال في، "معجم مصطلحات المخطوط العربي" على غرار بعض المراجع المشرقية

انظر بنبين (أحمد شوقي)، طوبي (مصطفى)، معجم مصطلحات المخطوط العربي- قاموس كوديكولوجي، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، الطبعة الأولى 2003م، ص 99

[78] - انظر حنش، الخط العربي في الوثائق العثمانية، ص 201

[79] - دوسون، نظم الحكم والإدارة في الدولة العثمانية، ص 98

[80] سمّاها ابن الأحمر في كتابه: مستودع العلامة؛ بـ: "الشارة"، حيث قال فيها: "**والعلامة تكتب بقلم غليظ القطة، وهي شارة**" انظر ابن الأحمر، مستودع العلامة، ص 20

المسارات الهندسية لتفاصيلها الفنية المبتكرة، ففي الطغراء يهدف الفنان إلى استكناه الجمال المتناقض بين الغموض والوضوح، وامتياح التعبير المتذبذب بين التلميح و التصريح.

وباختصار، فإن الطغراء تُعدّ رسما ملغوزا وُظِّفت الحروف العربية في كتابتها توظيفا جماليا، خرجت معه عن قواعد الخط المعتبرة، حيث جرت العادة باستخدام خط الثلث المحوّر أو بالأحرى المزج بين خط الإجازة والخط الديواني في تحريرها.

وعموما يُشترط في رسم الطغراء أن يكون في أعلاها ثلاثة ألِفات أولامات، وقبضة كقبضة الإبريق من جهة اليسار، وفي الجهة المقابلة يتيامن خطّان ليشكّلا فوهة ذلك الإبريق، وهما انسيابيان متحاوبان تفصل بينهما المسافة نفسها، وقد حاول أحد الفنانين المعاصرين استغلال تفاصيلها الفنية في صناعة إبريق معدني، لتجسيد ذلك التشابه الموجود بينهما (انظر شكل: 91).



إبريق عثماني وُظفت الطغراء في صنعه لتجسيد التشابه بينهما[81].
شكل: 91

[81] - مرجع الصورة: www.kuranıkerimsatisi.com/haber/72

ولا شك أن هذا الفنان استلهم ذلك من خلال بعض الفرمانات العثمانية، التي استُغِلّت فيها ضروب الزخارف النباتية (التوريق) لتشكيل صورة الإبريق، من خلال خلق تجانس تام بين الخط والزخرفة، ليشكلا بذلك وجهين لعملة واحدة (انظر شكل: 92).



طغراء من فرمان عثماني للسلطان سليم III (1203 - 1222هـ/1789 - 1807م). مؤرخ في: 1209هـ/1795م، وقد رسمت الطغراء على شكل إبريق من خلال الاعتماد على التشكيل الزخرفي النباتي (التوريق).
شكل: 92

وتحكي روايات أخرى أن "بيضتا" الطغراء تمثلان البحرين الذيْن كانا تحت سيطرة السلطان العثماني، وهما: البحر الأسود والبحر الأبيض المتوسط. أما المنتصبات (الطوغات) الثلاث المرتفعة؛ فتمثل مع الزلفات النازلة عنها الأشرعة التي تهب مع الريح باتجاه الغرب، وهي جهة توسع العثمانيين كما يُلاحظ ذلك من خلال (الشكل: 93) الذي تُمثل الطغراء فيه شراعا السفينة، بينما تمثل "كلمته النشانية" (نشان): مؤخرة السفينة التي يستوي عليها السلطان، أما تتمة "عبارته النشانية" المعقوفة (نشان شريف عالي شان سامي.) فتمثل. مقدمة السفينة، ولعل هذا التماهي بين الدلالتين التجريدية والتجسيدية للخط؛ هو ما دفعنا لتسمية أسطر وتركيبات الديواني الجلي المنضدة بـ: "**الشكل التركيبي السفيني**". والملاحظ أن السفينة تتجه نحو الغرب في اتجاه الكتابة. وليس غريبا أن يكون الأمر كذلك، لأن معظم السلاطين العثمانيين

الأوّل، كان هاجسهم الدائم، هو الاتجاه نحو أقصى نقطة في الغرب، ومن ثم الاتجاه شمالا لاسترجاع الفردوس المفقود (الأندلس).



من أعمال الخطاط التركي أوزتين يانباستي (Öztin YANBASTI) ولد سنة: 1358هـ/1939م

شكل: 93

أما طوغات الطغراء التي ينحصر عددها في ثلاثة منتصبات، فهي تعبر عن "أمير البحر" الذي يذكر دوسون أنه كان من "ذوي الأطواغ الثلاثة"[82]. و"الطوغ" في القواميس التركية مرادف للكلمات التالية: "لواء"، أو"راية" ، أو"علم"، وكان الطوغ يُروّس ويتوّج عند الأتراك بخصلة أو ذؤابة من ذيل الفرس.. وهي عادة قديمة عندهم تشير إلى سيادة الدولة التي تستمد قوتها من خلال التوسع والفتح الذي كان يرمز له الفَرَس عند الأتراك كما سبق وفصلنا في ذلك في الباب الأول، ولمعرفة أشكال الأطواغ العثمانية؛ نقترح الشكل التالي الذي جمعنا فيه نماذج متنوعة لأطواغ العثمانيين، بعضها محفوظ بالمتحف العسكري بمدينة فيينا (انظر شكل: 94).



نماذج منوعة لطوغات سلطانية عثمانية، كانت بمثابة صولجان الحكم بالنسبة للسلطان العثماني الذي ورث ذلك من الثقافة التركية القديمة، وهي تبدو مروسة بذؤابة من ذيل الحصان

المصدر: المتحف العسكري (Heeresgeschichtliche Museum) - فيينا.

شكل: 94

[82] دوسون، نظم الحكم والإدارة، ص: 52

إن ما ذكرناه؛ يفسر بل ويعلل سبب اقتصار الطغراء العثمانية على ثلاثة طوغات فقط، حيث تبدو متجاوبة ومتساوقة، تنتهي في أعلاها بزلفات على شكل أشرعة أو خصلات من من ذيل الحصان، وربما تُعبر الزلفات أيضا عن ثوب أوبردة، وفي هذا الشأن يشير دوسون إلى أن أول من اتخذ الطوغ في الإسلام كشعار للملك، هو مؤسس الدولة الأموية؛ معاوية بن أبي سفيان رضي الله تعالى عنه، حيث اتخذ قضيبا معدنيا رَؤسه بربط ثوب من ثياب رسول الله صلى الله عليه وسلم ابتاعه بثمن باهض من أبناء الشاعر كعب بن زهير بن أبي سلمى الذي ألقى عليه النبي صلى الله عليه وسلم بردته بعد مدحه بقصيدته المشهورة (بانت سعاد)، وكان معاوية رضي الله عنه يتحلى أيام الاحتفالات بشارات الملك هذه، ثم مالبث أن ورث أبناؤه ذلك عنه[83].

ومن الملفت للنظر أن نجد ما ذكرناه عن الطوغات العثمانية مجسدا في مخطوط شُكِّلت من خلاله طغراء كتابية على شكل سفينة ذات أشرعة ثلاثة، ولتأكيد هذا التماهي والتناسق والتساوق في كنه المعنى وحقيقة الاستعمال، عمد الخطاط إلى رسم طغراء السلطان العثماني في مؤخرة السفينة التي تبدو إلى جانبها سفن أخرى تمخر عباب اليمّ في إشارة إلى الأسطول العثماني (انظر شكل: 96). وما ورد في هذا المخطوط الذي يُصور الأسطول العثماني، اتفق مع ما ذهب إليه دسون من كون العثمانيين كانوا يستعملون الطغراء كشارة في الأعلام العثمانية إلى حدود القرن التاسع عشر الميلادي، حيث يذكر أنهم كانوا يرفعون في سفنهم أعلاما يُميَّز من بينها علم أمير البحر وهو قائد الأسطول، وقد كان ذلك العلم عليه "**رمز السلطان (الطغرة)**"[84]. ويشير أيضا إلى أن "..**الطرة أو الطغراة**..[**كانت**] **تُرى.. مرسومة بالحبر.. داخل الأبنية العامة وعلى المراكب الحربية وعلى بيوت موظفي الدولة**"[85]. (انظر شكل: 95).



راية عثمانية احتوت على "كلمة التوحيد" وإلى جانبها "الشعار الطغراني"، كانت ترفع على سفن الأسطول العثماني كشارة عسكرية إلى حدود القرن التاسع عشر

المصدر: الارشيف العثماني العسكري - استانبول

شكل: 95

[83] - دوسون، نظم الحكم والإدارة في الدولة العثمانية، ص 50

[84] المرجع نفسه، ص. 191

[85] المرجع نفسه، ص 55

تركيب خطي من عمل عبد القادر الحصري مؤرخ في: 1180هـ/1766م يجسد إحدى سفن الأسطول العثماني، التي تمتلك ثلاث صوار شراعية وهو نفس عدد طوغات الطغراء التي رسمت خلف السفينة

المصدر: متحف الميتروبوليتان - نيويورك، رقم: 2003.241

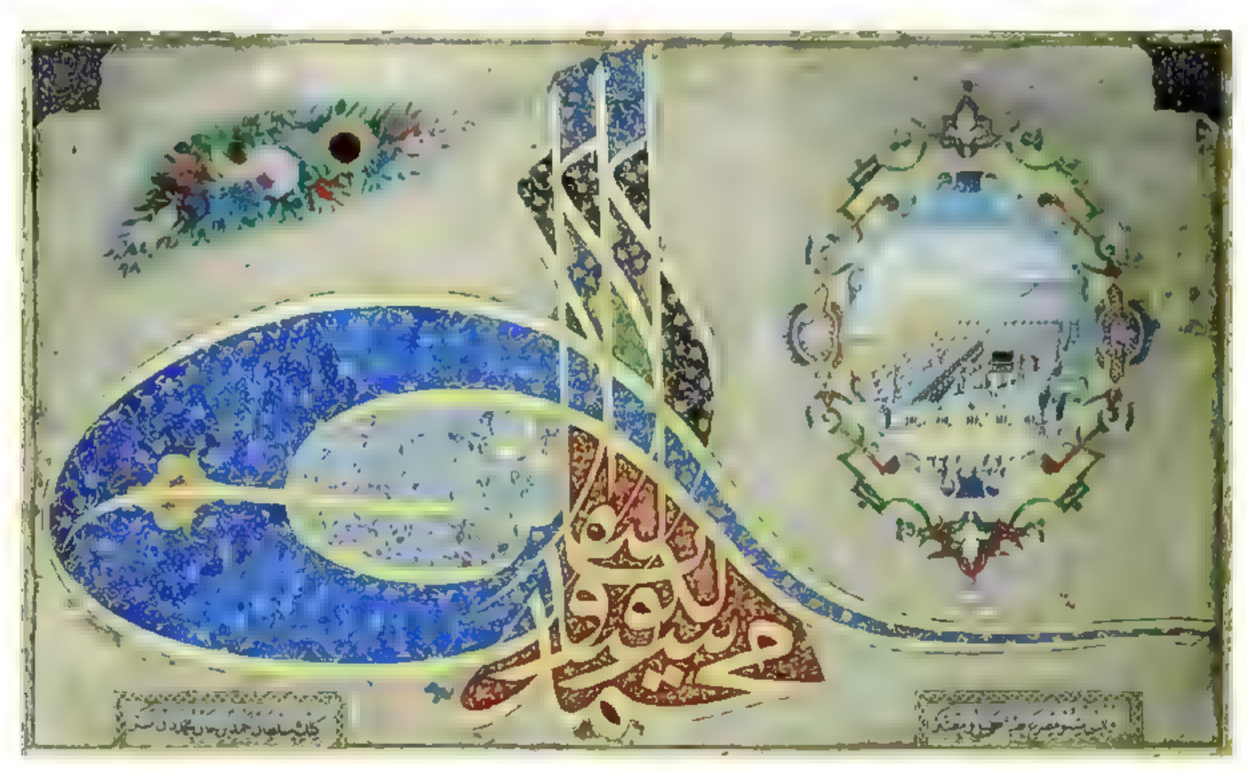
تفصيـــــــــــل:



شكل: 96

ومن خلال تأصيلنا التاريخي لتسمية: "**طغراء**" واستعمالها عند الأتراك، نجد أن البعض قد ذهب إلى أنها كلمة أُطلقت على شارة استخدمها بعض سلاطين الدولة العثمانية"[86]، بينما ذهب البعض الآخر إلى أن هذه الكلمة تتارية الأصل"[87]، تحتوي على اسم الحاكم ولقبه: "**خان**"، بدليل أن قادة التتار والمغول كانوا كلهم يتخذون هذا اللقب: "كجانكيز خان"، و"هولاكو خان" وغيرهما.. وكلمة: "**خان**" تعني في مدلولها: أمير أوحاكم"[88].

ويُعـدّ ثالث السلاطين العثمانيين؛ "مراد الأول" (760 791هـ/1358 1388م)، هو أول من استعمل هذا اللقب من العثمانيين في الوثائق المحررة باسمه كما يبدو ذلك من خلال طغرائه (راجع شكل: 72)، بينما يُعـدّ ثاني سلاطين العثمانيين "أورخان غازي" (726 - 760هـ/1326 1359م)، هو أول من تسـمّى بهـذا الإسـم (راجـع الأشـكال: 69 - 70 - 71)، أمـا السـلطان أحمـد الثالـث (1115 - 1143هـ/1703 - 1730م) وإن عُزل عن الحكم، فإنه تميز عن السلاطين العثمانيين (الخطاطين) بكونه كان مولعا بكتابة الطغراوات، إذ انه أول من دبّج "مرقعة" خاصة بأشكال الطغراوات البديعة خطا وزخرفة وتذهيبا (انظر شكل: 97).



لوحة طغرائية من عمل السلطان العثماني أحمد الثالث (1115 - 1143هـ/1703 - 1730م)
المصدر: معرض أيا صوفيا (مسجد سليمان القانوني) - استانبول
شكل: 97

---

[86] ـ صابان، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، ص: 149

[87] ـ القلقشندي، صبح الأعشى، ج/1، ص: 420

[88] بركات (مصطفى)، الألقاب والوظائف العثمانية، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، طبعة 2000م، ص: 21

وذُكرت لرسم الطغراء قصة في كتاب: "**تور كلرده ديني سملر**"؛ تفيد بأنها شعار قديم لطائر همايوني أسطوري ضخم، كان يقدسه سلاطين "**الغُزّ**"، وهو ما يشبه: "**سميرغ**" عند الفُرس، و"**طائر العنقاء**" عند العرب[89]. وقد ارتبطت تسمية: "**همايون**" عند الأتراك - العثمانيين بالتعبير عن قوة شكيمتهم، ورسوخ سيادتهم، إلى درجة أطلقوا معها على جيشهم الذي كان ينقسم إلى "انكشارية" و"سباهية": **الجيش الهمايوني**" (**أوردوي همايون**)، كما أطلقوا على أسطولهم العسكري: "**الأسطول الهمايوني**" (**دونانماس همايون**)[90] أو "**الدونانمه**"[91]، ويشير بعض الباحثين العثمانيين إلى أن السلاطين العثمانيين اقتبسوا كلمة: "**همايون** من السلاجقة وأضافوها لكل شيء أو أمر يتعلق بالسلطان العثماني (البادشاه)[92].

وذُكرَ أيضا أن كلمة: "**طغراء**" مُحوّرة عن كلمة: "**طغراغ**" أو" **طغرل**"[93]، و"**طغرل**" أو "**طغرول**" هو طائر من نوع **البازي**" كما ورد ذلك في المعجم العثماني المسمى بـ: "**الدراري اللامعات**"[94]، ويتداخل هذا المصطلح مع تسمية أخرى لها المعنى نفسه ألا وهي تسمية: "**طوغان**" التي تعني: **صقر، باز**.. ومنها أُخذت تسمية: "**طوغانجي**"، وهو مربي البازي[95]، الذي يعرف في المغرب بـ: "**البيّاز**"، ويُحتمل أن يكون طغرل هنا بمعنى ظل ذيل أو جناح ذلك الطائر الذي يشبه العنقاء[96]. وهو الطائر الأسطوري الذي تُعبّر عنه كلمة: "**همايون** ، وكما ورد في: " **المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية**"، فهي كلمة تعظيم خاصة بسلاطين الدولة العثمانية، وأصلها من كلمة: "**هما**" باللغة الفارسية، و"**أمّا**" باللغة التركية، ومعناها طائر أسطوري ذو حظ وقدرة، وقد اتخذه سلاطين الغُزّ الأتراك رمزا لهم، ومنهم انتقل إلى السلاطين العثمانيين[97]. ولذلك فهو يُنعت أيضا بـ: "**طائر السعد**"، لأن ظل جناحه إذا وقع على رأس رجل انتُخب ملكا[98].

ونشير في هذا المضمار إلى أننا قد عثرنا على رقعة طغرائية، تدل على هذا المفهوم بجلاء (انظر شكل: 98).

---

[89] – المصرف، مصور الخط العربي، صص: 380 – 382
انظر أيضا للمؤلف نفسه: بدائع الخط العربي، راجعه. عبد الرزاق عبد الواحد، وزارة الإعلام، مديرية الثقافة العامة، بغداد، 1972م، ص. 469
وانظر كذلك. – فضائلي، أطلس الخط والخطوط، ص. 519

[90] – اوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ج/2، ص: 279

[91] – محمود عامر، المصطلحات المتداولة في الدولة العثمانية، ص: 373

[92] – اوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ج/2، ص: 279

[93] – راجع ما قلناه في تفصيل هذه التسمية عند ذكرنا للسلاجقة

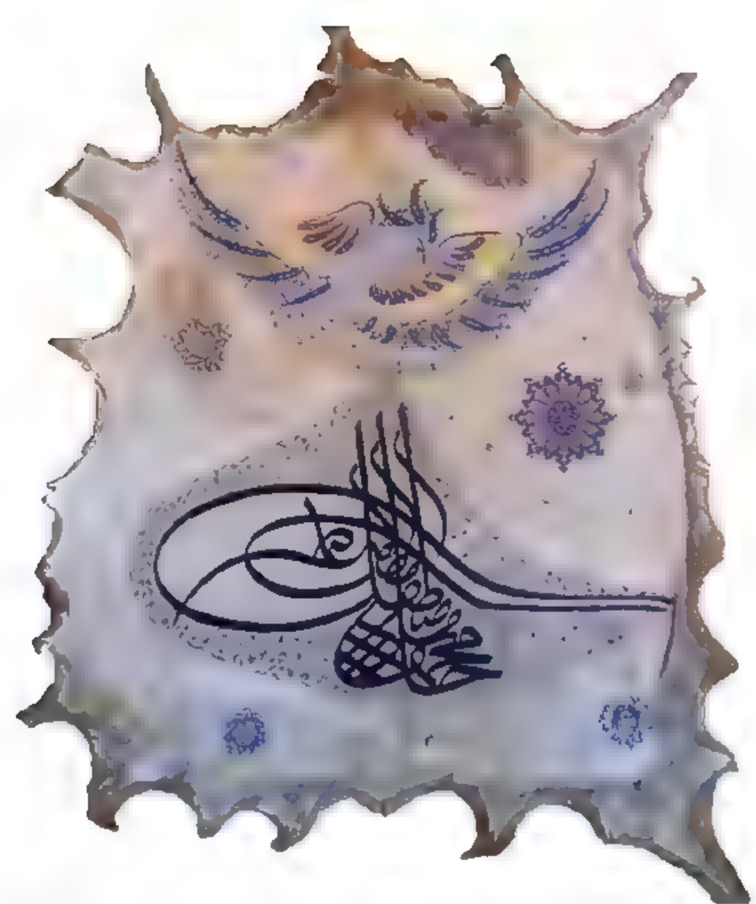
[94] – الأنسي، الدراري اللامعات، ص. 361

[95] – المصدر نفسه، ص. 368

[96] فضائلي، أطلس الخط والخطوط، ص: 520

[97] – صابان، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، ص. 226

[98] المصرف، مصور الخط العربي، صص: 380 382
انظر أيضا للمؤلف نفسه. بدائع الخط العربي، ص 469



رقعة طغرائية تتضمن اسم السلطان العثماني محمود الأول (1143 - 1168هـ/1730 - 1754م)، وهو متوج بصورة طائر ضخم له بعض الملامح الأسطورية، باسط جناحيه بشكل عرضي، ليقع ظلهما على اسم السلطان الذي تمثله الطغراء
شكل: 98

فمن خلال هذه الرقعة إذن، يظهر أن الفنان الذي قام بتنفيذها، أنجز توقيعا طغرائيا يتضمن اسم السلطان العثماني: محمود الأول (1143 - 1168هـ/1730 - 1754م)، ورسم فوقه طائرا ضخما له بعض الملامح الأسطورية، وهو باسط جناحيه بشكل عرضي، ليقع ظلهما على اسم السلطان الذي تمثله الطغراء، وإمعانا منه في تمثيل ذلك الظل المسمى: "طغرل" كما سبق وذكرناه، قام الفنان بتجسيده عن طريق إنجاز أشكال زخرفية نباتية، وضعها تحت الجناحين مباشرة، وهي ذات مسارات حلزونية، تتصل انطلاقا من أسفل الجناحين بقاعدة تتسع بمقدار اتساع قاعدة الطغراء، لتشمل في الأخير سائر أجزائها، وتحيط بها من كل الجوانب، وفي ذلك إشارة - على ما يبدو- إلى شمولية ذلك الظل على اسم السلطان، وشموليته تدل على قوة ملكه وترامي أطراف دولته ومناعة حدودها.

ولا يخفى علينا فيما يتعلق بهذه التسمية، أن "**سليمان شاه بن قيا ألب**" (المتوفى سنة: 628هـ/1231م) زعيم قبيلة قاتي التركمانية (تواجدت في كردستان خلال بداية القرن: 7هـ/13م)، كان له أربعة أبناء، سمّى اثنان منهما باسم قريب من هذا المعنى، أحدهما: "**كون طغري**"، والآخر "**أرطغرل**". وأرطغرل هذا (ت. 687هـ/1288م) هو الذي ناصر "**علاء الدين السلجوقي**" أحد سلاطين "**سلاجقة الروم**" ضد البيزنطيين والتتار كما سبق وفصلنا في ذلك، وهو أب مؤسس الدولة العثمانية (**عثمان بن**

أرطغرل)، وعلى ذكر السلاجقة - الأتراك، نشير إلى أن مؤسس دولتهم أيضا كان يسمى: **طغرل بك** (385- 455هـ/995- 1063م). وهذا يستفاد منه أن كلمة: "**طغري**" أو "**طغرل**"، كانت محط تفاؤل بالنسبة لشعب الغزّ، لذلك استعملوها في تسمية أبنائهم.

أما فيما يتعلق بالظرفية التاريخية التي استُعملت فيها الطغراء عند العثمانيين، فهناك رواية تاريخية أخرى تختلف عن الروايات السابقة، تفسر نشأة الطغراء العثمانية، وتربطها بتوتر العلاقات بين السلطان المغولي: "تيمورلنك" (771 808هـ/1369 1405م) سليل "جانكيز خان"، والسلطان: "يلدرم" (الصاعقة) بايزيد الأول العثماني (791 804هـ/1389 1402م)، حيث يذكر المؤرخون أن تيمورلنك أرسل للسلطان العثماني المذكور رسالة ممهورة بالدم لأنه يجهل الكتابة، و تتضمن تلك الرسالة إنذارًا للسلطان بايزيد، يهدده فيها بإعلان الحرب عليه، فوقّع ذلك الإنذار ببصمة كفه ملطخة بالدماء، وأراد بايزيد أن يسخر من تيمورلنك، فأوعز لخطاط بلاطه أن يضع توقيعاً يشبه بصمة كف تيمورلنك، فكانت الطغراء تبعا لذلك شبيهة بصورة الكف، ثم ما لبثت أن اتُّخذت شارة - بعد تطويرها فيما بعد - من طرف سلاطين العثمانيين الذين أخذوا يوقعون بها مكاتباتهم الرسمية[99]. والذي يؤكد أنها تشبه كف الإنسان، هو شكلها الفني الذي تتميز به، حيث يُحتمل هذا التشبيه في صورتها، كما يُحتمل تشبيهها بصورة الإبريق كما مر بنا (راجع شكل: 91).

وفي اعتقادي، فإن هذه الرواية عارية عن الصحة تحقيقا لاظنّا، لأن كل الأدلة المادية تفندها، وهنا نشير من باب التصحيح إلى أن الطغراء لم تظهر بشكلها البيضوي مع رابع سلاطين آل عثمان: بايزيد الأول (791 - 804هـ/1389 - 1402م) كما تنص على ذلك الرواية المذكورة، بل الأصح أنها ظهرت قبل ذلك، وتحديدا في عهد أبيه مراد الأول (760 - 791هـ/1359 - 1389م)، (راجع شكل: 72). أما شكلها الجنيني فيرجع إلى عهد جده أورخان غازي (726 - 760هـ/1326 - 1359م).(راجع الأشكال: 69 - 70 - 71).

وإذا افترضنا جدلا أن الطغراء تشبه كف الإنسان بالاستناد على الرواية السابقة رغم بطلانها، فإننا نفترض أيضا أن الخطاطين - ولتحقيق هذا التشابه - وضعوا قالبا جماليا اشترطوا فيه جمع منتصبات الطغراء وقوائمها، ومن ثمّ تنضيدها من الأعلى في شكل جمالي متناغم، واشترطوا أيضا أن يبلغ عدد تلك القوائم: ثلاثة ألفات أو لامات وذلك بحسب الكلمات الموظفة في رسمها، وهذا معناه أنه إذا لم يكن النص - المراد توظيفه في رسم الطغراء - يوفر هذا العدد من القوائم، فإنه يتوجب على الفنان ابتكار ألف وهمية لاستيفاء العدد الطبيعي لقوائمها ومنتصباتها، وذلك بُغية تشكيل أصابع كف الإنسان: "**السبابة، والوسطى، والبنصر**". و حتى يتم استكمال عدد أصابع اليد الواحدة، أضيفت للطغراء بيضتان متفاوتتا

---

[99] يرى فون هامر أن الطغراء كانت تقليدا للعلامة المحتلفة من أصابع يد السلطان مراد الأول، وذلك لأن هذا السلطان لم يكن يعرف الكتابة على حد تعبيره. انظر

حتش، الخط العربي في الوثائق العثمانية، صص: 203 216

الحجم، ترمز كبراهما إلى "**الإبهام**"، بينما ترمز صغراهما إلى "**الخنصر**"، وهما تبدوان كأصبعين محلَّقيْن، والجدير بالذكر أن البيضتين تُرسمان عن طريق استغلال عراقات الأحرف من ذوات الأحواض، كالنون والأحرف المشابهة لها، وإن لم تتوفر هذه الأحرف في النص المراد كتابته، فإنه يتوجب على الخطاط توظيف بعض الأحرف الأخرى بعد تطويعها، كالدال مثلا، بل ويجوز للخطاط تطويع الكشائد والرواتق الرابطة بين الحروف في حالات الضرورة لرسم بيضتي الطغراء.

من خلال المقارنات السابقة، لا نجد غضاضة في القول بأن الطغراء وبالرغم من كونها كادت أن تكون ختما أوعلامة خاصة بالسلاطين العثمانيين، يفتتحون ويمهرون بها مكاتباتهم ومراسلاتهم الرسمية، إلا أنّ السلاطين السعديين؛ الذين حافظوا على الاستقلال الذاتي لدولتهم عن التبعية للعثمانيين، استعملوا هذه العلامة في جليل مكاتباتهم ورسائلهم التي حصلنا على جملة منها، وقد كانت طغراواتهم مختلفة في كل تفاصيلها عن الطغراء العثمانية، رغم التزامها بالأسس الفنية والبنيوية للطغراء (**الألفات الثلاثة والبيضتان**). حيث تألفت - هي الأخرى - من ثلاثة ألفات وبيضتين اثنتين؛ إحداهما كبيرة والأخرى تصغرها بقليل. لكنها مع ذلك تختلف كل الاختلاف عن الطغراء العثمانية كما قلناه، وفي هذا دلالة قوية على محاولة إثبات ذلك الاستقلال السياسي؛ الذي كانت تتمتع به الدولة السعدية على جميع المستويات والميادين. بما في ذلك الميدان الفني الذي يعبر برمزيته عن سيادة دولة ما وتوجهاتها الاستراتيجية، خاصة إذا ما تعلق الأمر بالتوقيعات والعلامات التي تكتسي دلالة رمزية تعبر عن سيادة الدولة كما هو الشأن بالنسبة للطغراء والأختام السلطانية التي نهتم بدراستها.

وحسبنا في الإشارة إلى البعد السيادي للطغراء؛ الاستدلال باستعمال مماليك مصر لعملات خاصة بهم، عليها طغراوات تعبر عن سيادتهم، الشيء الذي أثار حفيظة العثمانيين، فاعتبروا استعمال المماليك لذلك في نقودهم استعمالا يمس بسيادة الإمبراطورية العثمانية، لأنه يعطي مفهوما متعددا لأمر السيادة، وكما هو معلوم، فإن السيادة لا تقبل التعدد، لذلك كانت طغراء المماليك هذه؛ من خوارم السيادة العثمانية، الأمر الذي دفع العثمانيين للضرب على أيديهم، فكانت النتيجة أن غزوا مصر سنة: 923هـ/1517م، ولأنه لا يجتمع سيفان في غمد واحد، اقتحم السلطان العثماني سليم الأول (918 - 926هـ/1512 - 1520م) مصر، سيما بعد انتصاره على السلطان المملوكي؛ الأشرف قانصوه الغوري (906 - 922هـ/1501 - 1516م) في معركة "**مرج دابق**" قرب حلب في سوريا بتاريخ: 922هـ/1516م[100].

ولإضفاء طابع الشرعية على ذلك الغزو، استصدر العثمانيون فتوى تقضي بتحريم التعامل بالنقود المملوكية، بدعوى أنها تحفل بآيات قرآنية يمكن أن يمسها المؤمنون وغير المؤمنين[101]، متغاضين في ذلك عن الدافع الرئيس في تحريم التعامل بها، ألا وهو: نقش الطغراء المملوكية عليها، وهي الطغراء عينها التي

---

[100] - اوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ج/1، ص: 222 223

[101] مصطفى بركات، الألقاب والوظائف العثمانية، ص: 286

أخذها سليم الأول من المماليك وأدرجها في نقوده بمجرد القضاء على دولتهم. إذ أن أول شيء فعله هذا السلطان بعد دخول القاهرة سنة: 923هـ/1517م، هو أمره بسك عملات عثمانية ذهبية باسمه في معمل نقود المدينة[102]، فكان من الطبيعي أن تكون طغراؤه شبيهة بطغراء المماليك، لأنه لم يتغير فيها إلا الإسم، مقابل احتفاظها بالشكل الطغرائي الذي تداوله المماليك كابرا عن كابر، وهو الشكل الذي سيستمر استعماله في النقود العثمانية إلى حدود عهد سليمان القانوني (926 - 974هـ/1520 1566م).(انظر شكل: 99 وقارنه بشكل: 100).



قطعة نقدية للسلطان المملوكي الناصر فرج بن برقوق الذي حكم فترتين اثنتين بعد عزله في الأولى ومقتله في الثانية: (801 - 807هـ/1399 - 1405م)-(807 - 815هـ/1405 - 1412م).

رقم التصنيف: Lot 804

شكل: 99



قطعة نقدية للسلطان العثماني سليمان القانوني (926 - 974هـ/1520 - 1566م)، رسم عليها اسمه بشكل طغرائي على غرار الطغراء المملوكية

رقم التصنيف: Lot 4810

شكل: 100

[102] اوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ج/1، ص: 229

بل نلاحظ أكثر من ذلك كله، استمرار حضور شكل الرنوك الطغرائية المملوكية في تخليد أسماء السلاطين العثمانيين؛ في النقائش إلى ما بعد عهد السلطان سليمان القانوني، وخاصة على جدران الحرم المكي الذي كان المماليك يزينونه برنوكهم الطغرائية، وبعدما أصبح الحرم المكي تحت وصاية العثمانيين، عُوّضت تلك الرنوك الطغرائية المملوكية برنوك طغرائية عثمانية لها نفس الشكل والبناء الهيكليين. ولا تختلف بينها سوى في اسم السلطان الذي تخلد اسمه، وكما سبق وأفردنا لذلك مبحثا خاصا في الباب الأول، فإن الطغراء المملوكية تتميز بإرسال حرف النون من كلمة: "السلطان"؛ حيث تقطع منتصبات الشكل الطغرائي على امتدادها العرضي مجتمعة من اليمين إلى اليسار، لكن ما نلاحظه حول الطغراء العثمانية المتأثرة بطغراء المماليك في تشكيل الرنوك السلطانية، هو أنها تتميز بإرسال ثلاث ′نونات′ متجاورة من كلمات: "**السلطان**" و"**سليمان**" و"**خان**". وهذا التعدد في إرسال الأحواض المتماثلة تميزت به - على وجه الخصوص - الطغراوات البنغالية (راجع شكل: 19). ولنطلع على وجه المقارنة بين الرنوك المملوكية والرنوك العثمانية؛ نقترح المقارنة التالية بين رنكين طغرائيين؛ أحدهما باسم السلطان المملوكي الأشرف سيف الدين قايتباي (872 - 901هـ/1468 - 1496م)، كان مثبتا على أحد جدران أروقة الحرم قبل أن يتم انتزاعه بعد إلحاق الحرمين بالإدارة العثمانية عوض الوصاية المملوكية. أما الثاني فهو باسم السلطان العثماني سليمان القانوني (926 - 974هـ/1520 - 1566م)، الذي ظل مثبتا على جدران الحرم المكي حتى عصر "آل سعود"، وهو العصر الذي تملكت فيه هذه الأسرة أرض الحجاز (انظر شكل: 101).



الرنك الطغرائي للسلطان المملوكي: الأشرف سيف الدين قايتباي (872 - 901هـ/1468 - 1496م)
كان مثبتا على أحد جدران الحرم المكي. قبل أن يتم انتزاعه بعد الحاق مكة بالإدارة العثمانية
المصدر: متحف الحرم المكي - مكة المكرمة



الرنك الطغرائي للسلطان العثماني: سليمان القانوني (926 - 974هـ/1520 - 1566م)
حل محل الرنوك المملوكية في أروقة الحرم المكي . قبل أن يتم انتزاعه من قبل أسرة "آل سعود" التي تملكت بلاد الحجاز بعد ضعف العثمانيين

مقارنة بين رنكين طغرائيين متماثلين كانا مثبتين على جدران الحرم المكي قبل أن يتم انتزاعهما في مراحل لاحقة؛ احدهما باسم السلطان المملوكي الأشرف سيف الدين قايتباي (872 - 901هـ/1468 - 1496م)، والثاني باسم السلطان العثماني سليمان القانوني (926 - 974هـ/1520 - 1566م)
شكل: 101

وفي المراحل الأخيرة للدولة العثمانية، احتفظ سلاطين هذه الدولة بالرنوك الطغرائية الدائرية مع بعض تفاصيلها المتعلقة بإطارها الخارجي، لكنهم استعاضوا - في كتابة أسمائهم داخلها - عن شكل الطغراء المملوكية بشكل الطغراء العثمانية؛ التي أضحت تزين الفضاء الداخلي للرنك العثماني مع بعض الإضافات التي ترمز للسيادة العثمانية كالهلال مثلا، وفيما يلي مقارنة بين رنكين طغرائيين؛ أحدهما مملوكي، والآخر عثماني، يبدو من خلالهما استقلال كل واحد منهما بشكله، ولايتشابهان سوى في الإطار المرتبط بشكل الدائرة، ولا شك أن هذا الاختلاف فيه ما يدل على التعلق البنيوي للطغراء بمبدأ السيادة التي تقتضي تفرّد كل بلد برموز سيادته (انظر شكل: 102).

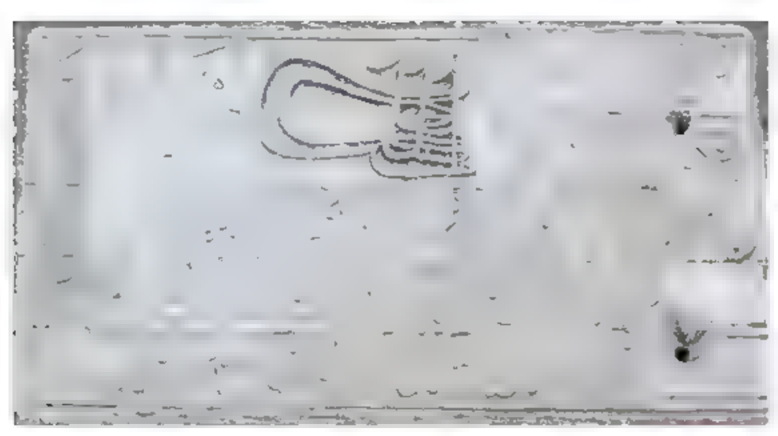


الرنك الطغرائي للسلطان المملوكي: الأشرف سيف الدين برسباي (825 - 841هـ/1422 - 1438م)
مورخ في سنة: 830هـ/1427م
المصدر: يوجد على "باب النيرب"، الواجهة الجنوبية - حلب

الرنك الطغرائي للسلطان العثماني: عبد العزيز بن محمود الثاني (1277 - 1293هـ/1861 - 1876م)
يجمع بين رموز السيادة العثمانية المتمثلة في: الطغراء والهلال
المصدر: طوب كابي سراي - استانبول، رقم: 328

مقارنة بين رنكين طغرائيين مختلفين؛ أحدهما مملوكي، والآخر عثماني
شكل: 102

ولتعزيز ما قلناه حول تعلق "الطغراء" بمبدأ: "السيادة"، نشير إلى أن من أقدم النقائش العثمانية التي احتوت على رسم طغرائي عثماني؛ هي تلك النقيشة التي تتعلق بنصب تذكاري يؤرخ لفتح مدينة: 'سالونيك' اليونانية (ثيسالونكي باليونانية)، وهي عاصمة منطقة (إقليم) مقدونيا الوسطى، وقد ورد في النقيشة المذكورة أن المدينة فُتحت عنوة سنة: 834هـ/1431م في عهد السلطان العثماني مراد الثاني (824 - 855هـ/1421 - 1451م)، ولتأكيد حيازته لها؛ أمر بوضع طغرائه في طرة النقيشة (انظر شكل: 103).



نقيشة على نصب تذكاري يؤرخ لفتح مدينة: "سالونيك" اليونانية (ثيسالونكي باليونانية) وهي عاصمة منطقة (إقليم) مقدونيا الوسطى، وقد ورد في النقيشة أنها فتحت عنوة سنة: 1431م، ويتصدر النص، طغراء السلطان مراد الثاني (824 - 855هـ/1421 - 1451م)
شكل: 103

وفي الإطار نفسه الذي يؤكد صحة الجمع بين الطغراء كرسم، والسيادة كفعل، قَرن بعض الفنانين في منحوتاتهم بين الطغراء وتماثيل بعض السلاطين العثمانيين، إشارة منهم إلى الأهمية السيادية لهذا الرسم، كما هو الشأن بالنسبة لتمثال السلطان العثماني سليمان القانوني (926 - 974هـ/1520 - 1566م)، الممثل في الشكل: 104.



تماثيل طغرانية عثمانية[103].
شكل: 104

[103] تمثال السلطان العثماني سلمان القانوني مرفقا بطغرائه في حديقة الصداقة التركية الهنغارية في مدينة سكتوار بهنغاريا (المجر). أقيم له بعد وفاته أثناء حصار سيكتوار سنة: 974هـ/1566م، والذي أسفر عن انتصار العثمانيين على دولة المجر

وفي هذه المرحلة التي نتحدث عنها، نشير إلى أن العثمانيين لم يستطيعوا بسط نفوذهم على المغرب، لأنه كان دولة مستقلة بسيادتها، ليس كمصر أو بلاد الشام التي كانت تابعة للسلطة العثمانية، تبعية إسمية ورسمية.

ومن تأثير السيادة العثمانية على بلدان شمال إفريقيا، أن ضُربت عملات في الجزائر (وهي أقصى ولاية عثمانية غربا) تحمل طغراوات عثمانية الشكل، وقد ظلت تُستعمل في الجزائر إلى عهود متأخرة، وتحديدا إلى عهد الأمير عبد القادر، والقطعة التي نستدل بها، مؤرخة في سنة: 1245هـ/1829م، وهي نفس السنة التي استُعمرت فيها الجزائر من قِبل الفرنسيين، مما يدل على أنها تؤرخ لفترة اضمحلال الدولة العثمانية، التي أصبحت الإمبريالية الأوروبية تسميها بـ: "**الرجل المريض**" كناية على تهالك مؤسساتها، وسوء تدبير سياستها العامة، وفساد شؤونها الإدارية والمالية **(انظر شكل: 105)**.

نفس الأمر ينطبق على الولايات الشمال – إفريقية الأخرى التي كانت تابعة للعثمانيين كتونس وليبيا اللتان ضربتا فيهما عملات باسم السلطان العثماني (انظر شكل: 106 وشكل: 107).



قطعة نقدية جزائرية، يعود تاريخها الى سنة: 1245هـ/ 1829م. رسمت في وجهها طغراء السلطان العثماني: محمود الثاني، وفي ظهرها كتبت اشارة الى ان هذه القطعة ضربت في الجزائر، وذلك قبل سنة واحدة من سقوط الجزائر في ربقة الاستعمار الفرنسي سنة: 1246هـ/1830م[104].

شكل: 105

[104] - انظر vcoins.com



قطعة نقدية ليبية، يعود تاريخها إلى سنة: 1223هـ/1808م. رسمت في وجهها طغراء السلطان العثماني: محمود الثاني، وفي ظهرها كتبت إشارة إلى أن هذه القطعة ضربت في طرابلس الغرب
رقم التصنيف: Lot 399
شكل: 106



قطعة نقدية تونسية. يعود تاريخها الى سنة: 1236هـ/1821م. رسمت في وجهها طغراء السلطان العثماني: محمود الثاني. وفي ظهرها كتبت اشارة الى ان هذه القطعة ضربت في تونس
مصدر القطعة: en.numista.com. رقم: 112913
شكل: 107

وبقدر ما تحيلنا هذه العملات على تبعية الجزائر وتونس وليبيا للإمبراطورية العثمانية، بقدر ما تحيلنا على أن النفوذ العثماني كان ينتهي جغرافيا عند الحدود الغربية للجزائر مع المغرب، ويُعدّ المغرب هو القطر الإسلامي الوحيد الذي تمتع باستقلاله السياسي الكامل خلال مستهل العصر الحديث، وذلك بحكم توفره على سلطة مركزية قوية؛ استطاعت إفشال مخطط الإمبراطورية العثمانية التي كان سلاطينها الأُوَل؛ يرومون بسط نفوذهم على بلاد المغرب لاستكمال سيادتهم على سائر أقطار شمال إفريقيا. حيث حاولوا مرارا وتكرارا تحقيق ذلك المبتغى دون أن تُكلل محاولاتهم بالنجاح.

وبتتبعنا للمسار الكرونولوجي لتاريخ هذا الصراع، نجد العثمانيين قد استطاعوا الدخول إلى مدينة فاس مرتين اثنتين: دخولٌ أول[105] في عهد سليمان القانوني (926 974هـ/1520 1566م)، وبالضبط في سنة: 961هـ/1554م، ودخولٌ ثان[106] في عهد ابنه سليم الثاني (974 - 982هـ/1566 1574م)، وكان ذلك سنة: 984هـ/1576م[107].

2 – الاصطدام بين السعديين والعثمانيين، وتأكيد سيادة السعديين على بلاد المغرب:

إن ما جعل الأتراك العثمانيين يُسمّون المغرب إلى اليوم بـ: دولة "**فاس**"[108]. هو أن هذه المدينة ظلت عالقة بأذهانهم بعدما دخلوها مرتين اثنتين، كما أن المصادر والمراجع العثمانية وعند حديثها عن المغرب؛ كانت عادة ما تستعمل تسمية: "**فاس**" للإشارة إليه"[109]، وليس تسمية: "**مراكش**" التي كانت تطلقها عليه بعض المصادر المغربية. وفي هذا الشأن؛ نستدل بإفادة للمؤرخ التركي "يلماز اوزتونا" الذي تحدث عن مدينة وجدة المغربية، وأشار إلى أنها: "**أكبر مدينة في فاس [أي: المغرب]**"[110].

من هنا يمكن القول إن تسمية: فاس أو فاسي – بالمنظور الجغرافي – كانت ترتبط في بداية العصر الحديث بالصراع العثماني – السعدي الذي أفضى إلى ظهور ما يمكن أن نسميه "**بالخصوصية المغربية**" في كافة المجالات، مقابل عملية "**التتريك**" أو بالأحرى "**العثمنة**" التي خضعت لها سائر الولايات الشمال – إفريقية إلى حدود الجزائر، وحينما نتحدث عن هذا الصراع، فإننا نتحدث عنه بكل تمظهراته وتشكلاته، بما في ذلك الجانب الفني المرتبط بأنواع الخطوط المستعملة. وإذا كانت المصادر والمراجع العثمانية تطلق على المغرب تسمية: "فاس"، فإن كل شيء مغربي؛ هو من منظور العثمانيين: "فاسي" بما في ذلك علم الخط وما يرتبط به.

ويستنتج هذا الأمر بما لا يدع مجالا للشك، من خلال مذكرات خير الدين بربروس الذي فتح بلدان شمال إفريقيا عدا المغرب، حيث أملى مذكراته على رفيقه المرادي بأمر من السلطان سليمان

---

[105] – مجهول، تاريخ الدولة السعدية التكمدارتية، تحقيق: عبد الرحيم بنحادة، دار تينمل للطباعة والنشر، مراكش، الطبعة الأولى: 1994م، ص 22 – 23.

[106] – عن تفاصيل هذا الدخول، انظر

– دي صالديا (أنطونيو)، أخبار أحمد المنصور سلطان المغرب، تقديم وترجمة وتحقيق إبراهيم بوطالب، عثمان المنصوري، ولطفي بوشنتوف، إعداد النص الأصلي، أنطونيو دياش فارينا، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، 2011م، ص: 30

انظر أيضا

– الدولة العثمانية، تاريخ وحضارة، ج/1، ص: 198

[107] – للاطلاع على تفاصيل دخول العثمانيين إلى مدينة فاس، راجع: بنحادة (عبد الرحيم)، الدخول التركي إلى مدينة فاس بين الوثائق الإسبانية، والوثائق العثمانية، 1554 - 1576 قراءة في الاختلاف والتكامل، دراسة وردت في كتاب: العثمانيون في المغارب من خلال الأرشيفات المحلية والمتوسطية، تنسيق، عبد الرحمن المودن – عبد الرحيم بنحادة، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، مطبعة الأمنية، الطبعة الأولى 2005م، صص. 11 - 34

[108] - انظر مقالا حول هذا الموضوع في يومية: المساء يوم 29 - 12 - 2009. وسيمة بنصالح

[109] - الدولة العثمانية، تاريخ وحضارة، ج/1، ص 198

[110] - اورتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ج/1، ص: 249

القانوني[111]، ومن خلال اطلاعنا على تلك المذكرات التي تم تحقيقها مؤخرا، بعد ترجمتها إلى العربية، نجده قد سمى المغرب بـ: "**مملكة فاس**"[112] وهي التسمية الغالبة. كما سماه في بعض الأحيان: "**مملكة المغرب**"[113]، وإضافة كلمة: "**مملكة**" من طرف بربروس تدل بشكل صريح على أن المغرب كان مستقلا عن العثمانيين، بل إن بربروس علّق على المغرب - في تلك المرحلة بقوله: "**ولم يكن في شمال إفريقيا دولة أخرى ذات أهمية غير مملكة المغرب، أما تونس وتلمسان اللتان كان يحكمهما الحفصيون وبنو عبد الوادي فلم يعد لهما أهمية على الإطلاق**"[114]، ولا شك أن هذه الشهادة شهادة قوية لا تقبل التأويل أوالتعليل، لأنها من مصدر عثماني مؤلفه أمير عثماني، يرجع له الفضل صحبة أخيه عروج في ضم بلدان شمال إفريقيا عدا المغرب إلى الإمبراطورية العثمانية في عهدي: سليم الأول وابنه سليمان القانوني، حيث يشهد باستقلال المغرب من منطلق واقعي رآه بأم عينه، وساهم فيه بنفسه، بل ويؤكد بربروس ذلك في الصفحة الموالية بقوله: "**فتحنا الجزائر وصارت لنا دولة أكبر من تونس**"[115]، ولم يورد ما يفيد أنه فتَح بلاد المغرب التي كان دائما يسميها: "مملكة فاس" أو "مملكة المغرب" أو "المغرب"، الذي ذكر أنه "**كان يحكمه سلطان [يقصد محمد الشيخ المهدي] ينتمي إلى أسرة ملكية عريقة**"[116]، وقد اتفق معه في هذا الشأن؛ الباحث التركي اوزتونا الذي وصف المغرب بـ: "**سلطنة فاس التي تعتبر من الدول الكبرى، والتي حكمت في البداية في الأندلس**"[117]، ولا شك أنه يشير بذلك إلى تاريخ المغرب المَجيد، حينما كانت الأندلس ولاية تابعة للمغرب خلال عصر الدولتين المتعاقبتين: المرابطية والموحدية، بل إن هذا الباحث ذهب إلى أبعد من ذلك حين وصف فاس بالإمبراطورية، إثر حديثه عن دول شمال إفريقيا، حيث يقول: "**كانت إمبراطورية فاس في هذه المنطقة دولة كبيرة، وكانت تشمل أقصى غرب المنطقة بين الأبيض والأطلسي.. [وهي]: بالعربية: المغرب الأقصى**"[118]. وإثر حديثه عن معركة وادي المخازن الشهيرة (986هـ/1578م)، تحدث الباحث نفسه عن "**اتحاد إمبراطورية فاس مع الدولة العثمانية**"[119].

وما نستغربه في هذا الشأن، هو تسمية العثمانيين للمغرب بمملكة فاس في عصر الدولة السعدية، وذلك بالرغم من كون هذه الدولة قد اتخذت من مدينة مراكش قاعدة لملكها و(عاصمة سياسية) لها، قبل أن تنقسم في مرحلة ضعفها إلى مملكتين متناحرتين يفصل بينهما نهر أم الربيع؛ هما: "**مملكة فاس**" و"**مملكة مراكش**". وهذا يدل على أن المصادر والمراجع المغربية لم تستعمل تسمية "مملكة فاس" إلا في

[111] - مذكرات خير الدين بربروس، ص. 20
[112] - المصدر نفسه، ص 156
[113] - المصدر نفسه، ص 98
[114] - المصدر نفسه، ص 98
[115] - المصدر نفسه، ص 99
[116] - المصدر نفسه، ص 98
[117] - اورتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ج/1، ص: 193
[118] - المرجع نفسه، ج/1، ص: 240
[119] - المرجع نفسه، ج/1، ص 383

إطار المقارنة بينها وبين: "مملكة مراكش"، كما أنها لم تستعمل التسمية نفسها إلا في سياق الإشارة إلى المراحل النهائية للدولة السعدية التي تحيلنا على التمزق السياسي الذي كان يعيشه المغرب في أواخر هذه الدولة، حيث كانت مدينة فاس نفسها تنقسم إلى مدينتين اثنتين؛ هما: "فـاس البـالي"، و"فـاس الجـديد". وفي هذا المضمار، يشير المؤرخ دييغو دي طوريس، إلى أن المغاربة أنفسهم كانوا يطلقون "**على المملكة كلها اسم هاتين المدينتين**"[120]، ويقصد دي طوريس بـ: "**المملكة**": المغرب. أما: "**هاتين المدينتين**"؛ فيقصد بهما: "**فاس البالي، و..فاس الجديد، ومعناه.. فاس القديمة وفاس الحديثة**"[121]. ومعلوم أن "فاس الجديد" قد أُسِس من قبل المرينيين الذين سبقوا السعديين، ليكون دار ملكهم وقاعدة حكمهم، وبعد ذلك أسسوا إلى جانبه "الملاّح"، وهو الحي الذي خُصِصت سكناه لليهود، ولا تزال هذه الأحياء شاهدة على ذلك إلى يومنا هذا.

وما من شك في أن شهادة دي طوريس حول مسألة التسمية لها دلالة قوية ووزن كبير، بالنظر إلى كون هذا المؤرخ الإسباني ألّف كتابه: "تاريخ الشرفاء"، ليجعل منه وثيقة تؤرخ للفترة السعدية منذ سنة:908هـ/1502م؛ وهي المرحلة التمهيدية التي سبقت مرحلة التأسيس إلى غاية وفاة عبد الله الغالب سنة: 982هـ/1574م. وبالتالي فهذا الكتاب يُعـدّ شهادة حية؛ من أجنبي سلط الضوء على بعض الجوانب الدقيقة المتعلقة بالمغرب السعدي من خلال ما عايشه في المغرب كشاهد عيان، حيث دخل المغرب في عهد محمد الشيخ المهدي (947 - 964هـ/1540 - 1557م)، وبالضبط في سنة: 953هـ/1546م، ومكث فيه ما يربو على الثلاثين سنة، أي إلى ما بعد وفاة عبد الله الغالب السعدي (964 - 982هـ/1557 – 1574م)[122]. وتُعـدّ هذه الفترة التي أرخ لها دي طوريس، هي المرحلة التي شهدت الاصطدام بين كل من السعديين والعثمانيين، وهي المرحلة نفسها التي تحدث عنها بربروس في مذكراته، وعبّر من خلالها عن رغبته الأكيدة في ضم بلاد المغرب للسلطة العثمانية، رغم اعترافه بأن "**سلطان المغرب يعتبر أكبر ملوك العرب في إفريقيا.. [و] ما لم يتم إخضاع[ه].. فإنه من المستحيل بسط سيطرة الأتراك على إفريقيا**"[123].

وهذا يستفاد منه، أن بربروس كان يمنّي النفس بالسيطرة على المغرب دون أن يبلغ ذلك المرام، بل إنـه اعترف أن الجزائر - حتى وبعد دخولـه إليهـا سـنة: 922هـ/1516م، خـلال عهـد سـليم الأول ونجاحـه في إخضاعها للعثمانيين - إلا أن القطع النقدية كانت لا تزال تضـرب فيها باسـم السـعديين بمباركـة الزيـانيين مـن "بني عبد الواد"، مما أوغر صدره، فتوعد أهلها بقوله: "**إن السلطان سليم خانْ - الآن - هو خليفة رسول**

[120] - دي طوريس (دييكو)، تاريخ الشرفاء، ترجمة: د محمد حجي - د.محمد الاخضر، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر،1988م، ص 142

[121] - المصدر نفسه، ص. 142

[122] - المصدر نفسه، ص: 4 5

[123] مذكرات خير الدين بربروس، ص: 95

الله صلى الله عليه وسلم، فكيف تسنى لكم أن تتركوا خليفة المسلمين، وسلطان العالم، وتقرؤون الخطبة وتضربون النقود باسم سلطان المغرب؟!"[124].

وفي هذا الإطار، يذكر بعض الباحثين أن العثمانيين حاولوا منذ البداية إتباع سياسة الاحتواء اتجاه السلاطين السعديين الأوائل، وهذا ما تؤكده مضامين المراسلات العثمانية التي كانت تجس نبض هؤلاء؛ من خلال طبيعة المخاطبة التي لم تكن تحمل أكثر من صفة لـ: "**حاكم ولاية فاس**"، وهي الصفة التي كانت تجعل المغرب من منظور العثمانيين آنئذ مجرد ولاية تابعة لهم[125]، وقد أكدت هذا الاعتقاد؛ السفارة العثمانية التي بُعثت إلى السلطان السعدي محمد الشيخ المهدي، لتعرض عليه تقديم المساعدة لمحاربة المسيحيين مقابل الخطبة باسم السلطان العثماني[126].

وارتباطا بالمعنى نفسه، تذكر بعض المصادر التاريخية أن سليمان القانوني أرسل إلى محمد الشيخ - وهو مقيم بمدينة تارودانت - كتابا يدعوه فيه إلى الدخول في طاعته، ووضْع شعاره على العملة المغربية، والخطبة باسمه على المنابر[127]. الشيء الذي أثار حفيظة السلطان السعدي، فرد على رسول السلطان العثماني متوعدا إياه بالزحف نحو الولايات العثمانية في الشمال الإفريقي حتى مصر، وقد وصف لنا صاحب "**تاريخ الدولة السعدية التكمدارتية**"، هذه السفارة وطبيعة الرد الذي صعق به السلطان السعدي، سفير السلطان العثماني، حيث قال له: "**سلم على أمير القوارب سلطانك، وقل له إن سلطان المغرب لابد له أن ينازعك على عمل مصر، ويكون قتاله معك عليه إن شاء الله، ويأتيك إلى مصر والسلام**"[128].

وقد كان محمد الشيخ السعدي يقصد بـ: "**أمير القوارب**"؛ السلطان العثماني سليمان القانوني الذي كان يملك إبان تلك المرحلة أسطولا بحريا عملاقا يجوب كل أنحاء البحر الأبيض المتوسط، مما جعل من الإمبراطورية العثمانية دولة بحرية بامتياز. وكان أميره على ذلك الأسطول؛ خير الدين بربروس وأخوه عروج الآنفي الذكر[129].

---

[124] - مذكرات خير الدين بربروس، ص. 95.

[125] - بحادة (عبد الرحيم)، المغرب والباب العالي من منتصف القرن السادس إلى أواخر القرن الثامن عشر، أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في التاريخ الحديث، تحت إشراف. الدكتور محمد مزين، السنة الدراسية: 1995 - 1996م، جامعة سيدي محمد بن عبد الله ظهر المهراز ، فاس، ص 104

[26] - المرجع نفسه، ص: 111

[127] - يذكر الناصري أن السلطان سليمان القانوني أرسل كتابا لمحمد الشيخ يطلب منه فيه أن: "**يدعو له على منابر المغرب، ويكتب اسمه على سكته كما كان بنو وطاس، [فما كان من محمد الشيخ [إلا أن] حمى أنفه وأبرق وأرعد، وأحضر الرسول وأزعجه، فطلب منه الجواب، فقال لا جواب لك عندي حتى أكون بمصر إن شاء الله، وحينئذ أكتب لسلطان القوارب، فخرج الرسول من عنده مذعورا يلتفت وراءه إلى أن وصل إلى سلطانه**"

- الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج/5، ص 32

[28] - مجهول، تاريخ الدولة السعدية التكمدارتية، ص 31

[129] مذكرات خير الدين بربروس، ص. 167

ويذكر المصدر السابق أيضا أن محمد الشيخ وصف سليمان القانوني بسلطان "**الحوَّاتة الكلاب**"[130]، والحوَّاتة على لسان المغاربة - إلى اليوم - هم: صيادو السمك. وهذا الوصف فيه ما يفيد تحقير الأسطول العثماني (**الدونانمه**)[131]، الذي كان - حسب رأيه - مجرد قوارب للصيد، ولا يرقى إلى مستوى الأساطيل العسكرية التي كانت حاضرة بقوة في البحر الأبيض المتوسط آنئذ، ومن ضمنها الأسطولين: البرتغالي والإسباني (**الأرماده**)[132]، اللذان ارتبطا بحركة "الاكتشافات الجغرافية" التي غيرت معالم الخريطة الدولية خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين. فضلا عن قوة الأسطول البحري للمغاربة، الذي كان أقوى أسطول حربي في البحر الأبيض المتوسط خلال العصر الموحدي.

ويشير دييكو دي طوريس إلى أن محمد الشيخ المهدي: "**كان على وشك أن يأمر بقطع رأس السفير، ولا شك أنه كان سيضحي به من أجل غضبه، لولا وجود القائد موريان الذي قال له إن كل سفير يجب أن يبقى حرا آمنا بمقتضى الحق الإنساني، وإنه لا ينبغي إثارة غضب السلطان الأعظم [يقصد سليمان القانوني] الذي قد ينتقم بسهولة**"[133].

ولا شك أن محمد الشيخ المهدي وصف سليمان القانوني بذلك الوصف أيضا، لأنه كان يرى - من منطلق نسبه الشريف - أنه أحق بالخلافة من السلطان العثماني، وهذا ما سيعبر عنه التمكروتي فيما بعد، حيث ذكر بعد سفارته إلى استانبول - من باب المقارنة بين السعديين والعثمانيين - أن: "**التُّرك جاروا على أهل تلك البلاد وأفسدوها، وضيقوا على أهلها في أرضهم وديارهم وأموالهم..إلى غير ذلك من الذل والإهانة ..هذا وأهل افريقية...في كثرة اشتياقهم وحنينهم إلى حكم موالينا الشرفاء، تالله لقد كنا من تحدثنا معه من خيار أهل تونس وأعيان مصر الذين لقيناهم بالقسطنطينية يبكون على ذلك ...ويودون لو وجدوا سبيلا إلى الانتقال إلى المغرب والتخلص إليه لاشتروه بالدنيا وما فيها ..**"[134].

وماذكره التمكروتي من جور الأتراك وظلمهم، لم يكن سوى تمهيد للانتقال إلى رأي أشد حساسية، ألا وهو مسألة: "**الأحقية في الخلافة**" التي رأى أن العثمانيين إنما حملوها: "**.. في الحقيقة نيابة وأمانة، [حتى] يؤدونها إلى من هو أحق بها وأهلها، وهم موالينا وسادتنا الشرفاء ملوك بلادنا المغرب [يقصد السعديين]، الذين شرفت بهم الإمامة والخلافة، وكل مسلم لا يقول عكس هذا ولا خلافه، والشاهد لهذا أنهم من الأرومة السنية، والدوحة الحسنية..**"[135].

---

[130] - مجهول، تاريخ الدولة السعدية التكمدارتية، ص 32

[131] - عن تسمية "الدونانمة" ومعناها الدقيق، انظر: محمود عامر، المصطلحات المتداولة في الدولة العثمانية، ص: 373

[132] - اوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ج/1، ص: 296

[133] - دييكو دي طوريس، تاريخ الشرفاء، ص: 128

[134] - عبد اللطيف الشادلي، مسألة الانتماء من خلال رحلة التمكروتي إلى القسطنطينية سنة: 1590م، ص: 42 - 43

[135] - التمكروتي، النفحة المسكية، ص: 135. انظر أيضا

- كنون (عبد الله)، رسائل سعدية، نشر معهد مولاي الحسن دار الطباعة المغربية، تطوان، 1954م، ص: 13 14

عبد اللطيف الشادلي، مسألة الانتماء من خلال رحلة التمكروتي إلى القسطنطينية سنة: 1590م، ص 43 44

وقد اعترفت بعض المراجع العثمانية بهذا الأمر، حيث تشير إلى أن "**الديوان [العثماني] كان يعلم بأن فاس [المغرب] لا تشبه الجزائر، وأنها تملك سلالة عريقة جدا ومنحدرة من نسل الرسول صلى الله عليه وسلم**"[136].

ولا غزو أن يترجم محمد الشيخ السعدي هذا الشعور بأحقيته في الخلافة على مستوى الواقع، حيث عمل جاهدا على طرد العثمانيين من شمال إفريقيا، إذ أرسل جيشا قوامه 30 ألف رجل، بقيادة ابنه محمد الحرّان في اتجاه الجزائر، ففتح مدينة تلمسان سنة: 958هـ/1551م بعد لجوء آخر السلاطين الزيانيين إلى المغرب، وعزّز السعديون تفوقهم هذا بحثِّ المسير نحو مدينة مستغانم قلعة العثمانيين المحصنة بالجزائر، فحاصروها، إلا أن حصارهم باء بالفشل الذريع، فتمكن العثمانيون بقيادة: "صالح باشا" من أن يقلبوا لهم ظهر المجن، سيما بعدما انقلبوا عليهم ليسترجعوا مدينة تلمسان، ولم يكتفوا بذلك، بل توغلوا في الأراضي المغربية بغية بلوغ أبعد نقطة ممكنة، وقد تم لهم ذلك من خلال دخولهم لمدينة فاس سنة: 961هـ/1554م[137]، ويشير أوغست كور في هذا المضمار، إلى أن أبا حسون الوطاسي آخر سلاطين الوطاسيين، هو من سهل دخولهم لمدينة فاس، وذلك بعد استنجاده بالسلطان العثماني سليمان القانوني في إطار صراعه مع الدولة السعدية، ورغم تدخل العثمانيين، فإن ذلك لم يمنع من انهزام أبي حسون الوطاسي ومقتله، وبالتالي سقوط مدينة فاس نهائيا في أيدي السعديين، وتحديدا في يد محمد الشيخ المهدي سنة: 961هـ/1554م[138]، الذي سيعاود الكرّة في الزحف نحو الجزائر بعد انضمام بقايا الزيانيين إليه، وخاصة أولاد الملك السادس والعشرين أبي زيان أحمد وأصهاره وذوي قرابته وبعض وجوه دولته، حيث سيقوم القائد منصور بن أبي غنام؛ وهو وزير آخر ملوك الزيانيين، بالتحالف مع محمد الشيخ الذي تمكن من فتح تلمسان، فنصّبه على رأسها حتى يضمن تبعيتها له، وتزامن سقوط حكم الزيانيين في الجزائر سنة: 963هـ/1556م مع غزو محمد الشيخ السعدي لتلمسان في السنة نفسها، الشيء الذي دفع بمن بقي من العائلة الزيانية تفضيل الانضمام إلى السعديين، خشية أن يحل بهم ما حل بأبناء عمومتهم من قتل وتذبيح على يد العثمانيين، ولعل هذا الحدث هو ما دفع سليمان القانوني للانتقام من محمد الشيخ بعد ذلك، دون أن يستطيع الاستيلاء على بلاد المغرب، حيث أوعز لأتراك الجزائر بتدبير مؤامرة لاغتياله، فما كان من

---

[136] - اوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ج/1، ص: 389

[137] - المرجع نفسه، ج/1، ص: 305

[138] - كور (أوغست)، دولة بني وطاس (1420 - 1554)، ترجمة: محمد فتحة، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى 2010م، صص: 131 - 141

- يشير مؤلف مجهول إلى أن محمد الشيخ بعد دخوله لمدينة فاس، قام بقتل كبار شيوخها من علماء جامع القرويين، وعلى رأسهم الونشريسي وحرزوز والزقاق، هذا الأخير الذي دعا على السلطان السعدي بعدما أمر بقطع رأسه، فاستجاب الله دعاءه، فقُتل محمد الشيخ السعدي بالطريقة نفسها، حيث قطع رأسه غيلة بشاقور، ثم حمل إلى إستانبول عاصمة السلطان العثماني سليمان القانوني. انظر

مجهول، تاريخ الدولة السعدية التكمدارتية، ص 27 28

بعضهم إلا أن تسللوا إلى معسكره، فخدعوه بأنهم موالين له، ثم قطعوا رأسه - على حين غرة - من حُراسه فحملوه إلى استانبول في 29 ذي الحجة 964هـ/23 أكتوبر 1557م[139].

ولما وصل رأس السلطان محمد الشيخ السعدي إلى السلطان العثماني سليمان القانوني الذي كان في إقامته بإستانبول، أمر بجعله في شبكة من نحاس وعُلِّق على باب القلعة، وظل هناك إلى أن قدم ابناه عبد الملك المعتصم وأحمد المنصور على حفيده السلطان مراد الثالث (982 - 1003هـ/1574 - 1595م)، يطلبان مساندته في مواجهة البرتغاليين وابن أخيهما السلطان المخلوع محمد المتوكل (982 - 986هـ/1574 - 1578م) الذي تولى الحكم بعد أبيه عبد الله الغالب السعدي في السنة نفسها التي تولى فيها السلطان العثماني الحكم[140].

وعموما فقد استغل العثمانيون مقتل محمد الشيخ المهدي، فقاموا بالزحف نحو مدينة فاس سنة: 965هـ/1558م، تحت قيادة حسن خير الدين باشا، ابن خير الدين بربروس. فتصدى لهم ابن محمد الشيخ المهدي؛ عبد الله الغالب (رابع سلاطين السعديين)، فجرت بينه وبين العثمانيين معركة وادي اللبن في سنة: 965هـ/1558م[141]، بمنطقة تيسة (إقليم تاونات - حاليا) شمال مدينة فاس، فانتصر السعديون بمساعدة حلفائهم الجدد "أولاد زيان"، وتقديرا لبسالتهم؛ قُدِّمت لهم الأراضي المحيطة بأرض المعركة، فكانت ولادة قبائل "الحياينة"، الذين سيُستخدمون كدرع لحماية فاس من أي زحف عثماني.

ومن جهته، واصل عبد الله الغالب السعدي سياسة أبيه في مواجهة الدولة العثمانية، فرفض بيعة العثمانيين، وشكل تحالفاً مع الإسبانيين لمواجهة المد العثماني[142]، السياسة نفسها نهجها ابنه محمد المتوكل الذي كان تقاربه مع القوى المسيحية أكثر سفورا، إلى درجة دعا معها البرتغاليين إلى التدخل في المغرب، مما دفع عمّيه عبد الملك وأحمد (المنصور الذهبي) لطلب يد العون من السلطان العثماني، فحدثت معركة وادي المخازن (986هـ/1578م) التي أسفرت عن انتصار السعديين على البرتغاليين، وهو انتصار شبّهه ابن القاضي بغزوة بدر الكبرى[143].

وفي هذا الشأن، تعترف المصادر العثمانية بالرغم من كل هذه الأحداث، أن المغرب كوّن دولة قوية، لها كيان سياسي مستقل، مثّلته أسرة السعديين التي حسّنت علاقاتها السياسية والدبلوماسية مع العثمانيين، اعتبارا من عهد عبد الملك السعدي (984 - 986هـ/1576 - 1578م) كما يشير إلى ذلك أحد الباحثين الأتراك، الذي يذكر أن المغرب اتحد مع العثمانيين في عهد هذا السلطان السعدي، وخصّص

139 - انظر عن قصة مقتله في
مجهول، تاريخ الدولة السعدية التكمدارتية، ص: 32

140 - منصف (يوسف)، هل خضع المعرب لنفوذ الإمبراطورية العثمانية؟ يومية المساء، عدد: 2353، 20، أبريل، 2014م

141 - اوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ج/1، ص: 307

142 - يوسف مصف، هل خضع المعرب لنفوذ الإمبراطورية العثمانية؟ يومية المساء، عدد: 2353، 20، أبريل، 2014م

143 - ابن القاضي، المنتقى المقصور، ج/1، ص: 244

لذلك فصلا عنونه بـ: "**اتحاد إمبراطورية فاس مع الدولة العثمانية**"[144]، ولا شك أن استعماله؛ كلمة: "**اتحاد**" وتسمية: "**إمبراطورية فاس**"، فيه ما يدل على قوة المغرب واستقلاله السياسي. ويشير الباحث نفسه إلى أن أحمد المنصور الذهبي كان "**عهده من ألمع الفترات التي عاشتها فاس [المغرب]**"[145]، مضيفا أن السلطان نفسه "**حرص على التعايش مع الدولة العثمانية**"[146]، وإذا حددنا هذا التاريخ بالأحداث الفاصلة، جاز لنا أن نقول بأن المغرب حسّن علاقاته مع الدولة المذكورة ابتداء من سنة: 986هـ/1578م، أي بعد معركة وادي المخازن التي أظهرت المغرب بمظهر القوة. وتذكر المصادر العثمانية أن الدولتين أخذتا تتبادلان فيما بينهما "**الهدايا والسفراء في كل مناسبة، واستمر الأمر على ذلك في إطار من التبعية غير المباشرة. وهذه العلاقات المهمة في مجال الدبلوماسية العثمانية قد استمرت تحافظ على طبيعتها الودية حتى النهاية**"[147].

ولا شك أن استعمال المصادر العثمانية عبارة: "**التبعية غير المباشرة**" كان الهدف من ورائه التغطية على فشل العثمانيين في ضم بلاد المغرب الذي ظل محافظا على سيادته رغم كل التحديات، وقد استطعنا أن نفهم بأن التبعية غير المباشرة، كانت تتعلق بضريبة سنوية التزم المنصور الذهبي بأدائها للسلطان العثماني مراد الثالث، مقابل دعمه في معركة وادي المخازن التي خرج منها المغرب منتصرا، كما خرج منها أحمد المنصور متوّجا بالملك حين بويع في أرض المعركة[148]، وقد حدد الأسير البرتغالي؛ أنطونيو دي صالدينا رقم تلك الغرامة في 150 ألف أوقية ذهبية[149].

لكن ذلك لم يدم سوى لمدة يسيرة، حتى بيّت المنصور الذهبي (986 - 1012هـ/1578 - 1603م) نيّته لإنهاء هذه التبعية غير المباشرة، فأخذ على الفور في التمهيد لقطع علاقاته مع السلطان العثماني مراد الثالث (982 - 1003هـ/1574 - 1595م)، حيث كفّ عن أداء الغرامة المالية التي كان يؤديها له[150]. بل وأعلن ذلك على رؤوس الأشهاد بمجرد أن طلب منه مراد الثالث أن يسلمه مدينة العرائش نظير مساندة العثمانيين له في معركة وادي المخازن، وهي المدينة التي كانت تطالب إسبانيا أيضا بالحصول عليها[151]، ولاشك أن مراد الثالث كان يهدف من وراء هذا الطلب؛ الحصول على ثغر من الثغور

---

[144] - اوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ج/1، ص: 383

[145] - المرجع نفسه، ج/1، ص: 388

[146] - المرجع نفسه، ج/1، ص: 388

[147] - الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، ج/1، ص: 198

[148] - دي صالدينا، أخبار أحمد المنصور سلطان المغرب، ص. 30

[149] - المصدر نفسه، ص. 51

[150] - المصدر نفسه، ص. 51

[151] عبد الرحيم سحادة، المغرب والباب العالي من منتصف القرن السادس إلى أواخر القرن الثامن عشر، ص 175

المغربية التي ستساعده في الحد من نشاط الأسطولين البرتغالي والاسباني في المحيط الأطلسي، سيما بعدمـــا كان يتخـذ هؤلاء من بعض الثغـور المغربيـة التي احتلوهـــا خلال العصـر الوطـاسي كآسفي[152] وأزمور[153]، وأكادير (رأس أكير أو سانطا كروز دي أكويير)[154].. مراكز لتنظيم حملاتهم الاستعمارية ووصلها بالإمدادات، وبعد نجاح السعديين في استرجاع معظم تلك الثغور إثر ارتقائهم لسدة الحكم، أبى المنصور إلا أن يتأسى بأجداده، وينهج النهج نفسه مع العثمانيين، حيث قطع كل آمال مراد الثالث في الحصول على مدينة العرائش، بل وطلب من أعوانه سنة: 988هـ/1581م، أن يقدموا بين يديه علامة تبعيته غير المباشرة للسلطان العثماني، وهي عبارة عن لواء أو راية عثمانية، فأمر بها فسُحبت على الأرض ثم مزقت شر ممزق[155].

أمام هذا الوضع، أمر السلطان مراد الثالث قائد أسطوله؛ بشن حملة عسكرية نحو المغرب بهدف ضمه للدولة العثمانية سنة: 988هـ/1581م. وفي ردّه المباشر على ذلك؛ سارع أحمد المنصور بحشد جيوشه على الحدود الشرقية، حيث كانت على أتم الاستعداد لصد الهجوم العثماني، مما أدى بالسلطان العثماني إلى التراجع والرضوخ للأمر الواقع، ولتفادي أية مفاجأة عسكرية قد

---

[152] - بعد سقوط مدينة آسفي في أيدي البرتغاليين سنة 913هـ/1508م، حكمها القائد البرتغالي يوبو فرنانديس دي اطايدي وكان لحنش يحيى أوتاعفوفت هو من سهل دخول البرتغاليين إليها. وظل البرتغاليون يحكمونها إلى أن طردهم السعديون منها سنة 925هـ/1519م، بعد مقتل قائدهم دي أطايدي والخائن أوتاعفوفت. وبعد أخذ ورد، سينسحب البرتغاليون بشكل نهائي من مدينة آسفي في حدود سنة 948هـ/1541م ويشير الحسن الوزان إلى قصة سقوط مدينة آسفي في أيدي البرتغاليين، إذ كان شاهد عيان على ذلك.. وعنه نقل كل من مارمول كربخال وديكو دي طوريس

انظر

- الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج/1، صص: 147 - 151

- كربخال (مارمول)، كتاب إفريقيا، ترجمة: محمد حجي، محمد زنيبر، وآخرون، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط . 1984م، ج/2، ص 58

انظر أيضا. من صفحة. 80 إلى صفحة. 84

- دييكو دي طوريس، تاريخ الشرفاء، ص 45 - 46 - 47

[153] - بعد سقوط مدينة أزمور في أيدي البرتغاليين سنة: 918هـ/1512م، حكمها القائد البرتغالي: دم يوحنا دي مينيزيس. وظل البرتغاليون يحكمونها إلى أن طردهم السعديون منها سنة: 948هـ/1541م

انظر

- الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج/1، صص: 157 - 159

- كربخال، كتاب إفريقيا، ج/2، صص: 87 - 98

وبعد تخلي ملك البرتغال عن مدينتي. آسفي وأزمور، بعد استرجاعها من طرف السعديين، قام ببناء مدينة بينهما على المحيط الأطلسي هي مدينة البريجة التي كانت تسمى مازغان وأضحت تسمى الجديدة

انظر

- كربخال، كتاب إفريقيا، ج/2، ص. 85 – 86

[154] - مدينة أكادير كان يحكمها القائد البرتغالي دم فرنسوا دي كاسترو. وظل البرتغاليون يحكمونها إلى أن طردهم السعديون منه سنة 948هـ/1541م

كربخال، كتاب إفريقيا، ج/2، صص: 32 – 37

دييكو دي طوريس، تاريخ الشرفاء، ص: 73 74

[155] دي صالديا، أخبار أحمد المنصور سلطان المغرب، صص 58 61

تأتي من الخلف، قام السلطان المغربي أيضا ببناء طوق دفاعي وحزام أمني لحماية مدينة فاس من الهجمات العثمانية وتأمين الحدود الشرقية بشكل نهائي سنة: 989هـ/1582م.

وفي هذا المضمار، يشير بعض الباحثين إلى أنه وبالرغم من استمرار المنصور في بعث الهدايا إلى الباب العالي، إلا أنه دشن من جهة أخرى ملامح سياسة تختلف عن سابقه، فقد تلقب بلقب: "**الخليفة**"، وأصبحت الخطبة تلقى باسمه، وكان هذا تأكيدا من أحمد المنصور على استقلالية المغرب عن الباب العالي[156].

فضلا عن ذلك، استغل أحمد المنصور الأوضاع الدولية لصالحه، حيث أتقن لعبة التحالفات الإقليمية، فلعب بالورقة الإسبانية الرابحة، وهو الشيء الذي فطن له سيلفا الذي بعث رسالة إلى الملك فيليب الثاني سنة: 991هـ/1583م، يقول فيها: "**إن إمبراطور المغرب يسخر منا، فهو متأرجح بين مصانعتنا ومصانعة الأتراك، فعندما يطالبه صاحب الجلالة بالعرائش، يقول هيا بنا إلى الجزائر [العثمانية]، وعندما يهدده الأتراك، يقول هيا بنا إلى إسبانيا**"[157].

ولا شك أن التخوف العثماني من إمكانية قيام تحالف سعدي - إسباني، يُعـدّ في نظر بعض الباحثين من الأسباب التي جعلت العثمانيين لم يسعوا بتاتا إلى القيام بغزو شامل للمغرب، والدخول في مغامرة ليست مضمونة النتائج، خصوصا مع الوعي العثماني بأن القوى الأوروبية لن تقف صامتة إزاء مثل هذا المشروع الذي يهدد طموحاتها في السيطرة على الموارد الإفريقية انطلاقا من السواحل الأطلسية، كما يعتقد أنه لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يسمح الأوربيون لقوة بحرية واحدة بالسيطرة على منافذ الطرق التجارية المتوسطية والأطلسية في آن واحد[158].

وعلى الرغم مما قلناه، فقد تحسنت العلاقات بين أحمد المنصور الذهبي و مراد الثالث العثماني - على العموم - حيث أضحت شبه مستقرة، سيما بعد اعتراف السلطان العثماني - اعترافا ضمنيا - بسيادة المغرب على أرضه، خاصة حينما أحس بقوة المنصور، ورسوخ سلطته المركزية، وإذا كانت الولايات التابعة للعثمانيين تسمى. "**بالإيالات العثمانية**"، فإن المغرب ومن منطلق استقلاله عن العثمانيين كان يسمى بـ. "**الإيالة الشريفة**" نسبة إلى حكامه، ألا وهم: الشرفاء السعديون. وقد أورد الفشتالي في مناهل الصفا فصلا نعت فيه الدولة السعدية في عهد المنصور الذهبي بـ. "**الإيالة العلوية المنصورية**"[159] أما ابن القاضي فقد وصف المغرب في عهد السلطان نفسه بأنه: "**إيالته العلية، و..دولته الهاشمية**"[160].

---

[156] - الغاشي (مصطفى)، الرحلة المغربية والشرق العثماني. محاولة في بناء الصورة، أطروحة لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ الحديث، الرباط، كليةالاداب والعلوم الإنسانية، السنة الدراسية 2001 2002م، تحت إشراف: عبد الرحمن المودن، ص. 58

[157] - عبد الرحيم بنحادة، المغرب والباب العالي من منتصف القرن السادس إلى أواخر القرن الثامن عشر، ص. 175

[158] يوسف مصف، هل خضع المغرب لنفود الإمبراطورية العثمانية؟ يومية المساء، عدد 2353، 20، أبريل، 2014م

[159] الفشتالي، مناهل الصفا، ص: 165

[160] ابن القاضي، المنتقى المقصور، ج/1، ص 410

وأورد اليفرني ما يدل على ميل المنصور لمهادنة العثمانيين، مستنبطا ذلك من خلال الحوار الذي دار بينه وبين أبي العباس أحمد بابا التنبكتي، صاحب "**نيل الابتهاج**"، حيث انتقد عليه هذا الأخير غزو بلاده (بلاد التكرور في السودان الغربي وهي بلاد مالي حاليا) في سنة: 999هـ/1591م، وتغاضيه عن وجـود الأتراك العثمانييـن في مدينة تلمسـان التي كانت في معظم مراحلهـا التاريخيـة، مدينـة تابعـة للمغرب قال التنبكتي مخاطبا أحمد المنصور: "..**فإنهم [الأتراك] أقرب إليك منا، فقال له المنصور: قال النبي صلى الله عليه وسلم: أتركوا الترك ما تركوكم. فامتثلنا الحديث. فقال له أبو العباس: ذلك زمان؛ وبعده قال ابن عباس: لا تتركوا الترك ولو تركوكم. فسكت المنصور ولم يجد جوابا وانفض المجلس**"[161].

وعموما فقد نجح المنصور في تكوين دولة مركزية قوية، ظلت مستقلة عن العثمانيين، حتى بعد سقوط السعديين وصعود العلويين على أنقاض دولتهم، الشيء الذي أكسب المغرب خصوصية جعلت منه القطر الوحيد في العالم العربي، الذي ظل محافظا على مقوماته التاريخية وعوائده الحضارية.

وفي هذا الشأن، لا نتفق مع بعض الباحثين المعاصرين من المشارقة؛ الذين دعوْا – دون أن يطلعوا على الوثائق السعدية – إلى إعادة النظر في المقولة التي تقول باستقلال المغرب السعدي عن تركيا العثمانية خلال العصر الحديث، حيث أرادوا تأكيد تبعية المغرب للعثمانيين من خلال المركز الذي أصبح مثيرا للجدل في السنوات الأخيرة، ألا وهو: "**مركز الأبحاث في التاريخ والفنون والثقافة الإسلامية باستانبول**" (**IRCICA**)[162]، حيث ساهم بعض أعضائه في ندوة دولية عُقدت في الرباط من 12 إلى 14 نونبر من سنة: 2009م، تحت عنوان: "**المغارب والبحر الأبيض المتوسط الغربي في العصر العثماني**"، أشرف على تنظيمها "**المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب**"(**l'IRRHM**)[163]، بعدما استغرق الإعداد لها أكثر من سنتين. وفي الكلمة الافتتاحية للندوة؛ تناول مدير إرسيكا: **الدكتور خالـد أرن** موضوع العلاقات العثمانية

---

[161] – اليفرني، نزهة الحادي، ص: 97

أصل الحديث. "**دَعُوا الْحبشة ما وَدَعُوكُم، وَاتْرُكُوا التُّرْكَ ما تَرَكُوكُم**". رواه الإمام أبو داود في سننه في كتاب الملاحم، باب ما جاء في النهي عن تهييج الترك والحبشة

انظر

– أبو داود (سليمان بن الأشعث بن إسحاق السِّجِسْتاني)، سنن أبي داود، تحقيق: شعيب الأرنؤوط – محمَّد كامل قره بللي، دار الرسالة العالمية، الطبعة الأولى. 2009م، الحديث رقم: 4302. ج/6، ص. 358

[162] – "مركز الأبحاث في التاريخ والفنون والثقافة الإسلامية" (**IRCICA**) باستانبول، مركز تابع لمنظمة المؤتمر الإسلامي، يهتم بتراث الدول الإسلامية، كما أنه أعلن عن أول مسابقة عالمية في الخط العربي اعتبارا من سنة: 1986م، والتي كانت باسم آخر خطاطي الدولة العثمانية؛ موسى عزمي الملقب بـ "حامد أيتاش الآمدي" (1308 – 1402هـ/1891 – 1982م)، وذلك في إطار اهتمامه بالفنون الإسلامية إلى جانب التاريخ و لثقافة الإسلامية

[163] راجع

مضمون المؤتمر الدولي "**المغارب والبحر الأبيض المتوسط الغربي في العصر العثماني**"، نشرة "**المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب**" (**l'IRRHM**)، العدد الثالث، صفر1432هـ/يناير2011م، صص: 6 18

المغربية، وأشار من خلالها إلى أنه ينبغي "**إعادة النظر فيها وتقييمها من جديد، في ضوء ما يكشف من الوثائق العثمانية**"[164].

أما المؤرخ العراقي: **فاضل بيات**، فقد ذهب إلى أبعد من ذلك حينما ذكر أنه جاء إلى تلك الندوة حاملاً وثائق عثمانية جديدة، تفنّد الرأي الشائع الذي يقول: "**إن المغرب هو البلد الوحيد الذي بقي خارج الحكم العثماني**"[165]. وكان من الطبيعي أن تثير هذه المداخلة حفيظة المؤرخين المغاربة وتستفزهم، سواء من المتخصصين أومن غير المتخصصين في تاريخ العلاقات المغربية – العثمانية.

وبالرغم مما قيل حول تفنيد هذا الادعاء، تبقى الردود التي ارتبطت بـه ردودا قاصرة عن بلوغ المرام، لأنها تفتقر إلى الشواهد المادية الملموسة، وعليه، نشير إلى أنه كان ينبغي ردّ هذا الرأي ودحضه بمجموعة من الشهادات المصدرية، التي لن تكون قوية إلا إذا عُزّزت بشواهد مادية لاتقبل التأويل. وهذا لا يمكن أن يتحقق إلا إذا وقفنا على نماذج حية استُخدمت فيها الطغراء السعدية كعنصر أساسي وبنيوي يعبر عن سيادة المملكة المغربية أكثر من 12 قرنا، ونخص بالذكر: "**القطع النقدية**"، و"**المدافع العسكرية**"، فضلا عن "**الوثائق والمراسلات السلطانية**"، وهذه العناصر هي التي تُعبر عن مفهوم "**السيادة**" في أية دولة أسست لها كيانا سياسيا مستقلا، بل وقد تتعداه إلى مفهوم "**التغلب**" إذا أخذنا بعين الاعتبار "**قوة السلاح**". وقد لاحظنا أن هذه الدعامات أوالعناصر المذكورة؛ قد رُسمت أو نُقشت عليها في المغرب طغراوات وشعارات السلاطين السعديين؛ كدليل مادي على سيادة المغرب على أرضه، وعدم تبعيته بشكل أو بآخر لأي كيان سياسي آخر، إلا أن هذه "الرسوم السيادية" لم يتم تناولها من الوجهة الأكاديمية، وإدراجها في مناهج التدريس، حيث ظلت مُهملة دون دراسة أوتحليل، وهي تحمل في مدلولها كثيرا من البراهين المادية التي تؤكد سيادة المغرب على أرضه.

---

[164] – تم افتتاح المعرض الذي أعده مركز "ارسيكا"، والذي تضمن وثائق عثمانية مختلفة تستعرض علاقات الدولة العثمانية مع المغرب الأقصى ولفتت الأنظار الوثيقة الأولى التي كانت مؤشراً لأهم ما دار في الندوة من نقاش حول هذا الموضوع الذي أثير لأول مرة في المغرب على المستوى الأكاديمي (علاقة المغرب بالدولة العثمانية) وتضمنت الوثيقة رسالة مؤرخة في صفر975هـ/غشت 1567م، من السلطان العثماني سليم الثاني إلى الأمير السعدي عبدالملك، تفيد بعدم موافقة السلطان العثماني على تعيينه "**حاكماً على فاس**" (أي: المغرب)، بدلاً من أخيه السلطان عبد الله الغالب السعدي، وذلك لأنه تم تعيينه من قبل والده السلطان سليمان القانوني. ويلاحظ الرسالة كُتبت بالعربية، وخُتمت بعبارة توحي بطبيعة العلاقة التي كانت تربط بين المغرب السعدي وتركيا العثمانية آنذاك. ونصّ العبارة: "**هذا مرسومنا الشريف العالي السلطاني، وأمرنا المنيف السامي الخاقاني، ما زال نافذاً ومطاعا في المشارق والمغارب، أرسلناه إلى العلماء الفضلاء والصلحاء، وجميع الأمراء والكبراء، وأهالي الإسلام بإقليم فاس وديار مراكش وبلاد سوس، وسائر توابع تلك الأرض المباركة**"

– الأرناؤوط (محمد)، وثائق عثمانية جديدة هل كان المغرب تابعاً لاستانبول؟ صحيفة الحياة، العدد: 17032، السبت21 نونبر 2009م، ص 25

[165] – شارك فاضل بيات في المؤتمر الدولي. "**المغارب والبحر الأبيض المتوسط الغربي في العصر العثماني**"، الذي أشرف على تنظيمها "المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب"(**l'IRRHM**) بين 12 إلى 14 نونبر من سنة: 2009م، بمداحلة تحت عنوان "**المغرب الأقصى والدولة العثمانية، دراسة تاريخية في ضوء الأحكام السلطانية الواردة في دفاتر المهمة**"

انظر

"**المغارب والبحر الأبيض المتوسط الغربي في العصر العثماني**"، نشرة "**المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب**" (**l'IRRHM**)، ص 10

الباب الرابع

الطغراء السعدية واستعمالها في الشواهد المادية، وعلاقة ذلك الاستعمال بسيادة المغرب خلال العصر السعدي

الفصل الأول: الطغراء السعدية واستعمالها في المسكوكات والمدافع (دراسة مقارنة):

إن استقلال المغرب السعدي عن أية تبعية عثمانية كانت أو إيبيرية (إسبانيا والبرتغال)، هو رأي يُعـدّ صحيحا بشهاداته المصدرية الصريحة والصحيحة، وشواهده المادية الثابتة ثبوتا قطعي الدلالة، مما لا يجعل منه رأيا فحسب، بل حتمية تاريخية لاتترك مجالا للاحتمالات والفرضيات، كما لاتفتح الباب للخلاف أو حتى الاختلاف حول استقلال المغرب عن التبعية العثمانية، كما سنقف على ذلك من خلال نماذج حية لعملات ومدافع مغربية ووثائق سلطانية رُسمت أو نُقشت عليها طغراوات سعدية كدليل مادي على سيادة المغرب على أرضه، وعدم تبعيته بشكل أو بآخر لأي كيان سياسي آخر، في حين أن الجزائر وهي أقرب دولة إلينا، كانت تابعة للدولة العثمانية كما تؤكده النقود التي ضربت بها، والمدافع التي صُنعت فيها. والوثائق التي كانت تُعبر فيها عن سيادة السلطان العثماني (الباب العالي).

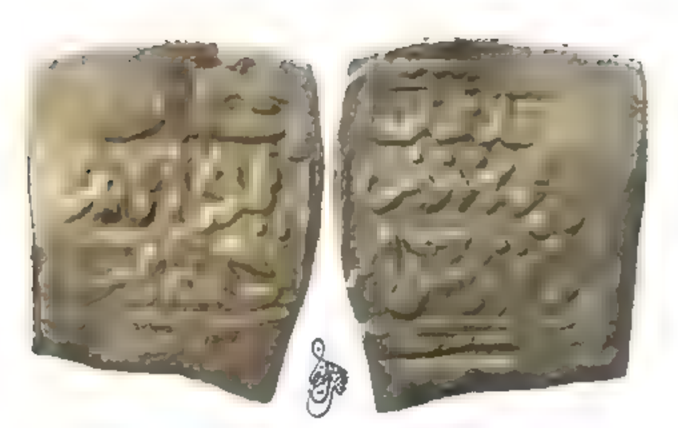
خاصة وأن الطغراء كانت تُعـدّ آنئذ ذلك التوقيع الرسمي للدولة، وتلك الشارة أو العلامة المُميّزة، التي تُستفتح بها الرسائل والمكاتبات الرسمية بين السلاطين، فهي رمز السيادة؛ بحكم احتواء تلك الرسائل أو المكاتبات المفتتحة بها لقرارات السلطان، ومواقفه تجاه القوى السياسية الأخرى المزامنة لفترة حكمه، في إطار ما يمكن تسميته: بالعلاقات الدبلوماسية[1]. أما نقشها على المدافع فلا يُعبر عن مفهوم **"السيادة"** فحسب، بل يتعداه ليُعبر عن مفهوم **"التغلب"**، أو - على الأقل - الظهور بمظهر القوة، بينما يُعبر نقشها على النقود على منعة الدولة وقوتها الاقتصادية.

من هذا المنطلق بالذات، استعمل السعديون الطغراء على مجموعة من الحوامل: (**Supports**) نظرا لدلالاتها المتعلقة بمفهوم السيادة.

1- الطغراء على المسكوكات السعدية:

في البداية نشير إلى أننا وقفنا على نقود ترجع إلى عهود السلاطين السعديين الأوائل، فوجدناها خالية من الطغراء إلى حدود عهد السلطان أحمد المنصور الذهبي، لكنها بالمقابل كانت مضروبة باسمائهم التي تدل على نسبهم "الحسني" الشريف، ولا يظهر فيها أي أثر لأية قرينة تدل على تبعية السعديين تبعية إسمية أورسمية للعثمانيين، مما يقطع الشك باليقين ويُفنّد كل دعاوى التشكيك المغرضة، وفيما يلي نقترح درهما ضرب في سنة: 962هـ/1554م بمدينة فاس، باسم السلطان السعدي: أبو عبد الله محمد الشيخ المهدي (947 - 964هـ/1540 - 1557م).(انظر شكل: 108).

[1] - نشير إلى أن كل الطغراوات التي حصلنا عليها، إنما قمنا باستخراجها كوحدات فنية من تلك الرسائل والمكاتبات التي أدرجناها كنمدج للدراسة الفنية في مختلف فصول هذا الكتاب، وهي المكاتبات التي قام آخرون بدراستها في إطار التاريخ السياسي أوالدبلوماسي، بالنظر إلى تعلقها بسيادة الدولة وسلطتها السياسية



درهم ضرب في سنة: 962هـ/1554م بمدينة فاس، خلال عهد السلطان السعدي: أبو عبد الله محمد الشيخ المهدي[2]
المصدر: Brethes 1431, Album 557
شكل: 108

وفي إطار حديثنا عن هذا الدرهم السعدي، نشير إلى أن النقود - في الجزائر - كانت تُضرب على منواله باسم السلطان السعدي محمد الشيخ المهدي بمباركة الزيانيين من "بني عبد الواد"، مما أثار حفيظة القائد العثماني "بربروس" الذي استنكر ذلك على الجزائريين بقوله: "..**كيف تسنى لكم أن تتركوا خليفة المسلمين، وسلطان العالم [سليم الثاني]، وتقرؤون الخطبة وتضربون النقود باسم سلطان المغرب؟!**"[3].

وبعد مقتل السلطان محمد الشيخ المهدي سنة: 964هـ/1556م، تولى الحكم من بعده ابنه أبو محمد عبد الله "الغالب" السعدي (964 - 982هـ/1557 - 1574م)، الذي واصل سياسة أبيه في مواجهة الدولة العثمانية، فرفض بيعة العثمانيين، وشكل تحالفاً مع الإسبانيين لمواجهة المد العثماني[4]، ثم أمر أن تُضرب النقود باسمه، حيث نقش على وجهها مانصه: "**أمير المومنين أبو محمد عبد الله**"، وفي ظهرها نقش: "**لا إله إلا الله، الأمر كله لله. فاس**".(انظر شكل: 109).



قطعة تمثل درهما ضرب في مدينة فاس، خلال عهد أبي محمد عبد الله "الغالب" السعدي (964 - 982هـ/1557 - 1574م)[5]
المصدر: Brethes 1431, Album 557
شكل: 109

2 - coins.alif fr/Saadian/Saadian.html

3 مذكرات خير الدين بربروس، ص 95

4 يوسف منصف، هل خضع المغرب لنفوذ الإمبراطورية العثمانية؟ يومية المساء، عدد: 2353، 20، أبريل، 2014م

5 coins.alif.fr/Saadian/Saadian.html

وبعد وفاة عبد الله الغالب السعدي سنة: 982هـ/1574م، بويع ابنه محمد الذي لقَّب نفسه بـ: "**المتوكل على الله**"، وكان فظًّا غليظًا مستبدًّا ظالمًا، قتل اثنين من إخوته عند وصوله إلى الحكم، وأمر بسَجن آخر، فكرهته الرَّعية، ولأن المُلك ينبغي أن يؤول إلى أكبر أمراء الأسرة السعدية سِنًّا؛ رأى عمه: أبو مروان عبد الملك أنه أولى بالملك من ابن أخيه، فأضمر المتوكِّل الفتك بعمَّيه: عبد الملك وأحمد (المنصور)، فما كان منهما إلا أن فرَّا إلى الجزائر، فهيَّأ لهما الوالي العثماني سُبُل السفر إلى الأستانة (استانبول حاليا)؛ حيث التقى عبد الملك بالسلطان سليم بن سليمان القانوني، طالبا نجدته ومعونته، فتثاقل عنه السلطان سليم، إلى أن بعث بأسطول بحري لفتح تونس، وتخليصها من يد الحفصيّين الذين استنجدوا بالإسبان، واستطاعت هذه الحملة البحرية تحقيقَ هدفها، وفرَّ الحسن بن محمد الحفصي إلى قشتالة، بعد أن فتح "خير الدين بربروس" تونس، فشهد عبد الملك الفتح، وعاد بالبشرى إلى السلطان العثماني.

وتصف المصادر العثمانية أن الحدث الأهم في عهد السلطان العثماني سليم الثاني (974 - 982هـ/1566 - 1574م)، هو "**التغيير الذي حدث في رأس الحُكم في فاس عام: [982هـ] 1574م، إذ تولاه حاكم يؤيد الدولة العثمانية، بدلا من الحكام السابقين الذين كانوا يؤيدون إسبانيا. ومن ثم أصبحت فاس [المغرب] وهي صاحبة الموقع الاستراتيجي الهام في شمال إفريقيا، تعيش بعد ذلك في سلام دائم مع الدولة العثمانية بوجه عام**"[6].

من هذه القناعة بالذات، كتب السلطان سليم الثاني أمرًا للدُّولاتي صاحب الجزائر؛ ليبعث مع عبد الملك السعدي خمسة آلاف من عسكر التُّرك، يدخلون معه أرض المغرب الأقصى؛ ليعيدوا إليه حقَّه في الحكم. وعندما دخل عبد الملك المغرب مع الأتراك، كاتب حاشية محمد المتوكل وبطانته، ورؤوس أجناده، يَعِد طائعهم، ويتوعَّد عاصيهم، وكتب الله النصر لعبد الملك في معركة قرب مدينة فاس، وفرَّ المتوكل من المعركة، ودخل عبد الملك مدينة فاس يوم الأحد 7 ذي الحجة 983هـ/8 مارس 1576م، ثم ضمَّ مرَّاكش. ففرَّ المتوكل إلى جبال السُّوس، وجعل يتنقَّل بين قبائلها وأحيائها، إلى أن اجتمعت عليه طائفة من الصَّعاليك، وشكَّل ما يشبه عصابة استهوتهم منه الأضاليل والوعود، وقادهم إلى مرَّاكش فدخلها، لكن أحمد (المنصور) أخا عبد الملك جاء من مدينة فاس ففرَّ المتوكل إلى السُّوس ثانية، ومنها إلى سبتة، ثم دخل طنجة مستصرخًا بملك البرتغال، فكان ذلك سببًا من أسباب معركة وادي المخازن (30 جمادى الثانية 986هـ/3 شتنبر 1578م)، التي قُتل فيها ثلاثـة ملوك؛ هم الملك البرتغالي: "**دون سبستيان**". والملك السعدي: "**عبد الملك المعتصم بالله**". وابن أخيه الخائن: "**محمد المتوكل**". الذي سُلخت جثته بعد مقتله، ثم تم حشوها تبنا، فسمي بـ: "محمد المسلوخ"[7]. وبعد وفاة عبد الملك السعدي في أرض المعركة، بُويع أخوه أحمد المنصور في أرض المعركة، فأصبح سلطانا لبلاد المغرب (986 - 1012هـ/1578 - 1603م).

---

[6] الدولة العثمانية. تاريخ وحضارة، ج/1، ص 198

[7] دي صالدينا، أخبار أحمد المنصور سلطان المغرب، ص 30

ورغم مهادنة أحمد المنصور الذهبي للعثمانيين، إلا أنه سك نقوده باسمه، مما يدل على سيادته الكاملة على دولته، وعدم تبعيته للعثمانيين بأي شكل من الأشكال، وفيما يلي قطعة نقدية تمثل دينارا سعديا ضُرب في عهد هذا السلطان، نقش على وجهه مانصه: "**بسم الله الرحمن الرحيم. عبد الله الإمام أبي العباس أحمد المنصور بالله**"، وفي ظهره نقشت التتمة: "**ابن الإمام أبي عبد الله محمد الشيخ المهدي ابن الإمام القائم بأمر الله**".(انظر شكل: 110).



قطعة ذهبية تمثل دينارا سعديا ضرب في عهد السلطان السعدي أبي العباس أحمد المنصور الذهبي بمراكش سنة: 1008هـ/1599م
رقم التصنيف: Lot 738
شكل: 110

وفي عهد أبي المعالي زيدان (1012 - 1037هـ/1603 - 1628م)، الذي خلف أباه أحمد المنصور على حكم بلاد المغرب، رسم السعديون طغراواتهم بشكل مستقل - من حيث الصورة الفنية - عن الطغراء العثمانية، كتعبير ضمني عن ذلك الاستقلال الذي يرمز إلى سيادة دولتهم، وقوة سلطتها المركزية، وفيما يلي، نقترح على سبيل المثال دينارا سعديا ضرب سنة. 1020هـ/1611م، في عهد هذا السلطان السعدي (انظر شكل: 111).

وحتى نولي هذا الدينار بعض الاهتمام، نشير إلى أنه يُعدّ أنموذجا لصناعة المسكوكات السعدية؛ في عهد أبناء أحمد المنصور الذهبي، حيث تضم القطعة في وجهها وظهرها معا أربع دوائر متحدة المركز، إحداها منقطة، لكن مركزها واستداراتها غير دقيقين. نجد في وجه العملة دائرة مركزية تتوسطها بشكل قُطري: طغراء السعديين، أما في ظهرها - وتحديدا في دائرتها المركزية - فنجد اسم الأمير الحاكم؛ ولقبه، ونسبه الشريف.



دينار ضرب سنة: **1020**هـ/**1611**م بمدينة مراكش، خلال عهد أبي المعالي زيدان السعدي

المصدر: متحف النقود ببنك المغرب - الرباط رقم: **1830**

بعض التفاصيـــــل:



طغــــراء السعديين



زيدان السعدي: لقبـــه، ونسبـــه الشريف

شكل: **111**

وفي الحيز المحيط بالدائرة، ورد ضمن العبارة الدائرية المنقوشة على الحافة اسم دار الضرب (مراكش) والتاريخ: "**ضُرب بمدينة مراكش حرصها [هكذا كتبها. والأصح حرسها] الله، سنة: 1020هـ [1611م]**".

بينما يوجد في أسفلها اسم الأمير المؤسس للدولة السعدية، عبد الله القائم بأمر الله، حيث نُعت بالعبارة التالية: "**عبد الله الإمام**". وفي الحيز المحيط بالدائرة، نُقشت بشكل دائري نهاية الآية: 33 من سورة الأحزاب: "**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا**". ويرجع اختيار نهاية هذه الآية التي تم الشروع في نقشها على القطع النقدية إلى عهد أحمد المنصور، وتحديدا إلى سنة: 992هـ/1584م، وذلك للتذكير بالأصول الشريفة لسلاطين الدولة السعدية.

ورجوعا بنا إلى الطغراء السعدية التي هي بيت القصيد وموطن الشاهد عندنا في هذه العملة، نشير إلى أنها لاتخلو من بعض الاهتمامات التزينية، التي تظهر على شكل زهيرات ونقاط صغيرة كحبات السمسم، وكذا نجوم وأهلّة، موزعة في الفراغات البينية التي تتخلل الحروف بشكل متوازن.

ولا شك أن الطغراء ظهرت كعنصر جديد في ضرب العملة على اعتبار أن استعمالها كان محصورا - إلى حد ما - في الوثائق الرسمية للسعديين، لكنها أضحت السمة المميزة والوراثية للدولة منذ عهد أحمد المنصور الذهبي، فتم تعميم استعمالها - تبعا لذلك - في كل الأغراض المرتبطة بسيادة الدولة، ولا غرْو أن تكون النقود إحدى تلك الأغراض، ولاسيما في عهد أبي المعالي زيدان السعدي، الذي عرفت القطع النقدية الذهبية والفضية المتداولة في عهده، حضور الرسم الطغرائي بشكل لافت للنظر.

وفيما يلي؛ نقترح مجموعة من القطع النقدية التي استُعملت فيها الطغراء الزيدانية - السعدية، حيث أوردناها مجملة في لوحة تجميعية، ثم أوردنا بعد ذلك بعضا من قطعها مفصلة، وذلك حتى تبدو بشكل أكثر وضوحا، وبالتالي يسهل الاطلاع على تفاصيل طغراواتها السلطانية التي نُقشت عليها (انظر شكل: 112 وتفصيلاته)[8].

[8] - القطع التي لم نضع مكان حفظها في الشكل التركيبي (112) ، معروضة في بعض المزادات العلنية العالمية للبيع، وصورها منشورة على بعض المواقع الالكترونية وهي على التوالي

mcsearch.info/search.html?search=&view_mode=0&c=51&a=814&l=&page=37
acsearch info/search.html?search=&view_mode=0&c=40&a=345&l=&page=14
numisbids com/n.php?p=sale&sid=352&cid=10016
dc184 4shared.com/doc/zvfZ190z/preview.html



لوحة تمثل مجموعة من القطع النقدية الزيدانية - السعدية التي نُقشت عليها الطغراء.

شكل: 112

تفاصيل بعض العملات الواردة في الشكل: 112:



دينار ضرب في سنة: 1013هـ/1604م بمدينة مراكش، خلال عهد أبي المعالي زيدان السعدي

رقم التصنيف: Lot 744



دينار ضرب بين سنتي: 1015 - 1018هـ/1606 - 1609م بمدينة مراكش،
خلال عهد أبي المعالي زيدان السعدي

رقم التصنيف: Lot 248



دينار ضرب في سنة: 1018هـ/1609م بمدينة مراكش، خلال عهد أبي المعالي زيدان السعدي



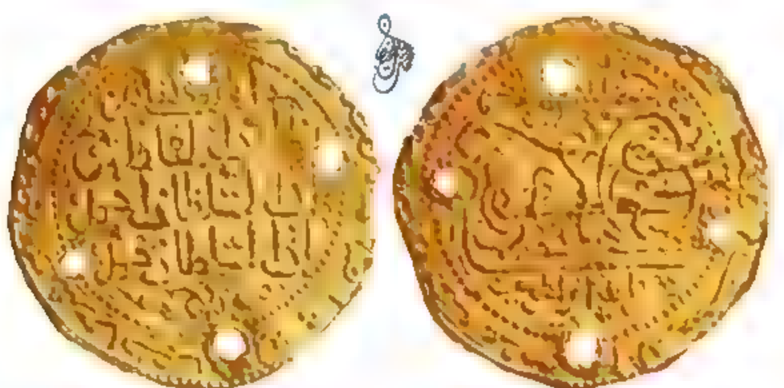
دينار ضرب في سنة: 1018هـ/1609م بمدينة مراكش، خلال عهد أبي المعالي زيدان السعدي



دينار ضرب في سنة: 1018هـ/1609م بمدينة فاس، خلال عهد أبي المعالي زيدان السعدي



دينار ضرب في سنة: 1018هـ/1609م بمدينة مراكش، خلال عهد أبي المعالي زيدان السعدي
رقم التصنيف: 42577



دينار ضرب في سنة: 1018هـ/1609م بمدينة مراكش، خلال عهد أبي المعالي زيدان السعدي
رقم التصنيف: B15



دينار ضرب في سنة: 1018هـ/1609م بمدينة مراكش، خلال عهد أبي المعالي زيدان السعدي

وفي إطار المقارنة، نشير إلى أننا قد وقفنا على هذا الاتجاه المتعلق بنقش الطغراء على العملات العثمانية أيضا، ونلاحظ ذلك - على سبيل المثال - من خلال قطع نقدية عثمانية ضُربت في مرحلة مزامنة لفترة حكم أبي المعالي زيدان السعدي، وتحديدا في عهد أحمد الأول (1012 - 1026هـ/1603 - 1617م). ومن خلال مقارنتنا بين الطغراء الزيدانية التي نُقشت على النقود السعدية، والطغراء التي نُقشت على النقود العثمانية المزامنة لها، والتي كانت تسمى: "الأقجة" (Akçe)، ندرك تفوق المغاربة في استعمال هذا المونوغرام السلطاني على النقود (انظر شكل: 113).



قطعتان فضيتان تظهر عليهما طغراء أحمد الأول العثماني (1012 - 1026هـ/1603 - 1617م)[9]
تاريخ القطعتين: 1012هـ/1603م
شكل: 113

ويشير بعض الباحثين إلى أن أقدم الطغراوات المعروفة في النقود العثمانية ترجع إلى عهد الأمير سليمان بن بايزيد الأول بتاريخ: 801 - 802هـ/1398 - 1399م، الذي أصدر أيضا نياشين موشحة بختم الطغراء تحمل اسمه"[10]، وقد عثرنا على قطع من هذه العملات التي ضُربت باسم هذا الأمير العثماني، الذي خرج على أخيه السلطان محمد جلبي الأول[11] بن بايزيد الأول (805 - 824هـ/1403 -

[9] انظر coinarchives.com/w/results.php?results=100&search=vo

[10] - حنش، الخط العربي في الوثائق العثمانية، ص: 205

[11] - "جلبي" çelebi، هو لقب يطلق على: الأنيق، الخلوق، والمثقف، وقد أُطلق هذا اللقب على أمراء "آل عثمان" حتى عهد السلطان محمد جلبي (816 - 824/1413 - 1421م)، كما أطلق على المنحدرين من نسل جلال الدين الرومي، وقد استُعمل كذلك لذوي الشرف والفضل، واستخدم أيضا بمعنى: سيد وخواجة.
انظر: صابان، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، ص: 86

1421م)، كما تشير إلى ذلك قطعتان بتاريخ: 811هـ/1408م، و813هـ/1410م، حيث ورد في ظهرهما أنهما ضُربتا بمدينة أدرنة، وقد نُقش اسم هذه المدينة تحت كلمة التوحيد: "**لاإله إلا الله محمد رسول الله**". أما في وحه القطعة، فقد نُقش اسم السلطان بشكل طغرائي، ونصه مايلي: "**أمير سليمان بن**" في القوس العُلوي على غرار السلاجقة الذين كانوا يضعون أسماء سلاطينهم تحت قوس (راجع شكل: 2). وفي القوس السفلي نُقش اسم أب السلطان (بايزيد الأول) مرفقا بعبارة: "**خلد الله ملكه**"، وهي العبارة التي كان يستعملها المماليك في طغراواتهم (راجع شكل: 6)، خلافا لذلك، نجد القطع التي ضُربت في السنة الأولى لخروج هذا الأمير على أخيه، أي في سنة: 806هـ/1404م، كانت تُنقش عليها الطغراء باسم السلطان دون أية إضافة أخرى (انظر شكل: 114).

إضافة إلى ما ذكرناه، نشير إلى أننا قد عثرنا أيضا لهذا الأمير على قطعتين من النياشين التي تحمل طغراءه، وقد قارناهما في (الشكل: 114) بنياشين عثمانية حديثة، كما نلاحظه من خلال أنموذج لوسام يرجع إلى عهد السلطان عبد الحميد الثاني بن عبد المجيد الأول (1293 - 1327هـ/1876 - 1909م)، وهو وسام يظهر عليه الشعار الذي اتخذته الدولة العثمانية في مراحلها الأخيرة، والذي جرت العادة بأن يكون متوجا بالطغراء السلطانية.

ومعلوم أن سليمان بن بايزيد الأول، حكم إدرنة بين سنتي: (806 - 813هـ/1404 - 1410م)، في المرحلة التي تسميها المصادر المتخصصة في التاريخ العثماني بـ: "**دور الفترة**" (فترت دوري)، وهي الفترة التي تميزت بالنزاع حول العرش بين أبناء "يلدرم" بايزيد الأول، ومدتها 10 سنوات و11 شهرا و8 أيام، قبل أن يخلُص الحكم نهائيا لمحمد جلبي الأول، ابتداء من سنة: 816هـ/1413م، إلى غاية وفاته سنة: 824هـ/1421م)[12]، إلى درجة يسمي المؤرخون هذا السلطان: المؤسس الثاني للدولة العثمانية[13].

---

12 اورتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ج/1، ص. 113

13 المرجع نفسه، ج/1، ص: 119





قطعتان فضيتان تظهر عليهما طغراء سليمان بن بايزيد الأول (806 - 813هـ/1404 - 1410م).
تاريخ القطعتين: 806هـ/1404م
المصدر: Fritz Rudolf - رقم القطعتين على التوالي: 231/9020ـ231/9021






تاريخ القطعة: 811هـ/1408م
المصدر: Stephen Album Rare Coins - رقم: Lot 363

تاريخ القطعة: 813هـ/1410م
المصدر: Fritz Rudolf - رقم: 231/9022

قطعتان فضيتان تظهر عليهما طغراء سليمان بن بايزيد الأول، ضربتا في آخر أيام هذا الأمير






أنموذجان للأوسمة والنياشين التي كانت مستعملة في عهد سليمان بن بايزيد الأول (806 - 813هـ/1404 - 1410م)
المصدر: Fritz Rudolf - رقم: 231/9024

أنموذج لوسام يرجع إلى عهد السلطان عبد الحميد الثاني (1293 - 1327هـ/1876 - 1909م)، يظهر عليه الشعار الذي اتخذته الدولة العثمانية في مراحلها الأخيرة وهو متوج بالطغراء السلطانية. المصدر: mcsearch.info

قطع نقدية لسليمان بن بايزيد الأول، الذي حكم ادرنة بين سنتي: (806 - 813هـ/1404 - 1410م)، ويعتبر هذا الأمير - حسب ما توصلنا إليه - أول من نقش الطغراء بشكلها العثماني على النقود المنسوبة لهذه الدولة
شكل: 114

ولاستكمال أوجه المقارنة بين الطغراء السعدية والطغراء العثمانية، وعلاقة كل منهما بسيادة كل دولة على أرضها، نشير إلى أنه وفي الوقت الذي اندثر فيه نقش الطغراء على العملات المغربية بسبب سقوط الدولة السعدية سنة: 1069هـ/1659م، استمر استعمالها في العملات العثمانية بسبب طول عمر هذه الدولة، حتى بلغت مستوى فنيا رائقا، كما يظهر ذلك من خلال دينار عثماني مؤرخ في سنة: 1293هـ/1876م، يرجع إلى عهد السلطان عبد الحميد الثاني بن عبد المجيد الأول (1293 - 1327هـ/1876 - 1909م).(انظر شكل: 115).



دينار عثماني مؤرخ في سنة: 1293هـ/1876م، يرجع إلى عهد السلطان عبد الحميد الثاني بن عبد المجيد الأول (1293 - 1327هـ/1876 - 1909م)، يظهر من خلاله استعمال الطغراء في العملات العثمانية حتى عهود متأخرة بسبب طول عمر هذه الدولة[14].
شكل: 115

بالمقابل، تخلت الدولة العلوية - التي خلفت السعديين على حكم بلاد المغرب - عن استعمال الطغراء في القطع النقدية، لكنها حافظت - مع ذلك - على الخصوصية المغربية التي تتعلق بسيادة هذا البلد على أرضه أكثر من 12قرنا،وتشهد على ذلك؛ القطع النقدية العلوية التي وإن خلت من الطغراء، إلا أنها تزخر بما يشير إلى سيادة العلويين على أرضهم خطا وزخرفة، سيما وأن فترتهم صادفت مرحلة تقلص الدولة العثمانية وبداية أفول نجمها، بل إن السلطان العلوي (سيدي) محمد بن عبد الله (1171 - 1204هـ/1757 - 1789م)، وللتذكير بسيادة الدولة السعدية، قام بسك عملة عليها طغراء هذه الدولة التي حافظت على استقلال المغرب من سطوة القوى الكبرى في البحر الأبيض المتوسط خلال بداية العصر الحديث (انظر شكل: 116).

---

14 mcsearch.info/record.html?id=476319



قطعة ذهبية للسلطان العلوي (سيدي) محمد بن عبد الله (1171 - 1204هـ/1757 - 1789م)، أمر بسكها في أواخر القرن 18م بمدريد
شكل: 116

ومن خلال هذه القطعة الذهبية، يلاحظ أن السلطان (سيدي) محمد بن عبد الله استعمل الطغراء لكتابة اسمه: "**محمد الحسني**"، ومن تحتها بخط عادي اسم أبيه: "**عبد الله**"، وفي الدائرة المحيطة، نص الآية التي تذكر بآل البيت في إشارة إلى النسب الشريف لسلاطين الدولة العلوية :"**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ**"[15].

ويسترعي انتباهنا؛ التصرف العجيب في اسم الجلالة، حيث ينفصل مقطع: "الل" عن مقطع: "ـــه"، كما نلاحظ وضع بعض النقط في غير موضعها بسبب ضيق المساحة كما نقف عليه في كلمة: "**أهل**"، التي وُضعت فوق لامها نقطة، بينما حُذفت نقطة الباء ونقطتا الياء من كلمة: "**البيت**"، فضلا عن ذلك، نلاحظ وضع نقطة فوق الراء التي اتخذت شكل الواو من كلمة: "**يريد**"، والتي لا تبدو كلمة مجتمعة بسبب فصل مقطعيها: "**ير**" "**يد**" عن بعضهما، حيث أُلحق المقطع الأول بكلمة: "**إنما**"، التي لا نستطيع تمييزها إلا بصعوبة بالغة، بسبب وضع نقطة النون في غير محلها، حيث توسطت الكشيدة والخط الواصل بين الميم والألف، ومما زاد في التباسها؛ إلحاق المقطع المذكور بها، حيث بدت معه ككلمة واحدة: "إنماير"؟؟؟ ونسجل أيضا حذف نقط الكلمتين: "**ليذهب**" - "**الرجس**"...

وعموما فقد عرفت العملات خلال المراحل المتأخرة لعصر الدولة العلوية، ظهور مجموعة من الشعارات التي تحيلنا على السيادة المغربية، كالنجمة الخماسية، والنجمة الثمانية، وما شابههما كما نلاحظه من خلال عملة ترجع إلى عهد الحسن الأول (انظر شكل: **117**).

---

[15] سورة الأحزاب، الآية. 33



قطعة نقدية علوية ضربت بباريس في سنة: 1299هـ/1881م، ترجع إلى عهد الحسن الأول (1290 - 1873/1311 - 1894).
رقم التصنيف: vae12-1685
شكل: 117

وفي عهد الحماية الفرنسية (1330 - 1375هـ/1912 - 1956م) عرفت القطع النقدية المغربية دخول الحرف اللاتيني عليها، كتعبير عن تقزيم وتحجيم السيادة المغربية التي كانت محكومة بسلطة الحماية الفرنسية كما نلاحظه من خلال قطعتين نقديتين ترجعان إلى عهد محمد الخامس (1346 - 1380هـ/1927 - 1961م).(انظر شكل: 118 وشكل: 119).



قطعة نقدية علوية ضربت بباريس سنة: 1357هـ/1937م، ترجع إلى عهد محمد الخامس (1346 - 1380هـ/1927 - 1961م) - (مرحلة الحماية الفرنسية).
شكل: 118

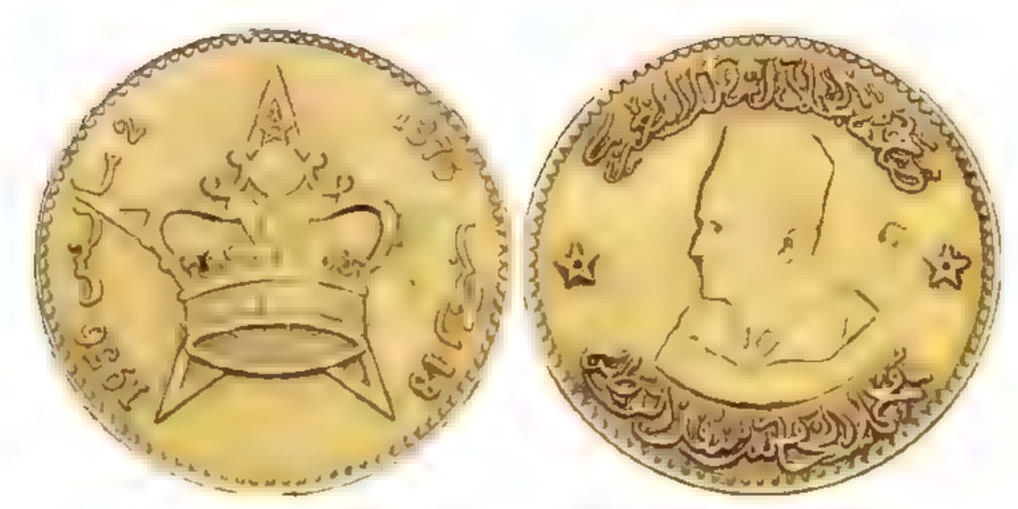


قطعة نقدية ضربت بباريس سنة: 1366هـ/1946م، ترجع إلى عهد محمد الخامس (1346 - 1380هـ/1927 - 1961م) - (مرحلة الحماية الفرنسية).
رقم التصنيف: Rare. Lot 1702
شكل: 119

بناء على القطعتين السابقتين الممثلتين في الشكل: 118 والشكل: 119، وبالاستناد على القطع التي سبقتها، يمكن القول انه لو كان المغرب تابعا للعثمانيين، لظهرت ملامح تلك التبعية على نقوده كما ظهرت ملامحها على العملات الجزائرية والتونسية والليبية، والتي تتمثل في اسم السلطان العثماني وطغرائه (راجع الأشكال: 105 - 106 - 107)، أو لظهرت كما ظهرت ملامح الحماية الفرنسية على العملات المغربية المضروبة في الفترة الممتدة بين (1330 - 1375هـ/1912 - 1956م)، وهي المرحلة المرتبطة بفترة الحماية الفرنسية المفروضة على المغرب، والتي كانت حينها القطع النقدية المغربية تُضرب بالعاصمة الفرنسية باريس، حيث استُعملت فيها اللغة الفرنسية إلى جانب اللغة العربية، فضلا عن ربط تسميتها وقيمتها بالفرنك الفرنسي، وهي ملامح كلها تدل على تبعية المغرب لسلطات الحماية.

ولأن السيادة تعبر عن واقع تاريخي معين، يخضع لميزان القوى، وموقع المغرب من ذلك الميزان، نشير إلى أن هذا البلد وبمجرد استقلاله في سنة: 1375هـ/1956م، تخلص من تلك التبعية، ثم قام بسك قطع نقدية تدل على سيادته التي كرّسها استقلاله، حيث ظهر فيها الشعار الجديد للدولة المغربية الذي تم اعتماده بعد الاستقلال مباشرة أي في سنة: 1375هـ/1956م، ثُم تَم استبداله بشعار آخر في السنة الموالية؛ يحتفظ بالثوابت نفسها التي تحيلنا على رموز السيادة المغربية عبر التاريخ، والمتمثلة في: النجمة الخماسية، والتاج السلطاني، مع إضافة أسدين أطلسيين متقابلين يحرسان التاج الملكي (1376هـ/1957م) ولتأكيد ما قلناه؛ نقترح قطعتين نقديتين ضربتا بعد الاستقلال باسم محمد الخامس (1346 - 1380هـ/1927 - 1961م).(انظر شكل: 120 وشكل:121).

ومن باب المقارنة نشير إلى أن السلاطين العثمانيين أيضا انتقلوا من استعمال الطغراء إلى استعمال الشعار في ضرب عملاتهم كما نلاحظه مثلا من خلال قطعة للسلطان العثماني محمد الخامس (1327 - 1336هـ/1909 - 1918م) - (انظر وشكل: 122).



قطعة ذهبية ضربت سنة: 1375هـ/1956م، ترجع إلى عهد محمد الخامس
(1346 - 1380هـ/1927 - 1961م) - (مرحلة الاستقلال)
رقم التصنيف: Rare. Lot 1702
شكل: 120



درهم ضرب سنة: 1380هـ/1960م، يرجع الى عهد ملك المغرب: محمد الخامس
(1346 - 1380هـ/1927 - 1961م) - (مرحلة الاستقلال)
رقم التصنيف: Lot 876
شكل: 121



قطعة ذهبية ضربت في استانبول سنة: 1327هـ/1908م، ترجع إلى عهد السلطان العثماني
محمد الخامس (1327 - 1336هـ/1909 - 1918م)
المصدر: الأرشيف العثماني - استانبول
شكل: 122

2 – الطغراء على المدافع، وعلاقتها بظهور الشعارات الطغرائية على مختلف الحوامل:

إن ما قلناه على النقود في المبحث السابق، ينطبق بعينه على "**برونز المدافع**" الذي يُعدّ من الحوامل الأخرى التي اشتهرت بالنقوش الطغرائية، والسر في ذلك حسب اعتقادي يرجع إلى الدلالة الرمزية للطغراء، وقد سبق وأشرنا إلى أنها كانت ترمز إلى سيادة الدولة، كما كانت ترمز أيضا إلى قوة السلاطين الذين كانوا يريدون تخليد ذكرهم وذكراهم بشارات وتوقيعات منسوبة إليهم. والسيادة على هذا الفهم لا يمكن أن تتحقق إلا بقوة السلاح لمواجهة الأطماع الخارجية، وكبح جماح الثورات الداخلية، لذلك كانت الطغراء هي السمة الأساسية، بل ومطلبا ملحا زين المدافع السعدية، حتى لا يكاد يخلو واحد منها من هذه الشارة الرمزية، وخاصة في عهد أبي المعالي زيدان وعهود أبنائه.

ورغم غياب هذه الطغراوات في المدافع التي صُنعت خلال عهد السلطان أحمد المنصور الذهبي والسلاطين الذين سبقوه، إلا أنها كانت مزيّنة بأسمائهم وألقابهم السلطانية، ولا يظهر في كل المدافع التي وقفنا عليها؛ أي أثر لأية قرينة تدل على تبعية السعديين تبعية إسمية أو رسمية للعثمانيين أو غيرهم من قوى البحر الأبيض المتوسط خلال العصر الحديث، وهو ما يقطع الشك باليقين ويفند كل دعاوى التشكيك المغرضة، وفيما يلي نستعرض أحد أقدم المدافع السعدية، وهو مدفع مؤرخ في سنة: 952هـ/1545م، صُنع في عهد السلطان السعدي: محمد الشيخ المهدي (947 - 964هـ/1540 - 1557م)، نُقش في أعلاه - بمحاذاة الفوهة - بخط مغربي: "**صنع لمولاي محمد الشريف نصره الله نصرا عزيزا**"، وفي أسفله بجوار قاعدة المدفع، نُقش: "**عمل (منصو) العلج عام اثنين وخمسين وتسعمائة**".(انظر شكل: 123).

تفصيـــــــــــــل:





مدفع لمحمد الشيخ المهدي (947 - 964هـ/1540 - 1557م)، نُقش في أعلاه بالخط المغربي:
"صنع لمولاي محمد الشريف نصره الله نصرا عزيزا"
وفي أسفله نُقش: "عمل (منصو) العلج عام اثنين وخمسين وتسعمائة"
المكان: حديقة عمالة مدينة طنجة
شكل: 123

بالإضافة إلى مدفع محمد الشيخ المذكور، وقفنا على مدفع آخر في عهد ابنه السلطان: أبو محمد عبد الله الغالب (964 - 982هـ/1557 - 1574م)، صُنع في: فاتح محرم 978هـ/5 يونيو 1570م، وسُمي هذا المدفع بـ: "**النفط السعيد**" كما نُقش ذلك على واجهته البرونزية، وتتوزع نصوصه المنقوشة إلى ثلاثة عناصر:

- **العنصر الأول**؛ عبارة: "**القوة بالله**"، وهي بمثابة: "علامة للسلطان" عبد الله الغالب السعدي، نُقشت في القمة داخل إطار مستطيل.

- **العنصر الثاني**؛ ويرتبط باسم السلطان السعدي واسم أبيه، والدعاء له بالنصر والتمكين، فضلا عن تاريخ صُنع المدفع، وقد تم تركيب كل ذلك في شكل دائري على غرار التقليد الذي كان معمولا به في الطغراوات المشرقية، وتحديدا المملوكية منها (راجع شكل: 7). ونُقش في فضاء الدائرة الطغرائية مايلي:

"**أمر بعمل هذا النفط السعيد - إن شاء الله عمله - أمير المومنين المجاهد في سبيل رب العالمين؛ أبو محمد عبد الله الغالب بالله، بن أمير المومنين أبي عبد الله محمد الشيخ الشريف الحسني أيده الله ونصره. أوّل يوم من محرم عام ثمانية وسبعين وتسعمائة**".

- **العنصر الثالث**؛ ورد فيه اسم صانع المدفع داخل إطار مستطيل، ونصه: "**صانعه الحاج أحمد القمق**".

(انظر شكل: 124)

تفصيـــــــــــــــــــــل:





المدفع المغربي نفط الذي استعمل في معركة وادي المخازن

مكان الحفظ: متحف الأسلحة (دار السلاح - برج النار) - فاس

شكل: 124

والملاحظ أن المدافع السعدية كانت متفوقة من حيث الإخراج الفني على المدافع العثمانية، اعتبارا من عهد أبي المعالي زيدان السعدي وعهود أبنائه، لأن هؤلاء استعانوا بالخبرة الهولندية في صناعة مدافعهم، كما يظهر ذلك على بعض القطع التي ترجع إلى السلاطين المذكورين. إذ من المعلوم أن الهولنديين كان لهم الباع الطويل في هذه الصناعة.

وفي هذا المضمار؛ نقترح عدة نماذج لمدافع برونزية نُقشت عليها الطغراء السعدية التي اتخذت شكل "شعار" أيقوني، يرجع بعضها إلى عهد أبي المعالي زيدان السعدي (1012 1037هـ/1603 1628م)، و بعضها الآخر إلى عهد ابنه الوليد (1040 1046هـ/1631 1636م)، وهي محفوظة حاليا بكل من مدينة طنجة، وكذا متحف الأسلحة (دار السلاح برج النار) بمدينة فاس (انظر شكل: 125)، لكن معظم المدافع المنسوبة لهذين السلطانين السعديين، توجد قطعها - التي وقفنا عليها - بمدينة آسفي في "قصر البحر"[16] قبل انهدام أحد أبراجه، وهو الانهدام الذي دفع بالسلطات المحلية ووزارة الثقافة المغربية إلى إغلاقه سنة: 2010م مخافة انهياره المفاجئ، في انتظار إيجاد حلول عاجلة لإنقاذ هذا المعلم الأثري من الانهيار، وقد أقدمت السلطات المعنية قبل ذلك بإخلاء أبراج هذا المبنى من المدافع السعدية، ثم تحويلها إلى وسط ساحة القصر، وذلك حتى تسهل عملية إنقاذها في حالة حدوث أي ظرف طارئ.(انظر شكل: 126).

ومن باب المقارنة؛ نشير إلى أن العثمانيين لم يقوموا بنقش طغراواتهم السلطانية على مدافعهم الحربية، إلا في مراحل متأخرة عن السعديين، قد تتزامن مع عصر الدولة العلوية أوتسبقها بقليل، ولتأكيد هذا المعطى؛ نستدل (بالشكل: 127)، الذي جمعنا فيه بعض المدافع العثمانية التي يتأخر تاريخها عن النماذج السعدية بما يزيد عن القرنين من الزمان.

[16] - يرجع "قصر البحر" فيما يتعلق بتأسيسه إلى الغزاة البرتغاليين الذين شيدوه باعتباره حصنا عسكريا منذ سنة: 913هـ/1508م، على المحيط الأطلسي بمدينة آسفي عقب احتلالها إبان القرن السادس عشر، ويتكون هذا المبنى من ثلاثة أبراج، كما أن مساحته تبلغ نحو 3900م

وقد تعددت أسماؤه في سجلات المؤرخين والباحثين، إذ أن تسميته الحالية (قصر البحر)، سبقتها تسمية: "الفيتورة" التي كانت النواة الأولى للحصن البرتغالي بعد احتلال آسفي من طرف البرتغاليين منذ العصر الوطاسي. وحمل بعد ذلك، اسم: "الحصن الجديد"، ثم "القلعة البرتغالية". وفي العصر السعدي؛ حمل اسم: "دار البحر". ومن ثم ظل يُعرف بهذا الإسم حتى سنة: 1337هـ/1919م. وعندما نُشرت مقالة في مجلة: "فرنسا المغرب"، للصحفي والكاتب جيل بورلي؛ أطلق عليه فيها اسم: "قصر البحر"، وهي التسمية التي استمرت حتى اليوم.

وقد صنفت الحكومة المغربية سنة 1340هـ/1922م هذا المبنى الاثري ضمن التراث المعماري الوطني الذي تلزم حمايته من التآكل، لكونه ذاكرة حضارية تشهد على المشترك التاريخي الإنساني المغربي البرتغالي، وبعد ترميم بعض أجزائه، افتتح بصفة رسمية سنة 1382هـ/1963م أمام الزوار الذين يفدون عليه من داخل المغرب وخارجه، لكن وبسبب التشققات الكثيرة؛ تعرضت قاعدته السفلية للتآكل، فقررت السلطات المحلية ووزارة الثقافة المغربية إغلاقه سنة 2010م مخافة انهياره المفاجئ، في انتظار إيجاد حلول عاجلة لإنقاذ هذا المعلم الأثري من الانهيار.

- راجع

safileaks com/9268
safipress com/index php?op=suite&art=3010



استعمال الطغراء السعدية على شكل "شعار" أيقوني على برونز المدافع.
القطع المحفوظة بكل من مدينة طنجة ودار السلاح بمدينة فاس
شكل: 125



استعمال الطغراء السعدية على شكل "شعار" أيقوني على برونز المدافع.
القطع محفوظة في: "قصر البحر" بمدينة اسفي
شكل: 126









المدافع والأنفاط السعدية بقصر البحر - مدينة آسفي



المدافع والأنفاط السعدية بدار السلاح (برج النار / البرج الشمالي) - مدينة فاس



تفصيـــــــــــــــــل:

مقطع للشعار الطغرائي عند السعديين

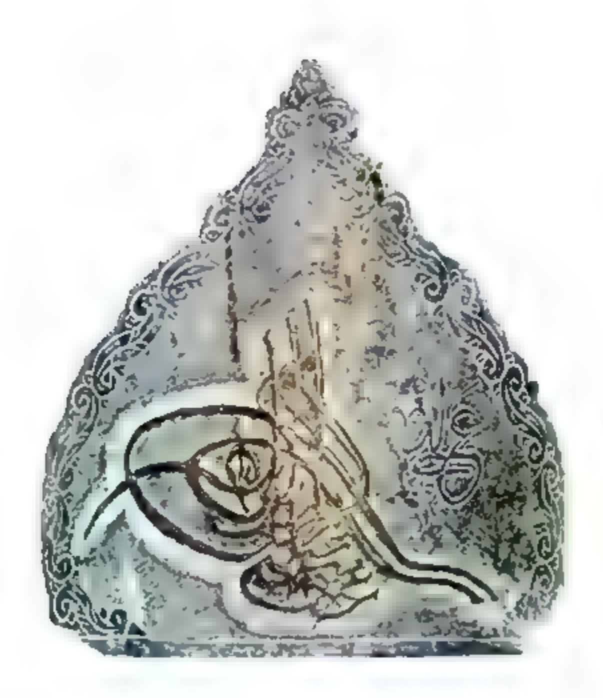
تفصيـــــــــــــــــل:

مقطع للشعار الطغرائي عند السعديين

شعارات طغرائية متنوعة استخرجناها من مختلف المدافع السعدية



مدافع عثمانية مزينة بطغراوات حديثة غير مزامنة للطغراء السعدية
شكل: 127



وما يسترعي انتباهنا، هو أن أحد المدافع العثمانية الممثلة في الشكل: 127، صُنع في الجزائر، ورغم أن الجزائر لها تاريخ مشترك مع المغرب، إلا أن تبعيتها للعثمانيين منذ مستهل العصر الحديث، جعل توجهها مشرقيا على جميع المستويات، بعدما كان مغربيا خلال العصر الوسيط، وهذا يُستنتج منه: التأثير الفعلي للإمبراطورية العثمانية على الولايات التابعة لها، ليس على المستوى السياسي أوالاجتماعي فحسب، بل حتى على المستوى الفني وسائر مناحي الحياة.

وقد أشار أوكتاف هوداس إلى هذا الأمر عند حديثه عن تونس، التي كان لها وللجزائر الوضع نفسه، حيث قال: "**وإن ما كان من ثقل التأثير التركي الطويل المدى قد أكسب شؤون تونس العاصمة دورا أكثر شرقية، وحلت الكتابة النسخية محل الخط القيرواني في قسم كبير من أشكاله**"[17].

من هنا يمكن القول إن المدفع العثماني الذي صُنع في الجزائر، فُرض فيه شكل الطغراء - برسمها العثماني - حتى في توقيع صانعه.

ونصه ما يلي: "**عمل ولي بن عبد الله**". وذلك كله لتأكيد سيادة الامبراطورية العثمانية على الجزائر من خلال الدلالة الرمزية للطغراء، والمدلول المادي للسلاح، والذي يتعلق بمفهومي: "**السيادة**" و"**التغلب**"، وقد ورد في الكتابة المؤرخة للمدفع، ما نصه: "**صُنع في زمن السلطان عبد الحميد خان، في الجزائر بأمر محمد باشا.. سنة: 1189هـ[1775م]**".

ويُعـدّ هذا المدفع واحدا من بين عدة مدافع عثمانية صُنعت في الجزائر، سطا عليها المستعمر الفرنسي بعد احتلاله للجزائر سنة: 1245هـ/1830م، وهي الآن معروضة بمتحف الأسلحة في العاصمة الفرنسية؛ باريس. (انظر شكل: 128).

---

[17]- هوداس (أوكتاف)، محاولة في الخط المغربي، ترجمة: عبد المجيد التركي، قضايا ثقافية من تاريخ الغرب الإسلامي، (نصوص ودراسات)، دار الغرب الإسلامي، 1988م، ص 478

المدفع الجزائري - العثماني من زاوية أخرى:





تفصيـــــــل:



مدافع عثمانية صُنعت في الجزائر سنة: 1189هـ/1775م، يبدو عليها توقيع صانعها الذي اتخذ رسم الطغراء العثمانية، وهي معروضة حاليا بمتحف الأسلحة في العاصمة الفرنسية: باريس
شكل: 128

ومن خلال حديثنا عن الطغراء العثمانية، نشير إلى أنها أضحت تُستعمل في أواخر هذه الدولة على شكل شعارات على كافة الحوامل، بل وصُنعت لها مجسمات عديدة منقوشة على الرخام وغيره من المواد المعدنية، ولا تزال بعض قطعها محفوظة إلى اليوم في متحف قصر طوب كابي سراي باستانبول (انظر شكل: 129)، فضلا عن ذلك، استعملت الشعارات الطغرائية في إطارات بعض الوثائق السلطانية، لتعوض بذلك الرسم الطغرائي الذي جرت العادة بوضعه في طرر الوثائق العثمانية (انظر شكل: 130)، ومن أهم الحوامل التي استُعملت فيها هذه الشعارات؛ واجهات بعض المدافع، كما يُلاحظ ذلك على سبيل المثال من خلال درع مدفعي يعود إلى عهد "عدلي" محمود الثاني بن عبد الحميد الأول (1223 1255هـ/1808 - 1839م).(انظر شكل: 131)، فضلا عن ذلك استُعملت في النياشين والأوسمة التي تتعلق بالرتب العسكرية عند العثمانيين، كما نلاحظه من خلال (الشكل: 132).



بعض مجسمات شعار الدولة العثمانية التي ماتزال محفوظة بقصر طوب كابي سراي باستانبول
شكل: 129



وثيقة عثمانية مؤرخة في سنة: 1293هـ/1876م، على شكل قصيدة شعرية بالتركية، تضمنت تهنئة السلطان العثماني عبد الحميد الثاني (1293 - 1327هـ/1876 - 1909م) بتوليه الحكم.

استعمل الشعار الطغراني في إطارها كتاج يزينها، ليعوض بذلك الرسم الطغراني الذي جرت العادة بوضعه في طرر الوثائق العثمانية

المصدر: متحف الفنون التركية والإسلامية - استانبول، رقم: 22765

شكل: 130



درع مدفعي نُقش عليه الشعار الطغرائي، يعود إلى عهد "عدلي" محمود الثاني بن عبد الحميد الأول (1223 - 1255هـ/1808 - 1839م)

المصدر: متحف الاسلحة - استانبول

شكل: 131



أنموذج لوسام يرجع إلى عهد السلطان عبد الحميد الثاني (1293 - 1327هـ/1876 - 1909م). يظهر عليه الشعار العثماني الذي اتخذته الدولة العثمانية في مراحلها الأخيرة، وهو متوّج بالطغراء السلطانية

المصدر: mcsearch.info

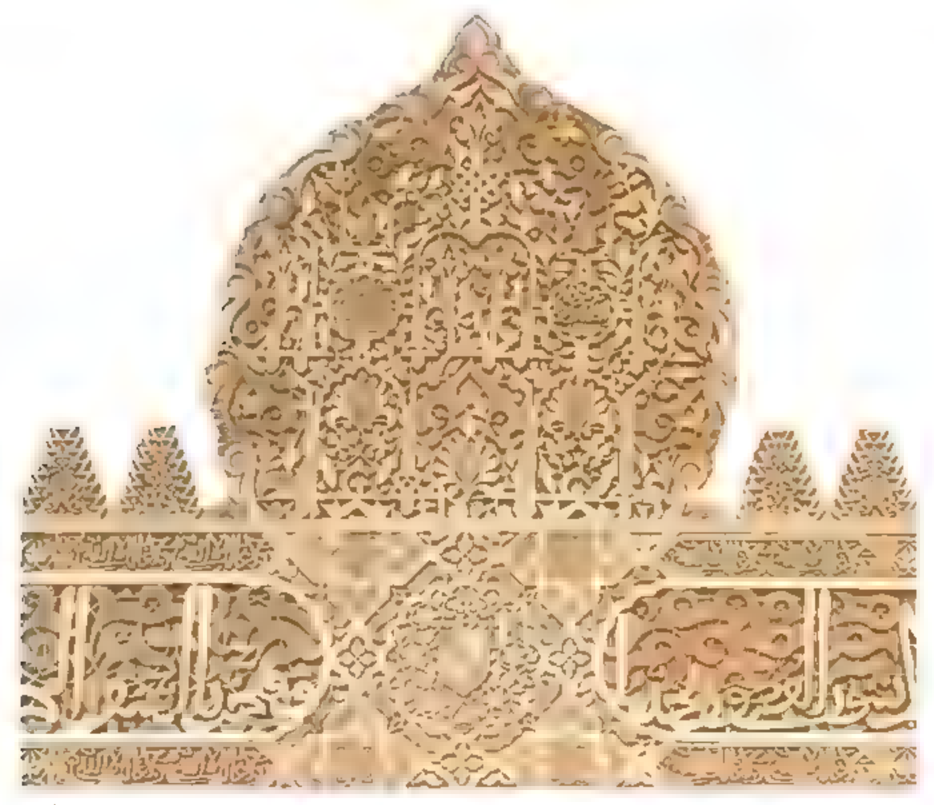
شكل: 132

والجدير بالذكر؛ أن الشعارات حلت محل الطغراء في أواخر الدولة العثمانية، وذلك لأن "الشعار" يتجاوز في مدلوله مفهوم السيادة، بل ويتعداه ليشمل مفهوم التغلب، وبمعنى آخر: إذا كانت الطغراء تعبر عن السيادة، فإن الشعارات - التي تكون الطغراوات أوالتوقيعات السلطانية إحدى أجزائها - تعبر عن مفهوم التغلب والاستقواء والمنعة، وذلك بحكم استعمالها في أغراض ترتبط في غالب الأحيان بالجانب العسكري. وهو ما لاحظناه من خلال استعمالها على المدافع، والأوسمة التي ترتبط بالرتب العسكرية كما قلناه، وقد أصبح الشعار له دلالة قوية، إلى درجة استُعمل معها إلى جانب الطغراء في الوثائق السلطانية العثمانية المتأخرة، كما نلاحظه من خلال الفرمان السلطاني الممثل في الشكل: 133، حيث يُميَّز من خلاله الهلال الذي تتوسطه النجمة الخماسية، وهو الشعار الذي احتفظت به تركيا إلى اليوم، كما ورثته بعض الولايات التي كانت تابعة للعثمانيين، حيث وضعتها في أعلامها كالجزائر وتونس، كما تخلت عنه ولايات أخرى إلى عهود متأخرة كمصر، وسورية بسبب سقوط النظام الملكي في كل منهما.



براءة (مرسوم) مُنحت لأحد التجار غير المسلمين، مؤرخة في ذي الحجة 1253هـ/مارس 1838م، ترجع إلى السلطان العثماني محمود الثاني، يبدو من خلالها استعمال الطغراء إلى جانب الشعار الذي اتخذته الدولة العثمانية في أواخرها، مما يدل على أنهما كانا وجهين لعملة واحدة
المصدر: BOA, Illuminated Firman Collection no. 648/1
شكل: 133

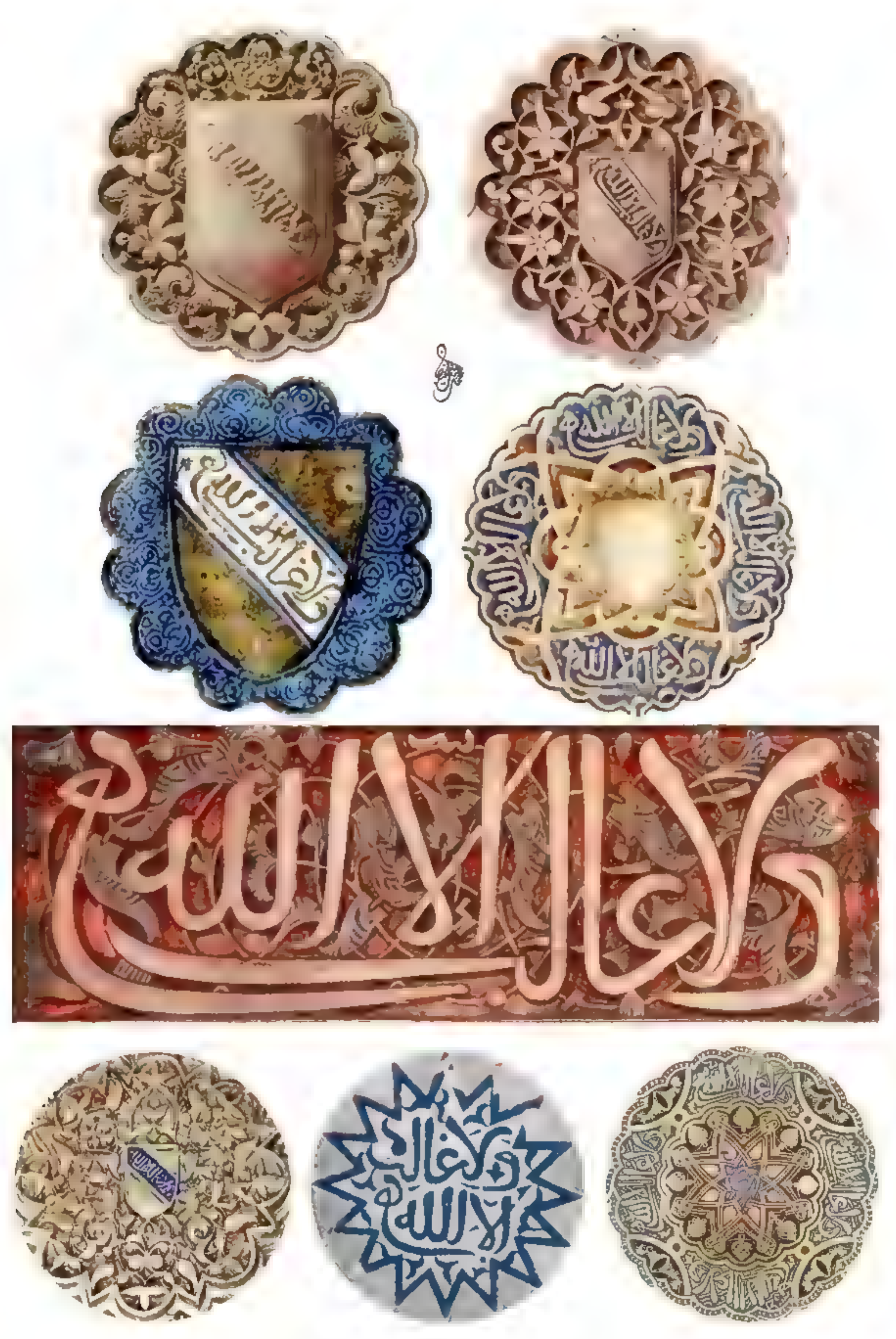
وقد لاحظنا حضور الشعارات العثمانية في زمن متأخر؛ يعاصر الدولة العلوية، بدليل أن الشعار الطغرائي العثماني لم يُستعمل إلا في سنة: 1299هـ/1882م، واستمر إلى غاية سنة: 1341هـ/1923م، بخلاف المغرب الذي استُعملت فيه الشعارات الطغرائية منذ العصر السعدي، حيث كانت تجمع بين الطغراء وعناصر أخرى تُعبر عن الجانب السيادي والعسكري كالتيجان والدروع والألوية وغيرها.. فقد نُقشت الشعارات خلال هذا العصر على شكل دروع تتوسطها الطغراء السعدية، وهي متوجة برسم التاج الملكي الذي يعبر عن سلطان المغرب، ولا شك أن هذا التاج ظل حاضرا في الشعارات المغربية إلى عصر الدولة العلوية، وذلك بالرغم من تغيير معالم بعض العناصر، والاستغناء عن عناصر أخرى أهمها الطغراء، التي ستستبدل بأسدين أطلسيين يحرسان التاج الملكي كما سنطلع على ذلك بنوع من التفصيل. وعموما فقد كان للسعديين فضل السابقة في استعمال الشعارات الطغرائية على المدافع وغيرها من الحوامل في وقت كان فيه العثمانيون يقتصرون على الطغراء التي ستستبدل في مراحل لاحقة بالشعار.. هذا ويمكن القول إن ثقافة الشعارات كانت حاضرة في الغرب الإسلامي بشكل كبير؛ كما نلاحظه من خلال علامة بني الأحمر: (**ولاغالب إلا الله**) التي اتخذت شكل: "شعار الدرع" الذي كان مشهورا في أوربا آنذاك، وقد كان هذا الشعار حاضرا بشكل كبير في مختلف عمائر بني الأحمر، وخاصة في قصر الحمراء بغرناطة (انظر الأشكال: 134 - 135 - 136). والملاحظ أن شعار بني الأحمر لم يُستعمل في المنشآت المعمارية فحسب، بل تعداها ليكون حاضرا على سائر الحوامل الأخرى بما في ذلك سيوف السلاطين (انظر شكل: 137) وكراسيهم التي يجلسون عليها، بل وحتى محافظهم المخصصة للمصاحف (انظر شكل: 138).



جانب من زخرفة قصر الحمراء بغرناطة، يتوسطها "شعار الدرع": (ولاغالب إلا الله)
شكل: 134



أشكال متنوعة من "شعار الدرع": (ولاغالب إلا الله)، على جدران قصر الحمراء بغرناطة وعلى بعض مقتنيات بني نصر (بنو الأحمر)
شكل: 135



أشكال أخرى من "شعار الدرع"(ولاغالب إلا الله)، في قصر الحمراء بغرناطة
شكل: 136



سيوف لبعض ملوك بني الأحمر نقشت عليها شعاراتهم الطغرانية (ولاغالب إلا الله)، في قصر الحمراء بغرناطة
شكل: 137



شعارات طغرانية منوعة لبني الأحمر

المصدر: متحف قصر الحمراء، رقم: 3315



المصدر: متحف الميتروبوليتان - نيويورك، رقم: (04.3.458) 1904

أنموذجين لكراسي ومحافظ سلاطين بني الأحمر، مزينة بشعاراتهم الطغرانية: (ولاغالب إلا الله)

شكل: 138

وقد رسم بنو الأحمر شارتهم الطغرائية: (ولاغالب إلا الله) بخط الثلث الأندلسي – المغربي المُنفّذ على طريقة قلم الطومار المشرقي، على مهاد أو أرضية زخرفية نباتية في بعض الأحيان، وقد كان هذا الشكل هو العلامة السلطانية المُميِّزة لإمارة بني الأحمر في غرناطة، ولم تشتهر علامة سلطانية في العالم الإسلامي كما اشتهرت علامة هذه الإمارة، حيث استُعملت في كل ركن وفي كل زاوية بقصر الحمراء، ولا تزال إلى يومنا هذا؛ شعار "**منظمة الشعب الأندلسي العالمية**" التي يشرف عليها حاليا: د. جمال بن عمار الأحمر، الذي يبدو من خلال نسبه أنه يمتد إلى أسرة بني الأحمر التي حكمت غرناطة، وقد أدرجت هذه المنظمة، العلامة المذكورة كشعار رسمي في رايتها، كما يلاحظ ذلك من خلال موقعها الإلكتروني الرسمي، وورد في الصفحة الرئيسية لهذا الموقع أن هذه المنظمة: "**منظمة حقوقية سياسية سلمية، غير حكومية، تسعى إلى استعادة حق الشعب الأندلسي الذي هُجِّر قسرا من وطنه لإسكان شعوب أوربية أخرى مكانه. وتدعو إلى تجميع هذا الشعب من شتاته العالمي**"[18]. (انظر شكل: 139).



راية وشعار: "منظمة الشعب الأندلسي العالمية" المستلهمة من الشعار القديم لبني الأحمر بغرناطة (ولاغالب إلا الله)
شكل: 139

وبلغت هذه العلامة من الشهرة حدا دفعت سلاطين بني الأحمر إلى استعمالها في الحلي المرصعة والدبابيس والمشابك، وذلك ليزيّنوا بها عمائمهم التي كانت تكتسي أعلى مرتبة سيادية.

ولتأكيد ما قلناه؛ نقترح من خلال الشكل: 140 مقارنة بين مشبك تضمن شعارا طغرائيا لبني الأحمر (ولا غالب إلا الله)، وبين مشبك لعمامة السلطان العثماني محمد الخامس بن عبد المجيد الأول الملقب بـ: "رشاد" (1327 - 1336هـ/1909 - 1918م)، استعمل فيه طغراءه العثمانية التي عرف بها سلاطين آل عثمان. (انظر شكل: 141).

---

[18] - andalus-woap.org



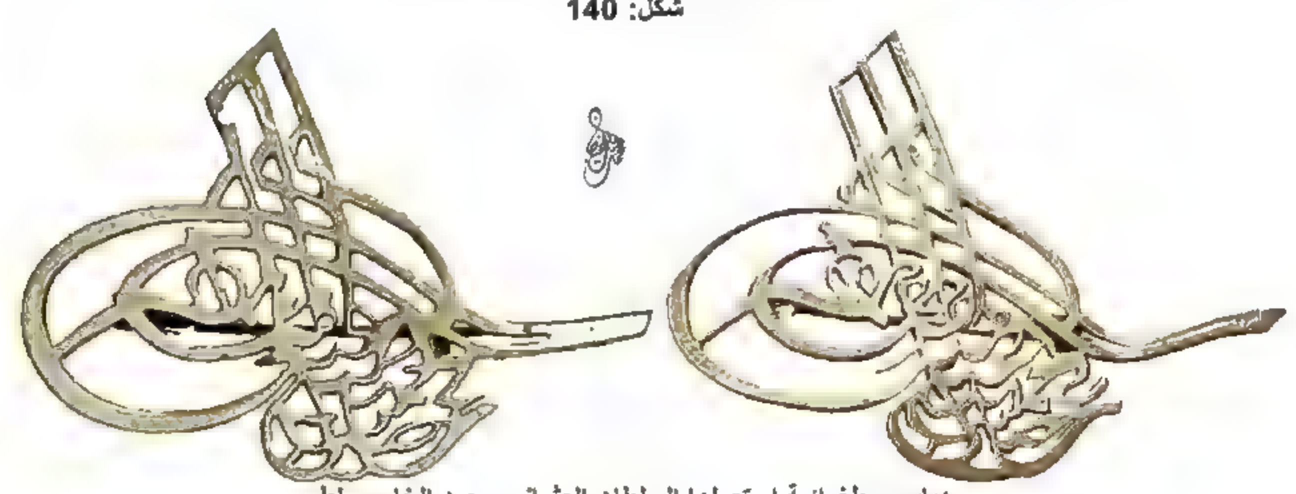
الشعار الطغرائي لبني الأحمر (ولاغالب إلا الله)،
قصر الحمراء - غرناطة

مقـــــــــــــــارنة:



مشبك عمامة السلطان يبدو عليه
الشعار الطغرائي لبني الأحمر (ولاغالب إلا الله)
رقم التصنيف: Lot 5451

مقارنة بين الشعار الطغرائي لبني الأحمر(ولاغالب إلا الله)، الذي استخرجناه من بعض نقوش قصر الحمراء بغرناطة، وبين مشبك عليه شعار الطغراء؛ لعمامة السلطان العثماني محمد الخامس بن عبد المجيد الأول الملقب بـ:"رشاد" (1327 - 1336هـ/1909 - 1918م).
شكل: 140



دبابيس طغرانية استعملها السلطان العثماني محمد الخامس لطي
صدرياته وستراته السلطانية التي عُرف بها سلاطين آل عثمان
رقم التصنيف: Lot 5451
شكل: 141

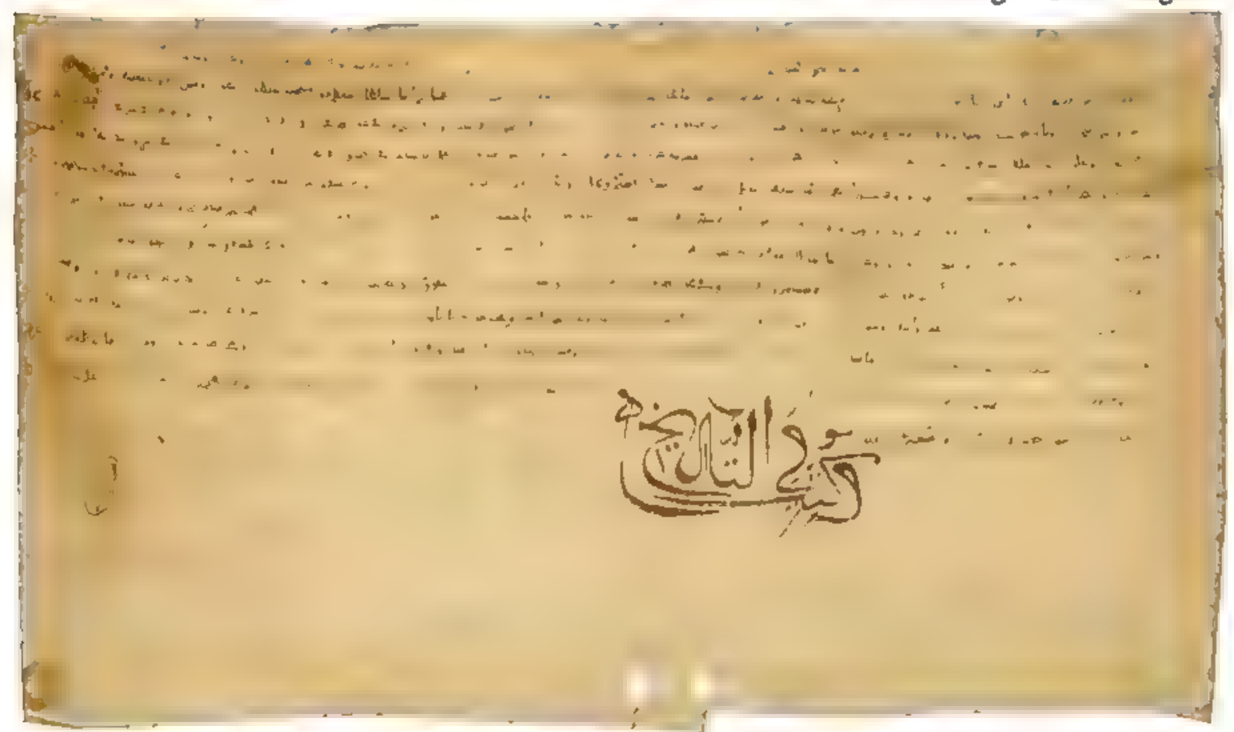
ومن باب التدقيق التاريخي، نشير إلى أن بني الأحمر - أنفسهم - قد تخلوا عن هذه العلامة واستبدلوها بعبارات بديلة، سيما في مراسلاتهم الرسمية كما يذكر ذلك سليلهم ابن الأحمر، حيث يشير إلى أن: "**بني الأحمر ملوك الأندلس، كانت علامتهم في أوليتهم: ولاغالب إلا الله. ثم كانت علامتهم: وكتب في التاريخ... ثم انتقلوا من ذلك فكتبوا علامتهم: صح هذا**"[19].

وقد قام الفقيه أبو القاسم محمد بن أحمد بن قطبة الدويسي بمدح هذه العلامة (صح هذا)، بقوله[20]:

تقـــول ليلـــى وقـــد رأتنـــي كـــيف بـــال فـــديت مـــاذا

فقلـــت مهـــلا فعـــن قريـــب يصـــح هـــذا بـــ"صـــح هـــذا

وفيما يلي؛ مجموعة من مراسلات بني الأحمر، تجسد الاختلاف بين العلامة المستعملة في العمائر والحوامل الصلبة، وهي: عبارة: "**ولاغالب إلا الله**". (راجع الأشكال: 134 - 135 - 136 - 137 - 138)، والعلامة المستعملة في الوثائق الرسمية، وهي عبارة: "**وكتب في التاريخ** ، التي كان يستعملها بنو مرين أيضا (راجع شكل: 54 وشكل: 55 وقارنهما بشكل: 142)، ثم عبارة: "صح هذا"، التي استُعملت في المراحل الأخيرة لهذه الإمارة التي ستسقط نهائيا في سنة: 897هـ/1492م. (انظر شكل: 143 وشكل: 144).



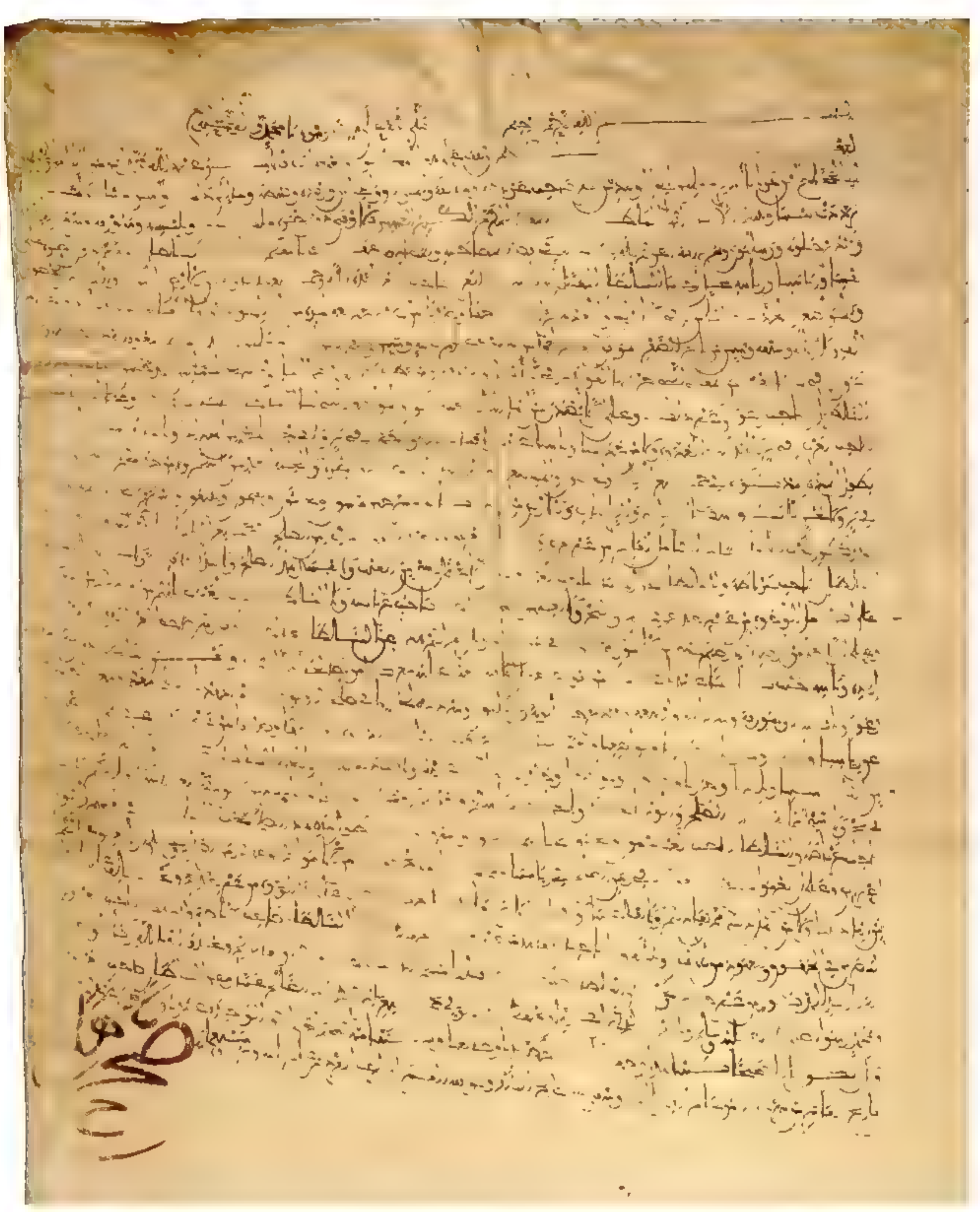
معاهدة سلام مختومة بعبارة: "وكتب في التاريخ". وُقعت في: 11رجب 695هـ/15 ماي 1296م بين ثاني أمراء بني الأحمر: أبو عبد الله "الفقيه" محمد الثاني (671 - 701هـ/1273 - 1302م)، وجيمس الثاني ملك أراغون.

المصدر: أرشيف التاج الأراغوني - برشلونة، رقم: 1/رسائل عربية

شكل: 142

[19] - ابن الأحمر، مستودع العلامة، ص: 23 24

[20] المصدر نفسه، ص: 24



معاهدة سلام مختومة بعبارة: "صح هذا". وُقعت في: رجب 768هـ/1367م بين ثامن أمراء بني الأحمر: محمد الخامس الذي حكم لفترتين اثنتين (755 - 760هـ/1354 - 1359م) - (763 - 793هـ/1362 - 1391م)، وبيدرو الرابع ملك أراغون.

المصدر: أرشيف التاج الأراغوني - برشلونة، رقم: 75/رسائل عربية

شكل: 143



وثيقة مختومة بعبارة: "صح هذا". مؤرخة في: 12 شوال 882هـ/17 يناير 1478م، ترجع إلى عهد الأمير الواحد والعشرين من أمراء بني الاحمر: أبو الحسن علي الثاني الذي حكم لفترتين اثنتين: (868 - 887هـ/1464 - 1482م) - (888 - 890هـ/1483 - 1485م).

المصدر: الأرشيف العام، سانت مانكش (سيمنكاس) - بلد الوليد، إسبانيا، رقم: AGS. PTR-LEG, 11, 4, 2



مقاطع مختلفة من وثائق ترجع لعهود سلاطين بني الأحمر، اختتم بعضها بعبارة: "صح هذا"، بينما افتتح بعضها الاخر بنفس العبارة من فوق البسملة

شكل: 144

من خلال ما سبق يمكن القول إن الشعارات الطغرائية في المغرب تطورت بشكل كبير حتى بلغت أسمى صورها خلال العصر السعدي، وبالرجوع إلى لوحة الرسام الهولندي: "**أدريان ماثام**"، التي قمنا بتشريحها في الباب الثاني (راجع شكل: 42)، يسترعي انتباهنا الشعار السلطاني لمحمد الشيخ الأصغر بن زيدان السعدي (1046 - 1064هـ/1636 - 1654م)، الذي يبدو على شكل "**درع**" مكسوّ بـ: "**الوشاح الملكي**"، يتوسطه "**رمز السيادة**" المغربية المتمثل في: "**الطغراء السعدية**" (انظر شكل: 145)

مستخـــــــرج من الشكـــــــل: 42:



شعار طغرائي سعدي مورخ في سنة: 1050هـ/1641م

شعار طغرائي سعدي مورخ في سنة: 1058هـ/1649م

"شعار" السلطان السعدي محمد الشيخ الأصغر على شكل درع تتوسطه "الطغراء السعدية"، استخرجناه من لوحة للرسام الهولندي أدريان ماثام.
شكل: 145

وارتباطا باللوحة نفسها؛ يتضح لنا التماثل الكبير بين الشعارات المغربية والشعارات الهولندية فيما يتعلق بالإطارات الخارجية التي تؤطر عناصر السيادة، ليس في المرحلة التاريخية التي يؤرخ لها هذا الرسم التوثيقي (1050هـ/1641م) فحسب، بل حتى فيما يرتبط بالتأثيرات التي تركتها على الشعارات الحالية، والتي تتماثل أيضا بين البلدين كما يلاحظ ذلك من خلال الشعار الحالي لكل من هولندا والمملكة المغربية (انظر شكل: 146).

ولمعرفة عناصر السيادة المغربية خلال العصر السعدي، وكيفية تأثيرها في المغرب العلوي، قمنا باستخراج بعض تفاصيلها من لوحة الرسام الهولندي المذكور، قصد مقارنتها بالشعار الحالي للمملكة المغربية (انظر شكل: 147).

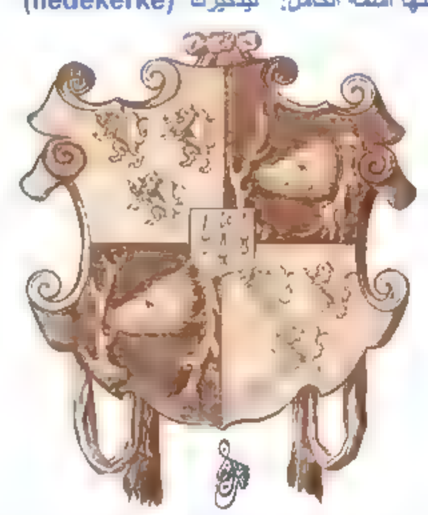


خط زمني يبين كيفية تطور الشعارات في كل من المغرب السعدي والولايات العامة (هولندا)، من منطلق العلاقات الدبلوماسية المميزة التي كانت تجمع بين الدولتين، حيث يظهر مدى التشابه بين شعاراتها فيما يتعلق بالإطارات الخارجية، وكذا التسلسل الزمني الذي أفضى إلى ظهور شعار الأسدين في كلا البلدين

"بورتريه" ايقوني لصورة السفير الهولندي وتحتها اسمه الكامل: "ليدكيرك"(liedekerke)



"بورتريه" ايقوني لصورة السلطان السعدي، التي كتب تحتها اسمه: "محمد ولد مولاي زيدان"



"شعار" الامير الهولندي: "فريديريك هنري دوناصو" على شكل درع، تتوسطه: "رموز السيادة" الهولندية (الأسد والخنزير البري)



"شعار" السلطان السعدي"محمد الشيخ الاصغر" على شكل درع، يتوسطه: "رمـز السيادة" المغربية (الطغــراء السعديــة)



شعار الولايات العامة (هولندا) بين سنتي: 1815 - 1907م



شعار المملكة المغربية بين سنتي: 1961 - 1999م

خط زمني يبين كيفية تطور الشعارات في كل من المغرب السعدي والولايات العامة (هولندا)، من منطلق العلاقات الدبلوماسية المميزة التي كانت تجمع بين الدولتين، حيث يظهر مدى التشابه بين شعاراتها فيما يتعلق بالإطارات الخارجية، وكذا التسلسل الزمني الذي أفضى إلى ظهور شعار الأسدين في كلا البلدين.

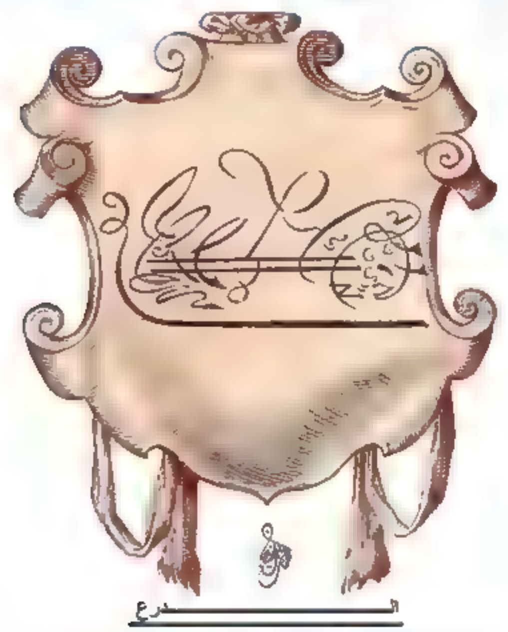
بعض عناصر اللوحة مستخرجة من لوحة تصور مدينة مراكش في سنة: 1050هـ/1641م، للرسام الهولندي: "أدريان ماثام". (راجع شكل: 42).

شكل: 146



القمة

السلطان السعدي محمد الشيخ الأصغر، وهو يعتمر عمامته السلطانية التي تنوب عن التاج الملكي
ويوحي شكلها الذي تعتليه: "الذوابة"، أنها أشبه ما يكون "بالعمامة الخاقانية"، التي كان
يتخذها "الخاقان" أو الإمبراطور العثماني، كرمز سلطاني يعبر عن قوته وسيادته



الدرع

"شعار" السلطان السعدي على شكل "درع" مكسو بـ: "الوشاح الملكي"
يتوسطه "رمز السيادة" المغربية المتمثل في: "الطغراء السعدية"



الدعمتان الكتابيتان

"لواءان" يولفان عبارة: "Palatium magni. Regis Maroci in Barbaria" باللغة اللاتينية
وهو ما معناه: "البلاط الأكبر لملك المغرب بإفريقيا"



الطغراء

ترمز إلى العلامة أو الشعار الذي اتخذته الدولة السعدية كتوقيع رسمي يعبر عن سيادتها، وقد توصلت بعد فك رموزها المنقورة، وحروفها
المتداخلة، إلى أنها تتكون من عبارة: "الحمد لله وحده"، مرفقة بكلمة: "الحسني"، التي تشير إلى النسب الشريف للسعديين
وقد اجتهد الرسام الهولندي: "أدريان ماثام" (Adriaen Matham) في رسمها لتشكيل "شعار السيادة" للسلطان السعدي

لوحة تشريحية تمثل بعض عناصر السيادة المغربية خلال العصر السعدي، استخرجناها من لوحة تصور مدينة مراكش في سنة: 1050هـ/1641م، للرسام الهولندي: "أدريان ماثام". (راجع شكل: 42)
شكل: 147

ولا شك أن الدولة السعدية استفادت في استعمال الشعارات السلطانية باحترافية منقطعة النظير، من العلاقات المتينة والمميزة التي كانت تربطها بالولايات العامة (هولندا)، أو ما كان يُعرف بجمهورية: "**الأقاليم السبعة المتحدة**".

وترجع جذور هذه العلاقات العميقة إلى عهد السلطان السعدي أبي المعالي زيدان (1012 1037هـ/1603 1628م)، الذي يُعـدّ أول من اعترف بالمناطق السبع لصالح هولندا، وقد تم التوقيع على أول اتفاقية مغربية هولندية في "لاهاي" (Den Haag بالهولندية) بتاريخ: 8 شوال 1019هـ/24 دجنبر 1610م، وذلك بعدما أرسل السلطان السعدي سفيرا له إلى لاهاي سنة: 1018هـ/1609م.

وكان ممثل المغرب في هولندا زمن زيدان السعدي، هو اليهودي المغربي: "صامويل بلاش"، المنحدر من "آل بلاش" وهي أسرة معروفة في المغرب. ومعلوم أن بلاش هذا؛ هو من كتب إلى زيدان باقتراحات مهمة ترتبط بالعلاقات المغربية الهولندية وآفاقها المستقبلية[21].

ومن خلال رجوعنا إلى المدافع السعدية التي قمنا بتشريحها في هذا المبحث (راجع الشكل: 125، والشكل: 126 وتفاصيله)، يتبين لنا أن الشعارات الطغرائية المنقوشة على واجهاتها البرونزية، ترتبط بعهد أبي المعالي زيدان السعدي وعهود أبنائه، وفي ذلك إشارة واضحة وصريحة على استعانة هؤلاء السلاطين السعديين بالخبرة الهولندية في هذا الشأن، بدليل أن تلك الشعارات التي تزين المدافع المذكورة؛ عليها بعض تأثيرات الزخرفة الأوروبية النباتية، أضف إلى ذلك أن شكلها يرتبط بشكل "الدرع" و"التاج" معا، وهو الارتباط الذي كان يجسد العلاقة بين الملك والفارس - النبيل في أوربا منذ العصر الوسيط، حيث كان الدرع رمزا للفارس، والتاج رمزا للملك، والسيادة لا يمكن أن تكون راسخة إلا من خلال العلاقة التوافقية بين القاعدة والقمة، أي: بين الفرسان وسيدهم (الملك)، الذي كان يستمد قوته من فرسانه، بينما كانوا - هم - يستمدون شرعيتهـــم ووجودهم منه. من هذه القناعة بالذات، وفي إطار هذه العلاقة السببية، كانت شعارات الممالك الأوربية تجمع بين الدرع والتاج وفق الترتيب التالي:

- **قاعدة الشعار**: يشكله الدرع والرموز التي تتوسطه.
- **قمـة الشعـار**: يشكلها التاج الملكي المرصع.

وهذا بالضبط ما وجدناه أيضا في الشعارات الطغرائية السعدية التي وقفنا على بعضها، ولتفصيل ماسبق ذكره بأدلته المادية؛ قمنا بإدراج لوحة تجميعية لشعارات طغرائية متنوعة، استخرجناها من مدافع سعدية، محفوظة بـ: "قصر البحر" بمدينة: "آسفي"، يرجع بعضها إلى عهد أبي المعالي زيدان السعدي (1012 - 1037هـ/1603 - 1628م)، وبعضها الآخر إلى عهد ابنه الوليد بن زيدان (1040 - 1046هـ/1631 - 1636م).(انظر شكل: 148).

[21] Henry de Castries, Les sources inédites.. Dynastie Saadienne. Archives et bibliothèques des Pays-Bas, Tomme II, P P. 54 - 57

وبعد ذلك حاولنا أن نبين كنه العلاقة وأوجه التشابه بين هذه الشعارات الطغرائية السعدية، وشعار المملكة المغربية الذي تم اعتماده منذ: 17 محرم1377هـ/14 غشت 1957م إلى يومنا هذا (انظر شكل: 149).

ثم تقدمنا تدريجيا في دراستنا التفصيلية إلى أبعد نقطة تُمكننا من إجراء هذه المقارنات الدلالية، حيث عمدنا إلى تشريح ثلاثة شعارات طغرائية سعدية متشابهة ليس بينها سوى بعض الاختلافات الطفيفة، وارتضينا لذلك التشريح توزيعا نمطيا فككنا من خلاله العناصر المكوِّنة للشعار السعدي، وهي كالتالي:

- القمـة:

ويمثلها التاج السلطاني، الذي يرمز إلى سيادة السعديين على بلاد المغرب.

- الدرع:

وهو عبارة عن شكل بيضوي مستلهم من "دروع" الفرسان، تحيط به وحدات زخرفية نباتية متنوعة، كما أنه يحتضن في فضائه الداخلي الطغراء السعدية، وهي محاطة بشريطين كتابيين، يكوّنان معها شكلا بيضويا كتابيا - زخرفيا يتداخل فيه الحرف مع الزخرفة.

- الدعامتان الكتابيتان:

ورد فيهما ما يفيد أن السلطان السعدي أصدر أوامره بصناعة المدافع النارية، لتحصين الثغور المغربية ضد الإيبيريين، والعثمانيين (بدرجة أقل)، ولا شك أن استعمال الأسلحة النارية في مستهل العصر الحديث، كان يرمز إلى الإمعان في ترسيخ سيادة الدولة ودعمها بقوة السلاح.

- الطغراء:

ترمز إلى العلامة أو الشارة التي اتخذتها الدولة السعدية كتوقيع رسمي يُعبر عن سيادتها، وقد توصلنا بعد فك رموزها الملغوزة، وحروفها المتداخلة، إلى أنها تتكون من عبارة: "الحمد لله وحده"، مرفقة بكلمة: "الحسني"، التي تشير إلى النسب الشريف للسعديين.

(أنظر الأشكال: 150 - 151 - 152).

ولنؤكد حقيقة تأثر شعار المملكة المغربية الحالي بالشعار الطغرائي السعدي فيما يتعلق ببعض العناصر المُكوِّنة له؛ اعتمدنا التوزيع النمطي نفسه، فقمنا - تبعا لذلك - بتفكيك شعار المملكة المغربية، على غرار الشعارات السعدية، فوجدنا عناصره كالتالي:

- القمـة:

تاج من ذهب تعلوه نجمة خماسية متشابكة، مرصع بأحجار كريمة تتناوب ألوانها بين اللونين الوطنيين: الأحمر والأخضر، وهو يشير للأسر الملكية التي تعاقبت على حكم بلاد المغرب أكثر من 12 قرنا.

- الدرع:

يحتضن في فضائه الداخلي راية حمراء، تتوسطها نجمة خماسية خضراء متشابكة في إشارة إلى علم المغرب، الذي يحيط بمشهد يرمز إلى مميزات المغرب الطبيعية، حيث الشمس المشرقة التي ينبثق منها 15 شعاعا ذهبيا، تتخلله زرقة ترمز إلى واجهتي المغرب البحريتين: (الأطلسي والمتوسط)، كما يسطع على وحدات هندسية متسلسلة على شكل"المُعيّن"، في إشارة إلى جبال الأطلس.

- الدعامتان الكتابيتان:

تمثلان أسدان أطلسيان متقابلان، الأيمن منهما في وضعية التنمُّر، حيث يرمز ذلك إلى مراقبة الحدود الترابية للمغرب وتحصينها، والأيسر في وضعية جانبية؛ يبدو من خلالها متجها برأسه نحو التاج الذي يُعبّر عن الملك، والدرع الذي يعبر عن الوطن، وفي ذلك إشارة إلى الحرص على استتباب الأمن الداخلي للبلاد، وقد اتخذت الأسر التي تعاقبت على حكم المغرب من الأسد الأطلسي رمزا للسيادة والقوة والتغلب.

- القاعدة:

لواء ذهبي، كُتبت عليه الآية الكريمة: "إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ". سورة محمد، الآية: 7. ويرمز ذلك إلى العلامة أو الشعار الديني الذي اتخذته الدولة كعنوان رسمي لسيادتها.

(أنظر الشكل: 153).

من خلال هذه المقارنة إذن، يتضح لنا بما لايدع مجالا للشك أن شعار المملكة المغربية الحالي مستلهم من الشعار الطغرائي للسعديين، إلا أن الشعار السعدي: كانت له **دلالة تجريدية**؛ تُعبر عنها الطغراء السلطانية التي تحيلنا على سيادة السلطان وقوته، والشعار العلوي: له **دلالة تجسيدية**، يُعبر عنها الأسد الأطلسي كرمز للسيادة والقوة في المغرب العلوي، والقاسم المشترك بين الشعارين، هو: التاج السلطاني الذي يُتوّج الشعار، ويعبر عن سيادة المغرب على أرضه أكثر من 12 قرنا.



شعارات طغرائية استخرجناها من مدافع سعدية، محفوظة بـ: "قصر البحر" بمدينة: "اسفي"، يرجع بعضها إلى عهد أبي المعالي زيدان السعدي (1012 - 1037هـ/1603 - 1628م). والبعض الاخر إلى عهد ابنه الوليد بن زيدان (1040 - 1046هـ/ 1631 - 1636م). مستخرجة من (الشكل: 126 وتفاصيله).

شكل: 148



شعار المملكة المغربية الحالي مستلهم من الشعار الطغراني للسعديين.

شكل: 149



تفصيـــــــــــــــــل:

الشعار الطغرائي للدولة السعدية. مستخرج من مدفع سعدي محفوظ بمتحف الأسلحة (دار السلاح - برج النار / البرج الشمالي) - فاس

شكل: 150



تشريح الشعار الطغرائي للدولة السعدية. مستخرج من مدفعين سعديّين

شكل: 151



تشريح الشعار الطغراني للدولة السعدية. مستخرج من مدفع سعدي. محفوظ بـ: "قصر البحر" بمدينة: "آسفي"
شكل: 152



القمـــــة

تاج من ذهب تعلوه نجمة خمسية متشابكة، مرصع باحجار كريمة تتناوب الوانها بين اللونين الوطنيين
لاحمر والاخضر. وهو يشير للاسر الملكية التي تعاقبت على حكم بلاد المغرب طيلة 12 قرنا



الــــــــــدرع

يحتضن في قصبه الداخلي راية حمراء، تتوسطها نجمة خماسية حمراء متشابكة في اشارة الى علم المغرب، الذي يحيط بمشهد يرمز
الى مميزات المغرب الطبيعية، حيث الشمس المشرقة التي ينبثق منها 15 شعاع ذهبي، تتخلله زرقة ترمز الى واجهتي المغرب
البحريتين، كما يسطع على اشكال هندسية متسلسلة، اتخذت من المعيّن وحدتها، في اشارة الى جبال الاطلس



الدعـــــــامتـــــــــان

تمثلان اسدان اطلسيين متقابلان. الايمن منهما في وضعية النمر. حيث يرمز ذلك الى مراقبة الحدود الترابية للمغرب وتحصينها، والايسر
في وضعية جسبية، تبديه متجها برأسه نحو التاج الذي يعبر عن الملك والدرع الذي يعبر عن الوطن، وفي ذلك اشارة الى الحرص على
استتباب الامن الداخلي للبلاد وقد اتخذت الاسر التي تعاقبت على حكم المغرب الاسد الاطلسي كرمز للسيادة والقوة والتغلب



القـــــاعـــــدة

لواء ذهبي، كتب عليها بخط النسخ الاية الكريمة : "إنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ". سورة محمد، الاية: 7
ويرمز ذلك الى العلامة او الشعار الديني الذي اتخذته الدولة كعنوان رسمي لسيادتها

تشريح شعار المملكة المغربية الحالي الذي تم اعتماده منذ
17 محرم1377هـ/14 غشت 1957م إلى اليوم
شكل: 153

الفصل الثاني: الوثائق والمراسلات السلطانية

1 – شكل الطغراء ووضعيتها في الوثائق السعدية، وعلاقة ذلك بسيادة الدولة وقوتها أوضعفها بالمقارنة مع القوى الأخرى:

تُعد المخطوطات من أهم الحوامل الرئيسية التي استُعملت لكتابة الطغراء، وذلك بالنظر إلى تعلقها بالرسائل والمكاتبات والوثائق الرسمية للسلاطين السعديين، على غرار ما كان يسمى عند العثمانيين: "**بالفرمانات**" (جمع: فرمان: **ferman**)[22]، وهي الوثائق العثمانية التي جرت العادة بأن تُفتتح بطغراوات السلاطين.

وقد جرى استعمال الوثائق والمراسلات الطغرائية السعدية، في إطار العلاقات الدبلوماسية للسعديين مع دول الجوار من العالمين: الإسلامي (الإمبراطورية العثمانية)، والمسيحي (الممالك المسيحية في شمال الأبيض المتوسط)، حيث كانت تلك الوثائق المخطوطة؛ تحيلنا على ميزان القوى في المرحلة المؤرخة لها، وموقع الدولة السعدية من ذلك الميزان من خلال ما ورد فيها من إشارات تاريخية؛ تدل على القوة أو الضعف اللذان تحددهما طبيعة الخطاب الوارد فيها. وقد قام المستشرق هنري دو كاستر (**Henry de Castries**)، في كتـــابه: "**..Les sources inédites de l'histoire du Maroc**"[23]، باستعراض مجموعة من الوثائق السعدية الرسمية، وخاصة ما يتعلق منها بالمراسلات السلطانية مع العالم المسيحي. والتي كانت تعكس قوة الدولة السعدية أوضعفها، وحضورها الإقليمي من عدمه في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط. ومن جهته، نقل عبد الهادي التازي معظم تلك الوثائق والمراسلات عن دو كاستر في كتابه: "**التاريخ الدبلوماسي للمغرب**"، وتحديدا في المجلد الثامن الخاص بالعصر السعدي، حيث تناولها من الجانب الدبلوماسي، ليسلط الضوء على العلاقات الخارجية للمغرب مع القوى السياسية المجاورة في مستهل العصر الحديث[24].

---

[22] – لمزيد من التفصيل، راجع: الطابلي (عبد الحفيظ)، الولايات المغاربية في الأرشيف العثماني. قراءة في بنية الوثيقة العثمانية. دراسة وردت في كتاب العثمانيون في المغارب من خلال الأرشيفات المحلية والمتوسطية، تنسيق: عبد الرحمن المودن – عبد الرحيم بنحادة، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، مطبعة الأمنية، الطبعة الأولى. 2005م، صص: 35 – 71. وفيما يتعلق بالفرمانات، راجع ص: 37

[23] Henry de Castries. Les sources inédites de l'histoire du Maroc de 1530 à 1845, Dynastie Saadienne

- Archives et bibliothèques des Pays-Bas, E. Leroux (Paris), Paul Geuthner, 1923
- Archives et bibliothèque d' angleterre, E. Leroux (Paris)s, Paul Geuthner, 1925.
- Archives et bibliothèques de France. E. Leroux (Paris), Paul Geuthner, 1905-1926
- Archives et bibliothèques de Portugal. publiées par Pierre de Cenival. E. Leroux (Paris), Paul Geuthner, 1934.
- Archives et Bibliothèques d'Espagne . Par. Robert Ricard et. Chantal de La Véronne E. Leroux (Paris), Paul Geuthner,1956

[24] التازي، التاريخ الدبلوماسي للمغرب، المجلد الثامن، صفحات: 137 158 166 197 228 283 291 302 303

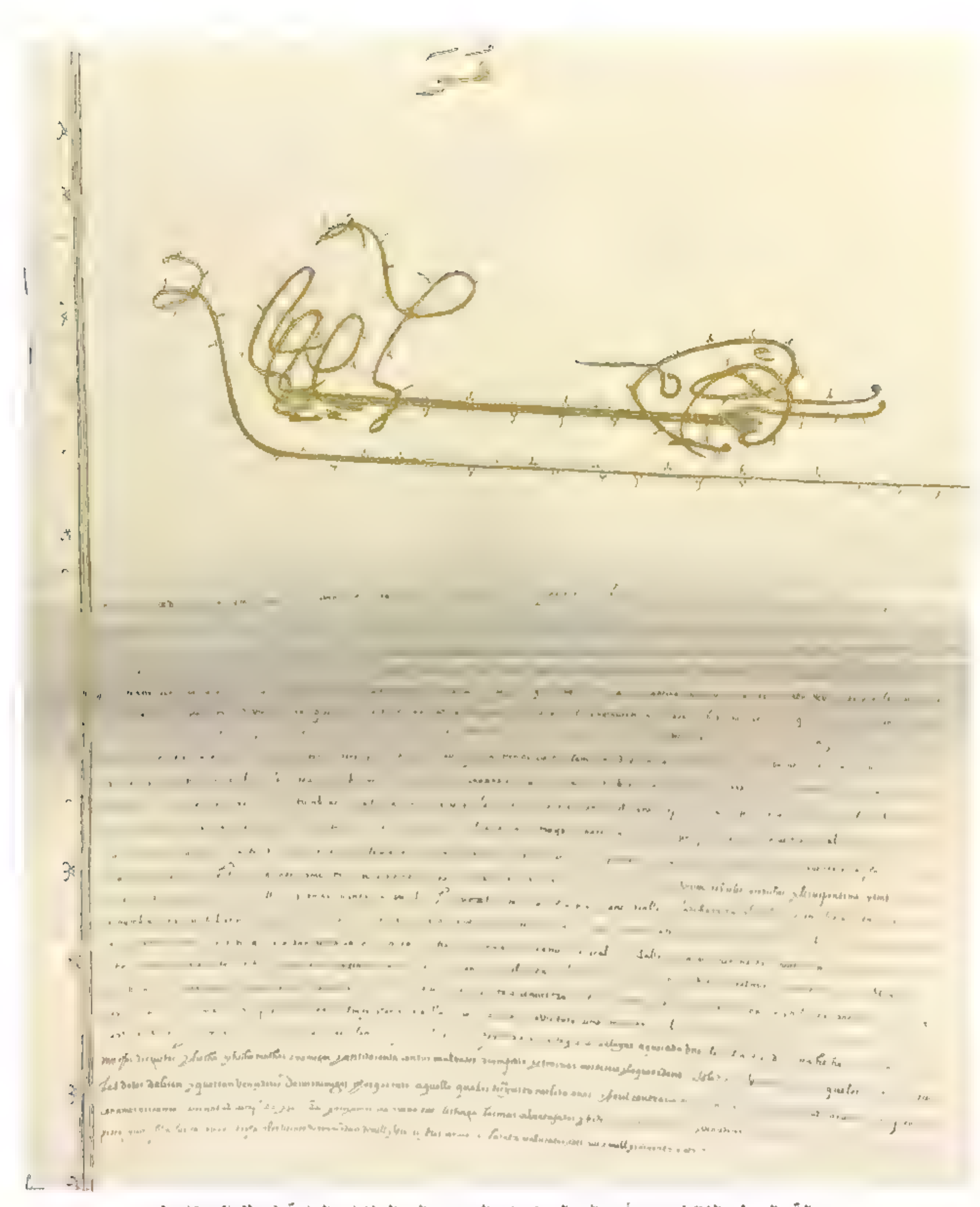
والملاحظ أن تلك الرسائل الموجهة إلى العالم المسيحي، كان جلها - إن لم نقل كلها - مفتتحا برسم الطغراء، كرمز للسيادة وتعبير عن القوة التي تمت ترجمتها في معركة "وادي المخازن" الشهيرة، التي خاضها السعديون ضد الملك البرتغالي "دون سيبستيان" سنة: 986هـ/1578م، حيث حوّلت تلك المعركة المجيدة - التي حكمت على الإمبراطورية البرتغالية بالزوال إلى الأبد - الانكسار إلى انتصار؛ ظل غصة في حلق العالم المسيحي طيلة قرون عديدة، إلى درجة أشار معها **"فيرنان بروديل" (Fernand Braudel)** إلى أن هذه المعركة كانت أكبر كارثة حلت بالبرتغال وبتاريخها السياسي، حيث أنهت حكم أسرة **"أفيش" (Avis)** العريقة، كما أفقدت البلاد سطوتها واستقلالها، لتكون بذلك **"آخر حملة صليبية شنتها القوات المسيحية في البحر الأبيض المتوسط"**:

(dernière croisade de la Chrétienté méditerranéenne)[25].

ويدل على تفوق السعديين في تلك المرحلة، رسم الطغراء السعدية حتى في تلك الرسائل والمكاتبات التي كُتبت بالحرف اللاتيني، كما يظهر ذلك من خلال (الشكل: 154) الذي رُسمت فيه الطغراء على شكل أسلاك شائكة تشبه أسلاك التسييج.

---

[25] - Braudel (Fernand), La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II, seconde édition revue et augmentée, Paris, Librairie Armand Colin, 1966 , 2 vol. vol. II, p. 462.



رسالة بالحرف اللاتيني من أبي المعالي زيدان السعدي إلى الولايات العامة (هولندا)، بتاريخ: 20 رمضان من سنة: 1023هـ/24 أكتوبر 1614م

المصدر: عن الاصل المحفوظ في الارشيف الوطني البلجيكي - بروكسيل

de Castries , Les sources.. Archives et bibliothèques des Pays - Bas. Tom II. P.526 - 527.

شكل: 154

الطغـــــراء المستخرجــــة من (شكل: 154):



طغراء أبي المعالي زيدان السعدي الطغراء على شكل أسلاك شائكة تشبه أسلاك التسييج.

ولا شك أن هذا الاستعمال؛ يحيلنا - بشكل أو بآخر- على نوع من التعبير عن مناعة المغرب في مواجهة طمع الطامعين؛ من القوى المتربصة بوحدته الترابية، سيما إذا علمنا أن مغرب الدولة السعدية؛ كان مزامنا لعصر الاكتشافات الجغرافية؛ التي افتتحها الإسبان بعد سقوط آخر إمارة إسلامية بالأندلس، ألا وهي: إمارة بني الأحمر بغرناطة سنة: 897هـ/1492م، بينما دشنها البرتغاليون قبل ذلك بالاستيلاء على مدينة سبتة المغربية سنة: 818هـ/1415م، ومعلوم أن هذه الاكتشافات قد اكتست طابعا استعماريا من طرف هاتين القوتين المسيحيتين؛ اللتين استهدفتا الثغور المغربية خلال عصر الوطاسيين الذين كرسوا لأول مرة في تاريخ المغرب، ما يمكن تسميته: "بسياسة التنازلات" أمام الضغوط الخارجية. وقد ظلت معظم تلك الثغور سليبة حتى حرر السعديون بعضها بمجرد ارتقائهم إلى سدة الحكم (آسفي وأزمور مثلا..)، حيث أعادوا للدولة المغربية بعض عزها، فكانوا يُعبرون عن ذلك العز وتلك السيادة، من خلال رسائلهم التي كانوا يكتبونها بالحرف اللاتيني، ويتوجونها بطغراواتهم المرسومة بالحرف العربي. والجدير بالذكر أن الطغراء المستخرجة من الشكل: 154، هي إحدى تلك النماذج التي رُسمت في رسائل موجهة للعالم المسيحي. وقد اقتبسناها من رسالة لأبي المعالي زيدان إلى الولايات العامة (هولندا)، كُتبت بالحرف اللاتيني بتاريخ: 20 رمضان من سنة: 1023هـ/24 أكتوبر 1614م، وشكل هذه الطغراء يشبه أسلاك التسييج. وهذا يرمز إلى حصانة ومناعة الحدود الترابية، التي تنم عن تماسك مؤسسات الدولة وترسخ سيادتها، كما تعبر عن قوة سلطتها المركزية التي بلغت أوجها في عهد أحمد المنصور الذهبي. والحقيقة أن هذه الطغراء لا تعكس ذلك في عهد السلطان أبي المعالي زيدان، الذي عرف فيه المغرب عدة فتن وثورات سرعت بسقوط الدولة السعدية.

وكيفما كان الحال، فقد وقفنا على عدد كبير من هذه الرسائل المرقومة بالحرف اللاتيني، فوجدنا كل طغراواتها على شكل أسلاك شائكة، بخلاف الرسائل المحررة بالحرف العربي - المغربي التي رُسمت طغراواتها دون تسييج، الشيء الذي يعزز طرحنا وتفسيرنا لدلالة استعمال ذلك العنصر (التسييج) في الطغراوات المتعلقة بالمراسلات المحررة باللغات الأجنبية.

وما قلناه يتضح بجلاء من خلال الترجمة الفرنسية التي حررها سامويل بالاس في رسالة أخرى، كديباجة للمعاهدة التي أُبرمت بين المغرب والولايات العامة (هولاندا) بـ: "لاهاي" في: 8 شوال 1019هـ/24 دجنبر 1610م، حيث رُسمت فيها الطغراء السعدية مسيّجة وفق الشكل نفسه، وقد صادق عليها بمدينة مراكش؛ السلطان: أبو المعالي زيدان السعدي، في: 24 محرم 1020هـ/8 أبريل 1611م، وكانت هذه المعاهدة تحتوي على 19 فصلا، ورد في خاتمتها:

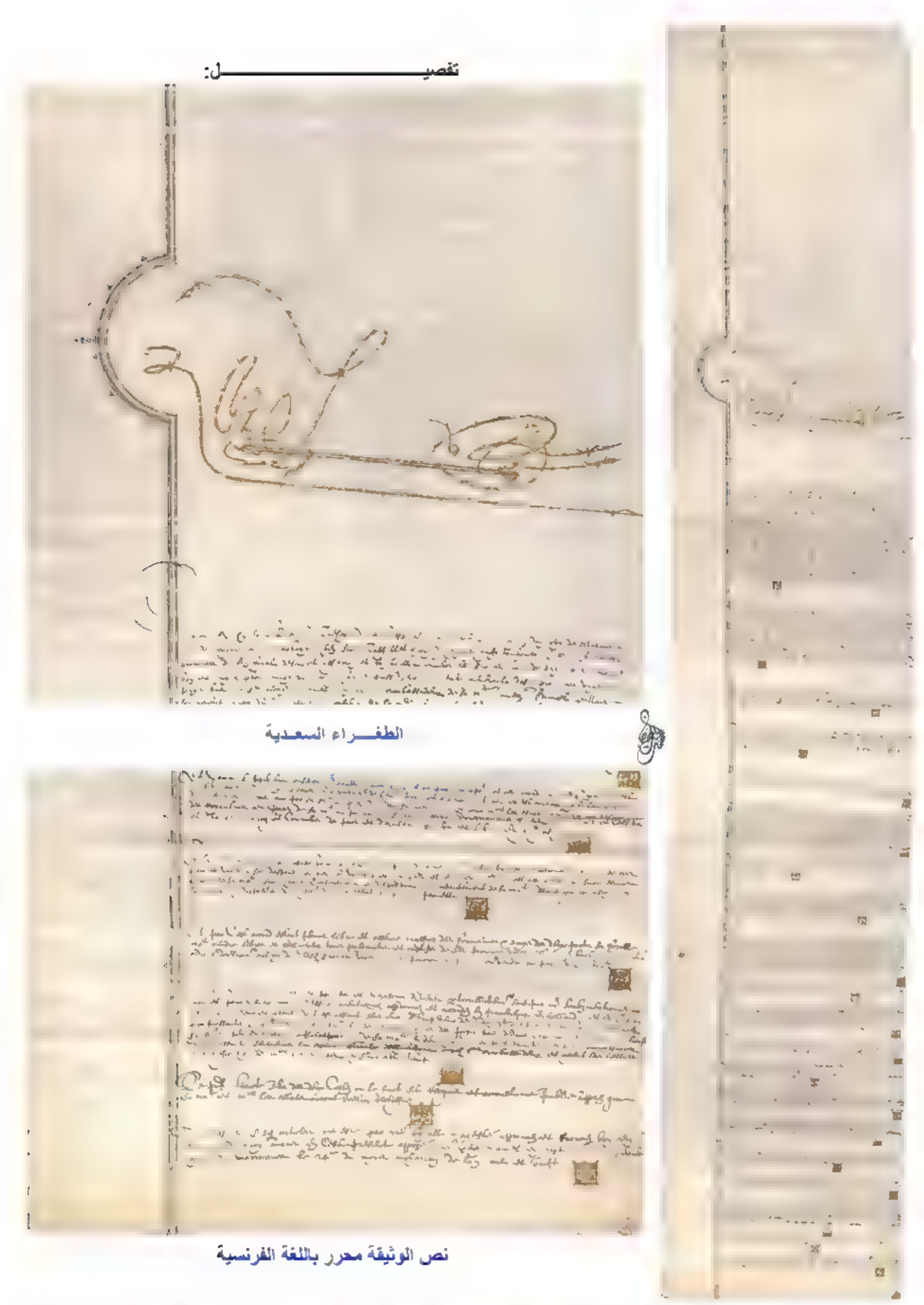
"سائر هذه الفصول مصادق عليها من قبل جلالتنا، وهي عندنا موضع استحسان، وكدليل على ذلك؛ نضع خاتمنا وتوقيعنا عليها في قصرنا بمراكش، بتاريخ: 24 محرم 1020هـ [4أبريل 1611م]"[26].

وقد كانت هذه الاتفاقية تُظهر المغرب بمظهر القوة، إذ أن المملكة المغربية كانت هي من ساعد الولايات العامة (هولندا) على بناء استقلالها خلال عهد السلطان أبي المعالي زيدان السعدي (1012 - 1037هـ/1603 - 1628م)، على غرار ما سيقوم به - بعد ذلك - السلطان العلوي (سيدي) محمد بن عبد الله (1171 - 1204هـ/1757 - 1790م) مع الولايات المتحدة الأمريكية، التي يُعدّ أول من اعترف باستقلالها في أواخر سنة: 1191هـ/1777م، فضلا عن اعترافه باستقلال دول أخرى في المجموعة الدولية[27]. (انظر شكل: 155).

ومن باب المقارنة، نشير إلى أن العثمانيين استعملوا أيضا طغراواتهم على النصوص التي حُرِّرت بالحرف اللاتيني، وذلك بحكم اتساع رقعة الدولة العثمانية التي فتحت أجزاء كبيرة من أوربا الشرقية منذ بدايتها، وهذا ما نقف عليه مثلا في بعض الفرمانات المنسوبة لأوائل سلاطين آل عثمان، وخاصة: السلطان بايزيد الثاني (886 - 918هـ/1481 - 1512م)، وابنه سليم الأول (918 - 926هـ/1512 - 1520م)، حيث يُلاحظ أن الطغراء العثمانية في هذه المرحلة كانت تمتد بشكل عرضي في طرة الوثيقة على غرار الطغراوات السعدية، لكنها مع ذلك لم تكن مسيّجة كنظيرتها السعدية، بالرغم من استعمالها في النصوص غير العربية (انظر شكل: 156 وشكل: 157).

[26] عبد الهادي التازي في كتابه التاريخ الدبلوماسي للمغرب، المجلد الثامن، ص: 282

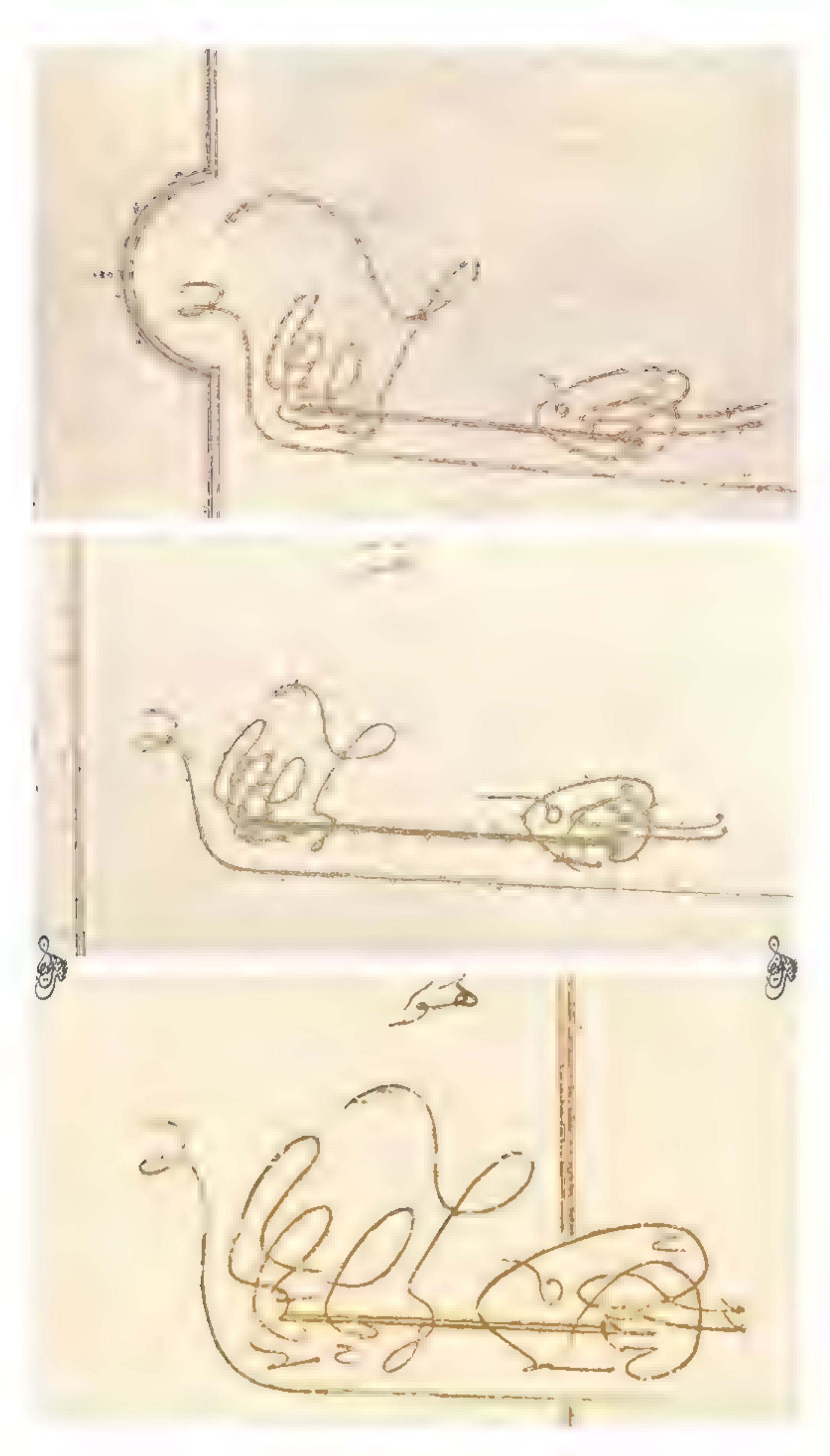
[27] المرجع نفسه، ص: 282

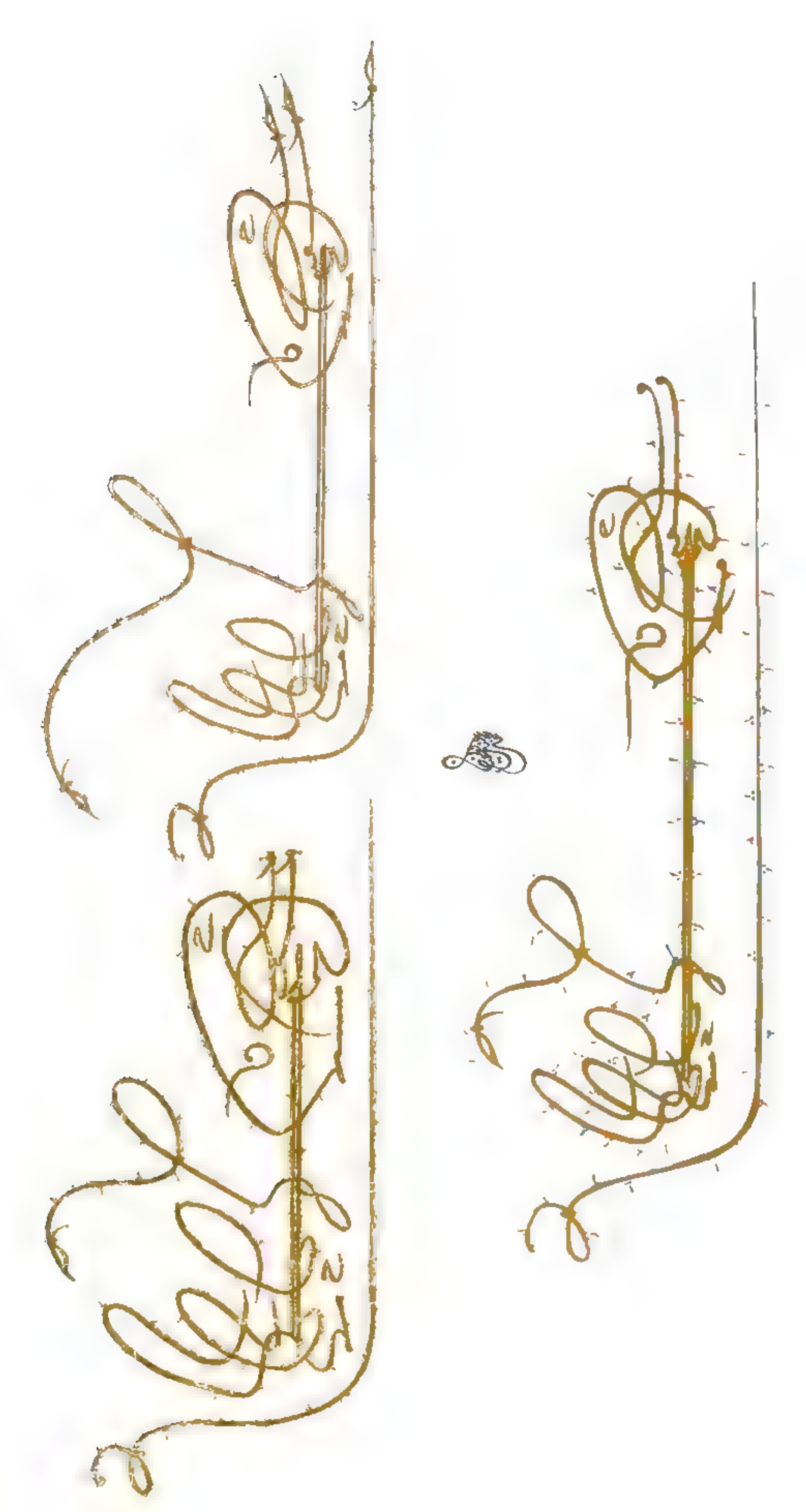


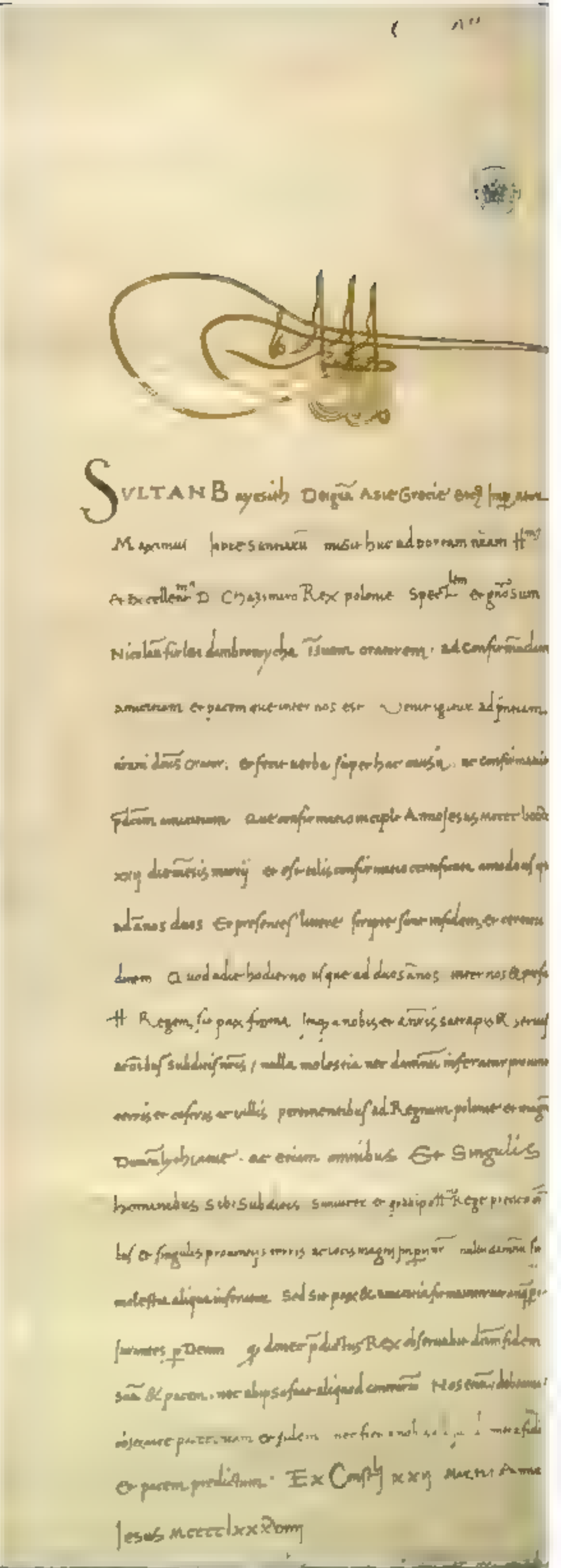
الترجمة الفرنسية التي حررها صامويل بلاس، كديباجة للمعاهدة بين المغرب والولايات العامة (هولندا). أبرمت بـ: "لاهاي" في: 8 شوال 1019هـ/24 دجنبر 1610م، وقد صادق عليها بمدينة مراكش؛ السلطان ابي المعالي زيدان السعدي، في 24 محرم 1020هـ/8 أبريل 1611م

المصدر: الوثيقة محفوظة في الارشيف الخاص بالولايات العامة (هولندا). رقم المحفظة: 1.01.02

شكل: 155


هو



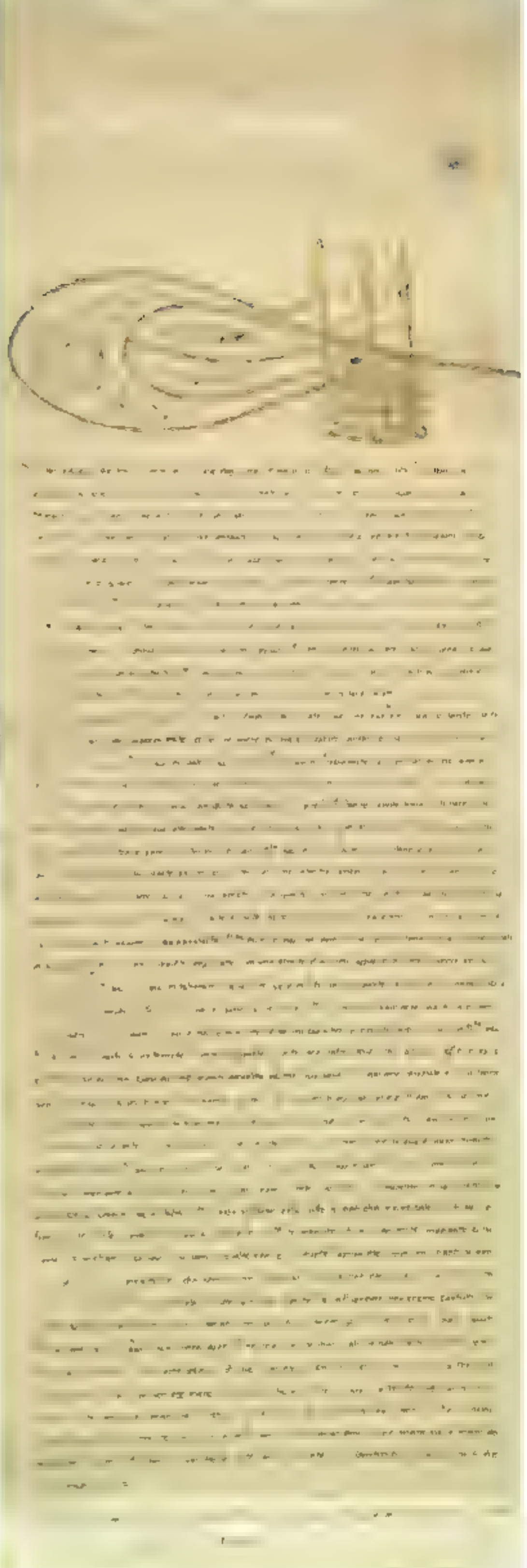


رسالة من السلطان العثماني: بايزيد II (886 - 918هـ/1481 - 1512م)
إلى الأمير: كاسيمير - بتاريخ: 19ربيع الثاني894هـ/22 مارس1489م
المصدر: الاصل محفوظ في الارشيف العام - بولونيا - رقم: 6

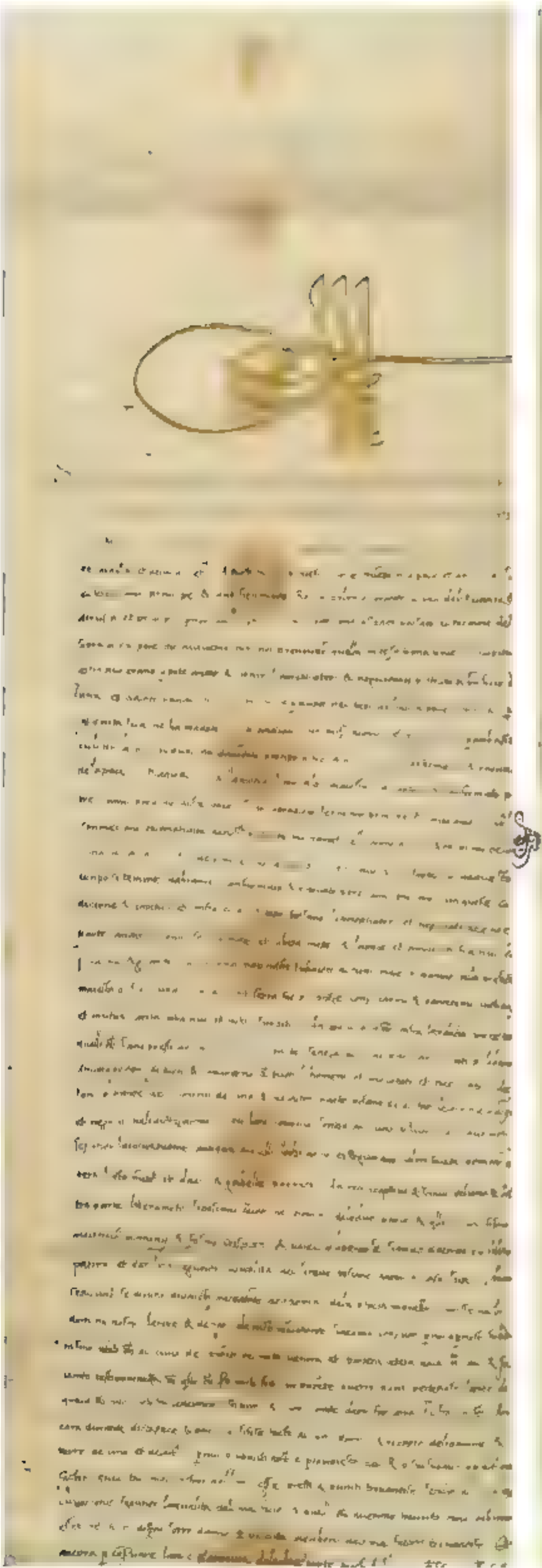


رسالة من السلطان العثماني: بايزيد II (886 - 918هـ/1481 - 1512م)
إلى الأمير: جون اليرت - بتاريخ: 29جمادى الثانية899هـ/6 ابريل 1494 م
المصدر: الاصل محفوظ في الأرشيف العام - بولونيا - رقم: 20

رسالتان بالحرف اللاتيني للسلطان بايزيد الثاني (886 - 918هـ/1481 - 1512م)
شكل: 156



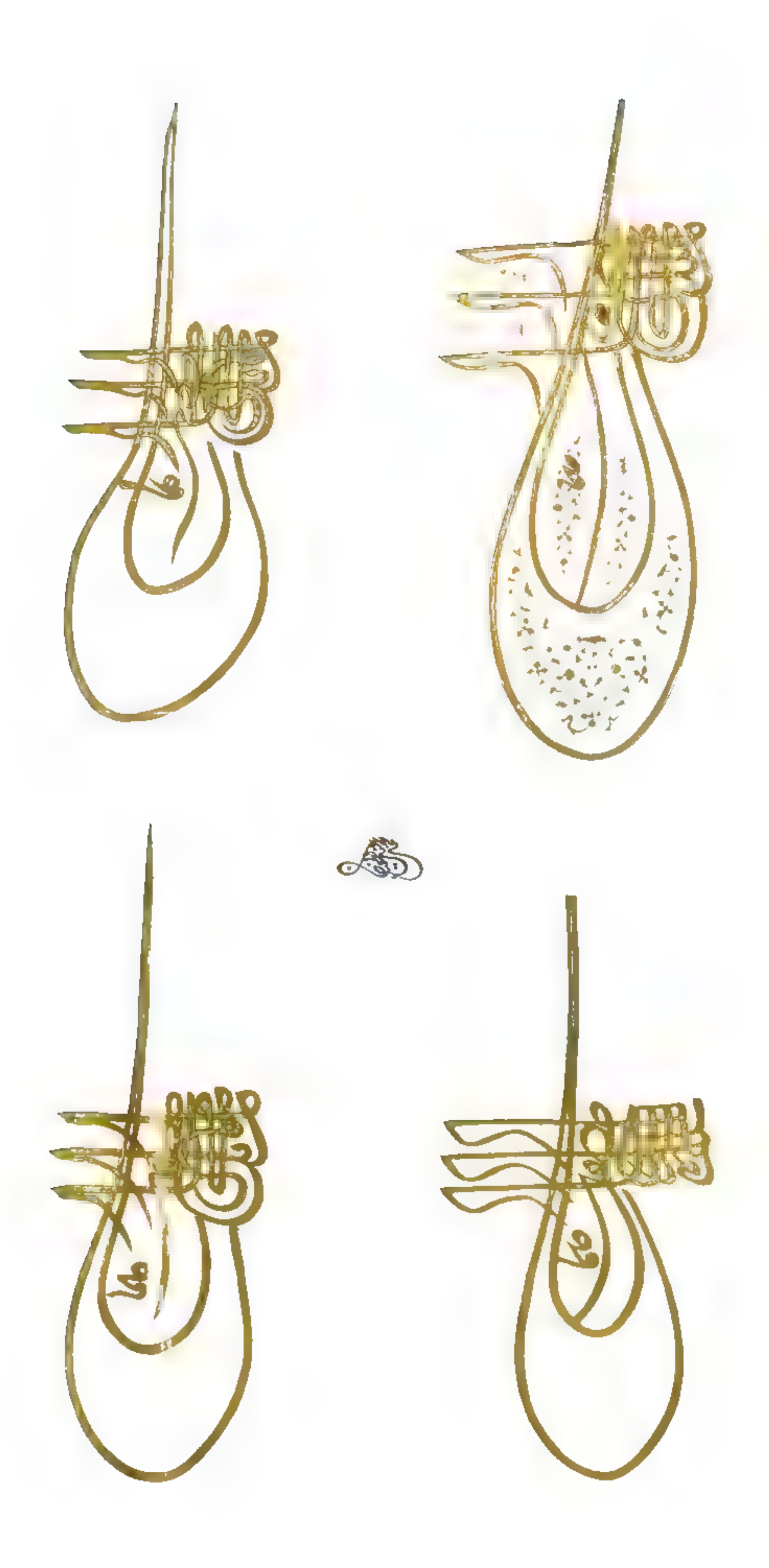
رسالة من السلطان العثماني: بايزيد II (886 - 918هـ/1481 - 1512م)
الى الامير: الكسندر - بتاريخ: 6 ربيع الثاني908هـ/9 اكتوبر1502م
المصدر: الاصل محفوظ في الارشيف نعم-بونوبي رقم 26



رسالة من السلطان العثماني: سليم I (918 - 926هـ/1512 - 1520م)
الى الامير: سجسموند I - بتاريخ: 6 شوال925هـ/1اكتوبر1519م
المصدر: الاصل محفوظ في الارشيف نعم-بونوبي رقم 36

رسالتان بالحرف اللاتيني إحداهما لبايزيد الثاني (886 - 918هـ/1481 - 1512م)، والثانية لابنه سليم الأول (918 - 926هـ/1512 - 1520م)

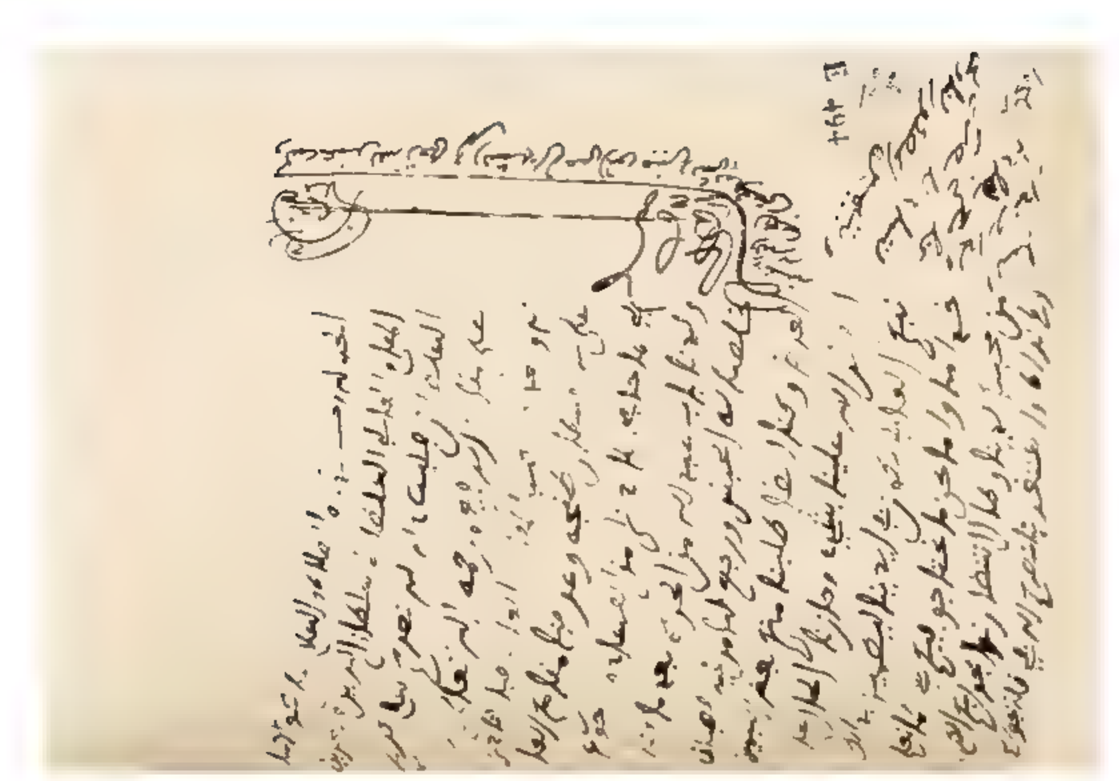
شكل: 157



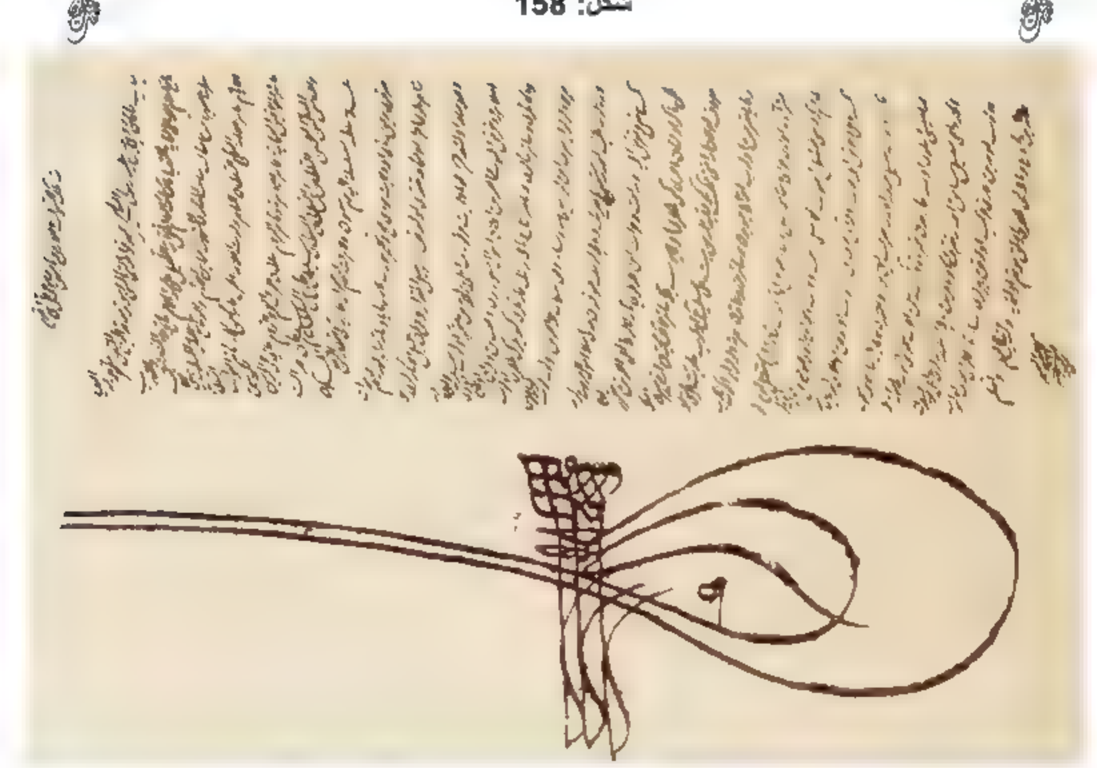
وحتى نسجل ملاحظة أولية حول الطغراء السعدية وكيفية كتابتها، نشير إلى أن السلاطين السعديين، كانوا يضعونها في طرر رسائلهم بشكل عرضي، كما وقفنا على ذلك من خلال مجموعة من مكاتباتهم ووثائقهم الرسمية، ولعل في ذلك ما يعبر عن قوة الدولة وعلُوِّها، لكن في الوقت الذي ضعفت فيه هذه الدولة، وانقسمت إلى مملكتين متناحرتين يفصل بينهما نهر أم الربيع، ألا وهما: "**مملكة فاس**" و"**مملكة مراكش**"، وجدنا سلاطين هاتين المملكتين، يتخلون تدرجيا عن استعمال الطغراء في مكاتباتهم الرسمية، حيث أصبحت تستعمل لديهم استعمالا شكليا، يتم من خلاله توظيفها في بعض الأغراض التزيينية ليس إلا.

وفي هذا المصمار، نستعرض رسالة استجدائية، أرسلها أحد ملوك مدينة فاس من السعديين، ألا وهو: محمد الشيخ المأمون بن أحمد المنصور الذهبي" (1019 - 1022هـ/1610 - 1613م) الذي طلب من: "فيليب الثالث"، أن يمد له يد العون ويسانده في صراعه مع أخيه زيدان الذي كان الملك الشرعي للسعديين في مراكش، ولأن هذا الاستجداء يشكل نوعا من الانبطاح السياسي، وجدنا محمد الشيخ المأمون يرسم طغراءه - على غير عادة أسلافه - بشكل خجول ومحتشم في هامش الرسالة، رغم أن الطغراء أوالطرة كما يسميها بعضهم، إنما سميت باسمها، لأنها كانت توضع في طرر وثائق الدولة ومكاتباتها، باعتبارها كنه سيادتها. ولعل الكيفية التي رُسمت بها في رسالة السلطان المذكور، جعلتها تبدو عمودية وليس عرضية كما هو الأمر بالنسبة لطغراوات السلاطين السابقين. وسواء رسم هذا السلطان طغراءه أورُسمت له، فإنها تدل على شيء واحد - بحكم الكيفية التي رُسمت بها - ألا وهو: ضعف الدولة وتهالك مؤسساتها (انظر شكل: 158).

وقد وجدنا مثل هذا الاستعمال عند العثمانيين أيضا، كما نلاحظه من خلال رسالة رُسمت فيها الطغراء بالوضعية نفسها، إلا أن رسمها بتلك الوضعية ليس له الدلالة نفسهاعلى ما يبدو، لأنها - وبكل بساطة - طغراء أحد السلاطين العثمانيين الأوائل، إنه السلطان: سليم الثاني (974 - 982هـ/1566 - 1574م)، الذي كانت الدولة في عهده ما تزال في عز عنفوانها (انظر شكل: 159).



رسالة ملك فاس؛ محمد الشيخ المأمون السعدي" (1019 - 1022هـ/1610 - 1613م) إلى فيليب الثالث[28].
شكل: 158



طغراء السلطان العثماني: سليم الثاني (974 - 982هـ/1566 - 1574م)، ورسمُها على (قانوننامة إيالة بودين) [29] بالوضعية نفسها التي رُسمت بها طغراء محمد الشيخ المأمون السعدي، رغم كون وضعيتهما المتشابهة لا تحمل نفس الدلالة.
شكل: 159

[28] Henry de Castries, "Les signes de validation des chérifs saadiens", p. 218

[29] الدولة العثمانية. تاريخ وحضارة، ج/1، ص 469

من خلال ماسبق، يمكن القول إن أواخر سلاطين السعديين بدأوا يضعون طغراواتهم بشكل محتشم في هوامش وثائقهم كما لاحظناه من خلال مراسلات: محمد الشيخ المأمون (راجع شكل: 158)، وابنه عبد الله الواثق (1022 - 1033هـ/1613 - 1624م) للملك فيليب الثالث (انظر شكل: 160)، وذلك لأن مكانة المرسل تقِلُّ أمام مكانة المرسل إليه، ونستدل في هذا الشأن بتوصية مارمول كاربخال وهو يخاطب فيليب الثالث ملك اسبانيا قائلا: "**إن السلطان إذا وقّع في جهة أخرى، فسيكون توقيعه تحت اسم السلطان الذي أرسلت إليه الرسالة وهذا يدل على وضعية احتقارية**"[30].

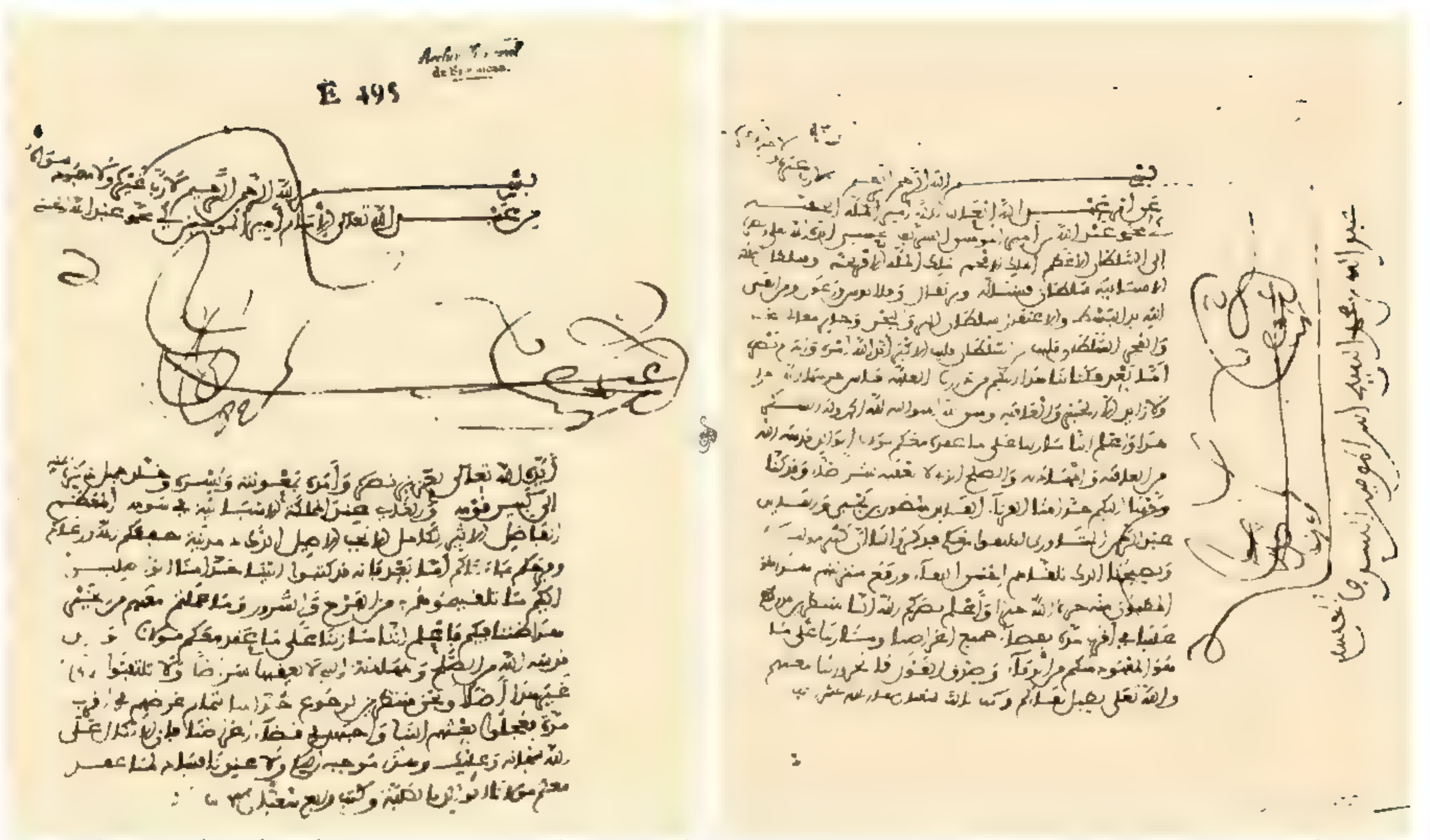
وربما يكون هذا الإشعار للملك فيليب الثالث، مرده إلى رسالة أخرى أرسلها السلطان عبد الله الواثق إليه (انظر شكل: 160)، حيث وضع طغراءه في طرة الوثيقة بين البسملة ونص الرسالة[31] ، مما أثار حفيظة هذا الملك، لأن الطرة تدل على العلُوّ والتغلب والسيادة والهيبة، لذلك فتسميتها بالطرة أوالطغراء كان إفرازا طبيعيا ونتاجا بديهيا لدلالة ذلك الاستعمال، وهو ما لايعبر عن المكانة الحقيقية للسلطان السعدي، سيما وأن هذا السلطان هو وأبوه من قبله: محمد الشيخ المأمون؛ انفصلا عن السعديين، وكوّنا مملكة مستقلة هي: "مملكة فاس"، حيث أمعن كل منهما في مخالفة السعديين في مراكش، فاستبدلوا "**طغراء الحمدلة**" التي استعملها أحمد المنصور الذهبي وبنوه من بعده في مملكة مراكش، بـ:"**طغراء اسم السلطان**"، التي كانت مستعملة في الوثائق الرسمية منذ أوائل الدولة السعدية إلى حدود عهد محمد المتوكل (راجع الأشكال: 62 - 63 - 64 - 65 - 66 - 67)، وقد لاحظنا هذا الاستعمال بجلاء في بعض الوثائق المنسوبة لمحمد الشيخ المأمون (راجع شكل: 68 وشكل: 158)، أما ابنه عبد الله الواثق فقد أضاف اسمه (عبد الله) إلى النسب (الحسني) الذي كانت تقتصر عليه الطغراء السعدية اعتبارا من عهد أحمد المنصور الذهبي (انظر شكل: 160).

من هذا المنطلق بالذات، كان فيليب الثالث حريصا على أن توضع الطغراء السعدية بشكل إحتقاري، لأن عبد الله الواثق لم يكن له من الدولة إلا اسمها (مملكة فاس)، ولم يتبق له من السيادة إلا رسمها (الطغراء)، حيث سيتم إفراغ الطغراء من محتواها السيادي، لتصبح مجرد توقيع اعتيادي كتوقيعات العدول والقضاة، سيما بعد التخلي عن وضعها في مكانها الطبيعي المرتبط بطرة الوثيقة، مقابل رسمها في هوامشها كما لاحظناه من خلال الشكلين المذكورين (شكل: 158 وشكل: 160).

---

30 Balagna Josée. Deux lettres inédites du Sultan sa'adien Mûlay 'Abdallah ibn Muh'ammad al Chaykh (1023 H/1614). In Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée, N°10, 1971 PP 19 -25

31 - Balagna Josée. Deux lettres inédites du Sultan .. P. 24



رسالتان لملك فاس: عبد الله الواثق بن محمد الشيخ المامون السعدي(1022 – 1033هـ/1613 – 1624م) الى فيليب الثالث. تظهر في احداهما الطغراء على هامش الوثيقة بوضعية احتقارية، مما يدل على قوة المرسل اليه ونستدل في ذلك بعبارات واردة في نص الرسالة، منها: "واعلم نصركم الله اننا منتظرين.. قضاء جميع اغراضنا ومارينا على ماهو المعهود منكم من الوفاء وصدق القول.. والله تعالى يطيل بقاءكم.."

ملاحظة: من الامور التي تسترعي الانتباه في هاتين الرسالتين: اضافة اسم السلطان السعدي (عبد الله) الى النسب (الحسني) الذي كانت تقتصر عليه الطغراء السعدية اعتبارا من عهد احمد المنصور الذهبي

المصدر: عن النص المحفوظ في الارشيف العام سانت مانكس (سيمنكاس) - بلد الوليد - اسبانيا

D'après l'original conservé à l' Archives générales de Simancas, Valladolid, Espagne
(fonds Secretaria de Estado, liasse 495)

شكل: 160

ومن خلال قراءتنا للرسائل السعدية السابقة (شكل: 158) و (شكل: 160)، يبدو جليا تملق واستجداء السلطانين السعديين: محمد الشيخ المأمون وابنه عبد الله الواثق بفيليب الثالث من خلال الدعاء له بالنصر والتمكين، فقد نعته محمد الشيخ المأمون ب:

1 - المقـــام العالـــــي السلطـــــاني، سلطـــــان البرَين والبحرين

2 - السلطـــــــان فليـــــــب..

أما ابنه عبد الله الواثق[32]. فقد قال في معرض حديثه عنه:

1 - إلى السلطـــان الاعظـم، الملك الافخـم، ملك الملــة الافرنجيــة، وسلطـــان المملكــــة

2 - الاشبانية [إسبانيا]، سلطان قشتالة وبرتقال [البرتغال]، وفلانوس ورغون، ومن ألقى

3 - الله يــــد البســـــط والاعتقـــال، سلطـــان البـــــر والبحـــــر، معــــالي المجــــد

4 - والفخـــــر، السلطـــان فليب بن السلطـــان فلـيب الاكبـر، ايد الله امره وادام نصـــره

32 - Balagna Josée. Deux lettres inédites du Sultan sa'adien Mûlay 'Abdallah ibn Muh'ammad al-Chaykh (1023 H/1614). In: Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée, N°10, 1971. pp. 19 - 25

وقال عنه أيضا في الرسالة نفسها:

1 - واعلم - نصركم الله - أننا منتظرين قدومهم

2 - علينـــا في أقـرب مدة بقضـاء جميـع أغراضنـا وماربنـا على مـــا

3 - هو المعهـود منكـم من الوفـاء وصدق القـول فانجـزوا لنـا ببعثهـم

4 - والله تعالى يطيل بقاءكم، وكتب ثالث شعبان عـام ثلاثــة عشــر وألف

من هنا يمكن القول إن الطغراء كانت لها حساسية كبيرة، وبعد رمزي عميق يرتبط بسيادة السلطان ونفوذ أمره. فجلال قدرها من جلاله، وانحطاطها من انحطاطه، لذلك كان شكلها وموقعها في الوثيقة، يكتسي دلالة قوية تُعبر عن موقع السلطان في الميزان الدولي للقوى، وفي هذا المعنى نشير من باب المقارنة إلى أن الوثائق العثمانية التي كانت لا ترتبط بالسلطان، وترتبط بمن هم أقل منه قيمة في هرم السلطة كأصحاب المقامات العالية مثل: الصدر الأعظم والوزراء وشيوخ الإسلام وغيرهم.. كان لا يُسمح لهم باستعمال الطغراء السلطانية في مكاتباتهم حتى لا تتداخل أوامرهم مع أوامر السلطان، ولتجاوز هذا الأمر، سُمح لهم بتقليد شكل الطغراء في توقيعاتهم الشخصية؛ شريطة تعديل ملامحها، وتغيير اسمها، فضلا عن عدم وضعها في طرة الوثيقة.

ومن ثم ظهرت أشكال جديدة من التوقيعات العثمانية أُطلق على إحداها: "بنجه" (Pençe)، والبنجة هي شكل مشتق من بصمة اليد كما يذكر بعض الباحثين[33]. وهي تختلف عن طغراء السلطان بكونها تمتلك بيضة واحدة ذات قوس واحد، كما أن مكانها لا يكون في أعلى الخطاب أو الوثيقة، بل يكون على الهوامش الجانبية.

ولدلالة الطغراء السلطانية، كان لايجوز حتى للأمير العثماني (الشاهزاده) - قبل توليه الحكم - أن يستعملها في توقيعاته، وإن أراد التوقيع على مراسلاته، فإنه يتعيّن عليه استعمال توقيع أحادي البيضة، أي: استعمال 'البنجه' التي هي دون "الطغراء" قدْرا ووظيفة. وحسب فهمي لطبيعة هذا الاستعمال: فإن تقييد التوقيعات غير السلطانية وربطها بشكل "البنجات"، مرده إلى كون البيضة الثانية في "الطغراء السلطانية -

[33] المصدر: مختارات إيرانية. محمد نور الدين عبد المنعم، مصطلح التوقيع بين الخط والإدارة والمذهب عند الإيرانيين، جريدة الأهرام الرقمي، العدد: 1، يوليوز 2011م

انظر أيضا

القطوري (أحمد الصقصافي)، الوثائق العثمانية، القاهرة، الطبعة الثانية: 2011م، ص 93 94

العثمانية"؛ كانت تتعلق بكلمة تشير إلى السلطة والملك، ألا وهي: كلمة "خان"، التي تعني في مدلولها: 'حاكم'؛ كما سبق وفصلنا في ذلك[34]، و لأن الحُكم لا يقبل التعدد، كانت الطغراء أيضا لا تقبل التعدد، فهي التوقيع الشخصي للسلطان الذي لا يستعمله غيره في مملكته كائنا من كان، ومن استعمله فكأنما ينازع السلطان ملكه وسيادته.

وعلى الرغم من أنه لم يثبت لدى الباحثين معرفة التاريخ الذي بدأ فيه استعمال 'البنجات" بدقة، إلا أنهم حددوا تاريخا تقريبيا لنمو هذه الظاهرة؛ أرجعوه إلى سنة: 845هـ/1441م[35]. وهو ما معناه أن هذا التقليد ارتبط بعهد السلطان مراد الثاني (824 – 847هـ/1421 – 1444م)، الذي سيتخلى عن مقاليد الحكم لصالح ابنه محمد الثاني (الفاتح)، قبل أن يستردها مرة أخرى، ويظل في الحكم إلى حين وفاته (849 - 855هـ/1446 - 1451م).

ومن أقدم البنجات التي عثرنا عليها؛ بنجة بخط إسكندر حسين، ترجع إلى سنة: 922هـ/1516م، وهي توافق في تاريخها عهد السلطان العثماني سليم الأول بن بايزيد (918 - 926هـ/1512 - 1520م)؛ حفيد محمد الفاتح وأبو سليمان القانوني:



بنجة بخط إسكندر حسين، ترجع إلى سنة: 922هـ/1516م

وقد توالى استعمال البنجات في الوثائق العثمانية، فتعددت أشكالها، حيث اتخذت قاعدتها في بعض الصور شكلا هرميا كما نلاحظه من خلال البنجة التالية المنسوبة لعلي باشا، والمؤرخة في سنة: 1060هـ/1650م، في عهد السلطان العثماني محمد الرابع (1058 - 1099هـ/1648 - 1687م)



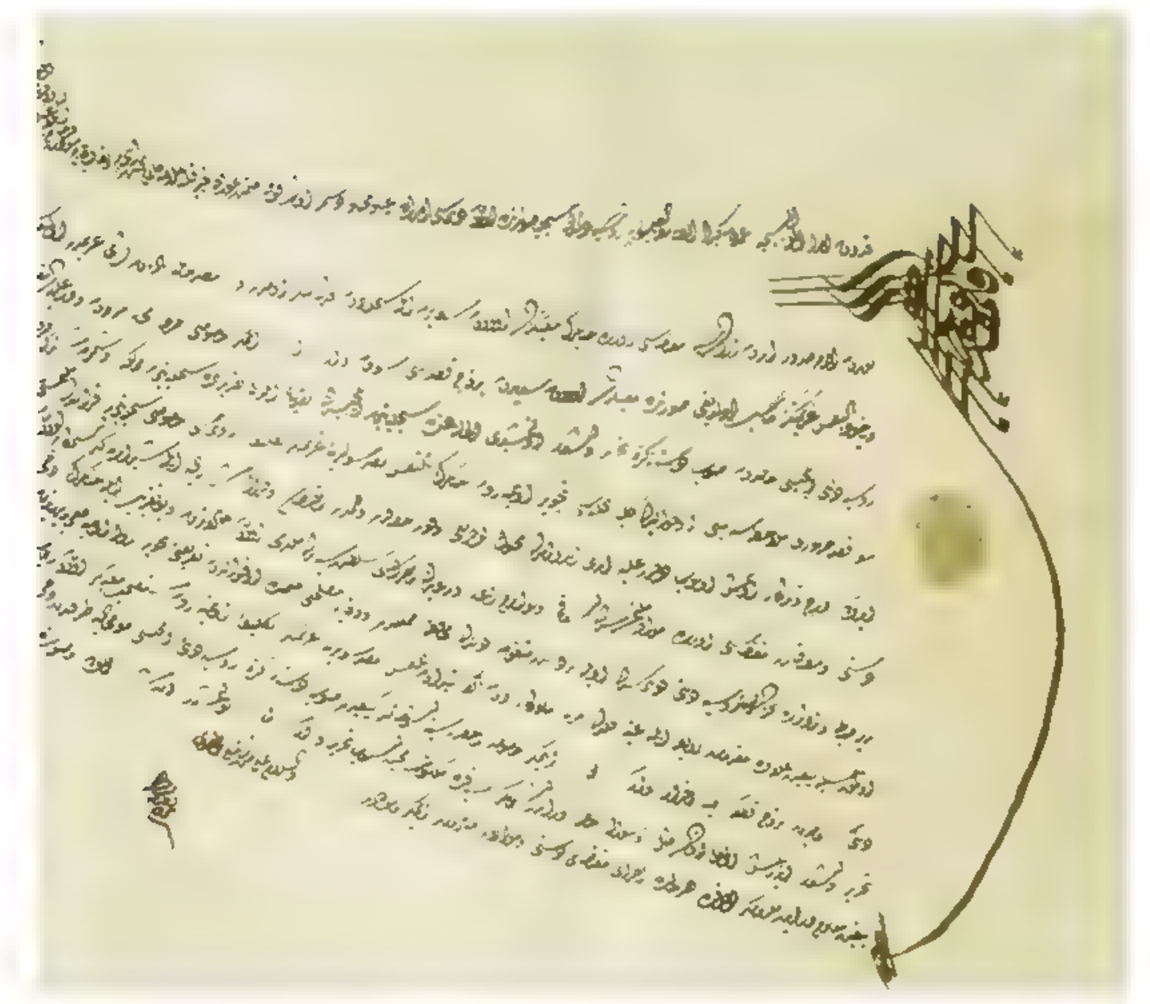
بنجة منسوبة لعلي باشا، مؤرخة في سنة: 1060هـ/1650م

---

[34] حول ذلك، راجع الباب الثالث لهذا الكتاب

[35] حنش، الخط العربي في الوثائق العثمانية، ص: 210

والملاحظ أن الشكل الهرمي لقاعدة البنجة أصبح سائدا بشكل كبير، حيث تم الاستغناء في التوقيعات التي ترجع إلى القرن الثامن عشر حتى عن تلك البيضة الواحدة التي تُميّز البنجة، وتم تعويضها بإرسال حرف سيفي على شاكلة "راء المظفر" التي تتميز بها الطغراء السلطانية، ويمتد ذلك الحرف على طول المساحة التي تشغلها الأسطر المنضّدة لنص الوثيقة عموديا حيث يؤطرها من اليمين، سيما عندما تُكتب البنجة التي يعد أحد أحرفها – على الهامش الأيمن للوثيقة بشكل عمودي من الأعلى إلى الأسفل، واستعمال البنجة في هذا الحيّز، وجدنا ما يشبهه في الوثائق السعدية قبل ذلك (راجع شكل: 158)، وفيما يلي وثيقة ترجع إلى سنة: 1200هـ/1786م، تتعلق بالأسطول العثماني (الدونانمه)، عليها بنجة هرمية – سيفية (انظر شكل: 161)



وثيقة عثمانية مؤرخة في سنة: 1200هـ/1786م، تتعلق بالأسطول العثماني (الدونانمه)، عليها بنجة هرمية - سيفية، خالية من أي شكل بيضوي يتصل بالطغراء

المصدر: الارشيف العثماني العام - استانبول، رقم: 7320

شكل: 161

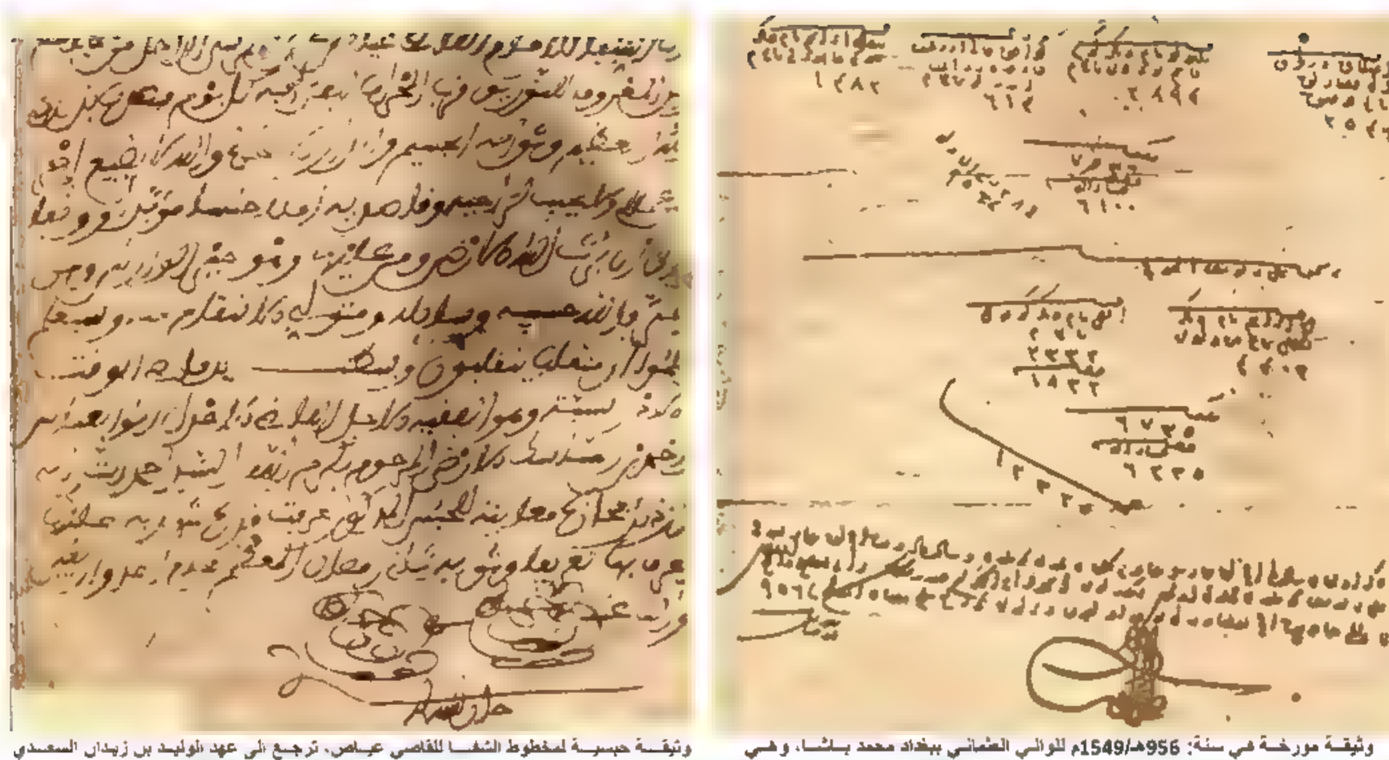
وفي العصر السعدي، استُعملت أشكال تشبه البنجات العثمانية، حيث كان القضاة والولاة في هذا العصر يستلهمون توقيعاتهم – المتعلقة بالعقود – من الشكل الطغرائي السعدي، إلا أن توقيعاتهم تلك، كانت تختلف عن الطغراء السعدية في الموضع والحجم، بل وحتى في بعض الملامح الفنية.

ومعلوم أن الطغراء السلطانية أو (طغراء الحمدلة) عند السعديين، كانت تُرسم في طرة الوثيقة بقلم جلي - جليل لتمييزها عن النص الذي كان يكتب - عادة - بقلم دقيق، ومعلوم أيضا أن لها من الضخامة ما كان يجعلها تشغل الامتداد العرضي للوثيقة من اليمين إلى اليسار، بخلاف التوقيع المرتبط بالعقود الشرعية والإشهادات وما شابهها، فقد كان يوضع في أسفل الوثيقة، كما أن حجمه كان صغيرا يقارب حجم الكتابة التي - جرت العادة - باستعمالها في تحرير نصوص الوثائق العدلية.

وقد كان استعمال هذه التواقيع حاضرا أيضا في بعض الوثائق الحبسية والوقفيات، وخاصة المتعلقة منها بالمخطوطات، مما ينمّ على أن ذلك الاستعمال؛ كان مجرد استعمال اعتيادي لا يحمل أية دلالة سيادية، كما أنه كان يُعبر فقط عن توقيع الواقف الذي قد يختار بعض ملامح الصيغة الطغرائية أوغيرها من الصيغ، ليضعها كتوقيع خاص به، وقد أُطلق على مثل تلك التوقيعات في المغرب خلال المراحل المتأخرة؛ تسمية: "**الخنافس**"، كناية على شدة سوادها، وقد كان الموقّع يعمد إلى هذا التسويد عن طريق تشبيك الخط بشكل متناهي ومتاهي، بل ويتفنن في ذلك حتى لايتم تقليد توقيعه الذي قد يُستغل في تزوير وثيقة ما. وسُمّي هذا النوع من التوقيع أيضا عند القضاة الشرعيين والعدول بـ: "**البخّوشة**"، والبخّوشة - على تعبير المغاربة الدارج - هي حشرات الأرض كالخنافس والصراصير وما شابهها.

على هذا الفهم إذن؛ يمكن القول إن "الخنفساء" أو"البخّوشة" السعدية، كانت تقابلها "البنجة" العثمانية، والطغراء (العلامة السلطانية) السعدية، كانت تقابلها الطغراء العثمانية، وذلك فيما يتعلق بالاستعمال الوظيفي ودلالة ذلك الاستعمال بينهما. وفيما يلي؛ نقترح توقيعا خنفسيا، للقاضي أحمد الشداد على وثيقة حبسية لمخطوط الشفا للقاضي عياض، وهي مؤرخة في عهد الوليد بن زيدان السعدي (1040 - 1046هـ/1631 - 1636م).(انظر شكل: 162 والشكل الداعم له).

وفي الإطار نفسه؛ نشير إلى أننا عثرنا على وثيقة ترجع إلى العصر العلوي، تضمنت أكبر عدد يمكن تخيله من التوقيعات الخنفسية، وهذه الوثيقة واحدة من أصل 23 وثيقة مكتوبة بخطوط مختلفة، تُحفظ حاليا بخزانة القرويين تحت رقم: 823. وهي تتعلق بمراقبة أهلة الشهور. وكما هو معلوم، فإن مراقبة الأهلة يجري شرعيا بحسابات فلكية، تتحقق منها المراقبة المباشرة، وجرت العادة أن يصعد الشهود فوق المنارات، ومنها منار جامع القرويين بفاس للقيام بهذه المهمة، والوثيقة التي نستدل بها، تضمنت شهادة نصها مايلي: "**الحمد لله، ارتقب شهوده الموضوعة أسماؤهم عقب تاريخه، عشية يوم تاريخه هلال جمادى الثانية الموالي لشهر تاريخه، بمنار جامع القرويين شرفه الله سبحانه وتعالى بدوام الأذكار وشوارق الأنوار، حيث ترتقب الأهلة بمغاربها المعروفة، وأماكنها المعلومة المألوفة، فلم يعاينوه. وقيدوا بذلك شهادتهم بعد غروب الشمس من يوم الخميس التاسع والعشرين من جمادى الأولى عام أحد وثلاثين ومائة وألف** [موافق: 19 أبريل1719م". وبعد تحرير الوثيقة، وضع الشهود تواقيعهم وعلاماتهم الشبيهة بشكل الطغراء السعدية بالقلم نفسه الذي حُرّرت به الوثيقة، وذلك لتأكيد صحة شهاداتهم على عدم ثبوت الرؤية (انظر شكل: 163).



وثيقة مورخة في سنة: 956هـ/1549م للوالي العثماني ببغداد محمد باشا، وهي مختتمة في الاسفل بتوقيعه الشخصي الذي اتخذ شكل بنجة احادية البيضة
المصدر: (BAŞVEKÂLET ARŞİVİ)، رقم: 29.

وثيقة حبسية لمخطوط الشفا للقاضي عياض، ترجع الى عهد الوليد بن زيدان السعدي (1040 - 1046هـ/1631 - 1636م)، مختتمة في الاسفل بتوقيع خنفسي، للقاضي احمد الشداد
المصدر: خزانة القرويين - فاس، رقم: 365

مقارنة دلالية بين وثيقتين؛ إحداهما عثمانية مذيلة ببنجة أحادية البيضة، والثانية سعدية مذيلة بخنفساء (بخوشة) ملغوزة

شكل: 162



الطغراء السلطانية العثمانية.هي التوقيع الرسمي للسلطان لذلك كانت توضع في طرر الوثائق

ملاحظـــــــــة:

تتميز "الطغراء السلطانية - العثمانية" بوجود شكلين بيضويين؛ أحدهما يشير إلى كلمة: "خـــــان"، التي تعني في مدلولها: "حاكم"

الطغراء السلطانية السعدية.هي التوقيع الرسمي للسلطان لذلك كانت توضع في طرر الوثائق

ملاحظـــــــــة:

تتميز "الطغراء السلطانية - السعدية" بوجود شكلين بيضويين؛ احدهما يشيـــر إلى كلمة: "الحسني" التي ترمز الى "النسب الشريف" الذي استمد منه السعديون شرعية حكمهم

بنجة منسوبة لعلي باشا مؤرخة في سنة: 1060هـ/1650م



البنجة العثمانية، هي نوع من التواقيع داب على استعمالها القضاة وبعض اعيان الدولة من القواد والولاة وغيرهم، وهي اصغر حجما من الطغراء السلطانية

ملاحظـــــــــة:

حتى لا تختلط البنجة بالطغراء السلطانية، كانت تقتصر على بيضة واحدة لان البيضة الثانية خاصة باسم السلطان، وكانت البنجة تتميز بصغر حجمها بالمقارنة مع الطغراء السلطانية العثمانية، كما كان يتوجب وضعها في اسفل الوثيقة او هوامشها الجانبية

"خنفساء" (بخوشة)، للقاضي احمد الشداد ترجع الى عهد الوليد بن زيدان السعدي (1040 - 1046هـ/1631 - 1636م)



الخنفساء (البخوشة) السعدية، هي نوع من التواقيع داب على استعماله القضاة وبعض اعيان الدولة من القواد والولاة وغيرهم، وهي اصغر حجم من الطغراء السلطانية

ملاحظـــــــــة:

حتى لا تختلط الخنفساء بالطغراء السلطانية، كانت تقتصر على رسم شكلين بيضويين متماثلين في الحجم، يغلب عليهما الطمس و التسويد، ولا يسمح باستعمال شكل البيضة الخاصة باسم السلطان، وكانت الخنفساء تتميز بصغر حجمها بالمقارنة مع الطغراء السلطانية السعدية، كما كان يتوجب وضعها في اسفل الوثيقة او هوامشها الجانبية

التوقيع الخنفسي المستخرج من (الشكل: 162)، ومقارنته بالطغراء السعدية من جهة، وبالطغراء والبنجة العثمانيتين من جهة أخرى



الحمد لله ارتقب شهود الموضوعة أسماؤهم عقب تاريخه عشية يوم تاريخه
هلال جمادى الثانية الموالي لشهر تاريخه بمنار جامع القرويين عمره الله
بدوام الأذكار وشوارق الأنوار حيث ترقب الأهلة بمعاينة الغروب وأماكنها المعلومة
المألوفة فلم يعاينوه وقيدوا بذلك شهادتهم بغروب الشمس من
يوم الخميس التاسع والعشرين من جمادى الأولى عام [illegible] وثلاثين ومائة وألف

الحمد لله ارتقب شهود الموضوعة أسماؤهم عقب تاريخه عشية يوم تاريخه
هلال رجب الفرد الحرام الموالي لشهر تاريخه بمنار جامع القرويين عمره الله بدوام الأذكار
ونشره بشوارق الأنوار حيث ترقب الأهلة بمعاينة الغروب وأماكنها المعلومة
المألوفة فلم يعاينوه وقيدوا بذلك شهادتهم بغروب الشمس من يوم الجمعة
التاسع والعشرين من جمادى الثانية عام [illegible] وثلاثين ومائة وألف

وثيقة، ترجع إلى العصر العلوي، تتعلق بمراقبة أهلة الشهور بمنار جامع القرويين، وهي مذيّلة بعلامات وتواقيع الشهود المقدمين لذلك

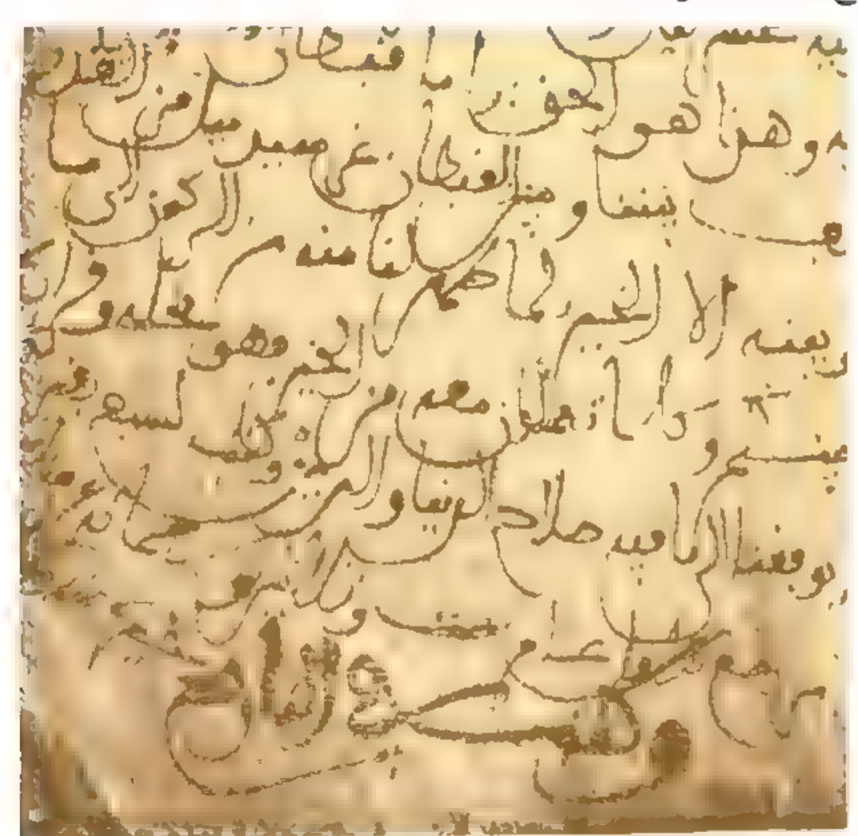
المصدر: خزانة القرويين - فاس، رقم: 823.

شكل: 163

2 – تنوع التوقيعات السلطانية المستعملة في المغرب، ومقارنة عباراتها بعبارة الحمدلة التي كانت معتمدة في رسم الطغراء خلال العصر السعدي:

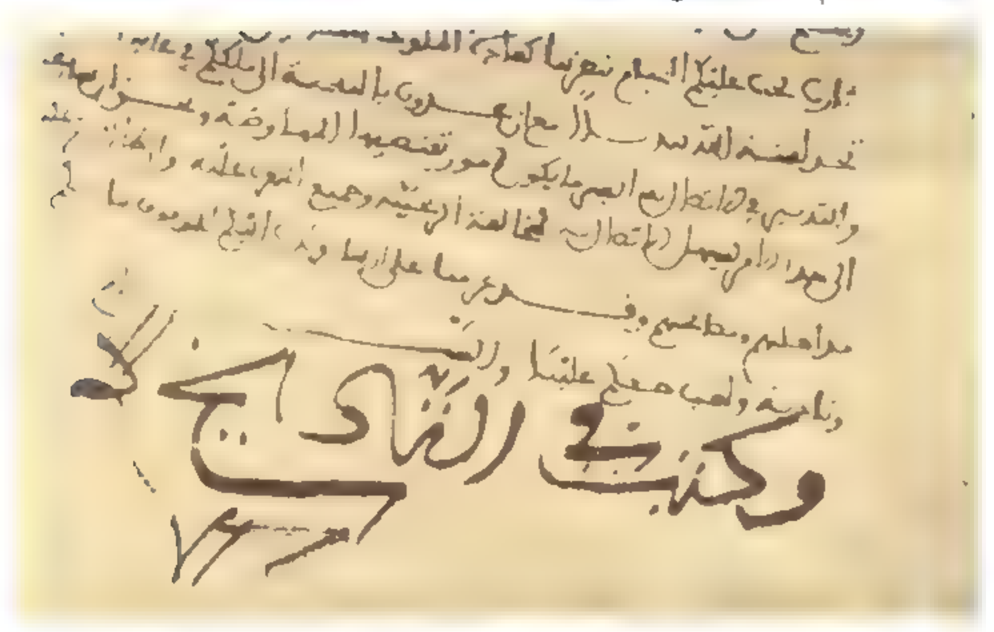
من خلال دراستنا السابقة للعلامات السلطانية للعلامات السلطانية في المغرب إبّان العصر الوسيط، لاحظنا أن عباراتها كان يطبعها الاختلاف، وذلك بالنظر إلى وظيفة كل واحدة منها.. فقد كانت العلامة المرابطية — مثلا — مرتبطة بالتصحيح، فمثّلتها عبارة: "**صح ذلك بحول الله**"، أما العلامة الموحدية فكانت مرتبطة بالافتتاح، ولذلك وجدناها تتجسد في عبارة: "**الحمد لله وحده**"، في حين أن العلامة المرينية ارتبطت بالتأريخ، ولذلك استُخدمت فيها عبارة: "**وكتب في التاريخ**"، وبمعزل عن هذه العبارات كلها، وجدنا العلامة الوطاسية ترتبط باسم السلطان الوطاسي: "**فلان بن فلان**". ومن خلال دراستنا للوثائق السعدية، وجدنا سلاطين السعديين قد استعملوا كل هذه التوقيعات في مكاتباتهم ومراسلاتهم الرسمية، وذلك بحسب وظيفة كل واحدة منها.

ولتأكيد ما قلناه؛ نستدل بمقطع من رسالة لأحمد الأعرج (923 - 947هـ/1517 - 1540م)، إلى جان الثالث بتاريخ: 23 ربيع الأول936هـ/25 نونبر 1529م، استخرجناه من رسالة سبق ودرسناها في الباب الثالث لهذا الكتاب (راجع شكل: 64). وقد ورد فيها ما يفيد التأريخ، من خلال ختمها بعبارة: "**وكتب في التاريخ**". (انظر شكل: 164).



مقطع من رسالة لأحمد الأعرج إلى جان الثالث بتاريخ: 23 ربيع الأول936هـ/25 نونبر 1529م، استخرجناه من الشكل: 64
شكل: 164

الأمر نفسه نلاحظه من خلال مقطع مستخرج من رسالة لمحمد المتوكل بن عبد الله الغالب السعدي (982 - 986هـ/1574 - 1578م) إلى الملك فيليب، مؤرخة في: 12رمضان 985هـ/23نونبر1577م. (انظر شكل: 165).



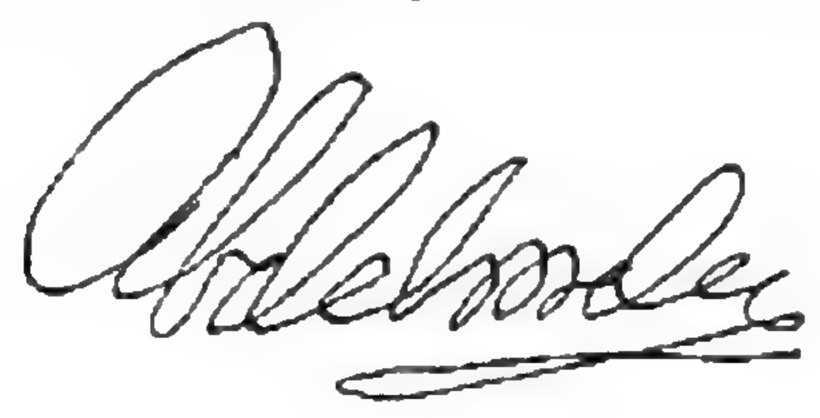
مقطع من رسالة لمحمد المتوكل (المسلوخ) بن عبد الله الغالب السعدي إلى الملك فيليب، مؤرخة في: 12رمضان 985هـ/23نونبر1577م

المصدر: عن الأصل المحفوظ في الارشيف العام. سانت مانكش (سيمنكاس) - بلد الوليد، إسبانيا

(Guerra Antigua - Legajo 82, jol. 190- original)

شكل: 165

وحتى لا تفوتنا الفرصة، نشير إلى أن السعديين استعملوا توقيعات أخرى في بعض رسائلهم المكتوبة بلغة أجنبية، ونخص بالذكر: عبد الملك السعدي (984 - 986هـ/1576 - 1578م)، أحد أبطال معركة وادي المخازن (986هـ/1578م)، الذي كان على اطلاع باللغات الأجنبية، ودليلنا في ذلك رسائله التي حرر بعضها بتلك اللغات، ثم ذيلها بتوقيع اسمه الذي أمضاه بالحرف اللاتيني:



وقد كان السلطان عبد الملك السعدي بن محمد الشيخ المهدي وأخو عبد الله الغالب السعدي، هو السلطان الوحيد الذي يوقع بالاضافة الى التوقيع السعدي المعروف بحروف لاتينية، لأنه كان يتقن اللغتين: القشتالية والايطالية[36].

حيث دأب على استعمال هذا التوقيع في معظم رسائله المحررة بلغة أجنبية، وفيما يلي مقطع من إحدى تلك الرسائل (انظر شكل: 166).



مقطع تفصيلي من احدى رسائل عبد الملك أبي مروان السعدي المحررة بلغة أجنبية، كتبها في: 18 جمادى الأولى 978هـ/18 أكتوبر 1570م، ويبدو في آخرها عبارة: "صح في التاريخ". مرفقة بتوقيعه الذي أمضاه بالحرف اللاتيني

المصدر: عن الأصل المحفوظ في الارشيف العام. سانت مانكش (سيمنكاس) - بلد الوليد، إسبانيا

(Estado - Legajo 487. original)

شكل: 166

التوقيـــع المستخــــرج من (شكل: 166):

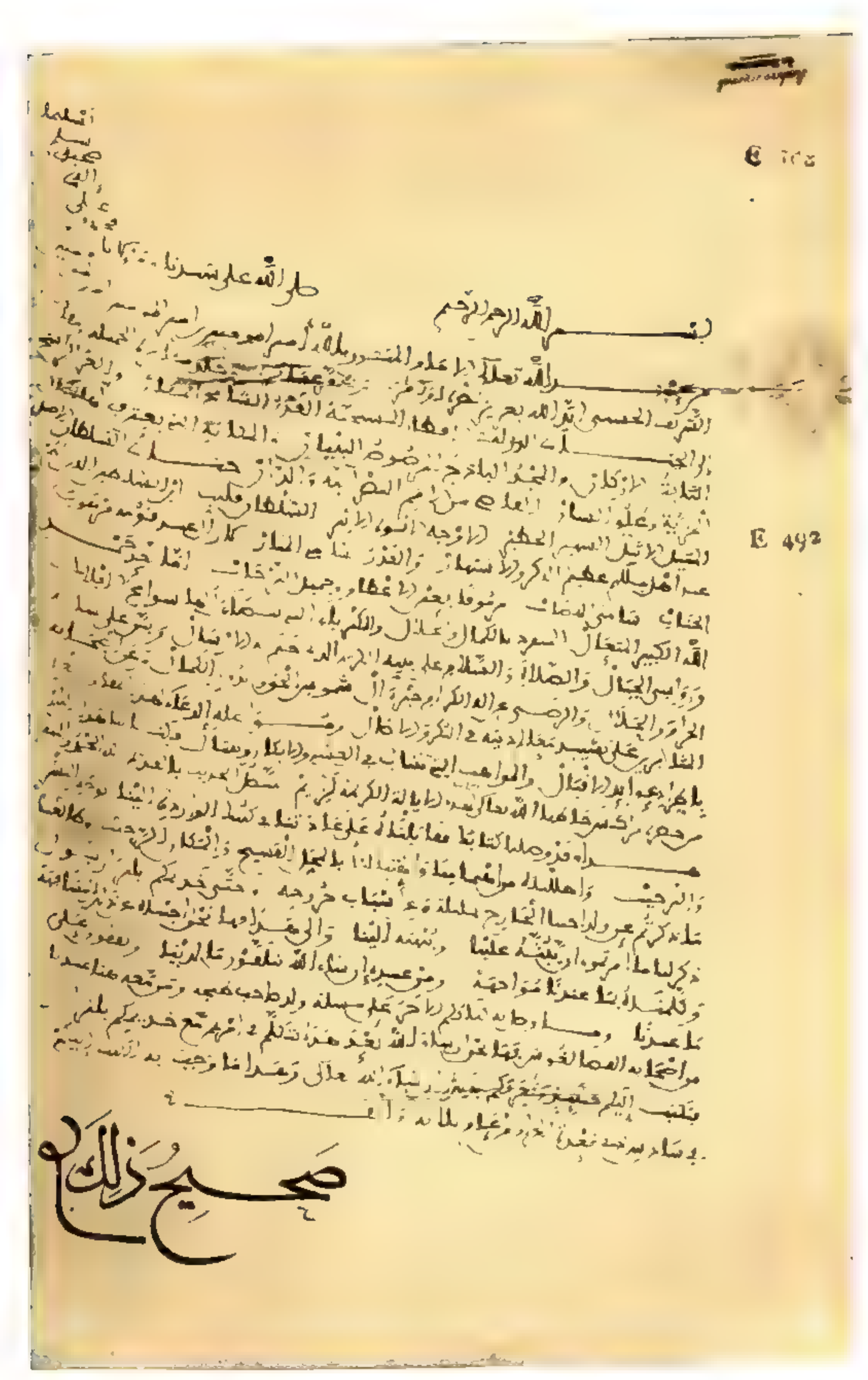


[36] حسب دوكاستري توجد ثلاث رسائل لعبد الملك موقعة بحروف لاتينية. انظر
Henry de Castries, "Les signes de validation des chérifs saadiens", pp 231- 252

وبتأملنا لهذا المقطع، نجد أن عبد الملك - على الرغم مما قلناه لم يغفل التوقيع بالأحرف العربية، بغية إضفاء رونق جمالي على رسالته، حيث اتخذ توقيعه نمطا يشبه النمط الطغرائي، فبدت العبارة المكوّنة لذلك النمط، كالبدر في ظلمة العتمة؛ إذا ما قارناها بالكتابة اللاتينية المحيطة بها، أما العبارة التي وظفها عبد الملك في هذا الشكل، فهي عبارة: "**صح في التاريخ**". ولو حاولنا استخراجها من الوثيقة المخطوطة والتفصيل فيها، لوقفنا على مكامن الجمال في رونق الكلمات وكيفية تركيبها، حيث خلق عبد الملك في العبارة نوعا من التوزيع المتوازن بشكل تماثلي، صاغه من خلال مد كشيدة الياء الراجعة (السيفية) لحرف : في". وحتى نفصل في الكلمات ونفك رموزها، نقترح الشكل التالي:



ومن العبارات الأخرى التي استخدمها السعديون كذلك للمصادقة على خطاباتهم ورسائلهم المبعوثة إلى الخارج، عبارة: "**صحيح ذلك**"، المختومة بشكل طغرائي يحمل ملامح حرف الهاء للدلالة على كلمة: "**انتهى**"، كما نلاحظه من خلال الشكل: 167.



E 492

صلى الله على سيدنا ومولانا محمد

بسم الله الرحمن الرحيم

صحيح ذلك

رسالة لأحمد المنصور الذهبي إلى فيليب الثاني، مؤرخة في: 6 ذو القعدة 1003هـ/13 يوليوز 1595م

المصدر: الأرشيف العام، سانت مانكش (سيمنكاس) - بلد الوليد، إسبانيا، رقم: E. 492

شكل: 167

التوقيـــع المستخـــرج من (شكل: 167):



وهذا النوع من التوقيعات السلطانية؛ كان مأثورا عند السلاطين السعديين وعند من سبقهم، وخاصة المرابطين الذين كانوا يضعونه للمصادقة على وثائق دولتهم، وكذا تصحيح وثائق الوقف والتحبيس عندهم، وفيما يلي؛ نقترح تفصيل العبارة بالألوان:



ويظهر جليا من خلال هذه العبارة ملامح التأثر بخط الثلث المشرقي الذي كان يُستعمل قبل العثمانيين في توقيع الوثائق، حتى اشتُق منه صنف سمي بـ: "خط التوقيع"؛ ولعل هذا ما يدفعنا للقول إننا أمام خط التوقيع المشرقي الذي اندثر مرقومه في المشرق، وقد ذهب بعض الدارسين إلى أن هذا النوع من الخط انحسر استعماله منذ القرن 17 الميلادي في المشرق، بعدما حل محله الخط الديواني بصنفيه. الدقيق والجلي في تحرير الوثائق العثمانية[37]. أما في المغرب فقد ظل مستعملا كما نلاحظه من خلال التوقيع السابق لأحمد المنصور.

[37] الدولة العثمانية. تاريخ وحضارة، ج/2، ص: 743

يلاحظ أيضا من خلال العبارة السابقة، استعمال حرف الهاء الجامعة الدالة على كلمة: "**انتهى**" في مجمل العبارات المستعملة في هذا العصر والعصور التي سبقته، وخاصة العصرين: الموحدي والمريني كما وقفنا على دلك في الأبواب السابقة. ولأننا خصصنا هذا المبحث لتسليط الضوء على التوقيعات السلطانية وتنوعها في المغرب، ومقارنة عباراتها بعبارة الحمدلة التي كانت معتمدة في رسم الطغراء خلال العصر السعدي. نشير إلى أن أحد الباحثين؛ حاول أن يميز بين عبارة الحمدلة وبين تلك التوقيعات، ثم حدد تسمية: "طغراء" في ذلك التوقيع الذي يرتبط بعبارة: "الحمد لله وحده"، التي جرت العادة بأن تُكتب بحروف معقدة[38]، وبعد استنتاجه هذا؛ رجّح أن السعديين اقتبسوا هذا النوع من التوقيعات عن الأتراك[39].

ويعضد هذا الرأي؛ ما نقله مارمول كاربخال عن فيليب الثاني ملك اسبانيا عند حديثه عن مكان وضع الطغراء في رسائل السعديين المتأخرين الذين طلبوا مساعدته، ففرض عليهم - مقابل ذلك - وضع طغراواتهم في هامش الوثيقة بوضعية احتقارية"[40]. (راجع شكل: 158 وشكل: 160). وفي تعليقه على استعمال الطغراء في الوثائق السعدية؛ يقول فيليب: "**وهذه عادة كانت عند الملوك الأتراك ودخلت على يد عبد الملك الى المملكة، وأنا متيقن أنها لم تكن معروفة من قبل.. وأنا لم أرها مطبقة لحد الآن..**"[41].

ونحن وإن كنا نتفق معه في أن الطغراء كانت عادة عند الملوك الأتراك، فإننا لا نتفق معه في دخولها على يد عبد الملك إلى المغرب، والدليل هنا واضح وبديهي؛ يتجلى بوضوح في: النماذج الطغرائية التي درسناها والتي يرجع استعمالها إلى عهد كل من: أحمد الأعرج وأخيه محمد الشيخ المهدي (راجع الأشكال: 62 - 63 - 64 - 65)، حيث كانت الطغراء - آنئذ - تُرسم باسم السلطان، وظلت كذلك إلى عهد محمد المتوكل، لتحل عبارة الحمدلة محل اسم السلطان في رسم الطغراء السعدية اعتبارا من عهد أحمد المنصور الذهبي.

إضافة إلى ماقلناه، نستدل أيضا بتنوع العبارات التي وظّفها السعديون إلى جانب الحمدلة في توقيع رسائلهم كما مر بنا، وهي عبارات - طغرائية كانت مستعملة في المغرب قبل ظهور الدولة العثمانية. ولعل هذا التنوع في اختيار العبارات من طرف السعديين، هو ما جعل طغراواتهم تعرف أيضا تنوعا وإثراء كبيرين في صورها، وذلك تبعا لطبيعة العبارة الموظفة في رسمها، ولتفسير ما قلناه نقترح (الشكل: 168). وهو عبارة عن لوحة جمعنا فيها أشكالا طغرائية متنوعة لعبارات مختلفة.

خلافا لذلك؛ ارتبطت الطغراء عند الأتراك بكتابة أسماء السلاطين دون غيرها، وخاصة في فرماناتهم، مما جعل شكلها على صورة واحدة، تلك الصورة التي لم تتطور إلا بحكم السيرورة التاريخية،

---

38 - حركات (ابراهيم)، السياسة والمجتمع في العصر السعدي، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، طبعة: 1987م، ص 189

39 - المرجع نفسه، ص 189

40 - Balagna Josée. Deux lettres inédites du Sultan sa'adien Mūlay 'Abdallah ibn Muh'ammad al-Chaykh PP 19 -25

41 - راجع سعلة، تاريخ الأوقاف الإسلامية بالمغرب في عصر السعديين، ج/1، ص. 307

وليس بحكم تعدد العبارات الموظفة في رسمها خلال مرحلة معينة، ودليلنا في ذلك، هو أنه كلما تم تجويد صورة معينة للطغراء العثمانية؛ بفضل تراكم التجارب الفنية، إلا وتم التخلي عن الصورة التي سبقتها، تماما كما هو الشأن بالنسبة للناسخ والمنسوخ في الكتاب والسنة، وهكذا دواليك، إلى أن وصلت إلى صورتها النهائية، التي أبدعها مصطفى راقم (1171 1241هـ/1758 1826م)، والتي أصبحت الشكل المثالي الوحيد الذي يتداوله الخطاطون فيما بينهم إلى الآن.

بخلاف العصر السعدي الذي تم فيه تبني صور متعددة للطغراء في المرحلة نفسها، تبعا لتعدد العبارات المستعملة في رسمها كما قلناه آنفا. وحتى يكتمل وجه المقارنة، سقنا في (الشكل: 169) نماذج لطغراوات عثمانية، مرفقة بصور افتراضية للسلاطين الذين كتبت بأسمائهم، وقد قمنا بجمعها - هي الأخرى - في لوحة واحدة معبرة، وفق نمط كرنولوجي تراتبي، حيث تم تمييز أسماء السلاطين الذين كتبت لهم بألوان مغايرة، وذلك حتى يسهل التفريق بينها وبين جسم الطغراء. وقد وردت هذه الطغراوات الرمزية موزعة في 70 صفحة في كتاب حُرِّرت نصوصه وتعليقاته باللغات: العربية والانجليزية والألمانية، وهو كتاب يُعرِّف بالسلاطين العثمانيين وطغراواتهم المستعملة[42].

---

[42] Osmanlı Padısahları Ottoman Sultans – Osmanısche Herrscher. Portreleri bıyografileri tugralarıyla Tarıh ve Medenıyet P P 8 - 78

احمــــــد الحسنـــــي

طغراء احمد الاعرج من رسالة له الى جان الثالث
بتاريخ 24 صفر 932هـ

امير المومنين ابي محمد بن محمد الامير الشريف الحسني

طغراء مستخرجة من خاتم عبد الله الغالب السعدي
في رسالة له الى انطوان دوبوربون سنة 966هـ

محمــد بن عبد الله الحسنــي

طغراء محمد المتوكل بن عبد الله الغالب السعدي من رسالة له إلى
جوان دي موليتا بتاريخ: 10 رمضان 985هـ

طغراوات سعدية استعمل فيها اسم: "السلطان" + النسب "الحسني"

طغراء احمد المنصور الذهبي من رسالة له الى
ملكة بريطانيا في 19 شعبان من سنة 998هـ

طغراء زيدان السعدي من رسالة له الى فليب الثالث
في ربيع الثاني من سنة 1017هـ

طغراء زيدان السعدي من رسالة له بالفرنسية
تحمل تاريخ 20 رمضان 1023هـ

طغراء من رسالة لمحمد الشيخ المامون
(1019-1022هـ)

طغراء ملك فاس محمد الشيخ المامون السعدي
(1019-1022هـ) من رسالة له الى حاكم فلورنسة

طغراء محمد الاصغر بن زيدان السعدي
من رسالة له تحمل تاريخ: 1046هـ

طغراوات سعدية استعملت فيها عبارة: "الحمد لله وحده" + النسب "الحسني"

جزء من خاتم طغرائي وظف في رسمه اسم المنصور الذهبي ونسبه

طغراء مستخرجة من اول خاتم استعمله أحمد المنصور
في رسالة له إلى جون بنتون بتاريخ: أوائل شوال 986هـ

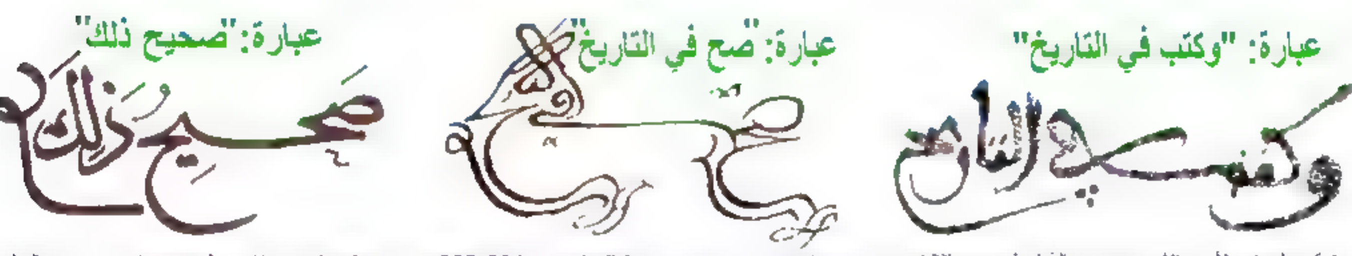
جزء من خاتم طغرائي منسوب لزيدان السعدي, وظفت في رسمه عبارة الحمدلة

طغراءمستخرجة من خاتم لزيدان السعدي في رسالة له
الى هولندا تحمل تاريخ 20 ربيع الأول 1031 هـ

جزء من خاتم طغرائي منسوب لمحمد الاصغر, وظفت في رسمه عبارة الحمدلة

طغراءمستخرجةمن خاتم لمحمد الاصغر بن زيدان في رسالة له
الى هولندا تحمل تاريخ: 30 رمضان 1048هـ

طغراوات مقتبسة من خواتم سلطانية سعدية استعملت فيها عبارات مختلفة



توقيع طغرائي لأحمد الأعرج من رسالة له الى جان الثالث
بتاريخ 23 ربيع الاول 936هـ

توقيع طغرائي لابي مروان عبد الملك الغازي (984-986هـ)
بعد بطل معركة وادي المخازن من رسالة له بالحروف اللاتينية

توقيع طغرائي لاحمد المنصور الذهبي من رسالة له
الى فليب الثاني سنة 1003هـ

توقيعات سعدية، استعملت لتصحيح الوثائق والمصادقة عليها من طرف السلطان

لوحة معبرة جمعنا فيها صورا مختلفة للطغراء المغربية، استخرجناها من مختلف الوثائق السعدية.
حيث يبدو الاختلاف الطفيف بين صورها الذي تحكمت فيه طبيعة العبارات الموظفة في رسمها.
شكل: 168



لوحة معبرة جمعنا فيها طغراوات عثمانية، مرفقة بصور افتراضية للسلاطين الذين كتبت لهم، حيث تظهر أسماؤهم بألوان مغايرة، وذلك حتى يسهل تمييزها عن اللون الذي رسم به جسم الطغراء.

شكل: 169

الباب الخامس

التشريح الفني للطغراء والأختام السعدية وتفكيك عناصرها

(دراســــة مقارنــــة)

في البداية نشير إلى أننا وإثر دراستنا للطغراء السعدية، سنقوم بالتأطير التاريخي لكل أنموذج اقترحناه في هذا الباب، وذلك حتى لا نقع في شَرَك **"الإسقاط التاريخي"** الذي وقع فيه بعض الباحثين المشارقة، هؤلاء الذين وأثناء قيامهم بإجراء مقارنة بين الخطين: المشرقي والمغربي، نجدهم يتجاهلون الهامش الزمني الكبير الذي يفصل بين تلك النماذج المقارن بينها. والذي فاجأني في معظم الدراسات المشرقية للخط المغربي، هو وضع نماذج قديمة للخط المغربي تنتمي إلى العصرين الموحدي أوالمريني، وربما إلى العصر المرابطي إلى جانب نماذج خطية مشرقية معاصرة؛ تطورت عن خطوط أوأنماط فنية كان معظمها غير رائق في مراحل تلك النماذج المغربية المقارنة بها.

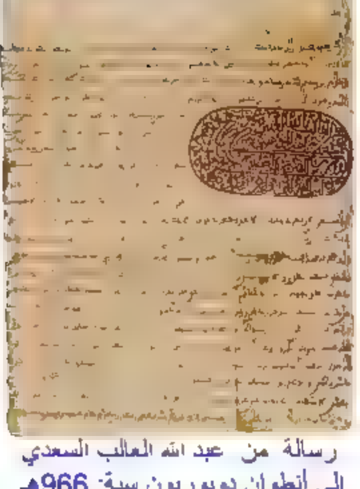
ونحن إذ نتكلم عن الطغراء المغربية في هذا المقام، نشير إلى أن المقارنة بينها وبين الطغراء العثمانية، لن تكون صحيحة على إطلاقها، والصحيح؛ هو أن تكون المقارنة بين أنموذجين متزامنين أومتقاربين زمنيا، وهذا ماسنقوم به في هذا الباب، حيث سندرج نماذج لطغراوات سعدية؛ إلى جانب طغراوات عثمانية مزامنة لها (انظر شكل: 170 وقارنه بشكل: 171). أما أن نقارن بين الطغراء العثمانية المتطورة التي تم تلطيف أشكالها حتى وصلت إلى صورتها المثالية، وبين طغراء مغربية لم يُكتب لها الاستمرار، فانحسرت في زمانها بسبب عدة عوامل؛ يتجلى أهمها في: العامل السياسي الذي يفسره عدم استقرار الأسر الحاكمة في المغرب، فهذا لا ريب، يوقعنا في الإسقاط التاريخي الذي يجعل من المقارنة مقارنة باطلة. تماما كما لو قارنا طغراء أبي المعالي زيدان المزخرفة التي سندرسها، بأولى الطغراوات العثمانية السابقة لها في التاريخ، والتي حاولنا جمعها في لوحة واحدة (انظر شكل: 172. وقارنه بشكل: 198). فلا غرْو إذن أن تُظهر هذه المقارنة الطغراوات العثمانية؛ في صور فنية تفتقد لأبسط مقومات الجمال الفني، إذا ما قورنت بالطغراء السعدية المذكورة، التي لا تنتمي إلى الفترات التاريخية نفسها التي تنتمي إليها تلك الطغراوات. فما ينطبق إذن على هذه المقارنة، يجب أن ينطبق على المقارنة التي سنجريها بين طغراء زيدان السعدي - التي اتخذناها كأنموذج - والطغراوات العثمانية التي ينبغي أن تكون مزامنة لها، إذ لا يصح أن نقارن بين الطغراء الزيدانية وبين الطغراوات المتأخرة كالتي رسمها راقم، أو سامي أو غيرهما من أعلام الخط العثمانيين. والذي يصح؛ هوأن تكون المقارنة بينها وبين الطغراوات التي كانت مزامنة لها أو مقاربة لزمنها، كطغراء: "سليمان القانوني" أو"مراد الثالث" أو"أحمد الأول" أوغيرهم من السلاطين الذين كانوا قريبين من تلك المرحلة، وذلك حتى نخرج بحكم قيمي موضوعي من تلك المقارنة.

بناء على ما سبق، وبالاستناد على الشكل: 170، سنحاول - إذن - تحليل الطغراء السعدية تحليلا فنيا، وذلك بفك رموزها من خلال اقتراحنا لثلاثة نماذج منتقاة للدراسة، نذكرها كما يلي:

1 - **الأنموذج الأول**: (شكل: 173).

2 - **الأنموذج الثاني**: (شكل: 184).

3 - **الأنموذج الثالث**: (شكل: 198).



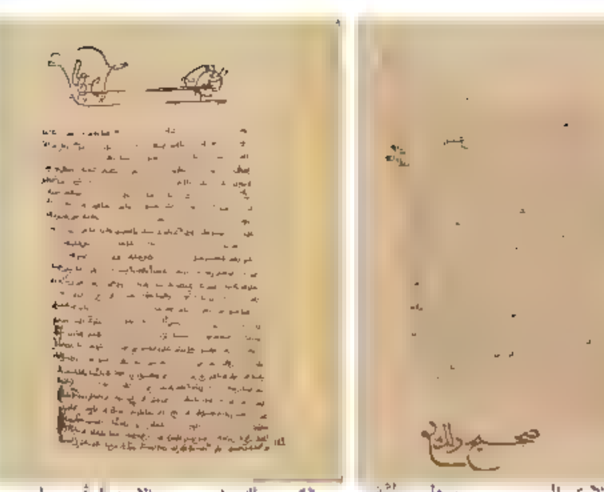
رسالة من عبد الله الغالب السعدي الى أنطوان دوبوربون سنة: 966هـ مختومة بالخاتم الطغرائي الخاص بهذا السلطان



رسالة لاحمد المنصور الذهبي الى ملكة بريطانيا في 19 شعبان سنة: 998هـ

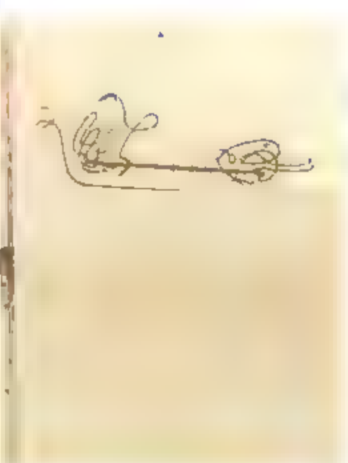


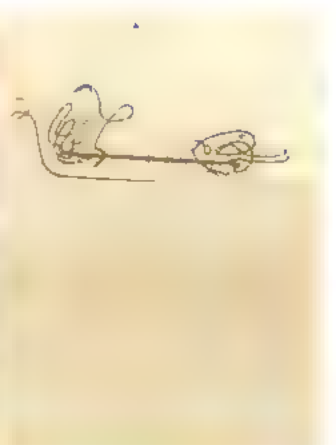
بعض مراسلات المنصور مع فليب الثاني يظهر من خلالها الاستعاضة عن رسم الطغراء بكلمة: "صحيح ذلك" المختومة بإنهاء المشكلة لجسم الطغراء الدالة على كلمة "انتهى"



رسالة من ملك فاس محمد الشيخ المأمون السعدي (1019-1022هـ) الى حاكم فلورنسة

صورة للترجمة العربية التي حررها صاموبل بالاس كديباجة للمعاهدة المغربية الهولندية التي ابرمت بلاهاي يوم 8 دجنبر 1019 والتي صادق عليها المولى زيدان بن المنصور يوم 24 محرم 1020هـ بمراكش





ترجمة فرنسية لرسالة لزيدان بتاريخ 20 رمضان 1023هـ

رساله زيدان السعدي الى الولايت العامه في 24 شوال 1025هـ

رسالة زيدان السعدي الى الولايت العامة في سنة : 1033هـ

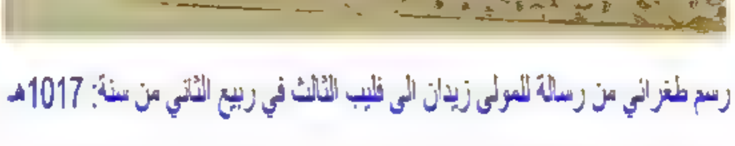


رسالة زيدان السعدي الى الولايت العامة في سنة : 1033هـ



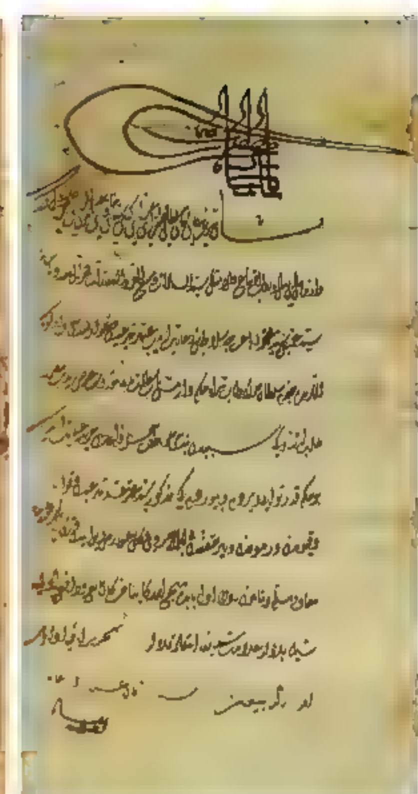
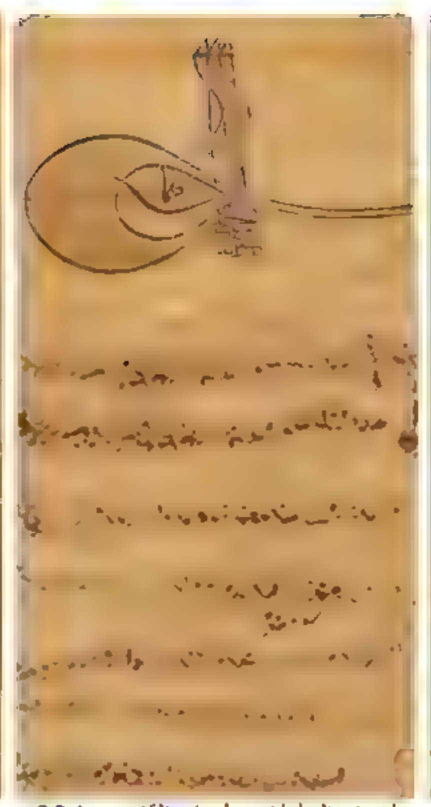
رسم طغرائي من رسالة للمولى زيدان الى فليب الثالث في ربيع الثاني من سنة: 1017هـ

رسالة محمد الاصغر بن زيدان السعدي في جمادى الثانية سنة 1046هـ

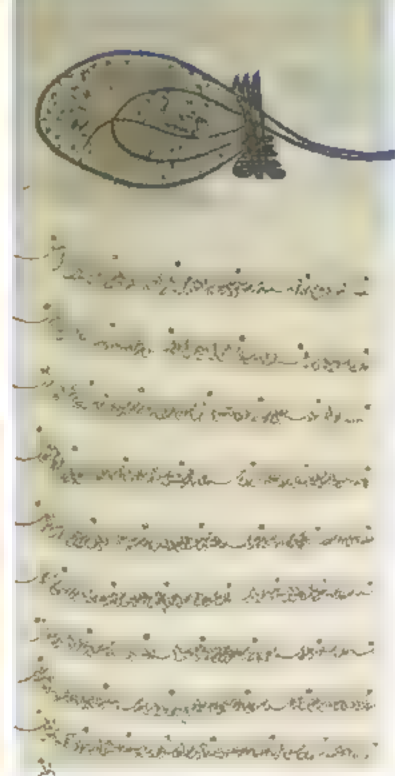


لوحة تركيبية تمثل وثائق سعدية تبين اعتماد الطغراء في المراسلات الرسمية كسمة بارزة ومميزة للسلاطين السعديين ودالة على سيادة الدولة ومناعتها

شكل: 170


طغراء السلطان سليم الاول. 918هـ طغراء السلطان سليمان القانوني.934هـ طغراء السلطان سليم الثاني 977هـ

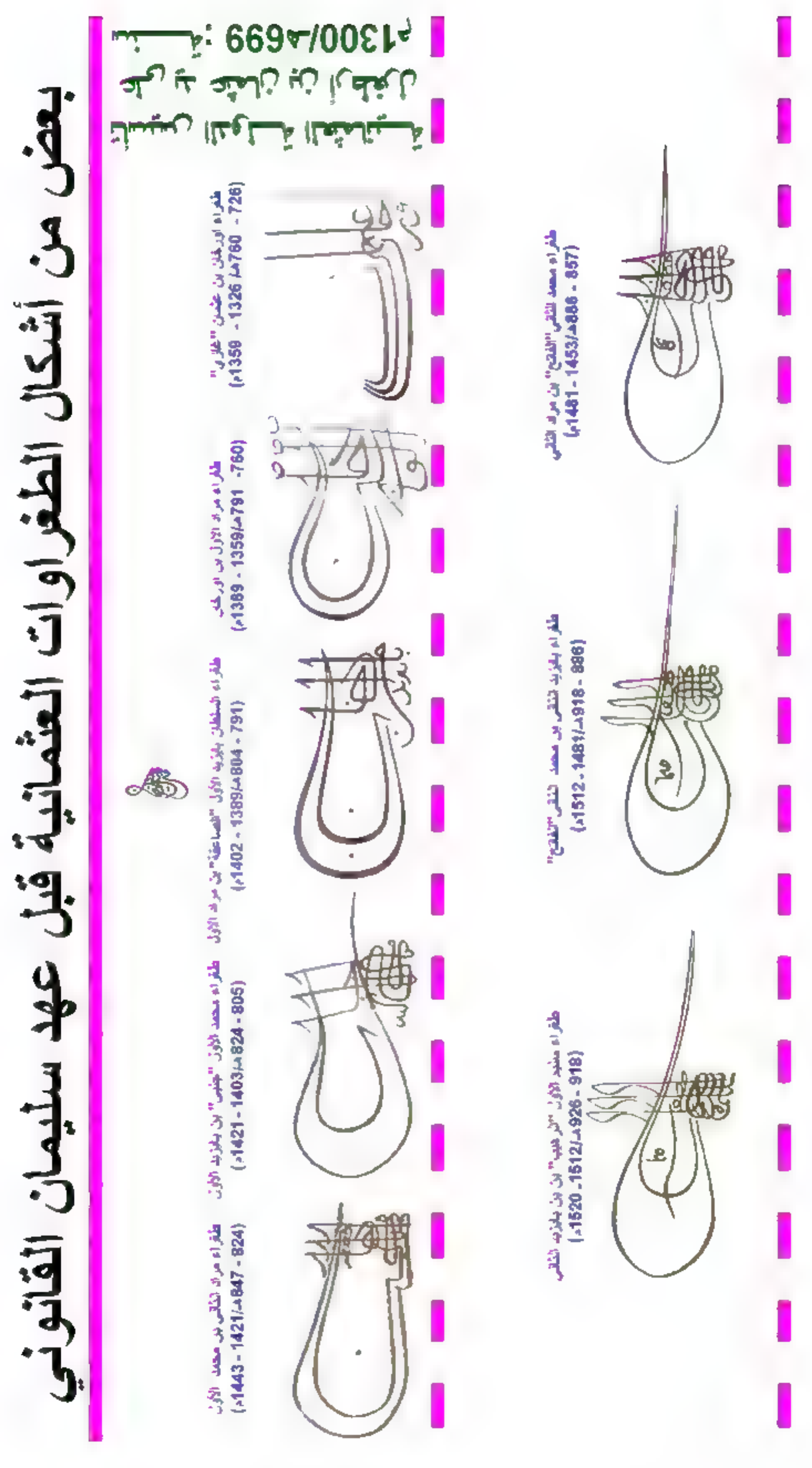

طغراء السلطان مراد الثالث 983هـ طغراء السلطان محمد III. 1004هـ طغراء السلطان أحمد الاول1013هـ

طغراوات عثمانية متزامنة مع عصر الدولة السعدية

المصدر: متحف الفنون التركية والإسلامية - متحف طوب كابي سراي - متحف شكيب صبانجي

استـــانبـــول

شكل: 171



بعض من أشكال الطغراوات العثمانية قبل عهد سليمان القانوني.
مستخرجة من (الأشكال: 69 - 70 - 71 - 72 - 73 - 74 - 75).
شكل: 172

الأنموذج الأول: الخاتم الطغرائي الخاص بالسلطان السعدي عبد الله الغالب (شكل: 173):

1 - عرض الوثيقة وتشريحها:

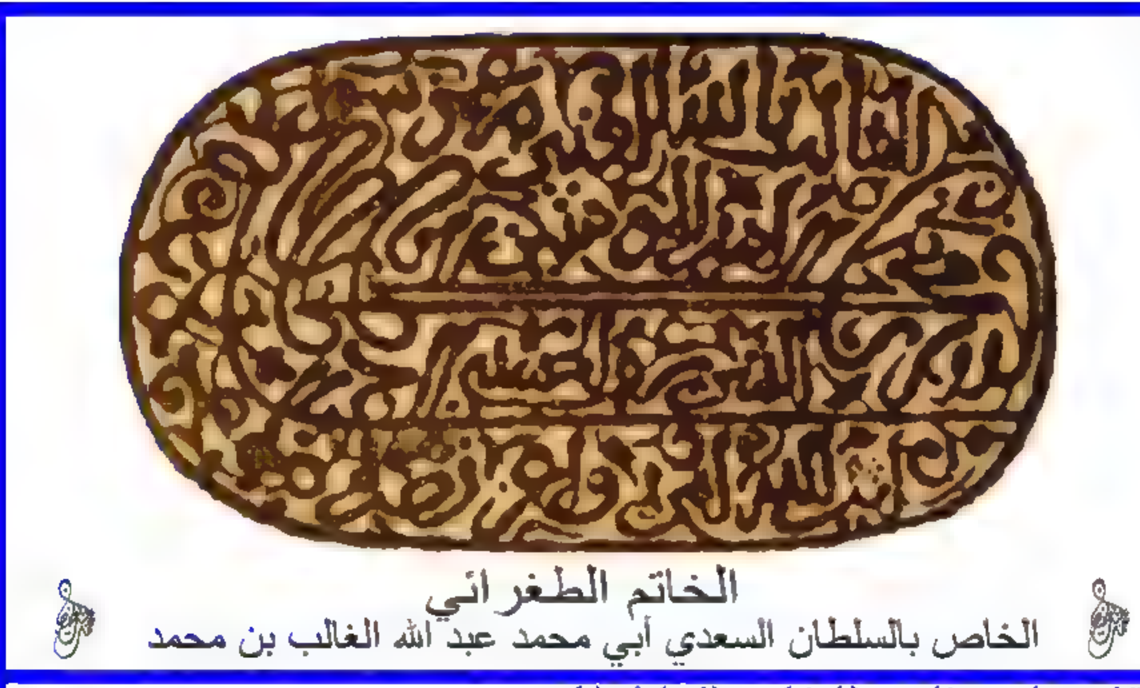


رسالة تأمين وأمان من عبد الله الغالب السعدي إلى أنطوان دوبوربون

في أواخر رمضان 966هـ/يونيو 1559م

المصدر: أرشيف الخزانة البلدية لمدينة أنغوليم (Angoulême)، منطقة بواتو شارنت، جنوب غرب فرنسا

شكل: 173

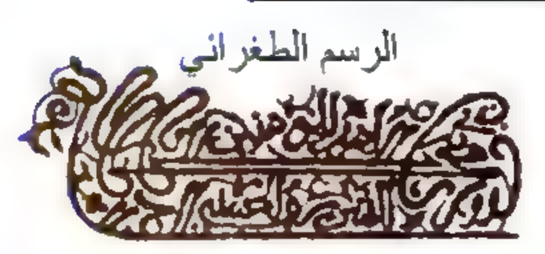


الخاتم الطغرائي

الخاص بالسلطان السعدي أبي محمد عبد الله الغالب بن محمد

تفكيك عناصر الخاتم الطغرائي
وقراءة نصوصه بالتتابع :

الرسم الطغرائي



تفصيل نص الرسم الطغرائي بالألوان

النص المرفق الأول

النص المرفق الثاني

الغالب بالله الغني به عمن سواه

أمير المومنين
أبي محمد
المشريف الحسنى

أيد الله أمره وأعز نصره

هاء جامعة ترمز إلى كلمة : "انتهى". أي : انتهى النص.
وهي العنصر الاساسي والبنيوي الذي يشكل جسم الطغراء .

تشريح الخاتم الطغرائي الخاص بالسلطان السعدي أبي محمد عبد الله الغالب بن محمد
مقتبس من رسالة أرسلها إلى أنطوان دوبوربون في: أواخر رمضان 966هـ/يونيو 1559م

شكل: 174


الخاتم السلطاني
تفصيل:
التوقيع المستخرج:
توقيع عبد الله الغالب السعدي استخرجناه من خاتمه السلطاني
تشريحه:
قراءته:
أمير المومنين
ابي
الأمير الشريف الحسنى



مقارنتـــــــــه:



توقيع عبد الله الغالب السعدي استخرجناه من خاتمه السلطاني



الخطاط العثماني: محمد شفيق



الخطاط البغدادي: الملاّ علي الملقب بصابر، أستاذ هاشم الخطاط



الخطاط البغدادي: محمد هاشم

مقارنة بين الطغراء الزورقية لعبد الله الغالب السعدي والأشكال الزورقية في الخط الديواني الجلي المشرقي

ملاحظة: يجب استحضار الهامش الزمني الذي يجعل النماذج المشرقية متأخرة بـ: 4 قرون عن الأنموذج المغربي - السعدي. وقد كان الشكل الزورقي عند الأتراك يخصص لعبارة: "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم، يا مفتح الأبواب، افتح لنا خير الباب [هكذا، و الأصح: فتح لنا خير باب]"

شكل: 175

2 - وصف وتعليق ومقارنة:

كان استعمال الأختام الطغرائية شائعا في العصر السعدي؛ نظرا للقيمة الفنية الكبيرة التي احتلتها الطغراء، إلا أن هذه الأختام كانت تزيد عن الطغراء المجرّدة بإضافة نصوص مرفقة تتضمن اسم السلطان والدعاء له بالنصر والتمكين، وتركيب ذلك في شكل بيضوي يتوسطه الرسم الطغرائي كما لاحظناه من خلال الأنموذج المقترح في (الشكل: 173)، بينما كانت تُملأ الفراغات بزخارف نباتية متنوعة، وذلك حتى يبدو التركيب متماسكا (راجع الشكل: 174، وتشريحه ومقارنته في الشكل: 175). وغالبا ما كان السلاطين السعديون يستعملون هذه الأختام في التوقيع على رسائلهم الرسمية الموجهة إلى الممالك المسيحية وغيرها من القوى السياسية المزامنة لها، وذلك بعدما اتخذ كل واحد منهم أشكالا خاصة به، بخلاف الطغراء التي كان شكلها ثابت لم يتغير، لأنها كانت توقيعا وراثيا يُعبر عن سيادة دولتهم.

وعلى العموم، فقد جمعنا في (الشكل: 180) مجموعة منوعة من الأختام الطغرائية الخاصة بثلة من سلاطين الدولة السعدية، مرفقة بتشريحها الفني، ويُلاحظ من خلال الشكل المذكور أن مظاهر التجويد في هذه الأختام المتأخرة بادية للعيان، فلو أخذنا على - سبيل المثال - الخاتم الطغرائي الخاص بالسلطان السعدي: محمد الأصغر، لوجدناه أجود من حيث التركيب الفني، بالمقارنة مع أختام السلاطين السعديين الذين سبقوه، حيث تظهر الطغراء في وسط التوقيع ممشوقة القد، متناسبة الأجزاء، تتخللها زخارف نباتية بديعة، موزعة في الفراغات بشكل متوازن ومتناسق (انظر الشكل: 176 وتشريحه في الشكل: 177- انظر أيضا الشكل: 178 وتشريحه في الشكل: 179).

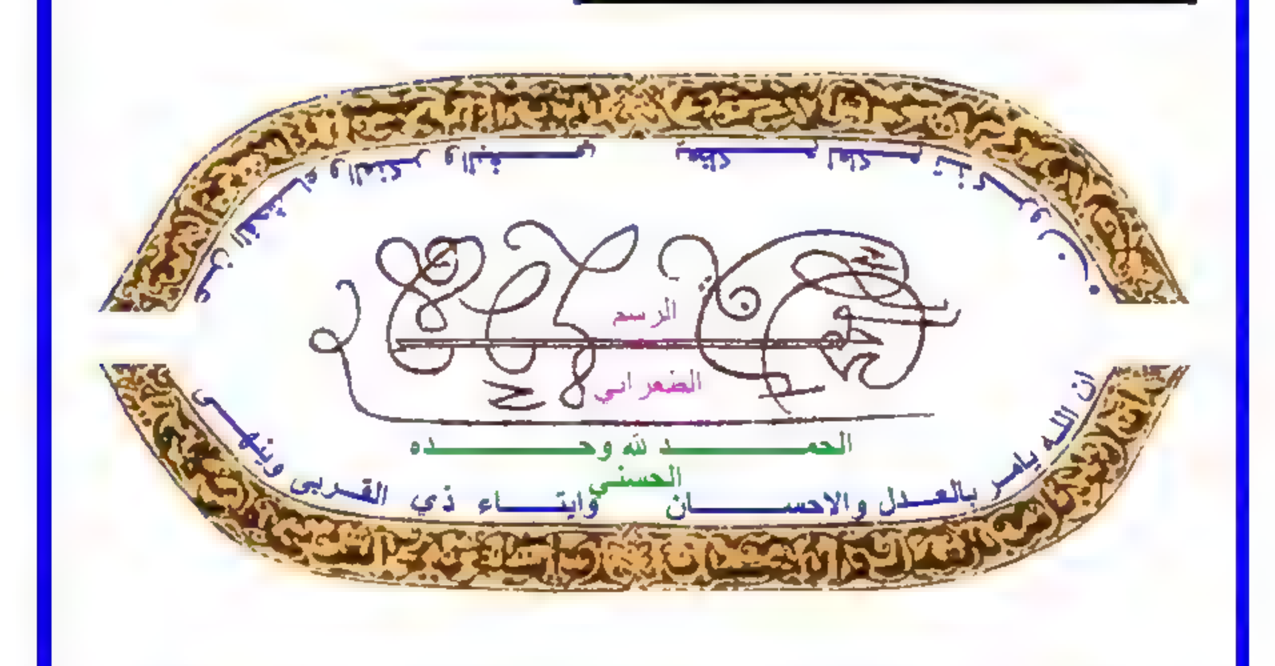
ومن خلال تأملنا لهذا الخاتم (نقصد الخاتم الممثل في الشكل: 176)، تسترعي انتباهنا ملامح بعض الحروف التي رُسمت بعناية فائقة، ووفق صور فنية مبتكرة، كحرف الهاء المتطرفة التي اتخذت شكلا "**مورّقا**" على غرار "**وحدات**" الزخرفة النباتية أو ما يسمى: "**بفن التوريق**"، حيث تم لفّها على نفسها ثلاث لفّات معقودة (انظر شكل: 176). وحتى نقف على مكامن ذلك الجمال، قمنا باستخراج الهاء المذكورة، وقارنّاها بهاء مشرقية تشترك معها في بعض الملامح الفنية، رغم أنها تختلف عنها في البنية الفنية العامة للحرف وكيفية كتابته (انظر شكل: 181). وقد كانت هذه "**الهاء المورّقة**" مستعملة في الطغراوات المشرقية منذ القرن: 14 الهجري، كما يدل على ذلك رسْمٌ طغرائي مبتكر؛ يتألف من عبارة: "**الله خالق كل شيء**"، رُكِّبت فيه ثلاثة أشكال بيضوية؛ مع ثلاث هاءات مورّقة في إطار دائري متسلسل يطبعه الاتساق والتناوب (انظر شكل 182). ولعل هذا الشكل؛ كان هو المُلهم الأول للطغرائيين في كل من بلاد فارس وزنجبار، حيث اعتمدوه في رسومهم الطغرائية (راجع الأشكال: 26 - 29 - 30 - 31).

ورجوعا بنا إلى الأختام السعدية، نشير إلى أننا وقفنا على رسالة سعدية لملك فاس: محمد الشيخ المأمون السعدي مؤرخة في سنة: 1013هـ/1604م. وهي رسالة فريدة في صفحتين، جمعت بين الطغراء التي رُسمت في طرة الصفحة الأولى، والخاتم الذي طُبع في طرة الصفحة الثانية (انظر شكل: 183)

خـــــاتم مستخـــرج من الشكل: 82

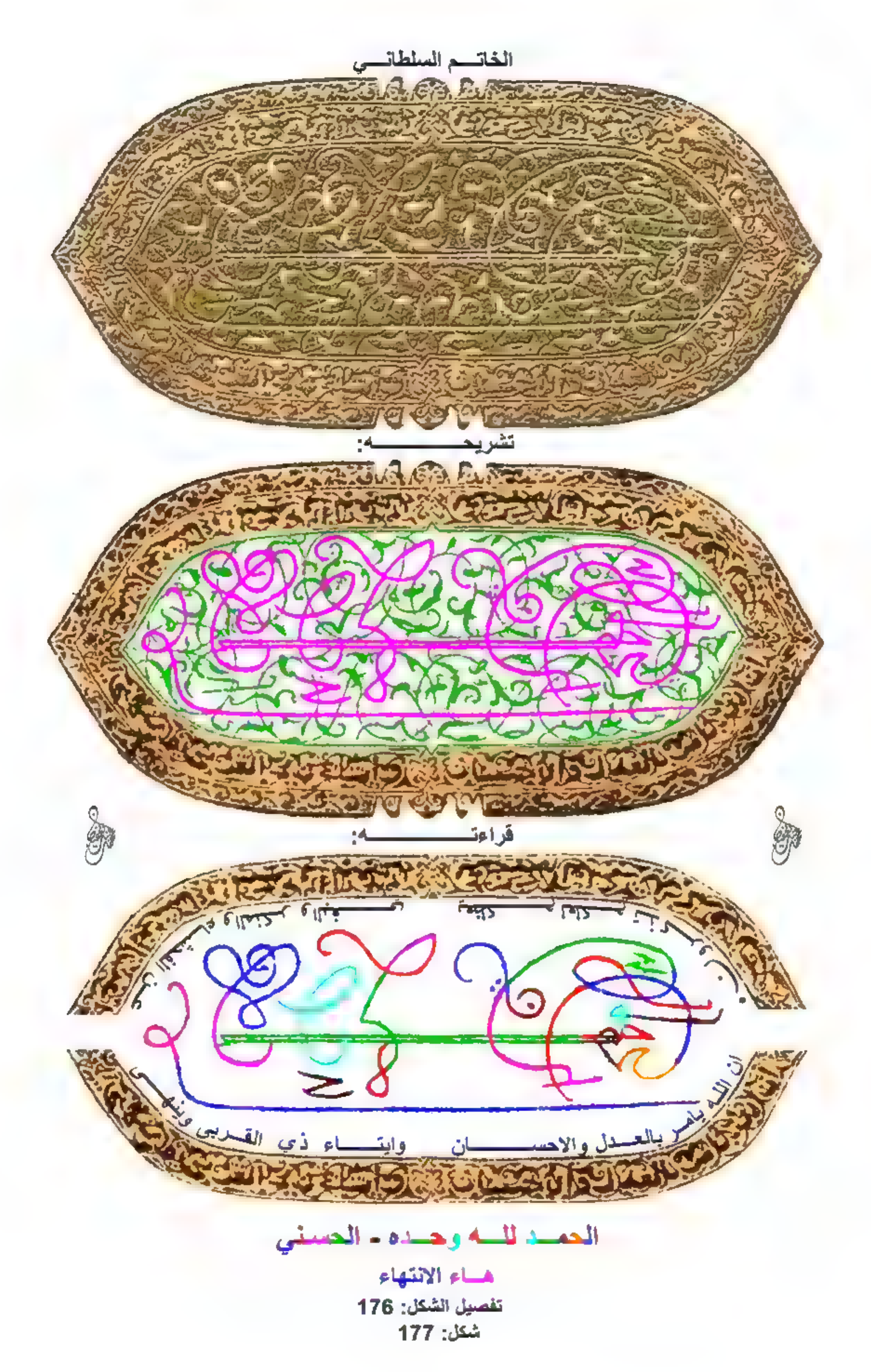


تفكيك عناصر الخاتم الطغرائي
وقراءة نصوصه بالتتابع :



تشريح الخاتم الطغرائي الخاص بالسلطان السعدي محمد الشيخ الأصغر بن زيدان
مقتبس من رسالة أرسلها إلى الولايات العامة بتاريخ: 1048هـ/1639م

شكل: 176



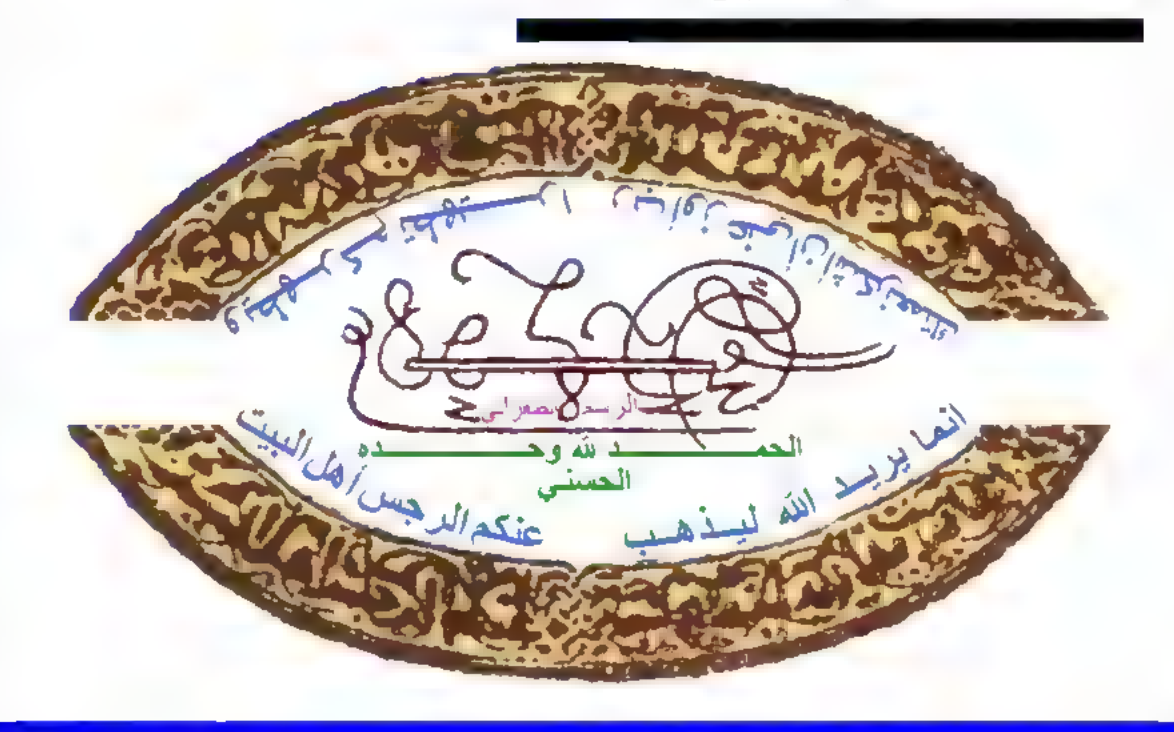
تفصيل الشكل: 176

شكل: 177

خـــــاتم مستخــــرج من الشكل: 81

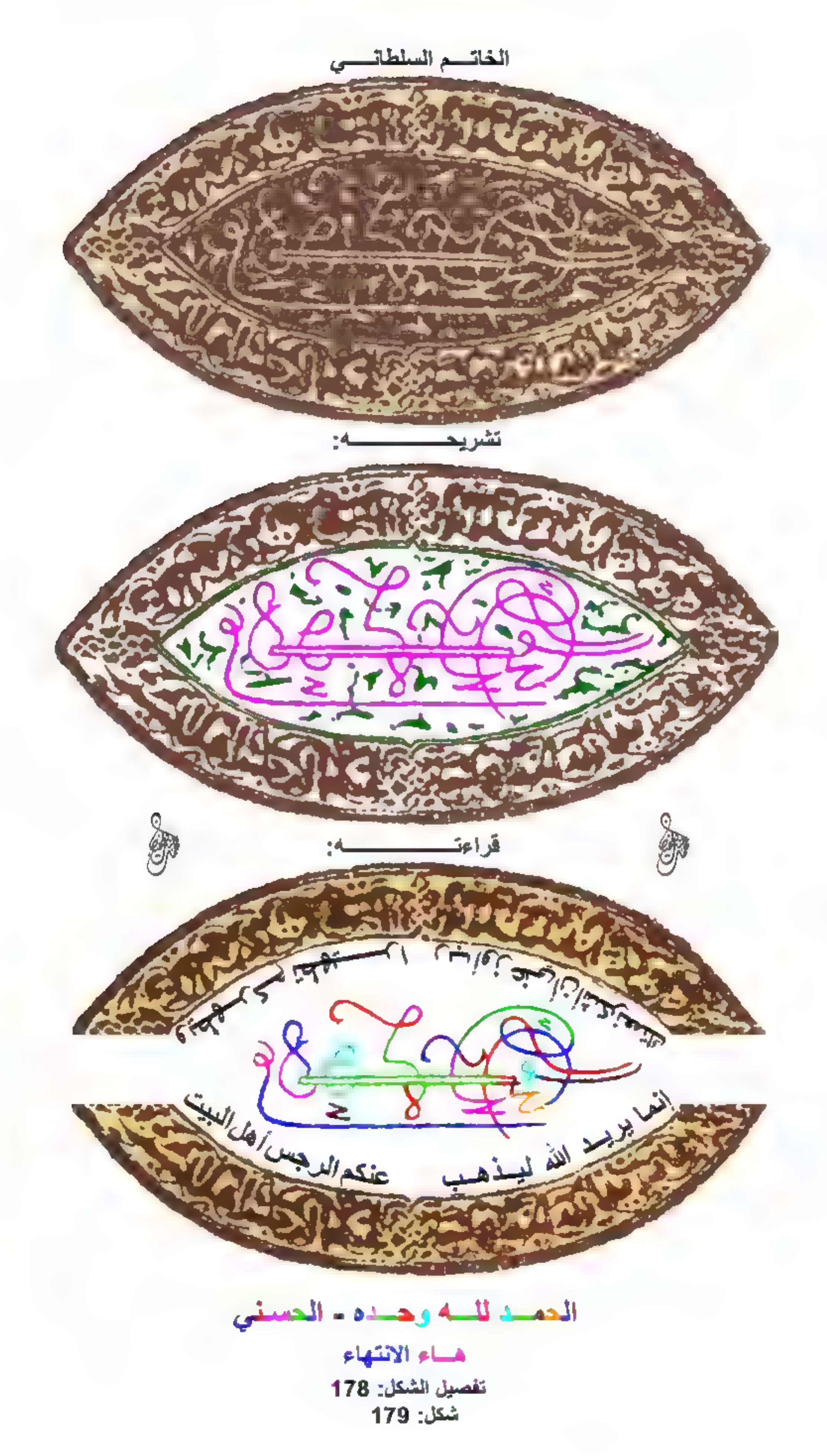


تفكيك عناصر الخاتم الطغرائي
وقراءة نصوصه بالتتابع :



تشريح الخاتم الطغرائي الخاص بالسلطان السعدي محمد الشيخ الأصغر بن زيدان
مقتبس من رسالة أرسلها إلى الولايات العامة بتاريخ: 20 ربيع الأول 1051هـ/29 يونيـو 1641م

شكل: 178



تفصيل الشكل: 178
شكل: 179



لوحة تمثل مجموعة من الأختام الطغرائية السعدية التي كانت مستعملة في المكاتبات الرسمية، مرفقة بتشريحها الفني

شكل: 180





الهاء المتطرفة - المورقة، وكيفية كتابتها خلال العصر المريني في اسم الجلالة
منقوشة على الخشب بخط الثلث المغربي - المريني. المدرسة البوعنانية - فاس



اتجاه معكوس لحركة سير القلم في الحرفين

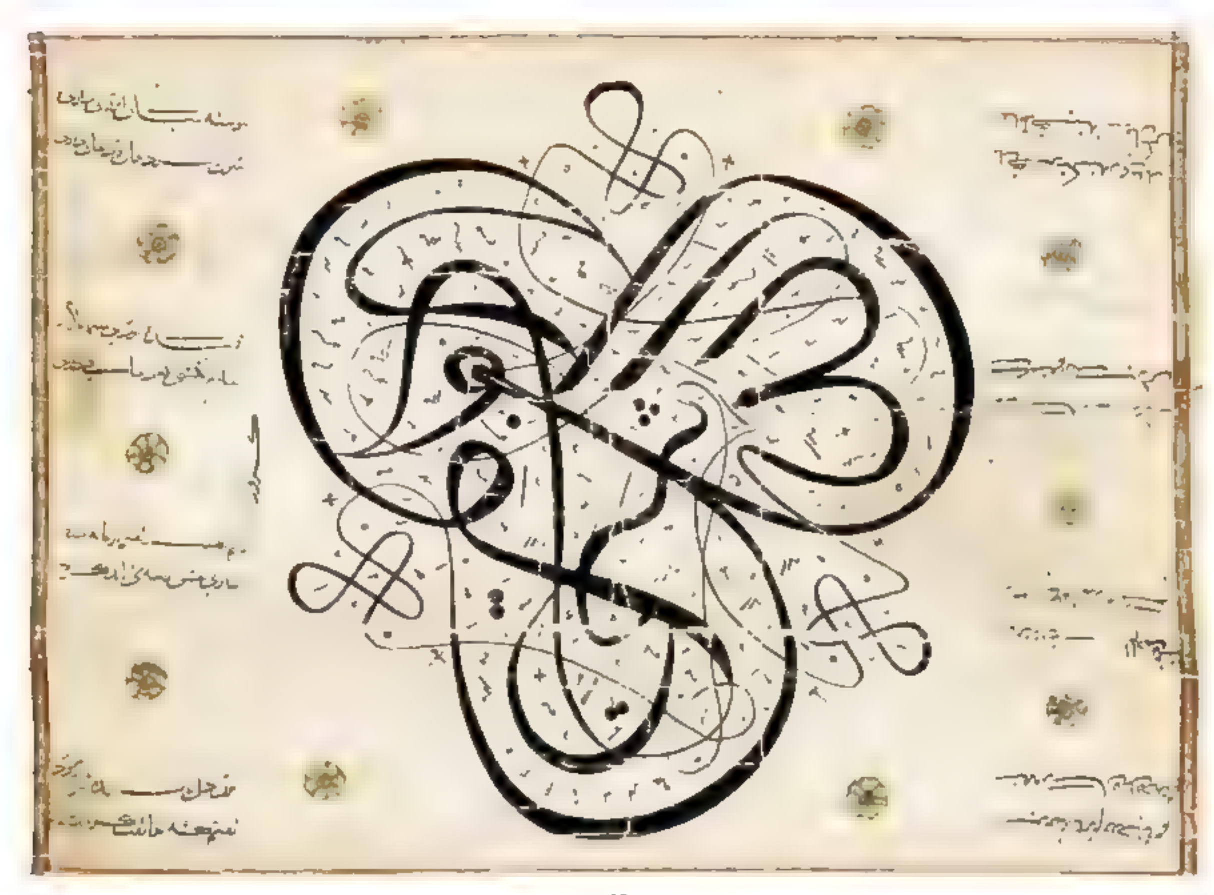
حرف الهاء المقتبسة من الخاتم الطغراني
الخاص بمحمد الأصغر بن زيدان السعدي
يبدو من خلالها الحرفان الأخيران من
عبارة الحمدلة. الدال و الهاء. مدغمين

حرف الهاء المقتبسة من كراسة
تعليم الخط العربي لهاشم الخطاط.
طبعة: 1986. صفحة: 34.

ملاحظة: يجب استحضار الفارق الزمني -الذي لايقل عن ستة قرون- قبل اصدار
احكام قيمية. تتعلق بمسألة التجويد الفني لصورة الحرف الذي عرفته كل من الهاءين

مقارنة بين حرف الهاء المتطرفة المورقة الواردة في اسم الجلالة بخط الثلث المريني، والخاتم الطغراني لمحمد الأصغر السعدي (شكل: 176)، وهاء مشرقية كُتبت في تاريخنا المعاصر، لها نفس الملامح الفنية تقريبا. رغم تناقض كتابتهما فيما يتعلق بحركة سير القلم

شكل: 181



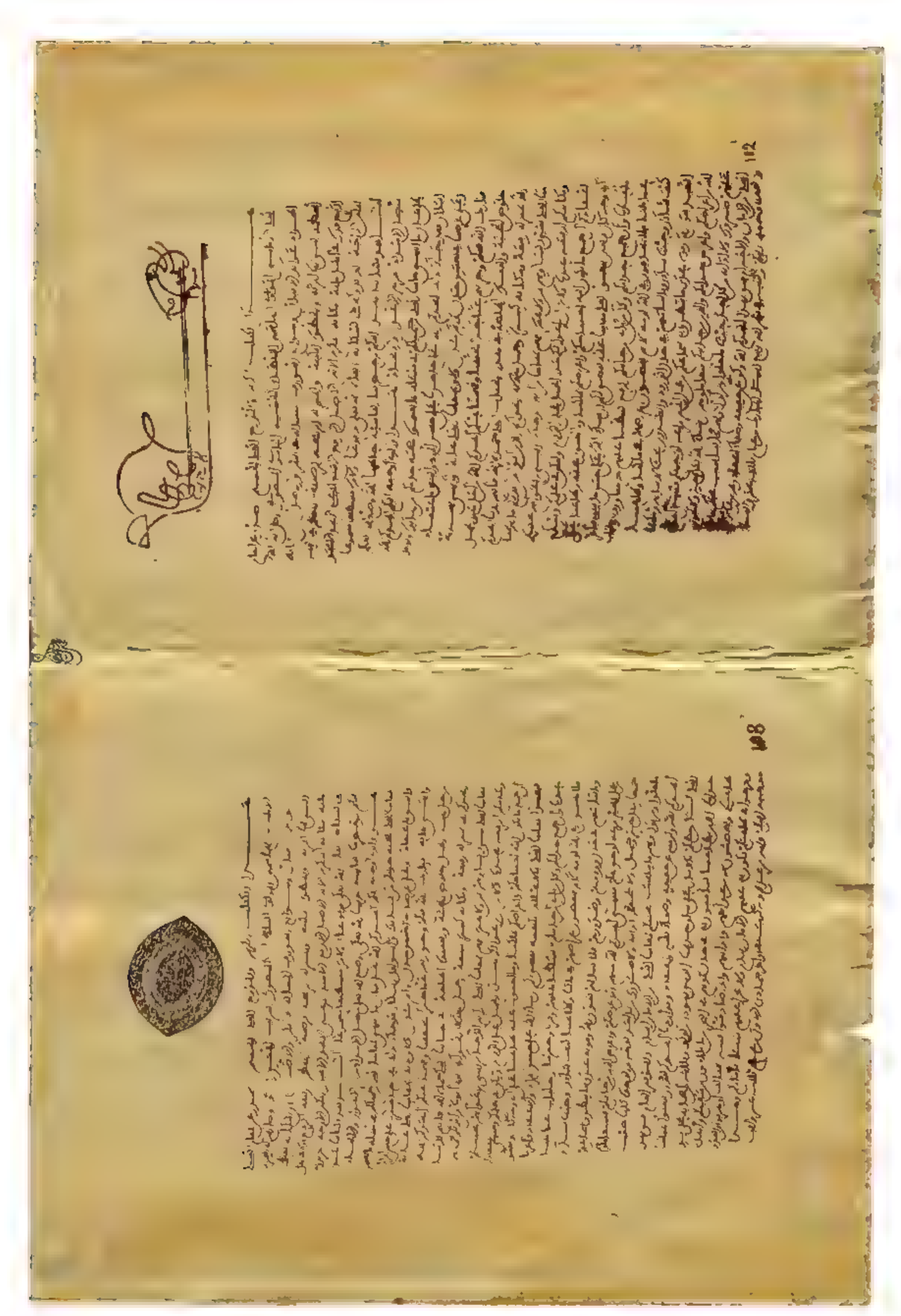


رسم طغراني ثلاثي البيضات، تأثّرت بشكله؛ الطغراوات الفارسية والزنجبارية، مُستخرجٌ من مخطوط يرجع إلى القرن: 14 الهجري، يُشكّ في نسبته إلى سورية أو بلاد الهند حسب المصدر المعني، تتداخل بيضاته الثلاث؛ مع ثلاث هاءات مورّقة في إطار دائري متسلسل يطبعه الاتساق والتناوب.

يتألف هذا الشكل الطغراني من عبارة: "الله خـــــــالق كل شـــــــيء"

المصدر: دار الآثار الإسلامية، مجموعة الصباح - دولة الكويت

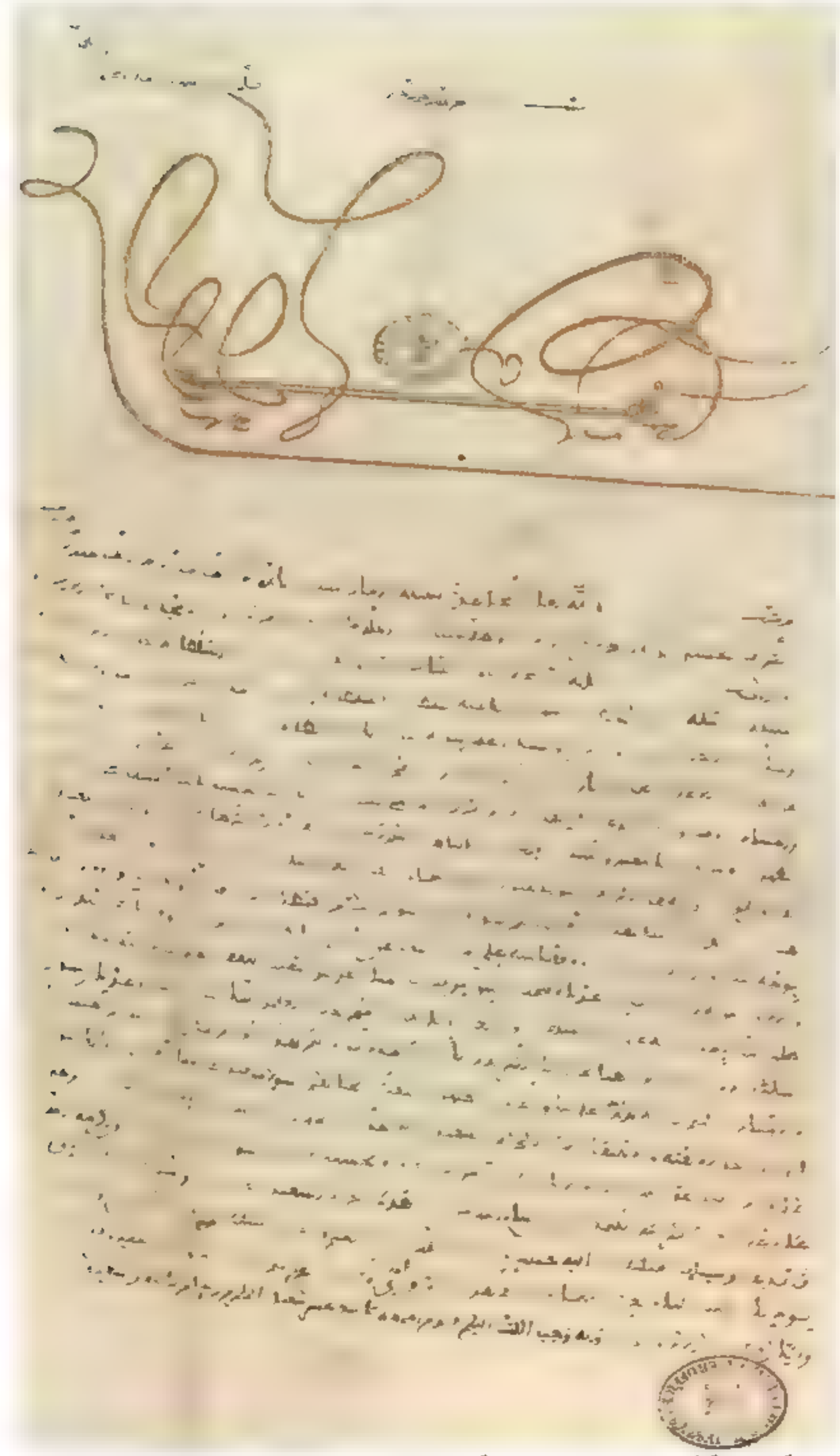
شكل: 182



رسالة سعدية مؤرخة في سنة: 1013هـ/1604م، تجمع بين التوقيع الطغرائي والخاتم السعدي، أرسلها ملك فاس: محمد الشيخ المأمون السعدي (1019 - 1022هـ/1610 - 1613م) إلى حاكم فلورنسة
شكل: 183

الأنموذج الثاني: طغراء أحمد المنصور الذهبي (شكل: 184):

1 – عرض الوثيقة وتشريحها:



رسالة مورخة في : 19 شعبان من سنة: 998هـ/23 يونيو1590م، بعثها السلطان السعدي أحمد المنصور الذهبي (986 - 1012هـ/1578 - 1603م) إلى ملكة بريطانيا إليزابيث

مصدر الوثيقة: ارشيف التاج البريطاني ـ مجموعة هويكنز. رقم: 5. ص: 4.

شكل: 184

وردت هذه الطغراء (العلامة) في إحدى رسائل السلطان أحمد المنصور الذهبي إلى ملكة بريطانيا بتاريخ: 19شعبان 998هـ/23 يونيو1590م[1]، وقد سبق و أوردنا الرسالة كاملة (في الشكل: 184). وحتى نربط هذه العلامة الطغرائية ببعض الروايات المصدرية، نشير إلى أن الفشتالي قد خصص في كتابه: 'مناهل الصفا' فصلا خاصا بتوقيعات هذا السلطان؛ عنونه بالعنوان التالي: "**توقيعاته أيده الله**"، حيث وصف من خلاله طغراء المنصور بأنها توقيعات سلطانية بديعة. يقول الفشتالي في ذلك: "**كانت تصدر عن مولانا أمير المومنين أيده الله؛ توقيعات نبيلة تتيه بها الرقاع وتتهاداها الأقطار والبقاع، يرمي بها إلى الأغراض؛ فيصيب فيها الكلا والمفاصل بأوجز لفظ وأرشق عبارة**"[2]. وفي سياق آخر، وسَم الفشتالي توقيع المنصور بأنه: "**علامته الكريمة التي خطتها يُمنى ابن النبي عليه السلام [في إشارة منه للنسب الشريف لهذا السلطان وآبائه]**"[3]، وتأكيدا منه على صحة ذلك النّسب واتصاله بالدوحة النبوية الشريفة، وسَمها في موطن آخر بـ: '**العلامة الكريمة المباركة المذهبة المنيرة المشرقة، التي خطّت فيها يمين الإمام، وبنان سبط النبي عليه السلام، اسمه الشريف المبارك الكريم، بتدبيج يبهر العيون حسنا ورواء وفخامة، ويسع منفسح البياض المعدّ لذلك مابين البسملة ومبدإ الخطاب الكريم**"[4]، ولا شك أن استعمال الفشتالي؛ عبارة: "**اسمه الشريف المبارك الكريم**" بعد عبارة: "**سبط النبي عليه السلام**"، هي إشارة صريحة للنسب الحسني الشريف، وليس إلى اسمه الشخصي كما أكدنا ذلك بشواهده وقرائنه في الأبواب السابقة[5]، وهي الشواهد والقرائن التي سنستكملها في هذا الباب حذو القذة بالقذة مع الدراسة التشريحية لهذه الطغراء:



طغراء أحمد المنصور الذهبي (مستخرجة من الشكل: 184)

وحتى نتمكن من معرفة العناصر النصية والفنية لهذه الطغراء الفريدة، قمنا بتفكيك رموزها، وإعادة ترتيب كلماتها، ثم تفريغها بالخط الإداري (انظر شكل: 185).

---

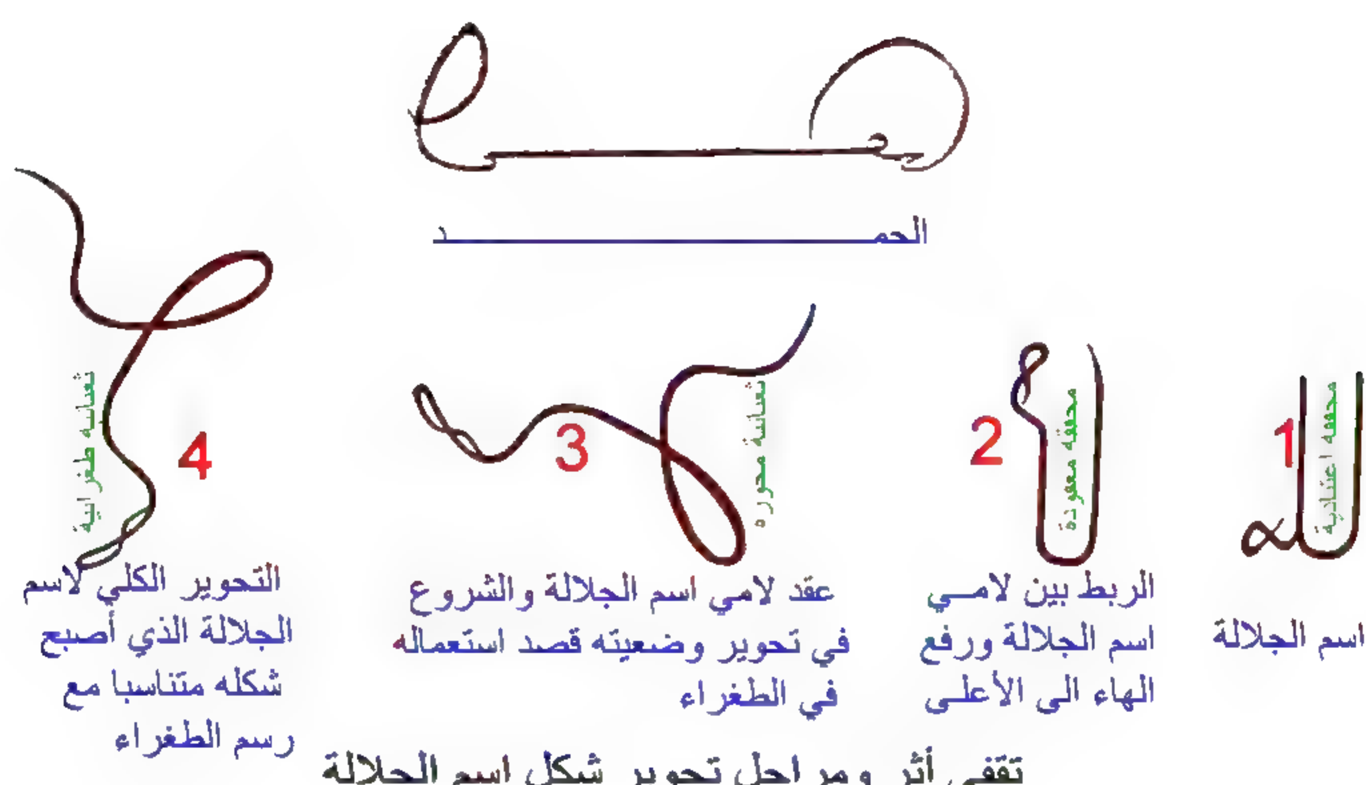
[1] - انظر فحوى الرسالة عند: - عبد الهادي التازي في كتابه: التاريخ الدبلوماسي للمغرب، المجلد الثامن، ص: 196

[2] الفشتالي، مناهل الصفا، ص: 299

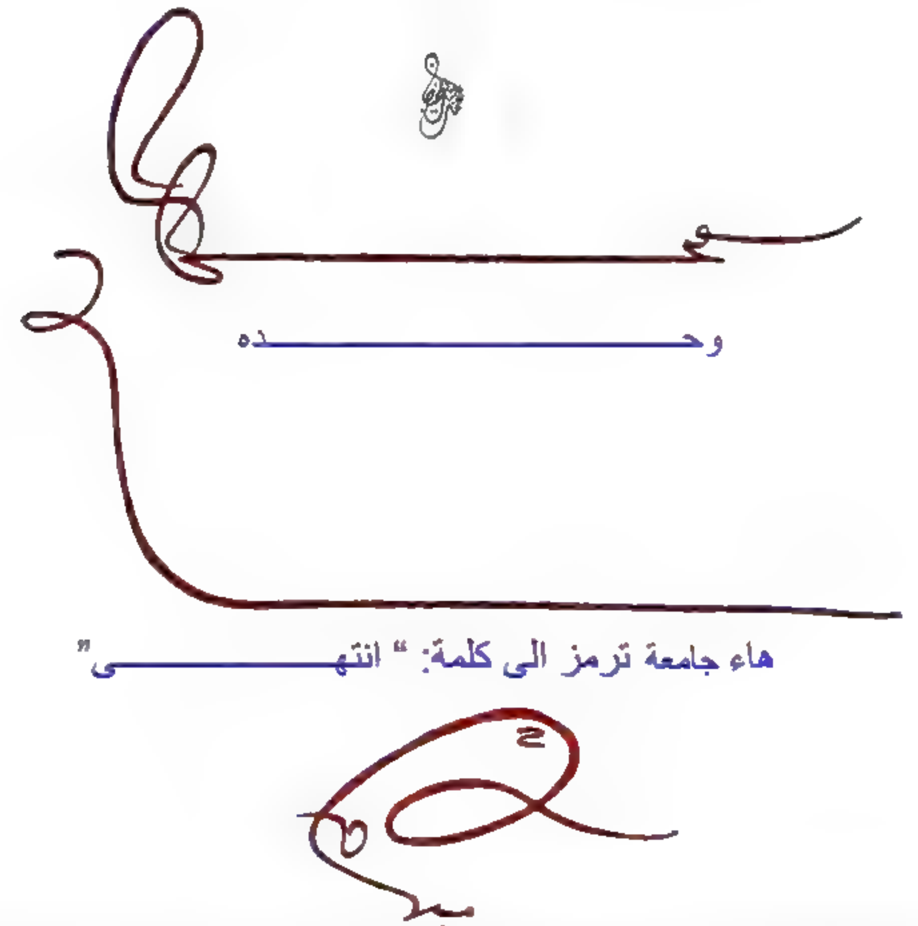
[3] - المصدر نفسه، ص. 80

[4] المصدر نفسه، ص: 131

[5] راجع على سبيل المثال لا الحصر في الباب الثالث من هذا الكتاب؛ الفرق بين "**طغراء اسم السلطان**" و"**طغراء الحمدلة**"، ص: 162



تقفي أثر ومراحل تحوير شكل اسم الجلالة



العلامة الرمزية للطغراء السعدية التي تم وضعها في الجزء الأيمن للطغراء حرصا على خلق نوع من التوازن المحوري وتعني كلمة: "الحسني". في اشارة الى النسب الشريف لسلاطين الدولة السعدية. الممتد الى الحسن بن علي رضي الله عنهما

تفكيك العناصر النصية والفنية لطغراء أحمد المنصور الذهبي، ثم تفريغها بالخط الإداري

شكل: 185

2 - وصف وتعليق ومقارنة:

بعد شروعنا في قراءة العناصر الفنية والنصية لطغراء أحمد المنصور الذهبي، أول شيء اصطدمنا به؛ هو صعوبة تفكيك تلك العناصر بسبب تشابكها وتداخلها وفق مسارات متاهية[6]، يصعب من خلالها التمييز بين نقطة البداية ونقطة النهاية في كتابة الكلمات المؤلَّفة منها، ويُعزى ذلك إلى المنهج المتّبع في تركيبها، وهو منهج فريد لا يستند إلى قاعدة معروفة - على الأقل في عصرنا هذا - على خلاف القواعد التركيبية التي قامت عليها الطغراء العثمانية، والتي تستند على قواعد متعارف عليها من طرف الخطاطين، توارثوها بالتواتر كابرا عن كابر، حتى وصلتنا بصورتها الحالية، أما الطغراء السعدية فقد انتهى استعمالها بصفة نهائية - تقريبا - على المستوى الرسمي؛ بمجرد قيام الدولة العلوية، الشيء الذي جعلنا أمام حلقة مفقودة يجب البحث عنها، ليس فيما يتعلق بالتطور التاريخي للطغراء السعدية فحسب، بل حتى فيما يتعلق بمحاولة قراءتها وتفكيك رموزها الملغوزة التي تخضع إلى قاعدة مجهولة، لم تصلنا بسبب العوامل المذكورة.

وعموما فإن هذه الطغراء؛ هي ما اصطلحنا على تسميته بـ: "**طغراء الحمدلة**" التي تم تبنيها اعتبارا من عهد أحمد المنصور الذهبي، أوبالأحرى بعد معركة وادي المخازن (986هـ/1578م)، وهي تختلف عن "**طغراء اسم السلطان**" التي كانت في عهود السلاطين الذين سبقوا المنصور كما أشرنا إلى ذلك بتفصيل كبير في الأبواب السابقة (عن "طغراء اسم السلطان"؛ راجع الأشكال: 62 - 63 - 64 - 65 - 66 - 67. وقارنها بـ: "طغراء الحمدلة" في الشكل: 184).

ومن باب المقارنة، نشير إلى أن أحد الخطاطين المشارقة المعاصرين، ألا وهو: **محمد هاشم البغدادي** (1339 - 1393هـ/1921 - 1973م)، قد استعمل عبارة: "**الحمدلة**" بالخط الديواني في "**تركيب - مركب متراكب**"؛ يتماهى مع الطغراء السعدية على مستوى النص (الحمدلة)، كما يتماهى أيضا - على مستوى الشكل - مع الطغراوات الفارسية والزنجبارية التي عُرفت بأشكالها البيضوية الثلاثة (راجع الأشكال. 26 - 29 - 30 - 31)، وقد أطلق حبيب الله فضائلي على مثل هذه الأشكال تسمية: "شبه طغرا"، بعدما أورد من بينها أنموذج محمد هاشم[7]، الذي أدرجنا لوحته الأصلية في. (الشكل. 186).

---

[6] - فكك دو كاستــر بعض أجزائها تفكيكا نصيا دون أن يدرسها دراسة فنية تشريحية، ونقل عنه ذلك بعض الباحثين دون إضافات تذكر، حيث لم يقدموا لنا توضيحات حول كيفية الكتابة ومسار القلم، بله أن يقدموا لنا بعض التفسيرات الفنية، علاوة على ذلك اعتبروا الشكل البيضوي الموجود يمين الطغراء مجرد علامة لم يتم التعرف على محواها، والحقيقة أن ذلك ليس بصحيح فبعد قيامنا بدراسة دقيقة للأحرف و تركيبتها، وضبط المسارات الحقيقية للقلم، وكيفية الربط بين الحروف، ومعرفة مواطن الابتداء والوسط ثم الطرف، توصلنا إلى أنها تدل على النسب الشريف للسعديين الذي تمثله كلمة. "**الحسني**"، وسقنا لذلك قرائن فنية وتاريخية

- للمقارنة، انظر

Henry de Castries, "Les signes de validation des chérifs saadiens", pp 242 - 243 - 244

انظر أيضا: سعلة، الذي نقل عن دو كاستــر، وتبنى رأيه دون محاولة معرفة مدلول الشكل البيضوي المتعلق بالنسب الحسني للسعديين. (تاريخ الأوقاف الإسلامية بالمغرب في عصر السعديين، ج/1، ص: 311 - 312)

[7] فضائلي، أطلس الخط والخطوط، ص. 527

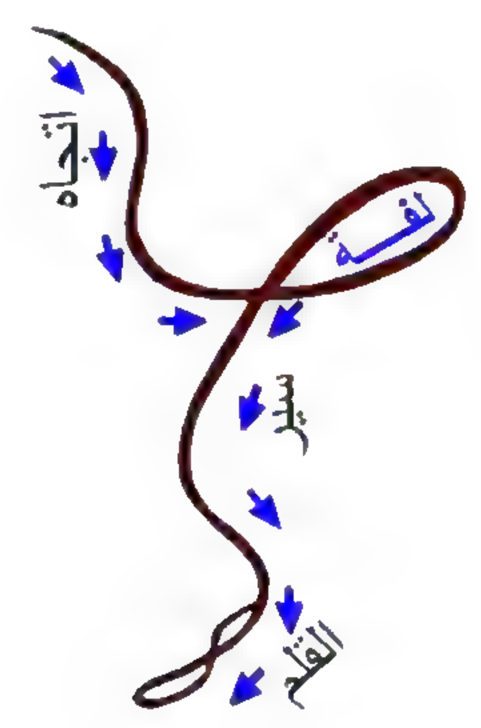


لوحة مؤرخة في سنة: 1378هـ/1958م، على شكل: "شبه طغرا"
لمحمد هاشم البغدادي (1339 - 1393هـ/1921 - 1973م).
المصدر: متحف طارق رجب - الكويت
شكل: 186

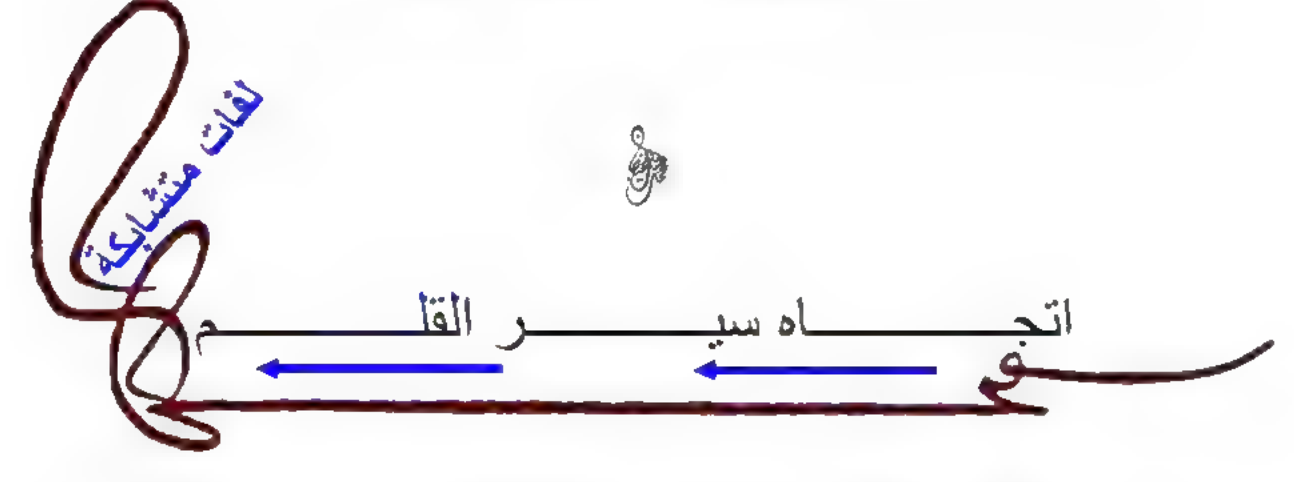
وكيفما كان الحال فإنني وأثناء قيامي بتفكيك العناصر النصية والفنية للطغراء المذكورة، تكبدت عناء ومشقة كبيرين بسبب صور الحروف غير الاعتيادية، التي تم لفّها حول نفسها في إطار تشابكي ثعباني، وكذا بسبب كيفية تركيب الحروف والكلمات مع بعضها، حيث عرفت وضعيات وأنماطا فنية استثنائية وغير معهودة، كما أن نقطة البداية في كتابة عبارة الحمدلة وهي العبارة المشكِّلة لهذه الطغراء، لا تبدأ دائما من اليمين إلى اليسار كما هو مُسلَّم به في كتابة الحرف العربي عامة، بل كنا نجد نقطة بدايتها تختلف من كلمة إلى أخرى، وهنا نسجل أن كلمة: "**الحمد**"، تبدأ من اليمين إلى اليسار:



لكننا نفاجأ "**باسم الجلالة**" الذي يلي هذه الكلمة في العبارة المذكورة، تبدأ كتابته من أعلى إلى أسفل بعد تغيير اتجاهه كليا:



وفي كلمة: "وحده"، عادت الكتابة إلى وضعيتها الطبيعية، أي: من اليمين إلى اليسار:



ولعل هذا التغيير في الاتجاهات، هو ما خلق تشابكا وتداخلا غير معهودين في الخط المغربي. مما عسّر عملية التفكيك والقراءة معا. وبالرغم مما قلناه، يبقى أصعب جزء من الطغراء من حيث القراءة، هو البيضة الصغرى التي تقع إلى جهة اليمين، فقد حاولت مرارا وتكرارا قراءتها، لكن محاولاتي المتكررة

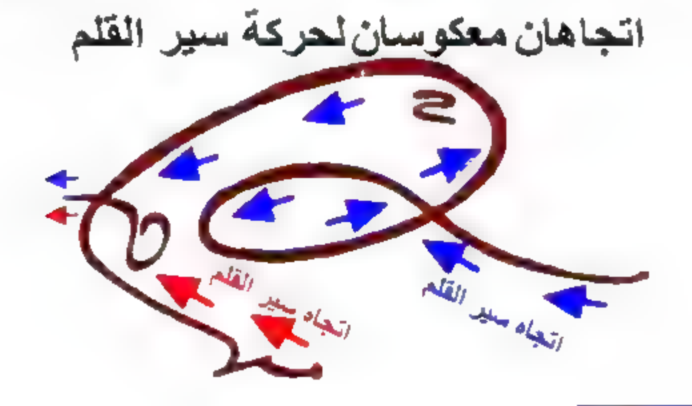
تلك، باءت بالفشل، حتى خرجت بالقول في نهاية الأمر، أنها مجرد توقيع رمزي اختص به سلاطين السعديين، وضعوه على يمين النص الأصلي للطغراء (الحمدلة)، فقط لخلق توازن تماثلي تتناظر من خلاله البيضة الصغرى مع البيضة الكبرى التي تبدو ممتلئة في جهة اليسار.. وذلك حتى لا تبدو الطغراء نحيلة من جهة اليمين، فتم تبعا لذلك وضع البيضة الصغرى اضطرارا، رغم كونها لا ترمز إلى كلمة ذات مغزى كما خُيِّل لي بادئ الأمر.

وقد تتبع أحد الباحثين؛ المنهجية التي نهجها دوكاستـــر في تحليل الطغراء السعدية وقراءتها، ولم يُوفّق في فك لغز البيضة الصغرى على غرار دوكاستـــر نفسه. فقال عنها: "**تبقى علامة أخيرة لم يتم التعرف على فحواها، وهذه العلامة توجد على اليمين ممزوجة مع الواو والحاء والميم**". والجدير بالذكر أن دوكاستـــر عبّر عنها في مقاله الذي نشره سنة: 1921م تحت عنوان: **"توقيعات الإثبات عند الشرفاء السعديين"**: **(Les signes de validation des chérifs saadiens)**، بقوله:

(.. dans l' aalama un dernier élément monogrammatique dont la lecture reste un problème non résolu)[8].

وبعد محاولات عديدة ومضنية، توصّلت بفضل الله تعالى إلى أن البيضة الصغرى في الواقع لم تكن مجرد توقيع رمزي فارغ المحتوى، بل كانت كلمة تتعلق بنسب السعديين، وتشير إلى اتصالهم بالعترة النبوية الطاهرة، كما هو الشأن بالنسبة لسائر الأسر الشريفة التي حكمت بلاد المغرب، والتي كان معظم سلاطينها لا يغفلون ذكر صحة انتسابهم إلى الفرع الحسني في وثائق الدولة ودواوينها ومكاتباتها، ولاشك أن هذا الحرص على ذكر النسب الشريف وإدراجه في التوقيعات الرسمية من طرف سلاطين الدولة السعدية، هو مادفع الفشتالي - وفي معرض حديثه عن توقيعات المنصور الذهبي - إلى تسمية طغراوات السعديين: "**بالتوقيعات الشريفة**"[9]، ولا شك أيضا أن هذه التسمية تحيلنا ضمنيا على نسب السلطان، وهذا أمر بديهي، إذ أن التوقيع أو الإمضاء - في مفهومه - حتى عند عامة الناس، هو اسم الشخص ونسبه الذي يُكتب بشكل ملغوز، وفق نمط خطي معقد ومتشابك؛ تشابكا متاهيا ومتناهيا، يصعب معه على الغير تقليده.

بناء على ما سبق، نشير إلى أننا - وبعد تفكيك أحرف البيضة الصغرى باتباع المنهج المذكور- اكتشفنا أنها تعبير عن كلمة: "**الحسني**"، التي أُضيفت كشارة مميزة لجسم الطغراء السعدية:



---

[8] - سعلة، تاريخ الأوقاف الاسلامية بالمغرب في عصر السعديين، ج/1، ص: 312. انظر أيضا:

Henry de Castries, Les signes de validation des chérifs saadiens, p 244

[9] الفشتالي، مناهل الصفا، ص: 300

ولتأكيد هذا الطرح، اعتمدنا على خمس قرائن:

*** القرينة الأولى:**

وجود تشابه كلي في التفاصيل الفنية للبيضة الصغرى؛ في سائر الطغراوات السعدية، حيث نلاحظ أن حرف الحاء المفرد، والشكل السيفي الذي يخترق البيضة، يتكرر في كل الطغراوات السعدية، مما يدل على أنهما يحملان دلالة نصية وليس دلالة زخرفية أو تزيينية، ولو كان هذان العنصران اللذان وُضِعا في طغراء المنصور، يحملان دلالة زخرفية أو وُضِعا فقط لملئ الفراغ، لتمت الاستعاضة عنهما بأشكال زخرفية أخرى في طغراوات السلاطين الذين جاؤوا بعد المنصور، وخاصة في طغراء زيدان السعدي (انظر شكل: 198) التي مُلئت فضاءاتها بحشوات زخرفية حلزونية غير معهودة في الطغراوات السعدية، ومع ذلك تم الحفاظ على العنصرين المذكورين دون إسقاطهما. فلو كانا يحملان دلالة زخرفية فقط، لتم إسقاطهما في طغراء زيدان المزخرفة أصلا، وحتى نربط كلامنا بالأدلة المادية، نقترح أربعة أشكال بيضوية - سقناها من باب الاستدلال لا الحصر- مقتبسة من طغراوات سعدية، تنتمي لفترات تاريخية مختلفة حافظت على العنصرين المذكورين (الحاء المفرد والشكل السيفي).(انظر شكل: 187).



أشكال بيضوية مستخرجة من طغراوات سعدية تنتمي لفترات تاريخية مختلفة. يلاحظ مدى التشابه بينها في كل العناصر الفنية والنصية وكأنها خرجت من مشكاة واحدة
شكل: 187

*** القرينة الثانية:**

وجود خاتم طغرائي كُتب ببيضة كبرى، في حين تم حذف البيضة الصغرى، والاستعاضة عنها بكتابة كلمة: "**الحسني**" بخط واضح على السطر، إلى جانب كلمات أخرى كنص مرفق دون تركيبها مع الطغراء.

هذا الخاتم هو: خاتم عبد الله الغالب السعدي، الوارد في رسالة له إلى أنطوان دوبوربون سنة: 966هـ/1559م، وقد سبق أن اتخذناه أنموذجا لدراسة أولى الأختام الطغرائية للسعديين (راجع شكل: 173، وشكل: 174، وقارنهما بشكل: 184، وشكل: 185). وحتى نوضح ما قلناه، نقترح فيما يلي: (الشكل: 188).

جزء من خاتم طغرائي مقتبس من رسالة تأمين لعبد الله بن محمد الغالب السعدي الى انطوان دوبوربون 966هـ

طغراء احمد المنصور الذهبي من رسالة تأمين وامان الى عاهلة بريطانيا سنة 997هـ

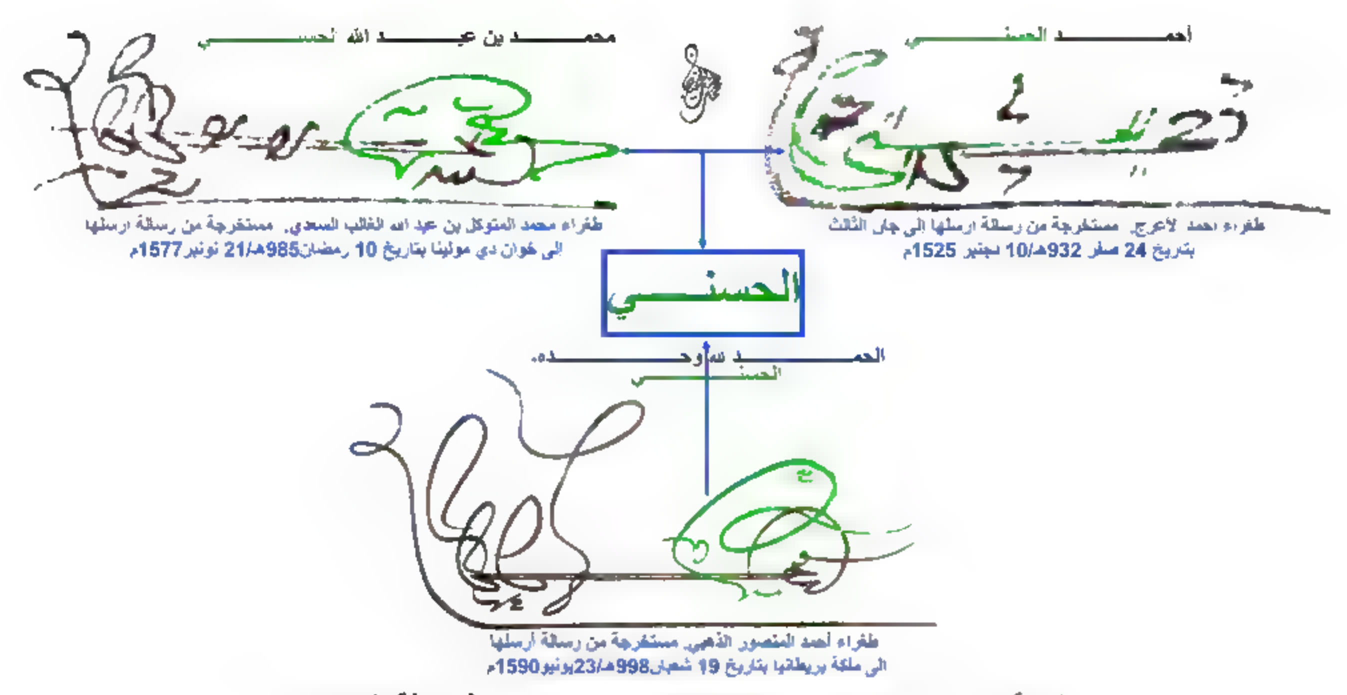


حيث كتبت في طغراء الغالب بخط مبسوط على السطر في جملة تفصيلية نصها ما يلي:"الامير الشريف الحسني" لذلك وجدنا هذه الطغراء مجردة من الشكل البيضوي الذي يكتب عادة في الجزء الايمن من الطغراء السعدية

اما في طغراء المنصور فقد كتبت الكلمة بخط ثعاني ملعور كثير العراقات والالتواءات. يشبه في بعض تفاصيله الخط الديواني المشرقي الامر الذي جعلها تظهر على شكل بيضوي في الجزء الايمن من هذه الطغراء

مقارنة بين طغراء الغالب وطغراء المنصور، واختلاف الصيغة الكتابية التي
كتبت بها كلمة: "الحسني" في كل من الطغراءين
شكل: 188

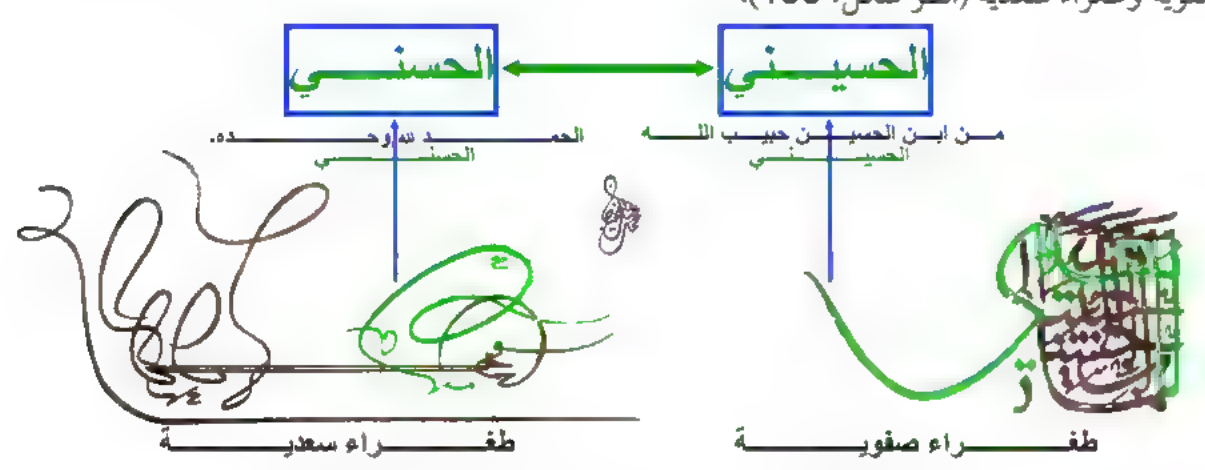
وقد وجدنا استعمال النسب الحسني في كافة الطغراوات السعدية، سواء الطغراوات التي وُظّفت في كتابة: "**اسم السلطان**"، منذ عهد أحمد الأعرج (923 - 947هـ/1517 - 1540م) إلى حدود عهد محمد المتوكل (982 - 986هـ/1574 - 1578م)، أو الطغراوات التي وُظّفت في كتابة: "**الحمدلة**" منذ عهد أحمد المنصور الذهبي (986 - 1012هـ/1578 - 1603م) إلى نهاية الدولة السعدية (انظر شكل: 189).



لوحة تبين حرص السعديين على استعمال النسب الحسني في كافة طغراواتهم،
سواء التي وُظِّفت في كتابة اسم السلطان، أو التي وظفت في كتابة الحمدلة
شكل: 189

* <u>القرينة الثالثة:</u>

باطلاعنا على عدد من الفرمانات الصفوية - الفارسية، لاحظنا أن طغراواتها ذات الشكل المربع (راجع شكل: 21 وشكل: 22)، كانت تتميز بوجود حرف سيفي - مرسل إلى جهة اليسار، يُشكّله حوض: (**ياء الحُسيْني**)، الذي كان يراد منه التذكير <u>بالنسب الحُسيْني</u> الشريف المزعوم لبعض "**الشاهات**" الذين حكموا إيران الصفوية. وهو التصرف الفني والدلالي عينه الذي وجدناه في الطغراوات السعدية التي تميزت هي الأخرى بإرسال الحرف نفسه (**ياء الحَسَني**)، بالكيفية نفسها تقريبا (سيفي - مرسل)، للفت الانتباه إلى <u>النسب الحَسَني</u> الشريف لسلاطين الدولة السعدية، وحتى نوضح ما قلناه؛ نقترح المقارنة التالية بين طغراء صفوية وطغراء سعدية (انظر شكل: 190).



لوحة تبين التوافق في استعمال الشكل السيفي للياء، للتعبير عن
النسب الحسيني بالنسبة للصفويين، والنسب الحسني بالنسبة للسعديين
شكل: 190

* **القرينة الرابعة:**

التذكير بنسب السلاطين العثمانيين، وإدراج ما يشير إلى ذلك في طغراواتهم، حيث عبّروا عنه بكلمة: "**خان**" التي يشكل حرفها الأخير؛ البيضة الصغرى للطغراء، لذلك كان من الطبيعي أن يستعمل السعديون أيضا البيضة الصغرى للتذكير بنسبهم الشريف، حيث عبّروا عنه بكلمة: "الحسني" كما قلناه، أمّا تسميتهم بالسعديين، فهذه النسبة لم تكُن لهم في القديم، ولم تظهر في وثائقهم ومراسلاتهم التي وقفنا على بعضها، بل لم يتجرأ أحدٌ على مواجهتهم بهذه التسمية؛ لأنّه لا يصفهم بها إلا مُغرض يريد الطعن في نسبهم، والتشكيك في شرفهم، من منطلق كونهم ينتسبون إلى قبيلة بني سعد بن بكر بن هوازن، وهي القبيلة التي تنتسب إليها حليمة السَّعدية؛ مرضعة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكثير من العامّة يعتقدون أنّهم إنّما سُمُّوا بذلك؛ لأنَّ الناس سعدوا بهم. أما هم فيُسمُّون أنفسهم بالحسنيين نسبة إلى محمد النَّفس الزَّكية من أبناء الحسن بن علي بن أبي طالب، وذلك ما وقفنا عليه في تفصيلنا للطغراء؛ من خلال الشكل البيضوي الذي يحيلنا على تسمية: "**الحسني**". وسبب قدومهم من الحجاز إلى المغرب مردّه إلى أنَّ أهل "درعة" كانت لا تصلح ثمارهم، وتعتريها الأمراض كثيرًا، فقيل لهم: لو أتيتم بشريف إلى بلادكم كما أتى أهل "سجلماسة" بشريف إلى بلادهم، لصلحت ثماركم كما صلحت ثمارهم. وكان أهل "سجلماسة" قد استقدموا من أرض ينبع شريفا من آل البيت، فاستقدم أهل "درعة" - على غرارهم - المولى زيدان بن أحمد؛ فعُرفوا لذلك بـ: "**ملوك بني زيدان**"[10]، كما نُعتت دولتهم بـ: "**الدولة الزيدانية**"[11]. أو "**الإيالة الهاشمية**"[12]. تمييزا لها عن باقي الإيالات التابعة للعثمانيين. ولا غرْو في تسميتهم بالسعديين بعد قيام الدولة العلوية، لأن هذه الدولة أتت على كل ما يتعلق بالزيدانيين بُغية طمس آثارهم، وإشاحة نظر الناس عن شرفهم الذي أحلّوا محله شرف الدولة العلوية. والجدير بالذكر أننا فضلنا في هذا الكتاب استعمال تسمية: "**السعديين**" عوض تسمية: "**الزيدانيين**" لسببين اثنين؛ أحدهما: شيوع هذه التسمية التي أصبحت لصيقة بهذه الدولة، أما الثاني فيتعلق بطغراوات أبي المعالي زيدان بن أحمد المنصور الذهبي التي درسناها دراسة تشريحية، ولتمييزها عن باقي الطغراوات؛ سميناها بالطغراء الزيدانية، أو الطغراء السعدية الزيدانية، فدلّت بذلك تسميتها على التخصيص وليس على التعميم.

ومهما يكن من أمر، فإننا نقترح فيما يلي مقارنة بين الشكل البيضوي في الطغراء السعدية، ونظيره في الطغراء العثمانية، حيث استخرجنا أحدهما من طغراء للسلطان مراد الثالث (982 - 1003هـ/1574 - 1595م)، والثاني استخرجناه - لإجراء هذه المقارنة - من طغراء للسلطان أحمد المنصور الذهبي المعاصر له (986 - 1012هـ/1578 - 1603م).(انظر شكل: 191).

---

[10] - كور، وثائق سعدية، ص. 109

[11] المرجع نفسه، ص: 78

[12] المرجع نفسه، ص. 111



مقارنة بين الشكلين البيضوين الصغريين في كل من طغراء السلطان السعدي أحمد المنصور الذهبي، وطغراء السلطان العثماني المعاصر له: مراد الثالث ومدى التشابه النصي (النسب) والفني (شكل البيضة) بينهما

شكل: 191

* <u>القرينة الخامسة:</u>

برجوعنا إلى (الشكل: 111) - وهو الشكل المتعلق بدينارٍ ضُرب في عهد (المولى) زيدان السعدي - نلاحظ أن وجه القطعة تتوسطها بشكل قطري. "طغراء السعديين"، أما في الظهر فقد كتبت العبارة التالية: "**زيدان أمير المومنين ابن الإمام أحمد المنصور، أمير المومنين، الشريف الحسني**". فمن خلال هذه العبارة إذن، يتضح التركيز على السب الشريف لسلاطين هذه الدولة بشكل صريح. '.. **الشريف الحسني**'، وكأن هذه العبارة التي وردت مفصلة في ظهر القطعة، تفسر رمز الرسم الطغرائي الذي ورد في وجهها ملغوزا. (انظر أيضا، الشكل: 112 وتفصيلاته).

*** القرينة السادسة:**

وهي قطعية الثبوت والدلالة، بالنظر إلى ارتباطها بالتحليل الفني لعناصر هذه البيضة، نصية كانت أو جمالية، إذ يُلاحظ وجود اتجاهين متنافرين في كتابة الكلمة التي تبتدئ في الجزء الأول من اليمين إلى اليسار في اتجاه الأعلى؛ وفق مسار لولبي حلزوني، حيث تلتف حول نفسها مشكّلة بذلك النصف الأول لبيضة الطغراء، المكوَّن من الألف واللام والحاء، وهي الأحرف الثلاثة الأولى من كلمة: "الحسني"، وقد تم دلك عن طريق عقد اللام والألف، تماما كما هو الشأن في كتابة اسم الجلالة، بينما تم حذف الحاء التي أُشير إليها في هذا الجزء بحاء صغيرة رمزية، وذلك حتى لا تختل الصورة البيضوية للكلمة:



الجزء الأول

بالنسبة للجزء الثاني من البيضة، تم اختيار حرف السين لتشكيله، وهو الحرف الرابع من كلمة: 'الحسني'، ولأن هذا لا يتأتى فعله لكون السين مركبة في وسط الكلمة، تمت كتابتها بشكل معاكس لاتجاه الكتابة عموما، مما أظهر حرف السين في موقع الابتداء للكلمة، وذلك قصد إتمام الشكل البيضوي عن طريق تدوير كشيدته، ولفها انطلاقا من اليمين، لتلتقي بكشيدة الحاء المحذوفة التي تتجه نحو اليسار:

لف وتدوير في اتجاه اليمين

النصف الثاني للبيضة
الطغرائية

سين

نقطة بداية كتابة حرف السين في
اتجاه معاكس للاتجاه العام للكتابة

الجزء الثاني

ومثل هذه التصرفات الجمالية غير المعتادة في الخط العربي عموما نجدها في الخط المجوهر حتى في العصر العلوي؛ كما نلاحظ ذلك من خلال الكلمة التالية التي استخرجها الباحث الهولندي (**boogert**) من مخطوط علوي[13]:



كلمة: "بتاريخ" رسمت فيها الراء عكس مسارها الاعتيادي

بالنسبة للجزء الثالث، تم إتمام الحرفين المتبقيين من كلمة: "الحسني"، وهما: النون والياء، حيث رُسمتا بوضع طبيعي؛ أي من اليمين إلى اليسار، انطلاقا من نقطة التقاء كشيدتي الجزء الأول و والجزء الثاني للبيضة، ويلاحظ أن حرف الياء السيفية المركبة مع حرف النون في كلمة: "الحسني"، والتي ينبغي أن تكون راجعة إلى اليمين هكذا: ؛ كما جرت بذلك العادة في كتابة الخط المغربي، قد رُسمت في الطغراء مركبة مع النون بشكل غير اعتيادي. ففي الوقت الذي تم الحفاظ فيه على الصورة الطبيعية للنون، تم - على العكس من ذلك - تغيير الاتجاه الطبيعي للياء السيفية من اليمين إلى اليسار؛ بغية تحقيق المفهوم السيفي الذي يُطلق عليها في صورتها العادية. حيث تبدو صورتها في الطغراء؛ كنصل السيف الذي يخترق البيضة من فضائها الداخلي نحو الفضاء الخارجي، وهذه إحدى القواعد المعتمدة في رسم الطغراء عموما، سواء السعدية منها أوالعثمانية كما سنقف على ذلك من خلال مقارنتهما:



الجزء الثالث

وحتى تسهل علينا عملية قراءة الطغراء السعدية، توصلنا إلى منهج ميسر؛ يتجلى في إعادة جمع تلك العناصر النصية التي قمنا بتفكيكها آنفا (راجع شكل: 185)، ثم إعادة ترتيبها - مرة أخرى - على السطر من اليمين إلى اليسار على غرار الكتابة الاعتيادية. ولتوضيح أحرفها، ميَّزنا بعضها عن بعض بألوان مختلفة، حيث إن كل لون في العبارة الطغرائية المخطوطة، يقابله اللون المماثل له في نصها المفرّغ بالخط الإداري، وذلك حتى نستطيع قراءتها، والتعرف على نقطة بداية الكتابة ونقطة نهايتها في كل كلمة من كلماتها التي تُشكّل الرسم الطغرائي.

13 - N van den Boogert, 'Some notes on Maghribi script', p: 35

ولأن هذه الطغراء التي سنقوم بتشريحها وفق المنهج المذكور، هي: "**طغراء الحمدلة**" السعدية التي استعملها أحمد المنصور الذهبي (986 - 1012هـ/1578 - 1603م) ثم ورث استعمالها أبناؤه من بعده؛ نشير إلى أن حقيقة الدراسة الفنية للطغراء في هذا العصر، لن تكتمل إلا بتشريح: "**طغراء اسم السلطان**" السعدية أيضا، وهي الطغراء التي كانت مستعملة في عهود السلاطين الذين سبقوا أحمد المنصور الذهبي اعتبارا من عهد أحمد الأعرج (923 - 947هـ/1517 - 1540م) إلى حدود عهد محمد المتوكل (982 986هـ/1574 - 1578م).(عن "طغراء اسم السلطان"؛ راجع الأشكال: 62 63 64 - 65 - 66 - 67. وقارنها بـ: "طغراء الحمدلة" في الشكل: 184).

من هذه القناعة بالذات، قمنا بتشريح صورتين لـ: "**طغراء اسم السلطان**":

- **أولاهما**: لأحمد الأعرج؛ وهي أول طغراء استُعملت باسم السلطان خلال العصر السعدي، استخرجناها من الشكل: 62. (انظر شكل: 192).
- **الثـــانية**: لمحمد المتوكل، استخرجناها من الشكل: 67. (انظر شكل: 193)، وهي آخر أنموذج لـ: "**طغراء اسم السلطان**"، التي ستحل محلها "**طغراء الحمدلة**" لأحمد المنصور الذهبي الذي تُعدّ طغراؤه أول طغراء حمدلة في عصر الدولة السعدية، وهي الطغراء التي ستستمر إلى أواخر الدولة السعدية (انظر شكل: 194).

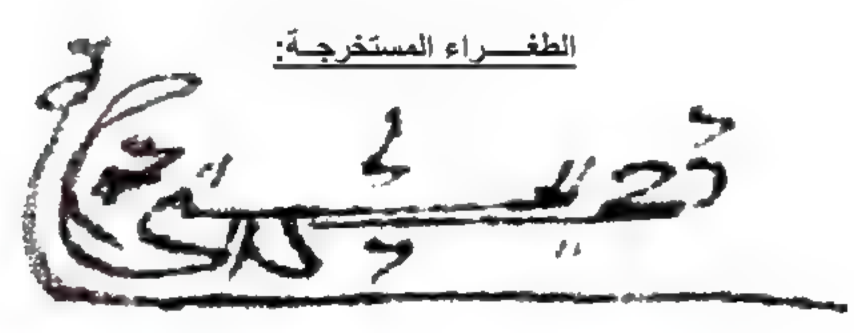
وحتى يكتمل وجه المقارنة، قمنا أيضا بتشريح طغراءين مشرقيتين وفق المنهج التشريحي نفسه؛ إحداهما: صفوية (انظر شكل: 195)، والأخرى عثمانية (انظر شكل: 196)، وذلك حتى نطلع على أوجه الائتلاف والاختلاف بين كل هذه الطغراوات على مستوى النص الذي تتألف منه، والشكل الذي يميز بناءها الهيكلي.

وللوقوف على ملامح التجويد الكبيرة التي عرفتها الطغراء السعدية خلال عهد أحمد المنصور الذهبي (986 - 1012هـ/1578 - 1603م)، قمنا بمقارنة طغراء هذا السلطان، بطغراء عثمانية مزامنة لها، ألا وهي: طغراء السلطان العثماني مراد الثالث (982 - 1003هـ/1574 - 1595م)، وذلك حتى تكون المقارنة صحيحة على المستويين التاريخي والفني (انظر شكل: 197).



طغراء سعدية مستخرجة من الشكل: 62

الطغــــراء المستخرجــة:

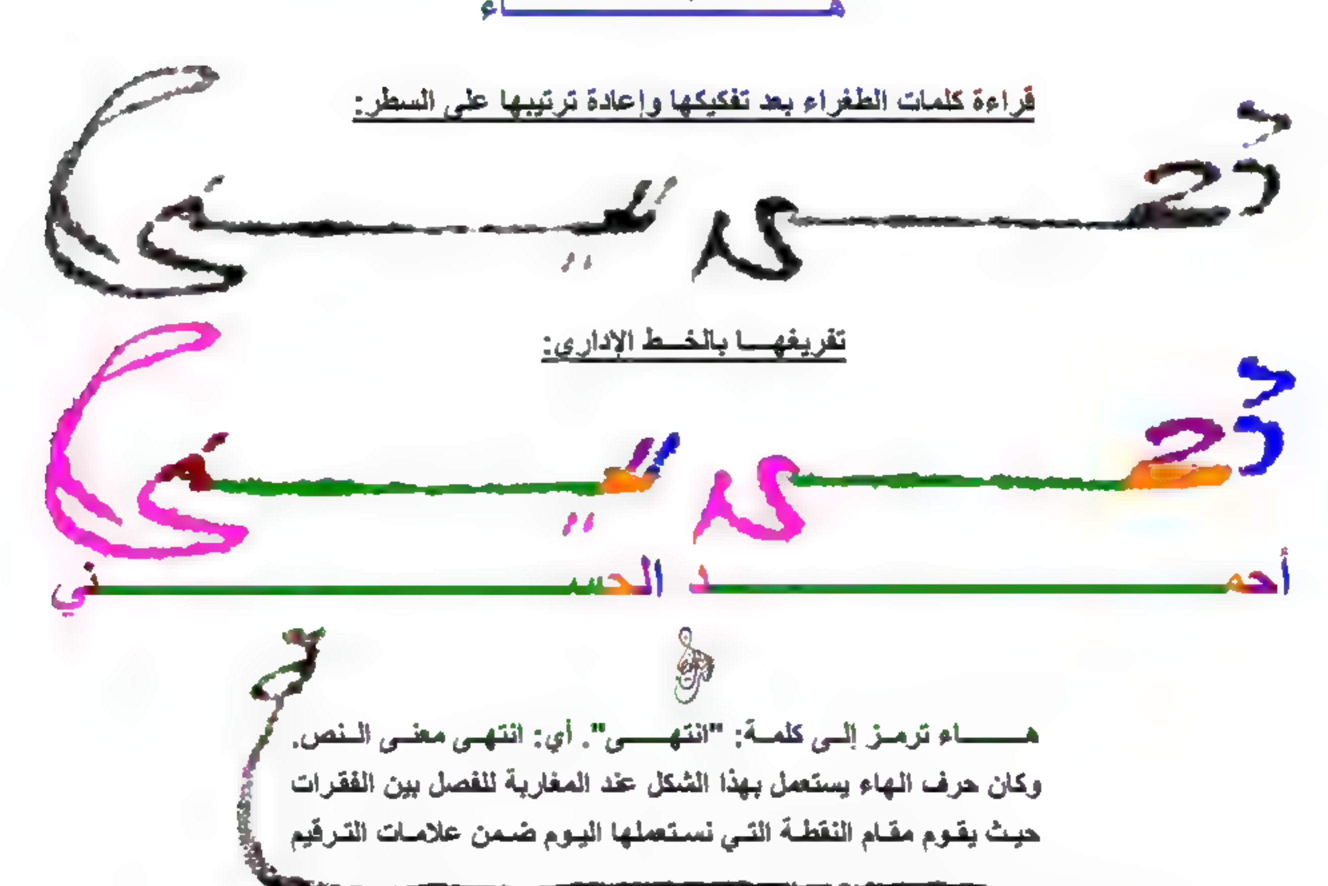


تشريحهــــا بالألوان الرمزيـــــة:

أحمــــــــد الحسنـــــــــي

الانتهـــــاء

هـــــــــــاء

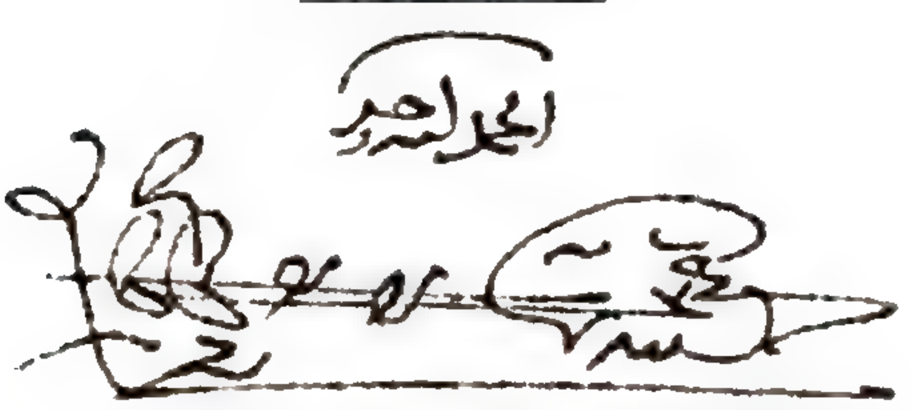


تفكيك عناصر "طغراء اسم السلطان" لأبي العباس أحمد الأعرج، ثم إعادة ترتيب كلماتها على السطر، ولتوضيح أحرفها، ميَّزنا بعضها عن بعض بألوان مختلفة، حيث إن كل لون في العبارة الطغرانية المخطوطة، يقابله اللون المماثل له في نصها المفرّغ بالخط الإداري

شكل: 192

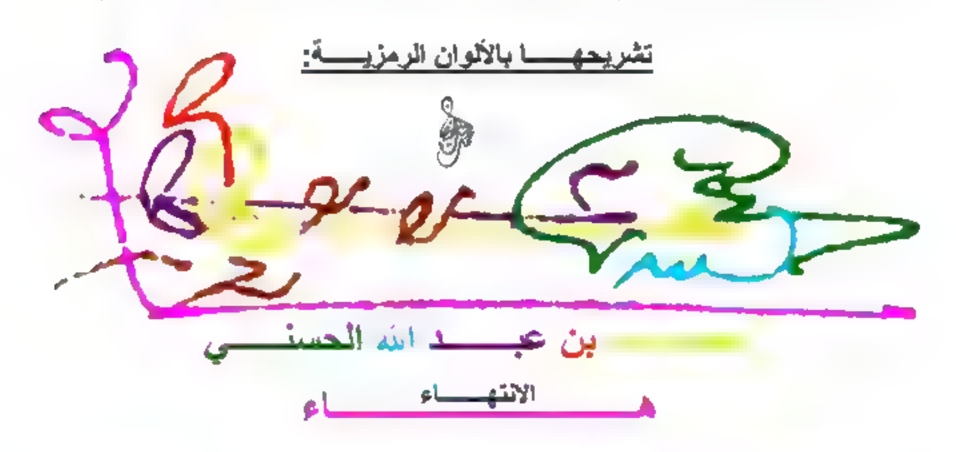
طغراء سعدية مستخرجة من الشكل: 67

الطغـــراء المستخرجـة:



عبارة الحمدلة تليها "طغراء اسم السلطان" محمد المتوكل بن عبد الله الغالب السعدي

تشريحهـــا بالألوان الرمزيـــة:



قراءة كلمات الطغراء بعد تفكيكها وإعادة ترتيبها على السطر، ثم تفريغها بالخط الإداري:

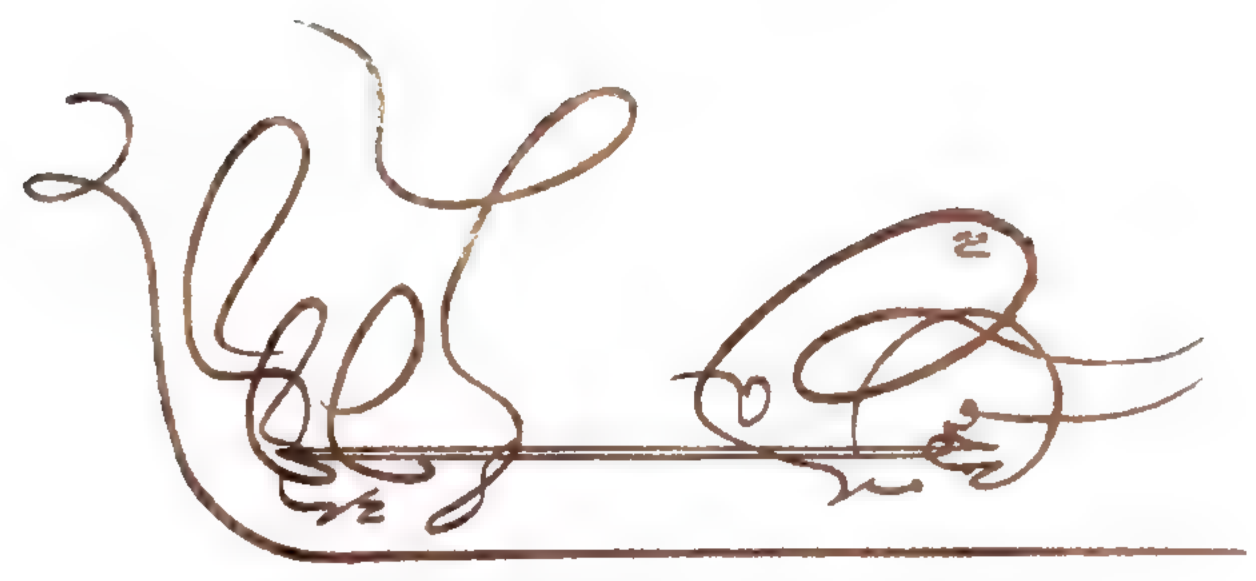




هــــاء ترمـز إلـى كلمـة: "انتهـــى". أي: انتهـى معنـى الـنص.
وكان حرف الهاء يستعمل بهذا الشكل عند المغاربة للفصل بين الفقرات
حيث يقـوم مقـام النقطـة التي نستعملها اليوم ضمن علامـات التـرقيم

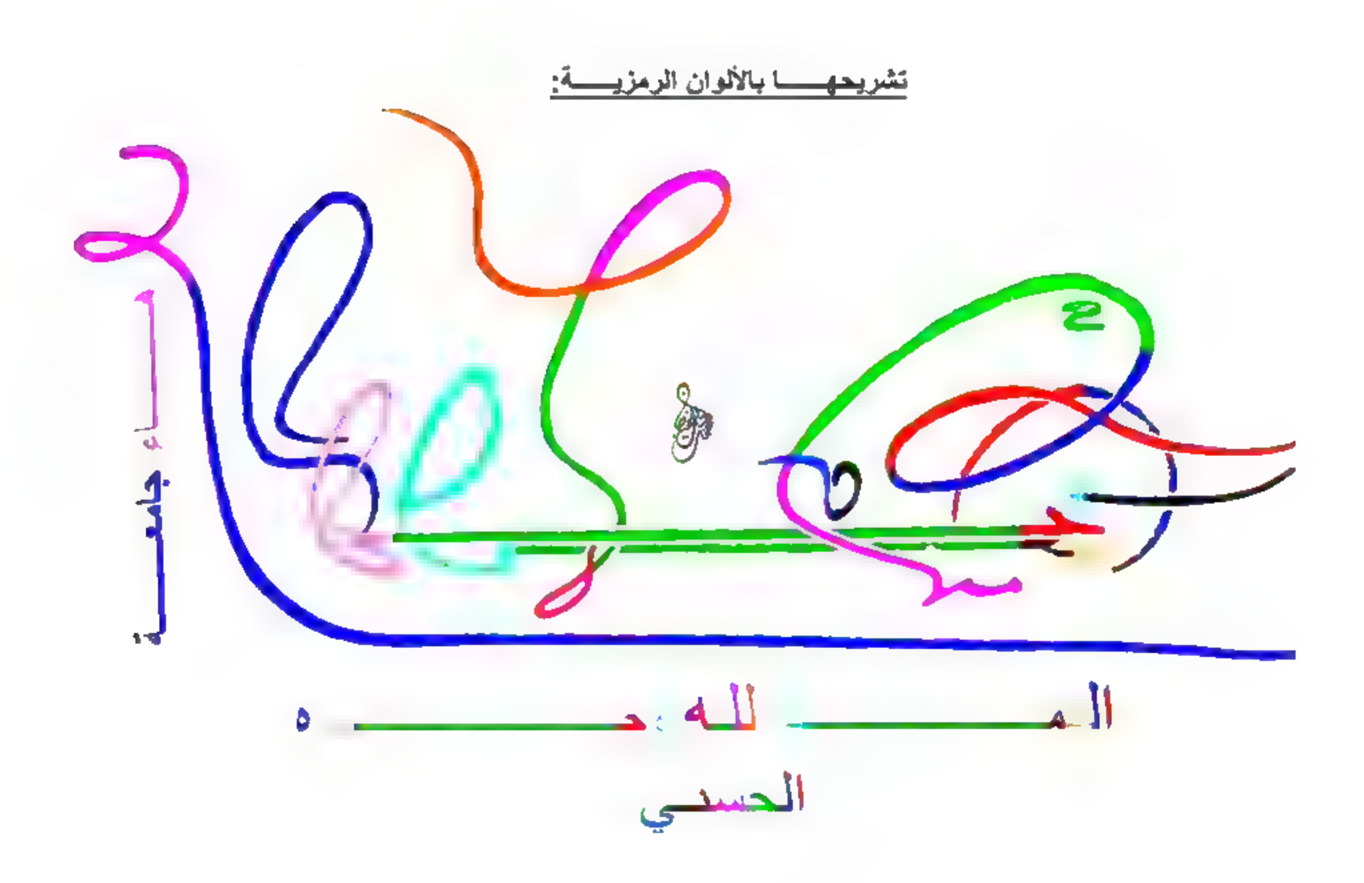
تفكيك عناصر "طغراء اسم السلطان" لمحمد المتوكل بن عبد الله الغالب السعدي، ثم إعادة ترتيب كلماتها على السطر، ولتوضيح احرفها، ميَّزنا بعضها عن بعض بألوان مختلفة، حيث إن كل لون في العبارة الطغرائية المخطوطة، يقابله اللون المماثل له في نصها المفرَغ بالخط الإداري
شكل: 193

طغراء سعدية مستخرجة من الشكل: 184



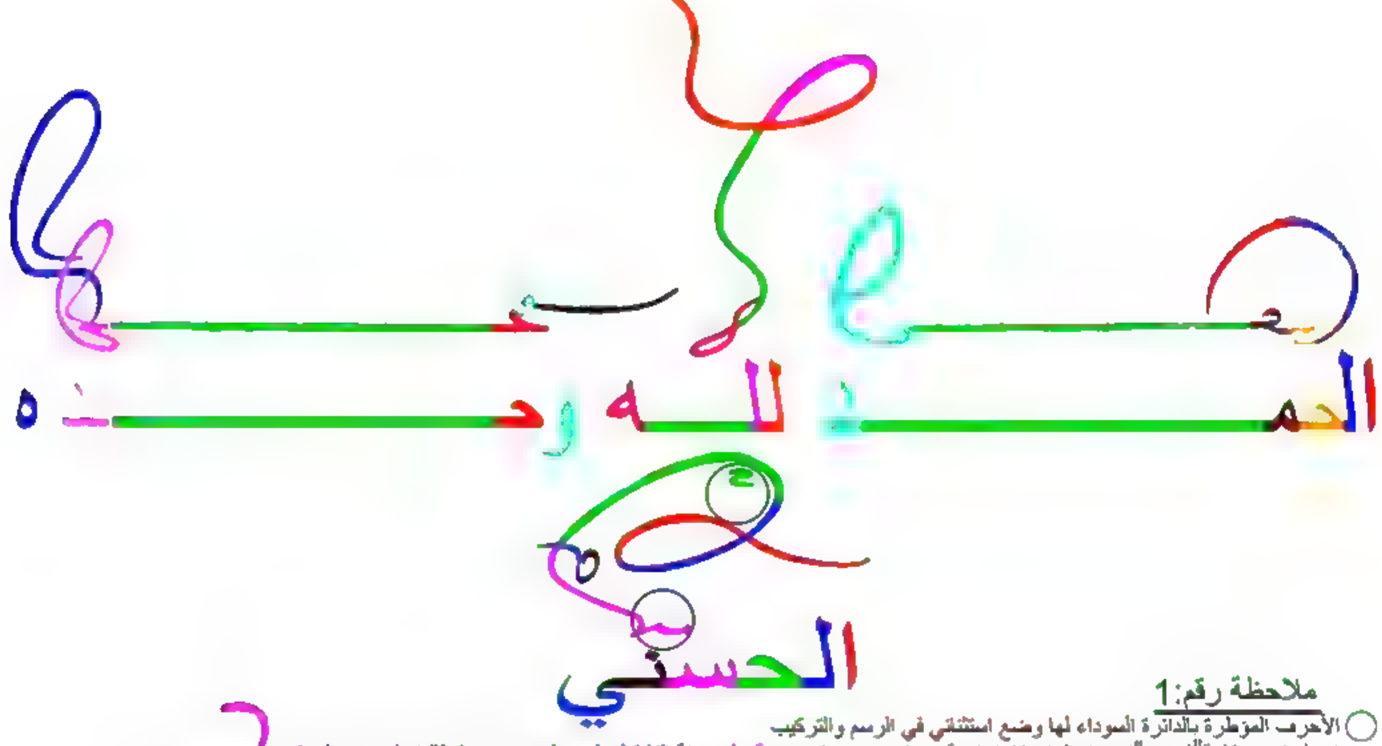
علامة سعدية استخرجناها من رسالة بعثها أحمد المنصور الذهبي إلى ملكة بريطانيا بتاريخ: 19 شعبان 998هـ/23 يونيو1590م

تشريحهـــــا بالألوان الرمزيـــــة:





تفكيك كلمات العلامة، ثم إعادة ترتيبها على السطر من اليمين إلى اليسار:



ملاحظة رقم:1

○ الأحرف المؤطرة بالدائرة السوداء لها وضع استثنائي في الرسم والتركيب

*حرف الحاء من كلمة"الحسني"تم احتزالها والاستعاضة عنها بحرف حاء رمزية على هيئة التشكيل المعمول به في خط الثلث المغربي المركب

*حرف السين من كلمة"الحسني"تم تعبير مسارها الطبيعي ووضعيتها الصحيحة في التركيب اضطرارا لتطويع الرسم البيصوي للعلامة

ملاحظة رقم:2

*الألف واللام في كلمة"الحسني"تم عقدهما بشكل ثعباني على شاكلة اسم الجلالة الثعبانية المستعملة في العلامة

هـــــــاء جامعـــــــة

ترمز إلى كلمة: "انتهـــى". أي: انتهى معنى النص، وكان حرف الهاء يستعمل بهذا الشكل عند المغاربة للفصل بين الفقرات، حيث يقوم مقام النقطة التي نستعملها اليوم ضمن علامات الترقيم

تفكيك عناصر "طغراء الحمدلة" للسلطان السعدي: أحمــد المنصــور الذهبــي، ثم إعادة ترتيب كلماتها على السطر، ولتوضيح أحرفها، ميَّزنا بعضها عن بعض بألوان مختلفة، حيث إن كل لون في العبارة الطغرانية المخطوطة، يقابله اللون المماثل له في نصها المفرّغ بالخط الإداري

شكل: 194

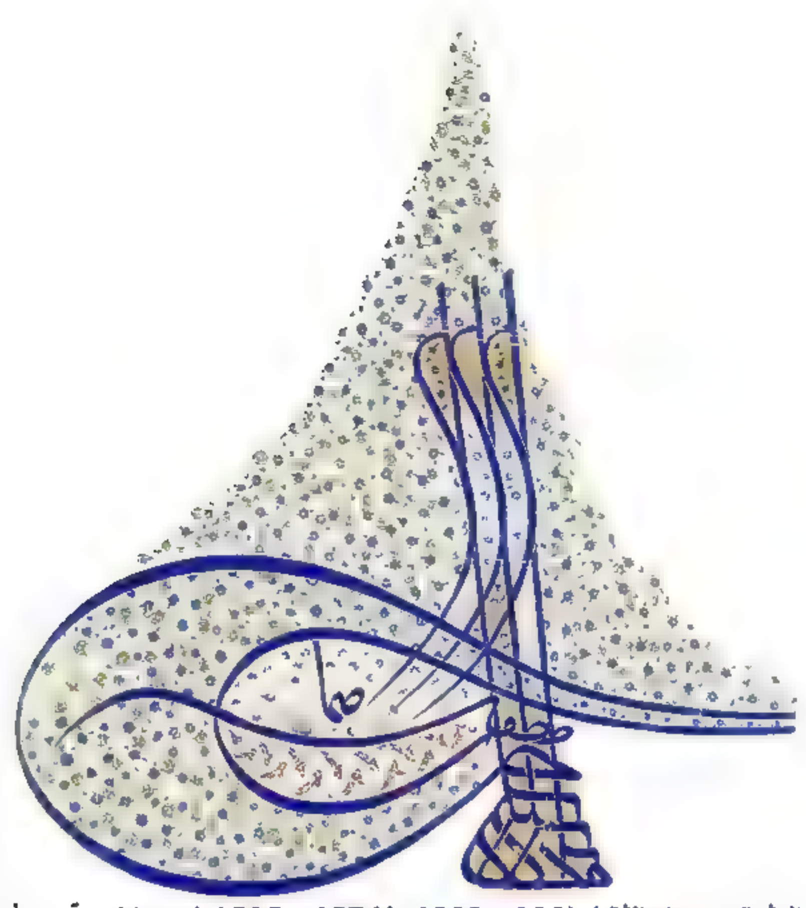
طغراء صفوية مستخرجة من الشكل: 21



تشريحهـــــا بالألوان الرمزيـــــة:

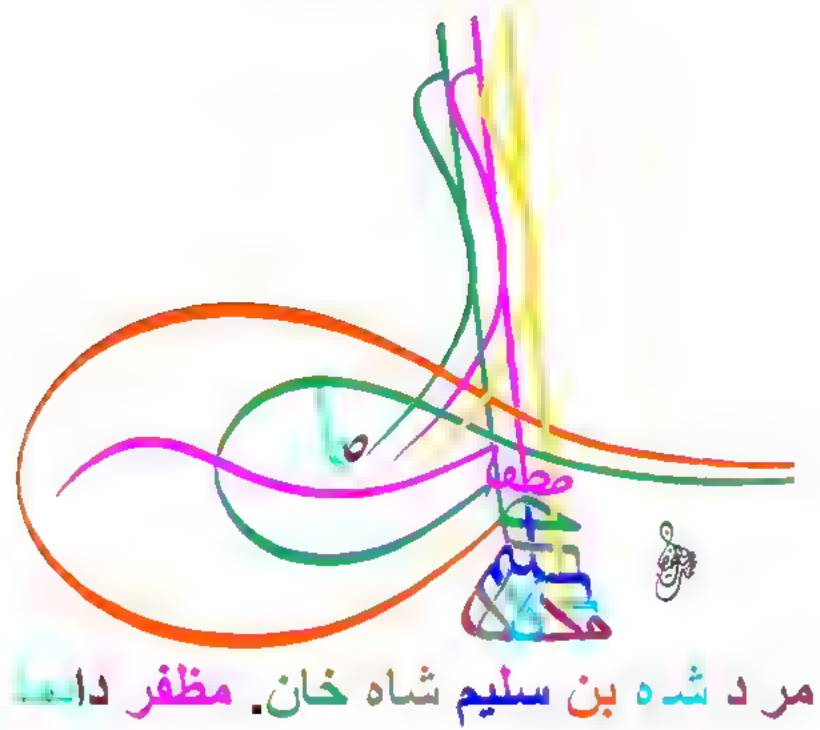


"طغراء صفوية" ميّزنا أحرفها بألوان مختلفة، حيث إن كل لون في العبارة الطغرانية المخطوطة، يقابله اللون المماثل له في نصها المفرّغ بالخط الإداري
شكل: 195



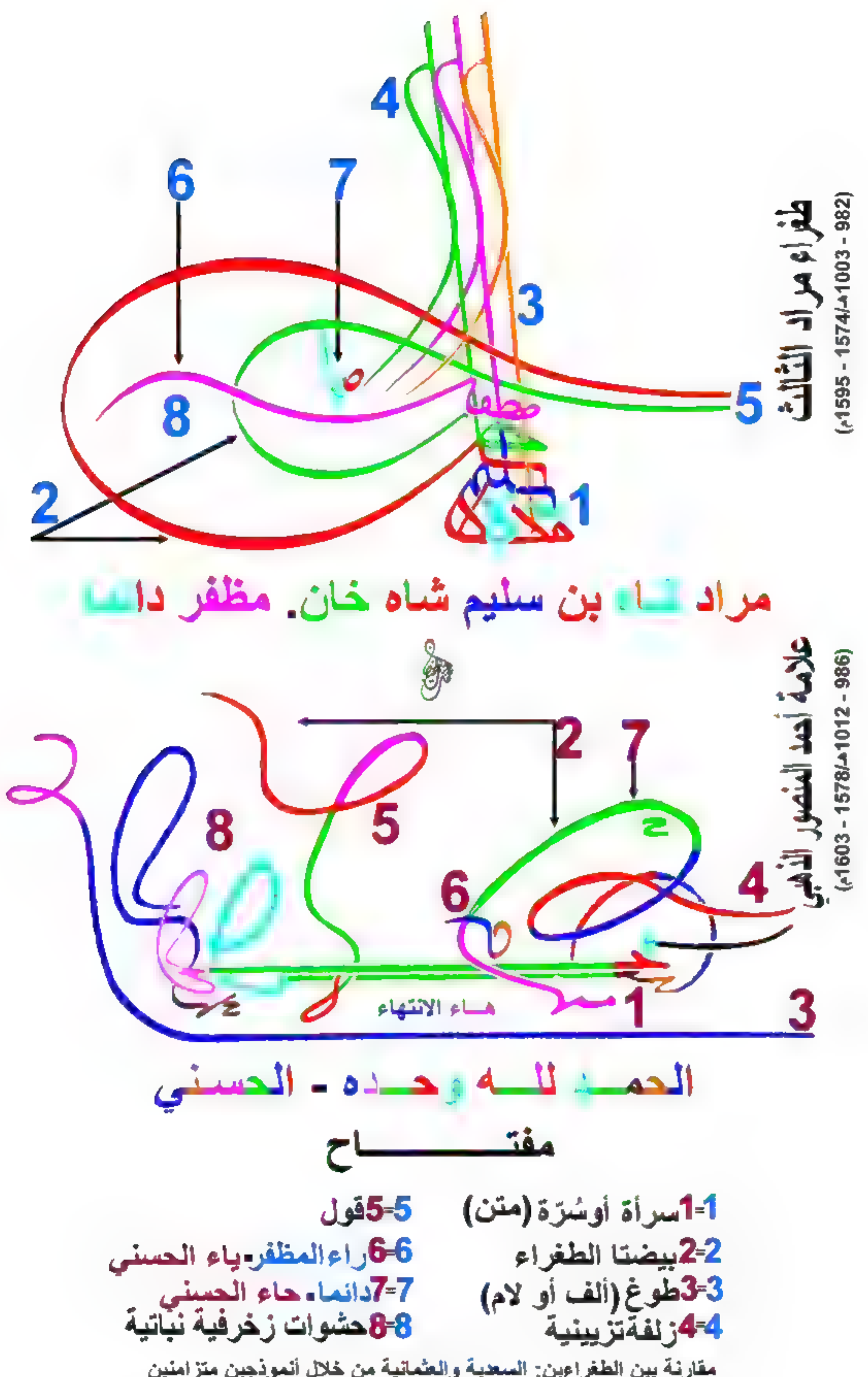
طغراء السلطان العثماني: مراد الثالث (982 - 1003هـ/1574 - 1595م). مستخرجة من فرمان مؤرخ في: رجب 983هـ/أكتوبر 1575م. محفوظ في متحف شكيب صبانجي باستانبول، تحت رقم: SSM 160-0029

تشريحهـــــا بالألوان الرمزيـــــة:



مر د شـه بن سليم شاه خان. مظفر دائما

"طغراء عثمانية" ميّزنا أحرفها بألوان مختلفة، حيث إن كل لون في العبارة الطغرائية المخطوطة، يقابله اللون المماثل له في نصها المفرّغ بالخط الإداري
شكل: 196



مقارنة بين الطغراءين: السعدية والعثمانية من خلال أنموذجين متزامنين
طغراء السلطان العثماني: مراد الثالث (982 - 1003هـ/1574 - 1595م)
وطغراء السلطان السعدي: أحمد المنصور الذهبي (986 - 1012هـ/1578 - 1603م)
شكل: 197

الأنموذج الثالث: طغراء أبي المعالي زيدان السعدي (شكل: 160):

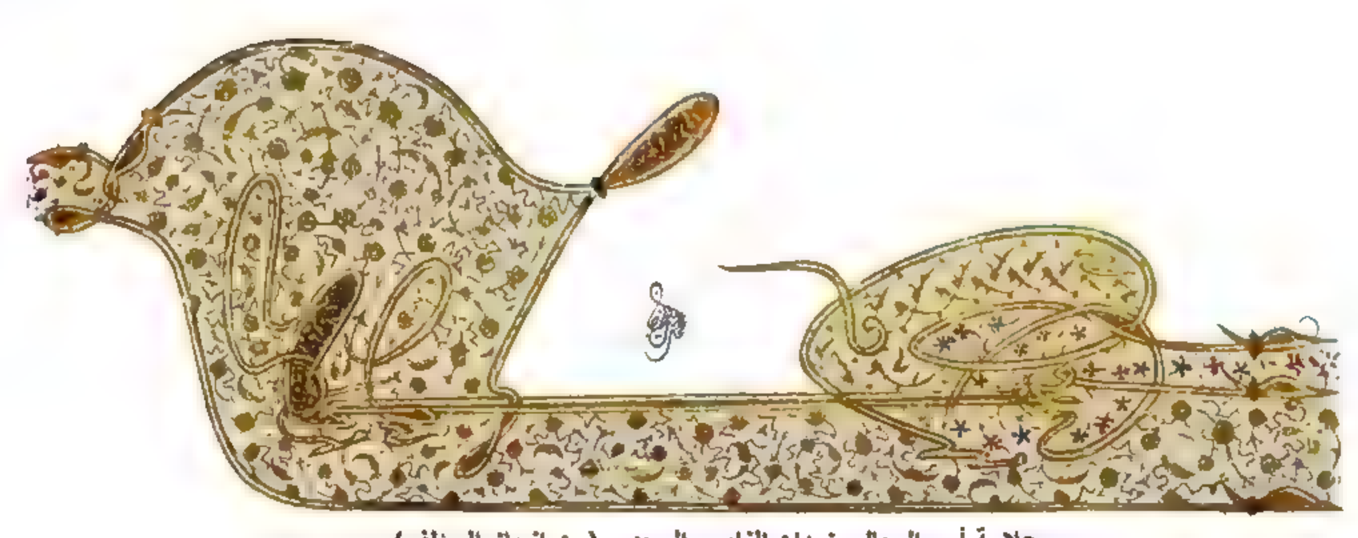
1 – عرض الوثيقة وتشريحها:



رسالة من أبي المعالي زيدان الناصر السعدي (1012 - 1037هـ/1603 - 1628م)
الى فيليب الثالث بتاريخ: 1ربيع الثاني1017هـ/15 يوليوز1608م
المصدر: الوثيقة محفوظة في الارشيف للعلم سانت مانكش (سيمنكس) - بلد الوليد، رقم: E210
شكل: 198



علامة مغربية سعدية. استخرجناها من رسالة بعثها أبو المعالي زيدان الناصر السعدي (1012 - 1037هـ/1603 - 1628م)
إلى فيليب الثالث بتاريخ: 1ربيع الثاني1017هـ/15 يوليوز1608م
مصدر الرسالة: محفوظة في الأرشيف العام. سانت مانكش (سيمنكاس) - إسبانيا، رقم: F210



علامة أبي المعالي زيدان الناصر السعدي (من إنجاز المؤلف)

2- وصف وتعليق ومقارنة:

اخترنا إحدى الطغراوات التي بلغت أوج التجويد الفني، وهي تلك الطغراء الواردة في رسالة لأبي المعالي زيدان السعدي (1012 - 1037هـ/1603 1628م)؛ إلى فليب الثالث بتاريخ: 1ربيع الثاني1017هـ/15يوليوز 1608م (راجع شكل: 198)، وقد ارتأينا دراسة هذه الطغراء الزيدانية البديعة؛ دراسة تشريحية لرصد عناصرها الفنية البديعة، التي جعلت منها أجمل شكل طغرائي ورثناه عن العصر السعدي، خطا وتركيبا و تذهيبا وزخرفة.

لكن وقبل الشروع في ذلك، لابد من وضع تأصيل فني ومفاهيمي؛ لمسمّيات العناصر التي تتكون منها الطغراء بشكل عام، وعليه، نشير إلى أن هذا الرسم السلطاني قد وُضعت له قواعد جمالية معلومة، ضَبطَت أبعاده ومقاييسه. حُدِّد عددها في: 5 عناصر تزينية بنيوية[15]. وهي العناصر التي سنقوم باستعراضها تترى وتباعا من خلال إجرائنا لمقارنة فنية تشريحية بين الطغراء السعدية والطغراء العثمانية المزامنة لها، وقد اخترنا لهذه المقارنة؛ طغراء أبي المعالي زيدان السعدي المتكررة الذكر، التي استخرجناها من الشكل: 198، وهي طغراء تتميز عن غيرها من الطغراوات السعدية بحشواتها الزخرفية النباتية البديعة، مما يؤكّد أن المغاربة لم يهتموا بالزخرفة الهندسية فحسب، بل تعدّوها ليهتموا أيضا بالزخرفة النباتية.

والجدير بالذكر أن اختيارنا لطغراء زيدان السعدي لإجراء هذه المقارنة، إنما هو راجع بالأساس إلى كونها شبيهة بطغراء السلطان العثماني: سليمان القانوني (926 - 974هـ/1520 - 1566م) في بعض تفاصيلها (انظر شكل: 214). يضاف إلى ذلك أيضا تقاربها الزمني مع هذه الطغراء العثمانية، سيما إذا علمنا أن طغراء زيدان السعدي، لا تعدو أن تكون سوى نسخة مطابقة للطغراوات السعدية التي سبقتها، ولا تزيد عنها إلا بتلك الحشوات الزخرفية التي تخلو منها سابقاتها، بينما تُعدّ هذه الحشوات الزخرفية سمة أساسية في طغراوات أوائل السلاطين العثمانيين، إذن فهذا هو الداعي الذي فرض الطغراء الزيدانية كأنموذج للمقارنة فيما بينها وبين الطغراء العثمانية، التي تمتلك - تقريبا - الخصائص الزخرفية والفنية نفسها. ومن العناصر الفنية التي تتشابه فيها الطغراءان؛ السعدية والعثمانية:

---

[15] - انظر مقالا عن الطغراء العثمانية، المعايرجي (حسن عبد المجيد)، الطغراء قمة الجمال في الخط العربي، مجلة الدوحة، عدد: 123، مدرس 1986، صفحات: 116 117 118

انظر أيضا حول التسميات الفنية للطغراء

- حنش، الخط العربي في الوثائق العثمانية، ص. 218 219

- **أولا: الطوغ:**

وهو الألف أو اللام أو رقبة كل من الطاء والظاء، ومن هذا الحرف اقتبست تسميته التي تم تحريفها من طرف العثمانيين بسبب عجمتهم (طاء = طوغ أو طغ) (**Tug**)، وهناك تفسير آخر للطوغ ورد في المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، حيث إن معناه: الذؤابة المعلقة على القلنسوة التركية الحمراء، التي كان يلبسها أركان الدولة، وعادة ما كانت تُصنع تلك الذّؤابة من شعر الخيول[16]. وهي تشبه إلى حد كبير القلنسوة المغربية التي تُلبس مع الجلباب المغربي، حيث تمتلك الخصائص نفسها (اللون الأحمر والذؤابة السوداء)، إلى درجة أطلق عليها الأتراك تسمية: **"الطربوش الفاسي"**، نسبة إلى المغرب.

وقد ورد في بعض المراجع العثمانية أن التتار والمغول كانوا يستعملون الطوغ المأخوذ من شعر ذيل الحصان، كشارة للسيادة، حيث كانت الجيوش ترفع خصلة منه على عُمد أو رماح منتصبة في المقدمة[17]. ويُطلق الطوغ أيضا على خصلة الشعر التي تُشبك في دبوس مرصع يرشق في عمامة (الخاقان). والخاقان[18] **هو لقب الإمبراطور عند الأتراك**، وتسمى زوجته الـ: "خاتون"[19].

وفي السياق نفسه، يشير دوسون إلى أن الأطواغ هي أذيال الخيول، حيث كانت هي **العلامات المميزة للقيادة العسكرية**"، وقد كان للإمبراطورية العثمانية موظف خاص بها يدخل ضمن أغاوات الرِّكاب السلطاني، يسمى: "**حامل العلم**" أو "**مير علم**"، حيث يحرس الأعلام و"**الأطواغ الستة**"[20].

وربما هي مأخوذة من كلمة: "**طغراغ**" التي يذكر الكاشغري أن لها معنيين، معنى يرتبط بـ "**طابع الملك وتوقيعه**"[21]، ومعنى يرتبط بـ: "**كل فرس يعطي الملك جندَه يوم الركوب أو الحرب، ثم يُسترد منهم يوم الإقامة**"[22].

وكيفما كان تفسير الطوغ، فإن الطغراء تحتوي على ثلاثة طوغات متوازية، لكل طوغ منها زلفة تزيينية. من هنا يمكن القول إن الألفات أو الطوغات - وعددها ثلاثة - هو أمر بنيوي في رسم الطغراءين السعدية والعثمانية، ولا يختلفان سوى في نصّيهما، وكذا في وضعية تلك الطوغات التي تحكمت في شكل الطغراء وبنائها الهيكلي. فالطغراء السعدية تبدو مستلقية بحكم امتداد ألفاتها (طوغاتها) امتدادا أفقيا، مما جعلها تمتد على محور أفقي، أما الطغراء العثمانية، فهي قائمة بحكم امتداد ألفاتها امتدادا رأسيا، يتسم بميلان خفيف إلى اليمين أو إلى اليسار (انظر شكل: 202، وشكل: 203).

---

16 - صابان، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، ص: 149

17 - اوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ج/2، ص: 278

18 - لقب من ألقاب السلطان، وهو لقب معولي. انظر

- محمود عامر ، المصطلحات المتداولة في الدولة العثمانية، ص: 372

19 - اوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ج/1، ص: 22

20 - دوسون، نظم الحكم والإدارة في الدولة العثمانية، ص: 7

21 - الكاشغري، ديوان لغات الترك،ج/1، ص 385

22 المصدر نفسه، ج/1، ص 385

ولعل هذا الامتداد العمودي للطوغات، هو ما جعل الطغراء كلها تمتد على محورعمودي. ومن أوجه التشابه الأخرى بين الطغراءين: "**الزلفات التزيينية**" للطوغات، حيث تبدو كل واحدة منها في الطغراء الزيدانية على شكل منقار إوزة، وهي الصورة نفسها التي تبدو عليها في الطغراوات العثمانية المزامنة لها، ولا تختلف تلك الزلفات في الطغراءين معا إلا في وضعها المحوري، فإذا كانت زلفات الطغراء السعدية أفقية بسبب الامتداد الأفقي للطوغات، فإن زلفات الطغراء العثمانية عمودية بسبب الامتداد العمودي للطوغات:



تشابه شكل الزلفة في الطغرائين: السعدية والعثمانية رغم اختلاف وضعيتهما

- **ثانيا: السرأة (السرّة أو الكرسي):**

تشكل السرأة الجزء الذي تبدأ منه كتابة النص أو المتن المراد اعتماده لرسم الطغراء، وهي بمثابة قاعدتها أو كرسيها الذي ترتكز عليه، والملاحظ أن شكلها يشبه شكل: "**الكمثرى**" في الطغراء العثمانية، بيْد أن شكلها في الطغراء السعدية؛ يعرف نوعا من الاستطالة والامتداد، وذلك راجع إلى الشكل العام لمجموع الطغراء؛ وكذا إلى النص الذي تتألف منه كل واحدة منهما، فإذا كانت عبارة: "**الحمد لله وحده** ؛ هي نص الطغراء السعدية منذ عهد أحمد المنصور الذهبي، فإن أسماء السلاطين الأتراك؛ هي التي كانت تشكِّل النص الذي تتألف منه الطغراء العثمانية، وذلك بحسب اسم كل سلطان من سلاطين آل عثمان، وقد نجد في بعض الأحايين، نصوصا أخرى؛ وُظِّفت في الطغراوات المشرقية الحديثة، كالبسملة وبعض الأحاديث النبوية والآيات القرآنية وغيرها.

- **ثالثا: بيضتا الطغراء:**

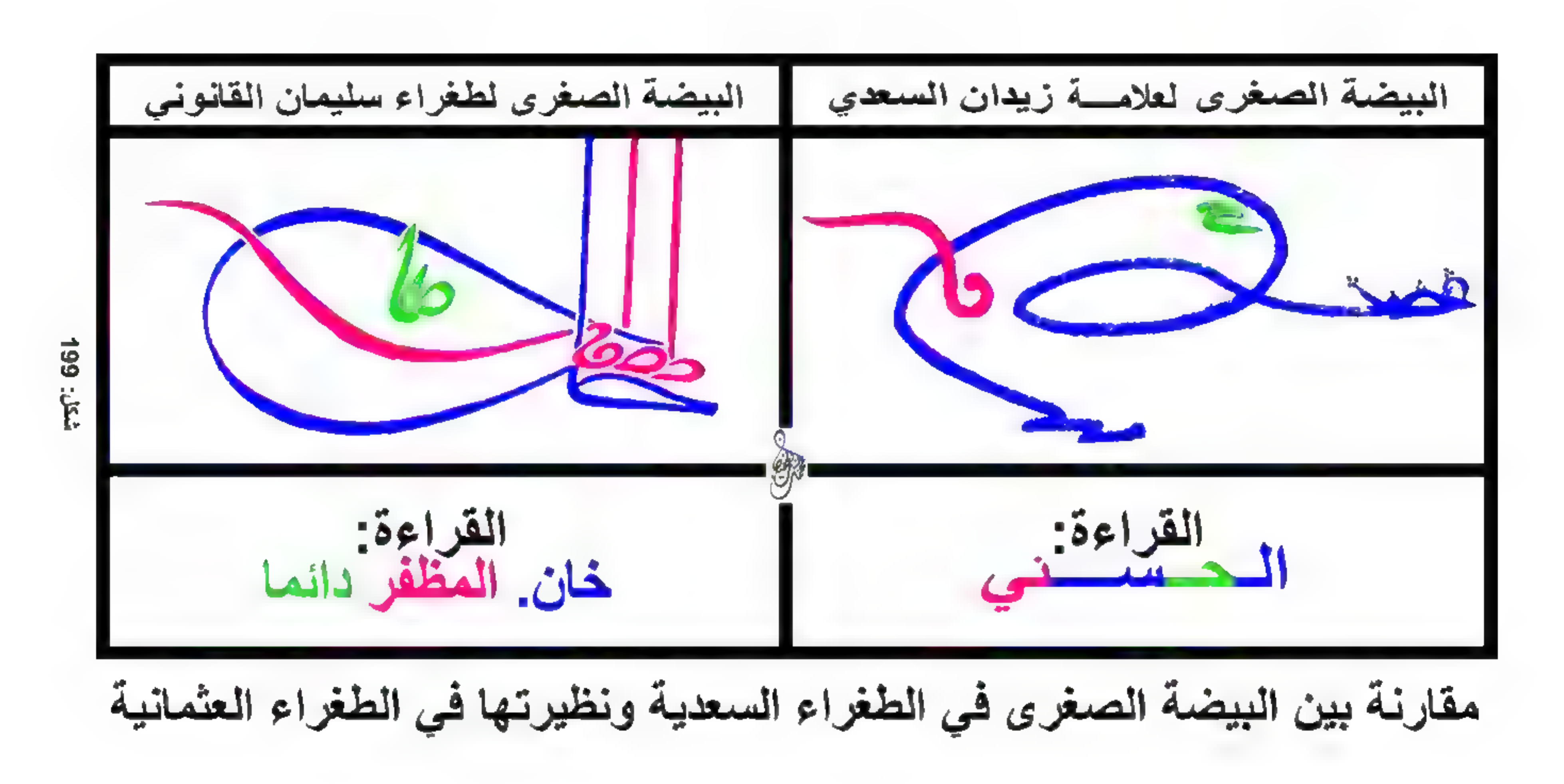
إن الاختلاف بين الطغراءين: "السعدية" و"العثمانية"؛ يتجلى من ناحية أخرى في كون بيضتي الطغراء العثمانية؛ تشكلان كتلة واحدة باتحادهما، حيث تحتوي البيضة الكبرى البيضة التي تصغرها في شكل متوازن يظهر يسار الطوغات الثلاثة، وتشكيل البيضتين راجع إلى توظيف عراقة حرفي النون في كلمتي: (**ابن**) - (**خان**)، وتجدر الإشارة إلى أن هذا الإسم؛ هو لقب اتخذه سلاطين العثمانيين في المرحلة الأولى للطغراء العثمانية، وقد استمر استعماله حاضرا في كتابتها على هذا الشكل، حتى أصبح قاعدة ثابتة لا يجوز الإخلال بها، وهذا معناه؛ انه إذا كان النص المراد توظيفه في رسم الطغراء وبيضتيها لا يتوفر على حرفين من الجنس نفسه كحرف النون، أو حرفين لهما حوض كحوض النون مؤتلفين أو مختلفين، فإنه

يتوجب على الخطاط في هذه الحالة؛ توظيف بعض الأحرف الأخرى لرسم بيضتي الطغراء، كحرف الدال مثلا أو حرف الراء أو الأحرف الأخرى التي تملك عراقات وزوائد تقبل التطويع، بل ويجوز للخطاط توظيف بعض الكشائد بعد تطويعها من أجل الغرض نفسه.

هذا كل ما يتعلق ببيضتي الطغراء العثمانية، أما فيما يتعلق ببيضتي الطغراء السعدية، فإننا نجد كل واحدة منهما مستقلة بنفسها، والأكثر من ذلك، اختلاف تموضعهما. فإذا كانت البيضة الكبرى تقع في اليسار، فإننا نجد البيضة الصغرى تتناظر معها في جهة اليمين، ويرجع ذلك إلى الامتداد الأفقي للألفات (الطوغات) التي فرضت باستلقائها هذا التوزيع، حيث شكلت بتراتبها الذي يطبعه قانون التوازي قاعدة أفقية للبيضتين؛ وفق نمط هندسي يطبعه التوازن الهيكلي للطغراء. يُضاف إلى ذلك، أن البيضة الصغرى للطغراء السعدية، تشكل - بالتفافها حول نفسها وفق نمط بديع - كلمة: "**الحسني**"، وهو لقب اتخذه سلاطين الدولة السعدية للتذكير بأثالة محتدهم، وعراقة جذمهم، الذي يتصل بالنسب الشريف الممتد إلى الحسن بن علي رضي الله تعالى عنهما، أما البيضة الكبرى فيشكّلها تعانق ألف الجلالة بحرف الهاء الدالة على كلمة: "**انتهى**"، حيث يكون ذلك التعانق متصلا كما نشاهده في طغراء أبي المعالي زيدان التي ندرسها، أو منفصلا كما شاهدناه في طغراء أبيه أحمد المنصور الذهبي التي سبق وقمنا بتشريحها على سبيل المثال لا الحصر (راجع شكل: 184 وقارنه بشكل: 198).

بالإضافة إلى ذلك. نلاحظ التشابه الكبير بين "**راء المظفر**" في الطغراء العثمانية، و"**الياء السيفية**" في الطغراء السعدية، حيث تخترقان معا؛ البيضة الصغرى من فضائها الداخلي نحو الفضاء الخارجي في كلتا الطغراءين. وسُميت راء المظفر بهذا الإسم، لأن العثمانيين كانوا عند كتابة أسماء سلاطينهم، يضيفون إليها عبارة: "**المظفر دائما**" كما نلاحظه في كل طغراواتهم، فكانوا عادة ما يرسلون راء كلمة: "المظفر" بشكل تخترق معه البيضة الصغرى، بينما كانوا يضعون كلمة: "دائما" بأجمعها داخل فضاء تلك البيضة. وحتى يكتمل وجه المقارنة، نشير إلى أن السعديين استخدموا في طغراواتهم، الحرفين الأخيرين من كلمة: "**الحسني**"، وهما: "**النون والياء السيفية**"، في الموقع نفسه لكلمة. "**المظفر**"، بينما استخدموا الحرف الثالث من الكلمة نفسها (الحسني)، وهو: "**حرف الحاء**"، في الموقع نفسه لكلمة: "**دائما**" من الطغراء العثمانية. وعليه، يمكن القول؛ إنه ورغم تشابه عملية التوزيع بين العنصرين المذكورين في الطغراءين السعدية والعثمانية – إلى حد ما – إلا أن الأحرف أو الكلمات المستخدمة فيهما، مختلفة بسبب اختلاف النص أو المتن الموظف في كل واحدة منهما. ولتجسيد ما قلناه، قمنا بإجراء المقارنة الممثلة في (الشكل: 199).

وقد كان الغرض من استعمال الشكلين البيضويين في الطغراءين. "السعدية" و"العثمانية" – حسب اعتقادي – هو المحافظة على البنية الجمالية للطغراء فقط، هذا على الرغم من عدم تقيد الفنانين العثمانيين أنفسهم بهذه البنية الجمالية؛ المتمثلة في بيضتي الطغراء الكبرى والصغرى، حيث لجأ بعضهم إلى رسم الطغراء بعد إخضاعها لمبدأ: "**التناظر**"، مما حول صورتها التجريدية إلى صورة تجسيدية، يمكن تشبيهها بوجه آدمي، له عينان كبيرتان، شكّلتهما الصور البيضوية المتناظرة عند رسم الطغراء (انظر شكل: 200).

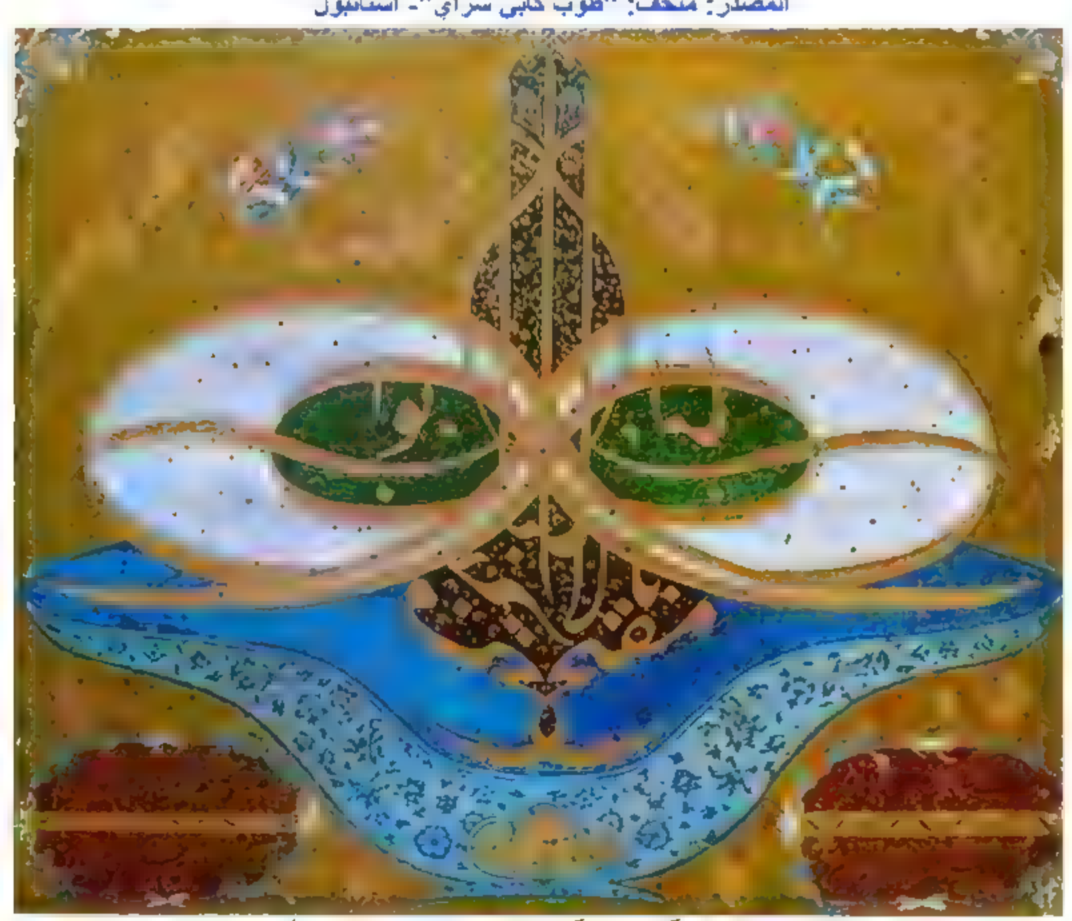


مقارنة بين البيضة الصغرى في الطغراء السعدية ونظيرتها في الطغراء العثمانية

شكل: 199



طغراء السلطان العثماني: "سليم بن مصطفى"
المصدر: متحف: "طوب كابي سراي"- استانبول



طغراء عثمانية، مؤلفة من عبارة:"يامفتح الأبواب"
المصدر: متحف: "طوب كابي سراي"- استانبول

أنموذج لطغراءين عثمانيتين خاضعتين لقانون التناظر، وهما على شكل وجه آدمي
شكل: 200

- رابعا: القول:

وهو ذراعا الطغراء، ويعني في اللغة التركية: (**kul**)، أي: "العبد"[23]، وربما سمي بذلك لأنه يشكل ذنب الطغراء الذي يُعد أحد ملحقاتها الثانوية، ويتكون القول من طوغ علوي وطوغ سفلي، وهما يتّسمان في الطغراء العثمانية بالنزول إلى أسفل على شكل خطين انسيابيين متجاوبين، متجهين إلى اليمين على محور مائل.

أما الطوغان الممثلان "لقول" طغراء زيدان السعدي، فهما يعرفان على عكس الطغراء العثمانية الصعود إلى أعلى، على شكل خطين متعانقين معقودين، يشكلان بتعانقهما حلقة بيضوية، تتجه برأسها إلى اليسار على محور أفقي:



- خامسا: الزخرفة والتذهيب:

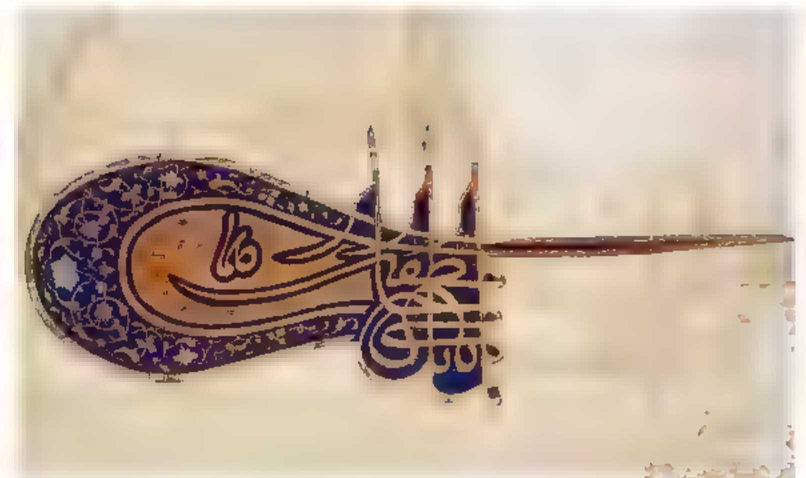
تم توظيف مجموعة من الحشوات الزخرفية لملئ فراغ بيضتي الطغراء، وهي من صنف الزخرفة النباتية أوما يسمى بـ: "**فن التوريق**"، وقد اتخذت تلك الزخرفة أشكالا حلزونية مورّقة، ومزينة ببعض المراوح النخيلية، والأوراق والأزهار المتنوعة، وعلى رأسها: زهرة الأقنثة (الأكانتس)، ويُلاحظ عند إجراء المقارنة بين الطغراءين: "السعدية" و"العثمانية"، تشابه أشكال وعناصر الحشوات الزخرفية بين البيضتين: "الكبرى" و"الصغرى" في كلتا الطغراءين (انظر شكل: 214، وشكل: 215).

وأقدم طغراء عثمانية مزخرفة عثرنا عليها، هي طغراء استخرجناها من فرمان سلطاني مؤرخ في: فاتح صفر 890هـ/17 فبراير1485م، يرجع إلى عهد السلطان العثماني بايزيد الثاني (انظر شكل: 201).

---

[23] صابان، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، ص. 186

تفصيـــــــــــــل:



طغـــراء بايزيـــد الثـــاني

مقطع كتابي يظهر المراحل الأولى لتطور الخط الديواني

فرمان سلطاني مورخ في: فاتح صفر 890هـ/17 فبراير1485م، يرجع إلى عهد السلطان العثماني بايزيد الثاني (886 - 918هـ/1481 - 1512م).

المصدر: طوب كابي سراي - استانبول، رقم: Arcives F.5527/2

شكل: 201

وفي هذا الشأن، يذهب بعض الباحثين الأتراك إلى أن طغراوات القرن الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين، كانت طغراوات بديعة، رُسمت بعناية فائقة وزخرفة جميلة جعلت المهتمين يشعرون بالإعجاب تجاهها حتى الآن (انظر على سبيل المثال؛ أنموذجين لطغراوات سليمان القانوني. شكل: 202 وشكل: 203)، غير أن الطغراء العثمانية لم تلبث أن تدهورت مع مرور الوقت، حتى جاءت نهايات القرن الثامن عشر الميلادي، لتبدأ عملية إحيائها من جديد، فقام الخطاط: "مصطفى الزهدي" الملقب بـ: "راقم" (1171 1241هـ/1758 1826م) بإصلاح شكلها ابتداء من عهد السلطان سليم الثالث (1203 1222هـ/1789 1807م)، وبرز ذلك جليا في طغراء السلطان محمود الثاني الملقب بـ: **عدلي**" (1223 1255هـ/1808 1839م)، ثم أخذت شكلها الأخير بعد ذلك على يد الخطاط: "**سامي أفندي**" (1253 1330هـ/1837 1911م)، في عهد السلطان عبد الحميد الثاني (1293 1327هـ/1876 - 1909م)، إذ استعان في كتابتها بالمقاييس الرياضية والنسب الجمالية، وقد تنافس الخطاطون بعد سامي في تجويد الطغراء رسما وكتابة وتركيبا، حتى بلغت أوج تطورها على يد الخطاط: إسماعيل حقي ألتون بزر (1287 - 1365هـ/1870 - 1946م)، الذي ارتبط اسمه بالطغراء من فرْط تجويده وتحسينه لأشكالها خلال عهود أواخر سلاطين آل عثمان، لدرجة لُقِّب معها في الدواوين السلطانية العثمانية بـ: "**طغراكش**" أي: "**الطغرائي**"[24].

ومهما يكن من أمر، فإن أجود الطغراوات العثمانية على مستوى الزخرفة والتذهيب، هي تلك الطغراوات التي كانت تتزامن مع عصر الدولة السعدية، مما يوحي بوجود منافسة مبطّنة بين سلاطين الدولتين على جميع المستويات، بما في ذلك التقاليد السلطانية التي تُعد الطغراء إحدى تجليّاتها، ولتأكيد هذا المعطى، قمنا بإجراء مقارنات دلالية تخضع لمنطق التزامن بين عدة وثائق عثمانية وأخرى سعدية، فوجدنا بينها نوعا من التقارب على مستوى الهيكل العام المتعلق بتوزيع العناصر الفنية للوثيقة، وكذا تنميقها وتذهيبها، بل وحتى زخرفتها.

فقد قمنا في الشكل: 204 – على سبيل المثال – بإجراء مقارنة بين وثيقتين متقاربتين زمنيا؛ إحداهما ترجع إلى عهد السلطان العثماني مراد الثالث (982 - 1003هـ/1574 - 1595م)، وهي مؤرخة في. فاتح جمادى الأولى 985هـ/17يوليوز1577م، والثانية ترجع إلى عهد السلطان السعدي أبي المعالي زيدان (1012 - 1037هـ/1603 - 1628م)، وهي مؤرخة في فاتح ربيع الثاني1017هـ/15 يوليوز1608م، ومن خلال تأملنا لهاتين الوثيقتين؛ يتضح لنا – عيانا بيانا – لجوء كلا الدولتين إلى الإمعان في تنميق الوثائق الرسمية تبعا لقيمتها الإدارية والسيادية، حيث يُلاحظ كتابة كلمات الطغراء بماء الذهب الخالص، كما يُلاحظ أيضا ملء فراغاتها الداخلية التي تشكلها البيضتان الكبرى والصغرى في كلا الوثيقتين بضروب من الحشوات البديعة التي تتنوع وحداتها الزخرفية، كما تتنوع ألوانها النفيسة التي يغلب عليها ماء الذهب، واللازورد الأزرق، والزنجفر الأحمر، وغيرها من الألوان.

---

[24] الدولة العثمانية. تاريخ وحضارة، ج/2، ص: 745 بتصرّف

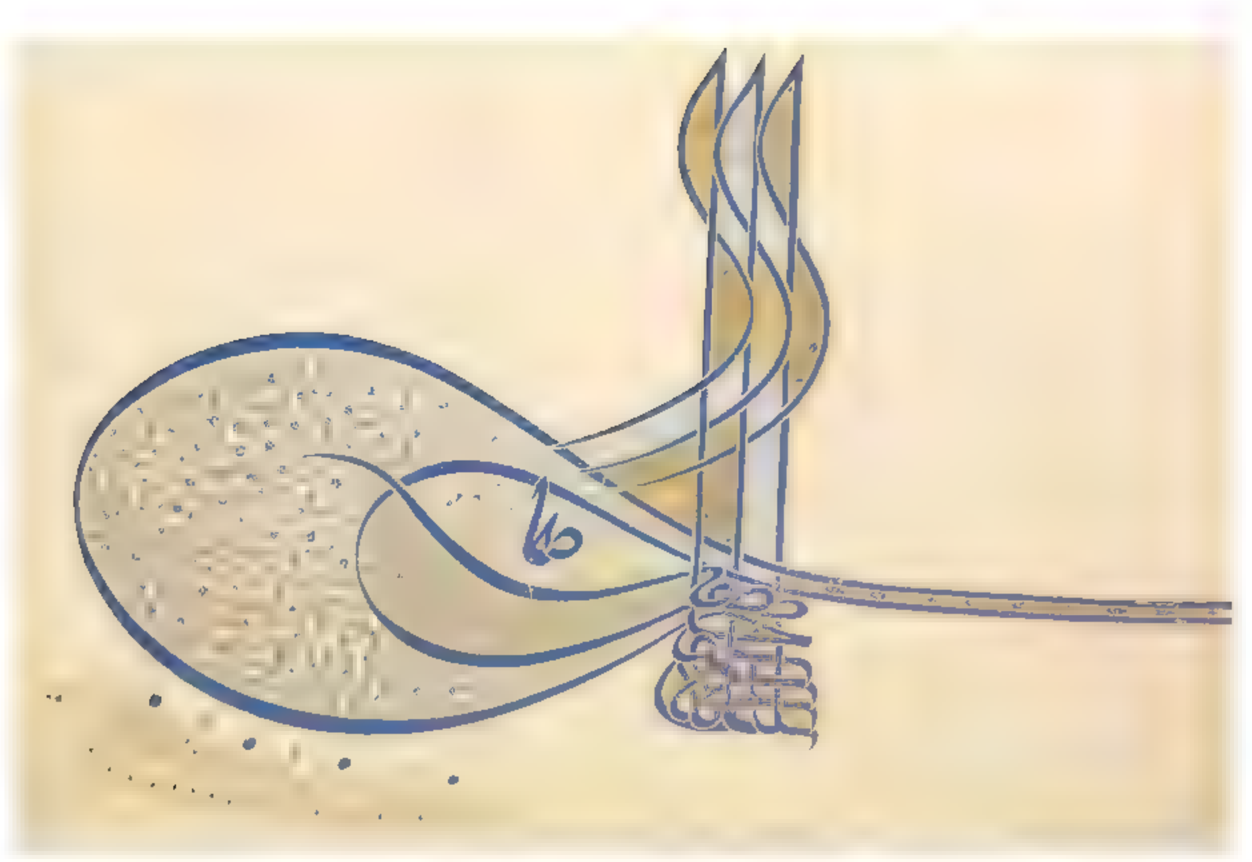
ولاستكمال أوجه المقارنة بين الطغراءين: السعدية والعثمانية، اقترحنا أيضا وثيقتين أخريين متزامنتين، لاتفصل بينهما سوى سنة واحدة كهامش زمني؛ إحداهما ترجع إلى عهد السلطان العثماني مراد الرابع (1032 - 1049هـ/1623 - 1640م)، وهي مؤرخة في: فاتح جمادى الأولى 1044هـ/23 أكتوبر 1634م، والثانية ترجع إلى عهد السلطان السعدي الوليد بن زيدان (1040 1046هـ/1631 1636م)، وهي مؤرخة في: 3 صفر 1045هـ/19 يوليوز 1635م، ومن خلال تأملنا لهاتين الوثيقتين؛ يتضح الاقتصار على كتابة كلمات الطغراء بماء الذهب المؤطر بالسواد دون زخرفة، لأن التذهيب وحده كان يُعـدّ كافيا لإعطاء قيمة ونفاسة للوثيقة السلطانية (انظر شكل: 205).

وفي هذا المضمار، نشير إلى أن رسم الطغراوات بماء الذهب المؤطر باللون الأسود؛ هو تقليد سلطاني قديم، كان يُسميه الخطاطون في العصر الوسيط بـ: "**التزميك**"، ونستدل في هذا الأمر بما ذكره القلقشندي خلال العصر المملوكي من كون "**الطغراة**..[**عند المماليك كانت**] **مكتوبة بالذهب بالقلم المحقق مزمّك بالسواد**"[25].

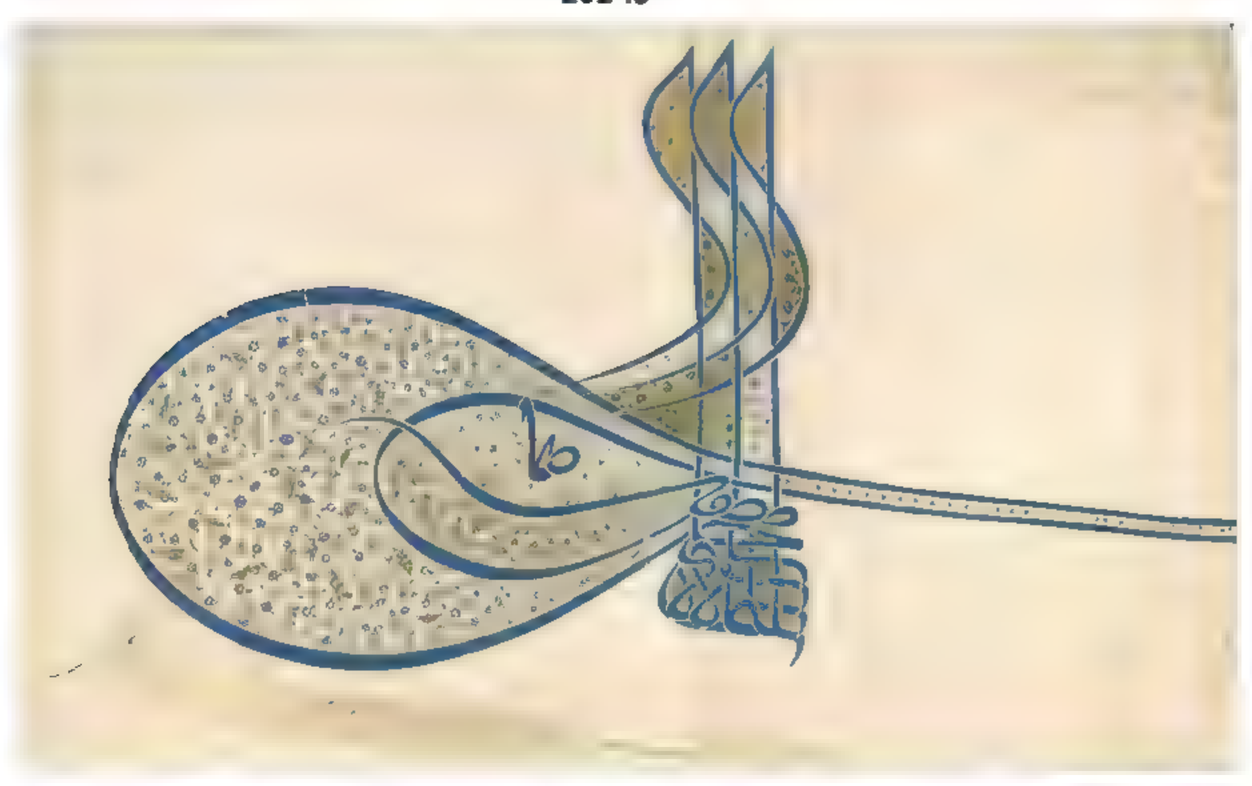
من خلال ما سبق، يمكن القول إنه يكفينا القيام بنظرة عابرة للشكلين: 204 و205، لنكتشف مدى التقارب الفني بين الطغراء السعدية ونظيرتها العثمانية، سواء فيما يتعلق بالأحبار المستعملة، أو فيما يتعلق بكيفية الإخراج الكتابي والتنميق الزخرفي، أوحتى فيما يتعلق بكيفية توزيع العناصر الفنية التي تؤثث جنبات الوثيقة، وذلك بالرغم من الاختلافات النصية والفنية التي تميز بينهما من منطلق انفراد كل دولة بسيادتها.

---

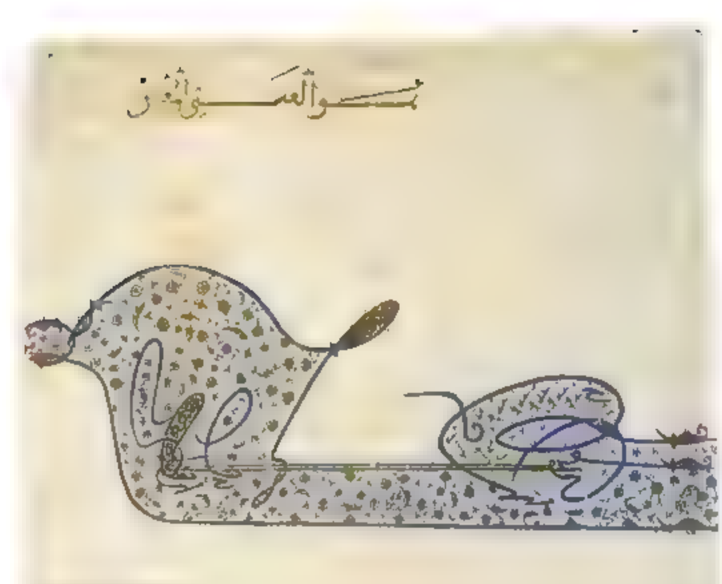
[25] القلقشندي، صبح الأعشى، ج/7، ص: 321



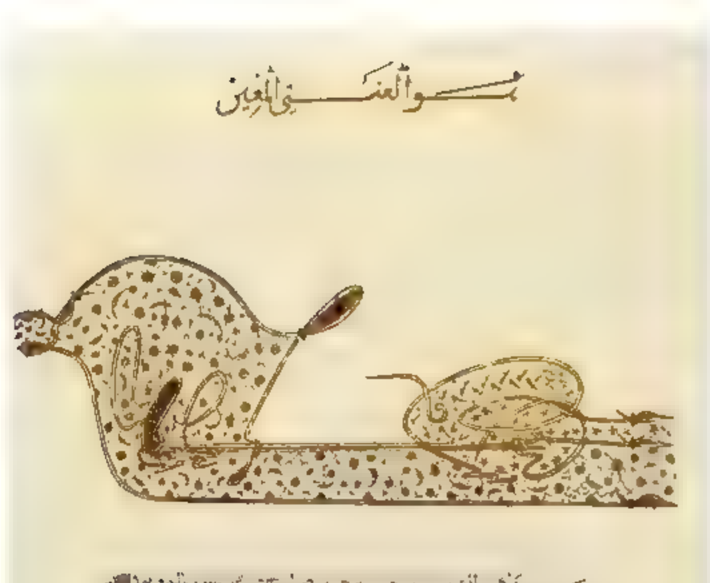
طغراء سليمان القانوني (926 - 974هـ/1520 - 1566م)، مقتبسة من فرمان سلطاني، وتحتها عبارة:
"نشان شريف عالي شان سامي، مكان سلطاني، وطغراي غراي جهان.."
متحف الميتروبوليتان – نيويورك، رقم: 38.149.1
شكل: 202



طغراء سليمان القانوني (926 - 974هـ/1520 - 1566م)، مقتبسة من فرمان سلطاني، وتحتها عبارة:
"نشان شريف عالي شان سامي، مكان سلطاني، وطغراي غراي جهان.."
متحف الميتروبوليتان – نيويورك، رقم: 38.149.2
شكل: 203



رسالة من أبي المعالي زيدان الناصر السعدي (1012 - 1037هـ/1603 - 1628م)
إلى فيليب الثالث بتاريخ: 1ربيع الثاني1017هـ/15 يوليوز1608م
المصدر: الوثيقة محفوظة في الارشيف العام سانت مانكش (سيمنكاس) - بلد الوليد، رقم: E210



نسخة من رسالة لابي المعالي زيدان السعدي (1012 - 1037هـ/1603 - 1628م)
الى فيليب الثالث بتاريخ: 1 ربيع الثاني1017هـ/15 يوليوز1608م
مصدر الوثيقة: من انجاز المولف نقلا عن الوثيقة الاصلية



رسالة من السلطان العثماني: مراد الثالث (982 - 1003هـ/1574 - 1595م)
إلى الامير: ستيفان باثوري بتاريخ: 1 جمادى الاولى 985هـ/17 يوليوز 1577م

المصدر: الاصل محفوظ في الارشيف العام - بولونيا، رقم 486
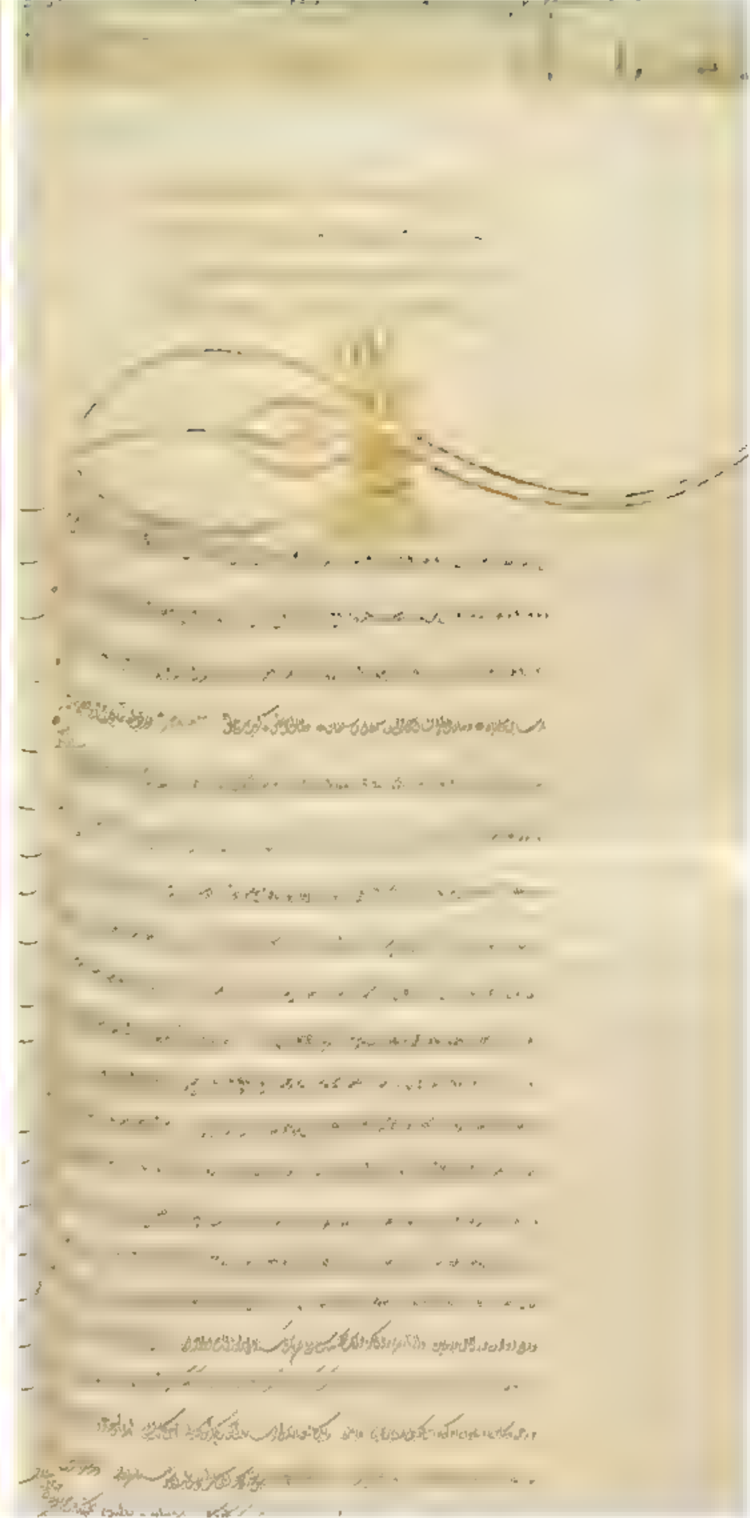


رسالة من أبي المعالي زيدان السعدي (1012 - 1037هـ/1603 - 1628م)
الى فيليب الثالث بتاريخ: 1 ربيع الثاني 1017هـ/15 يوليوز 1608م

المصدر: الاصل محفوظ في الارشيف العام سانت مانكش (سيمنكس) - إسبانيا، رقم F210

مقارنة بين وثيقتين متقاربتين زمنيا؛ إحداهما ترجع إلى عهد السلطان العثماني مراد الثالث (982 - 1003هـ/1574 - 1595م)، والثانية ترجع إلى عهد السلطان السعدي أبي المعالي زيدان (1012 - 1037هـ/1603 - 1628م)

شكل: 204



رسالة من السلطان العثماني: مراد الرابع (1032 - 1049هـ/1623 - 1640م)

إلى الأمير: لادي سلوس الرابع بتاريخ: 1 جمادى الأولى1044هـ/ 23 اكتوبر 1634م

المصدر: الاصل محفوظ في الأرشيف العام -بولونيا- رقم: 643



امر للسلطان السعدي:الوليد بن زيدان (1040 - 1046هـ/ 1631 - 1636م)

بتاريخ: 3 صفر1045هـ/19يوليوز1635م

المصدر: المكتبة الوطنية - باريس. رقم: Arabe. 6100

مقارنة بين وثيقتين متزامنتين، لاتفصل بينهما سوى سنة واحدة كهامش زمني؛ إحداهما ترجع إلى عهد السلطان العثماني مراد الرابع (1032 - 1049هـ/1623 - 1640م)، والثانية ترجع إلى عهد السلطان السعدي الوليد بن زيدان (1040 - 1046هـ/1631 - 1636م).

شكل: 205

- **سادسا: المَخْلص:**

هو ذلك الشكل البيضوي الذى يُرسم على الجانب الأيمن للطغراء، ويعد عنصرا ثانويا مستقلا بذاته؛ لا يدخل في تكوين البنية الفنية لها، سيما وأنه لم يُضف إلى الطغراء العثمانية المتطورة إلا في عهود متأخرة، والحقيقة أنه لا يوجد لا في الطغراء السعدية، ولا في الطغراء العثمانية المزامنة لها، وقد أصبح يُستخدم في طغراوات أواخر السلاطين العثمانيين، كعنصر أساسي يضاف إليه اسم السلطان، وغالبا ما كانت كلمة: "**الغازي**" هي التي تُشكّله، فتكون قراءة الطغراء كما يلي: (**الغازي + الطغراء المكونة لاسم السلطان**)، وذلك كناية على أن السلطان يغزو في سبيل الله. ومعلوم أن هذا اللقب كان يتصل اتصالا وثيقا بالتيار السلفي أو (السلفية التاريخية) التي كانت تدعو إلى الرجوع إلى التعاليم الإسلامية الأولى، واستمر استخدامه عند السلاطين العثمانيين اعتزازا وافتخارا بالانتصارات التي حققوها على العالم المسيحي[26].

وقد تم تمثيل كلمة الغازي في إحدى المجسّمات العثمانية عن طريق إحاطة الطغراء بلباس المحاربين (درع، خوذة، رمح..)، تجسيدا لا تجريدا كما نلاحظه من خلال الشكل التالي المتواجد بطوب كابي سراي باستانبول:



ونسجل في هذا المضمار استعمال كلمات أخرى عوض كلمة: "الغازي" ككلمة: "**عدلي**" أو كلمة: "**رشاد**". وللإشارة؛ فإن كلمة: "**مَخْلص**" تعني - في الأصل - لقبا شعريا اعتاد الشعراء العثمانيون اتخاذه لأنفسهم، وذِكره في نهايات قصائدهم، إذ كان لكل شاعر منهم "مخلصه الشعري" الخاص به[27].

---

[26] - مصطفى بركات، الألقاب والوظائف العثمانية، ص: 47

[27] - حنش، الخط العربي في الوثائق العثمانية، ص: 219

ومن الأشياء الشكلية الأخرى التي تتشابه فيها الطغراء السعدية مع الطغراء العثمانية عبارة:



وكما نلاحظ ذلك؛ فإنها قد كُتبت بخط ثلثي مشرقي، يتّسم ببعض التأثيرات المغربية، في رأس الصفحة التي تُوّجت بها طغراء زيدان السعدي (راجع شكل: 198)، وذلك على غرار بعض الطغراوات العثمانية، كما نسجله مثلا في طغراء السلطان محمد الفاتح (855 - 886هـ/1451 - 1481م).(انظر شكل: 168)[28]. (انظر شكل: 206).



طغراء السلطان محمد الفاتح (855 - 886هـ/1451 - 1481م)
شكل: 206

لكن نشير إلى أن الطغراء السعدية لم تُتوج دائما بهذه العبارة، بدليل؛ أننا عثرنا على عبارات أخرى استُعملت بدلها، كما نلاحظه - على سبيل المثال - من خلال رسالة مؤرخة في: شوال 1023هـ/نونبر 1614م. تعود للسلطان السعدي أبي المعالي زيدان (1012 - 1037هـ/1603 - 1628م)، تُوّجت طغراؤها بكلمة: "هـــو" (انظر شكل: 207). الأمر نفسه يمكن ملاحظته من خلال رسالة أخرى لابنه الوليد (1040 - 1046هـ/1631 - 1636م)؛ مؤرخة في: 19صفر 1041هـ/16 شتنبر1631م. تُوّجت فيها الطغراء بعبارة: "**الله أكبر**" بخط ثلثي مشرقي (انظر شكل: 208).

---

28 انظر. ahirzaman.wordpress.com/category/osmanlı-tarihi
osmanischesreich.com\Geschichte\Sultane_3\sultane_3 html

بل إن الرسائل في عهد أحمد المنصور الذهبي (986 - 1012هـ/1578 - 1603م)، كانت تبتدئ بالبسملة والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الحمدلة الطغرائية (راجع شكل: 184)، ولعل هذا الاستعمال له ما يدعمه من خلال بعض الإفادات المصدرية، فقد أشار ابن الأحمر إلى أن هذا الترتيب عُرف في المغرب منذ ما قبل العصر المريني، حيث ذكر أن "**العلامة**"، عادة ما كان السلاطين المغاربة يضعونها "**في أول المُهْرق بعد البسملة**"[29]. وقد أشار القلقشندي في الفترة نفسها تقريبا إلى أن البسملة كان يتم "**تقديمها في أول الكلام المقصود من مكاتبة أو ولاية أو منشور إقطاع أو غير ذلك تبركا بالابتداء بها وتيمنا بذكرها**"[30].

وقد كانت بعض الوثائق العثمانية ذات الأهمية الإدارية الكبرى تتخذ شكل مناشير ملفوفة، إذ أن امتدادها العمودي كان على قدر المعلومات التفصيلية والتفضيلية التي يتناولها كل منشور، والملاحظ أن هذه الميزة كانت حاضرة أيضا في بعض الوثائق السعدية، ولإثبات هذا المعطى؛ قمنا بإجراء مقارنة دلالية بين منشورين: أحدهما يرجع إلى عهد السلطان العثماني سليمان القانوني (926 - 974هـ/1520 - 1566م)، وهو مؤرخ في: ربيع الثاني932هـ/يناير1526م، والثاني يرجع إلى عهد السلطان السعدي الوليد بن زيدان (1040 - 1046هـ/1631 - 1636م)، وهو مؤرخ في: 27 محرم 1045هـ/13 يوليوز1635م. (انظر شكل: 209). والجدير بالذكر أن مناشير ورسائل السلطان سليمان القانوني تميزت بضخامتها التي تُعبر عن قوة هذا السلطان الذي بلغت الدولة العثمانية أوجها في عهده، وللاطلاع على بعض الملامح النصية والفنية التي تميزت بها مناشير هذا السلطان؛ نقترح صورة تشريحية لرسالة بعث بها إلى فرانسيس الأوّل بتاريخ: 12شعبان970هـ/6أبريل 1563م، وبجانبها بعض المقاطع الكتابية المستخرجة منها التي تبين تسلسل العناصر الفنية والكتابية التي كانت تتألف منها المناشير والفرمانات العثمانية (انظر شكل: 210). وهي العناصر التي استمر حضورها في الوثائق العثمانية إلى المراحل النهائية لهذه الدولة، ولم تظهر بعض التعديلات على الوثائق العثمانية إلا في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، حيث همّت تلك التعديلات؛ الرسوم الطغرائية التي تم تحسينها إلى أن بلغت شكلها المثالي الذي مازال معتمدا إلى اليوم، كما همّت الخطوط التحريرية للوثائق وخاصة الخط الديواني الذي انتقل من طوره الوظيفي- التحريري المرتبط "بالوثيقة"، إلى طوره الأدائي - الجمالي المرتبط "باللوحة". وقد تميز الخط الديواني؛ دقيقه، وجليه - على وجه الخصوص - بظهور تركيبات سفينية، عند تحرير الوثائق السلطانية، حيث يتجه السطر في آخره إلى الأعلى على شكل مقدمة السفينة، مما يفسر كتابة الخط بطريقة متداخلة، ليس كباقي الخطوط، وينتهي السطر منهما مرتفعا كلما اقترب من النهاية، ولعل ذلك هو السبب في اختيارهما للاستخدام في الأوراق الرسمية، إذ يصعب على الشخص أن يضيف إلى السطر شيئا يود

---

[29] ابن الأحمر، مستودع العلامة، ص: 21

[30] القلقشندي، صبح الأعشى، ج/6، ص:213 214

إضافته، [فضلا عن إضافة سطر آخر] مما يجعل النص المكتوب آمنا من التحريف والتزوير[31]. (انظر شكل: 212 وشكل: 213).

وإذا كان النمط السفيني سمة مميزة للخط الديواني، دقيقه وجليه في تحرير الفرمانات العثمانية، التي ورثت ذلك عن الفرمانات الفارسية التي تأثر العثمانيون بخطوطها، وبشكلها العام وكذا ببنائها الهيكلي، فإن كتابة الخط المجوهر وفق النمط السفيني - هي قديمة قدم الخط المغربي، ونحن إذ نقول ذلك، لا بد أن نسوق من الشواهد المادية ما يعزز هذا القول، تلك الشواهد التي تجعلنا نذهب إلى أبعد من ذلك، إذ من خلالها نستطيع القول إن الأشكال السفينية والزورقية في الخط المجوهر الذي استعمل في تحرير الوثائق السلطانية المغربية، هي أقدم من تلك التي رأيناها بعد ذلك في الخط الديواني الجلي الذي لم يظهر إلا مع صعود الدولة العثمانية في المشرق، أما في المغرب فقد عثرنا على وثائق سلطانية مرينية حررت بالخط المجوهر. أسطرها منضدة وفق نمط تركيبي سفيني، مما يدل على أسبقية المغاربة في هذا التركيب النمطي - السفيني، لكن للأسف، لم يستمر هذا النمط بالشكل نفسه في عصر الوطاسيين والسعديين كما سنلاحظه من خلال وثائق هاتين الدولتين.

أما العثمانيون فلم يكونوا يعرفون هذا النمط في وثائقهم، حتى أخذوه من الفرس، وحتى نؤكد طرحنا هذا، اضطررنا إلى مقارنة أنموذج متأخر للديواني الدقيق - السفيني بأنموذج مريني يرجع إلى عهد أبي الحسن علي المريني (731 - 749هـ/1331 - 1348م)، استخرجناه من رسالة أرسلها إلى بيير الرابع ملك أراغونة في: 9 جمادى الثانية 745هـ/18 أكتوبر 1344م[32]، والسبب في هذه المقارنة غير المتزامنة تاريخيا، راجع بالأساس إلى توافق سقوط الدولة المرينية مع المراحل الجنينية للدولة العثمانية من جهة، ومن جهة أخرى، عدم عثورنا حتى في الوثائق الأولى للعثمانيين التي جاءت بعد المرينيين على ما يشبه هذا النمط لمقارنته بالأنموذج المريني المذكور، لذلك نؤكد على وجوب استحضار الفارق الزمني بين الأنموذجين المقارنين (أنظر شكل: 211).

[31] الدولة العثمانية. تاريخ وحضارة، ج/2، ص: 745

[32] التاري، التاريخ الدبلوماسي للمغرب، المجلد السابع، ص: 137



هو

رسالة للسلطان زيدان السعدي (1012 - 1037هـ/1603 - 1628م)، مؤرخة في: شوال 1023هـ/نونبر 1614م. تُوجت طغراؤها بكلمة: "هـــــو"
شكل: 207



رسالة للسلطان الوليد بن زيدان السعدي (1040 - 1046هـ/1631 - 1636م). موجهة للولايات العامة في: 19صفر 1041هـ/16 شتنبر1631م، تُوّجت طغراؤها، بعبارة: "الله أكبر" بخط ثلثي مشرقي[33].

شكل: 208

- [33] Henry de Castries, Les sources inédites,, Archives et bibliothèque d' angleterre, TomeIII, P. 304



المصدر: المكتبة الوطنية - باريس

المصدر: عن الاصل المحفوظ في الارشيف الوطني البلجيكي - بروكسيل

مقارنة دلالية بين منشورين أحدهما يرجع إلى عهد السلطان العثماني سليمان القانوني (926 - 974هـ/1520 - 1566م)، وهو مؤرخ في: ربيع الثاني932هـ/يناير1526م، والثاني يرجع إلى عهد السلطان السعدي الوليد بن زيدان (1040 - 1046هـ/1631 - 1636م)، وهو مؤرخ في: 27 محرم 1045هـ/13 يوليوز1635م

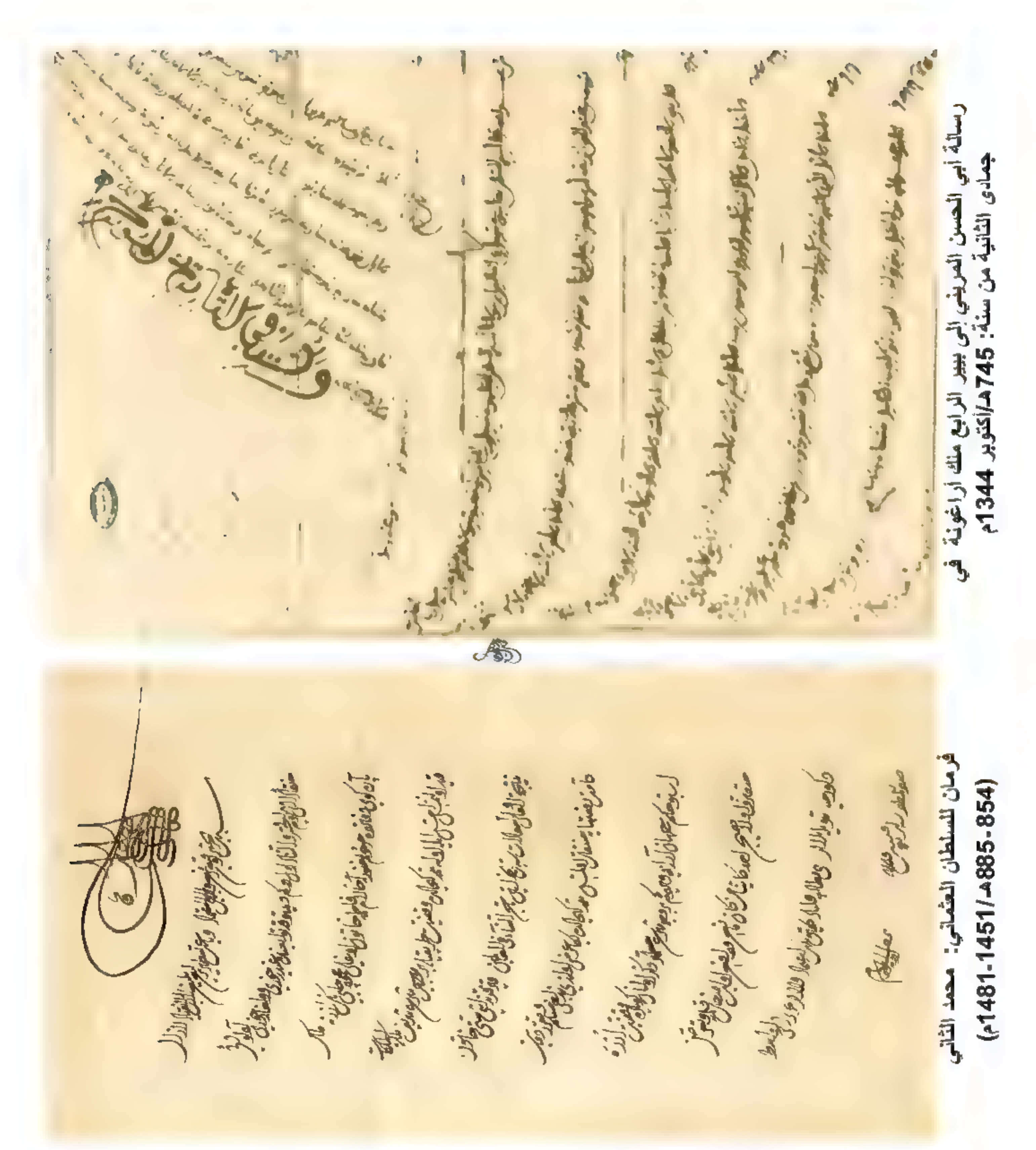
شكل: 209



رسالة من السلطان العثماني سليمان القانوني الى فرانسيس الاوّل بتاريخ: 12شعبان970هـ/6 ابريل 1563م، وبجانبها بعض المقاطع الكتابية المستخرجة منها التي تبين تسلسل العناصر الفنية والكتابية التي تتالف منها المناشير والفرمانات العثمانية

المصدر: الوثيقة محفوظة في المكتبة الوطنية - باريس، رقم: turc 822

شكل: 210



رسالة أبي الحسن المريني إلى بيير الرابع ملك أراغونة في جمادى الثانية من سنة: 745هـ/أكتوبر 1344م

فرمان للسلطان العثماني: محمد الثاني (854-885هـ/1451-1481م)

مقارنة بين وثيقتين غير متزامنتين؛ إحداهما ترجع إلى عهد السلطان المريني: أبو الحسن (731 - 749هـ/1331 - 1348م)، والثانية ترجع إلى عهد السلطان العثماني: محمد الفاتح (857 - 886هـ/1453 - 1481م). يظهران سابقة المغاربة في استعمال النمط السفيني في تركيب الخط المجوهر، قبل استعماله من طرف العثمانيين في الخط الديواني
شكل: 211



فرمان بالديواني الجلي للسلطان العثماني عبد المجيد وهو متوج بالطغراء السلطانية،
مؤرخ في سنة: 1277هـ/1861م
المصدر: الأرشيف العثماني - استانبول
شكل: 212



فرمان بالديواني الجلي للسلطان العثماني عبد المجيد وهو متوج بالطغراء السلطانية،
مؤرخ في: 28 محرم 1278هـ/5 غشت 1861م
المصدر: الأرشيف العثماني، رقم: A.E. 41
شكل: 213

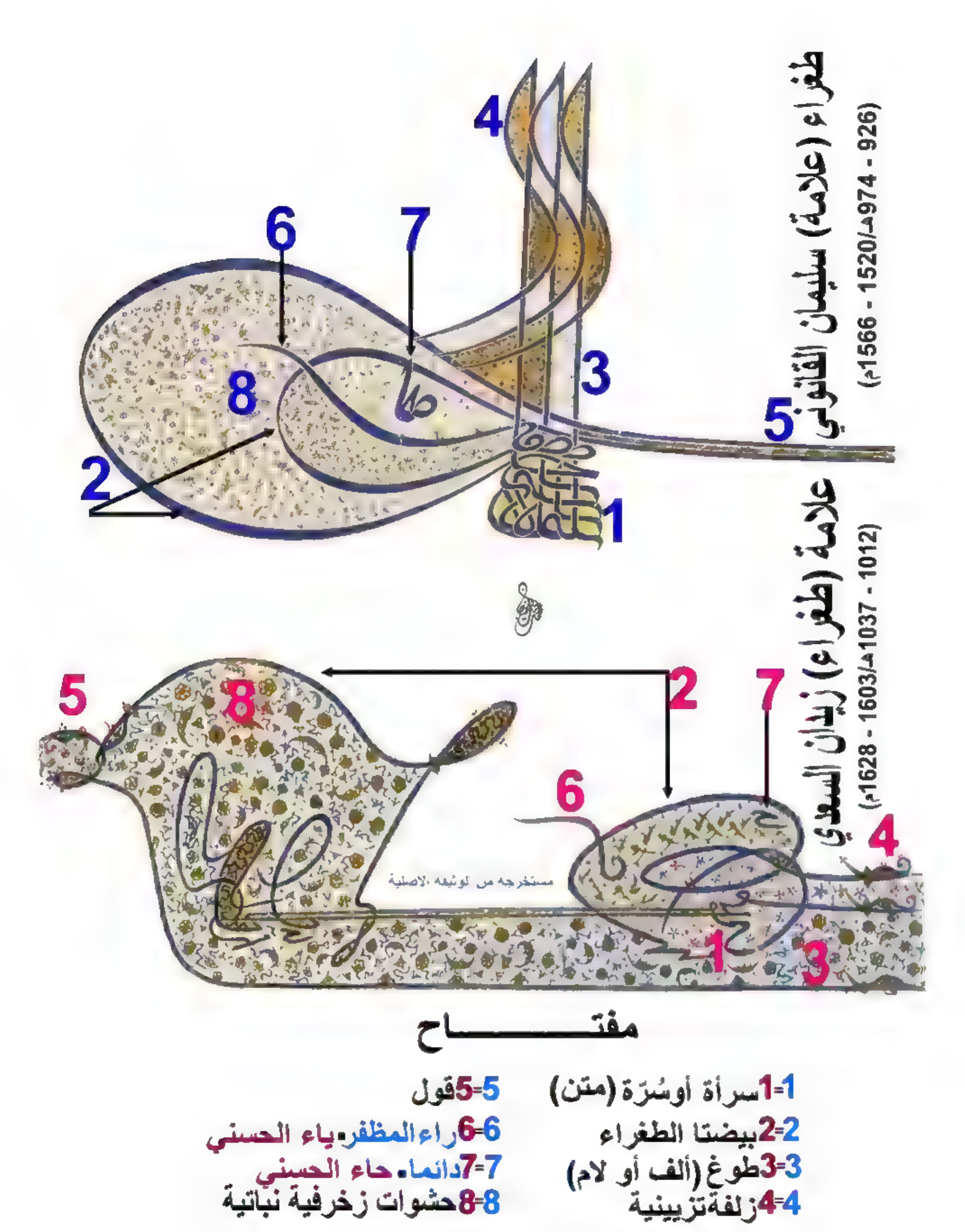
بعد هذا الاستطراد الذي يتعلق بتطور الطغراء من حيث استعمالها في الوثائق السلطانية في كل من المغرب السعدي وتركيا العثمانية، نشير إلا أنه لا يمكننا أن نطّلع على أوجه الشبه والاختلاف بين الطغراءين: السعدية والعثمانية إلا إذا قمنا بجمعهما في لوحة تفصيلية معبرة، ولبلوغ هذا المرام، أمعنّا في اختيار طغراءٍ مذهبة للسلطان العثماني أحمد الأول (1012 1026هـ/1603 1617م)، قصد مقارنتها بالطغراء الزيدانية، على اعتبار أن مرحلة حكم هذا السلطان تتزامن مع مرحلة حكم السلطان السعدي زيدان (1012 - 1037هـ/1603 - 1628م).

أما عن كيفية إجراء المقارنة، فإننا قد أشرنا للعناصر الفنية المتشابهة في كل من الطغراءين؛ بالرقم نفسه الذي قمنا بتكراره بلون مختلف بينهما، ثم وضعنا لفهم ذلك مفتاحا تفسيريا استعرضنا من خلاله التسميات الفنية لتلك العناصر، لنخرج في النهاية بالتصميم الممثل في (الشكل: 215).

والملاحظ أن شكل الطغراء العثمانية لم يتطور بشكل كبير طيلة عهود خمسة سلاطين عثمانيين. أولهم سليمان القانوني (926 - 974هـ/1520 - 1566م)، وآخرهم أحمد الأول المتكرر الذكر، ولا يخفى علينا أن مرحلة هؤلاء السلاطين الخمسة تُزامن مرحلة العصر السعدي، وقد سبق لنا جمع طغراواتهم التي يجوز مقارنتها بالطغراء السعدية في (الشكل: 171)، حيث يتضح من خلاله أن الطغراء العثمانية ظلت صورتها الفنية ثابتة في هذه المرحلة دون تغيير يُذكر.

ولتعزيز هذا الرأي، قمنا أيضا بإجراء مقارنة فنية بين طغراء زيدان السعدي وطغراء سليمان القانوني التي تبدو صورتها كصورة الطغراء المزامنة لطغراء زيدان السعدي، ألا وهي: طغراء أحمد الأول. (انظر شكل: 214) و قارنه (بشكل: 215).

لكن ما تجدر الإشارة إليه، هو أنه في الوقت الذي تطورت فيه الطغراء العثمانية، أُجهضت التجربة السعدية بسبب تسارع الأحداث السياسية، وظهور الفتن والثورات في أواخر هذه الدولة، وقد انعكست تلك الثورات سلبا على الدولة السعدية التي بدأت تفقد سيادتها بالتدريج لصالح العلويين الذين سرّعوا بسقوطها. ولو قُدّر الاستمرار للتجربة السعدية في علم الخط وفنونه بشكل عام، و رسم "الطغراء" بشكل خاص، لوصلت إلى ما وصلت إليه الطغراء العثمانية، ولكن بتأثيرات مغربية قحّة صرفة كما كانت عليه زمن المنصور الذهبي، و ابنه زيدان، ونظرا لارتباط الطغراء بمفهوم السيادة، فإن سقوط الدولة يدل ضمنيا على التخلي عن استعمال هذه العلامة السلطانية، وهذا ما وقع بالضبط إبان قيام الدولة العلوية. بالمقابل: استمرت الطغراء العثمانية في تطورها، وقد ساعدها في ذلك؛ الاستقرار السياسي الذي كانت تنعم به الإمبراطورية العثمانية، وترامي أطرافها، مما سمح للإمارات الإسلامية المنضوية تحت لوائها - كالعراق ومصر وبلاد الشام وغيرها - بالمساهمة في تلك التجربة، بل وحمل مشعلها بعد ضعف العثمانيين، وإنقاذ ذلك الإرث الفني من الضياع.



مفتـــــــــاح

1=1سرأة أوسُرّة (متن) — 5=5قول

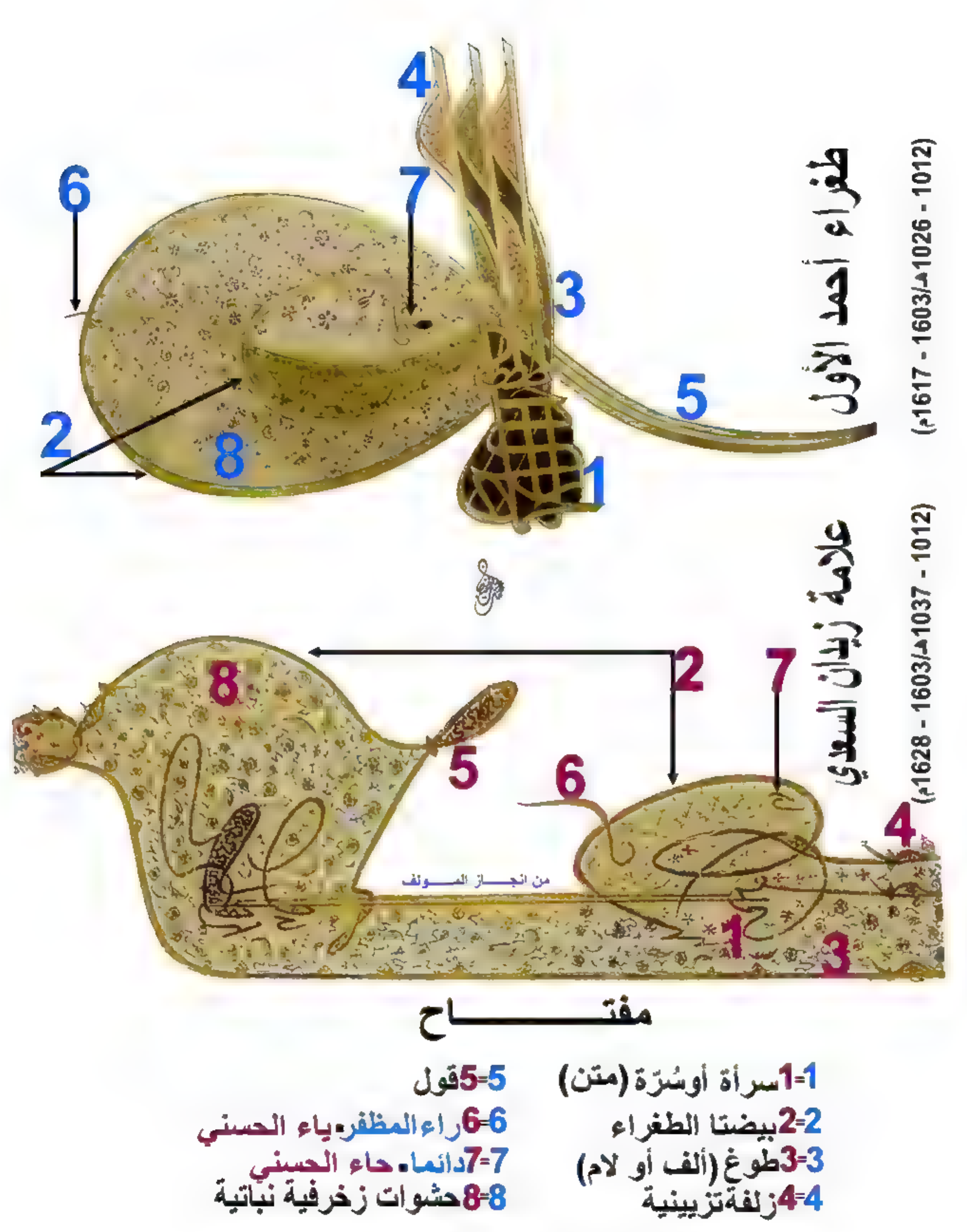
2=2بيضتا الطغراء — 6=6راء المظفر. ياء الحسني

3=3طوغ (ألف أو لام) — 7=7دائما. حاء الحسني

4=4زلفة تزيينية — 8=8حشوات زخرفية نباتية

مقارنة بين الطغراءين: السعدية والعثمانية من خلال أنموذجين غير متزامنين

شكل: 214



مقارنة بين الطغراءين: السعدية والعثمانية من خلال أنموذجين متزامنين
شكل: 215

عطفا على ما سبق؛ نستطيع القول إن التلازم بين سيادة السلطان والطغراء، كان تلازما سببيا، إلى درجة وصفت معها بعض الوثائق التي ترجع إلى عهد سليمان القانوني (926 - 974هـ/1520 - 1566م) "السلطان"، بوصف: **"السلطان الطُّغراء الغرّاء"** [34].

بل إن هذا الوصف (أي وصف السلطان بالطغراء)، قد انتقل إلى المغرب بشكل أو بآخر، وظل مستعملا فيه إلى تاريخنا المعاصر كما تشهد على ذلك بعض الوثائق المغربية المتأخرة التي تنتمي إلى العصر العلوي، ونذكر منها - على وجه الخصوص - رسالة مؤرخة في: يوم الجمعة 2 من ذي القعدة 1355هـ/14 يناير 1937م، بعثها السلطان العلوي محمد الخامس (1346 - 1380هـ/1927 - 1961م) إلى صاحب المملكة التونسية (الحسينية): أحمد باشا باي الثاني (1347 - 1361هـ/1929 - 1942م)، حيث وصفه فيها بـ: **"طغراء العائلة الحسينية"** كناية عن علو شأنه ورفعته، باعتباره رأس هذه العائلة وسيدها وحاكمها - شأنه في ذلك شأن - الطغراء التي تعد رأس الوثيقة وطرّتها، بل وأشرف عناصرها رسما وتجليلا، لاسيما وأنها التوقيع الرسمي للسلطان الذي يرمز إلى نفوذ أمره وسيادته:

صاحب المملكة التونسية، وطغراء العائلة الحسينية، سيدي أحمد باشا باي

مقطع استخرجناه من رسالة مؤرخة في: يوم الجمعة 2 من ذي القعدة 1355هـ/ 14 يناير 1937م، بعثها السلطان العلوي محمد الخامس إلى صاحب المملكة التونسية (الحسينية): أحمد باشا باي الثاني

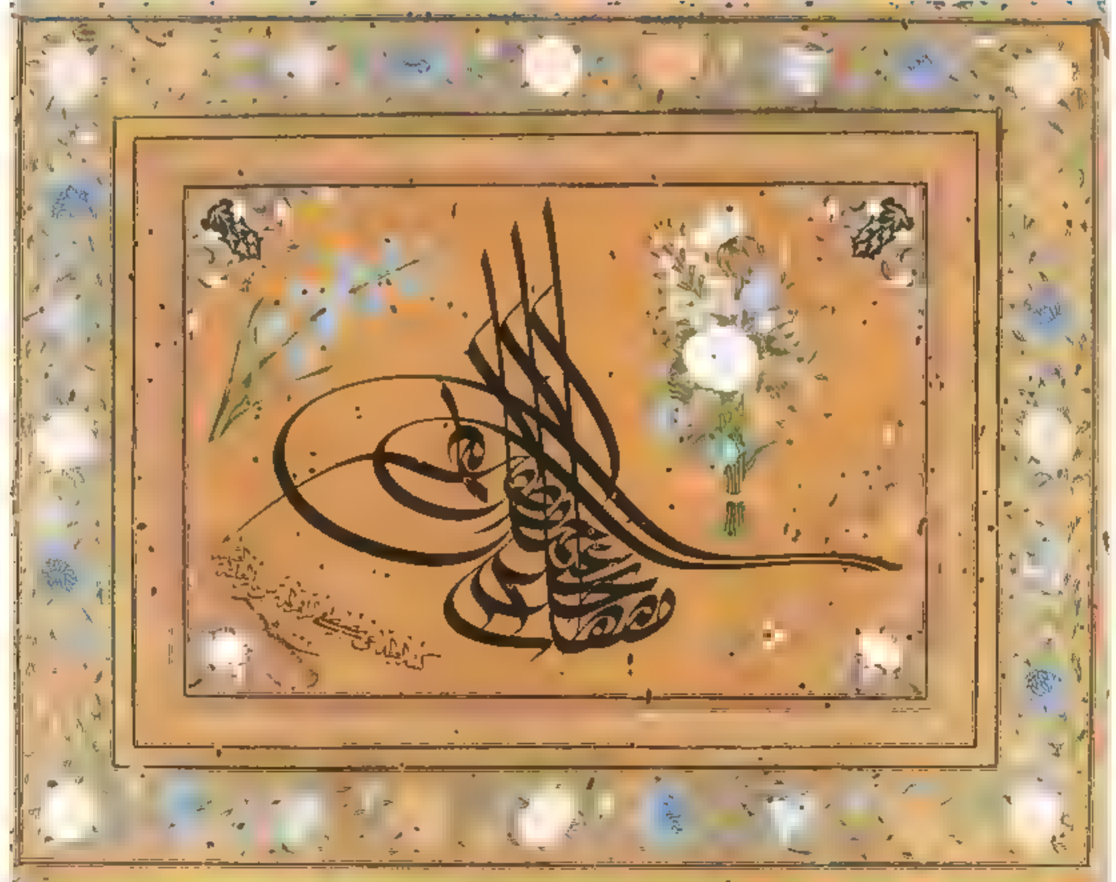
مصدر الرسالة: مجموعة: (Beaussant Lefèvre) - باريس. رقم: 145.

وقد قام الخطاطون العثمانيون المتأخرون - ومن باب حفظ الأثر- بنقل الطغراء من الفرمان والوثيقة السلطانية إلى فضاء اللوحة، ليستعملوها كوحدة فنية مستقلة في كتابة بعض الآيات القرآنية الكريمة، والأحاديث الشريفة؛ والأمثال وغيرها من الأقوال المأثورة، ولاسيما البسملة، التي طوعها بعض الخطاطين لتشكيل الجسم الطغرائي، وخاصة الخطاط العثماني المجدد: "مصطفى الزهدي" الملقب بـ: 'راقم' (1171 - 1241هـ/1758- 1826م)، وهو أخو وتلميذ الخطاط: "إسماعيل الزهدي" (ت.سنة: 1221هـ/ 1806م). و"راقم" هذا - وكما أشرنا إلى ذلك آنفا - هو من وضع اللمسات الأخيرة والشكل النهائي للطغراء العثمانية، ليتخذه الخطاطون من بعده أنموذجا مثاليا لا يحيدون عنه في التقليد والمحاكاة (انظر شكل: 216)، ومن أشهر من كتب الطغراء بعد راقم؛ الخطاط سامي أفندي (1253-1330هـ/1837 - 1911م)، والخطاط إسماعيل حقي ألتون بزر (1287- 1365هـ/1870 - 1946م)، وللاطلاع على طغراواتهم البديعة نقترح عدة نماذج منها في الأشكال: 217 - 218 - 219.

---

[34] – العباسي (عبد الرحيم بن عبد الرحمن)، منح رب البرية في فتح رودس الأبية، تحقيق: فيصل عبد الله الكندري، حوليات كلية الآداب، الكويت، الحولية: 18، الرسالة: 122، 1997 - 1998م، ص: 151





لوحتان طغرائيتان للخطاط "مصطفى الزهدي" الملقب بـ: "راقم" (1171 - 1241هـ/1758- 1826م)
شكل: 216



طغراوات عثمانية حديثة لكل من: راقم، سامي وحقي، تحمل نصوصا دينية مختلفة (ايات قرآنية وأحاديث شريفة)، تظهر من بينها طغراء مصطفى راقم الذي اقتدى به الخطاطون في رسمها
شكل: 217



رنك طغراني للخطاط "مصطفى الزهدي" الملقب بـ: "راقم" (1171 - 1241هـ/1758- 1826م)
شكل: 218



رنك طغراني للخطاط: "سامي أفندي" (1253- 1330هـ/1837 - 1911م)
شكل: 219

خلاصـــــات

بمجرد صدور مرسوم قانون أنقرة في ربيع الأول1341هـ/نونبر 1922م، الذي كان يقضي بإنهاء استعمال الطغراء في الوثائق الرسمية، خُلع السلطان عبد المجيد الثاني (1341 - 1342هـ/1922 - 1924م) بعد ذلك بسنتين، وهوآخر سلاطين العثمانيين الذين انتهت بعزلهم الخلافة العثمانية، ومعلوم أن هذا السلطان قد تخلى في مكاتباته الرسمية عن استعمال الطغراء العثمانية ذات البيضتين، واستبدلها بتوقيع شخصي ذي ملامح طغرائية لا يحمل أية دلالة سيادية، يتميز عن الطغراء السلطانية باقتصاره على بيضة واحدة، فضلا عن الاستعاضة في إمضائه بالخط الديواني الذي حل محل خطي الثلث أو الإجازة الذين كانت الطغراء السلطانية ترسم بهما، وللاستدلال على ما قلناه؛ نقترح رسالة لهذا السلطان، مؤرخة في:17 ربيع الأول 1340هـ/11نونبر 1921م، أي قبل صدور مرسوم أنقرة الذي ألغى استعمال الطغراء بسنة واحدة:



رسالة لآخر سلاطين الدولة العثمانية؛ عبد المجيد الثاني
مؤرخة في:17 ربيع الأول 1340هـ/11نونبر 1921م

التوقيع الطغرائي المستخرج من الرسالة السابقة:



عبد المجيد ابن عبد العزيز خـان

ورغم سقوط الدولة العثمانية بخلع هذا السلطان، إلا أن الطغراء ظلت تتطور بحكم استعمالها من طرف الخطاطين المعاصرين في كتابة الآيات والأحاديث الشريفة، فضلا عن الأسماء الشخصية..

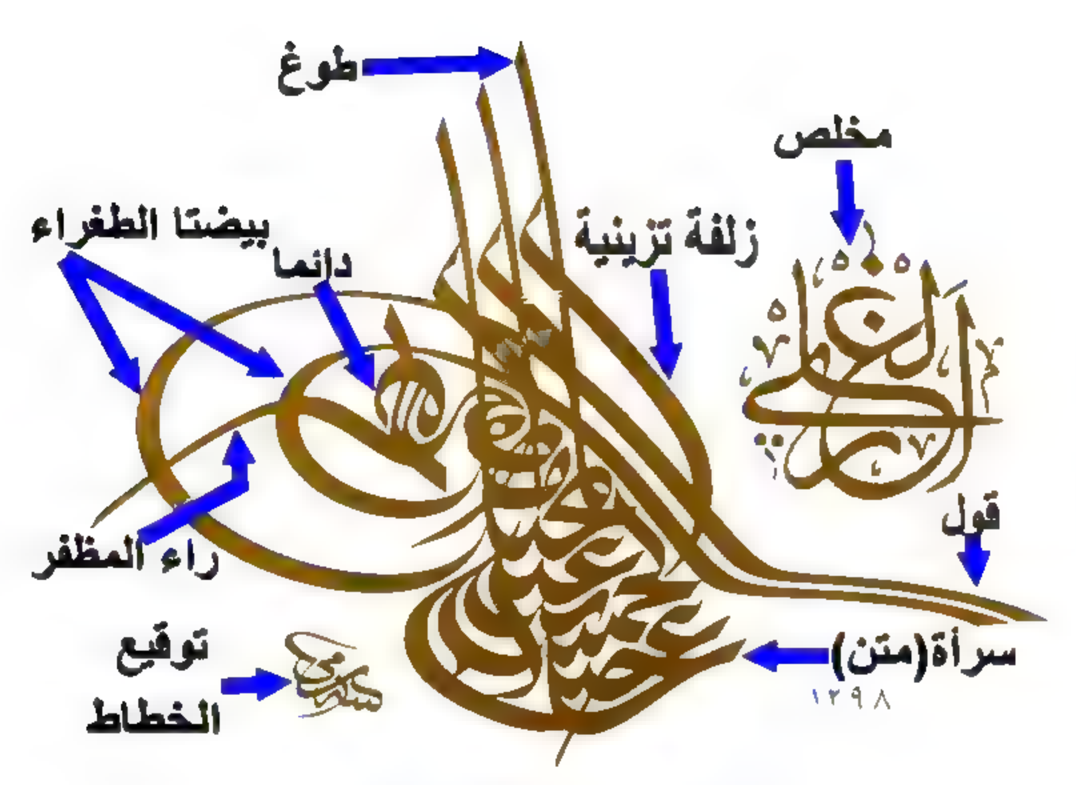
أما في المغرب، فقد انتهى استعمال الطغراء في الوثائق الرسمية بمجرد سقوط الدولة السعدية سنة: 1069هـ/1659م، وذلك لأن استعمالها من طرف الدولة العلوية التي قامت على أنقاضها، كان سيخلد ذكر السعديين ويمجّد ذكراهم، بحكم الدلالة الرمزية التي اكتستها الطغراء السعدية فيما يتعلق بأمر السيادة المتكررة الذكر.

ومجمل القول، إن الطغراء العثمانية وصلت بفعل هذه التعديلات منتهى التجويد الفني؛ حتى أصبحت لها صورة مثالية تعارف عليها الخطاطون، ورغم أنها جُرّدت من عنصر التوريق وخاصة الحشوات الزخرفية التي كانت تملأ فراغاتها في القرنين: 15 و 16 الميلاديين، إلا أنها وصلت منتهاها في التجويد على يد مصطفى راقم الذي اهتم بعنصرها الخطي، لكنه بالمقابل أهمل عناصرها الزخرفية، وللاطلاع على ملامح هذه الصورة النهائية للطغراء العثمانية، نقترح أنموذجا رائقا للخطاط العثماني الشهير: سامي أفندي، أشرنا من خلاله إلى تسميات أجزائها الفنية (انظر شكل: 220).

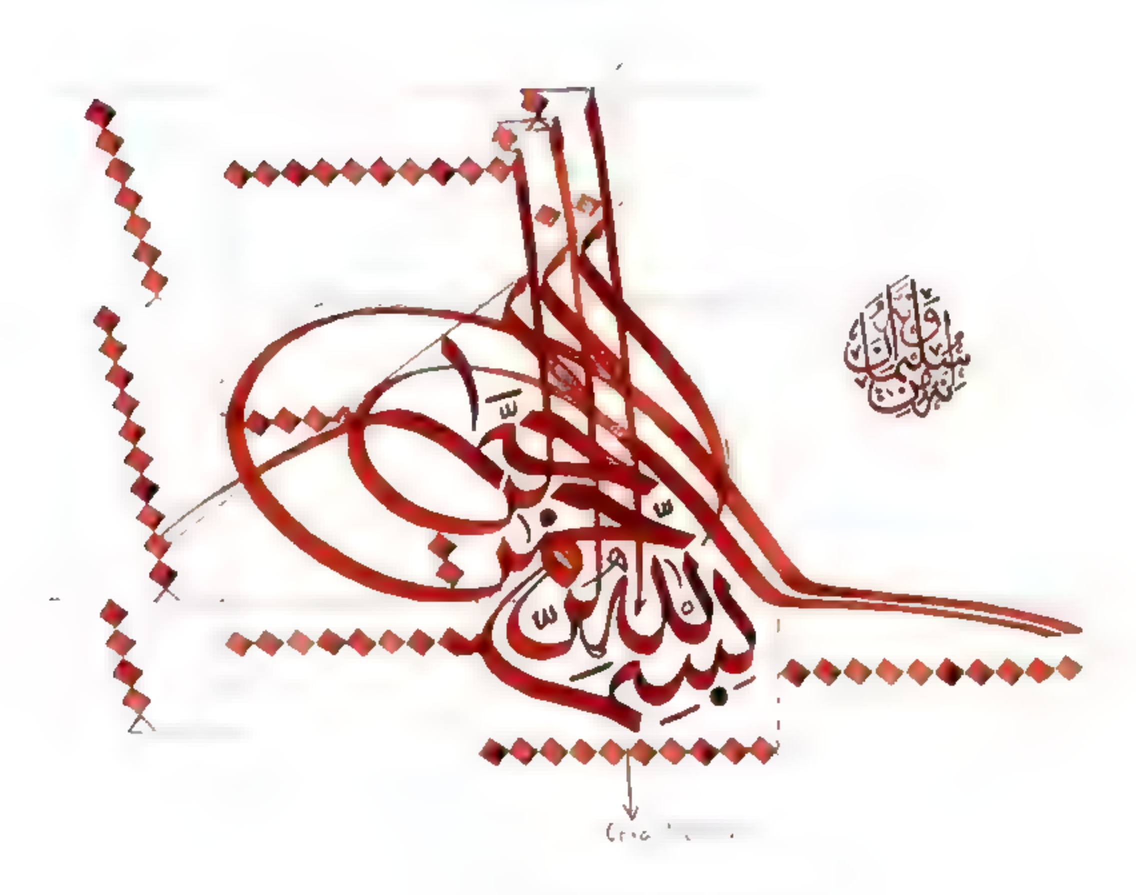
وقد قام أحد الخطاطين المحدثين، بضبطها ضبطا هندسيا، وفق القانون الذي وضعه ابن مقلة، حيث عمد إلى تسقيط حروفها وتقديرها بعدد النقط التي ينبغي مراعاتها في رسم أبعادها وامتداداتها الهندسية والانسيابية، سعيا منه لإيجاد صيغة أو قاعدة رياضية ثابتة تُتّبع في كتابتها (انظر شكل: 221).

وحتى نقف على أسرار المقاربة التاريخية، والمقارنة الفنية، بين الطغراءين: "السعدية" و العثمانية"، حاولت جمع الصور الفنية المتعددة للطغراء العثمانية على شكل استنتاجات تاريخية وفنية ضمّنتها في أشكال وترسيمات فنية تشريحية، وفق نسق رأسي كرونولوجي، يجسد التطورات الفنية التي طرأت على رسمها، كما يجسد كيفية تحولها من شكل يفتقد إلى أبسط مقومات الجمال - في أوائل الدولة العثمانية - إلى شكل رائق بديع في آخرها.

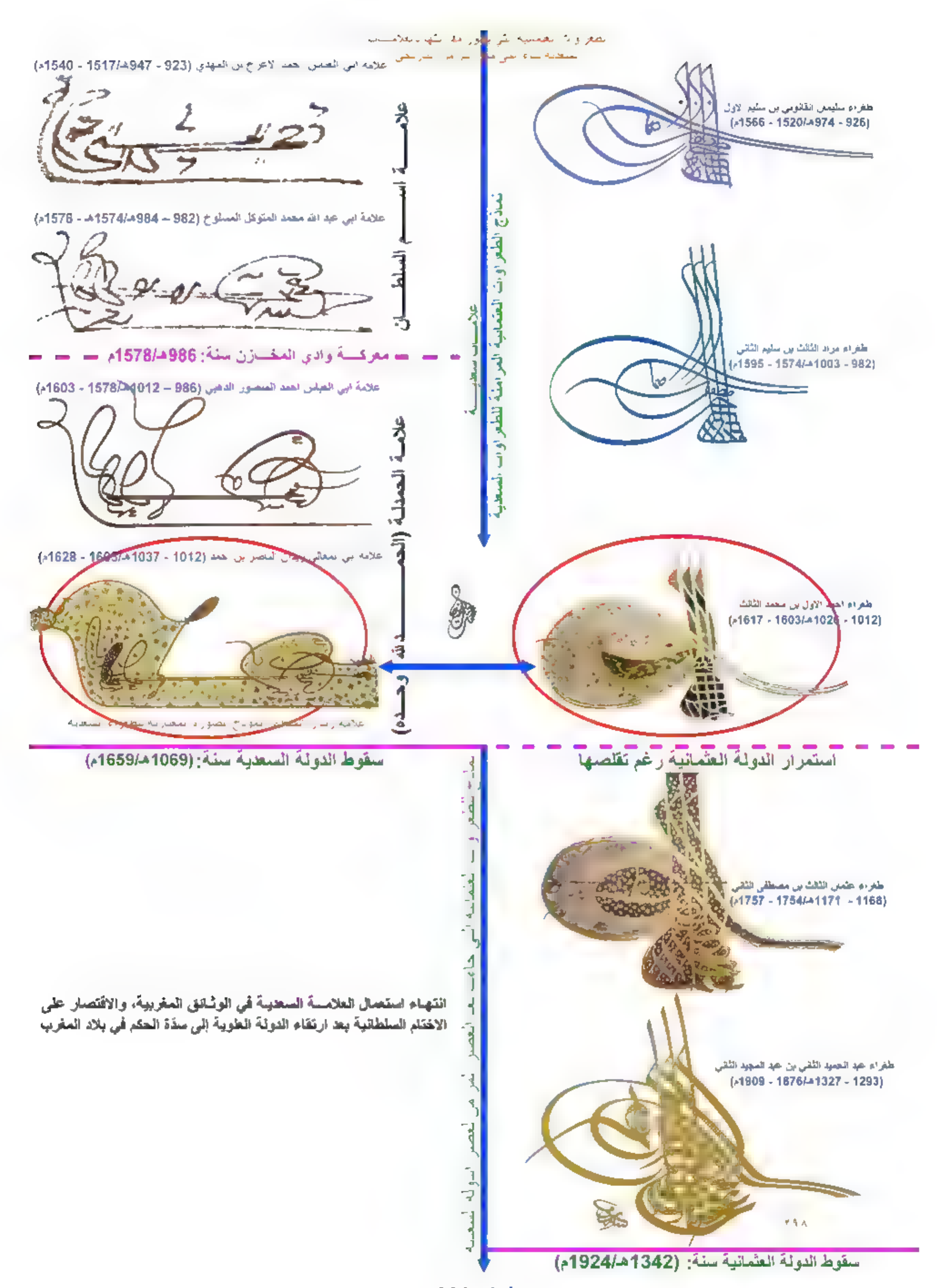
ونشير إلى أننا سنقتصر في هذه المقارنة، على صور الطغراء العثمانية التي تجسد ذلك التطور دون تكرار المتشابه منها، ومن ثم سنحدد الشكل الطغرائي العثماني الذي تجوز مقارنته بالطغراء السعدية، بناء على مبدأ: "التزامن التاريخي". (انظر شكل: 222).



تفصيل الطغراء العثمانية المتطورة
شكل: 220



تسقيط الطغراء العثمانية المتطورة بعدد النقط
شكل: 221



علامة ابي العباس احمد الاعرج بن المهدي (923 - 947هـ/1517 - 1540م)
علامة ابي عبد الله محمد المتوكل المسلوخ (982 – 984هـ/1574 - 1576م)
علامــة الاســم السلطــان
معركــة وادي المخــزن سنة: 986هـ/1578م
علامة ابي العباس احمد المنصور الذهبي (986 – 1012هـ/1578 - 1603م)
علامــة الحمدلة (الحمــد لله وحــده)
علامــات سعديــة
نماذج الطغراوات العثمانية المرافقة للطغراوات السعدية
طغراء سليمان القانوني بن سليم الاول (926 - 974هـ/1520 - 1566م)
طغراء مراد الثالث بن سليم الثاني (982 - 1003هـ/1574 - 1595م)
طغراء احمد الاول بن محمد الثالث (1012 - 1026هـ/1603 - 1617م)
سقوط الدولة السعدية سنة: (1069هـ/1659م)
استمرار الدولة العثمانية رغم تقلصها
طغراء عثمان الثالث بن مصطفى الثاني (1168 - 1171هـ/1754 - 1757م)
انتهاء استعمال العلامــة السعدية في الوثـائق المغربية، والاقتصار على الاختام السلطانية بعد ارتقاء الدولة العلوية إلى سدة الحكم في بلاد المغرب
طغراء عبد الحميد الثاني بن عبد المجيد الثاني (1293 - 1327هـ/1876 - 1909م)
سقوط الدولة العثمانية سنة: (1342هـ/1924م)

شكل: 222



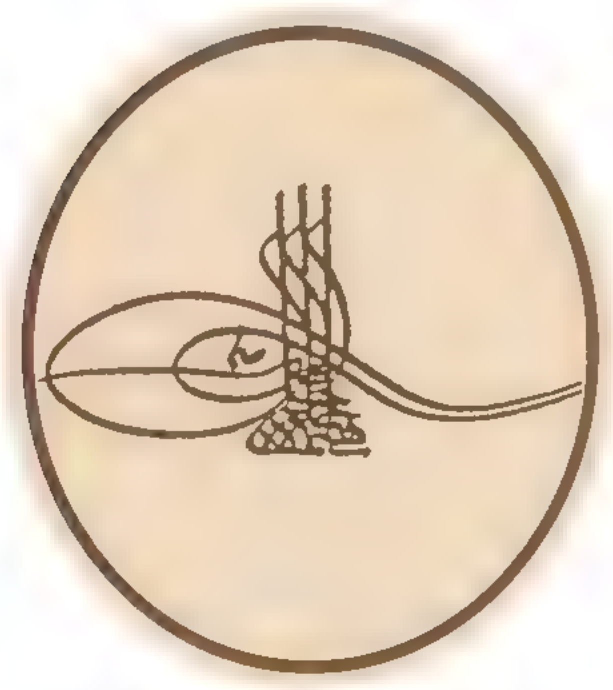
"بورتريه" أيقوني لصورة السلطان السعدي، التي
كتب تحتها اسمه: "محمد ولد مولاي زيدان"



"شعار" السلطان السعدي"محمد الشيخ الأصغر"
على شكل درع، يتوسطه: "رمـز السيادة" المغربية

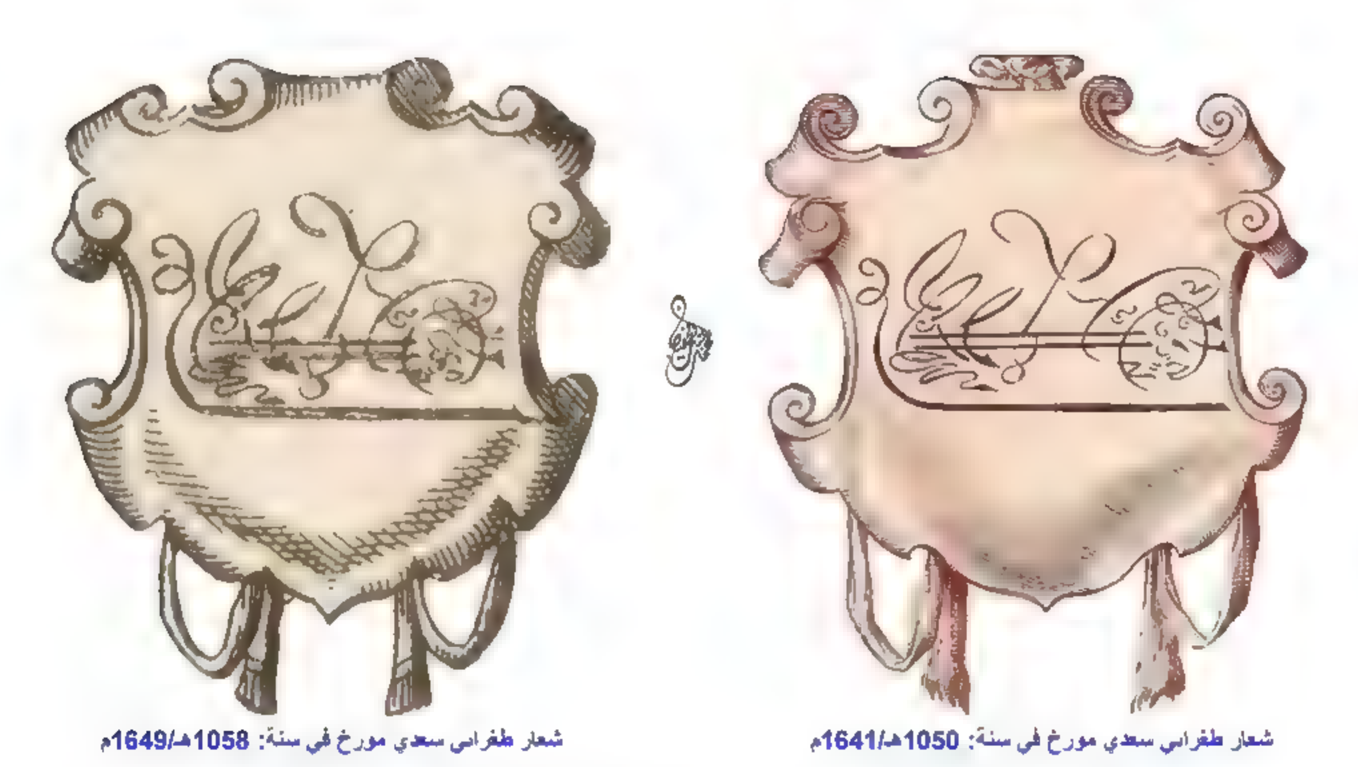


"بورتريه" أيقوني لصورة السلطان العثماني
إبراهيم الأول الملقب بـ: "المجنون"



"شعار" السلطان العثماني "إبراهيم الأول" على
شكل درع، يتوسطه: "رمز السيادة" العثمانية

شكل: **223**



شعار طغرائي سعدي مورخ في سنة: 1058هـ/1649م

شعار طغرائي سعدي مورخ في سنة: 1050هـ/1641م

شعاران طغرانيان سعديان، استخرجناهما من لوحتين مختلفتين لمراكش، أنجزهما الرسام الهولندي أدريان ماثام محاكيا بذلك طغراء السلطان السعدي محمد الشيخ الأصغر



شعاران طغرانيان سعديان، قام المؤلف بتصميمهما من خلال الاعتماد على لوحتي الرسام الهولندي أدريان ماثام، يفترض أن نماذجهما كانت منقوشة على أبواب قصر البديع بمراكش

شكل: 224

الـــــــــــــــــــــــــدرع

"شعار" السلطان السعدي على شكل "درع" مزين بـ "التاج الملكي"
يتوسطه "رمز السيادة" المغربية المتمثل في "الطغراء السعدية"

الدعـــــــــامتـــــــــــان

صور منقوشة على فوهة المدفع تمثل أسدين أطلسيين متقابلين

بعض عناصر السيادة المغربية خلال العصر السعدي، استخرجناها من مدفع يرجع الى عهد أبي المعالي زيدان السعدي (1012 - 1037هـ/1603 - 1628م) محفوظ بـ: "قصر البحر" بمدينة: "اسفي"

الـــــــــــــــــــــــــدرع

"شعار" السلطان السعدي على شكل "درع" مكسو بـ "الوشاح الملكي"
يتوسطه "رمز السيادة" المغربية المتمثل في "الطغراء السعدية"

الدعامتـــــــــان الكتابيتـــــــــان

"اللواءان" يولفان عبارة "Palatium magn Regis Maroci in Barbaria" باللغة اللاتينية
وهو ما معناه "البلاط الأكبر لملك المغرب بإفريقيا"

بعض عناصر السيادة المغربية خلال العصر السعدي، استخرجناها من لوحة تصور مدينة مراكش في سنة: 1050هـ/1641م، للرسام الهولندي: "أدريان ماثام"



شعار المملكة المغربية بين سنتي: 1961 - 1999م
استعمل في الوثائق الرسمية للدولة خلال عهد الحسن الثاني



شعار المملكة المغربية بعد تحديثه سنة: 1999م
يستعمل الآن في الوثائق الرسمية للدولة (عهد محمد السادس)

شكل: 225

لائحة المصادر والمراجع

المصـــادر

المحبي (محمد أمين بن فضل الله)، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، دار صادر، بيروت، د.ت. ج/3.

ابن أبي زرع (علي بن عبد الله الفاسي)، الأنيس المطرب بروض القرطاس، في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والنشر، الرباط، 1972م.

- ابن الآبار (أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي)، التكملة لكتاب الصلة، تحقيق: عبد السلام الهراس، دار الفكر، لبنان، 1995م، ج/4.

- ابن الأحمر (أبو الوليد)، مستودع العلامة ومستبدع العلاّمة، تحقيق: محمد التركي التونسي ومحمد بن تاويت التطواني، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، بمساهمة المركز الجامعي للبحث العلمي، المطبعة المهدية، تطوان، 1964م.

- ابن الجوزي (جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد)، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى: 1992م، ج/17.

- ابن الخطيب (لسان الدين محمد بن عبد الله بن سعيد السلماني)، الإحاطة في أخبار غرناطة، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى: 2003م، ج/3.

- ابن العديم (عمر بن أحمد بن هبة الله)، بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق: د. سهيل زكار، دار الفكر، د.ت، ج/4.

- ابن القاضي (أبو العباس أحمد بن محمد المكناسي):

+ المنتقى المقصور على مآثر الخليفة المنصور، دراسة وتحقيق: محمد رزوق، مكتبة المعارف، الرباط، 1986م.

+ جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام بمدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1973م.

+ درة الحجال في أسماء الرجال، تحقيق: محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث، القاهرة، المكتبة العتيقة، تونس، الطبعة الأولى: 1971م.

- ابن النديم (محمد بن إسحاق البغدادي)، الفهرست، تحقيق: إبراهيم رمضان، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية:1997م.

- ابن الوردي (زين الدين عمر بن مظفر)، التاريخ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأول: 1996م.

- ابن بشكوال (أبو القاسم خلف بن عبد الملك)، الصلة في تاريخ أئمة الأندلس، عني بنشره وصححه وراجع أصله: السيد عزت العطار الحسيني، مكتبة الخانجي، الطبعة الثانية، 1955م.

ابن بطوطة (محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي)، رحلة ابن بطوطة المسماة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق: عبد الهادي التازي، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، سلسلة التراث، الرباط ، 1997م، ج/3.

- ابن خلدون (عبد الرحمن):

+ المقدمة، تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية: 1988م.

+ "كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر"، تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية: 1988م، ج/3.

+ رحلة ابن خلدون، أو مايسمى بـ "التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا"، عارضها بأصولها وعلق على حواشيها: محمد بن تاويت الطَّنجي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة: الأولى: 2004م.

- ابن مرزوق (محمد)، المسند الصحيح الحسن، في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، تحقيق: ماريا بيغيرا، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م.

- ابن منظور (أبو الفضل أحمد بن مكرم الأنصاري الإفريقي) لسان العرب، دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة: 1993م، ج/4.

- أبو داود (سليمان بن الأشعث بن إسحاق السِّجِسْتاني)، سنن أبي داود، تحقيق: شعَيب الأرنؤوط - محَمَّد كامل قره بللي، دار الرسالة العالمية، الطبعة الأولى: 2009م، الحديث رقم: 4302. ج/6.

- أبو شامة (أبو القاسم شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي الدمشقي)، عيون الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق: إبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى:1997م.

- الأثاري (شعبان بن محمد)، العناية الربانية في الطريقة الشعبانية، تحقيق: هلال ناجي، مجلة المورد، المجلد الثامن، العدد الثاني، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1979م.

- الأصبهاني (أبو الفرج علي بن الحسين المرواني الأموي)، الأغاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى: 1994م، ج/21.

- الأصبهاني (عماد الدين أبو عبد الله محمد)، تاريخ دولة آل سلجوق المسمى. "نصرة الفترة وعصرة القطرة في أخبار الدولة السلجوقية"، قرأه وقدم له: يحيى مراد، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى: 2004م.

- الأنسي (محمد علي)، قاموس اللغة العثمانية: الدراري اللامعات في منتخبات اللغات، يحتوى على الكلمات التركية والألفاظ الفارسية والإفرنجية المتداولة فى اللغة العثمانية، طبعة: 1902م

- البخاري (أبو عبدالله محمد بن إسماعيل)، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، الطبعة الأولى: 2001م، كتاب العلم، حديث رقم: 65، ج/1.

البكري (أبو عبيد)، "كتاب المغرب في حلى إفريقية والمغرب"، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د.ت.

التمكروتي (علي بن محمد)، النفحة المسكية في السفارة التركية، تحقيق: عبد اللطيف الشاذلي، المطبعة الملكية، الرباط، 2002م.

- الذهبي (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد):

+ سير أعلام النبلاء، دار الحديث، القاهرة، طبعة: 2006م، ج/13.

+ العبر في خبر من غبر، تحقيق د. صلاح الدين المنجد، مطبعة حكومة الكويت، 1984م.

+ تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى: 1987م.

- الزركلي (خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس الدمشقي)، الأعلام، دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة عشر، ماي: 2002م، ج/2.

- السبكي (تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين)، طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق: د. محمود محمد الطناحي - د. عبد الفتاح محمد الحلو، هجر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية: 1992م، ج/4.

- الصفدي (صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله)، الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، طبعة: 2000م، ج/12.

- الطيبي (محمد بن حسن)، جامع محاسن كتابة الكتاب ونزهة أولي البصائر والألباب، نشر و تقديم: صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، بيروت، 1962م.

- العباسي (عبد الرحيم بن عبد الرحمن)، منح رب البرية في فتح رودس الأبية، تحقيق: فيصل عبد الله الكندري، حوليات كلية الآداب، الكويت، الحولية: 18، الرسالة: 122، 1997 - 1998م.

- العمري (أحمد بن يحيى بن فضل الله القرشي العدوي)، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، المجمع الثقافي، أبو ظبي، الطبعة الأولى: 2002م.

- الفشتالي (أبو فارس عبد العزيز)، مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا، تحقيق. عبد الكريم كريم، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، د. ت.

- الفيروزآبادي (مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب)، القاموس المحيط، تحقيق مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة تحت إشراف: محمد نعيم العرقسُوسي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، الطبعة الثامنة: 2005م.

- القلقشندي (أحمد بن علي)، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، تحقيق: يوسف علي طويل، نشر دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى: 1987م، ج/7.

- القللوسي (أبو بكر محمد بن القضاعي)، تحف الخواص في طرف الخواص، في صنعة الأمدة والأصباغ والأدهان، تحقيق: الدكتور حسام أحمد مختار العبادي، نشر: مكتبة الإسكندرية، طبعة: 2007م.

- الكاشغري (محمود بن الحسين بن محمد)، ديوان لغات الترك، دار الخلافة العلية، مطبعة عامره، 1914م، ج/1.

- الكراسي (أبو عبد الله محمد)، عروسة المسائل فيما لبني وطاس من الفضائل، المطبعة الملكية، الرباط، 1963م.

المراكشي (عبد الواحد بن علي)، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، دراسة وتحقيق: الدكتور صلاح الدين الهواري، نشر: المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الأولى: 2006م.

المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، (إبراهيم مصطفى أحمد الزيات حامد عبد القادر محمد النجار)، دار الدعوة، د.ت، ج/2.

- المقري (أحمد بن محمد):

+ أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، تحقيق: مصطفى السقا و إبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، منشورات المعهد الخليفي للأبحاث المغربية (بيت المغرب)، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ج/3، طبعة: 1942م.

+ روضة الآس العاطرة الأنفاس، في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين: مراكش وفاس، المطبعة الملكية، الرباط، الطبعة الثانية: 1983م.

+ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر- بيروت، الطبعة الأولى: 1997م.

- المقريزي (أحمد بن علي بن عبد القادر):

+ السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى: 1997م، ج/1.

+ المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997م، ج/3.

- الناصري (أبو العباس أحمد بن خالد)، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق ولدي المؤلف: جعفر الناصري و محمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1997م.

- النميري (ابن الحاج)، فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسطنينة والزاب، دراسة وإعداد: محمد بن شقرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى: 1990م.

- النويري (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب)، نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، الطبعة الأولى: 2002م، ج/26

- الوزان (الحسن بن محمد الفاسي) المعروف بليون الافريقي، وصف إفريقيا، ترجمة. محمد حجي - محمد الأخضر، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية: 1983م، ج/1.

- اليفرني (محمد الصغير بن الحاج)، نزهة الحادي، بأخبار ملوك القرن الحادي، علق عليه وصححه: المحقق هوداس، مطبعة: بردان وشركاؤه، نشر: إرنست لورو، مكتبة مدرسة اللغات الشرقية الحية، باريس، طبعة: 1888م.

دي صالدينا (أنطونيو)، أخبار أحمد المنصور سلطان المغرب، تقديم وترجمة وتحقيق: إبراهيم بوطالب، عثمان المنصوري، ولطفي بوشنتوف، إعداد النص الأصلي: أنطونيو دياش فارينا، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، 2011م.

دي طوريس (دييكو)، تاريخ الشرفاء، ترجمة: د محمد حجي د.محمد الاخضر، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، 1988م.

كنون (عبد الله)، رسائل سعدية، نشر معهد مولاي الحسن دار الطباعة المغربية، تطوان، 1954م.

كربخال (مارمول)، كتاب إفريقيا، ترجمة: محمد حجي، محمد زنيبر، وآخرون، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط : 1984م.

- كور (أوغست)، دولة بني وطاس (1420 - 1554)، ترجمة: محمد فتحة، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى: 2010م.

- مجهول، تاريخ الدولة السعدية التكمدارتية، تحقيق: عبد الرحيم بنحادة، دار تينمل للطباعة والنشر، مراكش، الطبعة الأولى: 1994م.

- مذكرات خير الدين بربروس، ترجمة: د.محمد دراج، شركة الأصالة للنشر والتوزيع، الجزائر العاصمة، الطبعة الأولى: 2010م.

- مرتضى الزّبيدي (أبو الفيض محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني)، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية، د.ت، ج/12.

- مسلم (أبو الحسن القشيري النيسابوري)، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت، كتاب اللِّبَاسِ وَالزِّينَةِ، حديث رقم: 56، ج/3.

- ياقوت الحموي (شهاب الدين أبو عبد الله بن عبد الله الرومي)، معجم الأدباء؛ المسمّى: "**إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب**"، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى: 1993م، ج/3.

- يوسف بن تغري بردي (أبو المحاسن جمال الدين الظاهري الحنفي):

+ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، مصر.د.ت. ج/14.

+ مورد اللطافة في من ولي السلطنة والخلافة، تحقيق: نبيل محمد عبد العزيز أحمد، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب المصرية، القاهرة.د.ت. ج/2.

ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، طبعة: 1900م، ج/2.

المراجــــــع

- الدولة العثمانية. تاريخ وحضارة، مجموعة من الأساتذة الجامعيين تحت إشراف: أكمل الدين إحسان أوغلي، نقله إلى العربية: صالح سعداوي، منظمة المؤتمر الإسلامي. مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية باستانبول (إرسيكا)، الطبعة الثانية: 2010م.

- القطوري (أحمد الصفصافي):

+ الوثائق العثمانية، القاهرة ، الطبعة الثانية: 2011م.

+إطلالة على ثقافة الترك وحضارتهم القديمة، القاهرة ، الطبعة الأولى: 2006م.

دائرة المعارف الإسلامية. انتشارات جهان، طهران، الطبعة الأولى: 1933م، ج/15.

أفا (عمر) والمغراوي (محمد)، "الخط المغربي، تاريخ وواقع"، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2007م.

- الألوسي (سالم)، الدبلوماتيك أو دراسة الوثائق ونقدها، بغداد، دار الحرية للطباعة، مطبعة الجمهورية: 1974م.

- التازي (عبد الهادي):

+ التاريخ الدبلوماسي للمغرب من أقدم العصور إلى اليوم، مطابع فضالة، المحمدية، 1987م.

+ الرموز السرية في المراسلات المغربية عبر التاريخ، منشورات المعهد الجامعي للبحث العلمي، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1983م.

+ الوسيط في التاريخ الدولي للمغرب، دار نشر المعرفة، الرباط، الطبعة الأولى: 2001م، ج/2.

- الصلابي (علي محمد) الدولة العُثمانية - عَوَامل النهُوض وأسباب السُقوط، دار التوزيع والنشر الإسلامية، مصر، الطبعة الأولى: 2001م.

- العروي (عبد الله)، مجمل تاريخ المغرب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، 1999م، ج/3.

- المصرف (ناجي زين الدين):

+ بدائع الخط العربي، راجعه. عبد الرزاق عبد الواحد، وزارة الإعلام، مديرية الثقافة العامة، بغداد، 1972م.

+ مصور الخط العربي، مطبوعات المجمع العلمي العراقي ببغداد، 1968م.

- المنوني (محمد)، ورقات عن حضارة المرينيين، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الثانية: 1996م.

- المودودي (أبو الأعلى)، تدوين الدستور الإسلامي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الخامسة، 1981م.

- أمين (حسين)، تاريخ العراق في العصر السلجوقي، منشورات المكتبة الأهلية، مطبعة الإرشاد، 1965م

- اوزتونا (يلماز)، تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة: عدنان محمود سلمان، مراجعة وتنقيح: محمود الأنصاري، مؤسسة فيصل للتمويل، تركيا، 1988م.

- بركات (مصطفى)، الألقاب والوظائف العثمانية، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، طبعة: 2000م.

بنبين (أحمد شوقي)، طوبي (مصطفى)، معجم مصطلحات المخطوط العربي: قاموس كوديكولوجي، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، الطبعة الأولى: 2003م.

- بنحادة (عبد الرحيم) والمودن (عبد الرحمن)، العثمانيون في المغارب من خلال الأرشيفات المحلية والمتوسطية، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، مطبعة الأمنية، الطبعة الأولى: 2005م،

بنحادة (عبد الرحيم)، المغرب والباب العالي من منتصف القرن السادس إلى أواخر القرن الثامن عشر، أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في التاريخ الحديث، تحت إشراف: الدكتور محمد مزين، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، ظهر المهراز ، فاس، 1995 - 1996م.

- بنعلة (مصطفى)، تاريخ الأوقاف الاسلامية بالمغرب في عصر السعديين، من خلال حوالات تارودانت وفاس، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - المملكة المغربية، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط ، الطبعة الأولى: 2007م، ج/1.

- بهنسي (عفيف)، معجم مصطلحات الخط العربي والخطاطين، مكتبة لبنان ناشرون، طبعة: 1995م.

- بيليس (جون)، سميث (ستيف)، عولمة السياسة العالمية، ترجمة: مركز الخليج للأبحاث، دبي، الإمارات العربية المتحدة، الطبعة الأولى: 2004م.

- تبريزي (محمد نقشي)، أنواع خطوط خوشنويسان معروف إيران. دوره2، ش21 (تير43).

- جلال (أمين صالح)، الخط الريحاني ويسمى خط الإجازة، الطائف، المملكة العربية السعودية، 2005م.

- حركات (ابراهيم)، السياسة والمجتمع في العصر السعدي، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، طبعة: 1987م.

- حنش (إدهام محمد)، الخط العربي في الوثائق العثمانية، دار المناهج، عمان، الأردن، الطبعة الأولى: 1998م.

- خبطة (محمد عبد الحفيظ)، المصاحف والكتب المخطوطة في المغرب خلال العصرين المريني والسعدي. مساهمة في دراسة أصناف الخط المغربي وأقلامه، أطروحة لنيل الدكتوراه، كلية الآداب - سايس. فاس 2010 - 2011م.

- دهمان (محمد أحمد)، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان- دار الفكر، دمشق، سوريا، الطبعة الأولى: 1990م.

- دوسون (رادجة)، نظم الحكم والإدارة في الدولة العثمانية في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، ترجمة: فيصل شيخ الأرض، الجامعة الأمريكية، بيروت، 1942م.

- رضائي (أميد)، طغراهاي باثبات ترين صدر دوره ي صفوي، مطالعات تاريخ إسلام، سال دوم/شماره ي7. زمستان 1969م.

- سام (علي)، مطالعات تاريخ فرهنگي، پژوهش نامه ي انجمن ايراني تاريخ سال دوم، شماره ی 8 هشتم، 1970م.

- ستودارد (لوثروب)، حاضر العالم الإسلامي، نقله إلى اللغة العربية: عجاج نويهض، حققه: الأمير شكيب أرسلان، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثالثة: 1971م، ج/3.

- شفالييه (جان جاك)، تاريخ الفكر السياسي من المدينة الدولة إلى الدولة القومية، ترجمة: محمد عرب صاصيلا، الكتاب الثاني، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الثانية، 1993م.

شوحان (أحمد)، رحلة الخط العربي من المسند إلى الحديث، من منشورات اتحاد الكتاب العرب دمشق،2001م.

صابان (سهيل)، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، مراجعة: عبد الرزاق محمد حسن بركات، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية، السلسلة الثالثة (43)، الرياض، 2000م.

- ضمرة (إبراهيم)، الخط العربي. جذوره وتطوره، مكتبة المنار، الزرقاء - الأردن، الطبعة الثانية: 1987م.

- عبادة (عبد الفتاح)، انتشار الخط العربي في العالم الشرقي والعالم الغربي، المطبعة الهندية بمصر، 1915م.

- عزت (محمد)، خطوط عثمانية، طبعة حجرية، شركة خير به صحافيه: 1300هـ/1882م.

- عوني (موسى الحاج)، فن المنقوشات الكتابية في الغرب الإسلامي، مؤسسة الملك عبد العزيز، الدار البيضاء، منشورات عكاظ 2010م.

- فتحي (عبد الكريم)، الدولة والسيادة في الفقه الاسلامي. دراسة مقارنة، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الثانية، 1984م.

- فريد بك (محمد بن أحمد فريد باشا)، تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق: إحسان حقي، دار النفائس، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى: 1981م.

- فضائلي (حبيب الله)، أطلس الخط والخطوط، ترجمة: محمد التونجي، مكتبة دار طلاس، دمشق، الطبعة الثانية: 2002م.

- قائم مقامي (جهانگير):

+ توقيع و طغرا و تطور آنها در تداول ديواني، مركز تحقيقات، د.ت.

+ مهرها ، طغراها و توقيع هاي پادشاهان إيران، ازايلخنيان، تا پايان، قاجاريه.

- ناجي (هلال)، ابن مقلة خطاطا و أديبا و إنسانا (مع تحقيق رسالته في الخط و القلم)، منشورات دار الشؤون الثقافية العامة - الطبعة الأولى بغداد 1991م، ص: 20 - 21.

- هاشم (محمد)، قواعد الخط العربي. مجموعة خطية لأنواع الخطوط العربية، مكتبة النهضة، بغداد - دار القلم، بيروت، الطبعة المزيدة: 1980م.

- هوداس (أوكتاف)، محاولة في الخط المغربي، ترجمة: عبد المجيد التركي، قضايا ثقافية من تاريخ الغرب الإسلامي، (نصوص ودراسات)، دار الغرب الإسلامي، 1988م، صص: 443 - 478.

- و. بارتولد، تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ترجمة: أحمد السعيد سليمان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1996م.

المقالات والنشرات

"المغارب والبحر الأبيض المتوسط الغربي في العصر العثماني"، نشرة "المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب" (l'IRRHM)، العدد الثالث، صفر1432هـ/يناير2011م، صص: 6 - 18

إبراهيم (عز الدين)، الدراسات المتعلقة برسائل النبي صلى الله عليه وسلم إلى ملوك عصره، نشر هذا المقال في كتاب: صناعة المخطوط العربي الإسلامي من الترميم إلى التجليد، الدورة التدريبية الدولية الثامنة، دبي، الإمارات العربية، 1999م، بتنسيق بين: جامعة الإمارات العربية المتحدة، مركز جمعة الماجد بالإمارات، ومنظمة الإسيسكو بالرباط، الطبعة الأولى: 2001م.

أرسلان (علي آلب)، الخط العربي عند الأتراك، ترجمة: سهيل صابان، مجلة الدارة، العدد الأول، السنة الثالثة والثلاثون، 2007م.

- الأرناؤوط (محمد)، وثائق عثمانية جديدة: هل كان المغرب تابعاً لاستانبول؟ صحيفة الحياة، العدد: 17032، السبت21 نونبر 2009م، ص: 25.

- الجريدة الرسمية العُمانية، العدد: 928، مرسوم سلطاني رقم:2011/7.

- الدهاس (سندس)، مصطلحات الدبلوماتيك. علم دراسة الوثائق ونقدها، مجلة الموروث، العدد الرابع والسبعون - أبريل 2014م.

- الشاذلي (عبد اللطيف)، مسألة الانتماء من خلال رحلة التمكروتي إلى القسطنطينية سنة: 1590م، مقالة بأعمال ندوة نونبر 2003م تحت عنوان: (الرحالة العرب والمسلمون اكتشاف الآخر المغرب منطلقا وموئلا)، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، وزارة الثقافة، الطبعة الأولى: 2003م.

- الطبايلي (عبد الحفيظ)، الولايات المغاربية في الأرشيف العثماني. قراءة في بنية الوثيقة العثمانية. دراسة وردت في كتاب: العثمانيون في المغارب من خلال الأرشيفات المحلية والمتوسطية، تنسيق: عبد الرحمن المودن - عبد الرحيم بنحادة، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، مطبعة الأمنية، الطبعة الأولى: 2005م، صص: 35 - 71.

- المعايرجي (حسن عبد المجيد)، الطغراء قمة الجمال في الخط العربي، مجلة الدوحة، عدد. 123، مارس 1986م، صص: 116 - 119

- بنحادة (عبد الرحيم):

+ الدخول التركي إلى مدينة فاس بين الوثائق الإسبانية، والوثائق العثمانية، 1554 - 1576. قراءة في الاختلاف والتكامل. دراسة وردت في كتاب: العثمانيون في المغارب من خلال الأرشيفات المحلية والمتوسطية، تنسيق: عبد الرحمن المودن - عبد الرحيم بنحادة، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، مطبعة الأمنية، الطبعة الأولى: 2005م، صص: 11 - 34.

+ وقفات في تاريخ المغرب - دراسات مهداة للأستاذ إبراهيم بوطالب، تنسيق: عبد المجيد القدوري، كلية الآداب والعلوم الانسانية بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء، الطبعة الأولى 2001م.

بنشريفة (محمد)، نظرة حول الخط الأندلسي، نشر في كتاب: المخطوط العربي، وعلم المخطوطات، تنسيق أحمد شوقي بنبين، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، مطبعة فضالة، المحمدية، الطبعة الأولى: 1994م.

حميد (مها سعيد)، وزير الموصل مؤيد الدين الطغرائي - دراسة في سيرته ونشاطه العلمي مركز دراسات الموصل، مجلة التربية والعلم، المجلد: 19، العدد: 5، سنة: 2012م.

- دولة اليعاربة، وزارة الخارجية العمانية: 2010م، النسخة الإلكترونية.

- ذنون (يوسف)، قديم وجديد في أصل الخط العربي وتطوره في عصوره المختلفة، مجلة المورد، من إصدار دار الشؤون الثقافية، بغداد، عدد : 1986م.

- سكيرج (عبد الكريم)، الخط العربي المغربي، مجلة الثقافة المغربية، العدد الثاني، شتنبر 1941م، صص: 67 . 72، نقلا عن المنوني، الوراقة المغربية، ملحق، صص: 320 . 325.

- عامر (محمود)، المصطلحات المتداولة في الدولة العثمانية، قسم التاريخ، جامعة دمشق، مجلة دراسات تاريخية - العددان: 117- 118، يناير - يونيو، 2012م.

- عبد المنعم (محمد نور الدين)، مصطلح التوقيع بين الخط والإدارة والمذهب عند الإيرانيين، جريدة الأهرام الرقمي، العدد: 1، يوليوز 2011م.

- منصف (يوسف)، هل خضع المغرب لنفوذ الإمبراطورية العثمانية؟ يومية المساء، عدد: 2353، 20، أبريل، 2014م.

المراجع بالأجنبية:

- Devonshire, R.L, « Relation d'un voyage du sultan Qaitbay en Palestine et en Syrie », in BIFAO XX, 1922.

- Fernand Braudel, La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II, seconde édition revue et augmentée, Paris, Librairie Armand Colin, 1966 , 2 vol. vol. II.

- Henry de Castries, Les sources inédites de l'histoire du Maroc de 1530 à 1845, Dynastie Saadienne:

+ Archives et bibliothèque d' angleterre, E. Leroux (Paris)s, Paul Geuthner, 1925.

+ Archives et bibliothèques de France. E. Leroux (Paris), Paul Geuthner, 1905-1926.

+ Archives et bibliothèques de Portugal. publiées par Pierre de Cenival. E. Leroux (Paris), Paul Geuthner, 1934.

+ Archives et. Bibliothèques d'Espagne . Par. Robert Ricard et. Chantal de La Véronne. E. Leroux (Paris), Paul Geuthner,1956.

+ Archives et bibliothèques des Pays-Bas, E. Leroux (Paris), Paul Geuthner, 1923.

- Sultans – Osmanische Herrscher. Osmanli Padisahlari. Ottoman -Portreleri biyografileri tugralariyla. Tarih ve Medeniyet. P.P. 8 - 78

المقالات بالأجنبية

- Balagna Josée. Deux lettres inédites du Sultan sa'adien Mûlay Abdallah ibn Muh'ammad al-Chaykh (1023 H/1614). In: Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée, N°10, 1971. PP. 19 - 25

- Deverdun Gaston, Dahir sa 'dîde de renouvellement (1632) (Respect des coutumes et exonération d'impôt). In: Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée, N°13 -14, 1973. Mélanges Le Tourneau. I. pp. 313 - 317.

- Georges Colin. Note sur le système cryptographique du Sultan Ahmad al- Mansûr, hesperis, Tome: VII. 1927 .2ème Semestre. pp. 221- 228.

- Henry de Castries, “Les signes de validation des chérifs saadiens”, Hespéris, Rabat, 1921,TOM. I, fasc. 3. p.p. 231- 252

- N. van den Boogert, 'Some notes on Maghribi script', in Manuscripts of the Middle East, vol. 4, Leiden, 1989, pp. 30-43

-14, 1973. Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée, N°13 317. - Mélanges Le Tourneau. I. pp. 313



طبع هذا الكتاب بدعم من الأستاذة المربية الفاضلة
أمينة الأنصاري حفظها الله وجعله في ميزان حسناتها



محمد عبد الحفيظ خبطة الحسني

ولـــد بمدينـة فـــاس سنـــة: 1976

حاصل على الدكتوراه في شعبة التاريخ (2010 - 2011)

في موضوع:

"المصاحف والكتب المخطوطة في المغرب خلال العصرين:

المريني والسعدي. مساهمة في دراسة أصناف الخط المغربي وأقلامه"

جامعة سيدي محمد بن عبد الله

كلية الآداب والعلوم الإنسانية. سايس - فاس

هذا الكتاب

بعد تحريرهم للثغور المغربية التي سقطت خلال العصر الوطاسي في أيدي الإيبيريين، نجح السعديون في تأسيس دولة مغربية قوية، استطاعت إلى - حد ما - الوقوف أمام تغلغل حركة "**الاكتشافات الجغرافية**" ذات الأهداف الاستعمارية، والتي نظمها الإيبيريون لتقسيم العالم بين إسبانيا والبرتغال خلال مستهل العصر الحديث، ولا شك أن انتصار السعديين على البرتغاليين في معركة وادي المخازن الشهيرة، أعطى انطباعا صريحا بقوة المغرب واستماتته في تحصين ثغـوره أمام سائر القوى العسكرية في "**البحر الأبيض المتوسط**"، بما في ذلك الإمبراطورية العثمانية التي كانت تروم بسط نفوذها على المغرب، للحصول على منفذ استراتيجي على "**المحيط الأطلسي**"، لكن حضور السعديين عسكريا ودبلوماسيا، حال بين العثمانيين وبين تحقيقهم لهذا المطلب المُلِح.

من خلال هذه القناعة بالذات، أبى السعديون إلا أن يرسموا "**طغراواتهم**" و"**أختامهم**" و"**توقيعاتهم**" الرسمية، بشكل مستقل - من حيث الصورة الفنية والدلالة النصية - عن الطغراء العثمانية، كتعبير ضمني عن ذلك الاستقلال الذي يرمز إلى "**سيادة**" دولتهم، وقوة سلطتها المركزية، خاصة وأن الطغراء كانت تعتبر آنئذ ذلك التوقيع الرسمي للدولة، وتلك الشارة أو العلامة المميّزة، التي تُستفتح بها الرسائل والمكاتبات الرسمية بين السلاطين، فهي "**رمز السيادة**"؛ بحكم احتواء تلك الرسائل أو المكاتبات المفتتحة بها لقرارات السلطان، ومواقفه تجاه القوى السياسية الأخرى المزامنة لفترة حكمه، وذلك في إطار ما يمكن تسميته: "**بالعلاقات الدبلوماسية**"، أما نقشها على المدافع فلا يعبر عن مفهوم "**السيادة**" فحسب، بل يتعداه ليعبر عن مفهوم "**التغلب**"، أو - على الأقل - الظهور بمظهر القوة والمنعة، بينما يعبر نقشها على النقود عن استقرار الدولة وقوتها الاقتصادية.

وعموما فكتابنا المتواضع هذا، هو أول كتاب تناول "**الطغراء السعدية - المغربية**" تعريفا وتأصيلا وتشريحا بل وحتى مقارنة، كما أنه الأول في مقارنتها "**بالطغراء العثمانية - المشرقية**" المزامنة لها، وذلك حتى يتعرف عليها المشارقة، وإن كان معظم المغاربة من الخطاطين والباحثين لايعرفونها أصلا، وبقدر ما أردنا أن نجعل من هذا الكتاب مرجعا يرجع إليه "**الباحثون**" و"**المؤرخون**" في وثائق الدولة وتوقيعاتها وأختامها من حيث الجانب العلمي - التحليلي، بقدر ما أردنا أن نجعل منه كتابا أو بالأحرى كراسة يستعين بها "**الخطاطون**" المبدعون في تطوير هذا الشكل من حيث الجانب التعليمي - المهاري، فهو إذن دراسة تاريخية - فنية. وكراسة علمية - تعليمية.



خاتم طغرائي للسلطان السعدي محمد الشيخ الأصغر بن زيدان (1046 - 1064هـ/1636 - 1654م)